

الكشاف الز مخشري

[to pdf: http://www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)

الجزء الأول

مقدمة التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مُفتتحاً وبلاستعانة محتتماً، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً، وفصله سوراً وسوره آيات. وميز بينهما بفصول وغايات. وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع، وسمات منشى مخترع فسبحان من استأثر بالأولية والقدم، ووسم كل شيء سواء بالحدوث عن العدم أنشأه كتاباً ساطعاً تبياناً. قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً بينات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط في المضادة والمضارة، والقائهم الشراشر على المعازة والمعاراة ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل يرومونه الشطط، إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر، وقد جرد لهم الحجة أولاً، والسيف آخراً، فلم يعارضوا إلا السيف القاضب مخراق لآعب إن لم تمض الحجة حدة، فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطم على الكواكب، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب.

والصلاة والسلام على خير من أوحى إليه حبيب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ذي اللواء المرفوع في بني لؤي. وذو الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي، المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشاخذ الغزة الواضح التحجيل، النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأختان والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم ان متن كل علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدم الصناع الصناع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عد ألف بواحد ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم

وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماء عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمن عليهم بجز نواصيهم واطلاقهم.

ثم إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح، وأهضها بما يبهز الألباب القوارح، من غرائب نكت يلفظ مسلكتها، ومستودعات أسرار يدق سلكتها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما أونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورجع إليه، ورد عليه فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس دراكاً للمحة وإن لطف شأنها، متنبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كزاجاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريبض بتلقيح بنات الفكرة، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضائقه، ووقع في مداحضه ومزالقه.

ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حائق التزليل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علي واجبة، لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثالة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأملت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيول والأذنان، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هفا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه، فلما صُمم العزم على معاودة جوار الله والإنابة بحرم الله فتوجهت لتلقاء مكة، وجدت في مجنازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها وقليل ما هم عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى. متطلعين إلى إيناسه، حراساً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفى وحرك الساكن من نشاطي، فلما حطت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس، أدام الله مجده، وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجوم مناقبهم أعطش الناس كبداً وألهبهم حشى وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبيتي عن الحجاز مع تراحم ما هو فيه

من المشادة بقطع الفيافي وطى المهامة والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض فقلت قد ضاقت على المستعفى الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سميتها العرب دقاقة الرقاب. فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان الكثير من الفوائد والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدده ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم، أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني، ونوراً لي على الصراط يسعني بين يدي ويميني، ونعم المسؤول.

سورة فاتحة الكتاب

مكية. وقيل: مكية ومدنية

لأنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة أخرى

وتسمى أم القرآن لاشتغالها على المعاني التي في القرآن من الشاء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد. وسورة الكثر والوفاية لذلك. وسورة الحمد والمثاني لأنه تنثنى في كل ركعة. وسورة الصلاة لأنها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها. وسورة الشفاء والشفافية. وهي سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم من عد "أنعمت عليهم" دون التسمية، ومنهم من مذهبه على العكس. بسم الله الرحمن الرحيم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدئ بذكرها في كل أمر في بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقراء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذلك يجهر بها. وقالوا: قد أثبتنا السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يشبوا "امين" فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس: "من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى" فإن قلت: بم تعلق الباء قلت: بمحذف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتولأن الذي يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال: بسم الله والبركات، كان المعنى: بسم الله أحل وبسم الله ارتحل، كذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله، ب" بسم الله" كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له. ونظيره في حذف متعلق الجار قوله عز وجل: "في تسع آيات إلى فرعون وقومه" النمل: ، أذهب في تسع آيات. وكذلك قول العرب في الدعاء للمعوس: بالرفاء والبنين. وقول الأعراي: باليمن والبركة، بمعنى أعروست، أو نكحت. ومنه قوله:

فَرِيقٌ نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَ

فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ

فإن قلت: لم قدرت الحذف متأخراً، قلت: لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به لأنهم كانوا يبدءون بأسماء ألهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ" حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص. والدليل عليه قوله: "بسم الله مجراها ومرساها" هود: ١، . فإن قلت: فقد قال: "اقرأ باسم ربك" العلق: ١، فقدّم الفعل. قلت: هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم. فإن قلت: ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة، قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتابة في قولك: كتبت بالقلم، على معنى أن المؤمن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتداً به في الشرع واقعاً على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله عليه الصلاة والسلام: "كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" إلا كان فعلاً كلاً فعل، جعل فعله مفعولاً باسم الله بهما كما يفعل الكتب بالقلم. والثاني أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات في قوله: "تنبت بالدهن" المؤمنون: ، على معنى: متبركاً بسم الله أقرأ، وكذلك قول الداعي للمعرس: بالرفاء والبنين، معناه أعرست ملتبساً بالرفاء والبنين، وهذا الوجه أعرب وأحسن، فإن قلت: فكيف قال الله تبارك وتعالى متبركاً باسم الله أقرأ، قلت: هذا مقول على السنة العباد، كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره، وكذلك: "الحمد لله رب العالمين" إلى آخره، وكثير من القرآن على هذا المنهاج، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يحمّدونه ويمجّدونه ويعظمونه. فإن قلت: من حق حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون، نحو كاف التشبيه ولام الابتداء وواو العطف وفائه وغير ذلك، فما بال لام الإضافة وبائها بنيتا على الكسر. قلت: أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء، وأما الباء فلكونها لازمة للحرفية والجـر، والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة، لئلا يقع ابتداءهم بالسكون إذا كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن، لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة، ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة، وإذا وقعت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء. ومنهم من لم يزلها واستغنى عنها بتحريك الساكن، فقال: سم وسم. قال: باسم الذي في كل سورة سمة وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز: كيد ودم، وأصله: سمو، بدليل تصريحه: كأسماء، وسمي، وسميت، واشتقاقه من السمو، لأن التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره، ومنه قيل للقب النبز: من النبز بمعنى النبر، وهو رفع الصوت. والنبز قشر النخلة! الأعلى. فإن قلت: فلم حذفت الألف في الخط وأثبتت في قوله: باسم ربك. قلت: قد اتبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط لكثرة الاستعمال، وقالوا: طُوِّلتِ الباء تعويضاً من طرح الألف. وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكتابه: طُولِ الباء وأظهر السنوات ودور الميم. والله أصله الإله. قال: مَعَاذَ الإلهِ أَنْ تَكُونَ كَظْبِيَّةٍ ونظيره: الناس، أصله الأناس. قال:

ن عَلَى الْإِنْسَانِ الْآمِنِينَ

إِنْ الْمَنَآيَا يَطْلَعُ

فحذفت الهمزة وعوض منها حرف التعريف، ولذلك قيل في النداء: يا الله بالقطع، كما يقال: يا إله، والإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على

المعبود بحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام القحط، والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه. وأما الله بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره. ومن هذا الاسم اشتق: تأله، وأله، واستأله. كما قيل: استنوق، واستحجر، في الاشتقاق من الناقة والحجر. فإن قلت: أاسم هو أم صفة ا قلت: بل اسم غير صفة، ألا تراك تصفه ولا تصف به، لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل. وتقول: إله واحد صمد، كما تقول: رجل كريم خير. وأيضاً فإن صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال. فان قلت: هل لهذا الاسم اشتقاق. قلت: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: أله، إذا تحير، ومن أخواته: دله، وعله، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحير في معرفة المعبود وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفشا الباطل، وقل النظر الصحيح. فإن قلت: هل تفخّم لأمه، قلت: نعم قد ذكر الزجاج أن تفخيمها سنة، وعلى ذلك العرب كلهم، وطباقيهم عليه دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر. والرحمن فعلاّن من رحم، كغضبان وسكران، من غضب وسكر، وكذلك الرحيم فعيل منه، كمريض وسقيم، من مرض وسقم، وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمان الدنيا والاحزة، ورحيم الدنيا، ويقولون: إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى. وقال الزجاج في الغضبان: هو الممتلئ غضباً. ومما طُن على أذني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مراكبهم بالشقدف. وهو مركب خفيف ليس في ثقل معامل العراق فقلت في طريق الطائف لرجل منهم ما اسم هذا الحمل، أردت الحمل العراقي فقال: أليس ذاك اسمه الشقدف. قلت: بلى، فقال: هذا اسمه الشقنداف، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى، وهو من الصفات الغالبة - كالدبران، والعيوق، والصعق لم يستعمل في غير الله عز وجل، كما أنا الله من الأسماء الغالبة. وأما قول بني حنيفة في مسيلمة: رحمان اليمامة، وقول شاعرهم فيه:

لَا زِلْتَ رَحْمَانًا

وَأَنْتَ غَيْثُ الْوَرَى

فباب من تعنتهم في كفرهم. فان قلت: كيف تقول: الله رحمان، أتصرفه أم لا، قلت: أقيسه على أخواته من بابه، أعني: نحو عطشان، وغرثان، وسكران، فلا أصرفه. فان قلت: قد شرط في امتناع صرف فعلاّن أن يكون فعلاّن فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلاّن فعلى، فلم تمنعه الصرف. قلت: كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى كعطشى فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلاّن كندمانه، فإذا لا عبرة بامتناع التأنيث للاختصاص العارض فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص وهو القياس على نظائره. فان قلت: ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة ومعناها العطف والحنو ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها. قلت: هو مجاز عن إنعامه على عبادة لأن الملك إذا عطف على رعيته ورق لهم أصابهم بمعروفه وإنعامه، كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة عطف بهم ومنعهم خيره ومعروفه. فان قلت: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحير، وشجاع باسل، وجواد فياض، قلت: لما قال "الرحمن" فتناول جلال النعم وعظائمها وأصولها، أردفه الرحيم كالتممة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف.

"الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم" الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها.

تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته.

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّْي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحْجَبًا

والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده" وإنما جعله رأس الشكر، لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليتها، أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لحفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبّه.

والحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفران، وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو الله وأصله النصب الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكرًا، وكفرًا، وعجبًا، وما أشبه ذلك، ومنها: سبحانك، ومعاذ الله، يترلونها مترلة أفعالها ويسدون بها مسدها، لذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. ومنه قوله تعالى: "قالوا سلاما قال سلام" هود: ،، رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدد وحدوثه. والمعنى: نحمد الله حمدًا، ولذلك قيل: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" لأنه بيان لحمدهم له، كأنه قيل: كيف تحمدون. فقيل: إياك نعبد. فإن قلت: ما معنى التعريف فيه. قلت: هو نحو التعريف في أرسلها العراك، وهو تعريف الجنس، ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أن الحمد ما هو، والعراك ما هو، من بين أجناس الأفعال. والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم. وقرأ الحسن البصري: "الحمد لله" بكسر الدال لإتباعها اللام. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: "الحمد لله" بضم اللام لإتباعها الدال، والتي جسرها على ذلك والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم منحدر الجبل ومغيرة تزل الكلمتين مترلة لكثرة استعمالهما مقترنتين، وأشف القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى، بخلاف قراءة الحسن.

الرب: المالك. ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. تقول: ربه يربه فهو رب، كما تقول: نم عليه ينم فهو نم. ويجوز أن يكون وصفًا بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في غيره على التقيد بالإضافة، كقولهم: رب الدار، ورب الناقة، وقوله تعالى: "ارجع إلى ربك، إنه ربي أحسن مثوأي" وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: "رَبِّ الْعَالَمِينَ" بالنصب على المدح وقيل بما دل عليه الحمد لله كأنه قيل: نحمد الله رب العالمين.

العالم: اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: كل ما علم به الخالق من الأجسام والأعراض. فإن قلت: لم جمع، قلت: ليشمل كل جنس مما سمي به. فإن قلت: هو اسم غير صفة، وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو ما في حكمها من الأعلام. قلت: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه وهي الدلالة على معنى العلم.

"مالك يوم الدين" قرئ: "ملك يوم الدين" ومالك وملك بتخفيف اللام. وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: مَالِكَ يَوْمَ الدين، بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه: مَالِكَ بالنصب. وقرأ غيره: مَالِك، وهو نصب على المدح ومنهم من قرأ: مالك، بالرفع. وملك: هو الاختيار، لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله: "لن الملك اليوم" ولقوله: "ملك الناس" الناس: ولأن الملك يعم والمملك يخص. ويوم الدين: يوم الجزاء. ومنه قولهم: كما تدين تدان وبيت الحماسة:

ن دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدَا

فإن قلت: ما هذه الإضافة. قلت: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الأتساع، مُجرى مجرى المفعول به كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، والمعنى على الظرفية. ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين، كقوله: "لن الملك اليوم" غافر: فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقة فلا تكون معطية معنى التعريف، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة، قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال، فكان في تقدير الانفصال، كقولك: مالك الساعة، أو غداً. فأما إذا قصد معنى الماضي، كقولك: هو مالك عبده أمس، أو زمان مستمر، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية، كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في "مالك يوم الدين" ويجوز أن يكون المعنى: ملك الأمور يوم الدين، كقوله: "ونادى أصحاب الجنة لأعراف: ونادى أصحاب الأعراف" الأعراف: الأعراف: والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: "مَلِكُ يَوْمَ الدين" وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه رباً مالِكاً للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعماً بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلال والدقائق، ومن كونه مالِكاً للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: "الحمد لله" دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله.

"إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" يا ضمير منفصل للمنصوب، واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك: إِيَّاكَ، وإياه وإياي، لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب، كمالا محل للكاف في رأيتك، وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون، وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإياه الشواب فشيء شاذ لا يعول عليه، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، كقوله تعالى: "قل أغير الله تأمروني أعبد" الزمر: "قل أغير الله أبغي رباً" الأنعام: والمعنى ونخصك بطلب المعونة. وقرئ: إِيَّاكَ بتخفيف الياء، وإياك بفتح الهمزة والتشديد، وهياك بقلب الهمزة هاء. قال طفيل الغنوي:

مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ

فَهَيْكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَرَا حَبَّتْ

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل. ومنه: ثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج، وللفلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى، لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع. فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب. قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن

الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم" يونس: وقوله تعالى: "والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه"، فاطر: وقد نفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطا وَلَ لَيْلِكَ بِالْأَثْمَدِ
وَبَاتٍ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ
وَنَامَ الْخَلِي وَلَمْ تُرْقِدْ
كَلِيلَةٌ فِي الْعَائِرِ الْأَرْمَدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأِ جَاءَنِي
وَحُبْرَتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ

وذلك على عادة افتنائهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعته بفوائد. ومما اختص به هذا الموضوع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطوب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به. فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة. قلت: ليجمع بين ما يقترب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قدمت العبادة على الاستعانة، قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها. فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة. قلت: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوقيفه على أداء العبادة، ويكون قوله: "أهدنا" بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم، فقالوا: اهدنا الصراط المستقيم، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجة بعض. وقرأ ابن حبيش: "نستعين" بكسر النون.

"اهدنا الصراط المستقيم" هدى: أصله أن يتعدى باللام أو يالى، كقوله تعالى: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم" "لإسراء": "وانك لتهدي إلى صراط مستقيم" الشورى: فعومل معاملة اختار في قوله تعالى: "واختار موسى قومه" الأعراف: ومعنى طلب الهداية - وهم مهتدون طلب زيادة الهدى بمنح الإلطف، كقوله تعالى: "والذين اهتدوا زادهم هدى" محمد: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" العنكبوت: ، وعن علي وأبي رضي الله عنهما: اهدنا ثبتنا، وصيغة الأمر والدعاء واحدة، لأن كل واحد منهما طلب، إنما يتفاوتان في الرتبة وقرأ عبدالله: أرشدنا. السراط الجادة، من سراط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يستترط السابلة إذا سلكوه، كما سمي: لقماً، لأنه يلتقمهم. والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء، كقوله: مسيطر، في "مسيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاي، وقرئ بمن جمعاً، وفصاحهن إخلاص الصاد، وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام، ويجمع سراطاً، نحو كتاب وكتب، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، والمراد طريق الحق وهو ملة الإسلام.

"صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" "صراط الذين أنعمت عليهم" بدل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل، كأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، كما قال: "للذين استضعفوا لمن آمن منهم" الأعراف: فإن قلت: ما فائدة البدل. وهلا قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت

عليهم، قلت: فاندته التوكيد لما فيه من التشية والتكرير، والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وأكده، كما تقول: هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم. فلان، فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك: هل أدلك على فلان الأكرم والأفضل، لأنك ثبيت ذكره مجملاً أولاً، ومفصلاً ثانياً، وأوقعت فلاناً تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته علماً في الكرم والفضل، فكانك قلت: من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان، فهو الشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع. والذين أنعمت عليهم: هم المؤمنون، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام، لأن من أنعم عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه. وعن ابن عباس: هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا، وقيل: هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود: "صراط من أنعمت عليهم".

"غير المغضوب عليهم" بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى أن المنعم عليهم: هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال. فإن قلت: كيف صح أن يقع غير، صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف قلت: "الذين أنعمت عليهم" لا توقيت فيه كقوله:

وَلَقَدْ أَمَرَ عَلَى اللَّئِيمِ يَسْبُنِي

ولأن المغضوب عليهم والضالين خلاف المنعم عليهم، فليس في غير إذا الإبهام الذي يأتي عليه أن يعترف، وقرئ بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في عليهم، والعامل: أنعمت، وقيل المغضوب عليهم: هم اليهود لقوله عز وجل: "من لعنه الله وغضب عليه" المائدة: والضالون: هم النصارى لقوله تعالى: "قد ضلوا من قبل" المائدة: فإن قلت ما معنى غضب الله. قلت: هو إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده نعوذ بالله من غضبه، ونسأله رضاه ورحمته. فإن قلت: أي فرق بين عليهم، الأولى وعليهم الثانية، قلت: الأولى محلها النصب على المفعولية، والثانية محلها الرفع على الفاعلية. فإن قلت: لم دخلت لا في ولا الضالين قلت: لما في غير من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول: أنا زيداً غير ضارب. مع امتناع قولك أنا زيداً مثل ضارب لأنه بمزلة قولك أنا زيداً لا ضارب وعن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قرآ: وغير الضالين. وقرأ أبو السختياني. ولا الضالين بالهمزة كما قرأ عمرو بن عبيد: ولا جان وهذه لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين. ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم: شأبة، ودأبة. آمين: صوت سمي به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويد، وحيل، وهلم أصوات سميت بها الأفعال التي هي أمهل، وأسرع، وأقبل. وعن ابن عباس: "سألت رسول الله عن معنى آمين فقال: افعِلْ وفيه لغتان: مد ألفه، وقصرها". قال: "وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَ" وقال: "آمِينَ فَرَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بَعْدًا" وعن النبي !: "لقني جبريل عليه السلام آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب" وقال: إنه كالتحم على الكتاب وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف، وعن الحسن: لا يقولها الإمام لأنه الداعي. وعن أبي حنيفة

رحمه الله مثله، والمشهور عنه وعن أصحابه أنه يخفيها. وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس عن رسول الله عند الشافعي يجهر بها. وعن وائل بن حجر: أن النبي كان إذا قرأ: ولا الضالين، قال آمين ورفع بها صوته. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب: "ألا أخبرك بسورة لم يزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها. قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فاتحة الكتاب إنما السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته" وعن حذيفة بن اليمان أن النبي قال: "إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب "الحمد لله رب العالمين" فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة.

سورة البقرة

مدنية، وهي مائتان وست وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم أعلم أن الألفاظ التي يتهجى بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فقولك - ضاد اسم سمي به ضه من ضرب إذا تهجته، وكفلك: را، با: اسمان لقولك: ره، به، وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة، وهي أن المسميات لما كانت ألفاظاً كأسمائها وهي حروف وحدان والأسماء عدد حروفها مرتق إلى الثلاثة، اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا في التسمية على المسمى فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى، إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماهاة لأنه لا يكون إلا ساكناً. ومما يضاهاها في إيداع اللفظ دلالة على المعنى: التهليل، والحوقة، والحيعة، والبسملة وحكمها ما لم تلها العوامل أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفة كأسماء الأعداد، فيقال: ألف لام ميم، كما يقال: واحد اثنان ثلاثة فإذا وليتها العوامل أدركها الإعراب. تقول: هذه ألف، وكتبت ألفاً، ونظرت إلى ألف وهكذا كل اسم عمدت إلى تأدية ذاته فحسب، قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شيء من تأثيراتها، فحقك أن تلفظ به موقوفاً. ألا ترى أنك إذا أردت أن تلقى على الحاسب أجناساً مختلفة ليرفع حسابها، كيف تصنع وكيف تلقيها أغفالاً من سمة الإعراب. فتقول: دار، غلام، جارية، ثوب، بساط. ولو أعربت ركبت شططاً. فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالاسمية. وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدمين. قلت: قد استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف، فعلمت أن قولهم خليق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في اسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف في معنى الكلمة، وذلك أن قولك: ألف دلالة على أوسط حروف قال، وقام دلالة فرس على الحيوان المخصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الداليتين. ألا ترى أن الحرف: ما دل على معنى في غيره، وهذا كما ترى دال على معنى في نفسه ولأنها متصرف فيها بالإمالة كقولك: با، تا. وبالتفخيم كقولك: يا، ها. وبالتعريف، والتنكير، والجمع والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، وجميع ما للأسماء المتصرفة. ثم إني عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك. قال سيبويه: قال الخليل يوماً وسأل أصحابه:

كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك، والباء التي في ضرب. فقل: نقول: باء، كاف فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: كه، به. وذكر أبو علي في كتاب الحجة في يس: وإمالة يا، أنهم قالوا: يا زيد، في النداء فأمالوا وإن كان حرفاً، قال: فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الياء، فلا أن يميلوا الاسم الذي هو يس أجدر. ألا ترى أن هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها. فإن قلت: عن أي قبيل هي من الأسماء، أمعربة أم مبنية. قلت: بل هي أسماء معربة، هانما سكنت سكون زيد وعمرو وغيرهما من الأسماء حيث لا يمسه إعراب لفقد مقتضيه وموجبه. والدليل على أن سكونها وقف وليس ببناء: أنها لو بنيت لحذى بها حذو: كيف، وأين، وهؤلاء. ولم يقل: ص، ق، ن مجموعاً فيها بين الساكنين. فإن قلت فلم لفظ المتهجي بما آخره ألف منها مقصوراً، فلما أعرب مد فقال هذه باء، وياء، وهاء وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك لا مقصورة فإذا جعلتها اسماً مددت فقلت: كتبت لاء. قلت: هذا التخييل يضمن بما لخصته من الدليل والسبب في أن قصرت متهجة، ومدت حين مسها الإعراب: أن حال التهجي خليقة بالأخف الأوجز، واستعمالها فيه كثر. فإن قلت: قد تبين أنها أسماء لحروف المعجم، وأنها من قبيل المعربة، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور. قلت: فيه أوجه: أحدها وعليه إطباق الأكثر: أنها أسماء السور. وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي كسره على ذكرها في حد ما لا ينصرف ب باب أسماء السور وهي في ذلك على ضربين: أحدهما ما لا يتأتى فيه إعراب، نحو: كهيعص، والمر. والثاني: ما يتأتى فيه الإعراب، وهو إما أن يكون اسماً فرداً كص وق ون، أو أسماء عدة مجموعها على زنة مفرد ك حم. وطس. ويس فإنها موازنة لقابيل وهابيل، وكذلك طسم يتأتى فيها أن تفتح نونها، وتصير ميم مضمومة إلى طس فيجعل اسماً واحداً: كدارا بجرد فالنوع الأول محكى ليس إلا وأما النوع الثاني فسائغ فيه الأمران: الإعراب، والحكاية قال قاتل محمد بن طلحة السجاد وهو شريح بن أوفى العبسي.

فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرَّمْحُ شَاجِرِ

فأعرب حاميم ومنعها الصرف، وهكذا كل ما أعرب من أخواتها لاجتماع سببي منع الصرف فيها، وهما: العلمية، والتأنيث. والحكاية أن تحي بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى. كقولك: دعني من تمرتان، إوبدأت بالحمد لله وقرأت: سورة أنزلناها النور: قال:

أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارِ

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ

قال ذو! الرمة:

فَقُلْتُ لِمَصِيدِحُ اتَّجَعِي بِلَالًا

سَمِعْتُ النَّاسَ يَتَتَجِعُونَ غَيْثًا

وقال آخر:

وَفِي تَرْحَالِهِمْ نَفْسِي

تَنَادَوْا بِالرَّحِيلِ غَدًا

وروى منصوباً ومجروراً. ويقول أهل الحجاز في استعمال من يقول: رأيت زيدا، من زيدا. وقال سيبويه: سمعت من العرب: لا من أين يا فتى. فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: ص، وق، ون مفتوحات، قلت: الأوجه أن يقال: ذاك نصب وليس بفتح، إنما لم يصحبه التنوين لامتناع الصرف على ما ذكرت. وانتصبا بفعل مضمر. نحو: اذكر وقد أجاز سيبويه مثل ذلك في: حم، وطس، وشى لو قرئ به. وحكى أبو سعيد السيرافي أن بعضهم قرأ: يس. ويجوز أن يقال: حركت لالتقاء الساكنين، كما قرأ من قرأ: "ولا الضالين. فإن قلت: هلا زعمت أنها مقسم بها، وأنها نصبت قولهم: نعم الله لأفعلن، وأي الله لأفعلن، على حذف حرف الجر وإعمال فعل القسم، وقال ذو الرمة:

الْأَرْبَ مَنْ قَلْبِي لَهُ اللَّهُ نَاصِحٌ

وقال آخر:

فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الثَّرِيدُ

قلت: إن القرآن والقلم بعد هذه! الفواتح محلوف بهما، فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على مقسم واحد وقد استكروها ذلك. قال الخليل في قوله عز وجل: "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى" الليل: الواوان الأخريان ليستا بمثلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمثلة الباء والتاء، قال سيبويه: قلت للخليل: فلم لا تكون الأخريان . بمثلة الأولى. فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء، ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاماً آخر، فيكون كقولك بالله لأفعلن، بالله لأخرجن اليوم، ولا يقوى أن تقول: وحقك وحق زيد لأفعلن. والواو الأخيرة واو قسم لا يجوز إلا مستكراً قال: وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلن فثم ههنا بمثلة الواو. هذا ولا سبيل فيما نحن بصددده إلى أن تجعل الواو للعطف لمخالفة الثاني الأول في الإعراب. فإن قلت: فقدرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها، فقد جاء عنهم: الله لأفعلن مجروراً، ونظيره قولهم: لاه أبوك غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة، واجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه. قلت: هذا لا يبعد عن الصواب، ويعضده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أقسم الله بهذه الحروف.

فإن قلت: فما وجه قراءة بعضهم ص وق بالكسر. قلت: وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين، والذي يبسط من عذر المحرك: أن الوقف لما استمر بهذه الأسامي، شاكلت لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من الميّنات، فعوملت تارة معاملة الان وأخرى معاملة هؤلاء. فإن قلت: هل تسوغ لي في الحكيمة مثل ما سوغت لي في المعربة من إرادة معنى القسم. قلت: لا عليك في ذلك، وأن تقدّر حرف القسم مضمرّاً في نحو قوله عز وجل: "حم والكتاب المين" الدخان: ، كأنه قيل: أقسم بهذه السورة، وبالكتاب المين: إنا جعلناه. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "حم لا ينصرون" فيصلح أن يقضى له بالجر والنصب جميعاً على حذف الجار وإضماره. فإن قلت: فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة. قلت: كأن المعنى في ذلك الإشعار بأن الفرقان ليس إلا كلمة عربية معروفة التركيب من مسميات هفه الألفاظ، كما قال عز من قائل: "قرآناً عربياً" يوسف: فإن قلت: فما بالها مكتوبة في المصحف على

صور الحروف أنفسها، لا على صور أساميها. قلت: لأن الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرت العادة متى تمجيت ومتى قيل للكاتب: اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها، عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح. وأيضاً فإن شهرة أمرها، وإقامة ألسن الأسود والأحمر لها، وأن اللافظ بما غير متهجاة لا يحلى بطائل منها وأن بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده: أمنت وقوع اللبس فيها، وقد اتفقت في المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف. قال عبد الله بن درستويه في كتابه: المترجم بكتاب الكتاب المتمم: في الخط والهجاء خطان لا يقاسان: خط المصحف، لأنه سنة، وخط العروض لأنه يثبت فيه ما أثبتته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه. الوجه الثاني: أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسروده على غط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن وبغربة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم الحراس على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهاكون على الافتتان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء، إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر. وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمثل، ولناصره على الأول أن يقول: إن القرآن إنما نزل بلسان العرب مصوباً في أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لم تتجاوز ما سموا به مجموع اسمين، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة، والقول بأنها أسماء السور حقيقة: يخرج إلى ما ليس في لغة العرب، ويؤدي أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً. فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر وأنه لا سبيل إلى رده، أجابك بأن له محملاً سوى ما يذهب إليه، وأنه نظير قول الناس: فلان يروي: فقنا نبك، وعفت الديار. ويقول الرجل لصاحبه: ما قرأت فيقول: "الحمد لله" "وبراءة من الله ورسوله" التوبة: "ويوصيكم الله في أولادكم"، النساء: "والله نور السموات والأرض" النور: ، وليست هذه الجمل بأسامي هذه القصائد وهذه السور والآي، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها، وتلاوة السورة أو الآية التي تلك فاتحتها. فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية، واستفيد منها ما يستفاد من التسمية، قالوا ذلك على سبيل الجواز دون الحقيقة. وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول: التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكرة لعمري وخروج عن كلام العرب، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة حضرموت، فأما غير مركبة منشورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها، لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية، كما سموا: بتأبط شرأ، وبرق نحره، وشاب قرناها. وكما لو سمي: بزيد منطلق، أو بيت شعر. وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر، وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم، دلالة قاطعة على صحة ذلك. وأما تسمية السورة كلها بفاتها، فليست بتصيير الاسم والمسمى واحداً، لأنها تسمية مؤلف بمفرده، والمؤلف غير المفرد. ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه، كقولهم: صاد، فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً حيث كان

الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً. الوجه الثالث: أن ترد السور مصدرّةً بذلك ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز. وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف. فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، كما قال عز وجل: "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب الميطلون" العنكبوت: فكان حكم النطق بذلك مع اشتهاؤه أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأفاقيص المذكورة في القرآن، التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة نبوته، وبمثلة أن يتكلم بالرطانة من غير أن يسمعها من أحد. واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء. وجدتها نصف أسامي

حروف المعجم أربعة عشرون المعجم أربعة عشر سواء، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن انجھورة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن الشديدة نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون. ومن المطبقة نصفها: الصاد، والطاء. ومن المفتحة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء، والنون. ومن المستعلية نصفها: القاف، والصاد، والطاء. ومن المنخفضة نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون. ومن حروف القلقله نصفها: القاف، والطاء. ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله يتزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التزليل واختصاصاته، فكان الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبيكات لهم وإلزام الحجة إياهم. ومما يدل على أنه تغمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءت في معظم هذه الفواتح مكررتين. وهي: فواتح سورة البقرة، وال عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، والأعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والجر. فإن قلت: فهلا عددت بأجمعها في أول القرآن، وما لها جاءت مفرقة على السور قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقرله في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقديره. فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة ولم تختلف أعداد حروفها فوردت ص وق ون على حرف، وطه وطس و يس وحم على حرفين، والم والر وطسم على ثلاثة أحرف، والمص والمر على أربعة أحرف، وكهيعص وحم عسق على خمسة أحرف قلت: هذا على إعادة افتنائهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب

متنوعة. وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك. فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التي اختصت بها قلت: إذا كان الغرض هو التنبيه والمبادئ كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً، كما إذا سمى الرجل بعض أولاده زيداً والآخر عمراً، لم

يقل له: لم خصصت ولدك هذا بزید وذاك بعمر و لأن الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك، ولذلك لا يقال: لم سمي هذا الجنس بالرجل وذاك بالفرس ولم قيل للاعتماد الضرب وللاختصاص القيام ولنقيضه القعود فإن قلت: ما بالهم عدوا بعض هذه الفواتح آية دون بعض قلت: هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور. أما الم فآية حيث وقعت من السور المفتحة بها. وهي ست. وكذلك المص آية، والمر لم تعد آية، والر ليست بآية في سورها الخمس، وطسم آية في سورتها، وطه ويس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية في سورها كلها، وحم عسق آيتان، وكهيعص آية واحدة، وص وق ون ثلاثها لم تعد آية. هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم، لم يعدوا شيئاً منها آية. فإن قلت: فكيف عد ما هو في حكم كلمة واحدة آية. قلت: كما عد الرحمن وحده ومدهامتان وحدها آيتين على طريق التوقيف. فإن قلت: ما حكمها في باب الوقف. قلت: يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعق بها كما ينطق بالأصوات أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله عز قائلًا: "الم الله" أي هذه الم ثم ابتداء فقال: "الله لا إله إلا هو" أ آل عمران: فإن قلت: هل لهذه الفواتح محل من الإعراب. قلت: نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام. فإن قلت: ما محلها قلت: يحتل الأوجه الثلاثة، أما الرفع: فعلى الابتداء، وأما النصب والجرح، فلما مر من صحة القسم بها وكونها بمثلة: الله والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور، لم يتصور أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجمل المبتدأ وللمفردات المعددة.

"ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين" فإن قلت: لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد. قلت: وقعت الإشارة إلى الم بعد ما سبق التكلم به وتقضى، والمقضى في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام. يحدث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك مالا شك فيه. ويحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا. وقال الله تعالى: "لا فارض ولا بكرعوان بين ذلك" البقرة: وقال: "ذلكما مما علمني ربي" يوسف: ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه، وقع في حد البعد، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: احتفظ بذلك. وقيل معناه: ذلك الكتاب الذي وعدوا به. فإن قلت: لم ذكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة قلت: لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته. فإن جعلته خبره، كان ذلك في معناه ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير، كما أجرى عليه في التأنيث في قولهم: من كانت أمك. وإن جعلته صفته، فإنما أشير به إلى الكتاب صريحاً، لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له. تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا. وقال الذبياني:

نُبِّئْتُ نَعْمَى عَلَى الْهَجْرَانِ عَاتِبَةً سَقْيَاوْرُعِيَا لَذَاكَ الْعَاتِبِ الزَّارِي

فإن قلت: أخبرني عن تأليف "ذلك الكتاب" مع آلم قلت: إن جعلت آلم اسماً للسورة ففي التأليف وجوه: أن يكون آلم مبتدأ، وذلك. مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول. ومعناه: أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، كما تقول: هو الرجل، أي الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وكما قال:

هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ

وأن يكون الكتاب صفة. ومعناه: هو ذلك الكتاب الموعود، وأن يكون "الم" خبر مبتدأ محذوف، أي هذه الم، ويكون ذلك خبراً ثانياً أو بدلاً، على أن الكتاب صفة، وأن يكون: هذه الم جملة، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت الم بمثلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي ذلك الكتاب المثل هو الكتاب الكامل. أو الكتاب صفة والخبر ما بعده، أو قدر مبتدأ محذوف، أي هو يعني المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب. وقرأ عبد الله: "آلم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه". وتأليف هذا ظاهر.

والريب: مصمر رابني، إذا حصل فيك الريبة. وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها. ومنه ما روى الحسن بن علي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريبة، وإن الصدق طمأنينة" أي

فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر. وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن. ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه. ومنه: أنه مر بطي حاقف فقال: لا يربه أحد بشيء. فإن قلت: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق. وكم من مراتب فيه. قلت: ما نفى أن أحد لا يرتاب فيه وإنما المنفى كونه متعلقاً للريب ومظنة له، لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله" البقرة: فما أبعد وجود الريب منهم وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب، وهو أن يجزروا أنفسهم ويروزوا قواهم في البلاغة، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة. فإن قلت: فهلا قدم الظرف على الريب، كما قدم على القول في قوله تعالى: "لا فيها غول" الصافات قلت: لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أن كتاباً آخر فيه الريب فيه، كما قصد في قوله: "لا فيها غول" تفضيل همر الجنة على همر الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة، وقرأ أبو الشعثاء: "لا ريب فيه" بالرفع: والفرق بينها وبين المشهورة، أن المشهورة توجب الاستغراق، وهذه تجوزه. والوقف على فيه هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على لا ريب ولا بد للواقف من أن ينوي خبراً. ونظيره قوله تعالى: "قالوا لا خير" الشعراء: وقول العرب: لا بأس، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز. والتقدير: "لا ريب فيه". فيه هدى الهدى مصدر على فعل، كالسرى والبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته. قال الله تعالى: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى" البقرة: وقال تعالى: "لعلى هدى أو في ضلال مبين" سبأ: ويقال:

مهدي، في موضع المدح كمهتد، ولأن اهتدى مطاوع هدى ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله ألا ترى إلى نحو: غمه فاغتم، وكسره فانكسر، وأشباه ذلك: فإن قلت: فلم قيل: هُدَى للمتقين والمتقون مهتدون، قلت: هو كقولك للعزير المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته كقوله: "اهدنا الصراط المستقيم". ووجه آخر، وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى: متقين، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قتل قتيلاً فله سلبه" وعن ابن عباس: "إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة، وتكون الحاجة" فسمى المشارف للقتل والمرض والضلال: قتيلاً ومريضاً وضالاً. ومنه قوله تعالى: "ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً" نوح: أي صائراً إلى الفجور والكفر. فإن قلت: فهلا قيل هدى للضالين. قلت: لأن الضالين فريقان: فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى، فلا يكون هدى للفريق الباقي على الضلالة، فبقى أن يكون هدى لهؤلاء، فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك ل قيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال، فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التي ذكرنا، ف قيل: هدى للمتقين. وأيضاً فقد جعل ذلك سلماً إلى تصدير السورة التي هي أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثاني، بذكر أولياء الله والمرتبطين من عباده.

والمتقي في اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى. والوقاية: فرط الصيانة. ومنه: فرس واق، وهذه الدابة تقي من وجاها، إذا أصابه ضلع من غلظ الأرض ورقة الحافر، فهو يقي حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه. وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. واختلف في الصغائر وقيل الصحيح أنه لا يتناولها، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر. وقيل: يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال، والمتقي لا يطلق إلا عن خبرة، كما لا يجوز إطلاق لعدل إلا على المختبر. ومحل "هدى للمتقين" الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع "لا ريب فيه" لذلك، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه. ويجوز أن ينصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف. والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه اخلال صفحاً. وأن يقال إن قوله: "آلم"، جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها. و"ذلك الكتاب" جملة ثانية. و"لا ريب فيه" ثالثة. "هدى للمتقين" رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريراً لجهة التحدي، وشداً من أعضاده. ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لذلك، فقال: في حجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ثم لم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رتب هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السري، من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجهه وأرشفه. وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة. وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف. وفي

الرابعة الحذف. ووضع المصدر الذي هو "هُدًى"، موضع الوصف الذي هو "هاذ" وإيراده منكراً. والإيجاز في ذكر المتقين.

زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه، وتبييناً لنكت تزييله، وتوفيقاً للعمل بما فيه.

"الذين يؤمنون ويقيمون الصلوة وما رزقهم ينفقون" "الذين يؤمنون" إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة، أو مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير: أعني الذين يؤمنون، أو هم الذين يؤمنون. وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه "بأولئك على هدى"، فإذا كان موصولاً، كان الوقف على المتقين حسناً غير تام، وإذا كان مقتطعاً، كان وقفاً تاماً. فإن قلت: ما هذه الصفة، أواردة بياناً وكشفاً للمتقين. أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها. أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية عليه تمجيداً. قلت: يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف لاشتغالها على ما أسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات. أما الفعل فقد انطوى تحت ذكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات ومنصبتها، وذكر الصلاة والصدقة لأن هاتين أما العبادات البدنية والمالية، وهما العيار على غيرهما. ألم تر كيف سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصلاة عماد الدين" وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر.

ترك الصلاة؟ وسمى الزكاة قنطرة الإسلام. وقال الله تعالى: "وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة" فصلت فلما كانتا بهذه المثابة كان من شأنهما استجرار سائر العبادات واستتباعها. ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً، بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، والذي إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترن به، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين. وأما الترك فكذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" العنكبوت.

ويحتمل أن لا تكون بياناً للمتقين، وتكون صفة برأسها لحالة على فعل الطاعات، ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصي. ويحتمل أن تكون مدحاً للموصوفين بالتقوى، وتخصيصاً للإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر إظهاراً لإنافتها عن سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات.

والإيمان: إفعال من الأمن. يقال: أمنت وأمنتته غيري. ثم يقال: أمنت إذا صدقه. وحقيقته: آمنه التكذيب والمخالفة. وأما تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقر وأعترف. وأما ما حكى أبو زيد عن العرب: ما آمنت أن أجد صحابة - أي ما وثقت - فحقيقته: صرت ذا أمن به، أي ذا سكون وطمأنينة، وكلا الوجهين حسن في "يؤمنون بالغيب"، أي يعترفون به أو يثقون بأنه حق. ويجوز أن لا يكون "بالغيب"، صلة للإيمان، وأن يكون في موضع الحال، أي يؤمنون غائبين عن المؤمن به. وحقيقته: ملتبس بالغيب، كقوله "الذين يخشون ربهم بالغيب" فاطر: "ليعلم أني لم أخنه بالغيب"، يوسف: . ويعضده ما روى أن أصحاب عبد الله ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم، فقال ابن مسعود: إن أمر محمد كان بيناً لمن رآه. والذي لا إله غيره، ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية. فإن قلت: فما المراد بالغيب إن جعلته صلة. وغان جعلته حالاً؟ قلت: إن جعلته صلة كان بمعنى الغائب، إما تسمية بالمصدر من قولك، غاب الشيء غيباً، كما سمي الشاهد بالشهادة. قال الله تعالى: "عالم الغيب والشهادة"،

الزمر، والعرب تسمى المظمئن من الأرض غيباً. وعن النضر بن شميل: شربت الإبل حتى وارت غيوب كلاها. يريد بالغيب: الخمصة التي تكون في موضع الكلية، إذا بطنت الدابة انتفخت. وإما أن يكون فيعلاً فخفف، كما قيل وأصله: قيل: والمراد به الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداءً إلا علم اللطيف الخبير، هوإنما نعلم منه نحن ما أعلمناه، أو نصب لنا دليلاً عليه. ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال: فلان يعلم الغيب. وذلك نحو الصانع وصفاته، والنبوت وما يتعلق بها، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد، وغير ذلك. وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء. فإن قلت: ما الإيمان الصحيح؟ قلت: أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه، ويصدق به عمله. فمن أخل بالاعتقاد - وإن شهد وعمل - فهو منافق. ومن أخل بالشهادة فهو كافر. ومن أخل بالعمل فهو فاسق.

ومعنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها، من أقام العود - إذا قومه - أو الدوام عليها والحفاظة عليها، كما قال عز وعلا: "الذين هم على صلاتهم دائمون" المعارج، "والذين هم على صلواتهم يحافظون"، المؤمنون: ، من قامت السوق إذا نفقت، وأقامها. قال:

أَقَامَتِ غَزَالَةُ سُوقِ الضَّرَابِ لِأَهْلِ الْعِرَاقِينَ حَوْلًا قَمِيطًا

لأنها إذا حوفظ عليها، كانت كالشيء النافق التي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون. لماذا عطلت وأضيعت، كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه. أو التجلد والتشمر لأدائها. وأن لا يكون في مؤديها فتور عنها ولا توان، من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها. وفي ضده: قعد عن الأمر، وتقاعد عنه - إذا تقاعس وتشبط - أو أداؤها، فعبر عن الأداء بالإقامة، لأن القيام بعض أركانها، كما عبر عنه بالقنوت - والقنوت القيام - وبالركوع وبالسجود، وقالوا: سبح، إذا صلى، لوجود التسبيح فيها. "فلولا أنه كان من المسبحين" الصافات.

والصلاة: فعلة من صلى، كالزكاة من زكى. وكتابتها بالواو على لفظ المفخم. وحقيقة صلى: حرك الصلوتين، لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده. ونظيره كفر اليهودي إذا طأطأ رأسه وانحنى عند تعظيم صاحبه، لأنه ينثني على الكاذبين وهما الكافرتان. وقيل للداعي: مصل، تشبيهاً في تحشعه بالراكع والساجد.

وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال الطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله، ويسمى رزقاً منه. وأدخل من التبعية صيانة لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهى عنه. وقدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم، كأنه قال: ويخضون بعض المال الحلال بالتصدق به. وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة، لاقتراحه بأخت الزكاة وشقيقتها وهي الصلاة وأن تراد هي وغيرها من النفقات في سبيل الخير، لجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق. وأنفق الشيء وأنفذه أخوان. وعن يعقوب: نفق الشيء، ونفد واحد. وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء، فдал على معنى الخروج والذهاب ونحو ذلك إذا تأملت.

"والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون" فان قلت: "والذين يؤمنون" أهم غير الأولين أم هم الأولون. وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك هو الشجاع والجاد، وفي قوله:

وقوله:

يا لَهْفَ زِيَابَةِ لِلْحَارِثِ الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْأَيِّبِ

قلت: يحتمل أن يراد هؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا، فاشتمل إيمانهم على كل وحي أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، واجتماعهم على الإقرار بالنشأة الأخرى وإعادة الأرواح في الأجساد، ثم افتراقهم فرقتين: منهم من قال: تجري حالهم في التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا، ودفعه آخرون فزعموا أن ذلك إنما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام ولمكان التوالد والتناسل، وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيد والفرح والسرور، واختلافهم في الدوام والانقطاع، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه. ويحتمل أن يراد وصف الأولين. ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه. فإن قلت: فإن أريد هؤلاء غير أولئك، فهل يدخلون في جملة المتقين أم لا؟ قلت: إن عطفهم على "الذين يؤمنون بالغيب"، دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزميرتين من مؤمني أهل الكتاب وغيرهم. لما عطفهم على "المتقين" لم يدخلوا. وكأنه قيل: هدى للمتقين، وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك. فإن قلت: قوله: "بما أنزل إليك" إن عني به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، فلم يكن ذلك متراً وقت إيمانهم، فكيف قيل أنزل بلفظ الماضي، وإنما أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومتروقه واجب. قلت: المراد المنزل كله وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه متروقاً، تغليبا للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب فيقال: أنا وأنت فعلنا، وأنت وزيد تفعلان. ولأنه إذا كان بعضه نازلاً وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله، ويدل عليه قوله تعالى: "إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى"، الأحقاف: ولم يسمعوا جميع الكتاب، ولا كان كله متراً، ولكن سبيله سبيل ما ذكرنا. ونظيره قولك: كل ما خطب به فلان فهو فصيح، وما تكلم بشيء إلا وهو نادر. ولا تريد بهذا الماضي منه فحسب عون الآتي، لكونه معقوداً ببعضه ببعض، ومربوطاً آتية بماضيه. وقرأ يزيد بن قطيب "بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك"، على لفظ ما سمي فاعله. وفي تقديم "وبالآخرة"، وبناء "يوقنون" على "هم"، تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وأن قولهم ليس بصادق عن إيقان، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه. و"و" بالآخرة، تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول، وهي صفة الدار بدليل قوله: "تلك الدار الآخرة"، القصص: وهي من الصفات الغالبة، وكذلك الدنيا.

وعن نافع أنه خففها بأن حدث الهمزة وألقى حركتها على اللام، كقوله: "دابة الأرض" سبأ.

وقرأ أبو حية النميري "يوقنون" بالهمز، جعل الضمة في جار الواو كأنها فيه، فقلبها قلب واو وجوه، و"وقنت".

ونحوه:

لَحَبُ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَى مُوسَى

وَجَعَدَةُ إِذْ أَضَاءَ هَمَا الْوَقُودِ

"أُولَئِكَ عَلَى هَدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْمفلحُونَ" أُولَئِكَ عَلَى هَدًى" الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ، وإلا فلا محل لها. ونظم الكلام على الوجهين: أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب. فقد ذهبت به مذهب به الاستئناف. وذلك أنه لما قيل: "هدى للمتقين" واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى، اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك، فوقع قوله: "الذين يؤمنون بالغيب" إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدر. وحىء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلفظ بهم، ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أي الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم، أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح. ونظيره قولك: أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار الذين قارعوا دونه، وكشفوا الكرب عن وجهه، وأولئك أهل للمحبة. وإن جعلته تابعاً للمتقين، وقع الاستئناف على أولئك، كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى، فأجيب بأن أولئك الموصوفين، غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً، وبالفلاح آجلاً. واعلم أن هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث، كقولك: قد أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان. وتارة بإعادة صفة، كقولك: أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك، فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ، لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه. فإن قلت: هل يجوز أن يجري الموصول الأول على المتقين، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره، قلت: نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله. وفي اسم الإشارة الذي هو "أولئك" إيذان بأن ما يرد عقبيه فالمدكرون قبله. أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عددت لهم، كما قال حاتم: ولله صعلوك ثم عدد له خصلاً فاضلة، ثم عقب تعديدها بقوله:

فَذَلِكَ إِنْ يَهْلِكْ فَحَسْبِيَ ثَنَاءُهُ

وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعِدْ ضَعِيفًا مَذْمُومًا

ومعنى الاستعلاء في قوله على هدى مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به. شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه. ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتنطى الجهل واقتعد غارب الهوى.

ومعنى "هدى من ربهم، أي منحوه من عنده وأوتوه من قبله، وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير، والترقي إلى الأفضل فالأفضل. ونكر "هدى" ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه، ولا يقادر قدره كأنه قيل: على أي هدى، كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً. وقال الهذلي:

فَلَا وَأَبَى الطَّيْرِ المَرِبَةِ بالضَحَى

عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعَتْ عَلَى لَحْمٍ

والنون في "من ربهم" أدغمت بغنة وبغير غنة، فالكسائي، وحمزة، ويزيد، وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها. وقد أغنيتها الباقون إلا أبا عمرو. فقد روى عنه فيها روايتان.

وفي تكرير "أولئك" تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى، فهي ثابتة لهم بالفلاح، فجعلت كل واحدة مر

الأثرين في تمييزهم بالثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها. فإن قلت: لم جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله: "أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون" الأعراف: قلت: قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل.

"وهم" فصل: وفائدته: الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره. أو هو مبتدأ والمفلحون خبره، والجملة خبر أولئك.

ومعنى التعريف في "المفلحون": الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو فقيل زيد النائب، أي هو الذي أخبرت بتوبته. أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم، وتصوروا بصورتهم الحقيقية، فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة. كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام، إن زيداً هو هو. فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهي: ذكر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك، ليبصر مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويشطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته. اللهم زينا بلباس التقوى، واحشرونا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة. والمفلح: الفائز بالبغيه كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه. والمفلج - بالجيم - مثله. ومنه قولهم للمطلقة: استفلحي بأمرك بالحاء والجيم. والتركيب دال على معنى الشق والفتح، وكذلك أخواته في الفاء والعين، نحو: فلق، وفلذ، وفلى.

"إن الذين كفروا سواء عليهم ءأندرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون" لما قدم ذكر أوليائه وخالصة عبادته بصفتهم التي أهلتهم لإصابة الزلفى عنده، وبين أن الكتاب هدى ولطف لهم خاصة، قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى، ولا يجدي عليهم اللطف، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه، وإنذار الرسول وسكوته. فإن قلت: لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله: "إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم" لانفطار: وغيره من الآي الكثيرة. قلت: ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت ة لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف. فإن قلت: هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جار على المتقين، فأما إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين، ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم، كان مثل تلك الآي المتلوة. قلت: قد مر لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف، وأنه مبني على تقدير سؤال، فذلك إدراج له في حكم المتقين، وتابع له في المعنى، وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في الحقيقة كالجارى عليه. والتعريف في "الذين كفروا" يجوز أن يكون للعهد وأن يراد بهم ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم، وأن يكون للجنس متناولاً كل من صمم على كفره تصميمًا لا يرعوي بعده وغيرهم، ودل على تناوله للمصرين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم، "وسوءاً" اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف

بالمصادر. ومنه قوله تعالى: "تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم" آل عمران: "في أربعة أيام سواء للسائلين فصلت: ، بمعنى مستوية وارتفاعه على أنه خبر لأن، "أأندركم أملم تنذرهم" في موضع المرتفع به على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه. كما تقول: إن زيدا محتصم أخوه وابن عمه أو يكون "أأندركم أم لم تنذرهم، في موضع الابتداء، أو سواء، خبراً مقدماً بمعنى: سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لأن. فإن قلت: الفعل أبداً خبر لا مخبر عنه فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام. قلت: هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً، من ذلك قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، معناه لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل. والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء. ومعنى الاستواء استواءهما في علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن، إما الإنذار وإما عدمه، ولكن لا بعينه، فكلاهما معلوم بعلم غير معين. وقرئ: "أأندركم" بتحقيق الهمزتين، والتخفيف أعرب وأكثر، وبتخفيف الثانية بين بين، وبتوسيط ألف بينهما محققين، وبتوسيطها والثانية بين بين، وب حذف حرف الاستفهام، وب حذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله، كما قرئ "قد أفلح". فإن قلت: ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً. قلت: هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين: أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حده - وحده أن يكون الأول حرف لين والثاني حرفاً مدغماً نحو قوله: "الضالين" وخويصة والثاني: إخطاء طريق التخفيف لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين، فأما القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهزمة رأس. والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي. فإن قلت: ما موقع "لا يؤمنون" قلت: إيمان يكون جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبراً لأن والجملة قبلها اعتراض.

"ختم الله إلى قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم" الختم والكتم أخوان، لأن في الاستيثاق من الشيء بضرر الخاتم عليه كتماً له وتغطية لنلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه.

والغشاوة: الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه، وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة. فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار. قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب انجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا ينفذ فيها إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمحج وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنها غطى عليها وحجبت، وحيل بينها وبين الإدراك. وأما التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستفعا بها بالختم والتغطية. وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعي ختماً عليه فقال:

خَتَمًا فَلَيْسَ عَلَى الْكَلَامِ بِقَادِرٍ
لَحْمًا يَحْرَكُهُ لِصِقْرِ نَاقِرٍ

خَتَمَ الْإِلَهِ عَلَى لِسَانِ عَذَافِرٍ
وَإِذَا أَرَادَ النُّطْقَ خَلَّتْ لِسَانُهُ

فإن قلت: فلم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تزيه ذاته بقوله: "وما أنا بظلام للعبيد" ق: "ما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين" الزخرف: "إن الله لا يأمر بالفحشاء" الأعراف: ونظائر ذلك مما نطق به التزليل. قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل، فلينبه على أن هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه. وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم. ويجوز أن تضرب الجملة كما هي، وهي ختم لله على قلوبهم مثلاً كقولهم: سال به الوادي، إذا هلك. وطارت به العنقاء، إذا أطال الغيبة، وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في طول غيبته وإنما هو تمثيل مثلث حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء فكذلك مثلث حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغنام التي هي في خلوها عن الفطن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه، وليس له عز وجل فعل في تجافيتها عن الحق ونبوها عن قبوله، وهو متعال عن ذلك. ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله لله، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز. وهو لغيره حقيقة. تفسر هذا: أن للفعل ملابسات شتى يلابس. الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جرائته فيستعار له اسمه، فيقال في المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق. وفي عكسه: سيل مفعم. وفي المصدر: شعر شاعر، وذيل ذاتل. وفي الزمان فماره صائم. وليله قائم. وفي المكان: طريق سائر، ونهر جار. وأهل مكة يقولون: صلى المقام. وفي المسبب: بنى الأمير المدينة، وناقصة صبوث وحلوب. وقال:

إِذَا رَدَّ عَافِي الْقَدْرَ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا

فالشیطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر، إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه، أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب. ووجه رابع: وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغني عنهم الآيات والنذر، ولا تجدى عليهم الألفاظ المحصلة والمقربة إن أعطوها. لم يبق - بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعاً واختياراً - طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإجاء، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسرهم الله ويلجنهم ثم لم يقسرهم ولم يلجنهم لئلا ينتقض الغرض في التكليف، عبر عن ترك القسر والإجاء بالختم، إشعاراً بأنهم الذين ترامي أمرهم في التصميم على الكفر والإصرار عليه إلى حد لا يتناهون عنه إلا بالقسر والإجاء، وهي الغاية القصوى في

وصف لجاحهم في الغي واستشرائهم في الضلال والبغي. ووجه خامس: وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه فكما بهم من قولهم: "في قلوبنا أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقروم بيننا وبينك حجاب" فصلت: ونظيره في الحكاية والتهكم قوله تعالى: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة" البينة: فإن قلت: اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلية في حكم الختم وفي حكم التغطية فعلى أيهما يعول، قلت: عل دخولها في حكم الختم لقوله تعالى: "وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة" الجاثية: ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم. فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في قوله: "وعلى سمعهم" قلت: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة، وحين استجد للأسماع تعدية على حدة، كان أدل على شدة الختم في الموضعين. ووجد السمع كما وجد البطن في قوله: كلوا في بعض بطنكم تعفوا، يفعلون ذلك إذا أمن اللبس. فإذا لم يؤمن كقولك: فرسهم، وثوبهم، وأنت تريد الجمع رفضوه. ولك أن تقول: السمع مصدر في أصله، والمصادر لا تجمع. فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن في قوله: "وفي آذاننا وقر" فصلت: وأن تقدر مضافاً محذوفاً: أي وعلى حواس سمعهم. وقرأ ابن أبي عبلة: وعلى أسماعهم. فإن قلت: هلا منع أبا عمرو والكسائي من إمالة أبصارهم ما فيه من حرف الاستعلاء وهو الصاد قلت: لأن الزاء المكسورة تغلب المستعلية، لما فيه من التكرير كأن فيها كسرتين، وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لا يمال. والبصر نور العين، وهو ما يبصر به الرائي ويحرك المرئيات. كما أن البصيرة نور القلب، وهو ما به يستبصر ويتأمل. وكأتهما جوهرا ن لطيفان خلقهما الله فيهما آلتين للإبصار والاستبصار. وقرئ "غشاوة" بالكسر والنصب. و"غشاوة": بالضم والرفع. و"غشاوة": بالفتح والنصب. و"غشاوة": بالكسر والرفع. و"غشاوة": بالفتح والرفع والنصب. و"غشاوة": بالعين غير المعجمة والرفع، من العشا. والعذاب: مثل النكال بناء ومعنى، لأنك تقول: أعذب عن الشيء، إذا أمسك عنه. كما تقول: نكل عنه. ومنه العذب، لأنه يقمع العطش ويردعه، بخلاف الملح فإنه يزيد. ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخاً، لأنه ينقخ العطش أي يكسره. وفراًتاً، لأنه يرفته على القلب. ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذاباً، وإن لم يكن نكالاً - أي عقاباً يرتدع به الجاني عن المعاودة.

والفرق بين العظيم والكبير، أن العظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض الصغير، فكان العظيم فوق الكبير، كما أن الحقير دون الصغير. ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً. تقول: رجل عظيم وكبير، تريد جثته أو خطره. ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهو غطاء التعامي عن آيات الله. ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

اللهم أجرننا من عذابك ولا تبلنا بسخطك يا واسع المغفرة.

"وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ! يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ"

افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألتستهم ووافق سرهم علنهم وفعلهم قولهم. ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً وألسنة. ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم: "مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء" النساء: وسماهم المنافقين، وكانوا

أحبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً، وبالشرك استهزاء وخداعاً. ولذلك أنزل فيهم "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار" النساء: ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خيبتهم ومكرهم، وفضحهم وسفهمهم، واستجهلهم واستهزأ بهم، وتهمك بفعلهم، وسجل بطغيانهم، وعمهمهم ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة. وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة.

وأصل "ناس" أناس، حذفت همزته تخفيفاً كما قيل: لوقه، في ألوقه. وحذفها مع لام التعريف كاللازم لا يكاد يقال الأناس. ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسي وإنس. وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما سمي الجن لا جنتانهم. ولذلك سموا بشراً. ووزن ناس فعال، لأن الزنة على الأصول. ألا تراك تقول في وزن "فه" افعّل، وليس معك إلا العين وحدها، وهو من أسماء الجمع كرخال. وأما نويس فمن، المصغر الآتي على خلاف مكبره كأيسيان ورويجل. ولام التعريف فيه للجنس. ويجوز أن تكون للعهد، والإشارة إلى الذين كفروا المارّ ذكرهم، كأنه قيل: ومن هؤلاء من يقول. وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق. ونظير موقعه موقع القوم في قولك: نزلت ببني فلان فلم يقرؤني والقوم لئام.

ومن في "من يقول" موصوفة، كأنه قيل: ومن الناس ناس يقولون كذا، كقوله:

"من المؤمنين رجال" الفتح: إن جعلت اللام للجنس. وإن جعلتها للعهد فموصولة، كقوله: "ومنهم الذين يؤذون النبي" التوبة: فإن قلت: كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم، قلت: الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً. وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا الجنس - مغايراً للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء - لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس، فإن الأجناس إنما تنوعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض. وتلك المغايرات إنما تأتي بالنوعية ولا تأتي الدخول تحت الجنسية. فإن قلت: لم اختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، قلت: اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم في الخبث وتماديهم في الدعارة، لأن القوم كانوا يهوداً، وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان، لقولهم: "عزيز ابن الله" التوبة: وكذلك إيمانهم باليوم الآخر، لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته، فكان قولهم: "إيماناً بالله وباليوم الآخر" خبثاً مضاعفاً وكفراً موجهاً، لأن قولهم هذا لو صدر عنهم لاعلى وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم، فهو كفر لا إيمان. فإذا قالوه على وجه النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم، وأروهم أنهم مثلهم في الإيمان الحقيقي، كان خبثاً إلى خبث، وكفراً إلى كفر.

وأيضاً فقد أوهمو في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان من جانبيه، واكتفوه من قطريه، وأحاطوا بأوله وآخره. وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيماني على صفة الصحة والاستحكام. فإن قلت: كيف طابق قوله: "وما هم بمؤمنين" قولهم: "إيماناً بالله وباليوم الآخر" والأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل. قلت: القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه، فسلك في ذلك طريق أدى إلى الغرض المطلوب. وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان. وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع. ونحوه قوله تعالى: "يريدون أن يخرجوا من النار وما

هم بخارجين منها" المائدة: هو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها. فإن قلت: فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأول، قلت: يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر، ولا من الإيمان بغيرهما. فإن قلت: ما المراد باليوم الآخر، قلت: يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حد له وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع، لتأخره عن الأوقات المنقضية. وأن يراد الوقت الخمود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده.

والخدع: أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه. من قولهم: ضب خادع وخدع، إذا أمر الحارث يده على باب حجره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر. فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع، والمؤمنون وإن جاز أن يخدعوا لم يجوز أن يخدعوا، ألا نرى إلى قوله:

واستمتطروا من قريش كل منخدع

وقول ذي الرمة:

إن الحليم وذو الإسلام يختلب

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع. قلت: فيه وجوه. أحدها: أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كفرون، صورة صنع الخادعين. وصورة صنع الله معهم - حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار - صورة صنع الخادعين، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم. والثاني: أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه، لأن من كان ادعائه الإيمان بالله نفاقاً لم يكن عارفاً بالله ولا بصفاته، ولا أن لذاته تعلقاً بكل معلوم، ولا أنه غنى عن فعل القباح، فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله في زعمه مخدوعاً ومصاباً بالمكروه من وجه خفي، وتجويز أن يدلّس على عبادته ويخدعهم. والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه خليفته في أرضه، والناطق عنه بأوامره ونواهيته مع عبادته، كما يقال: قال الملك كذا ورسم كذا، وإنما القائل والرأس وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه. مصداقه قوله: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم" الفتح: وقوله: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" النساء: والرابع: أن يكون من قولهم: أعجبنى زيد وكرمه، فيكون المعنى يخادعون الذين آمنوا بالله. وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص، ولما كان المؤمنون من الله بمكان، سلك بهم ذلك المسلك. ومثله: "الله ورسوله أحق أن يرضوه" التوبة: وكذلك: "إن الذين يؤذون الله ورسوله" الأحزاب: ، ونظيره في كلامهم: علمت زيدا فاضلاً، والغرض فيه ذكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه، لأنه كان معلوماً له قديماً، كأنه قيل: علمت فضل زيد ولكن ذكر زيد توطئة وتهديد لذكر فضله. فإن قلت: هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح، قلت: وجهه أن يقال: عني فعلت إلا أنه أخرج في زنة

فاعلت لأن الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبار لزيادة قوة الداعي إليه. وبعضه قراءة من قرأ: "يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا" وهو أبو حيوة. و"يَخْدَعُونَ" بيان ليقول. ويجوز أن يكون مستأنفاً كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين وما رفقهم في ذلك. فقيل يخادعون. فإن قلت: عم كانوا يخادعون، قلت: كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإعفاؤهم عن المحاربة وعما كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار. ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغامر ونحو ذلك من الفوائد، ومنها اطلاعهم - لاختلاطهم بهم - على الأسرار التي كانوا حراساً على إذاعتها إلى منابذهم. فإن قلت: فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخداعهم عنها. قلت: لم يظهر عليهم لما أحاط به علماً من المصالح التي لو أظهر عليهم لانقلبت مفاصد واستبقاء إبليس وذريته ومتاركتهم وما هم عليه من إغواء المنافقين وتلقينهم النفاق أشد من ذلك. ولكن السبب فيه ما علمه تعالى من المصلحة. فإن قلت: ما المراد بقوله: "وما يخادعون إلا أنفسهم" قلت: يجوز أن يراد: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها يلحقهم، ومكرها يحيق بهم، كما تقول: فلان يضار فلاناً وما يضار إلا نفسه، أي: دائرة الضرر راجعة إليه وغير متخطية إياه، وأن يراد حقيقة المخادعة أي: وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمتنونها الأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به، وأنفسهم كذلك تمنهم وتحذتهم بالأمان وأن يراد: وما يخدعون فجيء به على لفظ يفاعلون للمبالغة. وقرئ: "وما يخدعون" ويخدعون من خدع. ويخدعون - بفتح الياء - بمعنى يخدعون. ويخدعون. ويخدعون على لفظ ما لم يسم فاعله. والنفس: ذات الشيء وحقيقته. يقال عندي كذا نفساً. ثم قيل للقلب: نفس، لأن النفس به. ألا ترى إلى قولهم: المرء بأصغريه. وكذلك بمعنى الروح، وللدنفس، لأن قوامها بالدم. وللماء نفس، لفرط حاجتها إليه. قال الله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي" الأنبياء: وحقيقة نفس الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه، كقولهم: فلان يؤامر نفسه - إذا تردد في الأمر اتجه له رأيان وداعيان لا يدري على أيهما يعرج كأنهم أرادوا داعي النفس، وهاجسي النفس فسموهما: نفسيين، إما لصدورهما عن النفس، وإما لأن الداعيين لما كانا كالمشيرين عليه والآمريين له، شبهوهما بذاتين فسموهما نفسيين. والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم. والمعنى بمخادعتهم ذواتهم، أن الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى من سواهم. ويجوز أن يراد قلوبهم ودواعيهم وأراؤهم.

والشعور علم الشيء علم حس من الشعار. ومشاعر الإنسان: حواسه. والمعنى أن لحوق ضرر فلك بهم كالحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حس له.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول: في جوفه مرض. والمجاز أن يستعار لبعض - أعراض القلب، كسوء الاعتقاد، والغل، والحسد والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى، والجبن، والضعف، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائص ذلك. والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر، أو من الغل والحسد والبغضاء، لأن صدورهم كانت تغلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين غلا وحنقاً ويغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله: "قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر" آل عمران: ويترقون عليهم حسداً إن تمسككم

حسنة تسؤهم" ال عمران: وناهيك مما كان من ابن أبي وقول سعد بن عباد لرسول الله صلى الله عليه وسلم " اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطاح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصاة فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك" أو يراد ما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور، لأن قلوبهم كانت قوية، إما لقوة طمعهم فيما كانوا يتحدثون به: أن ربح الإسلام قُب حيناً ثم تسكن ولواءه يخفق أياماً ثم يقر، فضعفت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله. وإما لجراءتهم وجسارتهم في الحروب فضعفت جبناً وخوراً حين قذف الله في قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت بالرعب مسيرة شهر". ومعنى زيادة الله إياهم مرضاً أنه كلما أنزل على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، فكأن الله هو الذي زادهم ما ازدادوه إسناداً للفعل إلى المسبب له، كما أسنده إلى السورة في قوله: "فزادهم رجساً إلى رجسهم" التوبة: لكونها سبباً. أو كلما زاد رسوله نصرة وتبسطاً في البلاد ونقصاً من أطراف الأرض ازدادوا حسداً وغلا وبغضاً وازدادت قلوبهم ضعفاً وقلة طمع فيما عقدوا به رجاءهم وجبناً وخوراً. ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع. وقرأ أبو عمرو في رواية الأصمعي: مرض، ومرضاً، بسكون الراء، يقال ألم فهو" الأليم" كوجع فهو وجيع ووصف العذاب به نحو قوله: "تحية بينهم ضرب وجيع" وهذا على طريقة قولهم: جد جده. والألم في الحقيقة للمؤلم كما أن الجدة للجدة. والمراد بكذبهم قولهم "آمنا بالله وباليوم الآخر" وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته، وتخيل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم. ونحوه قوله تعالى: "مما خطيأتم أغرقوا" نوح: والقوم كفرة. وإنما خصت الخطيئات استعظاماً لها وتنفيراً عن ارتكابها. والكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو قبيح كله. وأما ما يروى عن إبراهيم عليه السلام.

"أنه كذب ثلاث كذبات" فالمراد التعريض. ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمي به. وعن أبي بكر رضي الله عنه وروى مرفوعاً: "ياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان" وقرئ "يكذبون"، من كذبه الذي هو نقيض صدقه أو من كذب الذي هو مبالغة في كذب، كما بولغ في صدق فقيل: صدق. ونظيرهما: بان الشيء وبين، وقلص الثوب وقلص. أو بمعنى الكثرة كقولهم: موت البهائم، وبركت الإبل، أو من قولهم: كذب الوحشي إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه لأن المنافق متوقف متردد في أمره، ولذلك قيل له مذبذب. وقال عليه السلام: "مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة".

"وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم إمتوا كما إمتا الناس قالوا أنؤمن كما إمت السفهاء ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين إمتوا قالوا إمتنا وإذا خلوا إلى شيطانهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين".

"وإذا قيل لهم "معطوف على يكذبون. ويجوز أن يعطف على "يقول آمنا" لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا، كان صحيحاً، والأول أوجه.

والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، ونقيضه الصلاح، وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة. والفساد في الأرض: هيج الحروب والفتن، لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الأوصاف والزرور والمنافع الدينية والدنيوية. قال الله تعالى: "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل" البقرة: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" البقرة: ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد. وكان فساد المنافقين في الأرض. أنهم كانوا يميلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين يافشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم، فلما كان ذلك من صنعهم مؤدياً إلى الفساد قيل لهم: "لا تفسدوا" كما تقول للرجل: لا تقتل نفسك بيدك، ولا تلق نفسك في النار، إذا أقدم على ما هذه عاقبته. "إنما" لقصر الحكم على شيء، كقولك: إنما ينطق زيد، أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد كاتب. ومعنى "إنما نحن" مصلحون" أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد. "وآلاً" مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي، لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً كقوله: "أليس ذلك بقادر" القيامة: ولكونها في هذا المنصب من التحقيق، لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرية بنحو ما يتلقى به القسم. وأختها التي هي أما من مقدمات اليمين وطلانها:

أَمَّا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ

أَمَّا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ

رد الله ما أدعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ رد وأدله على سخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما في كلتا الكلمتين آلاً. وإن من التأكيدين وتعريف الخبر وتوسيط الفصل. وقوله: "لا يشعرون" أتوهم في النصيحة من وجهين: أحدهما تقييح ما كانوا عليه لبعده من الصواب وجره إلى الفساد والفتنة. والثاني: تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوي الأحلام، ودخولهم في عدادهم فكان من جوابهم أن سفهوه لفرط سفههم، وجهلهم لتمادي جهلهم. وفي ذلك تسلية للعالم مما يلقي من الجهلة. فان قلت: كيف صح أن يسند "قيل" إلى "لا تفسدوا"، وآمنوا" وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح، قلت: الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل، وهذا إسناد له إلى لفظه، كأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام. فهو نحو قولك: ألف ضرب من ثلاثة أحرف. ومنه: زعموا مطية الكذب.

و"ما" في "كما" يجوز أن تكون كافة مثلها في ربما، ومصدرية مثلها في "بما رحبت" التوبة: واللام في "الناس" للعهد، أي كما آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم، أي: كما آمن أصحابكم وإخوانكم، أو للجنس أي: كما آمن الكاملون في الإنسانية. أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة، ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل. والاستفهام في "أنؤمن" في معنى الإنكار. واللام في "السفهاء" مشار بها إلى الناس، كما تقول لصاحبك: إن زيدا قد سعى بك، فيقول: أو قد فعل السفهاء. ويجوز أن تكون للجنس، وينطوي تحته الجاري ذكرهم على زعمهم واعتقادهم لأنهم

عندهم أعرق الناس في السفه. فإن قلت: لم سفهوههم واستركوا عقولهم، وهم العقلاء المراجيح. قلت: لأنهم لجهلهم وإخلاصهم بالنظر وإنصاف أنفسهم، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفهياً، ولأنهم كانوا في رياسة وسطة في قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب، فدعوههم سفهاء تحقيراً لشأنهم. أو أرادوا عبد الله بن سلام وأشياعه ومفارقتهم دينهم وما غاظهم من إسلامهم وفت في أعضادهم. قالوا ذلك على سبيل التجلد توقياً من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفه بمعزل، والسفه سخافة العقل وخفة الحلم. فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بـ "لا يَعْلَمُونَ" والتي قبلها بلا "يشعرون". قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دينوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالحسوس المشاهدة ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له. مساق هذه الآية بخلاف ما سيق له أول قصة المنافقين فليس بتكرير، لأن تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم ما في قلوبهم. وروى: "أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصدیق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. ثم افترقوا فقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت. فأثنوا عليه خيراً، فترلت".

ويقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريباً منه، وهو جاري ملاقي ومرأوي. وقرأ أبو حنيفة: وإذا لاقوا. وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه. ويجوز أن يكون من خلا بمعنى: مضى، وخلاك ذم: أي عداك ومضى عنك. ومنه: القرون الخالية، ومن خلوت به إذا سخرت منه. وهو من قولك: خلا فلان بعرض فلان يعيث به. ومعناه: وإذا أهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدوثهم بما. كما تقول: أحمد إليك فلاناً، وأذمه إليك. وشياطينهم: الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم. وقد جعل سيويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية، وفي آخر زائدة. والدليل على أصالتها قولهم: تشيطن، واشتقاقه من "شطن" إذا بعد، لبعده من الصلاح والخير. ومن "شاط" إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة. ومن أسمائه الباطل. "إنا معكم" إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم. فإن قلت:

لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن. قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما، لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعد على، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد. وأما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة. وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهري المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل.

ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: "ربنا إنا آمنا" ال عمران: وأما مخاطبة إخوانهم، فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائع عنهم متقبل منهم، فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد. فإن قلت: أنى تعلق قوله: "إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ" بقوله: "إنا معكم" قلت: هو توكيد له، لأن قوله: "إنا معكم" معناه الثبات على اليهودية. وقوله: "إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ" رد للإسلام ودفع له منهم، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتدأ به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته أو بدل منه، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر. أو استئناف، كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم: "إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ" فقالوا: فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام فقالوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ. والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة - من الهزء وهو القتل السريع - وهزأ يهزأ: مات على المكان. عن بعض العرب: مشيت فلغبت فظننت لأهزان على مكاني. وناقته هزأ به: أي تسرع وتخف. فإن قلت: لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى، لأنه متعال عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله: "قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين" البقرة: ،، فما معنى استهزائه بهم. قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك. وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة. والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساحرون ويضحك الضاحكون. ويجوز أن يراد به ما مر في "يخدعون" من أنه يجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر، وهو مبطن بادخار ما يراد بهم، وقيل: سمي جزاء

الاستهزاء باسمه كقوله: "وجزاء سيئه سيئه مثلها" الشورى: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه" البقرة: ،. فإن قلت: كيف ابتدئ قوله: "الله يستهزئ بهم" ولم يعطف على الكلام قبله. قلت: هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة. وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزأؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه له في مقابلته، لما يترل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل. وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يجوز للمؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله. فإن قلت: فهلا قيل الله مستهزئ بهم ليكون طبقاً لقوله: "أِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ" قلت: لأن "يستهزئ" يفيد حدوث الاستهزاء وتجددته وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم "أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين" التوبة: وما كانوا يخلون في كثير أوقاتهم من تمتك أستار وتكشف أسرار، ونزول في شأنهم واستشعار حذر من أن يترل فيهم "يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون" التوبة: ويمدهم في طغيانهم من مد الجيش وأمدته إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره. وكذلك مد الداوة وأمدتها: زادها ما يصلحها. ومددت السرج والأرض: إذا استصلحتهما بالزيت والسماد. ومدته الشيطان في الغي وأمدته: إذا واصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزعاده انهماكاً فيه. فإن قلت: لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال. قلت: كفاك دليلاً على أنه من المدد دون المد قراءة ابن كثير وابن محيصن: "ويمدهم" وقراءة نافع: "وإخوانهم بمدونهم" الأعراف: على أن الذي بمعنى أمهله إنما هو مد له مع اللام كأملى له. فإن قلت: فكيف جاز أن يوليهم الله مدداً في الطغيان وهو فعل

الشياطين، ألا ترى إلى قوله تعالى: "وإخوانهم يمدوهم في الغي" الأعراف: قلت: إما أن يحمل على أنهم لما منعهم الله لطفه التي يمنحها المؤمنين، وخذهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه، بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها، تزايد الإنشراح والنور في قلوب المؤمنين فسمى ذلك التزايد مدداً. وأسند إلى الله سبحانه لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم. وإما على منع القسر والإلجاء وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه يتمكنه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده. فإن قلت: فما حملهم على تفسير المد في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه. قلت: استجرهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين لكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام. ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحقي سليماً من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل. ويعضد ما قلناه قول الحسن في تفسيره: في ضلالتهم يتمادون، وأن هؤلاء من أهل الطبع. والطغيان: الغلو في الكفر، ومجاوزة الحد في العتو. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: "في طغيانهم" بالكسر وهما لغتان، كلقيان ولقيان، وغنيان وغنيان. فإن قلت: أي نكتة في إضافته إليهم، قلت: فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحتهم أيديهم، وأن الله برئ منهم رداً لا اعتقاد الكفرة القائلين: لو شاء الله ما أشركنا، ونفياً لو هم من عسى يتوهم عند إسناد المد إلى ذاته لو لم يضيف الطغيان إليهم ليميط الشبه ويقلعها ويدفع في صدر من يلحد في صفاته. ومصدق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين، أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله: "وإخوانهم يمدوهم في الغي" الأعراف: والعمه: مثل العمى، إلا أن العمى عام في البصر والرأي، خاصة، وهو التحير والتردد، لا يدري أين يتوجه. ومنه قوله: بالجاهلين العمه، أي الذين فين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق. وسلك أرضاً عمها: لا منار بها. ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به، على سبيل الاستعارة، لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر. ومنه:

وبالثنائيا الواضحات الدردرا

أَخَذْتُ بِالْجُمَةِ رَأْساً أَزْعَرَا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وبالطويل العمر عمراً حيدرا

وعن وهب: قال الله عز وجل فيما يعيب به بني إسرائيل: "تفقهون لغير الدين، وتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة". فإن قلت: كيف اشترؤا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى، قلت: جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوا به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة.

والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء. يقال: ضل منزله، وضل دريص نفقه استعير للذهاب عن الصواب في الدين. والريح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي: الشف، من قولك: أشف بعض ولده على بعض، إذا فضله. ولهذا على هذا شف. والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشترى للربح. وناقاة تاجرة: كأنها من حسناتها

وسمعتها تبيع نفسها. وقرأ ابن أبي عبلة تجاراتهم. فإن قلت: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها، قلت: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشتريين. فإن قلت: هل يصح: ربح عبدك وخسرت جاريته، على الإسناد المجازي. قلت: نعم إذا دلت الحال. وكذلك الشرط في صحة: رأيت أسداً، وأنت تريد المقدم، إن لم تقم حال دالة لم يصح. فإن قلت: هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة. كأن ثم مبيعة على الحقيقة. قلت: هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالجاز الذروة العليا، وهو أن تساق كلمة مساق الجاز، ثم تقف بأشكال لها وأخوات، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً، وهو الجاز المشرح. وذلك نحو قول العرب في البليد: كأن أذني قلبه خطلاً، وإن جعلوه كالحمار، ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة، فادعوا لقلبه أذنين، وادعوا لهما الخطل، ليمثلوا البلدة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معانية. ونحوه:

ولما رأيت النسر عزابن دأيه وعشش في وكره جاش له صدري

لما شبه الشيب بالنسر، والشعر الفاحم بالغراب، أتبعه ذكر التعشيش والوكر. ونحوه قول بعض فتاكهم في أمه:

فما أم الردين وإن أدلت بعالمه بأخلاق الكرام
إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقتاه بالحبل التوام

أي إذا دخل الشيطان في قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثني الحكم. يريد: إذا حردت وأساءت الخلق اجتهدنا في إزالة غضبها وإماطة ما يسوء من خلقها. استعار التقصيع أولاً، ثم ضم إليه التنفق، ثم الحبل التوام. فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه، تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته. فإن قلت: فما معنى قوله "فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين". قلت: معناه أن الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيئان: سلامة رأس المال، والربح. وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً لأن رأس مالهم كان هو الهدى، فلم يبق لهم مع الضلالة. وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة، لم يوصفوا بإصابة الربح. وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية، لأن الضال خاسر دامر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأسماله: قد ربح، وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيهم ويخسر. "مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون"

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتميماً للبيان. ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر - شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة الخلق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد. وفيه تبيك للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء. قال الله تعالى: "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون" العنكبوت: ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل في أصل كلامهم: بمعنى المثل، وهو النظر. يقال: مثل ومثل ومثيل، كشبه وشبه

وشبيهه. ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل. ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول، إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه. ومن ثم حوِّفَ عليه وحُمِيَ من التغيير. فإن قلت: ما معنى "مثلهم" كمثال الذي استوقد ناراً؟ وما مثل المنافقين ومثل الذي استوقد ناراً حتى شبه أحد المثليين بصاحبه قلت: قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام، للحال أو الصفة أو القصة، إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال النيران التي استوقد ناراً. وكذلك قوله: "مثل الجنة التي وعد المتقون" الرعد: أي وفيما قصصنا عليك من العجائب، قصة الجنة العجيبة. ثم أخذ في بيان عجائبيها: "ولله المثل الأعلى" النحل: أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. "مثلهم في التوراة" الفتح: أي صفتهم وشأنهم المتعجب منه. ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا: فلان مثله في الخير والشر، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن. فإن قلت: كيف مثلت الجماعة بالواحد قلت: وضع الذي موضع الذين، كقوله: "وخضتم كالذي خاضوا" التوبة: والذي سوغ وضع الذي موضع الذين، ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران: أحدهما: أن "الذي" لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجمله، وتكاثر وقوعه في كلامهم، ولكونه مستطالاً بصلته، تحقيقاً بالتخفيف، ولذلك تمكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرتة ثم اقتصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين والثاني: أن جمعه ليس بمثلة جمع غيره بالواو والنون. وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة. ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع، والواحد فيهن واحد. أو قصد جنس المستوقدين. أو أريد الجمع أو الفوج الذي استوقد ناراً. على أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد. ونحوه قوله: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها" كمثل الحمار يحمل أسفاراً الجمعة: وقوله: "ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت" محمد: ووقود النار: سطوعها وارتفاع لهبها. ومن أخواته: وقل في الجبل إذا صعد وعلا، والنار: جوهر لطيف مضيء حار محرق. والنور: ضوءها وضوء كل نير، وهو نقيض الظلمة. واشتقاقها من نار ينور إذا نفر، لأن فيها حركة واضطراباً، والنور مشتق منها. والإضاءة: فرط الإنارة. ومصدق ذلك قوله: "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا" يونس: وهي في الآية متعدية. ويحتمل أن تكون غير متعدية مسندة إلى ما حوله. والتأنيث للحمل على المعنى، لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء. ويعضده قراءة ابن أبي عبيدة "ضاءت". وفيه وجه آخر، وهو أن يستتر في الفعل ضمير النار. ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمثلة إشراق النار نفسها، على أن ما مزيدة أو موصولة في معنى الأمكنة. "وحوله" نصب على الظرف وتأليفه للدوران والإطافة. وقيل للعام: حول، لأنه يدور. فإن قلت: أين جواب لما قلت: فيه وجهان: أحدهما أن جوابه "ذهب الله بنورهم". والثاني: أنه محذوف كما حذف في قوله: "فلما ذهبوا" يوسف: وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى، كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين على فوت الضوء، خائبين بعد الكدح في إحياء النار. فإن قلت: فإذا قدر الجواب محذوفاً فبم يتعلق "ذهب الله بنورهم" قلت: يكون كلاماً مستأنفاً. كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي

طفئت ناره، اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حال هذا المستوقد فقليل له: ذهب الله بنورهم. أو يكون

بدلاً من جملة التمثيل على سبيل البيان. فإن قلت: قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني قلت: مرجعه الذي استوقد، لأنه في معنى الجمع. وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في "حوله" فللحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى. فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله: "ذهب الله بنورهم" قلت إذا طفت النار بسبب سماوي ريح أو مطر، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد. ووجه آخر، وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله. ثم إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام، وتلك النار متقاصرة مدة اشتغالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله: "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله المائدة"، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، ويتهادوا بها في طرق العبث، فأطفأها الله وخيب أمانيهم. فإن قلت: كيف صح في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد قلت: هو خارج على طريقة انجاز المرشح فأحسن تدبره. فإن قلت: هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقوله: "فلما أضاءت" قلت: ذكر النور أبلغ، لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة. فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً. ألا ترى كيف ذكر عقيبه "وتركهم في ظلمات" والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها، وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهم لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله: "لا يبصرون". فإن قلت: فلم وصفت بالإضاءة. قلت: هذا على مذهب قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل. ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت، ونار العرفج مثل لزوة كل طماح. والفرق بين أذهبه وذهب به، أن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً. ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه. وذهب السلطان بماله: أخذه" فلما ذهبوا به، "إذاً لذهب كل إله بما خلق" المؤمنون: ومنه: ذهب به الخيلاء. والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه، "وما يمسك فلا مرسل له" فاطر: فهو أبلغ من الإذهاب. وقرأ اليماني: أذهب الله نورهم. وترك: بمعنى طرح وخلّى، إذا علق بواحد، كقولهم: تركه ترك ظبي ظله. فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير، فيجرى مجرى أفعال القلوب كقول عنتره:

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَنْشَنُهُ

ومنه قوله: "وتركهم في ظلمات" أصله: هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين. والظلمة عدم النور. وقيل: عرض ينافي النور. واشتقاقها من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا: أي ما منعك وشغلك، لأنها تسد البصر وتمنع الرؤية. وقرأ الحسن "ظلمات" بسكون اللام وقرأ اليماني "في ظلمة" على التوحيد. والمفعول الساقط من "لا يبصرون" من قبيل المتروك المطرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لامن قبيل المقدر المنوى، كأن الفعل غير متعد أصلاً، نحو "يعمّهون" في قوله: "ويذرهم في طغيانهم يعمهون" الأعراف: فإن قلت: فيم شبهت حالهم بحال المستوقد قلت: في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورطوا في حيرة. فإن قلت: وأين الإضاءة في حال المنافق وهل هو أبداً إلحاحترخا بط في ظلماء الكفر قلت: المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد. ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم وما افترضوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق والأوجه

أن يراد الطبع، لقوله: "صُم بكم عُمى". وفي الآية تفسير آخر: وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ماحول المستوقد، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات. وتنكير النار للتعظيم. كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الإصاحبة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله:

صُم إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ **وإن ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا**

أَصَمَّ عَمَّا سَاءَ سَمِيع

وأسمع خلق الله حين أريد

أصم عن الشيء الذي لا أريده

عَنِ الْجُودِ وَالْفَخْرِ يَوْمَ الْفَخَارِ

فَأَصَمَّتْ عَمْرًا وَأَعْمَيْتَهُ

فإن قلت: كيف طريقته عند علماء البيان قلت: طريقة قولهم "هم ليوث" للشجعان، وبحور للأسخياء. إلا أن هذا في الصفات، وذاك في الأسماء، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً. تقول: رأيت ليوثاً، ولقيت صماً عن الخير، ودجا الإسلام. وأضاء الحق. فإن قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة، قلت: مختلف فيه. واخفقون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون. والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه، لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام، كقول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ **لَهُ لَبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمِ**

من ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً. قال أبو تمام:

وَيُصْعِدُحَتِي يُظَنُّ الْجَهْلُ **بَأَنَّهُ لَهُ حَاجَةٌ فِي السَّمَاءِ**

وبعضهم:

لَا تَحْسَبُوا أَنَّ فِي سِرِّبَالِهِ رَجُلًا **فَفِيهِ غَيْثٌ وَلَيْثٌ مُسْبِلٌ مُشْبِلٌ**

وليس لقائل أن يقول: طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة لأنه في حكم المنطوق به، نظيره قول من يخاطب الحجاج:

أَسَدٌ عَلَيَّ فِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ **فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الضَّافِرِ**

ومعنى "لا يرجعون" أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلاً عليهم بالطبع، أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكائهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وكيف يرجعون إلى حيث ابتدؤوا منه.

"أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في أذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب

بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير" ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف، وإيضاحاً غيباً. وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشيع. أنشد الجاحظ:

يوحون بالخطب الطول وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

ومما ثنى من التمثيل في التزييل قوله: "وما يستوي الأعشى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات" فاطر: وألا ترى إلى ذي الرمة كيف صنع في قصيدته:

أذاك أم نمش بالوشى أكرعه

أذاك أم خاضب بالسي مرتعه

فإن قلت: قد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد ناراً، واطهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، فما ذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق والصواعق. قلت: لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق. وما يصيب الكفرة من الأفراع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل ذوي صيب. والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا. فإن قلت: هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات. وهلا صرح به كما في قوله: "وما يستوي الأعشى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء" غافر: وفي قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

قلت: كما جاء ذلك صريحاً فقد جاء مطوياً ذكره على سنن الاستعارة، كقوله تعالى: "وما يستوي البحران هذاعذب فرات سانع شرابه وهذا ملح أجاج" فاطر: "ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل" الزمر: والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه: أن التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفارقة لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به، وهو القول الفحل والمذهب الجزل، بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى، معزولاً بعضها من بعض، لم يأخذ هنا بحجرة ذاك فتشبهها بنظائرها، كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضاممت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً، بأخرى مثلها كقوله تعالى: "مثل الذين حملوا التوراة" الجمعة: الآية. الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب. وكقوله: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء" الكهف: المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر. فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومضرة شيئاً واحداً، فلا. فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خطبوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفنت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق. فإن قلت: الذي كنت تقدره في المفروق من

التشبيه من حذف المضاف وهو قولك: "أو كمثل ذوي صيب" هل تقدر مثله في المركب منه قلت: لولا طلب الراجع في قوله تعالى: "يجعلون أصبعهم في آذانهم" ما يرجع إليه لكنت مستغنياً عن تقديره، لأنني أراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا علي أولي حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله. ألا ترى إلى قوله: "إنما مثل الحياة الدنيا" يس: الآية، كيف ولي الماء الكاف، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره. ومما هو بين في هذا قول لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدوا بلأقع

لم يشبه الناس بالديار، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم، بحلول أهل الديار فيها ووشك هوضهم عنها، وتركها خلاء خاوية. فإن قلت: أي التمثيلين أبلغ قلت: الثاني، لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفضاعته، ولذلك أخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ. فإن قلت: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك قلت: أو في أصلها لتساوي شئتين فصاعداً في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك، وذلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما سيان في استصواب أن يجالسا، ومنه قوله تعالى: "ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً" الإنسان: أي الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما، فكذلك قوله: "أو كصيب" معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأن القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل، فأبأيتهما مثلتها فأنت مصيب، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك. والصيب: المطر الذي يصوب، أي يترل ويقع. ويقال للسحاب: صيب أيضاً. قال الشماخ:

وأسحم دان صادق الرعد صيب

وتنكير صيب لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل. كما نكرت النار في التمثيل الأول. وقرئ: كصائب، والصيب أبلغ. والسماء: هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف. فإن قلت: قوله: "من السماء" ما الفائدة في ذكره والصيب لا يكون إلا من السماء. قلت: الفائدة فيه أنه جاء بالسماء معرفة فنفي أن يتصوب من سماء، أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق، لأن كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله: "وأوحى في كل سماء أمرها" فصلت: الدليل عليه قوله:

ومن بعد أرض بيننا وسماء

والمعنى أنه غمام مطبق آخذ بأفاق السماء، كما جاء بصيب. وفيه مبالغات من جهة التركيب والبناء والتنكير. أمد ذلك بأن جعله مطبقاً. وفيه أن السحاب من السماء ينحدرو منها يأخذ ماءه، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر. ويؤيده قوله تعالى: "ويترل من السماء من جبال فيها من برد" النور: فإن قلت: بم ارتفع ظلمات قلت: بالظرف على الاتفاق لاعتماده على موصوف. والرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنقض إذا حدثها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد. والبرق الي يلعب من السحاب، من برق الشيء بريقاً إذا لمع. فإن قلت: قد جعل الصيب مكاناً للظلمات فلا يخلو من أن يراد به السحاب أو المطر، فأيهما أريد فما

ظلماته قلت: أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقاً فظلمتا سجمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل. وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر، وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل. فإن قلت: كيف يكون المطر مكاناً للبرق والرعد وإنما مكانهما السحاب. قلت إذا كانا في أعلاه ومصبه وملتبسين في الجملة فهما فيه. ألا تراك تقول: فلان في البلد، وما هو منه إلا في حيز يشغله جرمه. فإن قلت: هلا جمع الرعد والبرق أخذاً بالأبلغ كقول البحرى:

يَا عَارِضاً مُتْلَفَعاً بِبُرُودِهِ يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ وَرُعُودِهِ

وكما قيل ظلمات قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد العينان، ولكنهما لما كانا مصدرين في الأصل - يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً -، روعى حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع. والثاني: أن يراد الحدثان كأنه قيل: وإرعاد وإبراق وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات، لأن المراد أنواع منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف. وجاز رجوع الضمير في يجعلون إلى أصحاب الصيب مع كونه محذوفاً قائماً مقامه الصيب، كما قال: "أو هم قائلون" الأعراف: لأن الحذوف باق معناه وإن سقط لفظه. ألا ترى إلى حسان كيف عول على بقاء معناه في قوله:

يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ

حيث ذكر يصفق لأن المعنى، ماء بردى، ولا محل لقوله: "يَجْعَلُونَ"، لكونه مستأنفاً، لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول، فكأن قائلاً قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد فقليل: "يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ" ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق فقليل: يكاد البرق يخطف أبصارهم. فإن قلت: رأييس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن فهلا قيل أناملهم، قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها، كقوله: "فاغسلوا وجوهكم وأيديكم" المائدة: "فاقطعوا أيديهما" المائدة: أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ. وأيضاً ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل. فإن قلت: فالأصبع التي تسد بها الأذن أصبع خاصة، فلم ذكر الاسم العام دون الخاص قلت: لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بأداب القرآن. ألا ترى أنهم قد استيشعوا فكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة والدعاء. فإن قلت: فهلا ذكر بعض هذه الكنايات قلت: هي ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد، وإنما أحدثوها بعد. وقوله: "من الصواعق" متعلق بيجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم، كقولك: سقاه من العيمة. والصاعقة: قصفة رعد تنقض معها شقة من نار، قالوا: تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامه، وهي نار لطيفة حديدية. لا تمر بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حداثتها سريعة الخمود. يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفت. ويقال: صعقته الصاعقة إذا أهلكته، فصعق، أي مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق. ومنه قوله تعالى: "وخرموسى صعقاً" الأعراف: وقرأ الحسن: "من الصواعق" وليس بقلب للصواعق، لأن كلا البنائين سواء في التصرف، وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله. ألا تراك تقول: صعقه على رأسه، وصقع الديك، وخطيب مصقع: مجهر

بخطبته. ونظيره "جذب" في "جذب" ليس بقلبه لاستوائيهما في التصرف. وبنائها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد، أو للرعد، والتاء مبالغة كما في الراوية، أو مصدرًا كالكاذبة والعافية. وقرأ ابن أبي ليلى: حذار الموت، وانتصب على أنه مفعول له كقوله:

وَأَغْفِرْ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادْخَارُهُ

والموت فساد بنية الحيوان. وقيل: عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة. وإحاطة الله بالكافرين مجاز. والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت الحاط به أخيط به حقيقة. وهذه الجملة اعتراض لا محل لها. والخطف: الأخذ بسرعة. وقرأ مجاهد "يخطف" بكسر الطاء، والفتح أفصح وأعلى، وعن ابن مسعود: يختطف. وعن الحسن: يخطف، بفتح الياء والحاء، وأصله يختطف. وعنه: يخطف، بكسرهما على إتباع الياء الحاء. وعن زيد بن علي: يخطف، من خطف. وعن أبي: "يتخطف"، من قوله: "وتخطف الناس من حولهم" العنكبوت: "كلما أضاء لهم" استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في تارقي خفوق البرق وخفيته وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لراد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق فأعماهم. وأضاء: إما متعد بمعنى: كلما نور لهم ممشي ومسلكا أخذوه والمفعول محذوف. وإما غير متعد بمعنى: كلما لمع لهم "مشوا" في مطرح نوره وملقى ضوءه. ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: كلما ضاء لهم. والمشي: جنس الحركة المخصوصة. فإذا اشتد فهو سعي. فإذا ازداد فهو عدو. فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة: كلما، ومع الإظلام: إذا قلت: لأنهم حراس على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي وتأنيبه، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحبس. وأظلم: يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر، وأن يكون متعداً منقولاً من ظلم الليل. وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب: أظلم، على ما لم يسم فاعله. وجاء في شعر حبيب بن أوس:

هُمَا أَظْلَمَا حَالِي ثُمْتَ أَجَلِيَا ظَلَامِيَهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ

وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لو ثوقهم بروايته واتقانه. ومعنى "قاموا" وقفوا وثبتوا في مكانهم. ومنه: قامت السوق، إذا ركدت وقام الماء: جمد. ومفعول "شاء" محذوف، لأن الجواب يدل عليه، والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها، ولقد تكاثر هذا الحذف في "شاء" و"أراد" لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنعو قوله:

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ

وقوله تعالى: "لو أردنا أن نتخذ لهم آياتنا لاتخذناها من لدنا الأنبياء:" ولو أراد الله أن يتخذ ولدا "الزمر". وأراد: ولو شاء الله لذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق. وقرأ ابن أبي عبلة: لأذهب بأسماعهم، بزيادة الباء كقوله: "ولا تلقوا بأيديكم" البقرة. والشيء: ما صح أن يعلم ويخبر عنه. قال سيبويه - في ساقه الباب المترجم

باب مجاري أواخر الكلم من العربية -: وإنما يخرج التأنيث من التذكير. ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى، والشيء: مذكر، وهو أعم العام: كما أن الله أخص الخاص يجري على الجسم والعرض والقديم. تقول: شيء لا كالأشياء أي معلوم لا كسائر المعلومات، وعلى المعدوم والحال فإن قلت: كيف قيل: "على كل شيء قدير" وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل وفعل قادر آخر قلت: مشروط في حد القادر أن لا يكون الفعل مستحيلاً، فالمستحيل مستثنى في نفسه عند ذكر القادر على الأشياء كلها، فكأنه قيل: على كل شيء مستقيم قدير. ونظيره: فلان أمير على الناس أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس. وأما الفعل بين قادرين فمختلف فيه. فإن قلت: مم اشتقاق القدير قلت: من التقدير، لأنه يوقع فعله على مقدار قوته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز.

"يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون"

لما عدد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله: "إياك نعبد وإياك"، وهو فن من الكلام جزل، فيه هز وتحرير من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما: إن فلاناً من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقلك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي على جادة السداد في مصادرك ومواردك. نهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيهه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازماً من طبعه ملاً يجده إذا استمرت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتتان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف، يستفتح الآذان للاستماع، ويستشعش الأنفس للقبول، وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة: أن كل شيء نزل فيه: "يا أيها الناس" فهو مكى، و"يا أيها الذين آمنوا" فهو مدني، فقوله: "يا أيها الناس اعبدوا ربكم" خطاب لمشركي مكة، و"يا" حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه. وأما نداء القريب فله أي والهمزة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب. تزيلاً له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً. فإن قلت: فما بال الداعي يقول في جواره: يا رب، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به وأبصر قلت: هو استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقرين، هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله، مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله، و"أي" وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن "ذو" و"الذي" وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجميل. وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو "أي" والاسم التابع له صفته، كقولك: يا زيد الظريف، إلا أن "أياً" لا يستقل بنفسه استقلال "زيد" فلم ينفك من الصفة. وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد. وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أي من الإضافة. فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره. قلت: لاستقلاله بأوجه من

التأكيد وأسباب من المبالغة: لأن كل ما نادى الله له عباده - من أوامره ونواهي، وعظاته وزواجره ووعدته ووعيدته، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه - أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان - عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون. فاقترضت الحال أن ينادوا بالأكداً لأبلغ. فإن قلت: لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجهاً إلى المؤمنين والكافرين جميعاً، أو إلى كفار مكة خاصة، على ما روى عن علقمة والحسن، فالمؤمنون عابدون ربهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به وهل هو إلا كقول القائل:

فَلَوَّانِي فَعَلْتُ كُنْتُ مَنْ تَسَأَلُهُ وَهُوَ قَائِمٌ أَنْ يَقُومَا

وأما الكفار فلا يعرفون الله، ولا يقرون به فكيف يعبدونه قلت: المراد بعبادة المؤمنين: ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها. وأما عبادة الكفار فمشروط فيها ما لا بد لها منه وهو الإقرار، كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرهما وما لا بد للفعل منه، فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم يذكر، حيث لم يفعل إلا به، وكان من لوازمه. على أن مشركي مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله" الزخرف: . فإن قلت: فقد جعلت قوله "اعبدوا" متناولاً شيئين معاً: الأمر بالعبادة، والأمر بازديادها. قلت: الازدياد من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر. فإن قلت: "رَبِّكُمْ" ما المراد به، قلت: كان المشركون معتقدين ربوبيتين: ربوبية الله، وربوبية آلهتهم. فإن خصوا بالخطاب فالمراد به اسم يشترك فيه رب السموات والأرض والآلهة التي كانوا يسمونها أرباباً وكان قوله: "الذي خلقكم" صفة موضحة مميزة. وإن كان الخطاب للفرق جميعاً، فالمراد به "ربكم" على الحقيقة. والذي خلقكم: صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم. ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصة، إلا أن الأول أوضح وأصح. والخلق: إيجاد الشيء على تقدير واستواء. يقال: خلق النعل، إذا قدره وسواها بالمقياس. وقرأ أبو عمرو: "خلقكم" بالإدغام. وقرأ ابن السميع: وخلق من قبلكم. وفي قراءة زيد بن علي: "والذين من قبلكم" وهي قراءة مشككة، ووجهها على إشكالها أن يقال: أقحم الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً كما أقحم جرير في قوله:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِي لَا أَبَالِكُمْ

تيمما الثاني بين الأول وما أضيف إليه، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في: لا أبالك: ولعل للترجي أو الإشفاق. تقول: لعل زيدا يكرمني. ولعله يهيني. وقال الله تعالى: "لعله يتذكر أو يخشى" طه. "لعل الساعة قريب" الشورى: . ألا ترى إلى قوله: "والذين آمنوا مشفقون منها" الشورى: . وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن، ولكن لأنه إطماع من كريم رحيم، إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة، لجري إطماعه مجرى وعده اختوم وفأؤه به. قال من قال: إن "لعل" بمعنى "كي" و"لعل" لا تكون بمعنى "كي". ولكن الحقيقة ما ألفت إليك. وأيضاً فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم

على إنجازها على أن يقولوا: عسى، ولعل، ونحوهما من الكلمات أو يخلوا إحالة. أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة، فإذا عثر على شيء من ذلك منهم، لم يبق للطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز المطلوب. فعلى مثله ورد كلام مالك الملوكة ذي العز والكبرياء. أو يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد، كقوله: "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم" التحريم: فإن قلت: ف "لعل" التي في الآية ما معناها وما موقعها. قلت: ليست مما ذكرناه في شيء، لأن قوله: "خلقكم"، "لعلكم تتقون" لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة: وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً. ولكن "لعل" واقعة في الآية موقع انجاز لا الحقيقة، لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدوا بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى. فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا بترجح أمرهم - وهم مختارون بين الطاعة والعصيان - كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لا يفعل، ومصادقه قوله عز وجل: "ليبلوكم أيكم أحسن عمل" هود: الملك: وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب، ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار. فإن قلت: كما خلق المخاطبين لعلهم يتقون، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك، فلم قصره عليهم دون من قبلهم. قلت: لم يقصره عليهم، ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعاً. فإن قلت: فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا. أو اتقوا المكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم. قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم. وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده. فإذا قال: "اعبدوا ربكم الذي خلقكم" للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة، وأشد إلزاماً لها، وأثبت لها في النفوس. ونحوه أن تقول لعبدك: اعمل خريطة الكتب، فما ملكتك يميني إلا لجر الأثقال. ولو قلت: لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع. "الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون"

قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولاً. لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها، والسبب في التمكن من العبادة والشكر غيرهما، ثم خلق الأرض التي هي مكائهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقبله ومفترشه، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطبقة على هذا القرار، ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها. والإخراج به من بطنها - أشباه النسل المنتج من الحيوان - من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم، ليكون لهم ذلك معتبراً: ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف، ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم، وأن شيئاً من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها، فيتيقنوا عند ذلك أن لا بد لها من خالق ليس كمثلهما، حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر. والموصول مع صلته إما أن يكون في محل النصب وصفاً كالذي خلقكم، أو على المدح والتعظيم. وإما أن يكون رفعاً على الابتداء وفيه ما في النصب من المدح، وقرأ يزيد الشامي: بساطاً. وقرأ طلحة: مهاداً. ومعنى جعلها فراشاً وبساطاً ومهاداً للناس: أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده. فإن قلت: هل فيه

دليل على أن الأرض مسطحة وليست بكروية، قلت: ليس فيه إلا أن الناس يفترضونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح. أو شكر الكرة، فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع، لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها. وإذا كان متسهلاً في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض، فهو في الأرض، ذات الطول والعرض أسهل. والبناء مصدر سمي به المبنى - بيتاً كان أو قبة أو خباء أو طراًفاً - وأبنية العرب: أخبيبتهم، ومنه بنى على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديداً. فان قلت: ما معنى إخراج الثمرات بالماء وإنما خرجت بقدرته ومشيتته. قلت: المعنى أنه جعل الماء سبباً في خروجها ومادة لها، كماء الفحل في خلق الولد، وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجاً لها من حال إلى حال، وناقلاً من مرتبة إلى مرتبة حكماً ودواعي يجمد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبراً وأفكاراً صالحة، وزيادة طمأنينة، وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته، ليس ذلك في إنشائها بغتة من غير تدريج وترتيب. "من" في "من الثمرات"، للتبويض بشهادة قوله: "أفأخرجنا به من كل الثمرات" الأعراف: وقوله: "أفأخرجنا به ثمرات" أفاطر: ولأن المنكرين أعني: ماء، ورزقاً. يكتشفانه. وقد قصد بتكثيرهما معنى البعضية فكأنه قيل: وأنزلنا من السماء بعض الماء، فأخرجنا به بعض الثمرات، ليكون بعض رزقكم. وهذا هو المطابق لصحة المعنى، لأنه لم يزل من السماء الماء كله، ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات، ولا جعل الرزق كله في الثمرات. ويجوز أن تكون لبيان كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً. فإن قلت: فيم انتصب "رزقاً" قلت: إن كانت "من" للتبويض. كان انتصابه بأنه مفعول له. لما كانت مبنية، كان مفعولاً لأخرج. فإن قلت: فالثمر المخرج بماء السماء كثير جم فلم قيل الثمرات دون الثمر والثمار، قلت: فيه وجهان، أحدهما أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك: فلان أدركت ثمرة بستانه، تريد ثماره. ونظيره قولهم: كلمة الخويدرة، لقصيدته. وقولهم للقرية: المدررة، وإنما هي ممر متلاحق. والثاني: أن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها في الجمعية، كقوله: "كم تركوا من جنات" الدخان: "وثلاثة قراءة" البقرة: ويعضد الوجه الأول قراءة محمد بن السميع: من الثمرة، على التوحيد. "ولكم" صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسماً للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقاً إياكم. فإن قلت: بم تعلق "فلا تجعلوا". قلت: فيه ثلاثة أوجه: أن يتعلق بأمر. أي عبدوا ربكم فلا تجعلوا له "أنداداً" لأن أصل العبادة وأساسها التوحيد، وأن لا تجعل لله ند ولا شريك. أو بلعل، على أن ينتصب تجعلوا انتصاب، فأطلع في قوله عز وجل: "لعل" أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى "غافر": - في رواية حفص عن عاصم، أي خلقكم لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه، أو بالذي جعل لكم، إذا رفعته على الابتداء، أي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء. والند: المثل. ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ. قال جرير:

وما تيم لذي حسب نديداً

أتيما يجعلون إلى ندا

وناددت الرجل: خالفته ونافرت، من ند ندوداً إذا نفر. ومعنى قولهم: ليس لله ند ولا ضد نفى ما يسده مسده، ونفى ما ينافيه. فإن قلت: كانوا يسمون أصنامهم باسمه ويعظمونها بما يعظم به من القرب، وما كانوا يزعمون أنها

تخالف الله وتناويه. قلت: لما تقربوا إليها وعظموها وسموها آلهة، أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله، قادرة على مخالفته ومصادته فقليل لهم ذلك على سبيل التهكم. كما تهكم بهم بلفظ الند، شنع عليهم واستفطع شأنهم بأن جعلوا أعداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ند قط. وفي ذلك قال زيد بن عمرو ابن نفيل حين فارق دين قومه:

أربا واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

وقرأ محمد بن السميغ: فلا تجعلوا لله ندا. فإن قلت: ما معنى "وأنتم تعلمون". قلت: معناه: وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفساد، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال، والإصابة في التدابير، والدهاء والفتنة، بمنزلة لا تدفعون عنه. وهكذا كانت العرب، خصوصاً ساكنو الحرم من قريش وكنانة، لا يصطلي بنارهم في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها. ومفعول "تعلمون"، متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة. والتوبيخ فيه أكد، أي أنتم العرافون المميزون. ثم إن ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً، هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر: وأنتم تعلمون أنه لا يماثل. أو: وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفات. أو: وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله. كقوله: "هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء". "الروم".

"وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين".

لما احتج عليهم بما يشبه الوجدانية ويحققها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أن من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي، أم هو من عند نفسه كما يدعون. يارشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويدوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته. فإن قلت: لم قيل: "مما نزلنا، على لفظ التزيل دون الإنزال. قلت: لأن المراد التزول على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من محازة لمكان التحدي، وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس، لم يزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة وآيات غب آيات، على حسب النوازل وكفاء الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً، وشيئاً فشيئاً حسب ما يحق لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة، فلو أنزل الله لأنزله خلاف هذه العالدة جملة واحدة: قال الله تعالى: "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة" الفرقان، فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفتريات. وهذه غاية التبيكيت. ومنتهى إزاحة العلل. وقرئ: "على عبادنا" يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات. وواوها إن كانت أصلاً، فإما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها، لأنها

طائفة من القرآن محدودة محوزة على حياتها، كالبلد المسور، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد، كإحتواء سورة المدينة على ما فيها. وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة. قال النابغة:

ولرَهْطِ حَرَابٍ وَقَدْ سُوِّرَ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غَرَابُهَا بِمُطَارٍ

لأحد معنيين، لأن السور بمثالة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ: وهي أيضاً في أنفسها مترتبة: طوال وأوساط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين. وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة، فلائها قطعة وطائفة من القرآن، كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه. فإن قلت: ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً. قلت: ليست الفائدة في ذلك واحدة. ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسورة مترجمة السور. وبوب المصنفون في كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم. ومن فوائده: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبأ وأفهم من أن يكون بياناً واحداً. ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله. ومثله المسافر، إذا علم أنه قطع ميلاً، أو طوى فرسخاً، أو انتهى إلى رأس يريد: نفس ذلك منه ونشطه للسير. ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعاً وأجزاء وعشوراً وأحاساً. ومنها أن الحافظ إذا حذفه السورة، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة، فيعظم عنده ما حفظه، ويحل في نفسه ويغيب به. ومنه حديث أنس رضي الله عنه:

"كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جد فينا ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل. ومنها أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض. وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع" من مثله "متعلق بسورة صفة لها أي بسورة كائنة من مثله. والضمير لما نزلنا، أو لعبدنا. ويجوز أن يتعلق بقوله: "فأتوا" والضمير للعبد. فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل. قلت: معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم. أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمة لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك. ولكنه نحو قول القبعثري للحجاج - وقد قال له: لأهملنك على الأدهم - مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب. أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد. ولم يقصد أحد يجعله مثلاً للحجاج. ورد الضمير إلى المنزل أو وجه، لقوله تعالى: "فأتوا بسوره من مثله". فأتوا بعشر سور مثله "هود": على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، الإسراء: ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوف على أصح الأساليب، والكلام مع رد الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً. وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه ومربوط به، فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره. ألا ترى أن المعنى: وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله. فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه. وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال: "وإن ارتبتم في أن محمداً مُنزل عليه فهاتوا قرآناً من مثله". ولأنهم إذا خوطبوا جميعاً - وهم الجم الغفير - بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم، كان أبلغ في التحدي من أن يقال لهم: ليأتي واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد، ولأن هذا التفسير هو الملائم

لقوله: "وادعوا شهداءكم" والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة. ومعنى "دُون" أدنى من مكان من الشيء. ومنه الشيء الدون، وهو الدين الحقير، ودون الكتب، إذا جمعها، لأن جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها. يقال: هذا دون ذاك، إذا كان أحط منه قليلاً. ودونك هذا: أصله خذه من دونك. أي من أدنى مكان منك فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب فقليل زيد دون عمرو في الشرف والعلم. ومنه قول من قال لعدوه وقد رآه بالثناء عليه: أنا دون هذا وفوق ما في نفسك، واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطى حكم إلى حكم. قال الله تعالى: "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين" آل عمران: أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. وقال أمية:

يا نفسُ مالكِ دُونَ الله من وَاقي

أي إذا تجاوزت وقاية الله ولم تنالها لم يقك غيره. "من دون الله" متعلق بادعوا أو بشهداءكم. فإن علقتهم بشهداءكم فمعناه: ادعوا الذين اتخذوهم الهة من دون الله وزعتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق. أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى:

تُريكَ القَذَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونُهُ

أي تريك القذى قدامها وهي قذام القذى، لرقتها وصفائها. وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته: غاية التهكم بهم. وادعوا شهداءكم من دون الله، أي من دون أوليائه ومن غير المؤمنين، ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله. وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأن شهداءهم وهم مداراة القوم، الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المفاولة والمناقلة، تأبى عليهم الطباع وتجمع بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فسادهم واستقامة أحوال الجلي في عقولهم إحالته، وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز. وإن علقتهم بالدعاء فمعناه: ادعوا من دون الله شهداءكم، يعني لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا: الله يشهد أن ما ندعيه حق، كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه وادعوا الشهداء من الناس الذين شهداتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام. وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم واتخاذهم. وأن الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبهاً غير قولهم: الله يشهد أنا صادقون. وقولهم لهذا: تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة. وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال: قرشي والحمد لله. فقليل له: قولك "الحمد لله" في هذا المقام ريبة. أو ادعوا من دون الله شهداءكم: يعني أن الله شاهدكم لأنه أقرب إليكم من جبل الوريد، وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم. والجن والإنس شاهدوكم فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى، لأنه القادر وحده على أن يأتي بمثله دون كل شاهد من شهداتكم، فهو في معنى قوله: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن" لإسراء: الآية.

"فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين"

لما أرشدتهم إلى الجهة التي منها يتعرفون أمر النبي صلى الله عليه وسلم - وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسره

وامتياز حقه من باطله - قال لهم فإذا لم تعارضوه ولم يتسهل لكم ما تبغون وبان لكم أنه معجوز عنه، فقد صرح الحق عن محضه ووجب التصديق، فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب. وفيه دليان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدي ومعجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله. فإن قلت: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب، فهلا جيء بـ"إذا" الذي للوجوب دون "إن" الذي للشك. قلت: في وجهان: أحدهما أن يساق القول معهم على حسب حسابهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكاهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام. والثاني: أن يتهم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه: إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهماً به. فإن قلت: لم عبر عن الإتيان بالفعل وأي فائدة في تركه إليه. قلت: لأنه فعل من الأفعال. تقول آتيت فلاناً. فيقال لك: نعم ما فعلت. والفائدة فيهنه جار مجري الكناية التي تعطيك . اختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكث عنه. ألا ترى أن الرجل يقول: ضربت زيداً في موضع كذا على صفة كذا، وشتمته ونكلت به، ويعد كفيات وأفعالاً، فتقول: بئسما فعلت. ولو ذكرت ما أنبته عنه، لطال عليك، وكذلك لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل، لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله. ولن تأتوا بسورة من مثله فإن قلت: "وَلَنْ تَفْعَلُوا"، ما محلها. قلت: لا محل لها لأنها جملة اعتراضية. فإن قلت: ما حقيقة "لن" في باب النفي، قلت: "لا" و"لن" أختان في نفي المستقبل، إلا أن في "لن" تأكيداً وتشديداً. تقول لصاحبك: لا أقيم غداً، فإن أنكر عليك قلت: لن أقيم غداً كما تفعل في: أنا مقيم، واني مقيم، وهي عند الخليل في إحدى الروايتين عنه أصلها "لا أن" وعند الفراء "لا" أبدلت ألفها نوناً. وعند سيبويه وإحدى الروايتين عن الخليل: حرف مقتضب لتأكيد نفي المستقبل. فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة. قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لا سيما والطاعون فيه أكثر عددًا من الذابين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة، فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله. قلت: إنهم إذا . لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة، صح عندهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا، استوجبوا العقاب بالنار فقليل لهم: إن استبتم العجز فاتركوا العناد فوضع "فأتقوا النار"، موضعه، لأن اتقاء النار لصيقه وضميمة ترك العناد، من حيث أنه من نتائجه، لأن من اتقى النار ترك المعانده. ونظيره أن يقول الملك لحشمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي. يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط. وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة. وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منا به وإبرازه في صورته، مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفطيع أمرها.

والوقود: ما ترفع به النار. وأما المصدر فمضموم، وقد جاء فيه الفتح. قال سيبويه: وسمنا من العرب من يقول: وقدت النار وقوداً عالياً. ثم قال: والوقود أكثر، والوقود الخطب. وقرأ عيسى بن عمر الهمداني - بالضم - تسمية بالمصدر، كما يقال: فلان فخر قومه وزين بلده. ويجوز أن يكون مثل قولك: حياة المصباح السليط، أي ليس حياته إلا به، فكأن نفس السليط حياته، فإن قلت: صلة "الذي" و"التي" يجب أن تكون قصة معلومة، للمخاطب، فكيف

علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة. قلت: لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب، أو سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم: "ناراً وقودها الناس والحجارة" التحريم: فإن قلت: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكورة في سورة التحريم، وههنا معرفة. قلت: تلك الآية نزلت بمكة، فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة. ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: "وقودها الناس والحجارة" قلت: معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران، بأنها لا تنقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إهواء الحجارة أوقدت أولاً بوقود ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إهوائه، وتلك - أعاذنا الله منها برحمته الواسعة - توقد بنفس ما يحرق ويحمي بالنار، وبأنها لإفراط حرها وشدة ذكائها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار، اشتعلت وارتفع لهبها. فإن قلت: أنار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة، أم هي نيران شتى منها نار بهذه الصفة. قلت: بل هي نيران شتى، منها نار توقد بالناس والحجارة، يحل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى: "قوا أنفسكم وأهليكم ناراً" التحريم: "فأنذرتكم ناراً تلظى" الليل: ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين، كما أن لكفرة الإنس ناراً وقودها هم، جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب. فإن قلت: لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً. قلت: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً أو عبدوها من دونه: قال الله تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم" الأنبياء: وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه. فقلوه: "إنكم ما تعبدون من دون الله" في معنى الناس والحجارة، وحصب جهنم في معنى وقودها. لما اعتقد الكفار في حجارهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستندفعون المضار عن أنفسهم بمكائهم، جعلها الله عذابهم، فقرنهم بها محماة في نار جهنم، إبلاغاً في إيلاهم وإعراقاً في تحسيرهم، ونحوهم ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق، حيث يحمي عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم. وقيل: هي حجارة الكبريت، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التزويل "أعدت" هيئت لهم وجعلت عدة لعذابهم. وقرأ عبد الله، أعتدت، من العتاد بمعنى العدة.

"وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً وهم فيها أزواجاً مطهرة وهم فيها خالدون" من عادته عز رجل في كتاب أن يذكر الترغيب مع التهيب، ويشفع البشارة بالإنذار لإرادة التشييط، لاكتساب ما يزلف، والتشبيط عن اقتراف ما يتلف. فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي، وحوها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب. فإن قلت: من الأمور بقوله تعالى: "وبشر" قلت: يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون كل أحد. كما قال عليه الصلاة والسلام: "بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة" لم يأمر بذلك واحداً بعينه. وإنما كل أحد مأمور به، وهذا الوجه أحسن وأجزل، لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به. فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه، قلت: ليس الذي اعتمد

بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهيًا يعطفُ عليه إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمراً بالعمو والإطلاق. ولك أن تقول: هو معطوف على قوله: "فاتقوا" كما تقول: يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتكم، وبشر يا فلان بني أسد بإحساني إليهم. وفي قراءة زيد بن علي رضي الله عنه: "وبشرط على لفظ المبني للمفعول عطفاً على أعدت. والبشارة: الإخبار مما يظهر سرور المخبر به. ومن ثم قال العلماء: إذا قال لعبيده: أيكم بشري بقدم فلان فهو حر، فبشروه فرادى، عتق أولهم، لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقيين. ولو قال مكان "بشري" أخبرني عتقوا جميعاً، لأنهم جميعاً أخبروه. ومنه: البشرة لظاهر الجلد. وتباشر الصبح: ما ظهر من أوائل ضوئه. وأما "فبشرهم يعذاب أليم" ال عمران: فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه، كما يقول الرجل لعدوه: أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك. ومنه قوله:

فَاغْتَبُوا بِالصِّلَمِ

والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. قال الخطيئة:

كَيْفَ الْهَجَاءُ وَمَا تَنْفَكُ صَالِحَةٌ مِنْ آلٍ لَأَمْ بظَهَرَ الْغَيْبِ تَأْتِينِي

والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة، واللام للجنس. فإن قلت: أي فرق بين لام الجنس داخلية على المفرد، وبينها داخلية على المجموع، قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحاً لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه. وإذا دخلت على المجموع، صلح أن يراد به جميع الجنس، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه، لأن وزانه في تناول الجمع في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية، والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه. فإن قلت: فما المراد بهذا المجموع مع اللام. قلت: الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف. والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالنفاد أغصانه. قال زهير:

تَسْقَى جَنَّةٌ سَحْقًا

أي نخلاً طويلاً. والتركيب دائر على معنى الستر، وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرة، من مصدر جنة إذا ستره، كأنها سترة واحدة لفرط التفافها. وسميت دار الثواب "جنة" لما فيها من الجنان. فإن قلت: الجنة مخلوقة أم لا، قلت: قد اختلف في ذلك. والذي يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى آدم وحواء الجنة وبمجيئها في القرآن على نوح الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام، كالنبي والرسول والكتاب ونحوها. فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها، قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنات كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان، فإن قلت: أما يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح أن لا يجبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر، وأن لا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية، فهلا شرط ذلك. قلت: لما جعل الثواب مستحقاً بالإيمان والعمل الصالح، والبشارة مختصة بمن يتولاهما، وركز في العقول

أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء، إذا لم يتعقبه بما يفسده ويذهب بحسنه، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً، واعلم بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الناس عليه وأعزهم: "لئن أشركت ليحبطن عملك" الزمر: وقال تعالى للمؤمنين: "ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم" الحجرات: كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالدخل تحت الذكر. فإن قلت: كيف صورة جري الأنهار من تحتها، قلت: كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية. وعن مسروق: أن أنهار الجنة تجري في غير محدود. وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره ظللة، والأنهار في خلالها مطردة. ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإن كانت آتق شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تبهج الأنفوس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء، وإلا كان الأنس الأعظم فائتاً، والسرور الأوفر مفقوداً، وكانت كتمائيل لا أرواح فيها، وصور لا حياة لها، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قرن واحد كالشيئين لا بدلاً أحدهما من صاحبه، ولما قدمه على سائر نعوتها. والنهر: الجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر. يقال لبردى: نهر دمشق، وللنيل: نهر مصر. واللغة العالية "النهر" بفتح الهاء ومدار التركيب على السعة، واسناد الجري إلى الأنهار من الإسناد المجازى كقولهم: بنو فلان يطؤون الطريق، وصيد عليه يومان. فإن قلت: لم نكرت الجنات وعرفت الأنهار. قلت: أما تنكير الجنات فقد ذكر. وأما تعريف الأنهار فإن يراد الجنس، كما تقول: لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب وألوان الفواكه، تشير إلى الأجناس التي في علم المخاطب. أو يراد أنهارها، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله: "اشتعل الرأس شيباً" مريم. أو يشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله: "فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه" محمد: الآية.

وقوله: "كلمات رزقوا" لا يخلو من أن يكون صفة ثانية لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة، لأنه لما قيل إن لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه آثار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا، أم أجناس آخر لا تشابه هذه الأجناس فقل ن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا، أي أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله. فإن قلت: ما موقع من "من ثمرة". قلت: هو كقولك: كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئاً حمدتك. فموقع "من ثمرة"، موقع قولك من الرمان، كأنه قيل: كلما رزقوا من الجنات من أي ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو عنبها أو غير ذلك رزقاً قالوا ذلك. فمن الأولى والثانية كلتاها لا ابتداء الغاية لأن الرزق قد ابتدئ من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة. وتزيله تزيل أن تقول: رزقي فلان، فيقال لك: من أين فتقول: من بستانه، فيقال: من أي ثمرة رزقك من بستانه فتقول: من رمان. وتحريره أن "رزقوا" جعل مطلقاً مبتدأ من ضمير الجنات، ثم جعل مقيداً بالابتداء من ضمير الجنات، مبتدأ من ثمرة، وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفذة على هذا التفسير، وإنما المراد النوع من أنواع الثمار. ووجه آخر: وهو أن يكون "من ثمرة" بياناً على منهاج قولك: رأيت منك أسداً. تريد أنت أسد وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار، والجنات الواحدة. فإن قلت: كيف قيل: "هذا الذي رزقنا من قبل" وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا قلت: معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل. وشبهه بدليل قوله وأتوا به متشابهاً، وهذا كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، تريد أنه

لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: "وأثوا به" قلت: إلى المرزوق في الدنيا والآخرة. لأن قوله: "هذا الذي رزقنا من قبل" انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين. ونظيره قوله تعالى: "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما" النساء: أي بجنسي الغني والفقير لدلالة قوله: غنياً أو فقيراً على الجنسين. ولو رجع الضمير إلى المتكلم به لقليل أولى به على التوحيد. فإن قلت: لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة، وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً آخر قلت: لأن الإنسان بالمألوف آنس، وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدم معه ألف، ورأى فيه مزية ظاهرة، وفضيلة بيّنة، وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً، أفرط ابتهاجه واغتباطه، وطال استعجابه واستغرابه، وتبين كنه النعمة فيه، وتحقق مقدار الغبطة به. ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً، حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين. فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأن الكبرى لا تفصل عن حذ البطيخة الصغيرة، ثم يبصرون رمانة الجنة تشبع السكّن. والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلّكة، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر، كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده، ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، كان ذلك أبين للفضل، وأظهر للمزية، وأجلب للسرور، وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما. وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها، دليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أن ذلك التفاوت العظم هو الذي يستملي تعجبهم، ويستدعي تبجحهم في كل أوان. عن مسروق: "نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وأثمارها تجري في غير أقدود، والعنقود اثنا عشرة ذراعاً". ويجوز أن يرجع الضمير في "أثوا به" إلى الرزق، كما أن هذا إشارة إليه، ويكون المعنى: أن ما يرزقوه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه، كما يحكى عن الحسن: يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالآخرى فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل، فيقول الملك: كل، فاللون واحد والطعم مختلف. وعنه صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي بواصلة إلى فيه حتى يبذل الله مكانها مثلها" فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك. والتفسير الأول هو هو. فإن قلت: كيف موقع قوله: "وأثوا به متشابهاً" من نظم الكلام. قلت: هو كقولك: فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل. ورأى من الرأي كذا وكان صواباً. ومنه قوله تعالى: "وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون" النمل: وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير. والمراد بتطهير الأزواج: أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة، وما لا يختص بهن من الأقدار والادناس. ويجوز نجيبه مطلقاً: أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا، مما يكتسبن بأنفسهن، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناسئ المفسدة، ومن سائر عيوبهن ومثلهن وخبثهن وكيدهن. فإن قلت: فهلا جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف، قلت: هما لغتان فصيحتان. يقال: النساء فعّلن، وهن فاعلات وفواعل، والنساء فعلت، وهي فاعلة. ومنه بيت الحماسة:

واستعجَلتْ نصبَ القُدورِ فمِلتْ

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالْذَخَانِ تَقَنَعَتْ

والمعنى وجماعة أزواج مطهرة. وقرأ زيد بن علي "مطهرات" وقرأ عبيد بن عمير: "مطهرة" بمعنى متطهرة. وفي كلام بعض العرب: ما أوحجني إلى بيت الله. فأطهر به أطهرة. أي فأطهر به تطهرة. فإن قلت: هلا قيل طاهرة، قلت: في "مطهرة" فخامة لصفتهن ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهراً طهرهن. وليس ذلك إلا الله عز وجل المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم. والخلد: الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع. قال الله تعالى: "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون" الأنبياء: وقال امرؤ القيس:

أَلَا أَنْعَمَ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَنْعَمُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي

وَهَلْ يَنْعَمُ الْإِسْعِيدُ مَخْلُودٌ قَلِيلُ الْهَمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

"إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضه فما فوقها فأما الذين إمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضرب به كثيрав ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقدون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون" سقت هذا الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار واستغروهم من أن تكون اخقارات من الأشياء مضروباً بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتهم من المشاهد. فإن كان الممثل له عظيماً كان الممثل به مثله، وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك. فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذا إلا أمراً تستدعيه حال الممثل له وتستجره إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبليج، كيف تمثل له بالضياء والنور، وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة. ولما كانت حال الالهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذباب وأخس قدراً، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً لم يستنكر ولم يستبدع، ولم يقيم للممثل: استحي من تمثيلها بالبعوضة، لأنه مصيب في تمثيله، محق في قوله. سائق للمثل على قضية مضربه، محتذ على مثال ما يحتكمه ويستدعيه، وبيان أن المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بنظر العقل، إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحته، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله. وأن الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم، وغضبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق إلا أن حب الرياسة وهوى الألف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا وقضوا عليه بالبطلان، وقابلوه بالإنكار، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين في غيهم وضلالهم. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات. والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديه قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد. وأصرد من جرادة، وأضعف من فراشة. واكل من السوس. وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض وكلفتني مخ البعوض. ولقد

ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة، كالزوان والنخالة وحب الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود، والزناير. والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به أدنى مسكة، ولكن ديدن الحجاج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمانة ولا إقناع، أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن أعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معولاً. وعن الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله. فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

والحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم. وأشتقاقه من الحياة. يقال: حيي الرجل، كما يقال: نسي وحشي وشطي الفرس إذا اعتلت هذه الأعضاء جعل الحيي لما يعتريه من الانكسار والتغير، منتكس القوة منتقص الحياة، كما قالوا: هلك فلان حياء من كذا، ومات حياء، ورأيت الهلاك في وجهه من شدة الحياء. وذاب حياء، وجمد في مكانه خجلاً. فان قلت: كيف جاز وصف القديم - سبحانه به ولا يجوز عليه التغير والخوف والذم، وذلك في حديث سلمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً". قلت: هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخيب العبد وأنه لا يرد يديه صفراً من عطائه لكرمه بترك من يترك رد المحتاج إليه حياء منه. وكذلك معنى قوله: "إن الله لا يستحي" أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها. ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة واطباق الجواب على السؤال. وهو فن من كلامهم بديع، وطراز عجيب، منه قول أبي تمام:

من مبلغ أفناء يعرب كلها أتى بنيت الجار قبل المنزل

بأدته، فالذي سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار. وسبوط الشهادة لامتنع تجعيد

وقرأ ابن كثير في رواية شبل: يستحي بياء واحدة. وفيه لغتان: التعدي بالجار والتعدي بنفسه. يقولون: استحييت منه واستحييته، وهما محتملتان ههنا.

وضرب المثل: اعتماده وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم. وفي الحديث: "اضطرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاتماً من ذهب" و"ما"، هذه إجمالية وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أجهتة إجمالاً وزادته شيئاً وعموماً، كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد أي كتاب كان. أو صلة للتأكيد، كالتي في قوله: "فبما نقضهم ميثاقهم" النساء: كأنه قيل: لا يستحي أن يضرب مثلاً حقاً أو البتة، هذا إذا نصبت "بعوضة" رفعتها فهي موصولة، صلتها الجملة، لأن التقدير: هو بعوضة، فحذف صدر الجملة كما حذف في "تماماً على الذي أحسن" الأنعام: ووجه آخر حسن جميل، وهو أن تكون التي فيها معنى الاستفهام لما استكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالحقرات قال: إن الله لا يستحي أن

يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة مثلاً، بله البعوضة فما فوقها، كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران. والمعنى: إن الله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ وبملا يدركه لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه، أو بالمعدوم، كما تقول العرب: فلان أقل من لا شيء في العدد. ولقد ألم به قوله تعالى: "إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء" العنكبوت: وهذه القراءة تعزى إلى رؤية بن العجاج، وهو أمضغ العرب للشيخ والقيصوم والمشهود له بالفصاحة. وكانوا يشبهون به الحسن، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه، وهو المطابق لفصاحته. وانتصب "بَعُوضَةً" بأنها عطف بيان لمثلاً. أو مفعول ليضرب، و"مثلاً" حال عن النكرة مقدمة عليه. أو انتصبا مفعولين فجري ضرب مجرى جعل. واشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبضع والعضب. يقال: بعضه البعوض. وأنشد:

لَنَعْمَ الْبَيْتُ بَيْتُ أَبِي دِثَارٍ إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا

ومنه: بعض الشيء لأنه قطعة منه. والبعوض في أصله صفة على فعول كالقُطُوع فغلبت، وكذلك الخموش "فما فوقها"، فيه معنيان: أحدهما فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو الققة والحقارة، نحو قولك - لمن يقول: فلان أسفل الناس وأندهم: هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والندالة. والثاني: فما زاد عليها في الحجم، كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، لأنهما أكبر من البعوضة. كما تقول لصاحبك - وقد ذم من عرفته يشح بأدنى شيء فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين. ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في صحيح مسلم عن إبراهيم عن الأسود قال: "دخل شباب من قریش على عائشة رضي الله عنها وهي بمنى وهم يضحكون. فقالت: ما يضحكمكم. قالوا: فلان خر على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا. إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت بها عنه خطيئة" يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة وهي نحو نخبة النملة في قوله عليه الصلاة والسلام:

"ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطايا حتى نخبة النملة" وهي عضتها. ويحتمل ما هو أشد من الشوكة وأوجع كالخروخ على طنب الفسطاط. فإن قلت: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر. قلت: ليس كذلك، فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد، ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً للدينار، وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها، ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يحليها للبصر الحاد إلا تحركها، فإذا سكنت فالسكون يواربها، ثم إذا لوحث لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة وتفاصيل خلقها ويصير بصرها ويطلع على ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون"يس: وأنشدت لبعضهم:

يَا مَنْ يَرَى مَدَ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ

وَيَرَى عُرُوقَ نَيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا

وَالْمُخَ فِي تَلَكْ عِظَامِ النَحْلِ

أَغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ

مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

"وأما" حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء. وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد. تقول: زيد ذاهب. فإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت: أما زيد فذاهب. ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. وهذا التفسير مدل لفائدتين: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط. ففي إيراد الجملتين مصدرتين به - وإن لم يقل: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون، إجماد عظيم لأمر المؤمنين، واعتداد بعلمهم أنه الحق، ونعى على الكافرين إغفالهم حفظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء. و"الحق" الثابت الذي لا يسوغ إنكاره. يقال: حق الأمر، إذا ثبت ووجب. وحقت كلمة ربك، وثوب محقق: محكم النسج. و"ماذا" فيه وجهان: أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي، فيكون كلمتين. وأن يكون "إذا" مركبة مع "م" مجعولتين اسماً واحداً فيكون كلمة واحدة، فهو على الوجه الأول مرفوع اخل على الابتداء وخبره ذا مع صلته. وعلى الثاني منصوب اخل في حكم "ما" وحده لو قلت: ما أراد الله. والأصوب في جوابه أن يجيء على الأول مرفوعاً وعلى الثاني منصوباً، ليطابق الجواب السؤال. وقد جوزوا عكس ذلك تقول - في جواب من قال: ما رأيت، خير، أي المرئي خير. وفي جواب ما الذي رأيت. خيراً، أي رأيت خيراً. وقرئ قوله تعالى: "ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو" البقرة: بالرفع والنصب على التقديرين. والإرادة نقيض الكراهة، وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك. وفي حدود المتكلمين: الإرادة معنى يوجب للحي حالاً لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه. وقد اختلفوا في إرادة الله، فبعضهم على أن للباري، مثل صفة المريد منا التي هي القصد، وهو أمر زائد على كونه عالماً غير ساه. وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها وهو غير ساه ولا مكروه. ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها. والضمير في "أنه الحق" للمثل، أو لأن يضرب. وفي قولهم: "ماذا أراد الله بهذا مثلاً" استردال واستحقار كما.

قالت عائشة رضي الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاص: يا عجباً

لابن عمرو هذا، "مثلاً"، نصب على التمييز كقولك لمن أجاب بجواب غث: ماذا أردت بهذا جواباً. ولمن حمل سلاحاً ردياً: كيف تنتفع بهذا سلاحاً. أو على الحال، كقوله: "هذه ناقة الله لكم آية" الأعراف: ،. وقوله: "يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً" جار مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأمأ، وأن فريق العالمين بأنه الحق وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة، وأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم، وأن الجهل بحسن مورده مز باب الضلالة التي زادت الجهلة خبطاً في ظلماتهم. فإن قلت: لم وصف المهديون بالكثرة - والقللة صفتهم، "وقليل من عبادي الشكور"، سبأ، "وقليل ما هم". ص: الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة أ، وجدت الناس أخبر ثقله قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم، وحين يوصفون بالقللة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال. وأيضاً فإن القليل من المهديين كثير في الحقيقة وإن قلوا في الصورة، فسموا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً:

إِنَّ الْكَرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ

قَلَوْا كَمْ غَيْرُهُمْ قَلَّ وَإِنْ كَثُرُوا

واسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب: لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم، تسبب لضلالهم وهداهم. وعن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد، فقال: يا أبا يحيى، أما ترى ما نحن فيه من القيود. فرفع مالك رأسه فرأى سلة. فقال: لمن هذه السلة، فقال: لي، فأمر بها تنزل، فإذا دجاج وأخبصة، فقال مالك: هذه ضعت القيود على رجلك. وقرأ زيد بن علي: "يُضَلُّ بِهِ كَثِيرٌ"، وكذلك: مَا يُضَلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ". والفسق: الخروج عن القصد. قال رؤية:

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَانِرًا

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المتزلتين أي بين منزلة المؤمن والكافر، وقالوا: إن أول من حد له هذا الحد أبو حذيفة واصل بن عطاء رضي الله عنه وعن أشياعه. وكونه بين يمين: أن حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ويوارث ويغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين. وهو كالكافر في الذم واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته، وأن لا تقبل له شهادة. ومذهب مالك بن أنس والزيدية: أن الصلاة لا تجزئ خلفه. ويقال للخلفاء المردة من الكفار: الفسقة. وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله. "بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان" الحجرات. يريد اللمز والتنازع "إن المنافقين هم الفاسقون"، التوبة: النقص: الفسخ وفك التركيب. فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقص في إبطال العهد. قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين. ومنه قول ابن التيهان فيبيعة العقبة: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها. فنخشى إن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك. وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت امرأه فاستوثرها. لم تقل ها إلا وقد نهيت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعما المرأة بأنها فراش.

والعهد: الموثق. وعهد إليه في كذا: إذا وصاه به ووثقه عليه. واستعهد منه: إذا اشترط عليه واستوثق منه. والمراد بمؤلاء الناقضين لعهد الله: أحبار اليهود المعتنقون، أو منافقوهم، أو الكفار جميعاً. فإن قلت: فما المراد بعهد الله. قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى"، الأعراف: أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بُعث إليهم رسول صلى الله عليه وسلم - يصدقوه الله بمعجزاته - صدقوه واتبعوه، ولم يكفوا ذكره فيما تقدمه من الكتب المنزلة عليهم، كقوله: "وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم" البقرة: . وقوله في الإنجيل لعيسى صلوات الله عليه: "سأنزل عليك كتاباً فيه نبأ بني إسرائيل، وما أريته إياهم من الآيات، وما أنعمت عليهم وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به، وما ضيعوا من عهده إليهم" وحسن صنعه للذين قاموا بميثاق الله تعالى وأوفوا بعهد، ونصره إياهم، وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غدروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهده، لأن اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد صلى الله عليه وسلم التحريف والجحود وكفروا به كما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: هو أخذ الله العهد عليهم أن

لا يسفكوا دماءهم، ولا ينبغي بعضهم على بعض، ولا يقطعوا أرحامهم. وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود: العهد الأول الذي أخذه على جميع ذرية آدم، الإقرار بربوبيته وهو قوله تعالى: "وإذا أخذ ربك"، الأعراف: وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة وقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وهو قوله تعالى: "وأخذنا من النبيين ميثاقهم". الأحزاب وعهد خص به العلماء وهو قوله: "وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه"، آل عمران. والضمير في ميثاقه للعهد وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله والزامه أنفسهم. ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه، كما أن الميعاد والميلاد، بمعنى الوعد والولادة. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، أي من بعد توثيقه عليهم، أو من بعد ما وثق به عهده من آياته وكتبه وانداز رسله. ومعنى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل: قطعهم الأرحام وموالاة المؤمنين، وقيل: قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاتحاد والاجتماع على الحق، في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض. فإن قلت: ما الأمر. قلت: طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه. وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به، فقليل له: أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به، كما قيل له شأن. والشأن: الطلب و القصد. يقال: شأنت شأنه، أي قصدت قصده "هم الخاسرون" لأنهم استبدلوا النقص بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح وعقابها بثوابها.

"كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون، هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم" معنى الهمزة التي في "كيف" مثله في قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان، وهو الإنكار والتعجب. ونظيره قولك: أظنير بغير جناح، وكيف تطير بغير جناح فإن قلت: قولك: أظنير بغير جناح إنكار للطيران، لأنه مستحيل بغير جناح، وأما الكفر بغير مستحيل مع ما ذكر من الإمامة والإحياء. قلت: قد أخرج في صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان. فإن قلت: قد تبين أمر الهمزة وأنها لإنكار الفعل والإيدان باستحالته في نفسه، أو لقوة الصارف عنه، فما تقول في "كيف"، حيث كان إنكاراً للحال التي يقع عليها كفرهم. قلت: حال الشيء تابعة لذاته، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال فكان إنكار حال الكفار لأنها تتبع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر، وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ. وتحريره: أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها. وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده. ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني.

والواو في قوله: "وكنتم أمواتاً"، للحال، فإن قلت: فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماض، ولا يقال جئت وقام الأمير، ولكن وقد قام، إلا أن يضمّر قد، قلت: لم تدخل الواو على "كنتم أمواتاً" وحده، ولكن على جملة قوله: "كنتم أمواتاً" إلى "ترجعون"، كأنه قيل: كيف تكفرون بالله وقصتكم هذه وحالكم أنكم كنتم أمواتاً نطقاً في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم بعد الموت، ثم يحاسبكم. فإن قلت: بعض القصة ماض وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع حالاً. قلت: هو العلم بالقصة، كأنه قيل: كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه

القصة بأولها وآخرها. فإن قلت: فقد آل المعنى إلى قولك: على أي حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة فما وجه صحته. قلت: قد ذكرنا أن معنى الاستفهام في "كيف" الإنكار. وأن إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية، فكأنه قيل ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه فإن قلت: إن اتصل علمهم بأنهم كانوا أمواتاً فأحياءهم ثم يميتهم، فلم يتصل بالإحياء الثاني والرجوع. قلت: قد تمكنوا من العلم بهما بالدلائل الموصلة إليه، فكان ذلك بمنزلة حصول العلم. وكثير منهم علموا ثم عاندوا والأموات: جمع ميت، كالأقوال في جمع قيل. فإن قلت: كيف قيل لهم أموات في حال كونهم جهاداً، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البنى. قلت: بل يقال ذلك لعدم الحياة، كقوله "بلدة ميتاً" الفرقان، "وآية لهم الأرض الميتة"، يس، "أموات غير أحياء" النحل، ويجوز أن يكون استعارة لاجتماعهما في أن لا روح ولا إحساس، فإن قلت: ما المراد بالإحياء الثاني، قلت: يجوز أن يراد به الإحياء في القبر: وبالرجوع: النشور. وأن يراد به النشور، وبالرجوع: المصير إلى الجزاء. فإن قلت: لم كان العطف الأول بالفاء والإعقاب بـثم، قلت: لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت - إن أريد به النشور - تراخياً ظاهراً. وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن النشور. فإن قلت: من أين أنكروا اجتماع الكفر مع القصة التي ذكرها الله، ألا أنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، أم على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر، قلت: يحتمل الأمرين جميعاً، لأن عدده آيات وهي مع كونها آيات من أعظم النعم. "قبلكم" لأجلكم ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم. أما الانتفاع الدنيوي فظاهر. وأما الانتفاع الديني فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الحالة على الصانع القادر الحكيم، وما فيه من التذكير بالآخرة وبنواها وعقابها، لاشتماله على أسباب الأُنس واللذة من فنون المطاعم والمشارب والفواكه المناكح والمراكب والمناظر الحسنة البهية، وعلى أسباب الوحشة والمشقة من أنواع مكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغموم والمخاوف. وقد استدل بقوله: "خلق لكم" على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها ولم تجري مجرى المخطورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقاً لكل أحد أن يتناولها ويستمتع بها. فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة. قلت: ن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية: جاز ذلك، فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية، و"جميعاً"، نصب على الحال من الموصول الثاني. والاستواء: الاعتدال والاستقامة. يقال: استوى العود وغيره، إذا قام واعتدل، ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً، من غير أن يلوي على شيء. ومنه استعير قوله: "ثم استوى إلى السماء" أي قصد إليها بإرادته ومشئته بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر. والمراد . بالسماء جهات العلو، كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق. والضمير في "فسواهن"، ضمير مبهم. و"سبع سموات"، تفسيره، كقولهم: ربه رجلاً. وقيل: الضمير راجع إلى السماء. والسماء في معنى الجنس. وقيل: جمع سماء، والوجه العربي هو الوؤل. ومعنى تسويتهن: تعديل خلقهن، "وهو بكل شيء عليم" فمن ثم خلقهن خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم

ومصالحهم، فإن قلت: ما فسرته به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه ثم لإعطائه معنى التراخي والمهلة قلت: ثم ههنا

لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السموات على خلق الأرض، لا للتراخي في الوقت كقوله: "ثم كان من الذين آمنوا"، البلد: على أنه لو كان معنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به، لأن المعنى أنه، حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك - أي في تضاعيف القصد إليها خلقاً آخر. فإن قلت: أما يناقض هذا قوله: "والأرض بعد ذلك دحاها" النزاعات: . قلت: لا لأن جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء. وأما دحوها فمتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر، عليها دخان ملترق بها، ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض، فذلك قوله: "كانتا رتقا" الأنبياء: وهو الالتزاق. "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" "وإذ"، نصب بإضمار اذكر. وشجوز أن ينتصب بقالوا. والملائكة: جمع ملائكة على الأصل، كالشمائل في جمع شأل. والحاق التاء لتأنيث الجمع و"جاعل" من جعل الذي له مفعولان، دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله: "في الأرض خليفة"، فكانا مفعوليه. ومعناه مُصَيِّر في الأرض خليفة. والخليفة: من يخلف غيره. والمعنى خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته. فإن قلت: فهلا قيل: خلّاف، أو خلفاء، قلت: أريد بالخليفة آدم. واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما يُستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك: مضر وهاشم. أو أريد من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم فوحد لذلك. وقرئ: خليفة بالقاف ويجوز أن يريد: خليفة مني، لأن آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي "إنا جعلناك خليفة في الأرض" ص: . فإن قلت: لأي غرض أخبرهم بذلك، قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في . استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة "اتجعل فيها" تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ولا يريد إلا الخير. فإن قلت: من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب. قلت: عرفوه بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة. وقرئ: "يسفك"، بضم الفاء. ويسفك، من أسفك. وسفك. والواو في "نحن" للحال، كما تقول: أحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان. والتسبيح: تبعيد الله عن السوء، وكذلك تقديسه، من سبّح في الأرض والماء. وقُدس في الأرض: إذا ذهب فيها وأبعد. "بحمدك" في موضع الحال، أي نسبح حامدين لك وملتبسين بحمدك لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللفظ لم نتمكن من عبادتك. "أعلم ما لا تعلمون"، أي أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم. فإن قلت: هلا بين لهم تلك المصالح، قلت: كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة، وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة. على أنه قد بين لهم بعض ذلك فيما اتبعه من قوله "وعلم آدم الأسماء كلها"، واشتقاقهم "آدم" من الأدمة، ومن أديم الأرض، نحو اشتقاقهم يعقوب من العقب،

وإدريس من الدرس، وإبليس من الإبلّاس. وما ادم إلا اسم أعجمي ة وأقرب أمره أن يكون على فاعل، كآزر، وعازر، وعابر وشاخ. وفالغ، وأشبه ذلك "الأسماء كلها" أي أسماء المسميات فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء، لأن الاسم لا بد له من مسمى، وعوض منه اللام كقوله: "واشتعل الرأس" مريم: فإن قلت: هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأن الأصل: وعلم ادم مسميات الأسماء، قلت: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله: "أنبئني بأسماء هؤلاء"، "أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم" فكما علق الإنباء بالأسماء بالمسميات ولم يقل: أنبئني هؤلاء، وأنبئهم بهم، وجب تعليق التعليم بها. فإن قلت: فما معنى تعليمه أسماء المسميات. قلت: أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والمنيوية "أثم عرضهم" أي عرض المسميات. وإنما ذكر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم. وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت. "إن كنتم صادقين" يعني في زعمكم أي أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء إرادة للرد عليهم، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا. فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله "إني أعلم ما لا تعلمون" وقوله: "ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض" استحضار لقوله لهم: "إني أعلم ما لا تعلمون"، إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح. وقرئ: "وعلم آدم" على البناء للمفعول. وقرأ عبد الله: "عرضهن"، وقرأ أبي: "عرضها". والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتهن: لأن العرض لا يصح في الأسماء.

وقرئ: "أنبئهم" بقلب الهمزة ياء "وأنبئهم"، بحذفها والهاء مكسورة فيهما. "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقلنا يادى اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم، وأبو يوسف واخوته له، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه. وقرأ أبو جعفر: "للملائكة اسجدوا" بضم التاء للاتباع. ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتيان إلا في لغة ضعيفة، كقولهم: "الحمد لله". "إلا إبليس"، استثناء متصل، لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الأولف من الملائكة مغموراً بهم، فغلبوا عليه في قوله: "فسجدوا" ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم. ويجوز أن يجعل منقطعاً "أبى"، امتنع مما أمر به "واستكبر"، عنه "وكان من الكافرين" من جنس كفره الجن وشياطينهم، فلذلك أبى واستكبر، كقوله: "كان من الجن ففسق عن أمر ربه" الكهف: . السكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار. و"أنت" تأكيد للمستكن في "اسكن"، ليصح العطف عليه. و"رَغَدًا" وصف للمصدر، أي أكلا رغداً واسعاً رافهاً. و"حَيْثُ" للمكان الميم، أي: أي مكان من الجنة "شئتما"، أطلق لهما الاكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة لليلة، حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة، حتى لا يبقى لهما عذر في تناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفائتة للحصر، وكانت الشجرة فيما قيل: الخنطة

أو الكرمة أو التينة، وقرئ: "ولا تقربا" بكسر التاء. و"هذي" و"الشجرة" بكسر الشين. و"الشيرة" بكسر الشين والياء. وعن أبي عمرو أنه كرهها، وقال يقرأ بها برايرة مكة وسوداها. "من الظالمين" من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله "فَتَكُونُ" جزم عطف على "تقربا" أو نصب جواب للنهي. الضمير في "عنها" للشجرة. أي فحملهما الشيطان على الزلة بسببها. وتحقيقه: فأصدر الشيطان زلتهما عنها. وعن هذه، مثلها في قوله تعالى: "وما فعلته عن أمري" الكهف، وقوله:

ينهون عن أكل وعن شرب

وقيل: فأزلهما عن الجنة بمعنى أفمبهما عنها وأبعدهما، كما تقول: زل عن مرتبته. وزل عنى ذاك: إذا ذهب، عنك، وزل من الشهر كذا. وقرئ: "فأزلهما" "مما كانا فيه" من النعيم والكرامة. أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في عنها. وقرأ عبد الله: "فوسوس لهما الشيطان عنها"، وهذا دليل على أن الضمير للشجرة، لأن المعنى صدرت وسوسته عنها، فإن قلت: كيف توصل إلى إزلالهما وسوسته لهما بعدما قيل له: "فاخرج منها فإنك رجيم" ص: قلت: يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وقيل: كان يدنو من السماء فيكلمهما. وقيل: قام عند الباب فنادى. وروى أنه أراد الدخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به وهم لا يشعرون. قيل: "اهبطوا"، خطاب لآدم وحواء وإبليس. وقيل: والحية. والصحيح أنه لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما، لأنهما لما كانا أصل الإنس ومنتشعهم جعلاً كأنهما الإنس كلهم. والدليل عليه قوله: "قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو" طه: ويدل على ذلك قوله: "فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون". وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم. ومعنى بعضكم لبعض "لبعض" ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض. والهبوط: النزول إلى الأرض، "مستقر" موضع استقرار أو استقرار "ومتاع" وتمتع بالعيش "إلى حين"، يريد إلى يوم القيامة. وقيل: إلى الموت.

"فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أصحاب النار هم فيها خالدون".

معنى تلقي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرئ بنصب آدم ورفع الكلمات، على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به. فإن قلت: ما هن، قلت: قوله تعالى: "ربنا ظلمنا أنفسنا" الآية الأعراف. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: "إن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت". وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "يا رب ألم تخلقني بيدك. قال: بلى. قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك، قال: بلى. قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك، قال: بلى. قال: ألم تسكني جنتك، قال: بلى. قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة، قال: نعم"، واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء، لأنها كانت تبعاً له، كما طوى ذكر

النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك. وقد ذكرها في قوله: "قالا ربنا ظلمنا أنفسنا" الأعراف: "فتاب عليه"، فرجع عليه بالرحمة والقبول. فإن قلت: لم كرر: "قلنا اهبطوا" قلت: للتأكيد ولما نيط به من زيادة قوله: "فإما يأتينكم مني هدى" فإن قلت: ما جواب الشرط الأول، قلت: الشرط الثاني مع جوابه كقولك: إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك. والمعنى: إما يأتينكم مني هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم، بدليل قوله: "والذين كفروا وكذبوا بآياتنا" في مقابلة قوله: "فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ"، فإن قلت: فلم جيء بكلمة الشك واثبات الهدى كائن لا محالة لجوابه. قلت: للإيدان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وانزال الكتب. وأنه إن لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً، كان الإيمان به وتوحيده واجباً لما ركب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة ومكنهم من النظر والاستدلال. فإن قلت: الخطيئة التي أهبط بها آدم إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة، فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء كما فعل إبليس ونسبته إلى الغي والعصيان ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة. قلت: ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات. وإنما جرى عليه ما جرى، تعظيماً للخطيئة وتفضيلاً لشأنها وقهولاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذريته في اجتناب الخطايا وأتقاء المآثم، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة، فكيف يدخلها ذو خطايا جمّة. وقرئ: "فمن تبع هدي" على لغة هذيل، فلا خوف بالفتح.

"يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون، وعامنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون"

"إسرائيل" هو يعقوب عليه السلام لقب له، ومعناه في لسانهم: صفوة الله، وقيل: عبد الله. وهو بزنة إبراهيم وإسماعيل غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة. وقرئ "إسرائيل، وإسرائيل، وذكرهم النعمة: أن لا يخلو بشكرها، ويعتدوا بها، ويستعظموها، ويطيعوا مانحها. وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدد عليهم: من الإنجاء من فرعون وعذابه ومن الغرق. ومن" العفو عن اتخاذ العجل، والتوبة عليهم، وغير ذلك، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد صلى الله عليه وسلم المبشر به في التوراة والإنجيل. والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً. يقال: "أوفيت بعهدي"، أي عاهدت عليه كقوله: "ومن أوفى بعهده من الله" التوبة: ، وأوفيت بعهدي: أي بما عاهدتك عليه. ومعنى "وأوفوا بعهدي" وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي، كقوله: "ومن أوفى بما عاهدوا الله عليه" الفتح: "ومنهم من عاهد الله" التوبة: "رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الأحزاب: "أوف بعهدكم" بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم "وإي فارهبون" فلا تنقضوا عهدي. وهو من قولك: زيداً رهبت. وهو أوكد في إفادة الاختصاص من "إياك نعبد". وقرئ "وأوف" بالتشديد: أي أبالغ في الوفاء بعهديكم، كقوله: من جاء بالحسنة فله خير منها النمل: ويجوز أن يريد بقوله: "وأوفوا بعهدي" ما عاهدوا عليه ووعدوه من الإيمان بني الرحمة والكتاب المعجز. ويدل عليه قوله: "وإمئوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكون أول كافر به" أول كافر به، أو أول فريق أو فوج كافر به، أو: ولا يكن كل واحد منكم كافر به كقولك: كسانا حلة، أي كل واحد منا. وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته. ولأنهم كانوا المبشرين بزمن من أوحى

إليه والمستفتحين على الذين كفروا به. وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم، فلما بعث كان أمرهم على العكس كقوله: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة، إلى قوله: "وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم البينة" البينة: "فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به" البقرة: ويجوز أن يراد: ولا تكونوا مثل أول كافر به، يعني من أشرك به من أهل مكة. أي: ولا تكونوا وأنتم تعرفونه مذكوراً في التوراة موصوفاً، مثل من لم يعرفه وهو مشرك لا كتاب له. وقيل: الضمير في "به" لما معكم، لأنهم إذا كفروا بما يصدقه فقد كفروا به. والاشتراء استعارة للاستبدال كقوله تعالى: "اشترؤا الضلالة بالهدى" البقرة: وقوله:

كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذَا تَنَصَّرَا

وقوله:

فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بِعَدِّكَ بِالْجَهْلِ

يعني ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً وإلا فالثمن هو المشتري به. والثمن القليل الرياسة التي كانت لهم في قومهم، خافوا عليها الفوات لو أصبحوا أتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبدلوها - وهي بدل قليل ومتاع يسير - بآيات الله وبالحق الذي كل كثير إليه قليل، وكل كبير إليه حقير، فما بال القليل الحقير. وقيل: كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم، ويهدون إليهم الهدايا، ويرشونهم الرشاً على تحريفهم الكلم، وتسهيلهم لهم ما صعب عليه من الشرائع. وكان ملوكهم يدرون عليهم الأموال ليكتموا أو يحرفوا. "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون، وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين".

الباء التي في "الباطل" إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء خلطته به، كان المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقاها وباطلكم، وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم الذي تكتبونه "وتكتموا" جزم داخل تحت حكم النهي بمعنى: ولا تكتموا. أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أي ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. فإن قلت: لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين حتى ينهوا عن الجمع بينهما، لأنهم إذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتموا الحق، قلت: بل هما متميزان، لأن لبس الحق بالباطل ما ذكرنا من كتبهم في التوراة ما ليس منها. وكتمانهم الحق أن يقولوا: لا نجد في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم، أو حكم كذا. أو يحو ذلك. أو يكتبوه على خلاف ما هو عليه. وفي مصحف عبد الله: "وتكتمون" بمعنى كاتمين "وأنتم تعلمون" في حال علمكم أنكم لا بسون كاتمون، وهو أقبح لهم، لأن الجاهل بالقبيح ربما عذر راكمه "وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة" يعني صلاة المسلمين وزكاتهم "واركعوا مع الراكعين" منهم، لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم. وقيل: الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم في دين الله. ويجوز أن يراد بالركوع: الصلاة، كما يعبر عنها بالسجود، وأن يكون أمراً بأن تصلى مع المصلين، يعني في الجماعة، كأنه قيل: وأقيموا الصلاة وصلوها مع المصلين، لا منفردين.

"أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" "أَتَأْمُرُونَ" الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم. والبر سعة الخير والمعروف. ومنه البر لسعته، ويتناول كل خير. ومنه قولهم: صدقت وبررت. وكان الأخبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها. وعن محمد بن واسع: بلغني إن ناساً من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة. قالوا: كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها. "وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ" وتتركونها من البر كالمنسيات "وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ" تبيكت مثل قوله: "وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" يعني تتلون "التوراة" وفيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول بالعمل "أَفَلَا تَعْقِلُونَ" توبيخ عظيم بمعنى: أفلا تفطنون، لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول لأن العقول تأباه وتدفعه. ونحوه: "أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" الأنبياء: "وَاسْتَعِينُوا" على حوائجكم إلى الله "بالصبر والصلاة" أي بالجمع بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها وما يجب فيها - من إخلاص القلب، وحفظ النيات، ودفع الوسواس ومراعاة الآداب، والاحتراز من المكاره مع الخشية والخشوع، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات، ليسأل فك الرقاب عن سخطه وعذابه. ومنه قوله تعالى: "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا" طه: أو: واستعينوا على البلاء والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وعن ابن عباس أنه نعى إليه أخوه "قُتَيْمٌ" وهو في سفر، فاسترجع وتنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: واستعينوا بالصبر والصلاة، وقيل: الصبر الصوم، لأنه حبس عن المفطرات. ومنه قيل لشهر رمضان: شهر الصبر. ويجوز أن يراد بالصلاة الدعاء، وأن يستعان على البلاء بالصبر، والالتجاء إلى الدعاء، والابتهاال إلى الله تعالى في دفعه "وإنها" الضمير للصلاة أو للاستعانة. ويجوز أن يكون لجميع.

الأمر التي أمر بها بنو إسرائيل وهوا عنها من قوله: "اذكروا نعمتي" إلى "واستعينوا"، "لكبيرة" لشاقة ثقيلة من قولك: كبر عليي هذا الأمر، أكبر على المشركين ما تدعوهم إليه، أ الشورى: ،. فإن قلت: ما لها لم تثقل على الخاشعين والخشوع في نفسه مما يثقل. قلت: لأنهم يتوقعون ما أذخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم. ألا ترى إلى قوله تعالى: "الذين يظنون أنهم ملأوا ربهم" البقرة: ، أي يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنمه، ويطمعون فيه. وفي مصحف عبدالله: ! يعلمون !. ومعناه: يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك. ولذلك فسريظنون بيتيقنون. وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب. كانت عليه مشقة خالصة فنقلت عليه كالمنافقين والمرائين بأعمالهم. ومنله من وعد على بعض الأعمال! والصنائع أجرة زائدة على مقدار عمله، فتراه يزاوله برغبة ونشاط وانشراح صحر ومضاحكة لحاضريه، كأنه يستلذ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخره بعض الظلمة. ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وجعلت قرّة عيني في الصلاة".

، وكان يقول: "يا بلال رُوحنا". والخشوع. الإخبات والتطامن. ومنه: خشعة للرملة المتطامنة. وأما الخضوع فاللين والانقياد. ومنه: خضعت بقولها إذا لينته.

"يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين، واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعَةٌ ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون" "وأني فضلتكم" نصب عطف على "نعمتي" أي اذكروا نعمتي وتفضيلي "على العالمين" على الجحيم الغفير من الناس، كقوله تعالى: "باركنا فيها للعالمين" الأنبياء: 71، يقال: رأيت عالماً من الناس يراد الكثرة "يوماً" يريد يوم القيامة "لا تجزي" لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق. ومنه الحديث في جذعة ابن نيار: تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك و "شيئاً" مفعول به ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي قليلاً من الجزاء، كقوله تعالى: "ولا يظلمون شيئاً" مريم: 60، ومن قرأ لا تجزي من أجزأ عنه إذا أغنى عنه، فلا يكون في قراءته إلا بمعنى شيئاً من الإجزاء. وقرأ أبو السرار الغنوي: لا تجزي نسمة عن نسمة شيئاً. وهذه الجملة منصوبة المحل صفة لـ يوماً. فإن قلت: فأين العائد منها إلى الموصوف؟ قلت: هو محذوف تقديره: لا تجزي فيه. ونحوه ما أنشده أبو علي:

تروحي أجدر أن تقيلي

أي ماء أجدر بأن تقيل فيه. ومنه من يزل فيقول: اتسع فيه، فأجرى مجرى المفعول به فحذف الجار ثم حذف الضمير كما حذف من قوله: أم مال أصابوا. ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقنات الكلي القطاع للمطامع. وكذلك قوله: "ولا يقبل منها شفاعَةٌ ولا يؤخذ منها عدلٌ" أي فدية لأنها معادلة للمفدى. ومنه الحديث: "لا يقبل منه صرف ولا عدل" أي توبة ولا فدية. وقرأ قتادة: "ولا يقبل منها شفاعَةٌ" على بناء الفعل للفاعل وهو الله عز وجل، ونصب الشفاعَة. وقيل: كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا. فإن قلت: هل فيه دليل على أن الشفاعَة لا تقبل للعصاة؟ قلت: نعم، لأنه نفى أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك، ثم نفى أن يقبل منها شفاعَة شفيح فعلم أنها لا تقبل للعصاة. فإن قلت: الضمير في "ولا يقبل منها" إلى أي النفسين يرجع؟ قلت: إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها، وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى لا يقبل منها شفاعَة: إن جاءت بشفاعة شفيح لم يقبل منها. ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنه لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها، كما لا تجزى عنها شيئاً، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها "ولا هم ينصرون" يعني ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة والتذكير بمعنى العباد والأناسي، كما تقول: ثلاثة أنفس.

"وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ" أصل "آل" أهل، ولذلك يصغر بأهيل، فأبدلت هاؤه ألفاً. وخص استعماله بأولى الخطر والشأن كالمملوك وأشباههم، فلا يقال آل الإسكاف والحجام. و "فرعون" علم لمن ملك العمالة، كقيصر: لملك الروم، وكسرى: لملك الفرس. ولعتو الفراعنة اشتقوا: تفرعن فلان، إذا عتا وتجبر. وفي ملح بعضهم:

أقصى تفرعنه وفرط عرامه

قد جاءه الموسى الكلوم فزاد في

وقرى: أنجيناكم ونجيتكم. "يسومونكم" من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً. قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن يقر الخسف فينا

وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنه بمعنى ييغونكم. "سوء العذاب" ويريدونكم عليه. والسوء: مصدر السيئ. يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل، يراد قبحهما. ومعنى "سوء العذاب" والعذاب كله سيئ: أشده وأفظعه، كأنه قبحه بالإضافة إلى سائرته. "ويذبحون": بيان لقوله: "يسومونكم" ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى: "يضاهون قول الذين كفروا" التوبة: 20. وقرأ الزهري: يذبحون بالتخفيف كقولك: قطعت الثياب وقطعتها. وقرأ عبد الله: يقتلون. وإنما فعلوا بهم ذلك لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد مولود يكون على يده هلاكه، كما أنذر نمرود. فلم يغن عنهما اجتهداهما في التحفظ، وكان ما شاء الله. والبلاء المحنة إن أشير ب ذلكم إلى صنيع فرعون. والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء.

"وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون" "فرقنا" فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرئ: فرقنا، بمعنى فصلنا. يقال: فرق بين الشيئين، وفرق بين الأشياء؛ لأن المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط. فإن قلت: ما معنى "بكم"؟ قلت: فيه أوجه: أن يراد أنهم كانوا يسلكونه، ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما، وأن يراد فرقناه بسببكم، وبسبب إنجائكم، وأن يكون في موضع الحال بمعنى فرقناه متلبساً بكم كقوله:

تدوس بنا الجماجم والتربيا

أي تدوسها ونحن راكبوها. وروي أن بني إسرائيل قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم. فقال: اللهم أني على أخلقهم السيئة. فأوحى إليه: أن قل بعصاك هكذا، فقال بما على الحيطان. فصارت فيها كوى. فتراؤا وتسامعوا كلامهم "وأنتم تنظرون" إلى ذلك وتشاهدونه لا تشكون فيه.

"وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون" لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله موسى أن يزل عليه التوراة، وضرب له ميقاناً ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وقيل "أربعين ليلة" لأن الشهور غررها بالليالي. وقرئ "وعدنا" لأن الله تعالى وعده الوحي ووعد المجيء للميقات إلى الطور "من بعده" من بعد مضيه إلى الطور "وأنتم ظالمون" يشاراكم "ثم عفونا عنكم" حين تبتهم "من بعد ذلك" من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتخاذكم العجل "لعلكم تشكرون" إرادة أن تشكروا النعمة في العفو عنكم.

"وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون، وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم" "الكتاب والفرقان" يعني الجامع بين كونه كتاباً متزلاً، وفرقناً يفرق بين الحق والباطل: يعني التوراة، كقولك: رأيت الغيث والليث، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة. ونحوه قوله تعالى: "ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء

وذكرًا" الأنبياء: 48، يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكرًا: أو التوراة. والبرهان: الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام، وقيل الفرقان: انفراق البحر. وقيل: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه، كقوله تعالى: "يوم الفرقان" الأنفال: 41، يريد به يوم بدر. حمل قوله: "فاقتلوا أنفسكم" على الظاهر وهو البخع وقيل: معنا قتل بعضهم بعضاً. وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد. وروي: أن الرجل كان يبصر ولده، ووالده وجاره وقريبه، فلم يمكنهم المضي لأمر الله، فأرسل الله ضباباً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم، ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم، وقيل لهم: اصبروا فلعل الله من مد طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل، فيقولون: آمين فقتلوهم إلى المساء حتى دعا موسى وهارون وقالوا: يا رب، هلكت بنو إسرائيل، البقية البقية، فكشفت السحابة ونزلت التوبة. فسقطت الشفار من أيديهم، وكانت القتلى سبعين ألفاً. فإن قلت: ما الفرق بين الفآت؟ قلت: الأولى للتسبب لا غير، لأن الظلم سبب التوبة. والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم، من قبل أن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم. ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم. فيكون المعنى: فتوبوا، فأتبعوا التوبة القتل تنمة لتوبتكم، والثالثة متعلقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم فتتعلق بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم. وإما أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات. فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتتاب عليكم بارؤكم. فإن قلت: من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت: البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفات "ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت" الملك: 3، ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة. - في أمثال العرب: أبلد من ثور - حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، وينشر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها.

"وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون، وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"

قيل: القائلون السبعون الذي صعقوا. وقيل: قاله عشرة آلاف منهم "جهرةً" عياناً. وهي مصدر من قولك: جهر بالقراءة وبالمدعاء، كأن الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصاباً على المصدر، لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعالها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس، أو على الحال بمعنى ذوي جهرة. وقرئ جهرة بفتح الهاء، وهي إما مصدر كالغلبة. وإما جمع جاهر. وفي الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رادهم القول وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة محال وأن من استجاز على الله الرؤي فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض، فرادوه بعد بيان الحجة ووضوح البرهان، ولجوا فكانوا في الكفر كعبدة العجل، فسلط الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكافرين ودلالة على عظمتهما بعظم الخنة. و "الصاعقة" ما صعقهم، أي أهلكهم. قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتهم. وقيل: صيحة جاءت من السماء. وقيل: أرسل الله

جنوداً سمعوا بحسها فخرّوا صعقن ميتين يوماً وليلة. وموسى عليه السلام، لم تكن صعقته موتاً ولكن غشية، بدليل قوله: "فلما أفاق". والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله: "أنتم تنظرون". وقرأ علي رضي الله عنه فأخذتكم الصعقة. "لعلكم تشكرون" نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذا فتكم الموت. "وظللنا" وجعلنا الغمام يظلكم. وذلك في التيه، سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلمهم من الشمس؛ ويتزل بالليل عمود من نار يسيرون في ضوئه، وثياهم لا تتسخ ولا تبلى، ويتزل عليهم "المن" وهو الترنجيب مثل الثلج. من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لكل إنسان صاع، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم "السلوى" وهي السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه "كلوا" على إرادة القول "وما ظلمونا" يعني فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة "وما ظلمونا" عليه.

"وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطةً نغفر لكم خطاياكم وسترّد الحسنين، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون" "القرية" بيت المقدس. وقيل: أريحاء من قرى الشام، أمروا بدخولها بعد التيه "الباب" باب القرية. وقيل: هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله وتواضعاً. وقيل: السجود أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين، ليون دخولهم بخشوع وإخبات. وقيل: طوطى لهم الباب ليخفصوا رؤوسهم فلم يخفصوها، ودخلوا متزحفين على أوراكمهم "حطة" فعلة من الخط كالجلسة والركبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي مسألنا حطة، أو أمرك حطة. والأصل: النصب بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات، كقوله:

صبرٌ جميلٌ فكلنا مبتلى

والأصل صبراً، على: اصبر صبراً. وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب على الأصل. وقيل معناه: أمرنا حطة، أي أن نخط في هذه القرية ونستقر فيها. فإن قلت: هل يجوز أن تنصب حطة في قراءة من نصبها ب قولوا، على معنى: قولوا هذه الكلمة؟ قلت: لا يبعد. والأجود أن تنصب يا ضممار فعلها، وينتصب محل ذلك المضمر ب قولوا. وقرئ يغفر لكم على البناء للمفعول بالياء والتاء "وسترّد الحسنين" أي من كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة. "فبدل الذين ظلموا" أي وضعوا مكان حطة "قولاً" غيرها. يعني أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالقوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمتثلوا أمر الله. وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به، لم يؤاخذوا به. كما لو قالوا مكان حطة: نستغفرك ونتوب إليك. أو اللهم اعف عنا، وما أشبه ذلك. وقيل: قالوا مكان حطة: حنة. وقيل: قالوا: بالنبطية: حطاً سققاً أي حنة حمراء، استهزاء منهم بما قيل لهم، وعدولاً عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أغراض الدنيا. وفي تكرير "الذين ظلموا" زيادة في تقبيح أمرهم وإيدان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم. وقد جاء في سورة الأعراف: "فأرسلنا عليهم" الأعراف: 133، على الإضممار. والرجز: العذاب.

وقرئ. -بضم الراء - وروي: أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً. وقيل: سبعون ألفاً. "وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناسٍ مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين" عطشوا في التيه، فدعا لهم موسى بالسقيا فقبل له: "اضرب بعصاك الحجر" واللام إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم. فقد روي: أنه حجر طوري حمله معه، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب، فدفعه إليه مع العصا. وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة، ففر به، فقال له جبريل: يقول لك الله تعالى: ارفع هذا الحجر، فإن لي فيه قدرة ولك فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته. وإما للجنس، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر. وعلى الحسن: لم يأمر أن يضرب حجراً بعينه قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة. وروي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة، فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه. وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فيببس. فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحى إليه: لا تفرع الحجارة، وكلمها تطعك، لعلهم يعتبرون. وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع. وقيل: مثل رأس الإنسان. وقيل: كان من أسى الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى، وله شعبتان تتقدان في الظلمة، وكان يحمل على حمار: "فانفجرت"، الفاء متعلقة بمحذوف، أي فضرب فانفجرت. أو فإن ضربت فقد انفجرت، كما ذكرنا في قوله: "فاب عليكم" وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ. وقرئ عشرة بكسرة الشين وبفتحتها وهما لغتان "كل أناسٍ" كل سبط "مشربهم" عنيهم التي يشربون منها "كلوا" على إرادة القول "من رزق الله" مما رزقكم من الطعام وهو المن والسلوى ومن ماء العيون. وقيل: الماء ينبت منه الزروع والثمار، فهو رزق يؤكل منه ويشرب. والعشي: أشد الفساد، فقبل لهم: لا تتماذوا في الفساد في حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه.

"وإذ قلتم يموسى لن نصبر على طعامٍ واحدٍ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون"

كانوا فلاحه فترعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء "على طعامٍ واحدٍ" أرادوا ما رزقوا في التيه من المن والسلوى. فإن قلت: هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد؟ قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، قيل: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً. يراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف. ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والتترف، ونحن قوم فلاحه أهل زراعات، فما نريد إلا ما ألفناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك. ومعنى "يخرج لنا" يظهر لنا ويوجد والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر. والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهاها. وقرئ وقثائها بالضم. والفوم: الحنطة. ومنه فوموا لنا،

أي: اخبزوا. وقيل: الثوم. ويدل عليه قراءة ابن مسعود: وثومها وهو للعدس والبصل أوفق "الذي هو أدنى" الذي هو أقرب منزلة وأدون مقداراً. والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار فيقال: هو داني الخل وقريب المنزلة، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك فيقال: هو بعيد الخل وبعيد المهمة يريدون الرفعة والعلو. وقرأ زهير الفرقي: أدناً بالهمزة من الدناءة "اهبطوا مصرأ" وقرئ اهبطوا بالضم: أي انحذروا إليه من التيه. يقال: هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه، إذا خرج. وبلاد التيه: ما بين بين المقدس إلى قنسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ. ويحتمل أن يريد العلم وإنما صرفه مع اجتماع السبيين فيه وهما التعريف والتأنيث، لسكون وسط كقوله: "ونوحاً ولوطاً". وفيهما العجمة والتعريف، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد، وإن يريد مصرأ من الأمصار وفي مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش: اهبطوا مصر. بغير تنوين. كقوله: "ادخلوا مصر". وقيل: هو مصرايم فعرّب "وضربت عليهم الذلة" جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمهم ضربة لازب، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغروا أذلاء أهل مسكنة ومدقعة، إما على الحقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقرهم، خيفة أن تضاعف عليهم الجزية "وباءو بغضب من الله" من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، لمساواته له ومكافأته، أي صاروا أحقار بغضبه "ذلك" إشارة إلى ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والخلقة بالغضب، أي ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وقد قتلت اليهود - لعنوا - شعياً وزكريا ويحيى وغيرهم، فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلت: معناه: أنهم قتلوه بغير الحق عندهم لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا. وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوه، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم. وقرأ علي رضي الله عنه ويقتلون بالتشديد "ذلك" تكرار للإشارة "بما عصوا" بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء، مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. وقيل: هو اعتدائهم في السبت. ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

"إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"

إن الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطاة القلوب وهم المنافقون "والذين هادوا" والذين هودوا. ويقال: هاد يهود. وهود إذا دخل في اليهودية، وهو هائد، والجمع هود. "والنصارى" وهو جمع نصران. يقال: رجل نصران، وامرأة نصرانة، قال: نصرانة لم تحنف. والياء في نصراني للمبالغة كالتي في أحمرى. سموا لأنهم نصرروا المسيح. "والصابئين" وهو من صبا: إذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة "من آمن" من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في ملة الإسلام دخولاً أصيلاً "وعمل صالحاً فلهم أجرهم" الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم. فإن قلت: ما محل من آمن؟ قلت: الرفع إن جعلته مبتدأ خبره فلهم أجرهم والنصب إن جعلته بدلاً من اسم إن المعطوف عليه. فخير إن في الوجه الأول الجملة كما هي وفي الثاني فلهم أجرهم. والفاء لتضمن "من" معنى الشرط.

"وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون، ثم توليتهم من بعد ذلك فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين، ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين، فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتقين" "وإذ أخذنا ميثاقكم" بالعمل على ما في التوراة "ورفعنا فوقكم الطور" حتى قبلتم وأعطيتهم الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولهم، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفعهم وظلله فوقهم وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقى عليكم، حتى قبلوا. "خذوا" على إرادة القول "ما آتيناكم" من الكتاب "بقوة" بجد وعزيمة "واذكروا ما فيه" واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه "لعلكم تتقون" رجاء منكم أن تكونوا متقين، أو قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا. "ثم توليتهم" ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به "فلولا فضل الله عليكم" بتوفيقكم للتوبة لخسرتهم. وقرئ: خذوا ما آتيتكم، وتذكروا واذكروا و "السبت" مصدر سبت اليهود إذا عظمت يوم السبت. وإن ناساً منهم اعتدوا فيه أي جاوزوا ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت، فإذا مضى تفرقت. كما قال: "تأتيهم حيثانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يستون لا تأتيهم كذلك نبلوهم" الأعراف: 163، فحفرُوا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد. فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم. "قردةً خاسئين" خبران، أي كونوا جامعين بين القردية والخسوء، وهو الصغار والطرود "فجعلناها" يعني المسخة "نكالاً" عبرة تنكل من اعتبر بها أي تمنعه. ومنه النكل: القيد "لما بين يديها" لما قبلها "وما خلفها" وما بعدها من الأمم والقرون لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين: أو أريد بما بين يديها: ما بحضرتها من القرى والأمم. وقيل: نكالاً عقوبة منكلة لما بين يديها لأجل ما تقدمها من ذنوبهم وما تأخر منها "وموعظة للمتقين" للذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم، أو لكل متق سمعها.

"وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا ألتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لوئها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر النظرين، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإن شاء الله لمهتدون، قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون، وإذ قتلتم نفساً فادركم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آيته لعلكم تعقلون"

كان في بين إسرائيل شيخ موسر فقتله ابنه بنو أخيه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بديته، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله "قالوا ألتخذنا هزواً" أتجعلنا مكان هزو، أو أهل هزو، أو مهزواً بنا، أو اهزواً نفسه لفرط الاستهزاء "من الجاهلين" لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه. وقرئ هزواً بضميتين. وهزءاً بسكون الزاي، نحو كفؤا وكفؤاً. وقرأ حفص: هزواً بالضميتين والواو وكذلك كفؤاً. والعياذ واللياذ من واد واحد.

في قراءة عبد الله: سل لنا ربك ما هي؟ سؤال عن حالها وصفتها. وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الأرجة عما عليه البقر. والفارض: المسنة، وقد فرضت فروضاً فهي فارض. قال خفاف بن ندبة:

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضاً تساق إليه ما تقوم على رجل

وكانها سميت فارضاً لأنها فرضت سنها أي قطعها وبلغت آخرها. والبكر: الفتية. والعوان النصف. قال:

نواعم بين أ بكرٍ وعون

وقد عونت. فإن قلت: "بين" يقتضي شيئين فصاعداً فمن أين جاز دخوله على "ذلك" قلت: لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر. فإن قلت: كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ قلت: جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدم، للاختصار في الكلام، كما جعلوا فعل نائباً عن أفعال حجة تذكر قبله: تقول للرجل: نعم ما فعلت، وقد ذكر لك أفعلاً كثيرة وقصة طويلة، كما تقول له: ما أحسن ذلك. وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا. قال أبو عبيدة: قلت: لرؤبة في قوله:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

إن أردت الخطوط فقل: كأنها. وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنهما. فقال: أردت كأن ذاك وبلق! والذي حسن منه: أن أسماء الإشارة تشبهها وجمعها وتأنيتها ليست على الحقيقة وكذلك الموصولات. ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع "ما تؤمرون" أي ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قوله: أمرتك الخير أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول به بالمصدر، كضرب الأمير.

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه. يقال في التوكيد: أصفر فاقع ووارس، كما يقال أسود حالك وحانك، وأبيض يقق ولحق. وأحمر قاني وذريحي. وأخضر ناضر فلم يقع توكيداً لصفراء قلت: لم يقع خبراً عن اللون إنما وقع توكيداً لصفراء، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون من سببها وملتبس بها، فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لوها. فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة؟ وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلت: الفائدة في التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة، فكأنه قيل: شديدة الصفرة صفراً، فهو من قولك: جد جده، وجنونك مجنون. وعن وهب: إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها. والسرور لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه. وعن علي رضي الله عنه: من لبس نعلًا صفراء قل همه لقوله تعالى: "تسر الناظرين". وعن الحسن البصري "صفراء فاقعٌ لوها": سوداء شديدة السواد. ولعله مستعار من صفة الإبل؛ لأن سوادها تعلوه صفرة. وبه فسر قوله تعالى: "جمالات صفر" المرسلات: 33. قال الأعشى:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفرٌ أولادها كالزبيب

"ماهي" مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "لو اعترضوا أدنى بقرة فذبجوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم" والاسقضاء شؤم. وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم، فكتب إليه: بأبيهما أبداً؟ فقال: إن

قلت لك بقطع الشجر سألتني: بأي نوع منها أبدأ؟ وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاة سألتني: أضائن أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني. وفي الحديث:

"أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسألته". "إن البقر تشابه علينا" أي إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح وقرئ: تشابه، بمعنى تشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين. وتشابهت ومتشابهة ومتشابه. وقرأ محمد ذو الشامة: إن الباقر يشابهه، بالياء والتشديد. جاء في الحديث: "لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد" أي: لو لم يقولوا إن شاء الله. والمعنى: إنا لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل. "لا ذلول" صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول، يعني لم تذلل للكراب وإثارة الأرض، ولا هي من النواضح التي يسنى عليها لسقي الحروث، ولا الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تشير وتسقي. على أن الفعلين صفتان للذلول، كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: لا ذلول بمعنى لا ذلول هناك: أي حيث هي، وهي نفي لذلها؛ ولأن توصف به فيقال: هي ذلول. ونحوه قولك: مررت بقوم لا بخيل ولا جبان. أي فيهم، أوحيتهم. وقرئ تسقي بضم التاء من أسقى. "مسلمة" سلمها الله من العيوب، أو معفاة من العمل سلمها أهلها منها كقوله:

أو معبر الظهر ينبي عن وليته ما حج ربه في الدنيا ولا اعتمرا

أو مخرصة اللون، من سلم له كذا إذا خلص له، لم يشب صفراً شيء من الألوان "لاشية فيها" لا لمعة في نقبتها من لون آخر سوى الصفرة، فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها. وهي في الأصل مصدر وشاه وشيا وشية، إذا خلط بلونه لونا إشكال في أمرها "فذبجوها" أي فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبجوها. وقوله: "وكادوا يفعلون" استئصال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وأهم لتطويرهم المفرط وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبجونها وما كادت تنتهي سؤالاتهم وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: وما كادوا يذبجونها لغلاء ثمنها. وقيل: لخوف الفضيحة في ظهور القاتل. وروي: أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إني أستودعكها لابني حتى يكبر، وكان براً بالديه، فشيت وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة. فإن قلت: كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرة من شق البقر غير مخصوصة، ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات، فذبجوا المخصوصة، فما فعل الأمر الأول؟ قلت: رجع منسوخاً لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة، والنسخ قبل الفعل جائز. على أن الخطاب كان لإجماعه متناولاً لهذه البقرة الموصوفة كما تناول غيرها، ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالاً له، فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص. "وإذ قتلتم نفساً" خطبت الجماعة لوجود القتل فيهم "فادارتهم" فاختلقتهم واختصمتهم في شأنها، لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً، أي يدفعه ويترجمه. أو تدافعتم، بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض، فدفع المطروح عليه الطارح. أو لأن الطرح في نفسه دفع. أو دفع

بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه. "والله مخرج ما كنتم تكتُمون" مظهر لا محالة ما كنتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً. فإن قلت: كيف أعمل مخرج وهو في معنى المضي؟ قلت: وقد حكى ما كان مستقبلاً في وقت التدارؤ. كما حكى الحاضر في قوله: "باسط ذراعيه" الكهف: 18، وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما ادارأتم وقلنا والضمير في "اضربوه" إما أن يرجع إلى النفس والتذكير على تأويل الشخص والإنسان، وإما إلى القتل لما دل عليه من قوله: ما كنتم تكتُمون. "بعضها" ببعض البقرة. واختلف في البعض الذي ضرب به، فقيل: لسانها، وقيل: فخذها اليمنى، وقيل: عجبها، وقيل: العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الأذن، وقيل: الأذن، وقيل: البضعة بين الكتفين. والمعنى: فضربوه فحیی، فحذف ذلك لدلالة قوله: "كذلك يحيي الله الموتى". وروي: أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دمًا، وقال: قتلتني فلان وفلان، لابني عمه، ثم سقط ميتًا، فأخذوا وقتلوا ولم يورث قاتل بعد ذلك. "كذلك يحيي الله الموتى" إما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتل بمعنى وقلنا لهم: كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة "ويريكم آياته" ودلائله على أنه قادر على كل شيء "لعلكم تعقلون" تعملون على قضية عقولكم. وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث. وإما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: هلا أحياء ابتداء؟ ولم شرط في إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها؟ قلت: في الأسباب والشروط حكم وفوائد. وإنما شرط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرب وأداء التكاليف واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القرية على الطلب، وما في التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم، ولآخرين في ترك التشديد والمصارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى وارتسامها على الفور، من غير تفتيش وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الراجعة، والدلالة على بركة البر بالوالدين، والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهازي بما لا يعلم كنهه، ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء، وبيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتنوق في اختيار ما يتقرب به، وأن يختاره في السن غير قحمة ولا ضرع، حسن اللون برياً من العيوب يوتق من ينظر إليه، وأن يغالي بثمانه، كما يروى عن عمر رضي الله عنه.

أنه ضحى بنحية بثلاثمائة دينار. وأن الزيادة في الخطاب نسخ له، وأن النسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى البداء، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيب أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب، لأن الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة. فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها، فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام. وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدثتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المصارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآيات العظيمة. وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تشية التقريع. ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: "اضربوه ببعضها" حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتشيته بإخراج الثانية مخرج

الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

"ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لم يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون" معنى "ثم قست" استبعاد القسوة من بعد ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها ونحوه: "ثم أنتم تمترون" وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوها عن الاعتبار وأن المواعظ لا تؤثر فيها. "وذلك" إشارة إلى إحياء القتل، أو إلى جميع ما تقدم من الآيات المعدودة "فهي كالحجارة" فهي في قسوتها مثل الحجارة "أو أشد قسوة" منها، وأشد معطوف على الكاف، إما على معنى أو مثل أشد قسوة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة، وإما على: أو هي في أنفسها أشد قسوة. والمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً. أو من عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة. فإن قلت: لم قيل: أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة. ووجه آخر: وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة. وقرئ: قساوة. وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس، كقولك: زيد كريم وعمرو أكرم. وقوله: "وإن من الحجارة" بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة، وتقرير لقوله: أو أشد قسوة. وقرئ وإن بالتخفيف. وهي إن المخففة من الثقيلة التي تلزمها اللام الفارقة. وقرئ وإن بالتخفيف. وهي إن المخففة من الثقيلة التي تلزمها اللام الفارقة. ومنها قوله تعالى: "وإن كل لما جميع" يس: 33. والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة. وقرأ مالك بن دينار ينفجر بالنون. "يشقق" يتشقق. وبه قرأ الأعمش. والمعنى إن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً "يهبط" يتردى من أعلى الجبل. وقرئ بضم الباء. والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به. وقرئ يعملون بالياء والتاء، وهو وعيد.

"أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتى الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون، أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون"

"أفطمعون" الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين "أن يؤمنوا لكم" أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبيوا لكم، كقوله: "فأمن له لوط" العنكبوت: 26، يعني اليهود، "وقد كان فريقٌ طائفة فيمن سلف منهم يسمعون كلام الله" وهو ما يتلونه من التوراة "ثم يحرفونه" كما حرفوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وآية الرجم، وقيل: كان قوم من السبعين المختارين سمعوا كلام الله. حين كلم موسى بالطور وما أمر به ونهى، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس. وقرئ كلم الله. "من بعد ما عقلوه" من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة في صحته "وهم يعلمون" أنهم كاذبون مفترون. والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة في ذلك. "وإذا لقوا" يعني اليهود "قالوا" قال منافقوهم "آمنّا" بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به "وإذا خلا بعضهم" الذين لم ينافقوا "إلى بعض" الذين نافقوا

"قالوا" عاتبين عليهم "أتحدثوهم بما فتح الله عليكم" بما بين لكم في التوراة من صفة محمد. أو قال المنافقون لأعقابهم يروهم التصلب في دينهم: أتحدثوهم، إنكاراً عليهم أن يفتحوا عليهم شيئاً في كتابهم فيناقون المؤمنين وينافقون اليهود "ليحاجوكم به عند ربكم" ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم به، وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله. ألا تراك تقول: هو في كتاب الله هكذا. وهو عند الله هكذا، بمعنى واحد. "يعلم" جميع "ما يسرون وما يعلنون" ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان.

"ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون" "ومنهم أميون" لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها. "لا يعلمون الكتاب" التوراة "إلا أمانى" إلا ما هم عليهم من أمانيتهم، وأن الله يغفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما تمنيتهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة. وقيل: إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد. قال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به: أهذا شيء رويته، أم تمنيته، أم اختلقته، وقيل: إلا ما يقرؤون من قوله:

تمنى كتاب الله أول ليلة

والاشتقاق من منى إذا قدر، لأن الممتنى يقدر في نفسه ويجز ما يتمناه، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. وإلا أمانى: من الاستثناء المنقطع. وقرئ: أمانى بالتخفيف. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم والاستيقان، ثم العوام الذين قلدوهم، ونبه على أنهم في الضلال سواء، لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم. "يكتبون الكتاب" الحرف "بأيديهم" تأكيد، وهو من محاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبه بيمينك هذه. "مما يكسبون" من الرشا.

"وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون"

"إلا أياماً معدودة" أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد: كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً. "فلن يخلف الله" متعلق بمحذوف تقديره: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده. و"أم" إما أن تكون معادلة بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما. ويجوز أن تكون منقطعة. "بلى" إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: "لن تمسنا النار" أي بلى تمسكم أبداً، بدليل قوله: "هم فيها خالدون". "من كسب سيئة" من السيئات، يعني كبيرة من الكبائر "وأحاطت به خطيئته" تلك واستولت عليه، كما يحيط العدو ولم يتفص عنها بالتوبة. وقرئ: خطاياهم وخطيئته. وقيل: في الإحاطة: كان ذنبه أغلب من طاعته. وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان الله، ألا أراك ذا حية وما تدري ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهي فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة الحبيطة.

"وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس

حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتكم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون" "لا تعبدون" إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاز، فهو يخبر عنه وتنصره قراءة عبد الله وأي لا تعبدوا ولا بد من إرادة القول، ويدل عليه أيضاً قوله "وقولوا". وقوله: "وبالوالدين إحساناً" إما أن يقدر: وتحسنون بالوالدين إحساناً. أو وأحسنوا. وقيل: هو جواب قوله: "وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل" إجراء له مجرى القسم، كأنه قيل: وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون. وقيل: معناه: أن لا تعبدوا، فلما حذفت أن رفع، كقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

ويدل عليه قراءة عبد الله أن لا تعبدوا ويحتمل أن لا تعبدوا أن تكون أن فيه مفسرة، وأن تكون أن مع الفعل بدلاً عن الميثاق، كأنه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم وقرئ بالتاء حكاية لما خوطبوا به، وبالياء لأنهم غيب. "حسناً" قولاً هو حسن في نفسه لإفراط حسنه. وقرئ حسناً و حسنى على المصدر - كبشرى. "ثم توليتكم" على طريقة الالتفات أي توليتكم عن الميثاق ورفضتموه. "إلا قليلاً منكم" قيل: هم الذين أسلموا منهم. "وأنتم معرضون" وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن الموائيق، والتولية.

"وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصون"

"لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم" لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه. إذا اتصل به أصلاً أو ديناً. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه، لأنه يقتص منه. "ثم أقررتم" بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه "وأنتم تشهدون" عليها كقولك: فلان مقرر على نفسه بكذا شاهد عليها. وقيل: وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافهم بهذا الميثاق "ثم أنتم هؤلاء" استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرين تزيلاً، لتغير الصفة منزلة وتغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به. وقوله: "تقتلون" بيان لقوله: "ثم أنتم هؤلاء" وقيل: هؤلاء موصول بمعنى الذين. وقرئ: تظاهرون بحذف التاء وإدغامها. وتظاهرون بإثباتها وتظهرون بمعنى تتظاهرون: أي تتعاونون عليهم. وقرئ: تفدوهم، وتفادوهم. وأسرى، واسارى "وهو" ضمير الشأن. ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره "إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب" أي بالفداء "وتكفرون ببعض" أي بالقتال والإجلاء. وذلك أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير كانوا حلفاء الخزرج، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه. فعيرتم العرب وقالت: كيف تقاتلوهم ثم تفدوهم. فيقولون: أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم، ولكننا نستحي أن نذل

حلفاءنا. والخزي: قتل بني قريظة وأسرههم وإجلاء بني النضير. وقيل: الجزية. وإنما رد من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب، لأن عصيانه أشد. وقرئ: يردون، ويعملون. بالياء والتاء. "فلا يخفف عنهم" عذاب الدنيا بنقصان الجزية، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم. وكذلك عذاب الآخرة.

"ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تؤمنون أنفوسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون، وقالوا قلوبنا غلفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون، ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين" "الكتاب" التوراة، آتاه إياها جملة واحدة. ويقال: قفاه إذا أتبعه من القفا. نحو ذنبه، من الذنب. وقفاه به: أتبعه إياه، يعني: وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل، كقوله تعالى: "ثم أرسلنا رسلنا تترى" المؤمنون: 44، وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقييل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم. وقيل: "عيسى" بالسريانية يشوع. و"مريم" الخادم. وقيل: المريم بالعربية من النساء، كالزير من الرجال. وبه فسر قول رؤية:

قلت لزير لم تصله مريمه

ووزن مريم عند النحويين مفعول لأن فاعلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب "البينات" المعجزات الواضحات والحجج. كإحياء الموتى وإبراء الأكهم والأبرص والإخبار بالمغيبات. وقرئ: وآيدناه. ومنه: آجده، بالجيم إذا قواه. يقال: الحمد لله الذي آجديني بعد ضعف، وأوجدني بعد فقر. "بروح القدس" بالروح المقدسة كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق. ووصفها بالقدس كما قال: "روح منه" النساء: 171، فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة. وقيل: لأنه لم تضمه الأصباب، ولا أرحام الطوامث. وقيل: بجبريل. وقيل: بالإنجيل كما قال في القرآن: "وروحاً من أمرنا" الشورى: 52، وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره. والمعنى: ولقد آتينا يا بني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم "أفكلما جاءكم رسولٌ منهم بالحق" استكبرتم عن الإيمان به، فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم. ويجوز أن يريد: وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم. ولذلك سحرقوه وسعتم له الشاة. وقال صلى الله عليه وسلم عند موته:

"ما زالت أكلة خيبر تعادني، فهذا أوان قطعت أُميري" "غلف" جمع أغلف، أي هي حلقة وجبل مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يفتح، كقولهم: "قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه" فصلت: 5. ثم رد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألفاظ التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين "فقليلاً ما يؤمنون" فإيماناً قليلاً يؤمنون. وما مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم. وقيل: غلف تخفيف غلف جمع غلاف، أي قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. وروي عن أبي عمرو: قلوبنا غلف، بضمين "كتاب" من عند

الله" هو القرآن "مصدقاً لما معهم" من كتابهم لا يخالفه. وقرئ: مصداقاً، على الحال. فإن قلت: كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلت: إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه، وقد وصف كتاب بقوله: "من عند الله" وجواب لما محذوف وهو نحو: كذبوا به، واستهانوا بمجيئه، وما أشبه ذلك "يستفتحون على الذين كفروا" يستنصرون على المشركين، إذا قاتلوهم قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. وقيل معنى "يستفتحون": يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم قد قرب أوانه. والسين للمبالغة، أي يسألون أنفسهم الفتح عليهم، كالسين في استعجب واستسخر، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم "فلما جاءهم ما عرفوا" من الحق "كفروا به" بغياً وحسداً وحرصاً على الرياسة. "على الكافرين" أي عليهم وضعاً للظاهر موضع المضمير للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد. ويجوز أ، تكون للجنس ويدخلوا فيه دخولاً أولياً.

"بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يتزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءو بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذابٌ مهينٌ، وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصداقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين" ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس شيئاً "اشتروا به أنفسهم" والمخصوص بالذم "أن يكفروا" واشتروا بمعنى باعوا "بغياً" حسداً وطلباً لما ليس لهم، وهو علة اشتروا "أن يتزل" لأن يتزل أو على أن يتزل، أي حسدوه على أن يتزل الله "من فضله" الذي هو الوحي "على من يشاء" وتقتضي حكمته وإرساله "فباءو بغضبٍ على غضبٍ" فصاروا أحقاء بغضبٍ مترادف، لأنهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه. وقيل: كفروا بمحمد بعد عيسى. وقيل: بعد قولهم: عزيزٌ ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة وغير ذلك من أنواع كفرهم "بما أنزل الله" مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب "قالوا نؤمن بما أنزل علينا" مقيد بالتوراة "ويكفرون بما وراءه" أي قالوا: ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة "وهو الحق مصداقاً لما معهم" منها غير مخالف له، وفيه رد لمقاتلتهم لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بما ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغ قتل الأنبياء.

"ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون، وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين"

"وأنتم ظالمون" يجوز أن يكون حالاً، أي عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها، وأن يكون اعتراضاً بمعنى: وأنتم قوم عادتكم الظلم. وكرر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد "واسمعوا" ما أمرتم به في التوراة "قالوا سمعنا" قولك "وعصينا" أمرك. فإن قلت: كيف طابق قولهم جوابهم؟ قلت: طابقه من حيث إنه قال لهم: "اسمعوا" وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا: "سمعنا" ولكن لا سماع طاعة "وأشربوا في قلوبهم العجل" أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبيغ. وقوله: "في قلوبهم" بيان لمكان الإشراب كقوله: "إنما يأكلون في بطونهم ناراً" النساء: 10. "بكفرهم" بسبب كفرهم "بئسما يأمركم به إيمانكم" بالتوراة، لأنه ليس في التوراة عبادة العجائيل. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تكم، كما قال قو شعيب

"أصلاحتك تأمرك" هود: 87، وكذلك إضافة الإيمان إليهم وقوله: "إن كنتم مؤمنين" تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له.

"قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين، ولتجدنهم أحرص الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنةٍ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصيرٌ بما يعملون" "خالصةً" نصب على الحال من الدار الآخرة. والمراد الجنة، أي سالمة لكم، خاصة بكم، ليس لأحد سواكم فيها حق. يعني إن صح قولكم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. و "الناس" للجنس وقيل: للعهد وهم المسلمون "فتمنوا الموت" لأن من أيقن من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب، كما روي عن المبشرين بالجنة ما روي. كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفيين في غلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزّي الخارين. فقال: يا بني لا يبالي أبوك على الموت سقط، أم عليه سقط الموت. وعن حذيفة رضي الله عنه أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. يعني على التمني. وقال عمار بصفين: الآن ألقى الأجابة محمداً وحزبه. وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحن إليه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي" "بما قدمت أيديهم" بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد وبما جاء به، وتحريف كتاب الله، وسائر أنواع الكفر والعصيان. وقوله: "ولن يتمنوه أبداً" من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به كقوله: "ولن تفعلوا" فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولي المطاعن في الإسلام أكثر من الذر، وليس أحد منهم نقل ذلك. فإن قلت: التمني من أعمال القلوب، وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت: أنهم لم يتمنوه؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه: ليت لي كذا، فإذا قاله قالوا: تمنى، وليت: كلمة التمني، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك. فإن قلت: لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدقون. قلت: كم حكى عنهم من أشياء قالوا بها المسلمون من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت ولم يبالوا، فكيف يمتنعون من أن يقولوا إن التمني من أفعال القلوب وقد فعلناه، مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خاف لا سبيل إلى الاطلاع عليه "والله عليمٌ بالظالمين" تهديد لهم "ولتجدنهم" هو من وجد بمعنى علم المتعدي إلى مفعولين في قولهم: وجدت زيدا ذا الحفاظ ومفعولاه هم أحرص. فإن قلت: لم قال: "على حياة" بالتكثير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة، ولذلك كانت القراءة بما أوقع من قراءة أبي على الحياة "ومن الذين أشركوا" محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس: أحرص من الناس. فإن قلت: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلت: بلى، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد. ويجوز أن يراد: وأحرص من الذين أشركوا، فحذف لدلالة أحرص الناس عليه. وفيه توبيخ عظيم: لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنه جنتهم، فإذا زاد عليهم في

الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ. فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا. لعلمهم بحالهم. أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك. وقيل: أراد بالذين أشركوا الجوس، لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز وألف مهرجان. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو قول الأعاجم: زي هزار سال. وقيل: "ومن الذين أشركوا" كلام مبتدأ، أي ومنهم ناس "يود أحدهم" على حذف الموصوف كقوله: "وما منا إلا له مقام معلوم" الصافات: 164، والذين أشركوا على هذا مشاراً به إلى اليهود، لأنهم قالوا: عزيز ابن الله. والضمير في "وما هو" لأحدهم و"أن يعمر" فاعل "بمزرحة" أي: وما أحدهم بمن يزرحه من النار تعميره. وقيل: الضمير لما دل عليه يعمر من مصدره، وأن يعمر بدل منه. ويجوز أن يكون هو مبهماً، وأن يعمر موضحة. والمزرحة: التباعد والإلحاح فإن قلت: يود أحدهم ما موقعه؟ قلت: هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. فإن قلت: كيف اتصل لو يعمر بيود أحدهم؟ قلت: هو حكاية لودادتهم. و لو في معنى التمني، وكان القياس: لو أعمر، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله: "يود أحدهم" كقولك: حلف بالله ليفعلن.

"قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين" روي: أن عبد الله بن سوريا من أحبار فذك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله عن يهبط عليه بالوحي، فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا، ولو كان غيره لآمنا بك، وقد عادانا مراراً، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله فلقية ببابل غلاماً مسكيناً، فدفع عنه جبريل وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أي حق تقتلونّه. وقيل: أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا.

وروي:

أنه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة، وكان عمره على مدارس اليهود، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم، فقالوا: يا عمر، قد أحبيناك، وإننا لنطمع فيك فقال: والله ما أجيئكم لحبكم، ولا أسألكم لأني شاك في ديني، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وأرى آثاره في كتابكم، ثم سأهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا، وهو صاحب كل خسف وعذاب، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم: وما منزلتهما من الله تعالى قالوا: أقرب منزلة، جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. وميكائيل عدو لجبريل. فقال عمر: لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين، ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر، ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد وافقك ربك يا عمر. فقال عمر: لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر. وقرئ: جبريل، بوزن قفشليل وجبرئيل بحذف الياء، وجبريل بحذف الهمزة، وجبريل بوزن قنديل، وجبرال بلام شديدة. وجبرائيل بوزن جبراعيل. وجبرائيل بوزن جبراعل. ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة. وقيل معناه: عبد الله.

الضمي في "نزله" للقرآن. ونحو هذا الإضمار. أعني إضماراً لم يسبق ذكره. فيه فخامة لشأن صاحبه، حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته "على قلبك" أي حفظه إياك وفهمك "بإذن الله" بتيسيره وتسهيله. فإن قلت: كان حق الكلام أن يقال: على قلبي. قلت: جاءت على حكاية

كلام الله تعالى كما تكلم به، كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي: من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك. فإن قلت: كيف استقام قوله: "فإنه نزل" جزاء للشرط؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصداقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المتزل عليهم. والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصداقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويحذون موافقته له، كقولك: إن عاداك فلاك فقد آذنته وأسأت إليه، أفرد الملكان بالذكر لفصلهما كأتهما من جنس آخر، وهو مما ذكر أن التغير في الوصف يتزل متزلة التغير في الذات. وقرئ: ميكال، بوزن قنطار. وميكائيل كميكايل. وميكائيل كميكايل. وميكنل كميكنل. وميكنيل كميكنيل. قال ابن جني: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. "عدو للكافرين" أراد عدو لهم فجاء بالظاهر، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة كفر، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب.

"ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون، أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون، ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون" "إلا الفاسقون" إلا المتمردون من الكفرة. وعن الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره. وعن ابن عباس رضي الله عنه:

قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فتنبعك لها فتزلت. واللام في "الفاسقون" للجنس والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب. "أو كلما" الواو للعطف على محذوف معناه: أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا. وقرأ أبو السمال يسكون الواو على أن الفاسقون بمعنى الذين فسقوا، فكانه قيل: وما يكفر بها إلا الذين فسقوا، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة. وقرئ عاهدوا وعهدوا واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا. وكم عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفوا "الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة" الأنفال: 56. والنبد الرمي بالذم ورفضه. وقرأ عبد الله نقضه "فريق منهم" وقال فريق منهم، لأن منهم من لم ينقض "بل أكثرهم لا يؤمنون" بالتوراة وليسوا من الدين في شيء، فلا يعدون نقض الموائيق ذنباً ولا يبالون به. "كتاب الله" يعني التوراة، لأنهم بكفرهم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها. وقيل: كتاب الله: القرآن، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول. "كأنهم لا يعلمون" أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك. يعني أن علمهم بذلك رصين، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم، مثل لتركهم وإعراضهم عنه، مثل بما يرمى بها وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه. وعن الشعبي: هو بين أيديهم يقرؤنه، ولكنهم نبذوا العمل به. وعن سفيان: أدرجوه في الديباج والحريير وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه.

"واتبعوا ما تنزلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن

اشتراه ما له في الآخرة من خلاقٍ وليئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون" "واتبعوا" أي نبذوا كتاب الله واتبعوا "ما تتلوا الشياطين" يعني واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها "على ملك سليمان" أي على عهد ملكه وفي زمانه. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمنون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دونوها في كتب يقرؤها ويعلمونها الناس، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: هذا علم سليمان، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم، وبه تسخر الأتس والجن والريح التي تجري بأمره "وما كفر سليمان" تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به، وسماه كفراً "ولكن الشياطين" هم الذين "كفروا" باستعمال السحر وتدوينه "يعلمون الناس السحر" يقصدون به إغواءهم وإضلالهم "وما أنزل على الملكين" عطف على السحر، أي ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. وقيل: هو عطف على ما تتلو، أي واتبعوا ما أنزل. "هاروت وماروت" عطف بيان للملكين علمان لهما، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس. من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

كما ابتلى قوم طالوت بالنهر، "فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني" البقرة: 249. وقرأ الحسن على الملكين بكسر اللام، على أن المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببايل. وما يعلم الملكان أحداً حتى يبيناه وينصحا ويقولوا له "إنما نحن فتنه" أي ابتلاء واختبار من الله "فلا تكفر" فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر "فيتعلمون" الضمير لما دل عليه من أحد، أي فيتعلم الناس من الملكين "ما يفرقون به بين المرء وزوجه" أي علم السحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه، كالنفث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرق والنشوز والخلاف ابتلاء منه، لا أن السحر له أثر في نفسه بدليل قوله تعالى: "وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله" لأنه ربما أحدث الله عنده فعلاً من أفعاله وربما لم يحدث "ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم" لأنهم يقصدون به الشر. وفيه أن اجتنابه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية. ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أي استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله "ما له في الآخرة من خلاقٍ" من نصيب "وليئس ما شروا به أنفسهم" أي باعوها. وقرأ الحسن: الشياطين. وعن بعض العرب: بستان فلان حوله بساتون. وقد ذكر وجهه فيما بعد. وقرأ الزهري هاروت وماروت بالرفع على: هما هاروت وماروت. وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، ولو كانا من الهرت والمرت - وهو الكسر كما زعم بعضهم - لانصرفا. وقرأ طلحة وما يعلمان من أعلم، وقرئ بين المرء بضم الميم وكسرها مع الهمز. والمر بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف، كقولهم: فرج، وإجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ الأعمش: وما هم بضاري، بطرح النون والإضافة إلى أحد والفصل بينهما بالظرف، فإن قلت: كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن، قلت: جعلت الجار جزءاً من المجرور. فإن قلت: كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله: "ولقد علموا" على سبيل التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم في قوله: "لو كانوا يعلمون"؟ قلت: معناه لو كانوا يعملون

بعلمهم، جعلهم حين لم يعملوا به كأهم منسخلون عنه.

"ولو أنهم آمنوا واتقوا لثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون، يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا وللكافرين عذابٌ أليمٌ، ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يتزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم"

"ولو أنهم آمنوا برسول الله والقرآن واتقوا" الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشياطين "لثوبة من عند الله خير". وقرئ: لثوبة، كمشورة ومشورة "لو كانوا يعلمون" أن ثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم. فإن قلت: كيف أوثرت الجملة الإسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلت: لما في ذلك من الدلالة على إثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك، فإن قلت: فهلا قيل لثوبة الله خير؟ قلت: لأن المعنى: لشيء من الثواب خير لهم. ويجوز أن يكون قوله: "ولو أنهم آمنوا" تميهاً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل: ولبتهم آمنوا. ثم ابتدئ لثوبة من عند الله خير. كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله، أي راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه. وكانت اليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهي راعينا فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا. افترضوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعنون به تلك المسبة، فنهى المؤمنون عنها وأمرهم بما هو في معناها وهو "انظرونا" من نظره إذا انتظره. وقرأ أبي: انظرونا من النظرة، أي أمهلنا حتى نحفظ وقرأ عبد الله بن مسعود: راعونا، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير: وقرأ الحسن: راعنا، بالتثنية من الرعن وهو الهوج، أي لا تقولوا قولاً راعنا منسوباً إلى الرعن رعيناً، كدارع ولابن لأنه لما أشبه قولهم: راعينا، وكان سبباً في السبب اتصف بالرعن "واسمعوا" وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقي عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراجعة، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتهم عنه، تأكيداً عليهم ترك تلك الكلمة. وروي: أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضرب عنقه. فقالوا: أو لستم تقولونها فترلت. "وللكافرين" وللإهود الذين قهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه "عذابٌ أليمٌ" من الأولى للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب، والمشركون؛ كقوله تعالى: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين" البينة: 1، والثانية مزيدة لاستغراق الخير، والثالثة لا ابتداء الغاية. والخير الوحي، وكذلك الرحمة كقوله تعالى: "أهم يقسمون رحمة ربك" الزخرف: 32، والمعنى: أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن يتزل عليكم شيء من الوحي "والله" يختص بالنبوة "من يشاء" ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة "والله ذو الفضل العظيم" غشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم كقوله تعالى: "إن فضله كان عليك كبيراً" الإسراء: 87.

"ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قديرٌ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير، أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل

ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل، ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير

روى أنهم طعنوا في النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً؟ فتلت. وقرئ: ما ننسخ من آية وما ننسخ بضم النون، من أنسخ، أو ننسأها. وقرئ: ننسها وننسها بالتشديد، وتنسها، وتنسها، على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرأ عبد الله: ما ننسك من آية أو ننسخها وقرأ حذيفة: ما ننسخ من آية أو ننسكها، ونسخ الآية: إزالتها بإبدال أخرى مكانها وإنساخها: الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها. ونسؤها، تأخيرها وإزالتها. لا إلى بدل. وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى أن كل آية يذهب بها على ما توجه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل "نأت" بآية خير منها للعباد، أي بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك "على كل شيء قدير" فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير "له ملك السموات والأرض" فهو يملك أموركم يديرها ويجريها على حسب ما يصلحكم، وهو أعلم بما يتبعكم به من ناسخ ومنسوخ. لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومديرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره، وقرروهم على ذلك بقوله: "ألم تعلم" أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصلح لهم مما يتبعدهم به ويتزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالاً عليهم كقولهم: "اجعل لنا إلهاً" الأعراف: 138، "أرنا الله جهرة" النساء: 153، وغير ذلك "ومن يتبدل الكفر بالإيمان" ومن ترك الثقة بالآيات المثلة، وشك فيها، واقتراح غيرها "فقد ضل سواء السبيل".

روي: أن فتاح بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم تروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمت، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدي منكم سبيلاً، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبا. وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبله، وبالمؤمنين إخواناً. ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال: أصبتما خيراً وأفلحتما. فتلت. فإن قلت: بم تعلق قوله: "من عند أنفسهم"؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق ب ود، على معنى أنهم تمنوا أن ترتدوا عن دينكم وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم، لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق، فكيف يكون تمنيه من قبل الحق؟ وإما أن يتعلق بحسداً، أي: حسداً متبالغاً منبئاً من أصل أنفسهم "فاعفوا واصفحوا" فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة "حتى يأتي الله بأمره" الذي هو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم "إن الله على كل شيء قدير" فهو يقدر على الانتقام منهم "من خير" من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرها "تجدوه عند الله" تجدوا ثوابه عند الله "إن الله بما تعملون بصير" عالم لا يضيع عنده عمل عامل.

"وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، بلى من أسلم

وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون"

الضمير في "وقالوا" لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه. ونحوه: "وقالوا كونوا هوداً أو نصارى فتبدوا" البقرة: 135، والهود: جمع هائد، كعائد وعوذ، وبازل وبزل. فإن قلت: كيف قيل كان هوداً على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ قلت: حمل الاسم على لفظ من والخبر على معناه، كقراءة الحسن إلا من هو صالو الحميم. وقوله: "فإن له نار جهنم خالدين فيها" الجن: 23. وقرأ أبي بن كعب: إلا من كان يهودياً أو نصرانياً. فإن قلت: لم قيل: "تلك أمانيتهم" وقولهم: لن يدخل الجنة أمانة واحدة؟ قلت: أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو أمانيتهم أن لا يتزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمانيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمانيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم: أي تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم. وقوله: "قل هاتوا برهانكم" متصل بقولهم: "لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى". و"تلك أمانيتهم": اعتراض، أو أريد أمثال تلك الأمانة أمانيتهم، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليهم مقامه. يريد أن أمانيتهم جميعاً في البطلان مثل أمانيتهم هذه. والأمانة أفعولة من التمني، مثل الأضحوة والأعجوبة "هاتوا برهانكم" هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة "إن كنتم صادقين" في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت. وهات صوت بمزلة هاء، بمعنى أحضر "بلى" إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة "من أسلم وجهه لله" من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره "وهو محسن" في عمله "فله أجره" الذي يستوجبه. فإن قلت: من أسلم وجهه كيف موقعه؟ قلت: يجوز أن يكون "بلى" رداً لقولهم، ثم يقع من أسلم كلاماً مبتدأ، ويكون من متضمناً لمعنى الشرط، وجوابه فله أجره، وأن يكون من أسلم فاعلاً لفعل محذوف، أي بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله فله أجره كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم.

"وقالت اليهود ليست النصارى على شيء" وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ" "على شيء" أي على شيء يصح ويعتد به. وهذه مبالغة عظيمة، لأن الحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، فإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه. فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده. وهذا كقولهم: أقل من لا شيء "وهو يتلون الكتاب" الواو للحال. والكتاب للجنس أي قالوا ذلك، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب. وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً "كذلك" أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج "قال" الجهلة "الذين" لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعلقة ونحوهم قالوا لأهل كل دين: ليسوا على شيء. وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم. وروى:

أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم،

فقال اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بـ عيسى والإنجيل. وقالت النصارى لهم نخوه، وكفروا بموسى والتوراة. "فالله يحكم" بين اليهود والنصارى "يوم القيامة" بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه. وعن الحسن: حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار "أن يذكر" ثاني مفعولي منع. لأنك تقول: منعه كذا. ومثله "وامنعنا أن نرسل" الإسراء: 59، "وما منع الناس أن يؤمنوا" الإسراء: 94، ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن، ولك أن تنصبه مفعولاً له بمعنى كراهة أن يذكر، وهو حكم عام لجنس مساجد الله، وأن مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وأن الروم غزوا أهله فرخبوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا. وقيل: أراد به منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية. فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين. وكما قال الله عز وجل: "ويل لكل همزة لمزة" الهمزة: 1، والمتروك فيه الأحنس بن شريق "وسعى في خرابها" بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان. وينبغي أن يراد بـ من منع العموم كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين "أولئك" المانعون "ما كان لهم أن يدخلوها" أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله "إلا خائفين" على حال التهيب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم. وقيل: ما كان لهم في حكم الله، يعني: أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقويهم حتى لا يدخلوها إلا خائفين. روى: أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متكرراً مسارقة. وقال قتادة: لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا أهلك ضرباً وأبلغ إليه في العقوبة. وقيل: نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان" وقرأ أبو عبد الله إلا خيفاً، وهو مثل صيم. وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد: فجوزه أبو حنيفة رحمه الله، ولم يجوزه مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول والتولية بينهم وبينه، كقوله: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله" الأحزاب: 53، "خزي" قتل وسي، أو ذلة بضرب الجزية. وقيل: فتح مدائنهم قسطنطينية ورومية وعمورية.

"ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسعٌ عليم" "ولله المشرق والمغرب" أي بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله هو مالكةا ومتوليتها "فأينما تولوا" ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى: "فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطرة". "فثم وجه الله" أي جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام وفي بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إمكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان "إن الله واسعٌ" الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم "عليهم" بمصالحهم. وعن ابن عمر: نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وعن عطاء: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعدروا. وقيل: معناه فأينما تولوا للدعاء والذكر

ولم يرد الصلاة. وقرأ الحسن: فأينما تولوا، بفتح التاء من التولي يريد: فأينما توجهوا القبلة.

"وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون"

"وقالوا" وقرئ بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله والملائكة بنات الله. "سبحانه" تزيه له عن ذلك وتبعيد "بل له ما في السموات والأرض" هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح "كل له قانتون" منقادون، لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيتته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد. والتنوين في "كل" عوض من المضاف إليه، أي كل ما في السموات والأرض. ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم. فإن قلت: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله قانتون؟ قلت: هو كقوله: سبحان ما سخر كن لنا. وكأنه جاء ب ما دون من تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم، كقوله: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً" الصفات: 158.

"بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" يقال بدع الشيء فهو بديع، كقولك: بزع الرجل فهو بزيع. و "بديع السموات" من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أي بديع سمواته وأرضه. وقيل: البديع بمعنى المبدع، كما أن السميع في قول عمرو:

أمن ربحانة الداعي السميع

بمعنى السميع وفيه نظر "كن فيكون" من كان التامة، أي أحدث فيحدث. وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ثم، كما لا قول في قوله:

إذ قالت الأنساع للبطن الحق

وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه، فأما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء. أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها. وقرئ: بديع السموات مجزوراً على أنه بدل من الضمير في له. وقرأ المنصور بالنصب على المدح.

"وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آيةً كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون" وقال الذين لا يعلمون وقال الجهلة من المشركين. وقيل من أهل الكتاب، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به. "لولا يكلمنا الله" هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى؟ استكباراً منهم وعتواً "أو تأتينا آيةً" جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات، واستهانة بها "تشابهت قلوبهم" أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى، كقوله: "أنواصوا به" الذاريات: 52. "قد بينا الآيات لقوم" ينصفون فيوقنون أنما آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها.

"إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسئل عن أصحاب الجحيم" "إنا أرسلناك" لأن تبشر وتنذر لا لتجبر على الإيمان، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية عنه، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. ولا نسألك "عن أصحاب الجحيم" ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهتك في دعوتهم،

كقوله: "فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب" الرعد: 40، وقرئ: ولا تسأل على النهي. روي أنه قال: ليت شعري ما فعل أبواي.

فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله. وقيل: معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول: كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بلية، فيقال لك: لا تسأل عنه. ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما هو فيه لفظاعته، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره، وأنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره، فلا تسأل، وتعضد القراءة الأولى قراءة عبد الله: ولن تسأل، وقراءة أبي: وما تسأل. "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولن تتبع أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير"

كأنهم قالوا: لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا، إقناطاً منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخولهم في الإسلام، فحكى الله عز وجل كلامهم، ولذلك قال: "قل إن هدى الله هو الهدى" على طريقة إجابتهم عن قولهم، يعني أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: "ولن تتبع أهواءهم" أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع "بعد الذي جاءك من العلم" أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة. "الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون، يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين، واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون" "الذين آتيناهم الكتاب" هم مؤمنون أهل الكتاب "يتلونه حق تلاوته" لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم "أولئك يؤمنون" بكتابهم دون المخرفين "ومن يكفر به" من المخرفين "فأولئك هم الخاسرون" حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

"وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود"

"ابتلى إبراهيم ربه بكلمات" اختبره بأوامر ونواه. واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار أحد الأمرين: ما يريد الله، وما يشتهي العبد، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك. وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنه: إبراهيم ربه رفع إبراهيم ونصب ربه. والمعنى: أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إلهين أم لا؟ فإن قلت: الفاعل في القراءة المشهورة يلي الفعل في التقدير، فتعلق الضمير به إضمار قبل الذكر. قلت: الإضمار قبل الذكر أن يقال: ابتلى ربه إبراهيم. فأما ابتلى إبراهيم ربه أو ابتلى ربه إبراهيم، فليس واحداً منهما إضمار قبل الذكر. أما الأول فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكراً ظاهراً. وأما الثاني فإبراهيم فيه مقدم في المعنى، وليس كذلك: ابتلى ربه إبراهيم، فإن الضمير فيه قد تقدم لفظاً ومعنى فلا سبيل إلى صحته. والمستكن "فأتمهن" في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى: فقام بمن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان. ونحوه: "وإبراهيم الذي وفى" وفي الأخرى لله تعالى، بمعنى فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً. ويعضده

ما روي عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه في قوله: "رب اجعل هذا بلداً آمناً" البقرة: 126، "واجعلنا مسلمين لك"، "وابعث فيهم رسولا منهم". "ربنا تقبل منا" فإن قلت: ما العامل في إذ؟ قلت: إما مضممر نحو: واذكر إذ ابتلى أو إذ ابتلاه كان كيت وكيت، وإما "قال إني جاعلك". فإن قلت: فما موقع قال؟ قلت: هو على الأول استئناف، كأنه قيل: فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات؟ فقيل: قال إني جاعلك للناس إماماً. وعلى الثاني جملة معطوفة على ما قبلها. ويجوز أن يكون بياناً لقوله: ابتلى وتفسيراً له فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده. والإسلام قبل ذلك في قوله: "إذ قال له ربه أسلم" وقيل في الكلمات: هن خمس في الرأس: الفرق، وقص الشارب، والسواك، والمضمضة والاستنشاق. وخمس في البدن: الختان، والاستحدا، والاستنجاء، وتقليم الأظفار، ونسف الإبط. وقيل: ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً: عشر في براءة "التائبون العابدون" التوبة: 122، وعشر في الأحزاب "إن المسلمين والمسلمات" الأحزاب: 35، وعشر في المؤمنون، و "سأل سائل" إلى قوله: "والذين هم على صلاتهم يحافظون" الماعراج: 34. وقيل: هي مناسك الحج، كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرهن. وقيل: ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس والختان وذبح ابنه والنار والهجرة. والإمام اسم من يؤتم به على زنة الإله، كالإزار لما يؤثر به، أي يأتمون بك في دينهم "ومن ذريتي" عطف على الكاف، كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي، كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً "لا ينال عهدي الظالمين" وقرئ: الظالمون، أي من كان ظالماً من ذريتك. لا يناله استخلافه وعهدي إليه بالإمامة، وإنما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته. ولا تجب طاعته؛ ولا يقبل خبره، ولا يقدم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سراً بوجوب نصره زيد بن علي رضوان الله عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمي بالإمام والخليفة، كالدوانيقي وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عد أجره لما فعلت. وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة. فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم. و "البيت" اسم غالب للكعبة، كالنجم للشريا "مثابة للناس" مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه أي يثوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم "وأمناً" موضع أمن، كقوله: "حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم" العنكبوت: 67، ولأن الجاني يأوي إليه فلا يتعرض له حتى يخرج. وقرئ: مثابات، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم "سواء العاكف فيه والباد" "واتخذوا" على إرادة القول، أي وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى - يريد أفلا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تبركاً به وتيمناً بموطئ قدم إبراهيم - فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت". وعن جابر بن عبد الله: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استلم الحجر ورمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة، حتى إذا فرغ، عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين، وقرأ: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" وقيل: مصلى مدعى. ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه أثر قدميه،

والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وهو الموضع الذي يسمى مقام إبراهيم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل المطلب بن أبي وداعة: هل تدري أين كان موضعه الأول؟ قال: نعم، فأراه موضعه اليوم. وعن عطاء "مقام إبراهيم": عرفة والمزدلفة والجمار، لأنه قام في هذه المواضع ودعا فيها. وعن النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم. وقرئ واتخذوا بلفظ الماضي عطفاً على جعلنا أي واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها "عهدنا" أمرناهم "أن طهرا بيتي" بأن طهر، أو أي طهرا. والمعنى طهراه من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض والحائض كلها، أو إخلاصه لهؤلاء لا يغشه غيرهم "والعاكفين" الخجورين الذين عكفوا عنده، أي أقاموا لا يرحلون، أو المعتكفين. ويجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين يعني القائمين في الصلاة، كما قال: "للطائفين والقائمين والركع السجود" الحج: 26، والمعنى: للطائفين والمصلين، لأن القيام والركوع والسجود هيأت المصلي.

"وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبنس المصير" أي اجعل هذا البلد أو المكان "بلداً آمناً" ذا أمن، كقوله "عيشة راضية" الحاقة: 21. أو آمناً من فيه، كقوله: ليل نائم. و"من آمن منهم" بدل من أهله، يعني وارزق المؤمنين من أهله خاصة. "ومن كفر" عطف على من آمن كما عطف "ومن ذريتي" على الكاف في جاعلك فإن قلت: لم خص إبراهيم صلوات الله عليه المؤمنين حتى رد عليه؟ قلت: قاس الرزق على الإمامة فعرف الفرق بينهما، لأن الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق وإلزاماً للحجة له. والمعنى: وأرزق من كفر فأمتعه. ويجوز أن يكون "ومن كفر" مبتدأ متضمناً معنى الشرط. وقوله: "فأمتعه" جواباً للشرط، أي ومن كفر فأنا أمتعه. وقرئ: فأمتعه فأضطره فألّزه إلى عذاب النار لئلا المضطر الذي لا يملك الامتناع مما اضطر إليه، وقرأ أي: فمتمعه قليلاً ثم نضطره. وقرأ يحيى بن وثاب: فأضطره، بكسر الهمزة. وقرأ ابن عباس: فأمتعه قليلاً ثم اضطره، على لفظ الأمر. والمراد: الدعاء من إبراهيم دعا ربه بذلك. فإن قلت: فكيف تقدير الظلام على هذه القراءة؟ قلت: في قال: ضمير إبراهيم، أي قال إبراهيم بعد مسئلته اختصاص المؤمنين بالرزق: ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره. وقرأ ابن محيصن: فأطره، بإدغام الضاد في الطاء كما قالوا: اطجع، وهي لغة مرذولة، لأن الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم هي فيها ما يجاورها ولا تدغم هي فيما ما يجاورها ولا تدغم هي فيما يجاورها، وهي حروف ضم شفر.

"وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آيتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم"

"يرفع" حكاية حال ماضية. و"القواعد" جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها الثابتة. ومنه قعدك الله، أي أسأل الله أن يقعدك أي يثبتك. ورفع الأساس: البناء عليها لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتناولت بعد التقاصر. ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء لأن كل ساف قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه. ومعنى رفع القواعد: رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع

السافات. ويجوز أن يكون المعنى: وإذ يرفع إبراهيم ما قعد من البيت - أي استوطاً - يعني جعل هيئته القاعدة المستوطنة مرتفعة عالية بالبناء، وروي: أنه كان مؤسساً قبل إبراهيم فبنى على الأساس. وروي: أن الله تعالى أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد: شرقي وغربي، وقال لآدم عليه السلام: أهبط لك مايطاف به كما يطاف حول عرشي، فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشياً، وتلقته الملائكة فقالوا: برحمتك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام وحج آدم أربعين حجة م أرض الهند إلى مكة على رجله، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببناؤه وعرفه جبريل مكانه. وقيل: بعث الله سبحانه أظلمته: ونودي: أن ابن علي ظلها لات زد ولا تنقص. وقيل: بناه من خمسة أجبل طورسينا، وطورزيتا، ولبنان، والجلودي، وأسس من حراء. وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء. وقيل: تمخض أبو قبيس فانشق عنه، وقد خبي فيه في أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من الجنة، فلما لمست الحوض في الجاهلية اسود. وقيل: كان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة "ربنا" أي يقولان ربنا. وهذا الفعل في محل النصب على الحال، وقد أظهره عبد الله في قراءته، ومعناه: يرفعانها قائلين ربنا "إنك أنت السميع العليم" لدعائنا "العليم" بضمائنا ونياتنا. فإن قلت: هلا قيل: قواعد البيت، وأي فرق بين العبارتين؟ قلت: في إيهام القواعد وتبيينها بعد الإيهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإيهام من تفخيم لشأن المين "مسلمين لك" مخلصين لك أوجهنا، من قوله: "أسلم وجهه لله" البقرة: 112، أو مستسلمين. يقال: أسلم له وسلم واستسلم، إذا خضع وأذعن. والمعنى: زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك. وقرئ: مسلمين على الجمع، كأ، هما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنها منه "ومن ذريتنا" واجعل من ذريتنا "أمة مسلمة لك" و "من" للتبويض أو للتبيين، كقوله: "وعد الله الذين آمنوا منكم" النور: 55. فإن قلت: لم خصا ذريتهما بالدعاء؟ قلت: لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة "قوا أنفسكم وأهليكم ناراً" التحريم: 6، ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعهم على الخير. ألا ترى أن المقدمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد، كيف يتسبون لسداد من وراءهم؟ وقيل: أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم "وأرنا" منقول من رأى بمعنى وأبصر أو عرف. ولذلك لم يتجاوز مفعولين، أي وبصرنا متعبداتنا في الحج، أو وعرفناها. وقيل: مذابحنا. وقرئ: وأرنا بسكون الراء قياساً على فخذ في فخذ. وقد استردلت، لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها، فإسقاطها إجحاف. وقرأ أبو عمرو بإشمام الكسرة. وقرأ عبد الله: وأرهم مناسكهم. "وتب علينا" ما فرط منا من الصغائر أو استتباباً لذريتهما "وابعث فيهم" في الأمة المسلمة "رسولاً منهم" من أنفسهم. وروي أنه قيل له: قد استجيب لك وهو في آخر الزمان، فبعث الله فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم. قال عليه الصلاة والسلام: "أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخى عيسى ورؤيا أمي". يتلوا عليهم آيتك" يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك "ويعلمهم الكتاب" القرآن "والحكمة" الشريعة وبيان الأحكام "ويزكيهم" يطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، كقوله: "ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث" الأعراف: 157.

"ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين"

"ومن يرغب" إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم. و"من سفه" في محل الرفع على البديل من الضمير في يرغب، وصح البديل لأن من يرغب غير موجب، كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد "سفه نفسه" امتهنها واستخف بها. وأصل السفه: الخفة. ومنه زمام سفيه. وقيل: انتصاب النفس على التمييز، نحو: غبن رأيه وألم رأسه. ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف المميز نحو قوله:

ولا بفزارة الشعر الرقابا

أجب الظهر ليس له سنام

وقيل معناه: سفه في نفسه، فحذف الجار، كقولهم: زيد ظني مقيم، أي في ظني. والوجه هو الأول. وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث: "الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس" وذلك أنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل فقد بالغ في إذالة نفسه وتعجيزها، حيث خالف بها كل نفس عاقلة "ولقد اصطفيناه" بيان خطأ رأي من رغب عن ملته، لأن من جمع الكرامة عند الله في الدارين، بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه "إذ قال" ظرف لاصطفيناه، أي: اخترناه في ذلك الوقت. أو انتصب بإضمار اذكر استشهداً على ما ذكر من حاله. كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله. ومعنى قال له: أسلم، أخطر ببالك النظر في الدلائل المؤدية إلى المعرفة والإسلام. و"قال أسلمت" أي فنظر وعرف، وقيل: أسلم: أي أذعن وأطع. وروي: أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون. فأسلم سلمة وأبي مهاجر أن يسلم، فترلت.

"ووصى بما إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفي لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون" قرئ: وأوصى وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام. والضمير في "بما" لقوله: "أسلمت لرب العالمين" على تأويل الكلمة والجملة، ونحوه رجوع الضمير في قوله: "وجعلها كلمةً باقيةً" الزخرف: 28، إلى قوله "إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرنى" الزخرف: 26-27، وقوله: كلمةً باقية. دليل على أن التانيث على تأويل الكلمة "ويعقوب" الزخرف: 26-27، عطف على إبراهيم، داخل في حكمه. والمعنى: ووصى بما يعقوب بنيه أيضاً. وقرئ: ويعقوب، بالنصب عطفاً على بنيه. ومعناه ووصى بما إبراهيم بنيه وناقلته يعقوب "يا بني" على إضمار القول عند البصريين. وعند الكوفيين يتعلق بوصى، لأنه في معنى القول. ونحوه قول القائل:

رجلان من ضبة أخبرانا

إنا رأينا رجلاً عرياناً

بكسر الهمزة: فهو بتقدير القول عندنا. وعندهم يتعلق بفعل الإخبار. وفي قراءة أبي وابن مسعود: أن يا بني "اصطفي لكم الدين" أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام. ووفقكم للأخذ به "فلا تموتن" معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته. فإن قلت: فأني نكتة في إدخال حرف النهي عى الصلاة وليس بمنهى عنها؟ قلت: النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا

خشوع فيها كلا صلاة، فكأنه قال: أنك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: "لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد" فإنه كالنصريح بقولك لجار المسجد: لا تصل إلا في المسجد: وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موته لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم. وتقول في الأمر أيضاً: مت وأنت شهيد. وليس مرادك الأمر بالموت. ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات؛ وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميته، وإظهاراً لفضلها على غيرها، وأنها حقيقة بأن يحث عليها.

"أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون"

"أم كنتم شهداء" هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والشهداء جمع شهيد، بمعنى الحاضر: أي ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت، أي حين احتضر، والخطاب للمؤمنين بمعنى: ما شاهدتم ذلك وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي. وقيل: الخطاب لليهود، لأنهم كانوا يقولون: ما مات نبي إلا على اليهودية، إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام، ولما ادعوا عليه اليهودية. فالآية منافية لقولهم، فكيف يقال لهم: أم كنتم شهداء؟ ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف، كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية؟ "أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت" يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه براء؟ وقرئ حضر بكسر الصاد وهي لغة. "ما تعبدون" أي شيء تعبدون؟ و"ما" عام في كل شيء فإذا علم فرق بما ومن، وكفكاف دليلاً قول العلماء من لما يعقل. ولو قيل: من تعبدون، لم يعم إلا أولي العلم وحدهم. ويجوز أن يقال: "ما تعبدون" سؤال عن صفة المعبود. كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفضيه أم طيب أم غير ذلك من الصفات؟ و"إبراهيم وإسماعيل وإسحاق" عطف بيان لآبائك. وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه، لأن العم أب والخالة أم، لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "عم الرجل صنو أبيه" أي لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي الخلة. وقال عليه الصلاة والسلام في العباس: "هذا بقية آبائي" وقال: "ردوا علي أبي، فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود" وقرأ أبي: وإله إبراهيم، بطرح آباءك. وقرئ: أبيك. وفيه وجهان: أن يكون واحداً وإبراهيم وحده عطف بيان له، وأن يكون جمعاً بالواو والنون. قال:

وفديننا بالأبينا

"إلهاً واحداً" بدل من إله آبائك، كقوله تعالى: "بالناصية ناصية كاذبة" العلق: 15-16، أو على الاختصاص، أي نريد بإله آبائك إلهاً واحداً "ونحن له مسلمون" حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله، لرجوع الهاء إليه في له. ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة، أي ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مدعون.

"تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون" "تلك" إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم. ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا بني هاشم، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم"، "ولا تسئلون عما كانوا يعملون" ولا تؤاخذون بسيئاتكم كما لا تنفعكم حسناتكم.

"وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" "بل ملة إبراهيم" بل نكون ملة إبراهيم أي أهل ملته كقول عدي بن حاتم: "إني من دين" يريد من أهل دين. وقيل: بل نتبع ملة إبراهيم. وقرئ: ملة إبراهيم بالرفع، أي ملته ملتنا، أو أمرنا ملته، أو نحن ملته بمعنى أهل ملته. و"حنيفاً" حال من المضاف إليه، كقولك: رأيت وجه هند قائمة. والحنيف: المائل إلى دين الحق. والحنف: الميل في القدمين. وتحنف إذا مال. وأنشد:

حنيفاً ديننا عن كل دين

ولكننا خلقنا إذ خلقنا

"وما كان من المشركين" تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلاً منهم يدعي اتباع إبراهيم وهو على الشرك. "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيهم الله وهو السميع العليم" و"قولوا" خطاب للمؤمنين. ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين، أي قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل وكذلك قوله: "بل ملة إبراهيم" يجوز أن يكون على: بل اتبعوا أمتهم ملة إبراهيم، أو كونوا أهل ملته.

والسبب: الخافد. وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله صلى الله عليه وسلم "والأسباط" حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر "لا نفرق بين أحد منهم" لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى. و"أحد" في معنى الجماعة. ولذلك صح دخول "بين" عليه. "بمثل ما آمنتم به" من باب التبكيت، لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه" آل عمران: 185، فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين، فقل: فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير، أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسادد فقد اهتدوا. وفيه أن دينهم الذي هم عليه: وكل دين سواه مغاير له غير مماثل، لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال. ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه: هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك. ولكنك تريد تبكيت صاحبك، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه. ويجوز أن لا تكون الباء صلة وتكون باء الاستعانة، كقولك: كتبت بالقلم، وعملت بالقدم أي فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: بما آمنتم به وقرأ أي: بالذي آمنتم به "وإن تولوا" عما تقولون لهم ولم

ينصفوا فما هم إلا "في شقاق" أي في مناوأة ومعاداة لا غير، وليسوا من طلب الحق في شيء. أو: وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها "فسيكفيكم الله" ضمان من الله لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسيبهم وإجلاء بني النضير. ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين "وهو السميع العليم" وعيد لهم، أي يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه. أو وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى: يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك.

"صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً ونحن له عابدون" "صبغة الله" مصدر مؤكد منتصب على قوله: "آمنا بالله" كما انتصب "وعد الله" عما تقدمه، وهي فعلة من صبغ، كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ والمعنى: تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: "قولوا آمنا بالله" وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا. أو يقول المسلمون. صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتهم. وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة، كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان، تريد رجلاً يصطنع الكرم "ومن أحسن من الله صبغةً" يعني أنه يصبغ عباده بالإيمان. ويظهرهم به من أضرار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته. وقوله: "نحن له عابدون" عطف على "آمنا بالله". وهذا العطف يرد قول من زعم أن "صبغة الله" بدل من "ملة إبراهيم" أو نصب على الإغراء بمعنى: عليكم صبغة الله، لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التمام واتساقه، وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.

"قل أحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون، أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كنتم شهادةً عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون" قرأ زيد بن ثابت أحتاجونا يادغام النون. والمعنى: أجادلونا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا، وترونكم أحق بالنبوة منا "وهو ربنا وربكم" نشترك جميعاً في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برهته وكرامته من يشاء من عباده، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي دون عربي إذا كان أهلاً للكرامة "ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم" يعني أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالاً يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك. ثم قال: "نحن له مخلصون" فجاء بما هو سبب الكرامة، أي ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوة فينا، لأننا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان "أم تقولون" يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلة للهمزة في "أحتاجوننا" بمعنى أي الأمرين تأتون: الحاجة في حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً، وأن تكون منقطعة بمعنى: بل أتقولون، والهمزة للإنكار أيضاً، وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة "قل ءأنتم أعلم أم الله" يعني أن الله شهد لهم بملة الإسلام في قوله: "ما كان إبراهيم يهودياً ولا

نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً" آل عمران: 67. "ومن أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله" أي كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية. ويحتمل معنيين: أحدهما أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم، لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها. والثاني: أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها. وفيه تعرض بكتماها شهادة الله محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته. ومن في قوله: "شهادةً عنده من الله" مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان إذا شهدت له، ومثله "براءة من الله ورسوله" التوبة: 1.

"سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم، وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنا عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوفٌ رحيمٌ" "سيقول السفهاء" الخفاف الأحلام وهم اليهود لكرهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ. وقيل: المنافقون، لحرصهم على الطعن والاستهزاء. وقيل: المشركون، قالوا: رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم. فإن قلت: أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدمه من توطئ النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراش السهم "ما ولاهم" ما صرفهم "عن قبلتهم" وهي بيت المقدس "الله المشرق والمغرب" أي بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها "يهدي من يشاء" من أهلها "إلى صراطٍ مستقيم" وهو ما توجه الحكمة والمصلحة، من توجيههم تارة إلى بيت المقدس، وأخرى إلى الكعبة "وكذلك جعلناكم" ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم "أمةً وسطاً" خياراً، وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء. ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: "أنطوا الثبجة" يريد الوسيطة بين السمينية والعجفاء وصفا بالثج وهو: وسط الظهر، إلا أنه ألحق تاء التأنيث مراعاة لحق الوصف. وقيل: للخيار: وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل، والأعوار والأوساط محمية محوطة. ومنه قول الطائي:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وقد اكتريت بمكة جمل أعرابي للحج فقال: أعطني من سطاته، أراد من خيار الدنانير. أو عدولاً، لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض "لتكونوا شهداء على الناس" روي:

"أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته، فيزيههم ويشهد بعدلتهم" وذلك قوله تعالى: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً" النساء: 41.

فإن قلت: فهلا قيل لكم شهيداً؟ وشهادته لهم لا عليهم. قلت: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له، جيء بكلمة الاستعلاء. ومنه قوله تعالى: "والله على كل شيء شهيد" المجادلة: 7، "كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد" المائدة: 17. وقيل: لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول

الأخيار "ويكون الرسول عليكم شهيداً" يزيكم ويعلم بعد التكم، فإن قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخراً؟ قلت: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. "التي كنت عليها" ليست بصفة للقبلة إنما هي ثاني مفعولي جعل. يريد: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها وهي الكعبة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود، ثم حول إلى الكعبة فيقول: وما جعلنا القبلة التي يجب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة، يعني: وما ردناك إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاء "لنعلم" الثابت على الإسلام الصادق فيه، ممن هو على حرف ينكص "على عقبيه" لقلقه فيرتد كقوله: "وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا" الآية. ويجوز أن يكون بياناً للحكمة في جعل بيت المقدس قبلته. يعني أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وأن استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضاً لغرض. وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا - وهي بيت المقدس، لمنتحن الناس ونظر من يتبع الرسول منهم ومن لا يتبعه وينفر عنه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه فإن قلت: كيف قال "لنعلم" ولم يزل عالماً بذلك؟ قلت: معناه: لنعلمه علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً ونحوه: "ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين" التوبة: 16. وقيل: ليعلم رسول الله والمؤمنون. وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده. وقيل: معناه لتمييز التابع من الناكص، كما قال: "ليميز الله الخبيث من الطيب" الأنفال: 37، فوضع العلم موضع التمييز لأن العلم به يقع التمييز به "وإن كانت لكبرة" هي إن المخففة التي تلزمها اللام الفارقة. والضمير في "كانت" لما دل عليه قوله: "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها" من الردة، أو التحويلة، أو الجعلة. ويجوز أن يكون للقبلة "الكبرة" لثقل شاقة "غلا على الذين هدى الله" إلا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول الذي لطف الله بهم وكانوا أهلاً للطفه "وما كان الله ليضيع إيمانكم" أي ثباتكم على الإيمان وأنكم لم تزالوا ولم ترتابوا، بل شكر صنيعكم وأعد لكم الثواب العظيم. ويجوز أن يراد: وما كان الله ليترك تحويلكم لعلمه أن تركه مفسدة وإضاعة لإيمانكم. وقيل: من كان صلى إلى بيت المقدس قبل التحويل فصلاته غير ضائعة. عن ابن عباس رضي الله عنه: لما وجه رسول الله إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا فترلت.

"لرؤوف رحيم" لا يضيع أجورهم ولا يترك ما يصلحهم. ويحكي عن الحجاج أنه قال للحسن: ما رأيك في أبي تراب، فقرأ قوله: "إلا على الذين هدى الله" ثم قال: وعلي منهم، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخنته على ابنته، وأقرب الناس إليه، وأحبهم. وقرئ: إلا ليعلم على البناء للمفعول. ومعنى العلم: المعرفة. ويجوز أن تكون من متضمنة لمعنى الاستفهام معلقاً عنها العلم، كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو. وقرأ ابن أبي إسحاق على عقبيه بسكون القاف. وقرأ اليزيدي لكبرة بالرفع. ووجهها أن تكون كان مزيدة، كما في قوله:

وجيران لنا كانوا كرام

والأصل: وإن هي لكبرة كقولك: إن زيد لمنطلق ثم وإن كانت لكبرة وقرئ: ليضيع بالتشديد.

"قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون، ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لم الظالمين" "قد نرى" ربما نرى، ومعناه: كثرة الرؤية، كقوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

"تقلب وجهك" تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم، ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل "فلنولينك" فلنعطيك ولنمكنك من استقبالها، من قولك: وليته كذا. إذا جعلته والياً له، أو فلنجعلك تلي سميتها دون سمت بيت المقدس "ترضاها" تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته "شطر المسجد الحرام" نحوه. قال:

وأظعن بالقوم شطر الملوك

وقرأ أبي: تلقاء المسجد الحرام. وعن البراء بن عازب: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم وجهه إلى الكعبة، وقيل: كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين. ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد بني سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسمي المسجد مسجد القبلتين. و "شطر المسجد" نصب على الظرف، أي اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد أي في جهته وسمته لأن استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد. وذكر المسجد الحرام دون الكعبة: دليل في أن الواجب مراعاة الجهة دون العين "ليعلمون أنه الحق" أن التحويل إلى الكعبة هو الحق لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلي إلى القبلتين "يعملون" قرئ بالياء والتاء "ما تبعوا" جواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط. "بكل آية" بكل برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق، "ما تبعوا قبلتك" لأن تركهم اتباعك ليس على شبهة تزيلها بإيراد الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق "وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكننا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. وقرئ: بتابع قبلتهم على الإضافة "وما بعضهم بتابع قبلة بعض" يعني أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجي اتفاقهم، كما لا ترجى موافقتهم لك. وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى مطلع الشمس. أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه، فالحق منهم لا يزل عن مذهبه لتمسكه بالبرهان، والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته في عناده. وقوله: "ولئن اتبعت أهواءهم" بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله "وما أنت بتابع قبلتهم" كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتبعت مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر "إنك إذا لمن الظالمين" المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير. واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهيج

والهاب للثبات على الحق. فإن قلت: كيف قال: وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان لليهود قبله وللنصارى قبله؟ قلت: كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبله الحق، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبله واحدة. "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير"

"يعرفونه" يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة جليلة يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص "كما يعرفون أبناءهم" لا يشبهه عليهم أبناءهم وأبناء غيرهم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا أعلم به مني بابني. قال: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي. فأما ولدي، فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه. وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع. ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام. وقيل: الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة. وقوله: كما يعرفون أبناءهم يشهد للأول وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام. فإن قلت: لم اختص الأبناء؟ قلت: لأن الذكور أشهر وأعرف، وهم لصحبة الآباء ألزم، وبقولهم ألقى. وقال "فريقاً منهم" استثناء لمن آمن منهم، أو لجهالهم الذي قال الله تعالى فيهم "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب" البقرة: 78. "الحق من ربك" يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف. أي هو الحق. أو مبتدأ خبره من ربك وفيه وجهان: أن تكون اللام للعهد، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو إلى الحق الذي في قوله ليكتمون الحق. أي: هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره. يعني أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل. فإن قلت: إذا جعلت الحق خبر مبتدأ فما محل من ربك؟ قلت: يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون حالاً. وقرأ علي رضي الله عنه: الحق من ربك. على الإبدال من الأول، أي يكتمون الحق، الحق من ربك، "فلا تكونن من الممترين" الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم، أو في أنه من ربك "ولكل" من أهل الأديان المختلفة "وجهة" قبله. وفي قراءة أبي: ولكل قبله "هو موليها" وجهه، فحذف أحد المفعولين. وقيل هو الله تعالى، أي الله موليها إياه. وقرئ: ولكل وجهة على الإضافة. والمعنى وكل وجهة الله موليها، فزيدت اللام لتقدم المفعول كقولك: لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه. وقرأ ابن عامر: هو مولاها أي هو مولى تلك الجهة وقد وليها. والمعنى: لكل أمة قبله تتوجه إليها، منكم ومن غيركم "فاستبقوا" أنتم "الخيرات" واستبقوا إليها غيركم من أمر القبلة وغيره. ومعنى آخر: وهو أن يراد: ولكل منكم يا أمة محمد وجهة أي جهة يصلي إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستبقوا الخيرات "أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً" للجزاء من موافق ومخالف لا تعجزونه. ويجوز أن يكون المعنى: فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهات المسامطة للكعبة وإن اختلفت، أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعاً يجمعكم ويجعل صلواكم كأنها إلى جهة واحدة، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام.

"ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون، ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا

الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون، كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون، يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون"

"وم حيث خرجت" أي ومن أي بلد خرجت للسفر "قول وجهك شطر المسجد الحرام" إذا صليت "وإنه" وإن هذا المأمور به. وقرئ: تعملون بالتاء والياء. وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده، لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصيلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليشبوا ويعزموا ويجدوا، ولأنه ينط بكل واحد ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها "إلا الذين ظلموا" استثناء من الناس، ومعناه، لنلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، وو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء. فإن قلت: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين؟ قلت: كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة. ويجوز أن يكون المعنى: لنلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون: بدا له فرجع إلى قبة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: ألا الذين ظلموا منهم، على أن ألا للتنبيه ووقف على حجة، ثم استأنف منبهاً "فلا تخشوهم" فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضرونكم "واخشوني" فلا تخالفوا أمري وما رأيته مصلحة لكم. ومتعلق اللام محذوف، معناه: ولأتممي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم أمرتكم بذلك؛ أو يعطف على علة مقدرة، كأنه قيل: واخشوني لأوفقكم ولأتم نعمتي عليكم. وقيل: هو معطوف على "لنلا يكون". وفي الحديث: "تمام النعمة دخول الجنة" وعن علي رضي الله عنه: تمام النعمة الموت على الإسلام. "كما أرسلنا" إما أن يتعلق بما قبله، أي: ولأتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده: أي كما ذكرتمكم بإرسال الرسول "فاذكروني" بالطاعة "أذكركم" بالثواب "واشكروا لي" ما أنعمت به عليكم "ولا تكفرون" ولا تجحدوا نعمائي. "أموات بل أحياء" هم أموات بل هم أحياء "ولكن لا تشعرون" كيف حالهم في حياتهم. وعن الحسن: أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها. وقالوا: يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملة فيحييها ويوصل إليها النعيم وإن كانت في حجم الذرة. وقيل: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر.

"ولنبلونكم بشي من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" "ولنبلونكم" ولنصيبكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ "بشيء" بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه "وبشر الصابرين" المسترجعين عند البلاء؛ لأن الاسترجاع تسليم وإذعان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتها

وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه" وروي: أنه طفى سراج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون" فقيل: أمصيبة هي؟ قال: "نعم كل شيء يؤدي المؤمن فهو له مصيبة"، وإنما قلل في قوله: بشيء ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه، وليخفف عليهم ويريه أن رحمته معهم في كل حال لا تزييلهم وإنما وعدهم ذلك قبل كونه ليوطنوا عليه نفوسهم. نقص عطف على شيء أو على شيء أو على الخوف، بمعنى: وشيء من نقص الأموال. والخطاب في بشر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يتأتى منه البشارة. وعن الشافعي رحمه الله الخوف: خوف الله. والجوع: صيام شهر رمضان؛ والنقص من الأموال: الزكوات والصدقات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات؛ موت الأولاد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد". والصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة. كقوله تعالى: "رأفة ورحمة" الحديد: 27، "رؤوف رحيم" التوبة: 117. والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة. ورحمة أي رحمة. "وأولئك هم المهتدون" لطريق الصواب حيث استرجعوا وسلموا لأمر الله.

"إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكراً عليم" والصفا والمروة: علمان للجبلين، كالصمان والمقطم، والشعائر: جمع شعيرة وهي العلامة، أي من أعلام مناسكه ومتعبداته، والحد: للقصد. والاعتماد: الزيارة، فغلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين، وهما في المعاني كالنجم والبيت في الأعيان. وأصل "يطوف" يتطوف فأدغم. وقرئ: أن يطوف من طاف. فإن قلت: كيف قيل إنهما من شعائر الله ثم قيل لا جناح عليه أن يطوف بهما؟ قلت: كان على الصفا أساف، وعلى المروة نائلة، وهما صنمان، يروى: أنهما كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة، فمسحوا حجرتين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عبداً من دون الله، فكان أهل الجاهلية إذا سعو مسحوها، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية وأن لا يكون عليهم جناح في ذلك، فرفع عنهم الجناح. واختلف في السعي، فمن قائل: هو تطوع بدليل رفع الجناح وما فيه من التخيير بين الفعل وتركه، كقوله: "فلا جناح عليهما أن يتراجعا" البقرة: 230، وغير ذلك، ولقوله: "ومن تطوع خيراً" كقوله: "فمن تطوع خيراً فهو خير له" البقرة: 184. ويروى ذلك عن أنس وابن عباس وابن الزبير، وتنصره قراءة ابن مسعود: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما. وعن أبي حنيفة رحمه الله: أنه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم. وعند الأولين لا شيء عليه. وعند مالك والشافعي: هو ركن، لقوله عليه السلام: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي" وقرئ: ومن يطوع. بمعنى: ومن يتطوع، فأدغم. وفي قراءة عبد الله: ومن يتطوع بخير.

"إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" "إن الذين يكتُمون" من أحبار اليهود "ما أنزلنا" في التوراة "من البينات" من الآيات الشاهدة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم "والهدى" والهداية بوصفه إلى اتباعه والإيمان به "من بعد ما بيناه" ولخصناه للناس في الكتاب "في التوراة"، لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد منهم، فعمدوا إلى ذلك المين الملخص فكتّموه

ولبسوا على الناس "أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" الذين يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

"إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم" "وأصلحوا" ما أفسدوا من أحوالهم، وتداركوا ما فرط منهم "وبينوا" ما بينه الله في كتابهم فكتموه، أو بينوا للناس ما أحدثوه من توبتهم ليمحوا سمة الكفر عنهم، ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به، ويقتدي بهم غيرهم من المفسدين.

"إن الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون" "إن الذين كفروا" يعني الذين ماتوا من هؤلاء الكافرين ولم يتوبوا، ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً. وقرأ الحسن: والملائكة والناس أجمعون، بالرفع عطفاً على محل اسم الله، لأنه فاعل في التقدير، كقولك: عجبت من ضرب زيد وعمرو، تريد من أن ضرب زيد وعمرو، كأنه قيل: أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة. فإن قلت: ما معنى قوله: "والناس أجمعين" وفي الناس المسلم والكافر. قلت: أراد بالناس من يعتد بلعنه وهم المؤمنون. وقيل: يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً "خالدين فيها" في اللعنة. وقيل: في النار إلا أنها أضمرت تفخيماً لشأنها وتقويلاً "ولا هم ينظرون" من الإنظار أي لا يمهلون ولا يؤجلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا. أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

"والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم"

"إله واحد" فرد في الإلهية لا شريك له فيها ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً. و"لا إله إلا هو" تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته "الرحمان الرحيم" المولى لجميع النعم أصولها وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة، فإن كل ما سواه إما نعمة وإما منعم عليه. وقيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فترلت.

"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار" واعتقابهما لأن كل واحد منهما يعقب الآخر، كقوله: "جعل الليل والنهار خلفاً" الفرقان: 62، "بما ينفع الناس" بالذي ينفعهم مما يحمل فيها أو ينفع الناس. فإن قلت: قوله: "وبث فيها" عطف على أنزل أم أحيا؟ قلت: الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة، لأن قوله: فأحيا به الأرض عطف على أنزل، فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة. ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الأرض وبث فيها من كل دابة؛ لأنهم يسمون بالخصب ويعيشون بالحيا. "وتصريف الرياح" في مهاجها: قبولاً، ودبوراً، وجنوباً، وشمالاً. وفي أحوالها: حارة، وباردة، وعاصفة، ولينة. وعقماً، ولواقح. وقيل تارة بالرحمة، وتارة بالعذاب "والسحاب المسخر" سخر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يطر حيث شاء "لآيات لقوم يعقلون" ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة. وعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "ويل لمن قرأ هذه الآية فمح بها" أي لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها. وقرئ: الفلك بضمين، وتصريف الرياح، على الأفراد.

"ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب، إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراء منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار"

"أنداداً" أمثالاً من الأصنام. وقيل: من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم ويتزلون على أوامرهم ونواهيهم. واستدل بقول: "إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا" ومعنى: "يحبونهم" يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم الخبوع "كحب الله" كتعظيم الله والخضوع له، أي كما يحب الله تعالى، على أنه مصدر من المبني للمفعول، وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس. وقيل: كحبهم الله، أي يسوون بينه وبينهم في محبتهم لأنهم كانوا يقرون بالله ويتقربون إليه. فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين "أشد حبا لله" لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره؛ بخلاف المشركين فإنهم يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره، أو يأكلونه كما أكلت باهلة إلهها من حيس عام الجاعة "الذين ظلموا" إشارة إلى متخذي الأنداد أي لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشرتهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب كما في قوله: "ولو ترى إذ وقفوا" الأنعام: 27، وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه. وقرئ: ولو ترى بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب، أي ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً. وقرئ: إذ يرون على البناء للمفعول. وإذ في المستقبل كقوله: "ونادى أصحاب الجنة" الأعراف: 44. "إذ تبرا" يدل من "إذ يرون العذاب" أي تبرا المتبعون وهم الرؤساء من الأتباع. وقرأ مجاهد الأول على البناء للفاعل والثاني على البناء للمفعول، أي تبرا الأتباع من الرؤساء "ورأوا العذاب" والواو للحال، أي تبرا في حال رؤيتهم العذاب "وتقطعت" عطف على تبرا. و"الأسباب" الوصل التي كانت بينهم، من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والخاب، والأتباع، والاستتباع، كقوله: "لقد تقطع بينكم" الأنعام: 94 "لو" في معنى التمني. ولذلك أجيب بالفاء الذي يجاب به التمني، كأنه قيل: ليت لنا كرة، فنتبرأ منهم "كذلك" مثل ذلك الإراء الفطيع "يريههم الله أعمالهم حسرات" أي ندامات، وحسرات: ثالث مفاعيل أرى، ومعناه أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم "وما هم بخارجين" هم بمزلة في قوله:

هم يفرشون اللبد كل طمرة

في دلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص. "يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون" "حلالاً" مفعول كلوا، أو حال مما في الأرض "طيبات" طاهراً من كل شبهة "ولا تتبعوا خطوات الشيطان" فتدخلوا في حرام، أو شبهة، أو تحريم حلال، أو تحليل حرام، ومن للتبعيض؛ لأن

ما في الأرض ليس بمأكل. وقرئ: خطوات بضميتين، وخطوات بضمّة وسكون، وخطوات بضميتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو، وخطوات بفتحيتين وخطوات بفتحة وسكون. والخطوة: المرة من الخطو. والخطوة: ما بين قدمي الخاطي. وهما كالغرفة والغرفة، والقبضة والقبضة. يقال: اتبع خطواته، ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته "مبين" ظاهر العداوة لا خفاء به "إنما يأمركم" بيان لجوب الإنهاء عن اتباعه وظهور عداوته. أي لا يأمركم بخير قط إنما يأمركم "بالسوء" بالقيح "والفحشاء" وما يتجاوز الحد في القبح من العظائم، وقيل: السوء ما لا حد فيه. والفحشاء: ما يجب الحد فيه "وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون" وهو قولكم: هذا حلال وهذا حرام، بغير علم. ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه. فإن قلت: كيف كان الشيطان أمراً مع قوله: "ليس لك عليهم سلطان"؟ الحجر: 42، قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الأمر، كما تقول: أمرتني نفسي بكذا. وتحتة رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه؛ ولذلك قال: "ولأمرهم فليتبكّن آذان الأنعام ولأمرهم فليغيرون خلق الله" النساء: 119، وقال الله تعالى: "إن النفس لأمارة بالسوء" يوسف: 53، لما كان الإنسان يطيعها فيعطيهما ما اشتهيت.

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون" "هم" الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم، لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون: قيل: هم المشركون. وقيل: هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقالوا: "بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" فإنهم كانوا خيراً منا وأعلم. وألفينا: بمعنى وجدنا، بدليل قوله: "بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا" لقمان: 21. "أولو كان آباؤهم" الواو للحال، والهمزة بمعنى الرد والتعجب، معناه: أيتبعوهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب. "ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون" لا بد من مضاف محذوف تقديره: ومثل داعي الذين كفروا "كمثل الذي ينعق" أو: ومثل الذين كفروا كهائم الذي ينعق. والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان - في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار - كمثل الناقع بالبهائم، التي لا تسمع إلا دعاء الناقع ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي، كما يفهم العقلاء ويعون. ويجوز أن يراد بما لا يسمع: الأصم الأصلح، الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير، من غير فهم للحروف. وقيل معناه: ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظهر الصوت ولا تفهم ما تحتها، فكذلك هؤلاء يتبعوهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل؟ وقيل معناه: ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثل الناقع بما لا يسمع، إلا أن قوله: "إلا دعاءً ونداءً" لا يساعد عليه، لأن الأصنام لا تسمع شيئاً، والنعيق: التصويت. يقال: نعق المؤذن، ونعق الراعي بالضان. قال الأخطل:

منتك نفسك في الخلاء ضلالاً

فانعق بضأنك يا جرير فإنما

وأما نفق الغراب فبالعين المعجمة "صم" هم صم، وهو رفع على الدم.
 "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون" "من طيبات ما رزقناكم" من مستلذاه، لأن كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالاً "واشكروا لله" الذي رزقكموها "إن كنتم إياه تعبدون" إن صح أنكم تخصونه بالعبادة. وتقرون أنه مولى النعم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى: إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق، ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري".

"إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فم اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم" قرئ: حرم على البناء للفاعل، وحرم على البناء للمفعول، وحرم بوزن كرم "أهل به لغير الله" أي رفع به الصوت للصنم، وذلك قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزى "غير باغ" على مضطر آخر بالاستيثار "ولا عاد" سد الجوعة. فإن قلت: في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحلت لنا ميتتان ودمان". قلت: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة. ألا ترى أن القائل إذا قال: أكل فلان ميتة، لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد، كما لو قال: أكل دماً، لم يسبق إلى الكبد والطحال. ولا اعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لا يأكل لحمًا فأكل سمكاً لم يحنث - وإن أكل لحمًا في الحقيقة، قال الله تعالى: "لتأكلوا منه لحمًا طرياً" النحل: 14، وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافرًا لم يحنث - وإن سماه الله تعالى دابة في قوله: "إن شر الدواب عند الله الذين كفروا" الأنفال: 55. فإن قلت: فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه؟ قلت: لأن الشحم داخل في ذكر اللحم، لكونه تابعاً له وصفه فيه، بدليل قولهم: لحم سمين، يريدون أنه شحيم.

"إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثمنًا قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد" "في بطونهم" ملء بطونهم. يقال: أكل فلان في بطنه، وأكل في بعض بطنه "إلا النار" لأنه إذا أكل ما يتلبس بالناس لكونها عقوبة عليه، فكأنه أكل النار، ومنه قولهم: أكل فلان الدم، إذا أكل الدية التي هي بدل منه. قال:

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة

وقال:

يأكلن كل ليلة إكافا

أراد ثمن الإكاف، فسماه إكافاً لتلبسه بكونه ثمناً له "ولا يكلمهم الله" تعريض مجرماتهم حال أهل الجنة في تكرمة الله إياهم بكلامه وتركيبتهم بالثناء عليهم. وقيل: نفى الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصرمه وقطع كلامه. وقيل: لا يكلمهم بما يحبون، ولكن بنحو قوله: "أخسؤا فيها ولا تكلمون" المؤمنون: 108. فما أصبرهم على النار" تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم، كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن، تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب. وقيل: فما أصبرهم، فأى شيء صبرهم. يقال: أصبره على كذا وصبره بمعنى. وهذا أصل معنى فعل

التعجب. والذي روي عن الكسائي أنه قال: قال لي قاضي اليمن بمكة اختصم إلي رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له: ما أصبرك على الله، فمعناه: ما أصبرك على عذاب الله "ذلك بأن الله نزل" أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل ما نزل من الكتاب بالحق "وإن الذين اختلفوا" في كتب الله فقالوا في بعضها حق وفي بعضها باطل وهم أهل الكتاب "لفي شقاق" لفي خلاف "بعيد" عن الحق، والكتاب للجنس، أو كفرهم ذلك بسبب أن الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه من المشركين - فقال بعضهم: سحر، وبعضهم: شعر، وبعضهم: أساطير - لفي شقاق بعيد. يعني أن أولئك لو لم يختلفوا ولم يشاقوا لما جسر هؤلاء أن يكفروا.

"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون"

"البر" اسم للخير ولكل فعل مرضي "أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب" الخطاب لأهل الكتاب لأن اليهود تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنصارى قبل المشرق. وذلك أنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، وزعم كل واحد من الفريقين أن البر التوجه إلى قبلته، فرد عليهم. وقيل: ليس البر فيما أنتم عليه فإنه منسوخ خارج من البر، ولكن البر ما نبينه. وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البر الذي يجب الاهتمام به وصرف المهمة بر من آمن وقام بهذه الأعمال. وقرئ: وليس البر - بالنصب على أنه خبر مقدم - وقرأ عبد الله: بأن تولوا، على إدخال الباء على الخبر للتأكيد كقولك: ليس المنطلق بزيد "ولكن البر من آمن بالله" على تأويل حذف المضاف، أي بر من آمن، أو بتأويل البر بمعنى ذي البر، أو كما قالت.

فإنما هي إقبال وإدبار

وعن المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت: ولكن البر، بفتح الباء. وقرئ: ولكن البار. وقرأ ابن عامر ونافع: ولكن البر بالتخفيف. "والكتاب" جنس كتب الله، أو القرآن "على حبه" مع حب المال والشح به، كما قال ابن مسعود.

أن تؤتية وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتحشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان: كذا ولفلان كذا. وقيل: على حب الله. وقيل: على حب الإيتاء، يريد أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه. وقدم ذوي القربى لأنهم أحق. قال عليه الصلاة والسلام: "صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذي رحمك اثنان لأنها صدقة وصلة" وقال عليه الصلاة والسلام:

"أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح". وأطلق "ذوي القربى واليتامى" والمراد الفقراء منهم لعدم الإلباس. والمسكين: الدائم السكون إلى الناس، لأنه لا شيء له كالمسكين: للدائم السكر، "وابن السبيل" المسافر المنقطع. وجعل ابناً للسبيل لملازمته له، كما يقال للص القاطع: ابن الطريق. وقيل: هو الضيف، لأن السبيل يرعى به "والسائلين" المستطعمين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه". "وفي

الرقاب" وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم. وقيل: في ابتياع الرقاب وإعتاقها. وقيل في فك الأسارى. فإن قلت: قد ذكر إيتاء المال في هذه الوجوه ثم قفاه بإيتاء الزكاة فهل دل على أن في المال حقاً سوى الزكاة؟ قلت: يحتمل ذلك. وعن الشعبي: أن في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية. ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة، أو يكون حثاً على نوافل الصدقات والمبار. وفي الحديث: "نسخت الزكاة كل صدقة" يعني وجوبها. وروي: "ليس في المال حق سوى الزكاة" والموفون عطف على من آمن. وأخرج "والصابرين" منصوباً على الاختصاص والمدح، وإظهاراً لفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال. وقرئ: والصابرون. وقرئ: والموفين، والصابرين و "البأساء" الفقر والشدّة "والضراء" المرض والزمانة "صدقوا" كانوا صادقين جادين في الدين.

"يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم، ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون" عن عمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وعطاء، وعكرمة، وهو مذهب مالك والشافعي رحمة الله عليهم: أن الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى، أخذاً بهذه الآية. ويقولون: هي مفسرة لما أجهم في قوله: "النفس بالنفس" المائة: 55، ولأن تلك واردة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها، وهذه خوطب بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها. وعن سعيد بن المسيب، والشعبي، والنخعي، وقتادة، والثوري، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه: أنها منسوخة بقوله: "النفس بالنفس" المائة: 55، والقصاص ثابت بين العبد والحر، والذكر والأنثى. ويستدلون بقوله صلى الله عليه وسلم: "المسلمون تتكافأ دماؤهم" وبأن النفاضل غير معتبر في الأنفس، بدليل أن جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به. وروي: "أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طولٌ عل الآخر، فأقسموا لئقتلن الحر منكم بالعبد منا، والذكر بالأنثى، والاثنتين بالواحد، فتحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاء الله بالإسلام فترلت، وأمرهم أن يتباؤا" "فمن عفي له من أخيه شيء" معناه: فمن عفي له من جهة أخيه شيء من العفو. على أنه كقولك: سير يزيد بعض السير، وطائفة من السير. ولا يصح أن يكون شيء في معنى المفعول به، لأن عفا لا يتعدى إلى مفعول به إلا بواسطة وأخوه: هو ولي المقتول، وقيل له أخوه، لأنه لا بسه، من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به، كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا، لمن بينه وبينه أدنى ملايسة أو ذكر بلفظ الأخوة، ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام. فإن قلت: إن عفى يتعدى بعن لا باللام، فما وجه قوله: "فمن عفي له"؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجاني وإلى الذنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال الله تعالى: "عفا الله عنك" التوبة: 43، وقال: "عفا الله عنها" المائة: 101، فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً قيل؛ عفوت لفلان عما جنى، كما تقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه. وعلى هذا ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفي له عند جنائته، فاستغنى عن ذكر الجنائية، فإن قلت: هلا فسرت عفى بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت: لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس بثبت. ولكن أعفاه. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

"واعفوا للحي" فإن قلت: فقد ثبت قولهم: عفا أثره إذا محاه وأزاله، فهلا جعلت معناه: فمن محى له من أخيه شيء؟ قلت: عبارة قلقلة في مكانها، والعفو في باب الجنائيات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس،

فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ - إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله - على اختراع لغة وادعاء على العرب ما لا تعرفه، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها. فإن قلت؟: لم قيل: شيء من العفو؟ قلت: للإشعار بأنه إذا عفي له طرف من العفو وبعض منه بأ يعفى عن بعض الدم. أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم تجب إلا الدية "فاتباغ بالمعروف" فليكن ابتاع، أو فالأمر ابتاع. وهذه توصية للمعفو عنه والعافي جميعاً. وليؤد إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان، بأن لا يطله ولا يبخسه "ذلك" الحكم المذكور من العفو والدية "تخفيف" من ربكم ورحمة لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرّم العفو وأخذاً لدية، وعلى أهل الإنجيل العفو وحرّم القصاص والدية. وخيرت هذه الأمة بين الثلاث: القصاص والدية والعفو، توسعة عليهم وتيسيراً "فمن اعتدى بعد ذلك" التخفيف، فتجاوز ما شرع لهم ن قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية. فقد كان الولي في الجاهلية يؤمن القاتل بقبول الدية، ثم يظفر به فيقتله "فله عذاب أليم" نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة. وعن قتادة: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية، لقوله عليه الصلاة والسلام: "لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية" "ولكم في القصاص حياة" كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداد عن القتل لوقوع العلم بالاختصاص من القاتل، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين. وقرأ أبو الجوزاء: ولكم في القصص حياة أي فيما قصص عليكم من حكم القتل والقصاص، وقيل القصص القرآني أي: ولكم في القرآن حياة للقلوب: كقوله تعالى: "روحاً من أمرنا" الشورى: 52، "ويجي من حي عن بينة" الأنفال: 42. "لعلكم تتقون" أي أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس "لعلكم تتقون" تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به. وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة.

"كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميعٌ عليمٌ، فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفورٌ رحيمٌ" "إذا حضر أحدكم الموت" إذا دنا منه وظهرت أماراته "خير" مالا كثيراً. عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمئة دينار، فقالت: ما أرى فيه فضلاً. وأراد آخر أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: إنما قال الله "إن ترك خيراً" وإن هذا الشيء يسير فاتركه لعيالك، وعن علي رضي الله عنه: أن مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة فمنعه. وقال: قال الله تعالى: "إن ترك خيراً" والخير هو المال، وليس لك مال. والوصية فاعل كتب، وذكر فعلها للفاصل، ولأنها بمعنى أن يوصى، ولذلك ذكر الراجع في قوله: "فمن بدله بعد ما سمعه" والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فنسخت بآية الموارث، وبقوله عليه الصلاة والسلام:

"إن الله أعطى كل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث" وبتلقي الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر وإن كان من الآحاد، لأنهم لا يتلقون بالقبول إلا الثبت الذي صحت روايته. وقيل: لم تنسخ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين. وقيل: ما هي بمخالفة لآية الموارث. ومعها: كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم" النساء: 11، أو كتب على المختصر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم، وأن لا ينقص من أنصبتهم "بالمعروف" بالعدل، وهو أن لا يوصي للغني ويدع الفقير ولا يتجاوز الثلث "حقاً" مصدر مؤكد، أي حق ذلك حقاً "فمن بدله" فمن غير الإيضاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود "بعد ما سمعه" وتحققه "فإنما إثمه على الذين يبدلونه" فما إثم الإيضاء المغير أو التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصي والموصى له، لأنهما بريان من الحيف "إن الله سمع عليم" وعيد للمبدل "فمن خاف" فمن توقع وعلم، وهذا في كلامهم شائع يقولون: أخاف أن ترسل السماء، يريدون التوقع والظن الغالب الجاري مجرى العلم "جنفاً" ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية "أو إثمًا" أو تعمدًا للحيف "فأصلح بينهم" بين الموصى لهم وهم الوالدان والأقربون ياجرائهم على طريق الشرع "فلا إثم عليه" حينئذ، لأن تبديله تبديل باطل إلى حق ذكر من يبدل بالباطل ثم من يبدل بالحق ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم.

"يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون" "كما كتب على الذين من قبلكم" على الأنبياء والأئمة من لدن آدم إلى عهدكم. قال علي رضي الله عنه: أولهم آدم، يعني أن الصوم عبادة قديمة أصلية ما أدخل الله أمة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحدكم "لعلكم تتقون" بالحافظة عليها وتعظيمها لأصالتها وقدمها، أو لعلكم تتقون المعاصي، لأن الصائم أظلف لنفسه وأردع لها من موقعة السوء. قال عليه الصلاة والسلام:

"فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء" أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين، لأن الصوم شعارهم. وقيل معناه: أنه كصومهم في عدد الأيام وهو شهر رمضان، كتب على أهل الإنجيل فأصابهم موتان، فزادوا عشرًا قبله وعشرًا بعده. فجعلوه خمسين يوماً. وقيل: كان وقوعه في البرد الشديد والحر الشديد، فشق عليهم في أسفارهم ومعاشهم فجعلوه بين الشتاء والربيع، وزادوا عشرين يوماً كفارة لتحويله عن وقته. وقيل: الأيام المعدودات: عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر. كتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم صيامها حين هاجر. ثم نسخت بشهر رمضان. وقيل: كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء وبعد أن يناموا، ثم نسخ ذلك بقوله: "أحل لكم ليلة الصيام..." البقرة: 87. ومعنى "معدودات" موقتات بعدد معلوم. أو قلائل، كقوله: "دراهم معدودة" يوسف: 20، وأصله أن المال القليل يقدر بالعدد ويتحكر فيه. والكثير يهال هيلاً ويحشى حشياً. وانتصاب أياماً بالصيام كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة "أو على سفر" أو راكب سفر "فعدة" فعليه عدة. وقرئ بالنصب بمعنى: فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة. وقيل: مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدة "من أيام أخر" واختلف في المرض المبيح للإفطار، فمن قائل: كل مرض، لأن الله تعالى لم يخص مرضاً دون مرض كما لم يخص سفراً دون سفر، فكما أن لكل مسافر أن يفطر، فكذلك كل مريض. وعن ابن سيرين أنه دخل عليه في رمضان وهو يأكل فاعتل

بوجع أصبعه. وسئل مالك عن الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه، فقال: إنه في سعة من الإفطار. وقائل: هو المرض الذي يعسر معه الصوم ويزيد فيه، لقوله تعالى: "يريد الله بكم اليسر" وعن الشافعي: لا يفطر حتى يجهد الجهد غير المحتمل. واختلف أيضاً في القضاء فعمدة العلماء على التخيير. وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: إن الله لم يرخص لكم في فطره وهو يريد أن يشق عليكم في قضائه، إن شئت فواتر، وإن شئت ففرق وعن علي وابن عمر والشعبي وغيرهم أنه يقضي كما فات متتابعاً. وفي قراءة أبي: فعدة من أيام آخر متتابعات فإن قلت: فكيف قيل: "فعدة" على التنكير ولم يقل: فعدتها، أي فعدة الأيام المعدودات؟ قلت: لما قيل: فعدة والعدة بمعنى المعدود فأمر بأن يصوم أياماً معدودة مكائفاً، علم أنه لا يؤثر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة "وعلى الذين يطيقونه" وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفطروا "فدية طعام مسكين" نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق، وعند أهل الحجاز مد، وكان ذلك في بدء الإسلام: فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية. وقرأ ابن عباس: يطوقونه، تفعيل من الطوق إما بمعنى الطاقة أو القلادة، أي يكلفونه أو يقلدونه ويقال لهم صوموا. وعنه يتطوقونه بمعنى يتكلفونه أو يتقلدونه. ويطوقونه بإدغام التاء في الطاء. ويطيقونه ويطيقونه بمعنى يتطوقونه، وأصلهما يطيقونه بإدغام التاء في الطاء. ويطيقونه ويطيقونه بمعنى يتطوقونه، وأصلهما يطيقونه ويتطيقونه، على أنهما من فيعل وتفعيل من الطوق، فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء كقوله: تدير المكان وما بها ديار. وفيه وجهان: أحدهما نحو معنى يطيقونه. والثاني يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز، وحكم هؤلاء الإفطار والفدية. وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ. ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه، أي يصومونه جهدهم وطاقته ومبلغ وسعهم "فمن تطوع خيراً" فزاد على مقدار الفدية "فهو خير" له" فالتطوع أخير له أو الخير. وقرئ فمن يطوع، بمعنى يتطوع "وأن تصوموا" أيها المطيقون أو المطوقون وحملت على أنفسكم وجهت طاعتكم "خير لكم" من الفدية وتطوع الخير. ويجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر أيضاً. وفي قراءة أبي: والصيام خير لكم.

"شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون"

الرمضان: مصدر رمض إذا احترق - من الرمضاء - فأضيف إليه الشهر وجعل علماً، ومنح الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل ابن داية للغراب بإضافة الابن إلى داية البعير، لكثرة وقوعه عليها إذا دبرت. فإن قلت: لم سمي "شهر رمضان"؟ قلت: الصوم فيه عبادة قديمة، فكأنهم سموه بذلك لارتماضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته، كما سموه ناتقاً لأنه كان ينتقهم أي يزعجهم إضجاراً بشدته عليهم. وقيل: لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر. فإن قلت: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً، فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً".

"من أدرك رمضان فلم يغفر له". قلت: هو من باب الحذف لأن الإلباس كما قال:

بما أعيان النطاسي حذيمًا

أراد ابن حذيم، وارتفاعه على أنه مبتدأ خبره "الذي أنزل فيه القرآن" أو على أنه بدل من الصيام في قوله "كتب عليكم الصيام" البقرة: 183، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقرئ بالنصب على: صوموا شهر رمضان، أو على الإبدال من "أياماً معدودات"، أو على أنه مفعول "وأن تصوموا" البقرة: 184. ومعنى: "أنزل فيه القرآن" ابتدئ فيه إنزاله. وكان ذلك في ليلة القدر. وقيل: أنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوماً. وقيل: أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: "كتب عليكم الصيام" كما تقول: أنزل في عمر كذا، وفي علي كذا. وعن النبي عليه الصلاة والسلام: "نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين مضين" "هدى للناس وبيّنات" نصب على الحال، أي أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق ويفرق بين الحق والباطل. فإن قلت: ما معنى قوله: "وبيّنات من الهدى" بعد قوله "هدى للناس"؟ قلت: ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق بيه بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" فمن كان شاهداً، أي حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر، فليصم فيه ولا يفطر. والشهر: منصوب على الظرف وكذلك الهاء في "فليصمه" ولا يكون مفعولاً به كقولك: شهدت الجمعة، لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر "يريد الله" أن ييسر عليكم ولا يعسر، وقد نفى عنكم الحرج في الدين، وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها، ومن جملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر في السفر والمرض. ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر، حتى زعم أن من صام منهما فعليه الإعادة. وقرئ: اليسر، والعسر - بضمين. الفعل المعلن محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره "ولتكمّلوا العدة وتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون" شرع ذلك يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله: "لتكمّلوا" علة الأمر بمراعاة العدة "ولتكبروا" علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر "ولعلكم تشكرون" علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبينه إلا النقب المحدث من علماء البيان. وإنما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد، كأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم. ومعنى "ولعلكم تشكرون" وإرادة أن تشكروا، وقرئ: ولتكمّلوا بالتشديد. فإن قلت: هل يصح أن يكون ولتكمّلوا معطوفاً على علة مقدرة، كأنه قيل لتعلموا ما تعملون، ولتكمّلوا العدة، أو على اليسر، كأنه قيل: يريد الله بكم اليسر، ويريد بكم لتكمّلوا، كقوله: "يريدون ليطفئوا؟" الصف: 8، قلت: لا يبعد ذلك والأول أوجه. فإن قلت: ما المراد بالتكبير؟ قلت: تعظيم الله والثناء عليه. وقيل: هو تكبير يوم الفطر. وقيل: هو التكبير عند الإلهال.

"وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون" "فإني قريبٌ" تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجابه حاجة من سأل بحال من قرب مكانه، فإذا دعى أسرع تلبية، ونحوه "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" ق: 16، وقوله عليه الصلاة والسلام:

"هو بينكم وبين أعناق رواحلكم" وروي "أن أعراباً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أقرب ربنا فنناجيه، أم

بعيد فنناديه؟ فزلت: "فليستجيبوا لي" إذا دعوكم للإيمان والطاعة، كما أي أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم. وقرئ
يرشدون ويرشدون بفتح الشين، وكسرهما.

"أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائك هن لباس لكم وأنتم لباس لله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتأب عليكم وعفا عنكم فالآن باسروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون" كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة أو يرقد، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة، ثم إن عمر رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة، فلما اغتسل أخذ يكي ويلوم نفسه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة وأخبره بما فعل، فقال عليه الصلاة والسلام: "ما كنت جديراً بذلك يا عمر" فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء، فزلت. وقرئ: أحل لكم ليلة الصيام الرفث، أي أحل الله. وقرأ عبد الله: الرفوث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، كلفظ النيك، وقد أرفث الرجل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أنشد وهو محرم:

إن تصدق الطير نك لميسا

وهن يمشين بنا هميسا

فقليل له: أرفثت؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء. وقال الله تعالى: "فلا رفث ولا فسوق" فكفى به عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك. فإن قلت: لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: "وقد أفضى بعضكم إلى بعض" النساء: 21، "فلما تغشاها" الأعراف: 189، "باسروهن" أو لامستم النساء: 43، "دخلتم بهن" النساء: 23، "فأتوا حرثكم" البقرة: 223، "من قبل أن تمسوهن" البقرة: 237، "فما استمتعتم به منهن" النساء: 24، "ولا تقربوهن" البقرة: 222؟ قلت: استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه احتيائاً لأنفسهم. فإن قلت: لم عدى الرفث يلى؟ قلت: لتضمينه معنى الإفشاء. لما كان الرجل والمرأة يعتقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه، شبه باللباس المشتمل عليه. قال الجعدي:

تثنت فكانت عليه لباسا

إذا ما الضجيع ثنى عطفها

فإن قلت: ما موقع قوله: "هن لباس لكم"؟ قلت: هو استئناف كالبیان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنبهن، فلذلك رخص لكم في مباشرتهن "تختانون أنفسكم" تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير. والاختيان من الخيانة، كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة "فتأب عليكم" حين تبتم مما ارتكبتم من الخطور "وابتغوا ما كتب الله لكم" واطلبوا ما قسم الله لكم وأثبت في اللوح من الولد بالباشرة، أي لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لا ابتغاء ما وضع الله له النكاح من التنازل. وقيل: هو نهي عن العزل لأنه من الحرائر. وقيل: وابتغوا الحل الذي كتبه الله لكم وحلله دون ما لم يكتب لكم من الحل المحرم. وعن قتادة: وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الخطر. وقرأ ابن عباس: واتبعوا وقرأ الأعمش: وأتوا وقيل معناه: واطلبوا ليلة القدر وما كتب الله لكم من الثواب إن أصبتموها وقمتموها، وهو قريب

من بدع التفاسير. "الخط الأبيض" هو أول من يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخط المدود. و"الخط الأسود" ما يمتد معه من غبش الليل، شبهاً بخطين أبيض وأسود. قال أبو دؤاد:

فلما أضاعت لنا سدفهً ولاح من الصبح خط أنارا

وقوله: "من الفجر" بيان للخط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخط الأسود. لأن بيان أحدهما بيان للثاني. ويجوز أن تكون من للتبعض: لأنه بعض الفجر وأوله. فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله: "من الفجر" أخرج من باب الاستعارة، كما أن قولك: رأيت أسداً مجاز. فإذا زدت من فلان رجع تشبيهاً. فإن قلت: فلم زيد "من الفجر" حتى كان تشبيهاً؟ وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر "من الفجر" لم يعلم أن الخطين مستعاران، فزيد "من الفجر" فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة. فإن قلت: فكيف التيسر على عدي بن حاتم مع هذا البيان حتى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتي فكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فضحك وقال: "إن كان وسادك لعريضا" وروي: "إنك لعريض القفا، إنما ذاك بياض النهار وسواد الليل"؟ قلت: غفل عن البيان، ولذلك عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه، لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته. وأنشدني بعض البدويات لبدوي:

عريض القفا ميزانه في شماله قد انحص من حسب القرايط شاربـه

فإن قلت: فما تقول فيما روي عن سهل بن سعد الساعدي: أنها نزلت ولم يزل "من الفجر" فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخط الأبيض والخط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له، فتزل بعد ذلك "من الفجر" فعلموا أنه إنما يعني بذلك الليل والنهار؟ وكيف جاز تأخير البيان وهو يشبه العبث، حيث لا يفهم منه المراد، إذ ليس باستعارة لفقد الدلالة، ولا بتشبيه قبل ذكر الفجر، فلا يفهم منه إذن إلا الحقيقة وهي غير مرادة؟ قلت: أما من لم يجوز تأخير البيان - وهم أكثر الفقهاء والمتكلمين، وهو مذهب أبي علي وأبي هاشم - فلم يصح عندهم هذا الحديث. وأما من يجوزه فيقول: ليس بعث. لأن المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب ويعزم على فعله إذا استوضح المراد منه "ثم أتموا الصيام إلى الليل" قالوا: فيه دليل على جواز النية بالنهار في صوم رمضان، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر، وعلى نفي صوم الوصال "عاكفون في المساجد" معتكفون فيها. والاعتكاف أن يحبس نفسه في المسجد يتعبد فيه. والمراد بالمباشرة الجماع لما تقدم من قوله: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم"، "فالآن باشروهن" وقيل معناه: ولا تلامسوهن بشهوة، والجماع يفسد الاعتكاف، وكذلك إذا لمس أو قبل فأنزل. وعن قتادة كان الرجل إذا اعتكف خرج فباشر امرأته ثم رجع إلى المسجد، فنهاهم الله عن ذلك. وقالوا: فيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد، وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد. وقيل: لا يجوز إلا في مسجد نبي وهو أحد المساجد الثلاثة. وقيل: في مسجد جامع. والعمامة على أنه في مسجد جماعة. وقرأ مجاهد: في المسجد "تلك"

الأحكام التي ذكرت "حدود الله فلا تقربوها" فلا تغشوها. فإن قلت: كيف قيل: "فلا تقربوها" مع قوله: "فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله" البقرة: 229؟ قلت: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق فهى أن يتعداه لأن من تعداه وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لنلا يداني الباطل، وأن يكون في الواسطة متباعداً عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل ملك حمى، وحى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه" فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد. ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصاً، لقوله: "ولا تبashروهن" وهي حدود لا تقرب.

"ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون" ولا يأكل بعضكم مال بعض "بالباطل" بالوجه الذي لم يبيحه الله ولم يشرعه. ولا "تدلوا بها" ولا تلقوا أمرها واحكومة فيها إلى الحكام "لتأكلوا" بالتحاكم "فريقاً" طائفة "من أموال الناس بالإثم" بشهادة الزور، أو باليمين الكاذبة، أو بالصلح، مع العلم بأن المقضي له ظالم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للخصمين: "إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئاً، فإنما أقضي له قطعة من نار" فبكيا وقال كل واحد منهما: حقى لصاحبي. فقال: "اذهبا فتوخيا، ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه" وقيل: "وتدلوا بها" وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة. وتدلوا: مجزوم داخل في حكم النهي، أو منصوب بإضمار أن، كقوله: "وتكتموا الحق" البقرة: 42. "وأنتم تعلمون" أنكم على الباطل، وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح، وصاحبه أحق بالتوبيخ.

"يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون" وروي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلى ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة؟ فترلت. "مواقيت" معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وفطرمهم وعدد نسائهم وأيام حيضهن ومدد حملهن وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته. كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً يصعد فيه؛ وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فقبل لهم: "وليس البر" بتخرجكم من دخول الباب "ولكن البر" بر "من اتقى" ما حرم الله. فإن قلت: ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نقصانها - وتامها معلوم -: أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً. ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم في الحج. ويحتمل أن يكون هذا تمثيلاً لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثله من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله. ثم قال: "وأتوا البيوت من أبوابها" أي وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا

تعكسوا. والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسأل عنه؛ لما في السؤال من الاتهام بمقارفة الشك "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون" الأنبياء: 21.

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوه حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين، فإن انتهوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةً ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"

المقاتلة في سبيل الله: هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين "الذين يقاتلونكم" الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين. وعلى هذا يكون منسوخاً بقوله: "وقاتلوا المشركين كافة" التوبة: 36. وعن الربيع بن أنس رضي الله عنه: هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة فكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقاتل من قاتل ويكف عمن كف. أو الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصب من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء. أو الكفرة كلهم لأنهم جميعاً مضادون للمسلمين قاصدون لمقاتلتهم، فهم في حكم المقاتلة، قاتلوا أو لم يقاتلوا. وقيل: لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى آله وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فرجع لعمره القضاء، خاف المسلمون أن لا يفي لهم قريش ويصدوهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام وكرهوا ذلك نزل وأطلق لهم قتال الذين يقاتلوهم منهم في الحرم والشهر الحرام، ورفع عنهم الجناح في ذلك "ولا تعتدوا" بابتداء القتال أو بقتال من هتيم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان والذين بينكم وبينهم عهد أو بالمثل أو بالمفاجأة من غير دعوة "حيث ثقفتموهم" حيث وجدتموهم في حل أو حرم. والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة. ومنه: رجل ثقف، سريع الأخذ لأقرانه. قال:

فإما تتقفوني فاقتلوني فمن أثقف فليس إلى خلود

"من حيث أخرجوكم" أي من مكة وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن لم يسلم منهم يوم الفتح "والفتنة أشد من القتل" أي الحنة والبلاء الذي يترل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل. وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتنة والحنن التي يتمنى عندها الموت. ومنه قول القائل:

لقتلٌ بحد السيف أهون موقعاً على النفس من قتلٍ بحد فراق

وقيل: "الفتنة" عذاب الآخرة "ذوقوا فتنتكم" الذاريات: 13، وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقليل: والشرك الذي هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه. ويجوز أن يراد: وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم. وقرئ: ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم: جعل وقوع القتل في بعضهم كوقوعه فيهم. يقال: قتلنا بنو فلان. وقال: فإن تقتلونا نقتلكم "فإن انتهوا" عن الشرك والقتال، كقوله: "إن ينتهوا يغفر لهم

ما قد سلف "الأنفال: 38، "حتى لا تكون فتنة" أي شرك "ويكون الدين لله" خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب "فإن انتهوا" عن الشرك "فلا عدوان إلا على الظالمين" فلا تعدوا على المنتهين لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم، فوعض قوله: "إلا على الظالمين" موضع على المنتهين. أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين، سمي جزاء الظالمين ظلماً للمشاكلة، كقوله تعالى: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه" أو أريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

"الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص" فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين" قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام وهو ذو القعدة، فقبل لهم عند خروجهم لعمره القضاء وكرهتهم القتال وذلك في ذي القعدة: "الشهر الحرام بالشهر الحرام" أي هذا الشهر بذلك الشهر وهتكه بهتكه، يعني هتكوا حرمة عليهم كما هتكوا حرمة عليكم "والحرمات قصاص" أي وكل حرمة يجري فيها القصاص من هتك أي حرمة كانت، اقتص منه بأن هتك له حرمة، فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا، وأكد ذلك بقوله "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله" في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم.

"وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة إن الله يحب المحسنين" الباء في "بأيديكم" مزيدة مثلها في أعطى بيده للمنفاد. والمعنى: ولا تقبضوا التهلكة بأيديكم، أي لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالكة لكم. وقيل: بأيديكم بأنفسكم. وقيل تقديره: ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده، إذا تسبب لهلاكها. والمعنى: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك، أو عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله. أو عن الاستقتال والإخطار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو. وروي: أن رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما أنزلت فينا، صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه. وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه على أهاليها وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها، رجعنا إلى أهاليها وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها. فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. وحكى أبو علي في الحلييات عن أبي عبيدة، التهلكة والهلاك والحد. قال: فدل هذا من قول أبي عبيدة على أن التهلكة مصدر. ومثله ما حكاه سيويه من قولهم التضرة والتسرة ونحوها في الأعيان: التنصبة والتنفلة. ويجوز أن يقال: أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة ونحوهما، على أنها مصدر من هلك فأبدلت من الكسرة ضمة، كما جاء الجوار في الجوار.

"وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب" "وأتموا الحج والعمرة لله" اتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توان ولا نقصان يقع منكم فيهما. قال:

تمام الحج أن تقف المطايا

على خرقاء واضعة اللثام

جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يتم إلا به. وقيل: إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك، روي ذلك عن علي وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وقيل: أن تفرد لكل واحد منهما سفراً كما قال محمد: حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل. وقيل: أن تكون النفقة حلالاً. وقيل: أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية. فإن قلت: هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ قلت: ما هو إلا أمر بإتمامهما، ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين أو تطوعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً إلا أن تقول: الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما، بدليل قراءة من قرأ وأقيموا الحج والعمرة والأمر للوجوب في أصله، إلا أن يدل دليل على خلاف الوجوب كما دل في قوله "فاصطادوا" المائدة: 2، "فانتشروا" الأحزاب: 53، ونحو ذلك، فيقال لك: فقد دل الدليل على نفي الوجوب، وهو ما روي: أنه قيل: يا رسول الله: العمرة واجبة مثل الحج؟ قال: "لا، ولكن أن تعتمر خير لك" وعنه: "الحج جهاد والعمرة تطوع". فإن قلت: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن العمرة لقرينة الحج. وعن عمر رضي الله عنه:

أن رجلاً قال له: إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين علي، أهلت بهما جميعاً فقال: "هديت لسنة نبيك". وقد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام فكانت واجبة مثل الحج؟ قلت: كونها قرينة للحج أن القارن يقرن بينهما، وأنها يقتربان في الذكر فيقال: حج فلان واعتمر والحجاج والعمار، ولأنها الحج الأصغر، ولا دليل في ذلك على كونها قرينة له في الوجوب. وأما حديث عمر رضي الله عنه فقد فسر الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله: أهلت بهما، وإذا أهل بالعمرة وجبت عليه كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة. والدليل الذي ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقي الحج وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان وستة من شوال، في أنك تأمره بفرض وتطوع. وقرأ علي وابن مسعود والشعبي رضي الله عنهم والعمرة لله بالرفع، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب "فإن أحصرتم" يقال: أحصر فلان، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز. قال الله تعالى: "الذين أحصروا في سبيل الله" البقرة: 273. وقال ابن ميادة:

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت

عليك ولا أن أحصرتك شغول

وحصر: إذا حبسه عدو عن المضي، أو سجن. ومنه قيل للمحبس: الحصر. وللملك، الحصر، لأنه محجوب. هذا هو الأكثر في كلامهم، وهما بمعنى المنع في كل شيء، مثل صده وأصده. وكذلك قال الفراء وأبو عمرو الشيباني، وعليه قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى، كل منع عنده من عدو كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم الإحصار. وعند مالك والشافعي منع العدو وحده. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل". "فما استيسر من الهدى" فما تيسر منه. يقال: يسر الأمر واستيسر، كما يقال: صعب واستصعب. والهدى جمع هدية، كما يقال في جدية السرج جدي، وقرئ: من الهدى بالتشديد جمع هدية كمطية ومطي. يعني فإن منعتم من المضي إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة، فإن قلت: أين ومتى ينحر هدي الحصر؟ قلت: "إن كان حاجاً فبالحرم متى شاء عند

أبي حنيفة يبعث به، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار وعندهما في أيام النحر وإن كان معتمراً فبالحرم في كل وقت عندهم جميعاً. وما استيسر رفع بالابتداء، أي فعلية ما استيسر. أو نصب على: فاهدوا ما استيسر "ولا تخلقوا رؤوسكم" الخطاب للمحصرين: أي لا تخلوا حتى تعلموا أن الهدى الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ "حله" أي مكانه الذي يجب نحره فيه. ومحل الدين وقت وجوب قضائه، وهو ظاهر على مذهب أبي حنيفة رحمه الله. فإن قلت: إن النبي صلى الله عليه وسلم نحر هديه حيث أحصر؟ قلت: كان محصره طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة وهو من الحرم، وعن الزهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه في الحرم. وقال الواقي: الحديبية هي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة "فمن كان منكم مريضاً" فمن كان به مرض يحوجه إلى الحلق "أو به أذى من رأسه" وهو القمل أو الجراحة، فعلية إذا احتلق فدية "من صيام" ثلاثة أيام "أو صدقة" على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من بر "أو نسك" وهو شاة. وعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "لعلك أذاك هوامك؟" قال: نعم يا رسول الله. قال: "احلق رأسك وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك شاة" وكان كعب يقول: في نزلت هذه الآية، وروي:

أنه مر به وقد قرح رأسه فقال: "كفى بهذا أذى" وأمره أن يحلق ويطعم، أو يصوم. والنسك مصدر، وقيل: جمع نسيكة. وقرأ الحسن: أو نسك، بالتخفيف "إذا أنتم" الإحصار، يعني فإذا لم تحصروا وكنتم في أمن وسعة "فمن تمتع" أي استمتع "بالعمرة إلى الحج" واستمتع بالعمرة إلى وقت الحج: انتفاعه بالتقرب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقريبه بالحج. وقيل: إذا حل من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرماً عليه إلى أن يحرم بالحج "فما استيسر من الهدى" هو، هدي المتعة، وهو نسك عند أبي حنيفة ويأكل منه. وعند الشافعي: يجري مجرى الجنائيات ولا يأكل منه، ويذبحه يوم النحر عندنا. وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته "فمن لم يجد" الهدى "ف" عليه "صيام ثلاثة أيام في الحج" أي في وقته وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله. والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوماً قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم. وعند الشافعي: لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج تمسكاً بظاهر قوله: "في الحج وسبعة إذا رجعت" بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: هو الرجوع إلى أهاليهم. وقرأ ابن أبي عتبة وسبعة بالنصب عطفاً على محل ثلاثة أيام، وكأنه قيل: فصيام ثلاثة أيام، كقوله: "أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً" البلد: 15، فإن قلت: فما فائدة الفذلكة؟ قلت: الواو قد تحي للإباحة في نحو قولك: جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسهما جميعاً أو واحداً منهما كان ممثلاً ففذلكت نفياً لتوهم الإباحة، وأيضاً ففائدة الفذلكة في كل حساب أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً ليحاط به من جهتين، فيتأكد العلم. وفي أمثال العرب: علما خير من علم، وكذلك "كاملة" تأكيد آخر. وفيه زيادة توصية بصيامها وأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها، كما تقول للرجل إذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمثل: الله الله لا تقصر. وقيل: كاملة في وقوعها بدلاً من الهدى. وفي قراءة أبي: فصيام ثلاثة أيام متتابعات "ذلك" إشارة إلى التمتع، عند أبي حنيفة وأصحابه. لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم، ومن تمتع منهم أو قرن كان عليه دم وهو دم جنابة لا يأكل منه؛ وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق فدمهما دم نسك يأكلان منه. وعند الشافعي: إشارة إلى الحكم الذي هو وجوب الهدى أو الصيام ولم يوجب عليهم

شيئاً. وحاضرو المسجد الحرام: أهل المواقيت فمن دونهما إلى مكة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي: أهل الحرم ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة "واتقوا الله" في المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره "واعلموا أن الله شديد العقاب" لمن خالف ليكون علمكم بشدة عقابه لطفاً لكم في التقوى. "الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب"

أي وقت الحج "أشهر" كقولك: البرد شهران. والأشهر المعلومات: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة عند أبي حنيفة. وعند الشافعي: تسع ذي الحجة وليلة يوم النحر. وعند مالك: ذي الحجة كله. فإن قلت: ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر؟ قلت: فائدته أن شيئاً من أفعال الحج لا يصح إلا فيها، والإحرام بالحج لا ينعقد أيضاً عند الشافعي في غيرها. وعند أبي حنيفة ينعقد إلا أنه مكروه. فإن قلت: فكيف كان الشهران وبعض الثالث أشهر؟ قلت: اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد. بدليل قوله تعالى: "فقد صغت قلوبكما" التحريم: 4، فلا سؤال فيه إذن، وإنما كان يكون موضعاً للسؤال لو قيل: ثلاثة أشهر معلومات. وقيل: نزل بعض الشهر منزلة كله، كما يقال: رأيتك سنة كذا، أو على عهد فلان، ولعل العهد عشرون سنة أو أكثر، وإنما رآه في ساعة منها. فإن قلت: ما وجه مذهب مالك وهو مروي عن عروة بن الزبير؟ قلت: قالوا إن العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر؛ فكأنها مخرجة للحج لا مجال فيها للعمرة. وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يخفف الناس بالدرة وينهاهم عن الاعتمار فيهن. وعن عمر رضي الله عنه قال لرجل: إن أطعني انتظرت حتى إذا أهملت الحرم خرجت إلى ذات عرق فأهللت منها بعمرة. وقالوا: لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر "معلومات" معروفة عند الناس لا يشككن عليهم. وفيه أن الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه، وإنما جاء مقررأ له "فمن فرض فيهن الحج" فمن ألزم نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه عند أبي حنيفة وعند الشافعي بالنية "فلا رفث" فلا جماع؛ لأنه يفسده. أو فلا فحش من الكلام "ولا فسوق" ولا خروج عن حدود الشريعة وقيل: هو السباب والتنازع بالألقاب "ولا جدال" ولا مرأ مع الرفقاء والخدم والمكارين: وإنما أمر باجتناب ذلك. وهو واجب الاجتناب في كل حال لأنه مع الحج أسمع كلبس الحرير في الصلاة؛ والتطريب في قراءة القرآن. والمراد بالنفي وجوب انتفائها، وأنها حقيقة بأن لا تكون. وقرئ المنفيات الثلاثة بالنصب وبالرفع. وقرأ أبو عمرو وابن كثير الأولين بالرفع؛ والآخر بالنصب: لأهما حملاً الأولين على معنى النهي، كأنه قيل: فلا يكون رفث، ولا فسوق، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل: ولا شك ولا خلاف في الحج، وذلك أن قریشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام، وسائر العرب يقفون بعرفة؛ وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسيء، فرد إلى وقت واحد ورد الوقوف إلى عرفة، فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحج. واستدل على أن النهي عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله صلى الله عليه وسلم: "من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئته يوم ولدته أمه" وأنه لم يذكر الجدال "وما تفعلوا من خير يعلمه الله" حث على الخير عقيب النهي عن الشر؛ وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى؛ ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة. أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه، وينصره قوله تعالى: "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى" أي اجعلوا زادكم إلى الآرة اتقاء

القبائح فإن خير الزاد اتقاؤها. وقيل: كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا فيكونون كالأعلى الناس، فزلت فيهم. ومعناه: وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقل عليهم، فإن خير الزاد التقوى "واتقون" وخافوا عقابي "يا أولي الألباب" يعني أن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباب فكأنه لا لب له.

"ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ، فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك هم نصيبٌ مما كسبوا والله سريع الحساب"

"فضلاً من ربكم" عطاء منه وتفضيلاً، وهو النفع والربح بالتجارة. وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، ويسمون من يخرج بالتجارة الداج. ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج. وقيل: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم. وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا، فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة، وعن ابن عمر رضي الله عنه: أن رجلاً قال له: إنا قوم نكري في هذا الوجه وإن قوماً يزعمون أن لا حج لنا، فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عما سألت فلم يرد عليه، حتى نزل "ليس عليكم جناح" فدعا به فقال: أنتم حجاج. وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معاشنا إلا من التجارة في الحج. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: فضلاً من ربكم في مواسم الحج. أن تبتغوا في أن تبتغوا "أفضتكم" دفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة، وأصله أفضتكم أنفسكم، فترك ذكر المفعول كما ترك في دفعوا من موضع كذا وصبوا. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: صب في دقران وهو يجرش بعيره بمحجنه ويقال: أفاضوا في الحديث وهضبوا فيه. و"عرفات" علم للموقف سمي بجمع كأذرعات. فإن قلت: هلا منعت الصرف وفيها السببان: التعريف والتأنيث؟ قلت: لا يخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التي في لفظها، وإما بناء مقدرة كما في سعاد؛ فالتاء في لفظها ليست للتأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث ولا يصح تقدير التاء فيها، لأن هذه التاء لا اختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت لأن التاء لا اختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت لأن التاء التي هي بدل من الواو لا اختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها. وقالوا: سمي بذلك لأنها وصفت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصرها عرفها. وقيل: إن جبريل حين كان يدور به في المشاعر أراه إياها فقال: قد عرفت. وقيل: التقى فيها آدم وحواء فتعارفا. وقيل: لأن الناس يتعارفون فيها والله أعلم بحقيقة ذلك، وهي من الأسماء المرتجلة لأن العرفة لا تعرف في أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف. وقيل: فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج" فاذكروا الله بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات. وقيل: بصلاة المغرب والعشاء. و"المشعر الحرام" قرح، وهو الجبل الذي يقف

عليه الإمام وعليه الميقددة. وقيل: المشعر الحرام: ما بين جبل المزدلفة من مأزمي عرفة إلى وادي محسر، وليس المأزمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام. والصحيح أنه الجبل، لما روى جابر رضي الله عنه:

أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى الفجر يعني بالمزدلفة بغلس، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر. وقوله تعالى: "عند المشعر الحرام" معناه مما يلي المشعر الحرام قريباً منه، وذلك للفضل، كالتقرب من جبل الرحمة، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر. أو جعلت أعقاب المزدلفة لكونها في حكم المشعر ومتصلة به عند المشعر. والمشعر: المعلم، لأنه معلم العبادة. ووصف بالحرم حرمة. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه نظر إلى الناس ليلة جمع فقال: لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون. وقيل: سميت المزدلفة جمعاً: لأن آدم صلوات الله عليه اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي دنا منها. وعن قتادة: لأنه يجمع فيها بين الصلاتين. ويجوز أن يقال: وصفت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون إلى الله أي يتقربون بالوقوف فيها "كما هداكم" ما مصدرية أو كافة. والمعنى: واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، لا تعدلوا عنه "وإن كنتم من قبله" من قبل الهدى "المن الضالين" الجاهلين، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبده. وإن هي مخففة من الثقلة واللام هي الفارقة "ثم أفيضوا" ثم لتكن إفاضتكم "من حيث أفاض الناس" ولا تكن من المزدلفة. وذلك لما كان عليه الخمس من الترفع على الناس والتعالي عليهم وتعظيمهم عن أن يساووهم في الموقف. وقولهم: نحن أهل الله وقطان حرمة فلا تخرج منه، فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات؟ فإن قلت: فكيف موقع ثم؟ قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره وبعد ما بينهما؛ فكذا ذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال: ثم أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضتين، وأن إحداها صواب والثانية خطأ. وقيل: ثم أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضتين، وأن إحداها صواب والثانية خطأ. وقيل: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس وهم الخمس، أي من المزدلفة إلى متى بعد الإفاضة من عرفات. وقرئ: من حيث أفاض الناس. بكسر السين. أي الناسي وهو آدم، من قوله: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فسي" طه: 115، يعني أن الإفاضة من عرفات شرع قديم فلا تخالفوا عنه "واستغفروا الله" من مخالفتكم في الموقف ونحو ذلك من جاهليتهم "فإذا قضيت مناسككم" أي فغدا فرغتم من عبادتكم الحجية ونفرتم "فاذكروا الله كذكركم آباءكم" فأكثروا ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون في ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم. وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل، فيعددون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم. "أو أشد ذكراً" في موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر في قوله "كذكركم" كما تقول كذكر قريش آباءهم، أو قوم أشد منهم ذكراً. أو في موضع نصب عطف على آباءكم، بمعنى أو أشد ذكراً من آبائكم، على أن ذكراً من فعل المذكور "فمن الناس من يقول" معناه أكثروا ذكر الله ودعاه فإن الناس من بين مقل لا يطل بذكر الله إلا أعراض الدنيا، ومكثر يطلب خير الدارين، فكونوا من المكثرين "آتنا في الدنيا" اجعل إيتاءنا أي إعطاءنا في الدنيا خاصة "وما له في الآخرة من خلاق" أي من طلب خلاقي وهو النصيب. أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب، لأن همه مقصور على الدنيا.

والحسنتان ما هو طلبية الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير، وطلبتهم في الآخرة من الثواب. وعن علي رضي الله عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء. وعذاب النار: امرأة السوء. "أولئك" الداعون بالحسنتين "لهم نصيبٌ مما كسبوا" أي نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. أو من أجل ما كسبوا، كقوله: "مما خطيئناهم أغرقوا" نوح: 25. أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيتهم منه ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة. وسمى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب: بما كسبت أيديكم. ويجوز أن يكون أولئك للفريقين جميعاً، وأن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا "والله سريع الحساب" يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر منه. روي: أنه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة. وروي في مقدار فواق ناقة. وروي في مقدار لحة. "واذكروا الله في أيام معدوداتٍ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون" الأيام المعدودات، أيام التشريق، وذكر الله فيها: التكبير في أدبار الصلوات وعند الجمار. وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يكبر في فسطاطه بمنى فيكبر من حوله، حتى يكبر الناس في الطريق وفي الطواف "فمن تعجل" فمن عجل في النفر أو استعجل النفر. وتعجل، واستعجل: يحيثان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجل في الأمر واستعجل: ومتعدين، يقال: تعجل الذهاب واستعجله. والمطاوعة أوفق لقوله: "ومن تأخر" كما هي كذلك في قوله:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

لأجل المتأني "في يومين" بعد يوم النحر وهو اليوم الذي يسميه أهل مكة يوم الرؤوس، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم وهو مذهب الشافعي ويروي عن قتادة. وعند أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر "ومن تأخر" حتى رمى في اليوم الثالث. والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة. وعند الشافعي لا يجوز. فإن قلت: كيف قال: "فلا إثم عليه" عند التعجل والتأخر جميعاً؟ قلت: دلالة على أن التعجل والتأخر مخير فيهما، كأنه قيل: فتعجلوا أو تأخروا. فإن قلت: أليس التأخر بأفضل؟ قلت: بلى، ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل كما خير المسافر بين الصوم والإفطار وإن كان الصوم أفضل وقيل: إن أهل الجاهلية كانوا فريقين: منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً فورد القرآن بنفي المآثم عنهما جميعاً "لمن اتقى" أي ذلك التخيير، ونفي الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي، لنلا يتخالج في قلبه شيء منهما فيحسب أن أحدهما يرهق صاحبه آثام في الإقدام عليه، لأن ذا التقوى حذر متحيز من كل ما يريبه، ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند الله. ثم قال: "واتقوا الله" ليعلم بكم. ويجوز أن يراد ذلك الذي مر ذكره من أحكام الحج وغيره لمن اتقى، لأنه هو المنتفع به دون من سواه، كقوله: "ذلك خير للذين يريدون وجه الله" الروم: 38. "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهادر"

"من يعجبك قوله" أي يروقك ويعظم في قلبك. ومنه: الشيء العجيب الذي يعظم في النفس. وهو الأخنس بن شريق كان رجلاً حلو المنطق، إذا لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم وقال: يعلم الله أنني صادق. وقيل: هو عام في المنافقين، كانت تحلو لي ألسنتهم، وقلوبهم أمر من الصبر، فإن قلت: بم يتعلق قوله: "في الحياة الدنيا"؟ قلت: بالقول، أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا؛ لأن ادعاءه الحجة بالباطل يطلب به خطأ من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة. ويجوز أن يتعلق بـ"يعجبك"، أي قوله حلو فصيح في الدنيا فهو يعجبك، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه "ويشهد الله على ما في قلبه" أي يحلف ويقول: الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام. وقرئ: ويشهد الله. وفي مصحف أبي: ويستشهد الله: "وهو ألد الخصام" وهو شديد الجدل والعداوة للمسلمين. وقيل: كان بينه وبين ثقيف خصومة فيبتهم ليلاً وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم. والخصام: المخاصمة. وإضافة الألد بمعنى في، كقولهم: ثبت الغدر. أو جعل الخصام ألد على المبالغة. وقيل الخصام: جمع خصم، كصعب وصعاب، بمعنى وهو أشد الخصوم خصومة "وإذا تولى" عنك وذهب بعد إلانة القول وإحلاء المنطق "سعى في الأرض ليفسد فيها" كما فعل بثقيف. وقيل: "وإذا تولى" وإذا كان والياً فعل ما يفعل ولاه السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمة القطر فيهلك الحرث والنسل. وقرئ: ويهلك الحرث والنسل، على أن الفعل للحرث والنسل، والرفع للعطف على سعى. وقرأ الحسن بفتح اللام، وهي لغة. نحو: أبي يأي. وروى عنه: ويهلك، على البناء للمفعول "أخذته العزة بالإثم" من قولك: أخذته بكذا، إذا حملته عليه وألزمته إياه، أي حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه، وألزمته ارتكابه، وأن لا يخلي عنه ضراراً ولجاً. أو على رد قول الواعظ.

"ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوفٌ بالعباد" يشري نفسه "بيعها أي يبذلها في الجهاد. وقيل: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل، وقيل: نزلت في صهيب بن سنان أرادته المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفرًا كانوا معه، فقال لهم: أنا شيخ كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم، فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي. فقبلوا منه ماله وأتى المدينة. "والله رؤوفٌ بالعباد" حيث كلفهم الجهاد فعرضهم لثواب الشهداء.

"يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبينٌ، فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن اله عزيرٌ حكيمٌ" "السلم" بكسر السين وفتحها. وقرأ الأعمش بفتح السين واللام، وهو: الاستسلام والطاعة، أي استسلموا لله وأطيعوه "كافةً" لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته. وقيل: هو الإسلام. والخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم. ويجوز أن يكون كافةً حالاً من السلم، لأنها تؤنث كما تؤنث الحرب. قال:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها. وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة. أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها، وأن لا يخلوا بشيء منها. وعن عبد الله بن سلام.

أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيم على السبت وأن يقرأ من التوراة فيصلاته من الليل و"كافة" من الكف، كأفهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم "فإن زلتم" عن الدخول في السلم "من بعد ما جاءكم البيئات" أي الحجج والشواهد على أن ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق "فاعلموا أن الله عزيز" غالب لا يعجزه الانتقام منكم "حكيم" لا ينتقم إلا بحق. وروي أن قارئاً قرأ غفور رحيم، فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزل، لأنه إغراء عليه. وقرأ أبو السمال: زلتم بكسر اللام وهما لغتان، نحو: ظللت وظللت.

"هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور"

إتيان الله إتيان أمره وبأسه كقوله: "أو يأتي أمر ربك" النحل: 33، "فجاءهم بأسنا" الأنعام: 43، ويجوز أن يكون المأتي به محذوفاً، بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله: "إن الله عزيز" "في ظلل" جمع ظلة وهي ما أظلك. وقرئ: ظلال وهي جمع ظلة، كقوله وقلال أو جمع ظل. وقرئ والملائكة بالرفع كقوله: "هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة" الأنعام: 158، وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام. فإن قلت: لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظة لحيثها من حيث يتوقع الغيث. ومن ثمة اشتد على المتفكرين في كتاب الله قوله تعالى: "وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون" الزمر: 47. "وقضي الأمر" وأتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه. وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: وقضاء الأمر، على المصدر المرفوع عطفاً على الملائكة. وقرئ: ترجع، وترجع، على البناء للفاعل والمفعول بالتأنيث والتذكير فيهما.

"سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب" "سل" أمر للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد، وهذا السؤال سؤال تقرير كما تسأل الكفرة يوم القيامة "كم آتيناهم من آية بينة" على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم، أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام، و"نعمة الله" آياته، وهي أجل نعمة من الله، لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة. وتبديلهم إياها: أن الله أظهرها لتكون أسباب هدايتهم، فجعلوها أسباب ضلالتهم، كقوله: "فزدقم رجساً إلى رجسهم" التوبة: 125، أو حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: كم استفهامية أم خبرية؟ قلت: تحتل الأمرين. ومعنى الاستفهام فيها للتقرير. فإن قلت: ما معنى "من بعد ما جاءته". قلت: معناه من بعد ما تمكن من معرفتها أو عرفها، كقوله: "ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه" البقرة: 75، لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها أو لم يعرفها، فكأنها غائبة عنه: وقرئ "ومن يبدل" بالتخفيف.

"زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير

حساب" المزين هو الشيطان، زين لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها إليهم فلا يريدون غيرها. ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسوها وأحبوها، أو جعل إمهال المزين له تزيينا، ويدل عليه قراءة من قرأ: زين للذين كفروا الحياة الدنيا على البناء للفاعل "ويسخرون من الذين آمنوا" كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لا حظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم، أي لا يريدون غيرها. وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها، أو ممن يطلب غيرها "والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة" لأنهم في عليين من السماء، وهم في سجين من الأرض، أو حالهم عالية لحالهم؛ لأنهم في كرامة وهم في هوان. أو هم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم كما يتطاول هؤلاء عليهم في الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم، "فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون" المطففين: 34. "والله يرزق من يشاء بغير حساب" بغير تقدير، يعني أنه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه كما وسع على قارون وغيره، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة وهي استدراجكم بالنعمة. ولو كانت كرامة لكان أولياؤه المؤمنو أحق بها منكم. فإن قلت: لم قال: "من الذين آمنوا" ثم قال: "والذين اتقوا"؟ قلت: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقي، وليكون بعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك.

"كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"

"كان الناس أمة واحدة" متفقين على دين الإسلام "فبعث الله النبيين" يريد: فاختلّفوا فبعث الله. وإنما حذف لدلالة قوله: "ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه" عليه. وفي قراءة عبد الله: كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله. والدليل عليه قوله عز وعلا "وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا" يونس: 19، وقيل: كان الناس أمة واحدة كفاراً، فبعث الله النبيين، فاختلّفوا عليهم. والأول الوجه. فإن قلت: متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق فاختلّفوا. وقيل: هم نوح ومن كان معه في السفينة "وأنزل معهم الكتاب" يريد الجنس، أو مع كل واحد منهم كتابه "ليحكم" الله، أو الكتاب، أو النبي المنزل عليه "فيما اختلفوا فيه" في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق "وما اختلف فيه" في الحق "إلا الذين أوتوه" إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف، أي ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب، وجعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الاختلاف واستحكامه "بغياً بينهم" حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم. "من الحق" بيان لما اختلفوا فيه، أي فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف.

"أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب" "أم" منقطعة، ومعنى الهمزة فيها للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده. ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات - تشجيعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له - قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: "أم حسبتم". "ولما" فيها معنى التوقع، وهي في

النفي نظيرة قد في الإثبات. والمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر "مثل الذين خلوا" حالهم التي هي مثل في الشدة. و "مستهم" بيان للمثل وهو استئناف، كأن قاتلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: مستهم البأساء "وزلزلوا" وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفراع "حتى يقول الرسول" إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها "متى نصر الله" أي بلغ بهم الصخر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك. ومعناه طلب الصبر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة. وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم، لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطباهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها "ألا إن نصر الله قريب" على إرادة القول، يعني فقيل لهم ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر. وقرئ: "حتى يقول" بالنصب على إضمار أن ومعنى الاستقبال؛ لأن أن علم له. وبالرفع على أنه في معنى الحال، كقولك: شربت الإبل حتى يجيء البعير يجرب بطنه. إلا أنها حال ماضية محكية.

"يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خيرٍ فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خيرٍ فإن الله به عليم" فإن قلت: كيف طابق الجواب السؤال في قوله: "قل ما أنفقتم" وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصروف؟ قلت: قد تضمن قوله "ما أنفقتم من خير" بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصروف؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعةً حتى يصاب بها طريق المصنع

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هم وله مال عظيم فقال: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فترلت. وعن السدي: هي منسوخة بفرض الزكاة. وعن الحسن: هي في التطوع.

"كتب عليكم القتال وهو كرة لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون" وهو كرة لكم من الكراهة بدليل قوله: "وعسى أن تكرهوا شيئاً" ثم إما أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغة، كقولها:

فإنما هي إقبال وإدبار

كأنه في نفسه لفرط كراهتهم له. وإما أن يكون فعلاً بمعنى مفعول كالحيز بمعنى المخبوز، أي وهو مكروه لكم. وقرأ السلمي - بالفتح - على أن يكون بمعنى المضموم، كالضعف والضعف، ويجوز أن يكون بمعنى الإكراه على طريق انجاز، كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم. ومنه قوله تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئاً" جميع ما كلفوه، فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه وتحب خلافه "والله يعلم" ما يصلحكم وما هو خير لكم "وأنتم لا تعلمون" ذلك.

"يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافرٌ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون،

إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفورٌ رحيمٌ" بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش على سرية في جهادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصدها لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جهادى الآخرة، فقالت قریش: قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ويذعر فيه الناس إلى معيهم فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير، وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسارى. وعن ابن عباس رضي الله عنه: لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة. والمعنى: يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام. و"قتال فيه" بدل الاشتغال من الشهر. وفي قراءة عبد الله: عن قتال فيه، على تكرير العامل، كقوله: "للذين استضعفوا لمن آمن منهم" الأعراف: 75، وقرأ عكرمة: قتل فيه قل قتل فيه كبير، أي إثم كبير. وعن عطاء: أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام؟ فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت. وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله: "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" التوبة: 5. "وصد عن سبيل الله" مبتدأ وأكبر خبره، يعني وكبائر قریش من صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وكفرهم بالله وإخراج أهل المسجد الحرام وهم رسول الله والمؤمنون "أكبر عند الله" مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ والبناء على الظن "والفتنة" الإخراج أو الشرك. والمسجد الحرام: عطف على سبيل الله، ولا يجوز أن يعطف على المهاء في "به". "ولا يزالون يقاتلونكم" إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى معناها التعليل كقولك: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي يقاتلونكم كي يردوكم. و"إن استطاعوا" استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بي فلا تبقي علي. وهو واثق بأنه لا يظفر به "ومن يرتدد منكم" ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطاوعهم على ردة إليه "فيمت" على الردة "أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة" لما يفوقهم بإحداث الردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وباستدامتها والموت عليها من ثواب الآخرة. وبها احتج الشافعي على أن الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت عليها. وعند أبي حنيفة أنها تحبطها وإن رجع مسلماً. "إن الذين آمنوا والذين هاجروا" روي أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي، ظن قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر، فزلت "أولئك يرجون رحمة الله" وعن قتادة: هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون. وإنه من رجا طلب، ومن خاف هرب.

"يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون، في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيزٌ حكيمٌ" نزلت في الخمر أربع آيات نزلت بمكة "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً" النحل: 67، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا؛ يا رسول الله، أفننا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فزلت: "فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس" فشرها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن

بن عوف ناساً منهم فشرّبوا وسكروا فأمر بعضهم فقراً: قل ي أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فترلت: "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى" النساء: 43، فقل من يشربها. ثم دعا عتيان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا وافتخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار فضربه أنصاري بلحى بعير فشجّه موضحة، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فترلت "إنما الخمر والميسر" إلى قوله: "فهل أنتم منتهون" البقرة: 219، فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وعن علي رضي الله عنه: لو وقعت قطرة في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلال لم أرعه. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: لو أدخلت أصبعي فيه لم تتبعني. وهذا هو الإيمان حقاً، وهم الذين اتقوا الله حق تقاته. والخمر: ما غلا واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب، وهو حرام، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم غلا واشتد ذهب خبثه ونصيب الشيطان، وحل شربه ما دون السكر إذا لم يقصد بشربه اللهو والطرب عند أبي حنيفة. وعن بعض أصحابه: لأن أقول مراراً هو حلال، أحب إلي من أن أقول مرة هو حرام، ولأن آخر من السماء فأتقطع قطعاً أحب إلي من أن أتناول منه قطرة. وعند أكثر الفقهاء هو حرام كالخمر، وكذلك كل ما أسكر من كل شراب. وسميت خمرًا لتغطيتها العقل والتمييز كما سميت سكرًا لأنها تسكرهما، أي تحجزهما، وكأنها سميت بالمصدر من خمره خمرًا إذا ستره للمبالغة. والميسر: القمار، مصدر من يسر، كالموعد والمرجع من فعلهما. يقال: يسرته، إذا قمرته، واشتقاقه من اليسر، لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب، أو من اليسار. لأنه سلب يساره. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله قال:

أقول لهم بالنشعل إذ ييسرونني

أي يفعلون بي ما يفعل الياسرون بالميسور. فإن قلت: كيف صفة الميسر؟ قلت: كانت لهم عشرة أقداح، وهي: الأزلام والأقلام، والفد، والتوأم، والرقيب، والجلس، والنفاس، والمسبل، والمعلّى والمنيح والسفيح، والوغد. لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزونها عشرة أجزاء. وقيل: ثمانية وعشرين إلا لثلاثة، وهي المنيح والسفيح والوغد. وبعضهم:

ليس فيهن ربيع

وسفيح ومنيح

لي في الدنيا سهام

وأساميهن وغد

للفد سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللجلس أربعة، وللنفاس خمسة، وللمسبل ستة؛ وللمعلّى سبعة يجعلونها في الربابة وهي خريطة، ويضعونها على يدي عدل، ثم يجلسها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحاً منها. فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح. ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها. ويفتخرون بذلك ويدمون من لم يدخل فيه، ويسمون به البرم. وفي حكم الميسر: أنواع القمار، من الترد والشطرنج وغيرهما. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"إياكم وهاتين اللعبتين المشؤمتين فإنهما من ميسر العجم" وعن علي رضي الله عنه: أن النرد والشطرنج من الميسر. وعن ابن سيرين: كل شيء فيه خطر فهو من الميسر. والمعنى: يسألونك عما في تعاطيهما، بدليل قوله تعالى: "قل فيهما إثم كبير"، وإثمهما "وعقاب الإثم في تعاطيهما" أكبر من نفعهما" وهو الالتذاذ بشرب الخمر والقمار، والطرب فيهما، والتوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشرتهم، والنيل من مطاعمهم ومشاربهم وأعطياهم، وسلب الأموال بالقمار، والافتخار على الأبرام. وقرئ: إثم كبير - بالثاء - وفي قراءة أبي: وإثمهما أقرب. ومعنى الكثرة: أن أصحاب الشرب والقمار يقتربون فيهما الآثام من وجوه كثيرة "العفو" نقيض الجهد؛ وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع، قال:

خذي العفو مني تستديمي مودتي

ويقال للأرض السهلة: العفو. وقرئ بالرفع والنصب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم. أن رجلاً أتاه بيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاه من الجانب الأيمن فقال مثله فأعرض عنه، ثم أتاه من الجانب الأيسر فأعرض عنه؛ فقال: هاكما مغضباً، فأخذها فخذفه بها خذفاً لو أصابه لشجه أو عقره، ثم قال: "يجيء أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس! إنما الصدقة عن ظهر غنى". "في الدنيا والآخرة" إما أ، يتعلق بتفكروهم، فيكون المعنى: لعلمكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين؛ فتأخذون بما هو أصلح لكم؛ كما بينت لكم أن العفو أصلح من الجهد في النفقة، أو تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع. ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله: "وإثمهما أكبر من نفعهما" لتفكروا في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا. حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم. وإما أن يتعلق "يبين" على معنى: يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلمكم تتفكرون، لما نزلت "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً" النساء: 10، اعتزلوا اليتامى وتحاموهم وتركوا محالطتهم والقيام بأموالهم والاهتمام بمصالحهم، فشق ذلك عليهم وكاد يوقعهم في الحرج. فقل "إصلاح لهم خير" أي مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم "وإن تحالطوهم" وتعاشروهم ولم تجانبوهم "ف" هم "إخوانكم" في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه، وقد حملت المخالطة على المصاهرة "والله يعلم المفسد من المصلح" أي لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه ولا تتحروا غير الإصلاح "ولو شاء الله لأعنتكم" حملكم على العنت وهو المشقة وأخرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم. وقرأ طائوس: قل إصلاح إليهم. ومعناه إيصال الصلاح، وقرئ: لعنتكم، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على اللام، وكذلك "فلا إثم عليه" البقرة: 173. "إن الله عزيز" غالب يقدر على أن يعنت عباده ويخرجهم ولكنه "حكيم" لا يكلف إلا ما تتسع فيه طاقتهم. "ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجن والمغفرة بإذنه وبين آياته للناس لعلهم يتذكرون" "ولا تنكحوا" وقرئ بضم التاء، أي لا تزوجوهن أو لا تزوجوهن. و "المشركات" الحرييات، والآية ثابتة. وقيل: المشركات الحرييات والكتابات جميعاً، لأن أهل الكتاب من أهل الشرك، لقوله تعالى:

"وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله" إلى قوله تعالى: "سبحانه عما يشركون" التوبة: 31، وهي منسوخة بقوله تعالى: "والخصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم" المائدة: 5. وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء قط. وهو قول ابن عباس والأوزاعي وروى.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق، فأتته وقالت: ألا نخلو؟ فقال: ويحك! إن الإسلام قد حال بيننا. فقالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال: نعم، ولكن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمره، فاستأمره فزلت "ولأم مؤمنة خير" ولا مرأ مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، وكذلك "ولعبد مؤمن" لأن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه "ولو أعجبتكم" ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها، فإن المؤمنة خير منها مع ذلك "أولئك" إشارة إلى المشركات والمشركين، أي يدعون إلى الكفر فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال "والله يدعوا إلى الجنة" يعني وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة "والمغفرة" وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم، وأن يؤثروا على غيرهم "يأذنه" بتيسير الله وتوفيقه للعمل الذي تستحق به الجنة والمغفرة. وقرأ الحسن: والمغفرة يأذنه - بالرفع - أي والمغفرة حاصلة بتيسيره.

"ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين" "الحيض" مصدر. يقال: حاضت محيضاً، كقولك: جاء مجيئاً وبات مبيتاً "قل هو أذى" أي الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه نفرة منه وكراهة له "فاعتزلوا النساء" فاجتنبوهن؛ يعني فاجتنبوا مجامعتهم. روى: أن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يساكنوها في بيت كفعل اليهود والنجوس، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهن فأخرجوهن من بيوتهم، فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة، فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت؛ وإن استأثرنا بها هلك الحيض، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهم إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم، وقيل: إن النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض، واليهود كانوا يعتزلونهن في كل شيء، فأمر الله بالاعتزال بين الأمرين، وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فأبو حنيفة وأبو يوسف: يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها: أن عبد الله بن عمر سألهما: هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت: تشد إزارها على سفلتها، ثم ليباشرها إن شاء. وما روى زيد بن أسلم:

أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: "لتشد عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها"، ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة. وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضي الله عنها قالت: يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك وقرئ يطهرن بالتشديد، أي يتطهرن، بدليل قوله: "فإذا تطهرن" وقرأ عبد الله: حتى يتطهرن. ويطهرن بالتخفيف. والتطهر: الاغتسال. والطهر: انقطاع دم الحيض. وكلتا القراءتين مما يجب العمل به،

فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقر بها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، وفي أقل الحيض لا يقر بها حتى تغتسل أو يمضي عليها وقت صلاة. وذهب الشافعي إلى أنه لا يقر بها حتى تطهر وتطهر، فتجتمع بين الأمرين، وهو قول واضح. ويعضده قوله: "إذا تطهرن". "من حيث أمركم الله" من المأتي الذي أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل "إن الله يحب التوابين" مما عسى يندر منهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك "ويحب المتطهرين" المتزهرين عن الفواحش. أو إن الله يحب التوابين الذين يطهرون أنفسهم بطهارة التوبة من كل ذنب، ويحب المتطهرين من جميع الأقدار: كمجامعة الحائض والطاهر قبل الغسل، وإتيان ما ليس بمباح، وغير ذلك "حرث لكم" مواضع الحرث لكم. وهذا مجاز، شبهه بالخارث تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبدور. وقوله: "فأتوا حرثكم أنى شئتم" أي فأتوهن كما تأتون أرضكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم. لا تحظر عليكم جهة دون جهة، والمعنى: جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتي واحداً وهو موضع الحرث. وقوله: "هو أذى فاعتزلوا النساء"، "من حيث أمركم الله"، "فأتوا حرثكم أنى شئتم" من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكفلوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم. وروي: أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته وهي محببة من دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال كذبت اليهود ونزلت. "وقدموا لأنفسكم" ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف ما نهيتكم عنه. وقيل: هو طلب الولد، وقيل: التسمية على الوطء "واتقوا الله" فلا تجترئوا على المناهي "واعلموا أنكم ملاقوه" فتزودوا ما لا تفتضحون به "وبشر المؤمنين" المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات فإن قلت: ما موقع قوله: "نساءكم حرث لكم" مما قبله؟ قلت: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: "فأتوهن من حيث أمركم الله" يعني أن المأتي الذي أمركم الله به هو مكان الحرث، ترجمة له وتفسيراً، أو إزالة للشبهة، ودلالة على أن الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهن إلا من المأتي الذي يتعلق به هذا الغرض. فإن قلت: ما بال "يسألونك" جاء بغير واو ثلاث مرات، ثم مع الواو ثلاثاً؟ قلت: كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأول وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت بحرف العطف لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ. وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد، فجاء بحرف الجمع لذلك، كأنه قيل: يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر، والسؤال عن الإنفاق، والسؤال عن كذا وكذا.

"ولا تجعلوا الله عرضةً لإيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميعٌ عليمٌ، لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفورٌ حلِيمٌ" العرصة: فعلة بمعنى مفعول، كالقبضة والغرفة، وهي اسم ما تعرضه دون الشيء من عرض العود على الإاء فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول: فلان عرضة دون الخير. والعرصة أيضاً: المعرض للأمر. قال:

فلا تجعلوني عرضةً للوائم

ومعنى الآية على الأولى: أن الرجل كان يحلف على بعض الخيرات، من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحث في يميني، فيترك البر إرادة البر في يمينه، فقول لهم: "ولا تجعلوا الله

عرضةً لأيمانكم" أي حازراً ما حلفتكم عليه. وسمي الخلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة:

"إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك" أي على شيء مما يحلف عليه. وقوله: "أن تبروا وتتقوا وتصلحوا" عطف بيان لأيمانكم، أي للأمور الخلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس. فإن قلت: بم تعلق الالام في لأيمانكم؟ قلت: بالفعل، أي ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجازاً. ويجوز أن يتعلق بـ "عرضة" لما فيها من معنى الاعتراض، بمعنى لا تجعلوه شيئاً يعترض البر، من اعتراضني كذا. ويجوز أن يكون الالام للتعليل، ويتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة، أي ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به عرضة لأن تبروا. ومعناها على الأخرى: ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم من أنزل فيه "ولا تطع كل حلاف مهين" القلم: 10، بأشنع المدام وجعل الحلاف مقدمتها. وأن تبروا علة للنهي، أي إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا، لأن الحلاف مجترئ على الله، غير معظم له، فلا يكون براً متقياً، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه في وساطتهم وإصلاح ذات بينهم. اللغو: الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره. ولذلك قيل لما لا يعتد به في الدية من أولاد الإبل لغو واللغو من اليمين: الساقط الذي لا يعتد به في الأيمان، وهو الذي لا عقد معه. والدليل عليه "ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان" المائدة: 89، "بما كسبت قلوبكم" واختلف الفقهاء فيه، فعند أبي حنيفة وأصحابه هو أن يحلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه. وعند الشافعي: هو قول العرب: لا والله، وبلى والله، مما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف. ولو قيل لواحد منهم: سمعتك اليوم تحلف في المسجد الحرام لأنكر ذلك، ولعله قال: لا والله ألف مرة. وفيه معنيان: أحدهما "لا يؤاخذكم" أي لا يعاقبكم بلغوة اليمين الذي يحلفه أحدكم بالظن، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم، أي اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهي اليمين الغموس. والثاني: "لا يؤاخذكم" أي لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم، أي بما نوت قلوبكم وقصدت من الأيمان، ولم يكن كسب اللسان وحده "والله غفورٌ حلِيمٌ" حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم.

"للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميعٌ عليمٌ، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجةٌ والله عزيزٌ حكيمٌ"

قرأ عبد الله آلا من نسائهم. وقرأ ابن عباس: يقسمون من نسائهم. فإن قلت: كيف عدي بمن، وهو معدى بعلى؟ قلت: قد ضمن في هذا القسم المخصوص معنى البعد، فكأنه قيل: يبعدون من نسائهم مؤلن أو مقسمين. ويجوز أن يراد لهم "من نسائهم تربص أربعة أشهر" كقوله: لي منك كذا. والإبلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً على التقيد بالأشهر. أو لا أقربك على الإطلاق. ولا يكون في ما دون أربعة أشهر، إلا ما يحكى عن إبراهيم النخعي. وحكم ذلك: أنه إذا فاء إليها في المدة بالوطء إن أمكنه أو بالقول إن عجز: صح الفاء، وحنث القادر، ولزمته كفارة اليمين، ولا كفارة على العاجز. وإن مضت الأربعة بانت بتطبيقه عند أبي حنيفة. وعند

الشافعي: لا يصح الإيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ثم يوقف المولي، فإذا أن يفيء وإما أن يطلق وإن أبي طلق عليه الحاكم. ومعنى قوله: "فإن فإؤا" في الأشهر، بدليل قراءة عبد الله: "فإن فإؤا فيهن" "فإن الله غفورٌ رحيمٌ" يغفر للمولين ما عسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء وهو الغالب، وإن كان يجوز أن يكون على رضا منهن إشفاقاً منهن على الولد من الغيل، أو لبعض الأسباب لأجل الفينة التي هي مثل التوبة "وإن عزموا الطلاق" فتربصوا إلى مضي المدة "فإن الله سميعٌ عليمٌ" وعيد على إصرارهم وتركهم الفينة، وعلى قول الشافعي رحمه الله معناه "فإن فإؤا" "وإن عزموا" بعد مضي المدة. فإن قلت: كيف موقع الفاء إذا كانت الفينة قبل انتهاء مدة التربص؟ قلت: موقع صحيح لأن قوله "فإن فإؤا"، "وإن عزموا" تفصيل لقوله "للذين يؤلون من نسائهم" والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول: أنا نزيلكم هذا الشهر، فإن أحمذكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحوّل. فإن قلت: ما تقول في قوله: "فإن الله سميعٌ عليمٌ" وعزمهم الطلاق بما يعلم ولا يسمع؟ قلت: الغالب أن العازم للطلاق وترك الفينة والضرار، لا يخلو من مقالة ودمدمة ولا بد له من أن يحدث نفسه ويناجيها بذلك، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله كما يسمع وسوسة الشيطان "والمطلقات" أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء. فإن قلت: كيف جازت إرادتهن خاصة واللفظ يقتضي العموم؟ قلت: بل اللفظ مطلق في تناول الجنس صالح لكله وبعضه، فجاء في أحد ما يصلح له كالاسم المشترك. فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر. وأصل الكلام: وليربص المطلقات. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص. فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله. أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناءه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد. ولو قيل: ويربص المطلقات، لم يكن بتلك الوكادة. فإن قلت: هلا قيل: يربص ثلاثة قروء، كما قيل "تربص أربعة أشهر" وما معنى ذكر الأنفس؟ قلت: في ذكر الأنفس تهييج لمن على التربص وزيادة بعث، لأن فيه ما يستنكف منه فيحملهن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبن على الطموح ويجبرنهما على التربص. والقروء: جمع قرء أو قرء، وهو الحيض، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: "دعي الصلاة أيام أقرائك" وقوله: "طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان" ولم يقل طهران. وقوله تعالى "واللاتي ينسن من الحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدن ثلاثة أشهر" الطلاق: 4، فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار. ولأن الغرض الأصيل في العدة استبراء الرحم، والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام دون الطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة. ويقال أقرأت المرأة، إذا حاضت. وامرأة مقرئ. وقال أبو عمرو بن العلاء: دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها، أي تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء. فإن قلت: فما تقول: في قوله تعالى: "فطلقوهن لعدن" الطلاق: 1، والطلاق الشرعي، إنما هو في الطهر؟ قلت: معناه مستقبلات لعدن، كما تقول: لقيته لثلاث بقين من الشهر، تريد مستقبلاً لثلاث، وعدن الحيض الثلاث. فإن قلت: فما تقول في قول الأعشى:

لما ضاع فيها من قروء نسائك

قلت: أراد: لما ضاع فيها من عدة نساءك، لشهرة القروء عندهم في الاعتداد بهن، أي من مدة طويلة كالمدة التي تعتد فيها النساء، استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لافتحامه في الحروب والغارات. وأنه تمر على نسائه مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاجعن فيها، أو أراد من أوقات نساءك، فإن القراء والقارئ جاء في معنى الوقت، ولم يرد لا حياً ولا طهراً. فإن قلت: فعلام انتصب "ثلاثة قروء"؟ قلت: على أنه مفعول به كقولك: اختكر يتربص الغلاء، أي يتربصن مضي ثلاثة قروء، أو على أنه ظرف، أي: يتربصن مدة ثلاثة قروء فإن قلت: لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء؟ قلت: يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية. ألا ترى إلى قوله: "بأنفسهن" وما هي إلا نفوس كثيرة، ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء، فأوثر عليه تزيلاً لقليل الاستعمال مثله المهمل، فيكون مثل قولهم: ثلاثة شسوع. وقرأ الزهري: ثلاثة قروء، بغير همزة. "ما خلق الله في أرحامهن" من الولد أو من دم الحيض. وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لنلا ينتظر بطلاقها أن تضع، ولنلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض: قد طهرت، استعجالاً للطلاق. ويجوز أن يراد اللاتي يبعين إسقاط ما في بطونهن من الأجنة فلا يعترفن به ويحجونه لذلك، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه "إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر" تعظيم لفعلهن، وأن من آمن بالله وبعباده لا يجترئ على مثله من العظام. والبعولة: جمع بعل، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كما في الخزونة والسهولة. ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك: بعل حسن البعولة، يعني: وأهل بعولتهن "أحق بردهن" برجعتهن. وفي قراءة أبي: بردهم "وفي ذلكم" في مدة ذلك التربص. فإن قلت: كيف جعلوا أحق بالرجعة، كأن للنساء حقاً فيها؟ قلت: المعنى أن الرجل إن أراد الرجعة وأبتها المرأة وجب إثبات قوله على قولها وكان هو أحق منها، لا أن لها حقاً في الرجعة "إن أرادوا" بالرجعة "إصلاحاً" لما بينهم وبينهن وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارتهن "وهن مثل الذي عليهن" ويجب هن من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهم عليهن "بالمعروف" بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس فلا يكلفهن ما ليس هن ولا يكلفوهن ما ليس لهم ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه. والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة، لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال "درجة" زيادة في الحق وفضيلة. قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها.

"الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتما ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون، فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يترابعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون" "الطلاق" بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم، أي التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة، ولم يرد بالمرتين الشبهة ولكن التكرير، كقوله: "ثم ارجع البصر كرتين" الملك: 4، أي كرة بعد كرة، لا كرتين اثنتين. ونحو ذلك من الثاني التي يراد بها التكرير قولهم: لبیک وسعديک وحنانيک وهذا ذیك ودوالیک. وقوله تعالى: "فإمساكٌ بمعروفٍ أو

تسريحٌ يا حسان" تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون، بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجهتهن، وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم. وقيل: معناه الطلاق الرجعي مرتان، لأنه لا رجعة بعد الثالث، فإمساكٌ بمعروف أي برجعة، أو تسريحٌ يا حسان أي بأن لا يراجعها حتى تبين بالعدة، أو بأن لا يراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدة عليها وضارها. وقيل: بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث. وروي:

أن سائلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "أو تسريحٌ يا حسان" وعند أبي حنيفة وأصحابه: الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة، والسنة أن لا يوقع عليها إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه، لما روي في حديث ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً فتطلقها لكل قرء تطليقة" وعند الشافعي، لا بأس بإرسال الثلاث.

لحديث العجلاني الذي لا عن امرأته فطلقها ثلاثاً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه. روي: أن جميلة بنت عبد الله بن أبي كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، ما أطيقه بغضاً، إني رفعت جانب الحياء فرأيت أنه أقبل في عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً فزلت، وكان قد أصدقها حديقة فاختلفت منه بها وهو أول خلع كان في الإسلام. فإن قلت: لمن الخطاب في قوله: "ولا يحل لكم أن تأخذوا"؟ إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله "فإن خفتم ألا يقيما حدود الله" وإن قلت للأئمة والحكام فهو لاء ليسوا بأخذين منهن ولا بمؤتيهن؟ قلت: يجوز الأمران جميعاً: أن يكون أول الخطاب للأزواج، وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره، وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم، فكأنهم الآخذون والمؤتون "مما آتيتهموهن" مما أعطيتهموهن من الصدقات "إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله" إلا أن يخاف الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية، لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها "فلا جناح عليهما" فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها فيما أعطت "فيما افتدت به" فيما فدت به نفسها واختلفت به من بذل ما أوتيت من المهر. والخلع بالزيادة على المهر مكروه وهو جائز في الحكم. وروي أن امرأة نشرت على زوجها فرفعت إلى عمر رضي الله عنه، فأبأها في بيت الزبل ثلاث ليال ثم دعاها فقال: كيف وجدت مبيتك؟ قالت: ما بت منذ كنت عنده أقر لعيني منهن. فقال لزوجها: اخلعها ولو بقرطها. قال قتادة: يعني بما لها كله، هذا إذا كان النشوز منها، فإن كان منه كره له أن يأخذ منها شيئاً. وقرئ إلا أن يخافا، على البناء للمفعول وإبدال أن لا يقيما من ألف الضمير، وهو من بدل الاشتمال كقولك: خيف زيد تركه إقامة حدود الله. ونحوه "وأسروا النجوى الذين ظلموا" الأنبياء: 3، ويعصده قراءة عبد الله إلا أن تخافوا وفي قراءة أبي: إلا أن يظنا. ويجوز أن يكون الخوف بمعنى الظن. يقولون: أخاف أن يكون كذا، وأفرق أن يكون، يريدون أظن "فإن طلقها" الطلاق المذكور الموصوف بالتكرار في قوله تعالى:

"الطلاق مرتان" واستوفى نصابه. أو فإن طلقها مرة ثالثة بعد المرتين "فلا تحل له من بعد" من بعد ذلك التطليق.

"حتى تنكح زوجاً غيره" حتى تتزوج غيره، والنكاح يسند إلى المرأة كما يسند إلى الرجل كما الزوج. ويقال: فلانة ناكح في بني فلان. وقد تعلق من اقتصر على العقد في التحليل بظاهره وهو سعيد ابن المسيب. والذي عليه الجمهور

أنه لابد من الإصابة، لما روى عروة عن عائشة رضي الله عنها: أن امرأة رفاعة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن رفاعة طلقني فبت طلاقي وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما معه مثل هدبة الثوب وإنه طلقني قبل أن يمسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدان أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسلية ويذوق عسلية. وروي:

أما لبثت ما شاء الله، ثم رجعت فقالت: إنه كان قد مسني، فقال لها: كذبت في قولك الأول، فلن أصدقك في الآخر، فلبثت حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتت أبا بكر رضي الله عنه فقالت: أراجع إلى زوجي الأول. فقال: قد عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لك ما قال، فلا ترجعي إليه، فلما قبض أبو بكر رضي الله عنه قالت مثله لعمر رضي الله عنه فقال: إن أتيتني بعد مرتك هذه لأرجئك، فمنعها. فإن قلت فما تقول في النكاح المعقود بشرط التحليل؟ قلت: ذهب سفيان والأوزاعي وأبو عبيد ومالك وغيرهم إلى أنه غير جائز، وهو جائز عند أبي حنيفة مع الكراهة. وعنه أنهما إن أضمرنا التحليل ولم يصرحا به فلا كراهة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه لعن الخلل والخلل له" وعن عمر رضي الله عنه: لا أوتي بمحلل ولا محلل له إلا رجتهما وعن عثمان رضي الله عنه: لا نكاح إلا نكاح رغبة غير مدالسة "فإن طلقها" الزوج الثاني. "أن يتراجعا" أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزواج "إن ظنا" إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية. ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان، لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل. ومن فسر الظن ههنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى، لأنك لا تقول: علمت أن يقوم زيد، ولكن: علمت أنه يقوم، ولأن الإنسان لا يعلم ما في الغد، وإنما يظن ظناً. "وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم، وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون" "فبلغن أجلهن" أي آخر عدتهن وشارفن منتهاهن. والأجل يقع على المدة كلها، وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهي به: أجل، وكذلك الغاية والأمد، يقول النحويون من لا ابتداء الغاية، وإلى لانتها الغاية. وقال:

ومود إذا انتهى أمده

كل حي مستكمل مدة العمر

ويتسع في البلوغ أيضاً فيقال: بلغ البلد إذا شارفه وداناه. ويقال: قد وصلت، ولم يصل وإنما شارف، ولأنه قد علم أن الإمساك بعد تقضي الأجل لا وجه له، لأنها بعد تقضيه غير زوجة له وفي غير عدة منه، فلا سبيل له عليها "فأمسكوهن بمعروف" فإذا أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة "أو سرحوهن بمعروف" وإما أن يخليها حتى تنقضي عدتها وتبين من غير ضرار "ولا تمسكوهن ضراراً" كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطول العدة عليها، فهو الإمساك ضراراً "لتعتدوا" لتظلموهن. وقيل: لتلجنوهن إلى الافتداء "فقد ظلم نفسه" بتعريضها لعقاب الله "ولا تتخذوا آيات الله هزواً" أي جدوا في الأخذ بها

والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزواً ولعباً. ويقال لمن يجد في الأمر: إنما أنت لاعب وهازئ. ويقال: كن يهودياً وإلا فلا تلعب بالتوراة. وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج ويقول: كنت لاعباً. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: الطلاق والنكاح والرجعة". "واذكروا نعمت الله عليكم" بالإسلام وبنوة محمد صلى الله عليه وسلم "وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة" من القرآن والسنة وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها "يعظكم به" بما أنزل عليكم "فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن" إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسراً، ولحمية الجاهلية لا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج. والمعنى: أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون هن، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلهن أن يرجعن إلى أزواجهن روي:

أما نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول. وقيل: في جابر بن عبد الله حين عضل بنت عم له. والوجه أن يكون خطاباً للناس، أي لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين. والعضل: الحبس والتضييق. ومنه: عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج. وأنشد لابن هرمة:

وإن قصائد لك فاصطنعني عقائل قد عضلن عن النكاح

وبلوغ الأجل على الحقيقة. وعن الشافعي رحمه الله: دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين "إذا تراضوا" إذا تراضى الخطاب والنساء "بالمعروف" بما يحسن في الدين والمروءة من الشرائط وقيل: بمهر المثل. ومن مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنها إذا زوجت نفسها بأقل من مهر مثلها فللأولياء أن يعترضوا. فإن قلت: لمن الخطاب في قوله: "ذلك يوعظ به"؟ قلت: يجوز أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد. ونحوه "ذلك خير لكم وأطهر" المجادلة: 12، "أزكى لكم وأطهر" من أدناس الآثام، وقيل: أزكى وأطهر: أفضل وأطيب "والله يعلم" ما في ذلك من الزكاء والطهر "وأنتم لا تعلمون" هـ، أو: والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع وأنتم تجهلون. "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أراداً فصلاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير" "يرضعن" مثل يربصن في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد "كاملين" تأكيد كقوله "تلك عشرة كاملة" البقرة: 196، لأنه مما يتسامح فيه فتقول: أقمت عند فلان حولين، ولم تستكملهما. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: أن يكمل الرضاعة: وقرئ: الرضاعة. بكسر الراء. والرضعة. وأن تتم الرضاعة وأن يتم الرضاع، برفع الفعل تشبيهاً ل أن ب ما لتأخيها في التأويل. فإن قلت: كيف اتصل قوله: "لمن أراد" بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم، كقوله تعالى: "هيت لك" يوسف: 23، لك بيان للمهيته به، أي هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع. وعن قتادة: حولين كاملين، ثم أنزل الله اليسر والتخفيف فقال: "لمن أراد أن يتم الرضاعة" أراد أنه يجوز النقصان، وعن الحسن: ليس ذلك بوقت لا ينقص منه بعد أن لا يكون في الفطام ضرر. وقيل: اللام متعلقة بيرضعن، كما تقول: أرضعت فلانة لفلان ولده، أي يرضعن حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة من

الآباء، لأن الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه. ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة رحمه الله ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح. وعند الشافعي يجوز. فإذا انقضت عدتها جاز بالاتفاق. فإن قلت: فما بال الوالدت مأمورات بأن يرضعن أولادهن؟ قلت: إما أن يكون أمراً على وجه الندب، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه، أو لم توجد له ظئر، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار. وقيل: أراد الوالدت المطلقات. وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع "وعلى المولود له" وعلى الذي يولد له وهو الوالد. و"له" في محل الرفع على الفاعلية، نحو "عليهم" في "المغضوب عليهم" الفاتحة: 7، فإن قلت لم قيل "المولود" له دون الوالد. قلت: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات. وأنشد للمأمون بن الرشيد:

فإنما أمهات الناس أوعيةٌ مستودعاتٌ وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم، كالأظفار. ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى، وهو قوله تعالى: "واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً" لقمان: 33، "بالمعروف" تفسيره ما يعقبه، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضارا. وقرئ لا تكلف بفتح التاء؛ ولا نكلف بالنون. وقرئ: لا تضار بالرفع على الإخبار، وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول، وأن يكون الأصل: تضار بكسر الراء، وتضار بفتحها. وقرأ "لا تضار" بالفتح أكثر القراء. وقرأ الحسن بالكسر على النهي، وهو محتمل للبناءين أيضاً. ويبين ذلك أنه قرئ لا تضار، ولا تضار، بالجرم وفتح الراء الأولى وكسرها. وقرأ أبو جعفر: لا تضار، بالسكون مع التشديد على نية الوقف. وعن الأعرج لا تضار بالسكون والتخفيف، وهو من ضاره يضره. ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر، أو اختلس الضمة فظنه الراوي سكوناً. وعن كاتب عمر بن الخطاب: لا تضار. والمعنى: لا تضار والدته زوجها بسبب ولدها، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس يعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، وأن تقول بعد ما ألفها الصبي: اطلب له ظئراً، وما أشبه ذلك؛ ولا يضار مولود له امرأته بسبب ولده، بأن يمنعه شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها؛ ولا يأخذ منها وهي تريد إرضاعه، ولا يكرهها على الإرضاع. وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أي يلحق بها الضرر من قبل الزوج، وعن أن يلحق الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد، ويجوز أن يكون "تضار" بمعنى تضار، وأن تكون الباء من صلتها، أي لا تضار والدته بولدها، فلا تسيء غذاءه وتعهدده، ولا تفرط فيما ينبغي له، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضر الوالد به بأن ينتزعه من يدها أو يقصر في حقها فتقصر هي في حق الولد. فإن قلت: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت: لما نهي المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبي منها. فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد "وعلى الوارث" عطف على قوله: "وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن"، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. فكان المعنى: وعلى وارث المولود له مثل ما وجب عليه من الرزق والكسوة، أي إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها

بالشريطة التي ذكرت من المعروف وتجنب الضرار. وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه. واختلفوا، فعند ابن أبي ليلى: كل من ورثه، وعند أبي حنيفة: من كان ذا رحم محرم منه. وعند الشافعي: لا نفقه فيما عدا الولاد. وقيل: من ورثه من عصيته مثل الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العم. وقيل: المراد وارث الأب وهو الصبي نفسه، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في ماله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه. وقيل "على الوارث" على الباقي من الأبوين من قوله:

"واجعله الوارث منا". "فإن أراداً فصلاً" صادراً "عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما" في ذلك، زاداً على الحولين أو نقصاً، وهذه توسعة بعد التحديد. وقيل: هو في غاية الحولين لا يتجاوز، وإنما اعتبر تراضيهما في الفصال وتشاورهما: أما الأب فلا كلام فيه، وأما الأم فلأنها أحق بالتربية وهي أعلم بحال الصبي. وقرئ: فإن أراد. استرضع: منقلو من أرضع. يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي، لتعديه إلى مفعولين، كما تقول: أنجح الحاجة، واستنجحت الحاجة والمعنى: أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه، كما تقول: استنجحت الحاجة ولا تذكر من استنجحته، وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأول "إذا سلمتم" إلى المراضع "ما آتيتم" ما أردتم إيتاءه، كقوله تعالى: "إذا قمتم إلى الصلاة" المائدة: 6، وقرئ: ما آتيتم، من أتى إليه إحساناً إذا فعله. ومنه قوله تعالى: "إنه كان وعده مأتياً" مريم: 61، أي مفعولاً. وروى شيبان عن عاصم: ما أوتيتم، أي ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة، ونحوه "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه" الحديد: 7، وليس التسليم بشرط للجواز والصحة، وإنما هو ندب إلى الأولى. ويجوز أن يكون بعثاً على أن يكون الشيء الذي تعطاه المرضع من أهني ما يكون، لتكون طيبة النفس راضية، فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبي واحتياطاً في أمره، فأمرنا بإتيائه ناجزاً يداً بيد، كأنه قيل: إذا أديتم إليهن يداً بيد ما أعطيتموهن. "بالمعروف" متعلق بسلامتم، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه. ناطقين بالقول الجميل، مطيبن لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن.

"والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبيرٌ، ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفورٌ حلِيمٌ"

"والذين يتوفون منكم" على تقدير حذف المضاف، أراد: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن. وقيل: معناه يتربصن بعدهم، كقولهم: السمم منوان بدرهم. وقرئ: يتوفون بفتح الياء أي يستوفون آجالهم، وهي قراءة علي رضي الله عنه. والذي يحكى: أن أبا الأسود الدؤلي كان يمشي خلف جنازة، فقال له رجل: من المتوفي بكسر الفاء، فقال الله تعالى. وكان أحد الأسباب الباعثة لعلِّي رضي الله عنه على أن أمره بأن يضع كتاباً في النحو - تناقضه هذه القراءة "يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً" يعتدّن هذه المدة وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقيل ذهاباً إلى الليالي والأيام داخله معها، ولا تراهم قط يستعملون التذكير فيه ذاهبين إلى الأيام. تقول: صمت عشراً، ولو ذكرت خرجت من كلامهم. ومن البين فيه قوله تعالى: "إن لبثتم إلا عشراً" طه: 103، ثم "إن لبثتم إلا يوماً" طه: 104،

"إذا بلغن أجلهن" فإذا انقضت عدتهن "فلا جناح عليكم" أيها الأئمة وجماعة المسلمين "فيما فعلن في أنفسهن" من التعرض للخطاب "المعروف" بالوجه الذي لا ينكره الشرع. والمعنى أنه لو فعلن ما هو منكراً كان على الأئمة أن يكفوهن. وإن فرطوا كان عليهم الجناح "فيما عرضتم به" هو أن يقول لها: إنك جميلة أو صالحة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج، وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام الموهوم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك، أو أتزوجك، أو أخطبك. وروى ابن المبارك عن المبارك عن عبد الله بن سليمان عن خالته قالت: دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عديتي فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدي علي وقدمي في الإسلام، فقلت: غفر الله لك! أخطبني في عديتي وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أو قد فعلت! إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعي، قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصر في يده من شدة تحامله عليها، فما كانت تلك خطبة. فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطول القامة وكثير الرماد للمضياف. والتعريض: أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئت لك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده "أو أكنتم في أنفسكم" لا محالة ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن ولا تصبرون عنه، وفيه طرف من التوبيخ كقوله: "علم الله أنكم كنتم تحتانون أنفسكم" البقرة: 187. فإن قلت: أين المستدرك بقوله: "ولكن لا تواعدوهن"؟ قلت: هو محذوف لدلالة ستذكروهن عليه، تقديره: علم الله أنكم ستذكروهن فاذكروهن، ولكن لا تواعدوهن سراً. والسر وقع كناية عن النكاح الذي هو الوطء، لأنه مما يسر. قال الأعشى:

ولا تقربن من جارة إن سرها عليك حرامً فانكحن أو تأبدا

ثم عبر به عن النكاح الذي هو العقد لأنه سبب فيه كما فعل بالنكاح "إلا أن تقولوا قولاً معروفاً" وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا. فإن قلت: بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت: بلا تواعدوهن، أي لا تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكورة. أي لا تواعدوهن إلا بأن تقولوا، أي لا تواعدوهن إلا بالتعريض. ولا يجوز أن يكون استثناءً منقطعاً من "سراً" لأدائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض. وقيل معناه: لا تواعدوهن جماعاً، وهو أن يقول لها إن نكحتك كان كيت وكيت، يريد ما يجري بينهما تحت اللحاف. إلا أن تقولوا قولاً معروفاً يعني من غير رفث ولا إفحاش في الكلام. وقيل: لا تواعدوهن سراً: أي في السر على أن المواعدة في السر عبارة عن المواعدة بما يستهجن، لأن مسارتها في الغالب بما يستحيا من الجاهرة به. وعن ابن عباس رضي الله عنهما "إلا أن تقولوا قولاً معروفاً": هو أن يتوافتا أن لا تتزوج غيره "ولا تعزموا عقدة النكاح" من عزم الأمر وعزم عليه، وذكر العزم مبالغة في النهي عن

عقدة النكاح في العدة. لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهي عنه كان عن الفعل أنهى ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح. وقيل: معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح. وحقيقة العزم: القطع، بدليل قوله عليه السلام. "لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل" وروي "لمن لم يبيت الصيام" "حتى يبلغ الكتاب أجله" يعني ما كتب وما فرض من العدة "يعلم ما في نفوسكم" من العزم على ما لا يجوز "فاحذروه" ولا تعزموا عليه. "غفورٌ حلِيمٌ" لا يعاجلكم بالعقوبة.

"لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا هن فريضةً ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضةً فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصيرٌ" "لا جناح عليكم" لا تبعة عليكم من إيجاب مهر "إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن" ما لم تجامعوهن "أو تفرضوا لهن فريضةً" إلا أن تفرضوا لهن فريضة، أو حتى تفرضوا، وفرض الفريضة: تسمية المهر. وذلك أن المطلقة غير المدخول بها إن سمي لها مهر فلها نصف المسمى، وإن لم يسم لها فليس لها نصف مهر المثل ولكن المتعة. والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله: "وإن طلقتموهن" إلى قوله: "فنصف ما فرضتم" فقوله: فنصف ما فرضتم: إثبات للجناح المنفي ثمة، والمتعة درع وملحفة وخمار على حسب الحال عند أبي حنيفة، إلا أن يكون مهر مثلها أقل من ذلك. فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة، ولا ينقص عن خمسة دراهم؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها. و "الموسع" الذي له سعة. و "المقتر" الضيق الحال. و "قدره" مقداره الذي يطيقه، لأن ما يطيقه هو الذي يختص به. وقرئ بفتح الدال. والقدر والقدر لغتان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم. أنه قال لرجل من الأنصار تزوج امرأة ولم يسم لها مهرًا، ثم طلقها قبل أن يمسه: أمتعتها؟ قال: لم يكن عندي شيء. قال: متعها بقلنسوتك. وعند أصحابنا لا تجب المتعة إلا لهذه وحدها، وتستحب لسائر المطلقات ولا تجب. "متاعاً" تأكيد لمتعهن، بمعنى تمتيعاً بالمعروف" بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة "حقاً" صفة لمتاعاً، أي متاعاً واجباً عليهم. أو حق ذلك حقاً "على المحسنين" على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتع، وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال صلى الله عليه وسلم.

"من قتل قتيلاً فله سلبه". "إلا أن يعفون" يريد المطلقات. فإن قلت: أي فرق بين قولك: الرجال يعفون. والنساء يعفون؟ قلت: الواو في الأول ضميرهم، والنون علم الرفع. والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبني لا أثر في لفظه للعامل وهو في محل النصب ويعفو: عطف على محله. "والذي بيده عقدة النكاح" الولي يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رأي ولا خدمته ولا استمتع بي فكيف آخذ منه شيئاً، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي. وقيل هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة والأول ظاهر الصحة. وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر، إلا أن يقال: كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند الزوج، فإذا طلقها استحق أن يطالبها بنصف ما ساق إليها، فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها. أو سماه عفواً على طريق المشاكلة. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل

أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال: أنا أحق بالعتق. وعنه: أنه دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملاً، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها علي فكرهت رده. قيل: فلم بعثت بالصداق؟ قال: فأين الفضل و"الفضل" التفضل. أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمروا ولا تستقصوا، وقرأ الحسن أن يعفو الذي يسكون الواو وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيهاً لهما بالألف لأنهما أختاهما. وقرأ أبو نعيم: وأن يعفو، بالياء. وقرئ: ولا تنسوا الفضل، بكسر الواو.

"حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالاً أو ركبناً فإذا أمنتُم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون" "والصلاة الوسطى" أي الوسطى بين الصلوات، أو الفضلى، من قولهم للفضل: الأوسط. وإنما أفردت وعظفت على الصلاة لانفرادها بالفضل وهي صلاة العصر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الأحزاب.

"شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتكم ناراً" وقال عليه الصلاة والسلام.

"إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب" وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها، فأملت عليه: والصلاة الوسطى صلاة العصر. وروي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما: والصلاة الوسطى وصلاة العصر؛ بالواو. فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين: إحداهما الصلاة الوسطى، إما الظهر، وإما الفجر وإما المغرب، على اختلاف الروايات فيها، والثانية: العصر، وقيل: فضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعاشهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: هي صلاة الظهر لأنها في وسط النهار، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليها بالهاجرة، ولم تكن صلاة أشد على أصحابه منها. وعن مجاهد: هي الفجر لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. وعن قبيصة بن ذؤيب: هي المغرب، لأنها وتر النهار ولا تنقص في السفر من الثلاث وقرأ عبد الله: وعلى الصلاة الوسطى: وقرأت عائشة رضي الله عنها والصلاة الوسطى بالنصب على المدح والاختصاص. وقرأ نافع: الوصلى، بالصاد "وقوموا لله" في الصلاة "قانتين" ذاكرين في قيامكم. والقنوت: أن تذكر الله قائماً. وعن عكرمة كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا. وعن مجاهد: هو الركود وكف الأيدي والبصر. وروي: أنهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمد بصره أو يلتفت، أو يقلب الحصا، أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا "فإن خفتم" فإن كان بكم خوف من عدو أو غيره "فرجالاً" فصلوا راجلين، وهو جمع راجل كقائم وقيام، أو رجل يقال: رجل رجل، أي راجل. وقرئ: فرجالاً. بضم الراء، ورجالاً بالتشديد ورجلاً. وعند أبي حنيفة رحمه الله: لا يصلون في حال المشي والمسابقة ما لم يمكن الوقوف، وعند الشافعي رحمه الله: يصلون في كل حال، والراكب يومئ ويسقط عند التوجه إلى القبلة "إذا أمنتُم" فإذا زال خوفكم "فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون" من صلاة الأيمن، أو فإذا أمنتُم فاشكروا الله على الأمن، واذكروا بالعبادة، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع، وكيف تصلون في حال الخوف وفي حال الأمن.

"والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم

في ما فعلن في أنفسهن من معروفٍ والله عزيزٌ حكيمٌ" تقديره فيمن قرأ وصية بالرفع: ووصية الذين يتوفون، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم، أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم. وفيمن قرأ بالنصب: والذين يتوفون يوصون وصية، كقولك: إنما أنت سير البريد، بإضمار سير. أو وألزم الذين يتوفون وصية. وتدل عليه قراءة عبد الله: كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول، مكان قوله: "والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول" وقرأ أبي: متاع لأزواجهم متاعاً. وروي عنه: فمتاع لأزواجهم. ومتاعاً نصب بالوصية، إلا إذا أضمرت يوصون، فإنه نصب بالفعل. وعلى قراءة أبي متاعاً نصب بمتاع، لأنه في معنى التمتع؛ كقولك: الحمد لله حمد الشاكين، وأعجبي ضرب لك زيدا ضرباً شديداً. و"غير إخراج" مصدر مؤكد كقولك: هذا القول غير ما تقول. أو بدل من متاعاً. أو حال من الأزواج، أي غير مخرجات. والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يموتوا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً، أي ينفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله: "أربعة أشهرٍ وعشرًا" وقيل: نسخ ما زاد منه على هذا المقدار، ونسخت النفقة بالإرث الذي هو الربع والثلث. واختلف في السكنى، فعند أبي حنيفة وأصحابه: لا سكنى هن "فيما فعلن في أنفسهن" من التزين والتعرض للخطاب "من معروف" مما ليس بمنكر شرعاً. فإن قلت: كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت: قد تكون الآية متقدمة في التلاوة وهي متأخرة في الترتيل، كقوله تعالى: "سيقول السفهاء البقرة: 142، مع قوله "قد نرى تقلب وجهك في السماء" البقرة: 144.

"وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً على المتقين، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون" وللمطلقات متاعٌ عم المطلقات بإيجاب المتعة لهن بعد ما أوجبهن لواحدة منهن وهي المطلقة غير المدخول بها، وقال: "حقاً على المتقين" كما قال ثمة: "حقاً على الحسنين". وعن سعيد بن جبير وأبي العالية والزهري: أنها واجبة لكل مطلقة. وقيل: قد تناولت التمتع الواجب والمستحب جميعاً. وقيل: المراد بالمتاع نفقة العدة.

"ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضلٍ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون، وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميعٌ عليمٌ" "ألم تر" تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجيب من شأنهم. ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع، لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب. روي: أن أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيها الطاعون فخرجوا هاربين، فأماهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه. وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقه وأصابه تعجباً مما رأى، فأوحى إليه: ناد فيهم أن قوموا ياذن الله، فنأدى، فنظر إليهم قياماً يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذراً من الموت، فأماهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم "وهم ألوف" فيه دليل على الألوف الكثيرة. واختلف في ذلك، فقيل: عشرة. وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعون. ومن بدع التفاسير. "ألوف" متآلفون، جمع آلف كقاعد وقعود. فإن قلت: ما معنى قوله: "فقال لهم الله موتوا"؟ قلت: معناه فأماهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوا من غير إباء ولا توقف، كقوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون"

يس: 82، وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأن الموت إذا لم يكن منه بدٌ ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله. "لذو فضلٍ على الناس" حيث يبصره مما يعتبرون به ويستبصرون، كما بصر أولئك، وكما بصركم باقتصاص خبرهم. أو لذو فضل على الناس حيث أحبب أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث. والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله. "واعلموا أن الله سميعٌ عليمٌ" يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون "عليمٌ" بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء. "من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرةً والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون" إقراض الله: مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه. والقرض الحسن: إما المجاهدة في نفسها، وإما النفقة في سبيل الله "أضعافاً كثيرةً" قيل: الواحد بسبعمئة. وعن السدي: كثيرة لا يعلم كتبها إلى الله "والله يقبض ويبسط" يوسع على عباده ويقتر، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة "وإليه ترجعون" فيجازيكم على ما قدمتم.

"ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليمٌ بالظالمين"

"لنبيهم" هو يوشع أو شمعون أو شمويل "ابعث لنا" أنفض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره، طلبوا من نبيهم نحو ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها، ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره. وروي أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم "نقاتل" قرئ بالنون والجزم على الجواب. وبالنون والرفع على أنه حال، أي ابعثه لنا مقدرين القتال. أو استئناف كأنه قال لهم: ما تصنعون بالملك؟ فقالوا: نقاتل. وقرئ: يقاتل بالياء والجزم على الجواب، وبالرفع على أنه صفة للملك. وخبر عسيتم "ألا تقاتلوا" والشرط فاصل بينهما. والمعنى: هل قاربتم أن لا تقاتلوا؟ يعني هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول: عسيتم أن لا تقاتلوا، بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال، فأدخل هل مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون. وأراد بالاستفهام التقرير، وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائب في توقعه، كقوله تعالى: "هل أتى على الإنسان" الإنسان: 1، معناه التقرير. وقرئ عسيتم بكسر السين وهي ضعيفة "وما لنا ألا نقاتل" وأي داع لنا إلى ترك القتال، وأي غرض لنا فيه "وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا" وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين. "إلا قليلاً منهم" قيل: كان القليل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر "والله عليمٌ بالظالمين" وعيد لهم على ظلمهم في القعود عن القتال وترك الجهاد.

"وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسعٌ عليمٌ"

"طالوت" اسم أعجمي كجالوت وداود. وإنما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته، وزعموا أنه من الطوال لما وصف به من البسطة في الجسم. ووزنه إن كان من الطول فعلوت منه، أصله طولوت، إلا أن امتناع صرفه يدفع أن يكون منه، إلا أن يقال: هو اسم عبراني وافق عريباً، كما وافق حنطاء حنطة، وبشمالاها لها رحماناً رحيماً بسم الله الرحمن

الرحيم، فهو من الطول كما لو كان عربياً، وكان أحد سببيه العجمة لكونه عبرانياً "أنى" كيف ومن أين، وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له. فإن قلت: ما الفرق بين الواوين في "ونحن أحق"، "ولم يؤت"؟ قلت: الأولى للحال، والثانية لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالاً، قد انتظمتها معاً في حكم واو الحال. والمعنى: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به. وإنما قالوا ذلك لأن النبوة كانت في سبط لاوي بن يعقوب والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أحد السبطين، ولأنه كان رجلاً سقاءً أو دباغاً فقيراً. وروي: أن نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت "قال إن الله اصطفاه عليكم" يريد أن الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكم الله. ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما العلم المبسوط والجسامه. والظاهر أن المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب. ويجوز أن يكون عالماً بالديانات وبغيرها. وقيل: قد أوحى إليه ونبي. وذلك أن الملك لابد أن يكون من أهل العلم، فإن الجاهل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيماً يملأ العين جهارة لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب. والبسطة: السعة والامتداد. وروي أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه "يؤتي ملكه من يشاء" أي الملك له غير منازع فيه، فهو يؤتيه من يشاء: من يستصلحه للملك "والله واسع" الفضل والعطاء، يوسع على من ليس له سعة من المال ويغنيه بعد الفقر "عليه" بمن يصطفيه للملك.

"وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين"

"التابوت" صندوق التوراة. وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون. والسكينة: السكون والطمأنينة، وقيل: هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كراس الهز وذب كذنبه وجناحان، فتش فيزف التابوت نحو العدو وهم يمشون معه، فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر، وعن علي رضي الله عنه: كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة "وبقية" هي رضاض الألواح وعصى موسى وثيابه وشيء من التوراة، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام فزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفاء الله طالوت. وقيل: كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به. فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار فكان في أرض جالوت، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن، فقالوا: هذا بسبب التابوت بين أظهرنا، فوضعوه على ثورين، فساقهما الملائكة إلى طالوت. وقيل كان من خشب الشمشام مموهاً بالذهب. نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، وقرأ أبي وزيد بن ثابت: التابوت بالهاء وهي لغة الأنصار. فإن قلت: ما وزن التابوت؟ قلت: لا يخلو من أن يكون فعلوتاً أو فاعولاً، فلا يكون فاعولاً لقلته، نحو: سلس وقلق، ولأنه تركيب غير معروف فلا يجوز ترك المعروف إليه، فهو إذا فعلوت من التوب، وهو الرجوع: لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه، وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعته. وأما من قرأ بالهاء فهو فاعول عنده، إلا فيمن جعل هاء بدلاً من التاء، لاجتماعهما في الهمس وأنهما من حروف الزيادة. ولذلك أبدلت من تاء التأنيث. وقرأ أبو السمال: سكينه، بفتح السين والتشديد وهو غريب. وقرئ:

يحملة، بالياء، فإن قلت: من "آل موسى وآل هارون"؟ قلت: الأنبياء من بني يعقوب بعدهما. لأن عمران هو ابن قاهث بن لاوي بن يعقوب فكان أولاد يعقوب آلهما. ويجوز أن يراد: مما تركه موسى وهارون. والآل مقحم لتفخيم شأنهما.

"فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" "فصل" عن موضع كذا: إذا انفصل عنه وجاوزه، وأصله: فصل نفسه، ثم كثر محذوف المفعول حتى صار في حكم غير المتعدي كأنفصل. وقيل: فصل عن البلد فصلاً. ويجوز أن يكون: فصله فصلاً، وفصل فصلاً كوقوف وصد ونحوهما. والمعنى: انفصل عن بلده "بالجنود" روي أنه قال لقومه: لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه، ولا تاجر مشغل بالتجارة، ولا رجل متزوج بامرأة لم يبن عليها، ولا أبتغي إلا الشاب النشيط الفارغ. فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيظاً وسلكوا مفازة، فسألوا أن يجري الله لهم نهراً، ف "قال إن الله مبتليكم" بما اقترحه من النهر "فمن شرب منه" فمن ابتداء شربه من النهر بأن كرع فيه "فليس مني" فليس بمتصل بي ومتحد معي، من قولهم: فلان مني، كأنه بعضه؛ لاختلاطهما واتحادهما. ويجوز أن يراد فليس من جهتي وأشياعي "ومن لم يطعمه" ومن لم يذقه، من طعم الشيء، إذا ذاقه. ومنه طعم الشيء، لمذاقه. قال:

وإن شئت لم أطمع نقاخاً ولا برداً

ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم. ويقال: ما ذقت غماضاً. ونحوه من الابتلاء: ما ابتلى الله به أهل أيلة من ترك الصيد مع إتيان الحيتان شرعاً، بل هو أشد منه وأصعب. وإنما عرف ذلك طالوت بإخبار من النبي. وإن كان نبياً - كما يروي عن بعضهم - فبالوحي. وقرئ بنهر بالسكون. فإن قلت: مم استثنى قوله: "إلا من اغترف"؟ قلت: من قوله: "فمن شرب منه فليس مني" والجملة الثانية في حكم المتأخرة، إلا أنها قدمت للعناية كما قدم "والصابئون" المائدة: 69، في قوله: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون" ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع، والدليل عليه قوله: "فشربوا منه" أي فكرعوا فيه "إلا قليلاً منهم" وقرئ: غرفة بالفتح بمعنى المصدر، وبالضم بمعنى المغروف. وقرأ أبي والأعمش: إلا قليل، بالرفع. وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً، وهو باب جليل من علم العربية. فلما كان معنى "فشربوا منه" في معنى فلم يطيعوه، حمل عليه، كأنه قيل: فلم يطيعوه إلا قليل منهم. ونحوه قول الفرزدق:

.....لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

كأنه قال: لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف. وقيل: لم يبق مع طالوت إلا ثلثمائة وثلاثة عشرة رجلاً "والذين آمنوا" يعني القليل "قال الذين يظنون" يعني الخالص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه. أو الذين تيقنوا أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله، والمؤمنون مختلفون في قوة اليقين ونصوع البصيرة. وقيل: الضمير في "قالوا"

لا طاقة لنا" للكثير الذين اتخذوا، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه، كأثم تقاولوا بذلك والنهر بينهما. يظهر أولئك عذرهم في الانخدال، ويرد عليهم هؤلاء ما يعتذرو به. وروي: أن الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وإداوته. والذين شربوا منه اسودت شفاههم وغلبهم العطش.

"ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فهزموهم ياذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين" و جالوت جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد، وكانت بيضته فيها ثلثمائة رطل "وثبت أقدامنا" وهب لنا ما نثبت به في مداحض الحرب من قوة القلوب وإلقاء الرعب في قلب العدو ونحو ذلك من الأسباب. كان إيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيهِ، وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم، فأوحى إلى اشمويل أن داود بن إيشى هو الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله وقالت له: إنك تقتل بنا جالوت، فحملها في مخالته ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت بنته. وروي أنه حسده وأراد قتله ثم تاب "وآتاه الله الملك" في مشارق الأرض المقدسة ومغارها، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود "والحكمة" والنبوة "وعلمه مما يشاء" من صنعة الدروع، وكلام الطير والدواب وغير ذلك "ولولا دفع الله الناس" ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض. وقيل: ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بغيث الكفار فيها وقتل المسلمين. أو لو لم يدفعهم بهم لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض.

"تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين" "تلك آيات الله" يعني القصص التي اقتصها، من حيث الألفوف وإمانتهم وإحيائهم، وتمليك طالوت وإظهاره بالآية التي هي نزول التابوت من السماء، وغلبة الجابرة على يد صبي "بالحق" باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم كذلك "وإنك لمن المرسلين" حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار.

"تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد، يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون" "تلك الرسل" إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة، أو التي ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم "فضلنا بعضهم على بعض" لما أوجب ذلك من تفاضلهم في الحسنات "منهم من كلم الله" منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام. وقرئ: كلم الله بالنصب. وقرأ اليماني: كلم الله، من المكالمه، ويدل عليه قولهم: كلم الله، بمعنى مكالمه "ورفع بعضهم درجات" أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة. والظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات

المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر. ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات. وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتهيه، والتميز الذي لا يلبس. ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم، يردي به الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه. وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيراً والنابعة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي، لم يفخم أمره. ويجوز أن يريد: إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولي العزم من الرسل. وعن ابن عباس رضي الله عنه.

كنا في المسجد نتذاكر فضل الأنبياء، فذكرنا نوحاً بطول عبادته، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا: رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منهم، بعث إلى الناس كافة؛ وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو خاتم الأنبياء فدخل عليه السلام فقال: فيم أنتم؟ فذكرنا له. فقال: لا ينبغي لأحد أن يكون خيراً من يحيى بن زكريا، فذكر أنه لم يعمل سيئة قط ولم يهمل بها. فإن قلت: فلم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت: لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة. ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات، فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل. وهذا دليل بين أن من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره. ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها. كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع، اللهم ارزقنا شفاعته يوم الدين "ولو شاء الله" مشينة إلقاء وقسر "ما اقتتل الذين" من بعد الرسل، لاختلافهم في الدين، وتشعب مذاهبهم، وتكفير بعضهم بعضاً "ولكن اختلفوا فمنهم من آمن" لالتزامه دين الأنبياء "ومنهم من كفر" لإعراضه عنه "ولو شاء الله ما اقتتلوا" كرره للتأكيد "ولكن الله يفعل ما يريد" من الخذلان والعصمة "أنفقوا مما رزقناكم" أراد الإنفاق الواجب لاتصال العيد به "من قبل أن يأتي يوم" لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه "لا بيع فيه" حتى تتناعوا ما تنفقونه "ولا خلة" حتى يسامحكم أخلاؤكم به. وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم من الواجب لم تجدوا شافعاً لكم في حط الواجبات. لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير "والكافرون هم الظالمون" أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون، فقال "والكافرون" للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج "ومن كفر" النور: 55، مكان: ومن لم يحج، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: "ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة" فصلت: 6، وقرئ: لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعاً بالرفع.

"الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم" له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم "الحي" الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم ويقدر و "القيوم" الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. وقرئ: القيام، والقيم والسنة: ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس. قال ابن الرقاع العاملي:

وسنان أقصده النعاس فرنقت

في عينه سنة وليس بنائم

أي لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً. ومنه حديث موسى.

أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام، ثم قال: خذ بيدك قارورتين مملوءتين. فأخذهما، وألقى الله عليه النعاس فضرب إحدهما على الأخرى فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزلتا. "من ذا الذي يشفع عنده" بيان للملكوت وكبريائه. وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام، كقوله تعالى: "لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن" النبأ: 38، "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم" ما كان قبلهم وما يكون بعدهم. والضمير لما في السموات والأرض لأن فيهم العقلاء، أو لما دل عليه "من ذا" من الملائكة والأنبياء "من علمه" من معلوماته "إلا بما شاء" إلا بما علم. الكرسي ما يجلس عليه، ولا يفضل عن مقعد القاعد. وفي قوله "وسع كرسيه" أربعة أوجه: أحدها أن كرسيه لم يضيق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة ولا قعود، ولا قاعد، كقوله: "وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه" الزمر: 67، من غير تصور قبضة وطى ويمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسي. ألا ترى إلى قوله: "وما قدروا الله حق قدره" والثاني: وسع علمه وسمي العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك. والرابع ما روي: أنه خلق كرسيًا هو بين يدي العرش ودونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعن الحسن: الكرسي هو العرش "ولا يؤده" ولا يثقله ولا يشق عليه "حفظهما" حفظ السموات والأرض "وهو العلي" الشأن "العظيم" الملك والقدرة. فإن قلت: كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي من غير حرف عطف؟ قلت: ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه والبيان متحد بالمبين، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب: بين العصا ولحائها، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساه عنه. والثانية لكونه مالكا لما يديره. والثالثة لكبرياء شأنه. والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة، وغير المرتضى. والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها، أو لجلاله وعظم قدره. فإن قلت: لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد منه قوله صلى الله عليه وسلم: "ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة، يا علي علمها ولدك وأهلك وجيرانك، فما نزلت آية أعظم منها" وعن علي رضي الله عنه: سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم على أعواد المنبر وهو يقول: "من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله". وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل ما في القرآن، فقال لهم علي رضي الله عنه.

أين أنتم عن آية الكرسي، ثم قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا علي، سيد البشر آدم، وسيد العرب

محمد ولا فخر، وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبيشة بلال، وسيد الجبال الطور، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقر آية الكرسي" قلت: لما فضلت له سورة الإخلاص لاشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكور أعظم من رب العزة فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار. وبهذا يعلم أن أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله علم أهل العدل والتوحيد ولا يغرنك عنه كثرة أعدائه:

فإن العرائن تلقاها محسدةً ولا ترى للناس حساداً

"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليم" "لا إكراه في الدين" أي لم يجز الله أمر الإيمان على الإكراه والقسر، ولكن على التمكين والاختيار. ونحوه قوله تعالى: "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" يونس: 99، أي لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار "قد تبين الرشد من الغي" قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة "فمن يكفر بالطاغوت" فمن اختار الكفر بالشیطان أو الأصنام والإيمان بالله "فقد استمسك بالعروة الوثقى" من الحبل الوثيق المحكم، المأمون انفصامها، أي انقطاعها. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر، والاستدلال بالمشاهد المحسوس، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده واليقين به. وقيل: هو إخبار في معنى النهي، أي لا تتكروها في الدين. ثم قال بعضهم: هو منسوخ بقوله: "جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم" التوبة: 73، وقيل: هو في أهل الكتاب خاصة لأنهم حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لأنصاري من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصاري: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فترلت: فخلاهما.

"الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" "الله ولي الذين آمنوا" أي أرادوا أن يؤمنوا يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأبيده من الكفر إلى الإيمان "والذين كفروا" أي صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين - إن وقعت لهم - بما يهديهم ويوفقهم له من حلها، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين "والذين كفروا أولياؤهم" الشياطين "يخرجونهم" من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة.

"ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين، أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء

قدير" "ألم تر" تعجيب من محاجة نمروذ في الله وكفره به "أن آتاه الله الملك" متعلق بحاج على وجهين: أحدهما حاج لأن آتاه الله الملك، على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك، أو على أنه وضع الحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك، فكأن الحاجة كانت لذلك، كما تقول: عاداني فلان لأني أحسنت إليه، تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونحوه قوله تعالى: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون" الواقعة: 82.

والثاني: حاج وقت أن آتاه الله الملك. فإن قلت: كيف جاز أن يؤتي الله الملك الكافر؟ قلت: فيه قولان: آتاه ما غلب به وتسلب من المال والخدم والأتباع، وأما التغليب والتسليط فلا. وقيل: ملكه امتحاناً لعباده. و"إذ قال" نصب بحاج أو بدل من آتاه إذ جعل بمعنى الوقت "أنا أحيي وأميت" يريد أعفو عن القتل وأقتل. وكان الاعتراض عتيباً ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحق لم يحاجه فيه، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليهتة أول شيء. وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة. وقرئ: فبهت الذي كفر أي فغلب إبراهيم الكافر. وقرأ أبو حيوة: فبهت، بوزن قرب. وقيل: كانت هذه الحاجة حين كسر الأصنام وسجنه نمروذ، ثم أخرجه من السجن ليحرقه فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت. "أو كالذي" معناه. أو أرايت مثل الذي مر، فحذف لدلالة "ألم تر" عليه؛ لأن كليهما كلمة تعجيب. ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ، كأنه قيل: أرايت كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مر على قرية. والمار كان كافراً بالبعث، وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ في سلك ولكلمة الاستبعاد التي هي: أني يحيي. وقيل: هو عزيز أو الخضر، أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. وقوله: "أن يحيي" اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة الخيي. والقرية: بيت المقدس حين خربه مختصر. وقيل: هي التي خرج منها الألوفا وهي خاوية على عروشها" تفسيره فيما بعد "يوماً أو بعض يوم" بناء على الظن. روي أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: يوماً، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: أو بعض يوم. وروي: أن طعامه كان تيناً وعباً. وشرابه عصيراً أو لبناً، فوجد التين والعنب كما جنيا، والشراب على حاله "لم يتسنه" لم يتغير، والهاء أصلية أو هاء سكت. واشتقاقه من السنة على الوجهين، لأن لامها هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان. وقيل: أصله يتسنن، من الحمأ المسنون، فقلبت نونه حرف علة، كتقضي البازي. ويجوز أن يكون معنى "لم يتسنه" لم تمر عليه السنوات التي مرت عليه، يعني هو بحاله كما كان كأنه لم يلبث مائة سنة. وفي قراءة عبد الله: فانظر إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسن. وقرأ أي: لم يسنه، بإدغام التاء في السين "وانظر إلى حمارك" كيف تفرقت عظامه ونخرت، وكان له حمار قد ربطه. ويجوز أن يراد: وانظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء، كما حفظ طعامه وشرابه من التغير "ولنجعلك آية للناس" فعلنا ذلك يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه، وقيل: أتى قومه راكب حماره وقال: أنا عزيز، فكذبوه، فقال: هاتوا التوراة فأخذ يهذهما هذا عن ظهر قلبه وهم ينظرون في الكتاب، فما خرم حرفاً، فقالوا: هو ابن الله. ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزيز، فذلك كونه آية. وقيل: رجع إلى مثله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب، فإذا حدثهم بحديث قالوا:

حديث مائة سنة "وانظر إلى العظام" هي عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم "كيف ننشزها" كيف نحياها. وقرأ الحسن: ننشزها، من نشر الله الموتى، بمعنى: أنشرهم فنشروا، وقرأ بالزاي، بمعنى نحركها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب. وفاعل تبين مضمرة تقديره: فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير "قال أعلم أن الله على كل شيء قدير" فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، كما في قولهم: ضربني وضربت زيدا. ويجوز: فلما تبين له ما أشكل عليه، يعني أمر إحياء الموتى. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: فلما تبين له على البناء للمفعول. وقرأ: قال أعلم، على لفظ الأمر، وقرأ عبد الله: قيل أعلم. فإن قيل: فإن كان المار كافراً فكيف يسوغ أن يكلمه الله؟ قلت: كان الكلام بعد البعث ولم يكن إذ ذاك كافراً.

"وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيزٌ حكيمٌ" "أرني" بصري، فإن قلت: كيف قال له "أو لم تؤمن" وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين. و"بلى" يجاب لما بعد النفي، معناه بلى آمنت "ولكن ليطمئن قلبي" ليزيد سكوناً وطمأنينة بمضامة علم الصروة علم الاستدلال وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك. فإن قلت: بم تعلقت اللام في "ليطمئن"؟ قلت: بمحذوف تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب "فخذ أربعة من الطير" قيل: طاوساً وديكاً وغرباً وحمامة "فصرهن إليك" بضم الصاد وكسرها بمعنى فأملهن واضممنهن إليك قال:

ولكن أطراف الرماح تصورها

وقال:

وفرع يصير الجيد وحف كأنه على الليث قنوان الكروم الدوالج

وقرأ ابن عباس رضي الله عنه فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء، من صره يصره ويصره إذا جمعه، نحو صره ويصره ويصره. وعنه فصرهن من التصرية وهي الجمع أيضاً "ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً" يريد: ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال. والمعنى: على كل جبل من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك. وقيل: كانت أربعة أجبل. وعن السدي: سبعة "ثم ادعهن" وقل لهن: تعالين ياذن الله "يأتينك سعيّاً" ساعيات مسرعات في طيرهن أو في مشيهن على أرجلهن. فإن قلت: ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها؟ قلت: ليتأملها ويعرف أشكائها وهيئتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك ولذلك قال: يأتينك سعيّاً. وروي أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماها ولحومها، وأن يمسك رؤسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربيعاً من كل طائر. ثم يصيح بها: تعالين ياذن الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رؤسهن، كل جثة إلى رأسها. وقرأ: جزأ بضميتين. وجزأ، بالتشديد. ووجهه أنه خفف بطرح همزته، ثم شدد كما يشدد في الوقف، إجراء للوصول مجرى الوقف.

"مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم" مثل الذين ينفقون" لا بد من حذف مضاف، أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلة وهذا التمثيل والممثل به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير: فإن قلت: هلا قيل: سبع سنابل، على حقه من التمييز بجمع القلة كما قال: "وسبع سنابل خضر" يوسف: 53؟ قلت: هذا لما قدمت عند قوله: "ثلاثة قروء" البقرة: 228، من وقوع أمثلة الجمع متعاصرة مواقعها "والله يضاعف لمن يشاء" أي يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، لتفاوت أحوال المنفقين. أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافاً لمن يستوجب ذلك. "الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أدى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون" المن: أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاً له: وكانوا يقولون: إذا صنعت صنيعاً فانسوها. ولبعضهم:

وإن امرأ أسدى إلي صنيعاً وذكرنيها مرةً للنائم

وفي نوابغ الكلم: صنوان من منح سائله ومن، ومن منع نائله وضمن. وفيها: طعم الألاء أحلى من المن وهي أمر من الألاء مع المن. والأذى: أن يتناول عليه بسبب ما أزال إليه: ومعنى 3 ثم إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: "ثم استقاموا" فصلت: 30. فإن قلت: أي فرق بين قوله: "لهم أجرهم" وقوله فيما بعد: "فلهم أجرهم"؟ قلت: الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط. وضمنه ثمة. والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة.

"قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىٌ والله غنيٌ حلِيمٌ، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلداً لا يقدرون على شيءٍ مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين" "قولٌ معروفٌ" رد جميل "ومغفرةٌ" وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على رده رداً جميلاً عذره "خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىٌ" وصح الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة "والله غنيٌ" لا حاجة به إلى منفق يمن ويؤذي "حلِيمٌ" عن معالجته بالعقوبة، وهذا سخط منه ووعيد له. ثم بالغ في ذلك بما أتبعه "كالذي ينفق ماله" أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذي ينفق ماله "رياء الناس" لا يريد بإنفاقه رضاء الله ولا ثواب الآخرة "فمثله كمثل صفوان" مثله ونفقتة التي لا يتنفع بها البتة بصفوان بحجر أملس عليه تراب. وقرأ سعيد بن المسيب: صفوان بوزن كروان "فأصابه وابلٌ" مطر عظيم القطر "فتركه صلداً" أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه. ومنه: صلد جبين الأصلع إذا برق "لا

يقدرّون على شيءٍ مما كسبوا" كقوله: "فجعلناه هباءً منثوراً" الفرقان: 23، ويجوز أن تكون الكاف في محل نصب على الحال: أي لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذين ينفق. فإن قلت: كيف قال: "لا يقدرّون" بعد قوله: "كالذي ينفق"؟ قلت: أراد بالذي ينفق الجنس أو الفريق الذي ينفق، ولأن من و الذي يتعاقبان فكأنه قيل: كمن ينفق. "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابلٌ فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌ والله بما تعملون بصيرٌ" وتثبيتاً من أنفسهم" وليثبتوا منها بئذ المال الذي هو شقيق الروح. وبذله أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان؛ لأن النفس إذا ربيضة بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبيتاً لها على الإيمان واليقين. ويجوز أن يراد: وتصديقاً للإسلام. وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه. ومن على التفسير الأول للتبعض، مثلها في قولهم: هز من عطفه، وحرك من نشاطه. وعلى الثاني لا ابتداء الغاية، كقوله تعالى: "حسداً من عند أنفسهم" البقرة: 109، ويحتمل أن يكون المعنى: وتثبيتاً من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصه فيه. وتعضده قراءة مجاهد: وتبييناً من أنفسهم. فإن قلت: فما معنى التبعض؟ قلت: معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذي ثبتها كلها "وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم" الصف: 11، والمعنى: ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله "كمثل جنة" وهي البستان "بربوة" بمكان مرتفع. وخصها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرأً "أصابها وابلٌ" مطر عظيم القطر "فأنت أكلها" ثمرها "ضعفين" مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل "فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌ" فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها. أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة - بعد أن يطلب بها وجه الله ويبدل فيها الوسع - زاكية عند الله، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده. وقرئ: كمثل حبة، و بربرة - بالحركات الثلاث - و أكلها بضمين.

"أيود أحدكم أن تكون له جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون" الهمة في "أيود أحدكم" للإنكار. وقرئ: له جنات، وذرية ضعفاء. والإعصار: الريح التي تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود. وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغي بها وجه الله. فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار فبلغ الكبر، وله أولاد ضعفاء والجنة معاشهم ومنعشهم، فهلك بالصاعقة. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا: الله أعلم، فغضب وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك. قال: ضربت مثلاً لعمل. قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل الحسنات. ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها. وعن الحسن رضي الله عنه: هذا مثلٌ قل والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبياناه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه

الدنيا. فإن قلت: كيف قال "جنة من نخيل وأعناب" ثم قال: "له فيها من كل الثمرات" قلت: النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع، خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما - وإن كانت محتوية على سائر الأشجار - تغليباً لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات. ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها كقوله: "وكان له ثمر" الكهف: 34، بعد قوله: "جنتين من أعناب وحفناهما بنخل" الكهف: 32، فإن قلت: علام عطف قوله: "وأصابه الكبر"؟ قلت: الواو للحال لا للعطف. ومعناه أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر. وقيل: يقال: وددت أن يكون كذا ووددت لو كان كذا، فحمل العطف على المعنى، كأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر.

"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخيـث منه تنفقون ولستم بآخذيـه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنيٌ حميدٌ" من طيبات ما كسبتم من جياـد مكسوباتكم" وما أخرجنا لكم من الحب والتمر والمعادن وغيرها. فإن قلت: فهـا قيل: وما أخرجنا لكم، عطفاً على "ما كسبتم" حتى يشتمـل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض؟ قلت معناه: ومن طيبات ما أخرجنا لكم إلا أنه حذف لذكر الطيبات "ولا تيمموا الخيـث" ولا تقصدوا المال الرديء "منه تنفقون" تخصونه بالإنفاق، وهو في محل الحال. وقرأ عبد الله: ولا تأموا، وقرأ ابن عباس: ولا تيمموا، بضم التاء. ويمـه وتيممه وتأمه، سواء في معنى قصده "ولستم بآخذيـه" وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم "إلا أن تغمضوا فيه" إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غـض بصره. ويقال للبائع: أغمض، أي لا تستقص، كأنك لا تبصر. وقال الطرمـاح:

لم يفتنا بالوتر قومٌ وللضم رجالٌ يرضون بالإغماض

وقرأ الزهري: تغمضوا. وأغمض وغمض بمعنى. وعنه: تغمضوا، بضم الميم وكسرهما. من غمض يغمض ويغمض. وقرأ قتادة: تغمضوا، على البناء للمفعول، بمعنى إلا أن تدخلوا فيه وتجذبوا إليه. وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين. وعن الحسن رضي الله عنه: لو وجدتموه في السوق يباع ما أخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه.

"الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً" والله واسعٌ عليمٌ" أي يعدكم في الإنفاق "الفقر" ويقول لكم أن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. وقرئ: الفقر، بالضم. والفقر - بفتحـين - والوعد يستعمل في الخير والشر. قال الله تعالى: "النار وعدها الله الذين كفروا" الحج: 72، "ويأمركم بالفحشاء" ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الأمر للمأمر. والفاحش عند العرب: البخل "والله يعدكم" في الإنفاق "مغفرةً" لذنوبكم وكفارة لها "وفضلاً" وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، أو ثواباً عليه في الآخرة.

"يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب" "يؤتي الحكمة" يوفق للعلم والعمل به. والحكيم عند الله: هو العالم العامل وقرئ: ومن يؤت الحكمة بمعنى ومن يؤته الله الحكمة. وهكذا قرأ الأعمش. و "خيراً كثيراً" تنكير تعظيم، كأنه قال: فقد أوتي أي خير كثير "وما يذكر إلا

أولو الألباب". يريد الحكماء العلام العمال. والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق. "وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصارٍ" "وما أنفقتم من نفقة في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان" "أو نذرتم من نذرٍ في طاعة الله، أو في معصية" فإن الله يعلمه" لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه "وما للظالمين" الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يفون بالنذور، أو يندرون في المعاصي "من أنصارٍ" ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

"إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبيرٌ" ما في "نعما" نكرة غير موصولة ولا موصوفة. ومعنى "فنعما هي" نعم شيئاً إبداءها. وقرئ بكسر النون وفتحها "وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء" وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء "فهو خيرٌ لكم" فالإخفاء خير لكم. والمراد الصدقات المتطوع بها، فإن الأفضل في الفرائض أن يجاهر بها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "صدقات السر في التطوع تفضل علانيتهما سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً" وإنما كانت الجاهرة بالفرائض أفضل، لنفي التهمة، حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل، والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل "نكفر" وقرئ بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي ونحن نكفر. أو على أنه جملة من فعل وفاعل مبتدأة، ومجزوماً عطفاً على محل الفاء وما بعده، لأنه جواب الشرط. وقرئ: ويكفر، بالياء مرفوعاً، والفعل لله أو للإخفاء. وتكفر بالناء، مرفوعاً ومجزوماً، والفعل للصدقات. وقرأ الحسن رضي الله عنه بالياء والنصب بإضمار أن ومعناه: إن تخفوها يكن خيراً لكم، وأن يكفر عنكم.

"ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خيرٍ فلاأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خيرٍ يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" "ليس عليك هدام" لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب "ولكن الله يهدي من يشاء" يلطف بمن يعلم أن اللطف ينفع فيه فينتهي عما نهى عنه "وما تنفقوا من خيرٍ" من مال "فلاأنفسكم" فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم "وما تنفقون" وليست نفقتكم إلا لا ابتغاء وجه الله ولطلب ما عنده، فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله؟ "وما تنفقوا من خيرٍ يوف إليكم" ثوابه أضعافاً مضاعفة، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه، وأن يكون على أحسن الوجوه وأجملها. وقيل: حجت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فأتتها أمها تسألها وهي مشرقة، فأبت أن تعطيهما، فترلت، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: كانوا يتقون أن يرضخوا لقربائهم من المشركين. وروي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم. وعن بعض العلماء: لو كان شر خلق الله، لكان لك ثواب نفقتك. واختلف في الواجب، فجوز أبو حنيفة رضي الله عنه صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة، وأباه غيره.

"للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليم"

الجار متعلق بمحذوف. والمعنى: اعمدوا للفقراء، واجعلوا ما تنفقون للفقراء، كقوله تعالى: "في تسع آيات" النمل: 12، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي صدقاتكم للفقراء. و"الذين أحصروا في سبيل الله" هم الذين أحصرهم الجهاد "لا يستطيعون" لاشتغالهم به "ضرباً في الأرض" للكسب. وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمئة رجل من مهاجري قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد - وهي سقيفته - يتعلمون القرآن بالليل، ويرضخون النوى بالنهار. وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: "أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقتي في الجنة" "يحسبهم الجاهل" بحالهم "أغنياء من التعفف" مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة "تعرفهم بسيماهم" من صفرة الوجه وورثاة الحال. والإحاف: الإلحاح، وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه. من قولهم: لحفني من فضل لحافه، أي أعطاني من فضل ما عنده. وعن النبي صلى الله عليه وسلم.

"إن الله تعالى يحب الحيي الحليم المتعفف، ويبغض البذي السئال الملحف" ومعناه: أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا، وقيل: هو نفي للسؤال والإحاف جميعاً كقوله:

على لاحب لا يهتدي بمناره

يريد نفي المنار والاهتداء به.

"الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يزنون" بالليل والنهار سرّاً وعلانيةً يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر، وعشرة في العلانية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في علي رضي الله عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانية. وقيل: نزلت في علف الخيل وارتباطها في سبيل الله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، كان إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية.

"الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفارٍ أثيم"

"الربا" كتب بالواو لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع "لا يقومون" إذا بعثوا من قبورهم "إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان" أي المصروع. وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع. والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد على ما كانوا يعتقدون. والمس: الجنون. ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجني يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن

الرجل: معناه ضربته الجن ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات. فإن قلت: بم يتعلق قوله: "من المس"؟ قلت: ب لا يقومون، أي لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع. ويجوز أن يتعلق بيقوم، أي كما يقوم المصروع من جنونه. والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل الذين يخرجون من الأحداث يوفضون، إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرّون على الإيفاض "ذلك" العقاب بسبب قولهم "إنما البيع مثل الربا". فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام في الربا لا في البيع فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهماً بدرهين جاز، فكذلك إذا باع درهماً بدرهين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع. وقوله: "وأحل الله البيع وحرم الربا" إنكار لتسويتهم بينهما، ودلالة على أن القياس يهدمه النص، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه "فمن جاءه موعظة" فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهاي عن الربا "فانتهى" فتبع النهي وامتنع "فله ما سلف" فلا يؤخذ بما مضى منه، لأنه أخذ قبل نزول التحريم "وأمره إلى الله" يحكم في شأنه يوم القيامة، وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به "ومن عاد" إلى الربا "فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" وهذا دليل بين على تخليد الفساق. وذكر فعل الموعظة لأن تأنيثها غير حقيقي، ولأنها في معنى الوعظ. وقرأ أبي والحسن: فمن جاءته. "يحق الله الربا" يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: الربا وإن كثر إلى قل. "ويربي الصدقات" ما يتصدق به بأن يضاعف عليه الثواب ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه. وفي الحديث.

"ما نقصت زكاة من مال قط". "كل كفارٍ أئيمٍ" تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين. "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فاذنوا بحربٍ من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وإن كان ذو عسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرةٍ وأن تصدقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون" أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا، فأمرُوا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. روي: أنها نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند الحل بالمال والربا. وقرأ الحسن رضي الله عنه: ما بقي، بقلب الباء ألفاً على لغة طيء: وعنه ما بقي بياء ساكنة. ومنه قول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضي لكمو ماضي العزيمة ما في حكمه جنف

"إن كنتم مؤمنين" إن صح إيمانكم، يعني أن دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك "فأذنوا بحربٍ" فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به. وقرئ: فاذنوا، فاعلموا بها غيركم، وهو من الإذن وهو الاستماع، لأنه

من طرق العلم. وقرأ الحسن: فأيقنوا، وهو دليل لقراءة العامة. فإن قلت: هلا قيل بحرب الله ورسوله؟ قلت: كان هذا أبلغ، لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. وروى أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا يدي لنا بحرب الله ورسوله. "وإن تبتم" من الارتباء "فلكم رعوس أموالكم لا تظلمون" المديونين بطلب الزيادة عليها "ولا تظلمون" بالنقصان منها. فإن قلت: هذا حكمهم إن تابوا، فما حكمهم لو لم يتوبوا قلت: قالوا: يكون ما لهم فينا للمسلمين، وروى المفضل عن عاصم: لا تظلمون ولا تظلمون "وإن كان ذو عسرة" وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة أو ذو عسار وقرأ عثمان رضي الله عنه. ذا عسرة على وإن كان الغريم ذا عسرة. وقرئ: ومن كان ذا عسرة. "فنظرة" أي فالحكم أو فالأمر نظرة وهي الإنظار. وقرئ: فنظرة بسكون الظاء. وقرأ عطاء: فناظره بمعنى فصاحب الحق ناظره: أي منتظره، أو صاحب نظره على طريقة النسب كقولهم: مكان عاشب وباقل، أي ذو عشب وذو بقل. وعنه: فناظره، على الأمر بمعنى فسامحه بالنظرة وياسره بها "إلى ميسرة" إلى يسار وقرئ بضم السين، كمقبرة ومقبرة ومشركة ومشركة. وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

واخلفوك عدا الأمر الذي وعدوا

وقوله تعالى: " وإقام الصلاة" النور: 37. "وأن تصدقوا خير لكم" ندب إلى أن يتصدقوا برؤس أموالهم على من أعسر من غرمائهم أو ببعضها، كقوله تعالى: "وأن تعفوا أقرب للتقوى" البقرة: 237، وقيل: أريد بالتصدق الإنظار لقوله صلى الله عليه وسلم.

"لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة" "إن كنتم تعلمون" أنه خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه. وقرئ تصدقوا بتخفيف الصاد على حذف التاء "ترجعون" قرئ على البناء للفاعل والمفعول: وقرئ: يرجعون بالياء على طريقة الالتفات. وقرأ عبد الله: تردون: وقرأ أي: تصيرون. وعن ابن عباس: أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة. وعاشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحداً وعشرين يوماً. وقيل: أحداً وثمانين. وقيل: سبعة أيام. وقيل: ثلاث ساعات. "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح إلا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم، وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم" "إذا تداينتم" إذا دين بعضكم بعضاً. يقال: داينت الرجل إذا عاملته "بدين" معطياً أو آخذاً كما تقول: بايعته إذا بعته أو باعك. قال رؤبة:

والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه. فإن قلت: هلا قيل: إذا تدانيتم إلى أجل مسمى وأي حاجة إلى ذكر الدين كما قال: داينت أروى، ولم يقل: بدين؟ قلت: ذكر ليرجع الضمير إليه في قوله: "فاكتبوه" إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن. ولأنه أبين لتوزيع الدين إلى مؤجل وحال. فإن قلت: ما فائدة قوله: "مسمى" قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام، ولو قال: إلى الحصاد، أو الدياس، أو رجوع الحاج، لم يجز لعدم التسمية. وإنما أمر بكتابة الدين، لأن ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود، والأمر للندب. وعن ابن عباس: أن المراد به السلم، وقال: لما حرم الله الربا أباح السلف. وعنه: أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه أطول آية. "بالعدل" متعلق بكتاب صفة له، أي كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالسوية والاحتياط. لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه: أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع. وهو أمر للمتدائنين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلا فقيهاً ديناً "ولا يأب كاتب" ولا يمتنع أحد من الكتاب وهو معنى تنكير كاتب "أن يكتب كما علمه الله" مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير. وقيل هو كقوله تعالى: "وأحسن كما أحسن الله إليك" القصص: 77، أي ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها. وعن الشعبي: هي فرض كفاية، وكما علمه الله: يجوز أن يتعلق بأن يكتب، وبقوله فليكتب. فإن قلت: أي فرق بين الوجهين؟ قلت: إن علقته بأن يكتب فقد فهمي عن الامتناع من الكتابة المقيدة، ثم قيل له "فليكتب" يعني فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها للتوكيد، وإن علقته بقوله فليكتب فقد فهمي عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بما مقيدة "وليملل الذي عليه الحق" ولا يكن الممللي إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود على ثباته في ذمته وإقراره به. والإملاء والإملا لفتان قد نطق بهما القرآن "فهي تملئ عليه" الفرقان: 5. "ولا يخس منه" من الحق "شيئاً" والبخس: النقص. وقرئ شيئاً، بطرح الهمزة: وشياً، بالتشديد "سفيهاً" محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف "أو ضعيفاً" صبيّاً أو شيخاً مختلاً "أو لا يستطيع أن يمل هو" أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعي به أو خرس "فليملل وليه" الذي يلي أمره من وصي إن كان سفيهاً أو صبيّاً، أو وكيل إن كان غير مستطيع، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدق. وقوله تعالى: "أن يمل هو" فيه أنه غير مستطيع بنفسه ولكن بغيره، وهو الذي يترجم عنه "واستشهدوا شهيدين" واطلبوا أن يشهد لكم شهيدين على الذين "من رجالكم" من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء. وعن علي رضي الله عنه: لا تجوز شهادة العبد في شيء. وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل. "فإن لم يكون" فإن لم يكن الشهيدين "رجلين فرجل" وامرأتان" فليشهد رجل وامرأتان، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبي حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص "ممن ترضون" ممن تعرفون عدالتهم "أن تضل إحداهما" أن لا تهتدي إحداهما للشهادة بأن تنساها، من ضل الطريق إذا لم يهتد له. وانتصابه على أنه مفعول له أي إرادة أن تضل. فإن قلت: كيف يكون ضلالها مراداً لله تعالى؟ قلت: لما كان الضلال

سبباً للإذكار، والإذكار مسبباً عنه، وهم يتزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإذكار إرادة للإذكار، فكأنه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت. ونظيره قولهم: أعددت الحشبة أن يميل الحائط فأدعمه، وأعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه. وقرئ: فتذكر بالتخفيف والتشديد، وهما لغتان. فتذاكر. وقرأ حمزة: إن تضل إحداهما على الشرط. فتذكر، بالرفع والتشديد، كقوله: "ومن عاد فينتقم الله منه" المائدة: 95، وقرئ: أن تضل إحداهما على البناء للمفعول والتأنيث. ومن بدع النفاسير: فتذكر، فتجعل إحداهما الأخرى ذكراً، يعني أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر "إذا ما دعوا" ليقميوا الشهادة. وقيل: ليستشهدوا. وقيل لهم شهداء قبل التحمل، تزيلاً لما يشارف منزلة الكائن.

وعن قتادة: كان الرجل يطوف في الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد، فتزلت. كني بالسأم عن الكسل، لأن الكسل صفة المنافق. ومنه الحديث: "لا يقول المؤمن كسلت" ويجوز أن يراد من كثرت مدايناته؛ فاحتاج أن يكسب لكل دين صغير أو كبير كتاباً، فربما مل كثرة الكتب. والضمير في "تكتبوه" للدين أو الحق "صغيراً أو كبيراً" على أي حال كان الحق من صغر أو كبر. ويجوز أن يكون الضمير للكتاب؛ وأن يكتبوه مختصراً أو مشبعاً لا يخلو بكتابته "إلى أجله" إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته "ذلكم" إشارة إلى أن تكتبوه، لأنه في معنى المصدر، أي ذلكم الكتب "أقسط" أعدل من القسط "وأقوم للشهادة" وأعون على إقامة الشهادة "وأدنى ألا ترتابوا" وأقرب من انتفاء الريب. فإن قلت: مم بني أفعلا التفضيل، أعني: أقسط، وأقوم؟ قلت: يجوز على مذهب سيبويه أن يكونا مبنيين من أقسط وأقام، وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذي قسط، وأقوم من قوم. وقرئ: ولا يسأموا أن يكتبوه بالياء فيهما. فإن قلت: ما معنى "تجارة حاضرة" وسواء أكانت المبايعة بدين أو بعين فالتجارة حاضرة؟ وما معنى إدارتها بينهم؟ قلت أريد بالتجارة ما يتجر فيه من الأبدال. ومعنى إدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد. والمعنى: إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوه، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في الندائين. وقرئ: تجارة حاضرة بالرفع على كان التامة. وقيل: هي الناقصة على أن الاسم تجارة حاضرة والخبر تديرونها وبالنصب على: إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كبيت الكتاب.

بني أسد هل تعلمون بلائنا إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا

أي إذا كان اليوم يوماً "وأشهدوا إذا تبايعتم" أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً، ناجزاً أو كائناً لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف. ويجوز أن يراد: وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعني التجارة الحاضرة، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. وعن الحسن: إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد. وعن الضحاك: هي عزيمة من الله ولو على باقة بقل "ولا يضار" يحتمل البناء للفاعل والمفعول. والدليل عليه قراءة عمر رضي الله عنه: ولا يضار، بالإظهار والكسر. وقراءة ابن عباس رضي الله عنه: ولا يضارر، بالإظهار والفتح. والمعنى نهي الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما. وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم، ويلزا، أو لا يعطي الكاتب حقه من الجعل، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد وقرأ الحسن: ولا يضار، بالكسر "وإن

تفعلوا" وإن تضاروا "فإنه" فإن الضرار "فسوقٌ بكم" وقيل: وإن تفعلوا شيئاً مما نهيتم عنه "على سفر" مسافرين.
وقرأ ابن عباس وأبي رضي الله عنهما كتاباً. وقال ابن عباس: رأيت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والدواة.
وقرأ أبو العالية: كتباً. وقرأ الحسن: كتاباً، جمع كاتب "فرهان" فالذي يستوثق به رهن. وقرئ فرهن بضم الهاء
وسكونها، وهو جمع رهن، كسقف وسقف. و فرهان. فإن قلت: لم شرط السفر في الارتهان ولا يختص به سفر دون
حضر وقد

رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه في غير سفر. قلت: ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة، ولكن
السفر لما كان مظنة لإعواز الكتب والإشهاد، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر، بأن يقيم
التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد. وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوزاه إلا في حال السفر أخذاً بظاهر
الآية، وأما القبض فلا بد من اعتباره. وعند مالك يصح الارتهان بالإيجاب والقبول بدون القبض "فإن أمن بعضكم
بعضاً" فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين لحسن ظنه به. وقرأ أي فإن أو من أي آمنه الناس ووصفوا المدينون
بالأمانة والوفاء والاستغناء عن الارتهان من مثله "فليؤد الذي أؤتمن أمانته" حث المدينون على أن يكون عند ظن
الدائن به وأمنه منه وائتمانه له، وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتقن منه. وسمي الدين أمانة وهو
مضمون لائتمانه عليه بترك الارتهان منه. والقراءة أن تنطق بهمزة ساكنة بعد الذال أو ياء، فتقول: الذي أؤتمن، أو
الذي تم. وعن عاصم أنه قرأ: الذي اتمن، يادغام الياء في التاء، قياساً على اتسر في الافتعال من اليسر، وليس
بصحيح. لأن الياء منقلبة عن الهمزة، فهي في حكم الهمزة واتزر عامي، وكذلك ربا في رؤيا "آثم" خبر إن. و"قلبه"
رفع بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يآثم قلبه. ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء. وآثم خبر مقدم، والجملة خبر إن.
فإن قلت: هلا اقتصر على قوله: "فإنه آثم"؟ وما فائدة ذكر القلب - والجملة هي الآثمة لا القلب وحده -؟ قلت:
كتمان الشهادة: هو أن يضمها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً بالقلب أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة
التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي، ولأن
القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل: فقد
تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط،
وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقتراه، واللسان ترجمان عنه. ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر
الجوارح وهي لها كالأصول التي تنشعب منها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال
القلوب، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاصم الذنوب. وعن ابن عباس رضي الله
عنهما: أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى: "فقد حرم الله عليه الجنة" المائدة: 72، وشهادة الزور، وكتمان
الشهادة. وقرئ: قلبه، بالنصب، كقوله: "سفه نفسه" البقرة: 130، وقرأ ابن أبي عبة: آثم قلبه، أي جعله إثماً.
"لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من
يشاء والله على كل شيء قدير" وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يعني من السوء يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء
لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره "ويعذب من يشاء" ممن استوجب العقوبة بالإصرار. ولا يدخل
فيما يخفيه الإنسان: الوسواس وحديث النفس، لأن ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه تلاها فقال: لئن آخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى حتى سمع نسيجه فذكر لابن عباس فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن. قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد فتول "لا يكلف الله" وقرئ: فيغفر ويعذب، مجزومين عطفاً على جواب الشرط، ومرفوعين على فهو يغفر ويعذب. فإن قلت: كيف يقرأ الجازم؟ قلت: يظهر الراء ويدغم الباء. ومدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشاً. وراويہ عن أبي عمرو مخطئ مرتين، لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم. والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو. وقرأ الأعمش: يغفر بغير فاء مجزوماً على البديل من يحاسبكم، كقوله:

متى تأتينا تلمم بنا في ديارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا

ومعنى هذا البديل التفصيل لجملة الحساب، لأن التفصيل أوضح من المفصل، فهو جار مجرى بدل البعض من الكل أو بدل الاشتمال، كقولك: ضربت زيداً رأسه، وأحب زيداً عقله، وهذا البديل واقع في الأفعال وقوعه في الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

"آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" "والمؤمنون" إن عطف على الرسول كان الضمير - الذي التنوين نائب عنه في كل - راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أي كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين. ووقف عليه. وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين. ووجد ضمير كل من آمن على معنى: كل واحد منهم آمن، وكان يجوز أن يجمع، كقوله: "وكل أتوه داخرين" النمل: 87. وقرأ ابن عباس: وكتابه يريد القرآن أو الجنس وعنه الكتاب أكثر من الكتب. فإن قلت: كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ قلت: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس - والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها - لم يخرج منه شيء. فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع "لا نفرق" يقولون لا نفرق. وعن أبي عمرو: يفرق بالياء، على أن الفعل لكل. وقرأ عبد الله: لا يفرقون. و"أحد" في معنى الجمع، كقوله تعالى: "فما منكم من أحد عنه حاجزين" الحاقة: 47، ولذلك دخل عليه بين. "سمعنا" أجبتنا "غفرانك" منصوب بإضمار فعله. يقال: غفرانك لا كفرانك، أي نستغفرك ولا نكفرك وقرئ: وكتبه ورسله بالسكون.

"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"

الوسع: ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه، أي لا يكلفها إلا ما يستع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة وإجهود. وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى: "يريد الله بكم اليسر" الكهف: 185، لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة. وقرأ ابن أبي عتبة وسعها بالفتح "ها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر، لا يؤاخذ

بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها. فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكْتساب؟ قلت: في الاكْتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأماره به، كانت في تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال. أي لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا. فإن قلت: النسيان والخطأ متجاوز عنهما، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ قلت: ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإغفال. ألا ترى إلى قوله: "وما أنسانيه إلا الشيطان" الكهف: 63، والشيطان لا يقدر على فعل النسيان، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان، ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه. والإصر: العبء الذي يأصر حامله أي يحبس مكانه لا يستقبل به لثقله، استعير للتكليف الشاق، من نحو قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك. وقرئ: آصاراً على الجمع. وفي قراءة أبي: ولا تحمل علينا بالتشديد. فإن قلت: أي فرق بين هذه التشديدية والتي في "ولا تحملنا"؟ قلت: هذه للمبالغة في حمل عليه، وتلك لنقل حمله م مفعول واحد إلى مفعولين "ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به" من العقوبات النازلة بمن قبلنا، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التي كلفها من قبلهم، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها. وقيل: المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكليف. وهذا تكرير لقوله: "ولا تحمل علينا إصرأ". "مولانا" سيدنا ونحن عبيدك. أو ناصرنا. أو متولي أمورنا "فانصرنا" فمن حق المولى أن ينصر عبيده. أو فإن ذلك عادتلك. أو فإن ذلك من أمورنا التي عليك توليها. وعن ابن عباس.

"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا بهذه الدعوات، قيل له عند كل كلمة: قد فعلت" وعنه عليه الصلاة والسلام.

"من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه" وعنه عليه الصلاة والسلام.

"أوتيت خواتيم سورة البقرة من كثر تحت العرش لم يؤمن نبي قبلي" وعنه عليه السلام.

"أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأته عن قيام الليل. فإن قلت: هل يجوز أن يقال: قرأت سورة البقرة أو قرأت البقرة. قلت: لا بأس بذلك. وقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم من آخر سورة البقرة و خواتيم سورة البقرة و خواتيم البقرة.

وعن علي رضي الله عنه خواتيم سورة البقرة من كثر تحت العرش وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أنه رمى الجمرة ثم قال من ههنا - والذي لا إله غيره - رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف وسورة الممتحنة وسورة النجدة. وإذا قيل: قرأت البقرة، لم يشكل أن المراد سورة البقرة كقوله:

"واسأل القرية" يوسف: 82، وعن بعضهم أنه كره ذلك وقال: يقال قرأت السورة التي تذكر فيها البقرة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "السورة التي تذكر فيها البقرة فسقاط القرآن فتعلموها فإن تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة. قيل: وما البطلة؟ قال: السحرة".

سورة آل عمران

مدنية وهي مائتا آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"ألم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديدٌ والله عزيزٌ ذو انتقام" م حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام، وأن يبدأ ما بعدها كما تقول: واحد اثنان: وهي قراءة عاصم. وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف. فإن قلت: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام فلا تثبت حركتها لأن ثبات حركتها كثنائها؟ قلت: هذا ليس بدرج، لأن م في حكم الوقف والسكون والهمزة في حكم الثابت. وإنما حذف تخفيفاً وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها. ونظيره قولهم: واحد اثنان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال. فإن قلت: هلا زعمت أنها حركة لالتقاء الساكنين؟ قلت: لأن الالتقاء الساكنين لا يبالي به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق. ولو كان الالتقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمين في ألف لام ميم، لالتقاء الساكنين. ولما انتظر ساكن آخر. فإن قلت: إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في ميم، لأنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك فحركوا. قلت: الدليل على أن الحركة ليست لملاقاة الساكن أنه كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان، يسكون الدال مع طرح الهمزة، فيجمعوا بين ساكنين، كما قالوا: أصيم، ومديق. فلما حركوا الدال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين. فإن قلت: فما وجه قراءة عمرو بن عبيد بالكسر؟ قلت: هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين وما هي بمقولة. و"التوراة والإنجيل" اسمان أعجميان. وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل ووزنهما بتفعلة وأفعيل، إنما يصح بعد كونهما عربيين. وقرأ الحسن: الإنجيل، بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمة، لأن أفعيل - بفتح الهمزة - عديم في أوزان العرب. فإن قلت: لم قيل نزل الكتاب "وأنزل التوراة والإنجيل"؟ قلت: لأن القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابان جملة. وقرأ الأعمش: نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب "هدى للناس" أي لقوم موسى وعيسى. ومن قال نحن متعبدون بشرائع من قبلنا فسرّه على العموم. فإن قلت: ما المراد بالفرقان؟ قلت: جنس الكتب السماوية، لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل أو الكتب التي ذكرها كأنه قال بعد ذكر الكتب الثلاثة: وأنزل ما يفرق بين الحق والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور، كما قال: "وآتينا داود زبوراً" النساء: 163، وهو ظاهر. أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس، تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله "بآيات الله" من كتبه المتزلة وغيرها "ذو انتقام" له انتقام شديد لا يقدر على مثله منتقم.

"إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم" "لا يخفى عليه شيء" في العالم فعبر عنه بالسماء والأرض، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه "كيف يشاء" من الصور المختلفة المتفاوتة. وقرأ طاوس: تصوركم، أي صوركم لنفسه ولتعبده، كقولك: أثلت مالاً، إذا جعلته أثلة، أي أصلاً. وتأثلت، إذا أثلته لنفسك. وعن سعيد بن جبير: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، كأنه نبه بكونه مصوراً في الرحم، على أنه عبد كغيره، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

"هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب وأخر متشابهاتٌ فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب"

"محكمات" أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه "متشابهات" مشتبهات محتملات "هن أم الكتاب" أي أصل الكتاب تحمل التشابهات عليها وترد إليها، ومثال ذلك "لا تدركه الأبصار" الأنعام: 103، "إلى ربها ناظرة" القيامة: 23، "لا يأمر بالفحشاء" الأعراف: 27، "أمرنا مترفيها" الإسراء: 16. فإن قلت: فهلا كان القرآن كله محكماً؟ قلت: لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتنزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتاعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى احكم من الفوائد الجلية والعلوم الجملة ونيل الدرجات عند الله، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه احكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه "الذين في قلوبهم زيغٌ" هم أهل البدع "فيتبعون ما تشابه منه" فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق احكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق "ابتغاء الفتنة" طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوه "ابتغاء تأويله" وطلب أن يأولوه التأويل الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي ثبتوا فيه وتمكنوا وعصوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من يقف على قوله إلا الله، ويبتدئ والراسخون في العلم يقولون ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه، والأول هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل "يقولون آمنا به" أي بالمتشابه "كلٌّ من عند ربنا" أي كل واحد منه ومن احكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه "وما يذكر إلا أولوا الألباب" مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل ويجوز أن يكون "يقولون" حالاً من الراسخين. وقرأ عبد الله: إن تأويله إلا عند الله. وقرأ أبي: ويقول الراسخون.

"ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب، ربنا إنك جامع الناس ليومٍ لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد" "لا ترغ قلوبنا" لا تبلىنا ببلايا تزيع فيها قلوبنا "بعد إذ هديتنا" وأرشدتنا لدينك. أو لا تمنعنا أطافك بعد إذ لطفت بنا "من لدنك رحمةً" من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة. وقرئ لا ترغ قلوبنا، بالناء

والياء ورفع القلوب "جامع الناس ليوم" أي تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم، كقوله تعالى: "يوم يجمعكم ليوم الجمع" التغابن: 9، وقرئ: جامع الناس، على الأصل "إن الله لا يخلف الميعاد" معناه أن الإلهية تنافي خلف الميعاد كقولك:

إن الجواد لا يخيب سائله

والميعاد: الموعد. قرا علي رضي الله عنه: لن تغني بسكون الباء، وهذا من الجدل في استثقال الحركة على حروف اللين.

"إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً وأولئك هم وقود النار، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب، قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد" "من" في قوله: "من الله" مثله في قوله: "وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً" النجم: 28، والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله "شيئاً" أي بدل رحمته وطاعته وبدل الحق: ومنه: "ولا ينفع ذا الجدل منك الجد" أي لا ينفعه جده وحظه من الدنيا بذلك، أي بدل طاعتك وعبادتك وما عندك وفي معناه قوله تعالى: "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى" سبأ: 37، وقرئ: وقود، بالضم بمعنى أهل وقودها. والمراد بالذين كفروا من كفر برسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن ابن عباس: هم قريظة والنضير. الدأب: مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع الخل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم. ويجوز أن ينتصب محل الكاف بلن تغني، أو بالوقود. أي لن تغني عنهم مثل ما لم تغني عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم، تقول: إنك لتظلم الناس كدأب أبيك تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم، وإن فلاناً لحارف كدأب أبيه، تريد كما حورف أبوه "كذبوا بآياتنا" تفسير لدأبهم ما فعلوا وفعل بهم، على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم "قل للذين كفروا" هم مشركو مكة "ستغلبون" يعني يوم بدر. وقيل: هم اليهود. لما غلب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر قالوا: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى، وهما باتباعه. فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا. وقيل: جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع، فقال: يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أي نبي مرسل، فقالوا لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، لن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فترلت. وقرئ: سيغلبون ويحشرون، بالياء، كقوله تعالى: "قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم" الأنفال: 38، على قل لهم قل لي لك سيغلبون. فإن قلت: أي فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت: معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم. فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون وهو الكائن من نفس المتوعد به والذي يدل عليه اللفظ ومعنى القراءة بالياء الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. كأنه قال: أد إليهم هذا القول الذي هو قولي لك سيغلبون ويحشرون.

"قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعلوة لأولي الأبصار" "قد كان لكم آية" الخطاب لمشركي قريش "في فتنتين التقتا" يوم بدر "يرونهم"

مئليهم" يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين قريباً من ألفين. أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، أراهم الله إياهم مع قتلهم أضعافهم ليهابوهم ويجنبوا عن قتالهم، وكان ذلك مدداً لهم من الله كما أمدهم بالملأكة. والدليل عليه قراءة نافع: تروهم، بالتاء أي ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم. فإن قلت: فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال "ويقللکم في أعينهم" الأنفال: 44. قلت: قللوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم فلما لا قوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين. ونظيره من احمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: "فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌ" الرحمن: 39، وقوله تعالى: "وقفوههم إنهم مسؤولون" الصافات: 24، وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل: يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: "فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين" الأنفال: 66، بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى: "إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين" الأنفال: 65، ولذلك وصف ضعفهم بالقلة لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لا تساعد عليه. وقرأ ابن مصرف: يروهم، على البناء للمفعول بالياء والتاء، أي يريهم الله ذلك بقدرته. وقرئ: فئة تقاتل وأخرى كافرة، بالجر على البدل من فتيين، وبالنصب على الاختصاص. أو على الحال من الضمير في التقتا. "رأي العين" يعني رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، معانية كسائر المعانيات "والله يؤيد بنصره" كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

"زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب، قل أونيئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهرة ورضوانٌ من الله والله بصيرٌ بالعباد، الذين يقولون ربنا إنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار" "زين للناس" المزين هو الله سبحانه وتعالى للابتلاء، كقوله: "إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم" الكهف: 7، ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس، على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان. والله زينها لهم، لأننا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها "حب الشهوات" جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتتة محروصاً على الاستمتاع بها. والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية، وقال: "زين للناس حب الشهوات" ثم جاء التفسير، ليقرر أولاً في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله. والقنطار: المال الكثير. قيل: ملء مسك ثور. وعن سعيد بن جبير: مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا. و"المقنطرة" مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألف مؤلفة، وبدره مبدرة. و"المسومة" المعلمة، من السومة وهي العلامة. أو المطهمة أو المرعية من اسام الدابة وسومها "والأنعام" الأزواج الثمانية "ذلك" المذكور "متاع الحياة".

"للذين اتقوا عند ربهم جنات" كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم، كما تقول: هل أدلك على

رجل عالم؟ عندي رجل صفته كيت وكيت. ويجوز أن يتعلق اللام بخير. واختص المتقين، لأنهم هم المنتفعون به. وترتفع "جنات" على: هو جنات. وتنصره قراءة من قرأ جنات بالجر على البدل من خير "والله بصير بالعباد" يثيب ويعاقب على الاستحقاق، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم، فلذلك أعد لهم الجنات. "الذين يقولون" نصب على المدح، أو رفع. ويجوز الجر صفة للمتقين أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كما لهم في كل واحدة منها. وقد مر الكلام في ذلك. وخص الأسحار لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده "إليه يصع الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه" فاطر: 10، وعن الحسن: كانوا يصلون في أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار، هذا فهارهم، وهذا ليلهم.

"شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عن الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب" شبهت دلالة على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرار الملائكة وأولي العلم بذلك واحتجاجهم عليه "قائماً بالقسط" مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال، ويثيب ويعاقب، وما يأمر به عبادته من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه كقوله: "وهو الحق مصداقاً" البقرة: 91. فإن قلت: لما جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه. ولو قلت جاءني زيد وعمرو ركباً لم يجوز؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله: "وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة" الأنبياء: 72، إن انتصب نافلة حالاً عن يعقوب. ولو قلت: جاءني زيد وهند ركباً جاز لتمييزه بالذكر، أو على المدح. فإن قلت: أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة كقولك: الحمد لله الحميد.

"إنا معشر الأنبياء لا نورث". إنا بني هاشم لا ندعي لأب؟ قلت: قد جاء نكرة كما جاء معرفة. وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي:

وشعثاً مراضيع مثل السعالي

ويأوي إلى نسوة عطل

فإن قلت: هل يجوز أن يكون صفة للمنفي كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ قلت: لا يبعد، فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف. فإن قلت: قد جعلته حالاً من فاعل شهد، فهل يصح أن ينتصب حالاً عن هو في "لا إله إلا هو"؟ قلت: نعم، لأنها حال مؤكدة والحال مؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها، كقولك: أنا عبد الله شجاعاً. وكذلك لو قلت: لا رجل إلا عبد الله شجاعاً. وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد، وكذلك انتصابه على المدح. فإن قلت: هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولي العلم كما دخلت الوجدانية؟ قلت: نعم إذا جعلته حالاً من هو، أو نصباً على المدح منه، أو صفة للمنفي، كأنه قيل: شهد الله والملائكة وأولوا العلم أنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط. وقرأ عبد الله: القائم بالقسط، على أنه بدل من هو، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو حنيفة: قيماً بالقسط "العزيز الحكيم" صفتان

مقرران لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل، يعني أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله. فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذي عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يشبّهون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل والتوحيد. وقرئ: أنه بالفتح، و"إن الدين" بالكسر على أن الفعل واقع على أنه بمعنى شهد الله على أنه، أو بأنه. وقوله: "إن الدين عند الله الإسلام" جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت: فائدة أن قوله: "لا إله إلا هو" توحيد، وقوله: "قائماً بالقسط" تعديل، فإذا أردفه قوله: "إن الدين عند الله الإسلام" فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيهه أو ما يؤدي إليه كإجارة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بين جلي كما ترى. وقرئاً مفتوحين، على أن الثاني بدل من الأول. كأنه قيل: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، والبدل هو المبدل منه في المعنى، فكان بياناً صريحاً، لأن دين الله هو التوحيد والعدل. وقرئ الأول بالكسر والثاني بالفتح، على أن الفعل واقع على إن وما بينهما اعتراض مؤكد. وهذا أيضاً شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك. وقرأ عبد الله: أن لا إله إلا هو. وقرأ أب: إن الدين عند الله للإسلام، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية. وقرئ: شهداء الله، بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله، وبالرفع على هم شهداء الله. فإن قلت: فعلام عطف على هذه القراءة "والملائكة وأولو العلم"؟ قلت: على الضمير في شهداء، وجاز لوقوع الفاصل بينهما. فإن قلت: لم كرر قوله: "لا إله إلا هو" قلت: ذكره أولاً للدلالة على اختصاصه بالوجدانية، وأنه لا إله إلا تلك الذات المميزة، ثم ذكره ثانياً بعد ما قرن بإثبات الوجدانية إثبات العدل، للدلالة على اختصاصه بالأمرين، كأنه قال: لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين، ولذلك قرن به قوله: "العزيز الحكيم" لتضمنهما معنى الوجدانية والعدل "الذين أوتوا الكتاب" أهل الكتاب من اليهود والنصارى. واختلافهم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل "من بعد ما جاءهم العلم" أنه الحق الذي لا محيد عنه، فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوة فينا من قريش لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب، وهذا تجوير "بغياً بينهم" أي ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب هؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرياسة وحظوظ الدنيا، واستتباع كل فريق ناساً يطؤون أعقابهم، لا شبهة في الإسلام. وقيل: هو اختلافهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث آمن به بعض وكفر به بعض. وقيل: هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء، فمنهم من آمن بموسى، ومنهم من آمن بعيسى. وقيل هم اليهود، واختلافهم أن موسى عليه السلام حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بني إسرائيل، وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع، فلما مضى قرن بعد قرن اختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغياً بينهم وتحاسداً على حظوظ الدنيا والرياسة. وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله.

"فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمة إن أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليكم البلاغ والله بصير بالعباد" "فإن حاجوك" فإن جادلوك في الدين "فقل أسلمت وجهي لله" أي

أخلصت نفسي وجهلي لله وحده لم أجعل فيها لغيره شريكاً بأن أعبدوه وإلهاً معه؛ يعني أن ديني التوحيد وهو الدين القيم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه. ونحوه "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً" آل عمران: 64، فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه؛ فما معنى المحاجة فيه؟ "ومن اتبعن" عطف على التاء في أسلمت وحسن للفاصل. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولاً معه "وقل للذين أوتوا الكتاب" من اليهود والنصارى "والأمة" والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب "أسلمتم" يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضي حصوله لا محالة؛ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تب من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها لا أم لك، ومنه قوله عز وعلا "فهل أنتم منتهون" المائدة: 91، بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر. وفي هذا الاستفهام استقصار وتعبير بالمعاندة وقلة الإنصاف، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق، وللمعاندة بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداده بينه وبين الإذعان، وكذلك في: هل فهمتها؟ توبيخ بالبلادة وكلة القريحة. وفي "فهل أنتم منتهون" المائدة: 91، بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه "فإن أسلموا فقد اهتدوا" فقد نفخوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور "وإن تولوا" لم يضروك فإنك رسول منبه عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

"إن الذين كفروا بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم، أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين" قرأ الحسن: يقتلون النبيين وقرأ حمزة: ويقتلون الذين يأمرون وقرأ عبد الله: وقاتلوا وقرأ أبي: يقتلون النبيين، والذين يأمرون. وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لولا عصمة الله. وعن أبي عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: "رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر" ثم قرأها ثم قال: "يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنان عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمرؤا قتلتهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار" في الدنيا والآخرة لأن لهم اللعنة والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. فإن قلت: لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلت: لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الذين يكفرون فيبشروهم بمعنى من يكفر فيبشروهم، وإن لا تغير معنى الابتداء فكأن دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها ليت أو لعل لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

"ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون، ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون، فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون" أوتوا نصيباً من الكتاب يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيباً وافرًا من التوراة. و من إما للتبعض وإما للبيان، أو حصلوا من جنس الكتب المتزلة أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم "يدعون إلى كتاب الله" وهو التوراة "ليحكم بينهم" وذلك

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت؟ قال: على ملة إبراهيم. قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما: إن بيننا وبينكم التوراة، فهلموا إليها فأبيا. وقيل نزلت في الرجم، وقد اختلفوا فيه. وعن الحسن وقتادة: كتاب الله القرآن؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه "ثم يتولى فريق منهم" استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب "وهم معرضون" وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم. وقرئ ليحكم على البناء للمفعول. والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم: وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة ليحكم بين الحق والمبطل منهم، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا. وذلك أن قوله: "ليحكم بينهم" يقتضي أن يكون اختلافاً واقعاً فيما بينهم، لا فيما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم "ذلك" التولي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت الجبرة والحشوية "وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون" من أن آباءهم هم الأنبياء يشفعون لهم كما غرت أولئك شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كبائرهم "فكيف إذا جمعناهم" فكيف يصنعون فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعد لهم وقبولهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون. وروي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود، فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار "وهم لا يظلمون" يرجع إلى كل نفس على المعنى، لأنه في معنى كل الناس كما تقول: ثلاثة أنفس، تريد ثلاثة أناسي.

"قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير"، تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب" الميم في "اللهم" عوض من يا، ولذلك لا يجتمعان. وهذا بعض خصائص هذا الاسم كما اختص بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف، وبقطع همزته في يا الله، وبغير ذلك "مالك الملك" أي تملك جنس الملك فتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون "تؤتي الملك من تشاء" تعطي من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك "وتزعج الملك ممن تشاء" النصيب الذي أعطيته منه، فالملك الأول عام شامل، والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روى.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لحمد ملك فارس والروم؟ هم أعز وأمنع من ذلك. وروي

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتها، لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر وكبر المسلمون وقال: أضأت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضأت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضأت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على كلها، فأبشروا. فقال المنافقون: ألا تعجبون، يمينكم ويعدكم الباطل،

ويخبركم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، فقلت: فإن قلت: كيف قال: "بيدك الخير" فذكر الخير دون الشر؟ قلت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه. ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة الحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب دلالة من يشاء من عباده، فهو قادر على أن يترع الملك من العجم ويذهب ويؤتيه العرب ويعزهم وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام "كما تكونوا يولى عليكم".

"لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتشوا منهم تقاة" ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير" نحا أن يوالوا الكافرين لقربة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر، وقد كرر ذلك في القرآن "ومن يتولهم منكم فإنه منهم" المائدة: 51، "لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء" المائدة: 50، "لا تجد قوماً يؤمنون بالله..." الآية المجادلة: 22. والحب في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان "من دون المؤمنين" يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثرهم عليهم "ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء" ومن يوالي الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً، وهذا أمر معقول فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان، قال:

تود عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس النوك عنك بعازب

"إلا أن تتقوا منهم تقاة" إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. وقرئ: تقية. قيل للمتقي تقاة وتقية، كقولهم: ضرب الأمير لمضروبه. رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء، وانتظار زوال المانع من قشر العصا، كقول عيسى صلوات الله عليه كن وسطاً وامش جانباً "ويحذركم الله نفسه" فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد. ويجوز أن يضمن "تتقوا" معنى تحذروا وتخافوا، فيعدي بمن وينتصب "تقاة" أو تقية على المصدر، كقوله تعالى: "اتقوا الله حق تقاته" آل عمران:

102.

"قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير" "إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه" من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضي الله "يعلمه" ولم يخف عليه وهو الذي "ويعلم ما في السموات وما في الأرض" لا يخفى عليه من شيء قط. فلا يخفى عليه سرهم وعلنكم "والله على كل شيء قدير" فهو قادر على عقوبتكم. وهذا بيان لقوله: "ويحذركم الله نفسه" آل عمران: 28، لأن نفسه وهي ذاته

المميزة من سائر الذوات، متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهي قادرة على المقدرات كلها، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله، فوكل همه بما يورد ويصدر، ونصب عليه عيوناً، وبث من يتجسس عن بواطن أموره، لأخذ حذره وتيقظ في أمره، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أن العالم الذات الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترِكَ.

"يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوفٌ بالعباد" "يوم تجد" منصوب بتود. والضمير في بينه لليوم، أي يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً. ويجوز أن ينتصب "يوم تجد" بمضمر نحو: اذكر، ويقع على ما عملت وحده، ويرتفع "وما عملت" على الابتداء، و"تود" خبره، أي: والذي عملته من سوء تود هي لو تباعد ما بينها وبينه. ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع تود. فإن قلت: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله ودت؟ قلت: لا كلام في صحته، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامة. ويجوز أن يعطف "وما عملت" على "ما عملت" ويكون "تود" حالاً، أي يوم تجد عملها محضراً وادة تباعد ما بينها وبين اليوم أو عمل السوء محضراً، كقوله تعالى: "ووجدوا ما عملوا حاضراً" الكهف: 49، يعني مكتوباً في صحفهم يقرؤنه ونحوه "فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه" المجادلة: 6. والأمد المسافة كقوله تعالى: "يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين" الزخرف: 38، وكرر قوله: "ويحذركم الله نفسه" ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه "والله رؤوفٌ بالعباد" يعني أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه. وعن الحسن: من رأفته بهم أن حذرهم نفسه. ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً عللمه وقدرته، مرجو لسعة رحمته كقوله تعالى: "إن ربك لذو مغفرة وذو عقابٍ أليم" فصلت: 43.

"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيمٌ، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين" محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها. ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم. والمعنى: إن كنتم مريدين لعباد الله على الحقيقة "فاتبعوني" حتى يصح ما تدعونه من إرادة عبادته، يرض عنكم ويغفر لكم. وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه. وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكره ويطرب وينعر ويصعق فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله ولا يدري ما محبة الله. وما تصفيقه وطربه ونعرتة وصعقته إلا أنه تصور في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسامها الله بجهله ودعارته، ثم صفق وطرب ونعر وصعق تصورها، وربما رأيت المني قد ملأ إزار ذلك الحب عند صعقته، وحقى العامة على حوالبه قد ملؤا أدرانهم بالدموع لما رققهم من حاله. وقرئ: تحبون. ويحببكم ويحبكم، من حبه يحبه. قال:

وأعلم أن الرفق بالجار أرفق

ولا كان أدنى من عبيدٍ ومشرق

أحب أبا ثروان من حب تمره

ووالله لولا تمره ما حبيبته

"فإن تولوا" يحتمل أن يكون ماضياً، وأن يكون مضارعاً بمعنى: فإن تتولوا، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم. "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذريةً بعضها من بعضٍ والله سميعٌ عليمٌ، إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت رب إنني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأُنثى وإنني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب"

"آل إبراهيم" إسماعيل وإسحاق وأولادهما. "آل عمران" موسى وهارون ابنا عمران بن يصر. وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة. و"ذرية" بدل من آل إبراهيم وآل عمران "بعضها من بعض" يعني أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض: موسى وهارون من عمران، وعمران من يصر، ويصر من فاهث، وفاهث من لاوى، ولاوى من يعقوب، ويعقوب من إسحاق. وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق. وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: بعضها من بعض في الدين، كقوله تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض" التوبة: 67، "والله سميعٌ عليمٌ" يعلم من يصلح للاصطفاء، أو يعلم أن بعضهم من بعض في الدين. أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها. و"إذ" منصوب به. وقيل: بإضمار اذكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان، أم مريم البتول. جدة عيسى عليه السلام، وهي حنة بنت فاقوذ. وقوله: "إذ قالت امرأة عمران" على أثر قوله: "وآل عمران" مما يرجح أن عمران هو عمران بن ماثان جد عيسى، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرن بإبراهيم كثيراً في الذكر. فإن قلت: كانت لعمران بن يصر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهارون، ولعمران بن ماثان مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهارون؟ قلت: كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول، لأن زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، وقد تزوج زكريا بنته إيشاع أخت مريم فكان يحيى وعيسى ابني خالة. روي أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك علي نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل "محرراً" معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يد لي عليه ولا أستخدمه ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. وروي: أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل. وعن الشعبي "محرراً": مخلصاً للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق ذكراً "فلما وضعتها" الضمير ل ما في بطني وإنما أنت على المعنى لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله، أو

على تأويل الحيلة أو النفس أو النسمة. فإن قلت: كيف جاز انتصاب "أنثى" حالاً من الضمير في وضعتها وهي كقولك وضعت الأنثى أنثى؟ قلت: الأصل: وضعت أنثى، وإنما أنثى لتأنيث الحال؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنت الاسم في "ما كانت أمك" لتأنيث الحال؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد، كما أنت الاسم في "ما كانت أمك" لتأنيث الخبر ونظيره قوله تعالى: "فإن كانتا اثنتين" النساء: 176، وأما على تأويل الحيلة أو النسمة فهو ظاهر، كأنه قيل: إني وضعت الحيلة أو النسمة أنثى. فإن قلت: فلم قالت: إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: فالتة تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها. فتحزنت إلى ربما لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً، ولذلك نذرتة محرراً للسدانة. ولتكلّمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: "والله أعلم بما وضعت" تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لما بقدر ما وهب لها منه. ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً. فلذلك تحسرت. وفي قراءة ابن عباس والله أعلم بما وضعت على خطاب الله تعالى لها أي إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره. وقرئ: وضعت. بمعنى: ولعل الله تعالى فيه سراً وحكمة، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر تسليّة لنفسها. فإن قلت: فما معنى قوله: "وليس الذكر كالأنثى"؟ قلت: هو بيان لما في قوله: "والله أعلم بما وضعت" من التعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، واللام فيهما للعهد. فإن قلت: علام عطف قوله: "وإني سميتها مريم"؟ قلت: هو عطف على إني وضعتها أنثى، وما بينهما جملتان معترضان، كقوله تعالى: "وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيمٌ"

الواقعة: 76، فإن قلت: فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ قلت: لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، فأرادت بذلك التقريب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق فيها ظنها بما. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعادة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه. وما يروى من الحديث. "ما من مولد يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها" فإله أعلم بصحته. فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتها كقوله تعالى: "لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين" الحجر: 40-41، واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلّا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وغياطاً مما يبلونا به من نخسه "فتقبلها ربها" فرضي بها في النذر مكان الذكر "بقبول حسن" فيه وجهان: أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء كالسقوط والدود، لما يسقط به ويلد، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. وروي: أن حنة حين ولدت مريم، لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون،

وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنو مائان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتيها فقالوا: لا حتى نقترع عليها، فانطلقوا - وكانوا سبعة وعشرين - إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فتكفلها. والثاني: أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى: فتقبلها بذي قبول حسن، أي بأمر ذي قبول حسن وهو الاختصاص. ويجوز أن يكون معنى "فتقبلها" فاستقبلها، كقولك: تعجله بمعنى استعجله، وتقصاه بمعنى استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من استقبل الأمر إذا أخذه بأوله وعنفوانه قال القطامي:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعاً

ومنه المثل خذ الأمر بقوابله. أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن "وأنتها نباتاً حسناً" مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. وقرئ: وكفلها زكريا، بوزن وعملها "وكفلها زكريا" بتشديد الفاء ونصب زكرياء، والفعل لله تعالى بمعنى: وضمها إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها. ويؤيدها قراءة أبي: وأكفلها، من قوله تعالى: "فقال أكفلنيها" ص: 23، وقرأ مجاهد: فتقبلها ربها، وأنتها، وكفلها، على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ربها، تدعو بذلك، أي فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها. قيل: بنى لها زكريا محراباً في المسجد، أي غرفة يصعد إليها بسلم. وقيل: الخراب أشرف المجالس ومقدمها، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدهم تسمى الخراب. وروي: أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب. "وجد عندها رزقاً" كان رزقها يترل عليها من الجنة ولم ترضع ثدياً قط، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء "أني لك هذا" من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك "قالت هو من عند الله" فلا تستبعد. قيل تكلمت وهي صغيرة كما تكلم عيسى وهو في المهد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم آثرته بها، فرجع بها إليها، وقال: هلمي يا بنية فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله، فقال لها صلى الله عليه وسلم: أنى لك هذا؟ فقالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل، ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانه. "إن الله يزرق" من جملة كلام مريم عليها السلام، أو من كلام رب العزة عز من قائل "بغير حساب" بغير تقدير لكثرة، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

"هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في الخراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصواً ونبياً من الصالحين، قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة

أيامٍ إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار" "هنالك" في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في الخراب أو في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان. لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومثلتها، رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك. وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر "ذرية" ولداً. والذرية يقع على الواحد والجمع "سميع الدعاء" مجيبه. قرئ: فناداه الملائكة. وقيلك ناداه جبريل عليه السلام، وإنما قيل الملائكة على قولهم: فلان يركب الخيل "أن الله يبشرك" بالفتح على بأن الله، وبالكسر على إرادة القول. أو لأن النداء نوع من القول. وقرئ: يبشرك، ويبشرك، من بشره وأبشره. ويبشرك بفتح الياء من بشره. ويحيى إن كان أعجباً وهو الظاهر فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كي عمر "مصدقاً بكلمة من الله" مصداقاً بعيسى مؤمناً به. قيل هو أول من آمن به، وسمي عيسى كلمة لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: كن من غير سبب آخر. وقيل: مصداقاً بكلمة من الله، مؤمناً بكتاب منه. وسمي الكتاب كلمة، كما قيل كلمة الخويدرة لقصيدته. والسيد: الذي يسود قومه، أي يفوقهم في الشرف. وكان يحيى فائقاً لقومه وفائقاً للناس كلهم في أنه لم يركب سيئة قط، ويا لها من سيادة. والحصور: الذي لا يقرب النساء حصراً لنفسه أي منعاً لها من الشهوات. وقيل هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأخطل:

وشاربٍ مريحٍ بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسئار

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو. وقد روي أنه مر وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت "من الصالحين" ناشئاً من الصالحين، لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين كقوله: "وإنه في الآخرة لمن الصالحين" البقرة: 130. "أنى يكون لي غلام" استبعاد من حيث العادة كما قالت مريم. "وقد بلغني الكبر" كقولهم: أدركته السن العالية. والمعنى أثر في الكبر فأضعفني، وكانت له تسع وتسعون سنة، ولا مرآته ثمان وتسعون "كذلك" أي يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر، أو كذلك الله مبتدأ وخبر، أي على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء بيان له، أي يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات "آية" علامة أعرف بها الحبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر "قال آيتك ألا" تقدر على تكليم الناس "ثلاثة أيام" وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة، مع إبقاء قدرته على التكليم بذكر الله، ولذلك قال: "واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار" يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة. فإن قلت: لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت: ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذي طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقاً من السؤال. ومنتزعاً منه "إلا رمزاً" إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما وأصله التحرك. يقال ارتقمز: إذا تحرك. ومنه

قليل للبحر الراموز. وقرأ يحيى ابن وثاب إلا رمزاً بضميتين، جمع رموز كرسول ورسول. وقرئ: رمزاً بفتحيتين جمع رامز كخادم وخدم، وهو حال منه ومن الناس دفعة كقوله:

روانف إيتيك وتستطارا

متى ما تلقني فردين ترجف

بمعنى إلا مترامين، كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم. والعشي: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب. و"الإبكار" من طلوع الفجر إلى وقت الضحى. وقرئ والأبكار، بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وأسحر. يقال: أتيت به بكرةً بفتحيتين. فإن قلت: الرمز ليس من جنس الكلام؛ فكيف استثنى منه؟ قلت: لما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاماً. ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً.

"وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين" "يا مريم" روي أنهم كلموها شفاهاً معجزة لذكريا أو إرهافاً لنبوة عيسى "اصطفاك" أولاً حين تقبلتك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية "وطهرك" مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود "واصطفاك" آخر "على نساء العالمين" بأن وهب لك عيسى من غير أب؛ ولم يكن ذلك لأحد من النساء. أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود؛ لكونهما من هيات الصلاة وأركانها؛ ثم قيل لها "واركعي مع الراكعين" بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أي في الجماعة؛ أو انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم. ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

"ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون"

"ذلك" إشارة إلى ما سبق من نيا زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعني أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكروين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه "وما كنت بجانب الغربي" القصص: 44، "وما كنت بجانب الطور" القصص: 46، "وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم" يوسف: 102، "أقلامهم" أزالامهم وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين. وقيل: هي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، اختاروها للقرعة تبركاً بها "إذ يختصمون" في شأنها تنافساً في التكفل بها. فإن قلت: "أيهم يكفل" بم يتعلق؟ قلت: بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل، أو ليعلموا، أو يقولون.

"إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشرٌ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بني

إسرائيل أني قد جنتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهينة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجنتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم

"المسيح" لقب من اولقاب المشرفة، كالصديق والفاروق، وأصله مشيحاً بالعبرانية، ومعناه المبارك، كقوله: "وجعلني مباركاً أينما كنت" مريم: 31، وكذلك "عيسى" معرب من أيشوع. ومشتقهما من المسح والعيس، كالراقم في الماء. فإن قلت: "إذ قالت" بما يتعلق؟ قلت: هو بدل من "وإذ قالت الملائكة" ويجوز أن يبدل من "إذ يختصمون" على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا. فإن قلت: لم قيل: عيسى ابن مريم والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين. فإن قلت: لم ذكر ضمير الكلمة؟ قلت لأن المسمى بها مذكر. فإن قلت: لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنه قيل: الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة "وجيهاً" حال من "كلمة" وكذلك قوله: ومن المقربين ويكلم ومن الصالحين أي يبشر به موصوفاً بهذه الصفات. وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة. والوجهة في الدنيا: النبوة والتقدم على الناس. وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة. وكونه "من المقربين" رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة. والمهد: ما يمهد للصبي من مضجعه، سمي بالمصدر. و"في المهد" في محل النصب على الحال "وكهلاً" عطف عليه بمعنى: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً. ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء. ومن بدع التفاسير أن قولها: رب نداء لجبريل عليه السلام بمعنى يا سيدي "ونعلمه" عطف على يبشر، أو على وجيهاً أو على يخلق، أو هو كلام مبتدأ. وقرأ عاصم ونافع: ويعلمه، بالياء. فإن قلت: علام تحمل: ورسولاً، ومصدقاً من المنصوبات المتقدمة، وقوله: "أنني قد جنتكم" و"لما بين يدي" يأبي حمله عليها؟ قلت: هو من المضائق، وفيه وجهان: أحدهما أن يضم له وأرسلت على إرادة القول؛ تقديره: ونعلمه الكتاب والحكمة، ويقول أرسلت رسولاً بأني قد جنتكم. ومصدقاً لما بين يدي. والثاني أن الرسول والمصدق فيهما معنى النطق، فكأنه قيل: وناطقاً بأني قد جنتكم، وناطقاً بأني أصدق ما بين يدي وقرأ البيهقي: ورسول: عطفاً على كلمة "أنني قد جنتكم" أصله أرسلت بأني قد جنتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل، و"أنني أخلق" نصب بدل من "أنني قد جنتكم" أو جر بدل من آية، أو رفع على: هي أني أخلق لكم، وقرئ: إني، بالكسر على الاستئناف، أي أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير "فأنفخ فيه" الضمير للكاف، أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير "فيكون طيراً" فيصير طيراً كسائر الطيور حياً طياراً. وقرأ عبد الله: فأنفخها قال:

كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما

وقيل: لم يخلق غير الخفاش "الأكمة" الذي ولد أعمى، وقيل: هو المسوح العين. ويقال: لم يكن في هذه الأمة أكمة غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروي أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر "ياذن الله" دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية. وروي: أنه أحيا سام بن نوح وهم ينظرون، فقالوا هذا سحر فأرنا آية، فقال: يا فلان أكلت كذا، ويا فلان خبي لك كذا. وقرئ تذخرون، بالذال والتخفيف "ولأحل" رد على قوله: "بآية من ربكم" أي جنتكم بآية من ربكم، ولأحل لكم ويجوز أن يكون "مصدقاً" مردوداً عليه أيضاً، أي جنتكم بآية وجنتكم مصداً. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى: الشحوم والشروب ولحوم الإبل، والسّمك، وكل ذي ظفر، فأحل لهم عيسى بعض ذلك. قيل: أحل لهم من السمك والطير ما لا صيصية له. واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرئ حرم عليكم على تسمية الفاعل، وهو ما بين يدي من التوراة، أو الله عز وجل، أو موسى عليه السلام؛ لأن ذكر التوراة دل عليه، ولأنه كان معلوماً عندهم. وقرئ: حرم، بوزن كرم "وجنتكم بآية من ربكم" شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله: "إن الله ربي وربكم" لأن جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه، وقرئ بالفتح على البديل من "آية". وقوله: "فاتقوا الله وأطيعون" اعتراض، فإن قلت: كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت لأن الله تعالى جعله له علامة يعرف بها أنه رسول كسائر الرسل، حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال. ويجوز أن يكون تكريراً لقوله: "جنتكم بآية من ربكم" أي جنتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، من خلق الطير، والإبراء، والإحياء، والإنباء بالخفايا، وبغيره من ولادتي بغير أب، ومن كلامي في المهدي، ومن سائر ذلك. وقرأ عبد الله. وجنتكم بآيات من ربكم، فاتقوا الله لما جنتكم به من الآيات، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه. ثم ابتداء فقال: "إن الله ربي وربكم" ومعنى قراءة من فتح: ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه، كقوله: "لايلاف قريش.... فليعبدوا" قريش: 1-3، ويجوز أن يكون المعنى: وجنتكم بآية على أن الله ربي وربكم وما بينهما اعتراض.

"فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين" "فلما أحس" فلما علم منهم "الكفر" علماً لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس. و "إلى الله" من صلة أنصاري مضمناً معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله، ينصرونني كما ينصروني، أو يتعلق بمحذوف حالاً من الياء، أي من أنصاري، ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه "نحن أنصار الله" أي أنصار دينه ورسوله. وحواري الرجل: صفوته وخالصته. ومنه قيل: للحضرىات الحواريات خلوص ألوانهن ونظافتهن قال:

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النواج

وفي وزنه الحواري، وهو الكثير الحيلة. وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم، لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم "مع الشاهدين" مع الأنبياء الذين يشهدون لأهمهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية. وقيل: مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم شهداء على الناس "ومكروا" الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر،

ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة "ومكر الله" أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل "والله خير الماكرين" أقواهم مكرًا وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

"إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذي اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين"

"إذ قال الله" ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله "إني متوفيك" أي مستوفي أجلك. معناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار؛ ومؤخره إلى أجل كتيبه لك. ومميتك حتف أنفك لا قتيلاً بأيديهم "ورافعك إلي" إلى سمائي ومقر ملائكتي "ومطهرك من الذين كفروا" من سوء جوارهم وخبث صحبتهم. وقيل متوفيك: قابضك من الأرض، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته: وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن: وقيل: متوفي نفسك بالنوم من قوله: "والتي لم تمت في منامها" الزمر: 42، ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب "فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة" يعلوهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيوف، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى "فأحكم بينكم" تفسير الحكم قوله: "فأعذبهم.... فنوفيهم أجورهم" وقرئ فيوفيهم بالياء.

"ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم" "ذلك" إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره "نتلوه" و"من الآيات" خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف. ويجوز أن يكون بمعنى الذي، ونتلوه صلتته. ومنالآيات الخبر، ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر يفسره نتلوه "والذكر الحكيم" القرآن، وصف بصفة من هو سببه، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

"إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" "إن مثل عيسى" إن شاء عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم. وقوله: "خلقه من تراب" جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم أي خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم، وكذلك حال عيسى. فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب، ووجد آدم من غير أم؟ قلت: هو مثيله في إحدى الطرفين، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأحرق للعادة من الوجود بغير أب، فشبه الغريب بالأغرب؛ ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم: لم تعبدون عيسى، قالوا: لأنه لا أب له. قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يحيي الموتى. قال: فحزقيل أولى، لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. قالوا: كان يري الأكمة والأبرص. قال: فجرجيس أولى، لأنه طبخ وأحرق ثم قام سالماً. "خلقه من تراب" قدره جسداً من طين "ثم قال له كن" أي أنشأه بشراً كقوله "ثم أنشأناه خلقاً آخر" المؤمنون: 14، "فيكون" حكاية حال ماضية.

"الحق من ربك" "الحق من ربك فلا تكن من الممترين" خبر مبتدأ محذوف، أي هو الحق كقول أهل خير: محمد واخميس ونهيه عن الامتراء - وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً - من باب التهيج لزيادة

الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره.

"فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين" "فمن حاجك" من النصارى "فيه" في عيسى "من بعد ما جاءك من العلم" أي من البينات الموجبة للعلم "تعالوا" هلموا. والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول تعال نفكر في هذه المسألة "ندع أبناءنا وأبناءكم" أي يدع كل مني ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة "ثم نبتهل" ثم نتباهل بأن نقول بجملة الله على الكاذب منا ومنكم. والبهلة بالفتح، والضم: اللعنة. وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته من قولك أهمله إذا أهمله. وناقاة باهل: لاصرار عليها وأصل الابتهاال هذا، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً. وروي:

"أنهم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي وعلي خلفها وهو يقول: "إذا أنا دعوت فأمنوا، فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نفرك على دينك ونثبت على ديننا قال: "إذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم" فأبوا. قال: "فإني أنا جزكم" فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصلحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة: ألف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد. فصالحهم على ذلك وقال: "والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعتوا مسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا" وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من رجل من شعر أسود. فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي، ثم قال: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت" الأحزاب: 33. فإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل. ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويمسسون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق. وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها. وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام. وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم

لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

"إن هذا هو القصص وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم، فإن تولوا فإن الله عليهم بالمفسدين" "إن هذا" الذي قص عليكم من نبأ عيسى "هو القصص الحق" قرئ بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون، لأن اللام تنزل من "هو" مثالة بعضه، فحفف كما خفف عضد. وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره. والجملة خبر إن. فإن قلت: لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلت: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز، لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. و من في قوله: "وما من إله إلا الله" بمثالة البناء على الفتح في لا إله إلا الله في إفادة معنى الاستغراق، والمراد الرد على النصارى في تنليتهم "فإن الله عليهم بالمفسدين" وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله: "زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون" النحل: 88.

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون، يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين" "يا أهل الكتاب" قيل هم أهل الكتابين. وقيل: وفد نجران. وقيل: يهود المدينة "سواء بيننا وبينكم" مستوية بيننا وبينكم، لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل. وتفسير الكلمة قوله: "ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله" يعني تعالوا إليها حتى لا نقول: عزيز ابن الله، ولا المسيح ابن الله، لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلاً، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، كقوله تعالى: "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً" التوبة: 31، وعن عدي بن حاتم: ما كنا نعبدكم يا رسول الله، قال: اليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم. قال: نعم. قال: هو ذاك" وعن الفضيل: لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وقرئ كلمة بسكون اللام. وقرأ الحسن سواء بالنصب بمعنى استوت استواء "فإن تولوا" عن التوحيد "فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" أي لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما: اعترف بأني أنا الغالب وسلم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه: اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره. زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، وجادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيه ففيل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟ "أفلا تعقلون" حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال الخال "ها أنتم هؤلاء" ها للتنبيه، وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره. و "حاججتم" جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى، يعني أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم "فيما لكم به علم" مما نطق به التوراة والإنجيل "فلم تحاجون فيما ليس لكم به

علم" ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش: ها أنتم هو أنتم على الاستفهام. فقلبت الهمزة هاء. ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم فيه "وأنتم" جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا "حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين" كما لم يكن منكم. أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح "إن أولى الناس بإبراهيم" إن أحصهم به وأقربهم منه من الولي وهو القرب "للذين اتبعوه" في زمانه وبعده "وهذا النبي" خصوصاً "والذين آمنوا" من أمته. وقرئ: وهذا النبي بالنصب عطفًا على الهاء في اتبعوه، أي اتبعوه واتبعوا هذا النبي. وبالجر عطفًا على إبراهيم.

"ودت طائفةً من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون، يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون" "ودت طائفةً هم اليهود، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية" وما يضلون إلا أنفسهم" وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم. أو وما يقدرون على إضلال المسلمين. وإنما يضلون أمثالهم من أشياعهم "بآيات الله" بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها: أنهم لا يؤمنون بما نقت به من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرها. وشهادتهم: اعترافهم بأنها آيات الله. أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة الرسول "وأنتم تشهدون" نعتهم في الكتابين. أو تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق. قرئ تلبسون بالتشديد وقرأ يحيى بن وثاب تلبسون بفتح الباء أي تلبسون الحق مع الباطل. كقوله: "كلابس ثوبي زور". وقوله:

إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

"ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتي أحدٌ مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم" "وجه النهار" أوله. قال:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

والمعنى: أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار "واكفروا" به في آخره لعلهم يشكون في دينهم ويقولون: ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد يتبين لهم فيرجعون برجوعكم. وقيل: تواطأ اثنا عشر من أبحار يهود خير، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد، واكفروا به آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه وبطلان دينه فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم. وقيل: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أول النهار، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة، وعللهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون "ولا تؤمنوا" متعلق بقوله: "أن يوتي أحدٌ" وما بينهما اعتراض. أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يوتي أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا

يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لنلا يدعوهم إلى الإسلام "أو يحاجوكم عند ربكم" عطف على أن يؤتى والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالونكم عند الله تعالى بالحجة. فإن قلت: فما معنى الاعتراض؟ قلت: معناه أن الهدى هدى الله، من شاء أن يلفظ به حتى يسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين، وكذلك قوله تعالى: "قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء" يريد الهداية والتوفيق. أو يتم الكلام عند قوله: "إلا لمن تبع دينكم" على معنى: ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم: إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغبط لهم. وقوله: "أن يؤتى" معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه، لا لشيء آخر، يعني أن ما بكم من الحسد والبغي - أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب - دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: أن يؤتى أحد بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد. فإن قلت: فما معنى قوله: "أو يحاجوكم" على هذا؟ قلت: معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم. ويجوز أن يكون "هدى الله" بدلاً من الهدى، و "أن يؤتى أحد" خبر إن، على معنى: قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حججتكم. وقرئ: إن يؤتى أحد. على إن النافية، وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقلوا لهم: ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم، يعني ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم، ويجوز أن ينتصب "أن يؤتى" بفعل مضمر يدل عليه قوله: "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله، فلا تنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؛ لأن قولهم "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

"ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيلٌ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين"

عن ابن عباس "من إن تأمنه بقنطار" هو عبد الله بن سلام، استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه. و "من إن تأمنه بدينار" فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فجحدته وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى، لغلبة الأمانة عليهم. والخائنون في القليل اليهود، لغلبة الخيانة عليهم "إلا ما دمت عليه قائماً" إلا مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقرئ: يؤده بكسر الهاء والوصل، وبكسرهما بغير وصل، وبسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب: تثنى، بكسر التاء. ودمت بكسر الدال من دام يدام "ذلك" إشارة إلى ترك الأداء الذي دل عليه لم يؤده، أي تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم "ليس علينا في الأميين سبيلٌ" أي لا يتطرق علينا عتاب وذم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم، لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا:

ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها: "كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر" وعن ابن عباس أنه سأل رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل. إنهم إذا أدوا الجزية لم يحل لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم. "ويقولون على الله الكذب" بادعائهم أن ذلك في كتابهم "وهم يعلمون" أنهم كاذبون "بلى" إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أي بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: "من أوفى بعهد" جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدت بلى مسدها، والضمير في بعهد راجع إلى من أوفى، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه. فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهدهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهد وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لا تقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، على كل من وفي بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء. فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير. وعن ابن عباس: نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب.

"إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون" "يشترون" يستبدلون "بعهد الله" بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم "وأيمانهم" وبما حلفوا به من قولهم. والله لنؤمنن به ولننصرنه "ثمناً قليلاً" متاع الدنيا من الترويس والارتشاء ونحو ذلك. وقيل: نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وحبي بن أخطب، حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذوا الرشوة على ذلك. وقيل: جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه. فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه وقالوا: قد غلطنا وليس هو بالنعته الذي نعت لنا، ففرح ومارهم. وعن الأشعث بن قيس:

نزلت في، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "شاهدك أو يمينه" فقلت إذن يحلف ولا يبالي فقال "من حلف على يمين يستحق بها ما لا هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان" وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه. والوجه أن نزولها في أهل الكتاب. وقوله: "بعهد الله" يقوي رجوع الضمير في بعده إلى الله "ولا ينظر إليهم" مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول: فلان لا ينظر إلى فلان، تريد نفى اعتداده به وإحسانه إليه "ولا يزكيهم" ولا يثني عليهم. فإن قلت: أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه؟ قلت: أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية، لأن

من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر "لفريقاً" هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحبي بن أخطب وغيرهم "يلوون ألسنتهم بالكتاب" يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى الحرف وقرأ أهل المدينة: يلوون، بالتشديد، كقوله: "لووا رؤوسهم" المنافقون: 5. وعن مجاهد وابن كثير: يلوون ووجهه أنهما قلبا الواو المضمومة همزة، ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في "لتحسبوه"؟ قلت: إلى ما دل عليه يلوون ألسنتهم بالكتاب وهو الحرف. ويجوز أن يراد: يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب وقرئ: ليحسبوه بالياء، بمعنى: يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب "ويقولون هو من عند الله" تأكيد لقوله: هو من الكتاب، وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب، ودلالة على أنهم لا يعرضون ولا يورون وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك لفرط جرائمهم على الله وقساوة قلوبهم ويأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

"ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أياً أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون" "ما كان لبشر" تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى. وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله! فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني فترلت. وقيل:

قال رجل: يا رسول الله، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله "والحكم" والحكمة وهي السنة "ولكن كونوا ربانيين" ولكن يقول كونوا. والرباني: منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون؛ كما يقال: رقباني وحياني، وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية: أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة. وعن الحسن: ربانيين علماء فقهاء. وقيل: علماء معلمين. وكانوا يقولون: الشارع الرباني: العالم العامل المعلم "بما كنتم" بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جهد نفسه وكد روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها: وقرئ تعلمون، من التعليم.

وتعلمون من التعلم "تدرسون" تقرأون. وقرئ تدرسون، من التدريس. وتدرسون على أن أدرس بمعنى درس كأكرم وكرم وأنزل ونزل. وتدرسون، من التدريس. ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف: تدرسون من التدريس. وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته. وقرئ ولا يأمركم بالنصب عطفاً على "ثم يقول" وفيه وجهان أحدهما أن تجعل لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: "ما كان لبشر" والمعنى: ما كان لبشر أن يستنبه الله وينصبه

للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمرهم "أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً" كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي. والثاني أن تجعل لا غير مزيدة. والمعنى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزيز المسيح. فلما قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبهه الله، ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء. والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وتنصرها قراءة عبد الله ولن يأمركم. والضمير في "ولا يأمركم" و "أيأمركم" لبشر. وقيل لله، والهمزة في أيأمركم للإنكار "بعد إذ أنتم مسلمون" دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين أستاذنوه أن يسجدوا له.

"وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون"

"ميثاق النبيين" فيه غير وجه: أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك. والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه، كما تقول ميثاق الله وعهد الله، كأنه قيل: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم، والثالث: أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف. والرابع: أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم قهكماً بهم، لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب ومنا كان النبيون. وتدل عليه قراءة أبي وابن مسعود: وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب واللام في "لما آتيتكم" لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف وفي لتؤمنن لام جواب القسم، وما يحتمل أن تكون

المتضمنة لمعنى الشرط، ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط جميعاً وأن تكون موصولة بمعنى: للذي آتيتكموه لتؤمنن به. وقرئ: لما آتيناكم وقرأ حمزة: لما آتيتكم. بكسر اللام ومعناه: لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة؛ ثم لحجى رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به. على أن ما مصدرية، والفعالان معها أعني آتيتكم وجاءكم في معنى المصدرين، واللام داخله للتعليل على معنى: أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه، لأجل أي آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. ويجوز أن تكون ما موصولة. فإن قلت: كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله: "ثم جاؤكم" لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة، لأنك لا تقول: للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ قلت: بلى لأن ما معكم في معنى ما آتيتكم، فكأنه قيل: للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له. وقرأ سعيد بن جبير لما بالتشديد، بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة. ثم جاءكم رسول

مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل: أصله لمن ما، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً يادغامها في الميم، فحذفوا إحداها فصارت لما. ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى "إصري" عهدي. وقرئ: أصرى بالضم. وسمي إصراً، لأنه لما يؤصر، أي يشد ويعقد. ومنه الإصرار، الذي يعقد به. ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر، كعبر وعبر، وأن يكون جمع إصار "فاشهدوا" فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار "وأنا على ذلكم" من إقراركم وتشاهدكم "من الشاهدين" وهذا تأكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة "فمن تولى بعد ذلك"

الميثاق والتوكيد "فأولئك هم الفاسقون" أي المتمردون من الكفار دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبعون، ثم توسطت همزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره "آ" يتولون "فغير دين الله يبعون" وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أن الإنكار الذي هو معنى همزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروي: أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام؛ وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال صلى الله عليه وسلم: "كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم" فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فترلت: وقرئ: يبعون، بالياء: وترجعون بالتاء وهي قراءة أبي عمرو، لأن الباغيين هم المتولون، والراجعون جميع الناس. وقرئنا بالياء معاً، وبالتاء معاً "طوعاً" بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه "وكرهاً" بالسيف، أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإدراك الغرق فرعون، والإشفاء على الموت "فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده" غافر: 84، وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال، بمعنى طائعين ومكرهين.

"قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه وعن معه بالإيمان، فلذلك وحد الضمير وحد الضمير في "قل" وجمع في "آمنّا" ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالاً من الله لقدر نبيه. فإن قلت: لم عدى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتها؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي يتزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر. ومن قال: إنما قيل "علينا" لقوله: "قل"؛ و"إلينا" لقوله: "قولوا" البقرة: 136، تفرقة بين الرسول والمؤمنين، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتها، فقد تعسف. ألا ترى إلى قوله: "بما أنزل إليك" المائدة: 68، "وأنزلنا إليك الكتاب" النساء: 105، وإلى قوله: "آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا". "ونحن له مسلمون" موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها؛ ثم قال: "ومن يبتغ غير الإسلام" يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى: "ديناً" فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" من الذين وقعوا في الخسران مطلقاً من غير تقييد للشياخ. وقرئ: ومن يبتغ غير الإسلام بالإدغام.

"كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقّ وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين، أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ" "كيف يهدي الله قوماً" كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق، وبعد ما جاءهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة - وهم اليهود - كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به؛ وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات. وقيل: نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم طعمة بن أبريق، ووحوش بن الأسلت،

والحرث بن سويد بن الصامت. فإن قلت: علام عطف قوله "وشهدوا"؟ قلت: فيه وجهان: أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل؛ لأن معناه بعد أن آمنوا، كقوله تعالى: "فأصدق وأكن" المنافقين: 10، وقول الشاعر:

ليسوا مصلحين عشيرةً ولا ناعبٍ

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار قد بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق "والله لا يهدي" لا يلطف بالقوم الظالمين المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم. "إلا الذين تابوا من بعد ذلك" الكفر العظيم والارتداد "وأصلحو" ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح. وقيل: نزلت في الحرث بن سويد بعد أن ندم على رده وأرسل إلى قومه أن سلوا: هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية. فأقبل إلى المدينة فتاب وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته.

"إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون، إن الذين كفروا وماتوا وهم كفاراً فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذابٌ أليمٌ وما لهم من ناصرين"

"ثم ازدادوا كفراً" هم اليهود كفروا بعمى الإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن. أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم في كل وقت، وعداوتهم له. ونقضهم ميثاقه، وفتنتهم للمؤمنين، وصددهم عن الإيمان به، وسخريتهم بكل آية تنزل. وقيل: نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نترصد بمحمد ريب المنون، وإن أردنا الرجعة نافتنا بإظهار التوبة. فإن قلت: قد علم أن المرتد كيفما ازداد كفراً فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى "لن تقبل توبتهم"؟ قلت: جعلت عبارة عن الموت على الكفر، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل: إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم. فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين "لن تقبل" بغير فاء، وفي الأخرى "فلن يقبل"؟ قلت: قد أودن بالفاء أن الكلام بني على الشرط والجزاء. وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر. وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب. كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل الجيء سبباً في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم. فإن قلت: فحين كان المعنى "لن تقبل توبتهم" بمعنى الموت على الكفر، فهلا جعل الموت على الكفر مسبباً عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجره إلى الموت على الكفر؟ قلت: لأنه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر. فإن قلت: فأني فائدة في هذه الكناية، أعني أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع، قبول التوبة؟ قلت: الفائدة فيها جليلة، وهي التغليظ في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها، ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة "ذهباً" نصب على التمييز. وقرأ الأعمش: ذهب، بالرفع رداً على ملء، كما يقال: عندي عشرون نفساً رجال. فإن قلت: كيف موقع قوله: "ولو افتدى به"؟ قلت: هو كلام محمول على المعنى. كأنه قيل: فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. ويجوز أن يراد: ولو افتدى بمثله، كقوله: "ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه" الزمر: 47، والمثل يحذف كثيراً في

كلامهم، كقولك: ضربته ضرب زيد، تريد مثل ضربه. وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله ولا هيثم الليلة للمطي وقضية ولا أبا حسن لها، تريد: ولا مثل هيثم، ولا مثل أبي حسن، كما أنه يراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا، تريد أنت. وذلك أن المثليين يسد أحدهما مسد الآخر فكانا في حكم شيء واحد، وأن يراد: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدق به، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه. وقرئ: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً على البناء للفاعل وهو الله عز وعلا، ونصب ملء. وملء لرض بتخفيف الهمزتين.

"لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم" "لن تنالوا البر" لن تبلغوا حقيقة البر، ولن تكونوا أبراراً. وقيل: لن تنالوا بر الله وهو ثوابه "حتى تنفقوا مما تحبون" حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها. وتؤثرونها كقوله: "أنفقوا من طيبات ما كسبتم" البقرة: 267، وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله. وروي: أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله. إن أحب أموالي إلي بيرحاء فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بخ بخ ذاك مال رابع أو مال رائج وإني أرى أن تجعلها في الأقربين" فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسّمها في أقاربه.

وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله أسامة بن زيد، فكان زيداً وجد في نفسه وقال: إنما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن الله تعالى قد قبلها منك. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يتنازع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت أعجبه فقال: إن الله تعالى يقول: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" فأعتقها. ونزل بأبي ذر ضيف فقال للراعي اتني بخير إيلي فجاء بناقة مهزولة. فقال: ختنني، قال: وجدت خير الإبل فحلها، فذكرت يوم حاجتكم إليه فقال: إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي. وقرأ عبد الله: حتى تنفقوا بعض ما تحبون. وهذا دليل على أن من في "مما تحبون" للتبعض. ونحوه: أخذت من المال. ومن في "من شيء" لتبيين ما تنفقوا، أي من أي شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه "فإن الله" عليم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه.

"كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون" "كل الطعام" كل المطعومات أو كل أنواع الطعام. والحل مصدر. يقال: حل الشيء حلاً كقولك: ذلت الدابة ذلاً، وعز الرجل عزاً، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كنت أطيئه لحله وحرمة. ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع.

قال الله تعالى "لا هن حلّ لهم" الممتحنة: 10، والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه خوم الإبل وألبانها وقيل العروق. كان به عرق النسا، فندر إن شفي أن يحرم على نفسه أحب الطعام إليه، وكان ذلك أحبه إليه فحرمه. وقيل: أشارت عليه الأطباء باجتنابه، ففعل ذلك بإذن من الله، فهو كتحريم الله ابتداء والمعنى أن المطاعم كلها لم تنزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرم عليها منها لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوه إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه، وهو رد على اليهود وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى: "فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات

أحلت لهم" النساء: 16، إلى قوله تعالى: "عذاباً أليماً" النساء: 18، وفي قوله: "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما" الأنعام: 146، إلى قوله: "ذلك جزيناهم ببغيهم" الأنعام: 146، وجحود ما غاظهم واشتأزوا منه وامتنعوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم، فقالوا: لسنا بأول من حرمت عليه، وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلم جراً، إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدد من مساوئهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم "قل فأتوا بالتوراة فاتلوها" أمر بأن يجاهم بكتائبهم ويكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه، فروي أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه "فمن افترى على الله الكذب" بزعمه أن ذلك كان محرماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة "فأولئك هم الظالمون" المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

"قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" "قل صدق الله" تعريض بكذبهم كقوله: "ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون" الأنعام: 146، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون "فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً" وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم، حيث اضطركم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

"إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آياتٌ بيناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً" والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" "وضع للناس" صفة لبیت، والواضع هو الله عز وجل، تدل عليه قراءة من قرأ وضع للناس بتسمية الفاعل وهو الله. ومعنى وضع الله بيتاً للناس، أنه جعله متعبداً لهم، فكأنه قال: إن أول متعبد للناس الكعبة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه سئل عن أول مسجد وضع للناس فقال: "المسجد الحرام. ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما؟ قال: "أربعون سنة". وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له: أهو أول بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكن أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة. وأول من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس: هو أول بيت حج بعد الطوفان. وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته. وقيل: هو أول بيت بناه آدم في الأرض. وقيل: لما هبط آدم قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له: الضراح، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات "للذي ببكة" البيت الذي ببكة، وهي علم للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه، نحو قولهم: البيط

والنميط، في اسم موضع بالدهناء، ونحوه من الاعتقاب: أمر راتب وراثم. وحى مغمطة ومغبطة وقيل: مكة، البلد، وبكة: موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكه إذا زحمة لازدحام الناس فيها. وعن قتادة: يبك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء، يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة كأنها سميت ببكة وهي الرحمة. قال:

إذا الشريب أخذته الأكه

فخله حتى يبك بكه

وقيل: تبك أعناق الجبابة أي تدفها. لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى. "مباركاً" كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف، لأن التقدير للذي ببكة هو، والعامل فيه المقدر في الظرف من فعل الاستقرار "وهدى للعالمين" لأنه قبلتهم ومتعبدهم "مقام إبراهيم" عطف بيان لقوله: "آيات بينات". فإن قلت: كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يجعل وحده بمثابة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالة على قدرة الله ونوبة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد، كقوله تعالى: "إن إبراهيم كان أمّة" النحل: 120، والثاني: اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة أوف سنة آية. ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، لأن الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة. ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما. دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وكثير سواهما. ونحوه في طي الذكر قول جرير:

كانت حنيفة أثلاثاً فتلثهمو

من العبيد وثلث من موالها

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

"حب إلي من دياركم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة" وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتبية: آية بينة، على التوحيد. وفيها دليل على أن مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان. فإن قلت: كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات؟ وقوله: "ومن دخله كان آمناً" جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية؟ قلت: أجزت ذلك من حيث المعنى، لأن قوله: "ومن دخله كان آمناً" دل على أمن داخله، فكأنه قيل: فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن داخله. ألا ترى أنك لو قلت: فيه آية بينة، من دخله كان آمناً صح، لأنه في معنى قولك: فيه آية بينة، أمن من دخله. فإن قلت: كيف كان سبب هذا الأثر؟ قلت: فيه قولان: أحدهما أنه لما ارتفع ببيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقلت له امرأة إسماعيل: انزل حتى يغسل رأسك، فلم يزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعت على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه، ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر، فبقي أثر قدميه عليه. ومعنى "ومن دخله كان آمناً" معنى قوله: "أو لم يروا أنا جعلنا ولتخطف الناس من حوهم" العنكبوت: 67، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام "رب اجع هذا البلد مناً" البقرة: 126، وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه وعند أبي

حينفة: من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمنة من النار. وعن النبي صلى الله عليه وسلم "من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً" وعنه عليه الصلاة والسلام "الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة" وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود.

وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة، فقال "يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوهمهم كالقمر ليلة البدر، يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوهمهم كالقمر ليلة البدر" وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من صبر على حر مكة ساعة من نهار، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام" "من استطاع" بدل من الناس. وروى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء. وعن ابن الزبير: هو على قدر القوة. ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه. وعنه: ذلك على قدر الطاقة، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة، وعن الضحاك: إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك فقال: إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه؟ بل كان ينطلق إليه ولو حبواً فكذلك يجب عليه الحج. والضمير في "إليه" للبيت أو للحج. وكل ماقي إلى الشيء فهو سبيل إليه وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد؛ ومنها قوله: "والله على الناس حج البيت" يعني أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده. ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلاً، وفيه ضربان من التأكيد: أحدهما أن الإبدال تنحية للمراد وتكرير له، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال يبرر له في صورتين مختلفتين. ومنها قوله: "ومن كفر" مكان ومن لم يحج تغليطاً على تارك الحج؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً" ونحوه من التغليط "من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر" ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان، ومنها قوله: "عن العالمين" وإن لم يقل عنه، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود، فإنهم قالوا: الحج إلى مكة غير واجب وروى:

أنه لما نزل قوله تعالى: "والله على الناس حج البيت" جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال: إن الله كتب عليكم الحج فحجوا" فأمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا: لا نؤمن به ولا نصلي إليه ولا نحجه، فزل "ومن كفر". وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "حجوا قبل أن لا تحجوا، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة" وروى.

"حجوا قبل أن لا تحجوا، حجوا قبل أن يمنع البر جانب" وعن ابن مسعود: حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت. وعن عمر رضي الله عنه: لو ترك الناس الحج عاماً واحداً ما نوظروا وقرئ حج البيت بالكسر.

"قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله

من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون" "والله شهيد" الواو للحال. والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته. قرأ الحسن: تصدون، من أصدته "عن سبيل الله" عن دين حق علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام، وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه، ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثلها "تبغونها عوجاً" تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد والاستقامة. فإن قلت: كيف تبغونها عوجاً وهو محال؟ قلت فيه معنيان: أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجاً بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، ويتغيركم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك. والثاني: أنكم تتعبدون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم "وأنتم شهداء" أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضال مضل، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظام أمورهم، وهم الأحرار "وما الله بغافل" وعيد، ومحل تبغونها نصب على الحال.

"يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين" قيل: مر شاس بن قيس اليهودي - وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاضه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، وقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم. فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

"وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم" "وكيف تكفرون" معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز "تتلى عليكم" على لسان الرسول غضة طرية وبين أظهركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ويذريكم شبهكم "ومن يعتصم بالله" ومن يتمسك بدينه. ويجوز أن يكون حثاً لهم على الانجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم "فقد هدي" فقد حصل له الهدى لا محالة كما تقول: إذا جئت فلاناً فقد أفلحت، كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلاً. ومعنى التوقع في "قد" ظاهر لأن المعتصم بالله متوقع للهدى، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم

منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون" "حق ثقافته" واجب تقواه وما يحق منها، وهو القيام بالمواجب واجتناب الحارم، ونحوه "فاتقوا الله ما استطعتم" التغابن: 16، يريد: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً. وعن عبد الله: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى" وروي مرفوعاً. وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبد حق ثقافته حتى يحزن لسانه، والتقاء من اتقى كالتؤدة من أتاد "ولا تموتن" معناه: ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدر ككم الموت، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تأتني إلا وأنت على حصان، فلا تنهأ عن الإتيان ولكنك تنهأ عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان. قولهم اعتصمت بحبله: يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به ووثوقه بحمايته، بامتسك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه، وأن يكون الحبل استعارة لعهد والاعتصام لوثوقه بالعهد، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه. والمعنى: واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تفرقوا عنه. أو واجتمعوا على التمسك بعهدده إلى عبادته وهو الإيمان والطاعة؛ أو بكتابه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق؛ ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم" "ولا تفرقوا" ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلف اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه - أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يباه جامعتكم والمؤلف بينكم، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام. وقذف فيها الحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا "إخواناً" متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله، وقيل: هم الأوس والخزرج، كانا أخوين لأب وأم، ف وقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم "وكنتم على شفا حفرة من النار" وكنتم مشفين على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر "فأنقذكم منها" بالإسلام. والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا وإنما أنت لإضافته إلى الحفرة وهو منها كما قال:

كما شرقت صدر الفتاة من الدم

وشفا الحفرة وشفتها: حرفها، بالتذكير والتأنيث، ولا مها واو، إلا أنها في المذكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبية. فإن قلت: كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلت: لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقيود على حرفها مشفين على الوقوع فيها "كذلك" مثل ذلك البيان البليغ "يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون" إرادة أن تزدادوا هدى.

"ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" "ولتكن منكم أمة" من للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يبشر، فإن الجاهل ربما نهي عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهأ عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة،

وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً، أو على من الإنكار عليه عبث، كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأصراهم: وقيل من للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون" آل عمران: 110. "وأولئك هم المفلحون" هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل وهو على المنبر:

من خير الناس؟ قال: آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر. وأتقاهم لله وأوصلهم". وعنه عليه الصلاة والسلام: "من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه" وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن شئى الفاسقين وغضب الله، غضب الله له. وعن حذيفة: يأتي على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وعن سفيان الثوري: إذا كان الرجل محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن. والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجباً فواجب، وإن كان ندباً فندب. وأما النهي عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح. فإن قلت: ما طريق الوجوب؟ قلت: قد اختلف فيه الشيخان، فعند أبي علي: السمع والعقل، وعند أبي هاشم: السمع وحده. فإن قلت: ما شرائط النهي؟ قلت أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن، وأن لا يكون ما ينهي عنه واقعاً، لأن الواقع، لا يحسن النهي عنه، وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث. فإن قلت: فما شروط الوجوب؟ قلت: أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تمياً لشرب الخمر بإعداد آلاته، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة. فإن قلت: كيف يباشر الإنكار؟ قلت يتبدى بالسهل، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر. قال الله تعالى: "فأصلحوا بينهما"، ثم قال: "فقاتلوا" النساء: 76، فإن قلت: فمن يباشره؟ قلت: كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه، وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار، لأنه معلوم قبحه لكل أحد. وأما الإنكار الذي بالقتال، فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها. فإن قلت: فمن يؤمر وينهى؟ قلت: كل مكلف، وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع، كالصبيان والمجانين، وينهى الصبيان عن الحرامات حتى لا يتعودوها، كما يؤخذون بالصلاة ليمنروا عليها. فإن قلت: هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه قلت: نعم يجب عليه، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه، فتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر. وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا. وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال: وأينا يفعل ما يقول، ود الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر. فإن قلت: كيف قيل: "يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف"؟ قلت: الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجاء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيداناً بفضل، كقوله: "والصلاة الوسطى" البقرة: 238.

"ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون" كالذين تفرقوا واختلفوا وهم اليهود والنصارى "من بعد ما جاءهم

البيئات" الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة والخبرة والحشوية وأشباههم "يوم تبيض وجوه" نصب بالظرف وهو لهم، أو بإضمار اذكر، وقرئ: تبيض وتسود، بكسر حرف المضارعة. وتبيض وتسود. والبياض من النور، والسود من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم بياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته وأشرق. وسعى النور بين يديه وبيمينه. ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته، واسودت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله "أكفرتهم" فيقال لهم: أكفرتهم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم. والظاهر أنهم أهل الكتاب. وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعترافهم به قبل مجيئه.

وعن عطاء: تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بني قريظة والنضير. وقيل: هم المرتدون. وقيل: أهل البدع والأهواء، وعن أبي أمامة:

هم الخوارج، ولما رأهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال: كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء. وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء، فقال له أبو غالب: أشيء تقول به برأيك، أم شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة. قال: فما شأنك دمعت عينك، قال: رحمة لهم، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية، ثم أخذ بيده فقال: إن بأرضك منهم كثيراً. فأعاذك الله منهم. وقيل: هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ألسنتهم بربكم قالوا بلى "ففي رحمة الله" ففي نعمته وهي الثواب المخلد، فإن قلت: كيف موقع قوله: "هم فيها خالدون" بعد قوله: "ففي رحمة الله"؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

"تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين، والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور" "تلك آيات الله" الواردة في الوعد والوعيد "تتلوها عليك" ملتبسة "بالحق" والعدل من جزاء الحسن والمسيء بما يستوجبانه "وما الله يريد ظلماً" فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن. ونكر ظلماً وقال: "للعالمين" على معنى ما يريد شيئاً من الظلم لأحد من خلقه، فسيحان من يحلم عن يصفه بإرادة القبائح والرضا بها.

"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون" كان عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على سابق عدم ولا على انقطاع طارئ، ومنه قوله تعالى: "وكان الله غفوراً رحيماً" النساء: 96، ومنه قوله تعالى: "كنتم خير أمة" كأنه قيل: وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم في علم الله خير أمة. وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم "وتؤمنون بالله" جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد

بإيمانه، فكأنه غير مؤمن بالله" ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً" النساء: 150، والدليل عليه قوله تعالى: "ولو آمن أهل الكتاب مع إيمانهم بالله" "لكان خيراً لهم" "لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إتياء الأجر مرتين "منهم المؤمنون" كعبد الله بن سلام وأصحابه "وأكثرهم الفاسقون" المتمردون في الكفر "لن يضروكم إلا أذى" إلا ضرراً مقتصرًا على أذى بقول من طعن في الدين أو تهديداً أو نحو ذلك "وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار" منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر "ثم لا ينصرون" ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم. وفيه تشييت لمن أسلم منهم، لأنهم كانوا يؤذنونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرّون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر بيالي به، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل. فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: "ثم لا ينصرون"؟ قلت عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم، كتولية الأدبار. وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بما بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثم؟ قلت: التراخي في المرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليّتهم الأدبار. فإن قلت: ما موقع الجملتين أعني "منهم المؤمنون" و "لن يضروكم"؟ قلت: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت، ولذلك جاء من غير عاطف.

"ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءو بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون" "بجبل من الله" في محل النصب على الحال، بتقدير: إلا معتصمين أو متمسكين أو متلبسين بحبل من الله وهو استثناء من أعم عام الأحوال. والمعنى: ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعني ذمة الله وذمة المسلمين، أي لا عز لهم قط إلا بهذه الواحدة وهي التجاؤم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية "وباءو بغضب من الله" استوجبوه "وضربت عليهم المسكنة" كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه "ذلك" إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبواء بغضب الله أي ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، ثم قال: "ذلك بما عصوا" أي ذلك كائن بسبب عصيانهم الله واعتدائهم لحدوده ليعلم أن الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله، وأن سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر. ونحوه "مما خطيأتم أغرقوا" نوح: 25، "وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل" النساء: 161.

"ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خيرٍ فلن يكفروه والله عليمٌ بالمتقين، إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" الضمير في "ليسوا" لأهل الكتاب، أي ليس أهل الكتاب مستوين. وقوله: "من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ" كلام مستأنف لبيان قوله: "ليسوا سواءً" كما وقع قوله: "تأمرون بالمعروف" آل عمران: 110، بياناً لقوله "كنتم خير أمةٍ" "أمةٌ قائمةٌ". مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام، وهم الذين أسلموا منهم. وعبر عن تمجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود، لأنه أبين لما يفعلون؛ وأدل على حسن صورة أمرهم. وقيل: عن صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: "أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم، وقرأ هذه الآية". وقوله: "يتلون" و "يؤمنون" في محل الرفع صفتان لأمة، أي أمة قائمة تالون مؤمنون، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل. ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيزاً، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض. ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته. ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم كانوا مدهنين. ومن المسارعة في الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وحشر الفوز على التراخي "وأولئك" الموصوفون بما وصفوا به "من" جملة "الصالحين" الذين صلت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم. ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين "فلن يكفروه" لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: "والله شكور حلیم" التغابن: 17، في معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك. فإن قلت: لم عدى إلى مفعولين. وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلت: ضمن معنى الحرمان، فكانه قيل: فلن تحرموه؛ بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرئ يفعلوا، يكفروه بالياء والتاء "والله عليمٌ بالمتقين" بشارة للمتقين بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

"مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثلي ربحٍ فيها صرٌّ أصابت حرث قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون" الصر: الريح الباردة نحو: الصرصر. قال:

لا تعدلن أتاويين تضربهم

نكباء صر بأصحاب المحلات

كما قالت ليلي الأخيلية:

ولم يغلب الخصم الألد ويملا ال

جفان سديفاً يوم نكباء صرصر

فإن قلت: فما معنى قوله: "كمثلي ربحٍ فيها صرٌّ"؟ قلت: فيه أوجه: أحدهما أن الصر في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرة بمعنى فيها قرة صر، كما تقول: برد بارد على المبالغة. والثاني: أن يكون الصر مصدراً في الأصل

بمعنى البرد فحيء به على أصله. والثالث: أن يكون من قوله تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" الأحزاب: 21، ومن قولك: إن ضيعني فلان ففي الله كاف وكافل. قال:

وفي الرحمن للضعفاء كافي

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله، بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً. وقيل: هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضاع عنهم، لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله. وشبه بحرث "قوم ظلموا أنفسهم" فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم، لأن الهلاك عن سخط أشد وأبلغ. فإن قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح. قلت: هو من التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله: "كمثل الذي استوقد ناراً" البقرة: 17، ويجوز أن يراد: مثل إهلاك ما ينفقون مثل إهلاك ربح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ربح وهو الحرث وقرئ: تنفقون، بالناء "وما ظلمهم الله" الضمير للمنفيين على معنى: وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم، أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ: ولكن بالتشديد، بمعنى ولكن أنفسهم يظلمونها هم. ولا يجوز أن يراد: ولكنه أنفسهم يظلمون، على إسقاط ضمير الشأن، لأنه إنما يجوز في الشعر.

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبلاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور" بطانة الرجل ووليجه: خصيصه وصفيه الذي يفضي إليه بشقوره ثقة به شبه ببطانة الثوب كما يقال: فلان شعاري. وعن النبي صلى الله عليه وسلم "الأنصار شعار والناس دثار" "من دونكم" من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون. ويجوز تعلقه بلا تتخذوا، وبطانة على الوصف، أي بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم "لا يألونكم خبلاً" يقال: ألا في الأمر يألو، إذا قصر فيه، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم: لا ألوك نصحاً، ولا ألوك جهداً، على التضمين. والمعنى: لا أمتعك نصحاً ولا أنقصكه. والخبال: الفساد "ودوا ما عنتم" ودوا عنتكم، على أن ما مصدرية. والعنت: شدة الضرر والمشقة. وأصله انهياض العظم بعد جبره، أي تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه "قد بدت البغضاء من أفواههم" لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وعن قتادة قد بدت البغضاء لأولياءهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضاً على ذلك وفي قراءة عبد الله قد بدأ البغضاء "قد بينا لكم الآيات" الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالة أولياء الله ومعاداة أعدائه "إن كنتم تعقلون" ما بين لكم فعملتم به. فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة؟ قلت يجوز أن يكون "لا يألونكم" صفة للبطانة وكذلك "قد بدت البغضاء" كأنه قيل: بطانة غير آليكم خبلاً بادية بغضاؤهم. وأما

"قد بينا" فكلّام مبتدأ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة "ها" للتنبيه. و "أنتم" مبتدأ. و "أولاء" خبره. أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب. وقوله: "تحبونهم ولا يحبونكم" بيان لخطئهم في موالاةهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل "أولاء" موصول "تحبونهم" صلته. والواو في "وتؤمنون" للحال، وانتصابها من لا يحبونكم أي لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم مع ذلك يغيضونكم. فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ونحوه "فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون" النساء: 104، ويوصف المعتاض والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواماً لئاماً أدلةً يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

"قل موتوا بغيظكم" دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار "إن الله عليمٌ بذات الصدور" فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحق والبغضاء، وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها. فإن قلت: فكيف معناه على الوجهين؟ قلت إذا كان داخلياً في جملة المقول فمعناه: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا، وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجاً فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرون فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمره في صدورهم ولم يظهره بألسنتهم. ويجوز أن لا يكون ثم قول، وأن يكون قوله: "قل موتوا بغيظكم" آل عمران: 119، أمراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

"إن تمسّسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبّكم سيئةٌ يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً إن الله بما تعملون محيطٌ" الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع. والسيئة ما كان ضد ذلك وهو بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة. فإن قلت: كيف وصفت الحسنة بالمرس والسيئة بالإصابة؟ قلت: المس مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله: "إن تصبّك حسنةٌ تسؤهم وإن تصبّك مصيبةٌ" التوبة: 50، "ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك"، "إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً" المعارج: 21-21. "وإن تصبروا" على عداوتهم "وتتقوا" ما نهيتهم عنه من موالاةهم. أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضرّكم كيدهم. وقرئ لا يضرّكم من ضاره يضره. ويضرّكم على أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد، كقولك مد يا هذا. وروى المفصل عن عاصم لا يضرّكم بفتح الراء، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك "إن الله بما

تعملون" من الصبر والتقوى وغيرهما "محيط" ففاعليكم ما أنتم أهله. وقرئ بالياء بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

"وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميعٌ عليمٌ، إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون" "و" اذكر "إذ غدوت من أهلك" بالمدينة وهو غدوه إلى أحد من حجرة عائشة رضي الله عنها. روي:

أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره. فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورامهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم: يا رسول الله، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جينا عنهم. فقال صلى الله عليه وسلم: إني قد رأيت في منامي بقرأ مذبحه حولي، فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم. فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته. فلما رآوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا: بئسما صنعنا، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: لا ينبغي لني أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال فمشى على رجله فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح. إن رأى صدرأ خارجاً قال: تأخر، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد؛ وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: "انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا" تبوء المؤمنون" تزلهم. وقرأ عبد الله للمؤمنين، بمعنى تسوي لهم ونهيء "مقاعد للقتال" مواطن ومواقف. وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار. واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان. ومنه قوله تعالى: "في مقعد صدق" القمر: 55، "قبل أن تقوم من مقامك" النمل: 39، من مجلسك وموضع حكمك "والله سميعٌ" لأقوالكم عليم بنياتكم وضمايركم "إذ همّت" بدل من "وإذ غدوت" أو عمل فيه معنى "سميعٌ عليمٌ". والطائفتان حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج، وبنو الحارثة من الأوس، وهما الجناحان. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف، وقيل: في تسعمائة وخمسين، والمشركون في ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا، فانخزل عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: يا قوم، علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم، فقال عبد الله: لو نعلم قتلاً لا تبعناكم، فهم الحيان باتعباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أضمرنا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه، كما قال عمرو ابن الأتظابة:

أقول لها إذا جشأت وجاشت

مكانك تحمدي أو تستريحي

حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر، فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين، فما ثبت مني إلا قول عمرو ابن الأتاتبة، ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية، والله تعالى يقول: "والله وليهما" ويجوز أن راد: والله ناصرهما ومتولي أمرهما، فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله فإن قلت، فما معنى ما روي من قول بعضهم عند نزول الآية: والله ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله بأنه ولينا؟ قلت: معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية، وأن تلك الهمة غير المأخوذ بها - لأنها لم تكن عن عزيمة وتصميم - كانت سبباً لتزولهما. والفشل: الجبن والخور. وقرأ عبد الله: والله وليهم كقوله "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا" الحجرات: 9.

"ولقد نصركم الله بدير وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين" أمرهم ألا يتوكلوا إلا عليه ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حالة قلة وذلة. والأذلة: جمع قلة والذلان جمع الكثرة. وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً، وذلتهم، ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد. وقتلهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة. وبدر: اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرأ فسمي به "فاتقوا الله" في الثبات مع رسوله "لعلكم تشكرون" بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته. أو لعلكم ينعم الله عليكم نعمة أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له "إذ تقول" ظرف لنصركم، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر، أو بدل ثان من "وإذ غدوت" على أن يقوله لهم يوم أحد. فإن قلت: كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيهم الملائكة؟ قلت: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا، حيث خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلذلك لم تنزل الملائكة؛ ولو تقوا على ما شرط عليهم لنزلت. وإنما قدم لهم الوعد بتنزل الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويتقوا بنصر الله. ومعنى "ألن يكفيكم" إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة. وإنما جيء بـ"ألن" الذي هو لتأكيد النفي، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأيسين من النصر. و"بلى" إيجاب لما بعد لن، بمعنى: بل يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية ثم قال: "وإن تصبروا وتتقوا" يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسومين للقتال "ويأتوكم" يعني المشركين "من فورهم هذا" من قولك: قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله: الأمر على الفور لا على التراخي. وهو مصدر من: فارت القدر، إذا غلت، فاستعير للسرعة، ثم سميت به الحالة

التي لا ريث فيها - ولا تعريج على شيء من صاحبها؛ فقليل: خرج من فوره، كما تقول: خرج من ساعته، لم يلبث. والمعنى: أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه "يمدكم ربكم" بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يريد: أن الله يعجل نصرتكم ويسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم. وقرئ: منزّلين بالتشديد. ومنزّلين بكسر الزاي، بمعنى: منزّلين النصر. و"مسومين" بفتح الواو وكسر ها. بمعنى: معلمين. ومعلمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم. وعن الضحاك: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذناها. وعن مجاهد: مجزوزة أذنان خيلهم. وعن قتادة: كانوا على خيل بلق. وعن عروة بن الزبير: كنت عمامة الزبير يوم بدر صفراء، فنزلت الملائكة كذلك، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه: "تسوموا فإن الملائكة قد تسومت". "وما جعله الله" الهاء لأن يمدكم. أي: وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون "ولتطمئن قلوبكم به" كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم "وما النصر إلا من عند الله" لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا، ولا من عند الملائكة والسكينة، ولكن ذلك مما يقوي به الله رجاء النصرة والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين "العزیز" الذي لا يغالب في حكمه "الحكيم" الذي يعطي النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة "ليقطع طرفاً من الذين كفروا" ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم "أو يكتبهم" أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة "فينقلبوا خائبين" غير ظافرين بمبتغاهم. ونحوه "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً" الأحزاب: 35، ويقال: كبته، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقه. وقيل في قول أبي الطيب:

لَأَكْبِتُ حَاسِداً وَارِىَ عَدُوًّا

هو من الكبد والرئة، واللام متعلقة بقوله: "ولقد نصركم الله" أو بقوله: "وما النصر إلا من عند الله". "ليس لك من الأمر شيء" أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون، والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفورٌ رحيمٌ "أو يتوب" عطف على ما قبله. و"ليس لك من الأمر شيء" اعتراض. والمعنى أن الله مالك أمرهم، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وقيل: إن "يتوب" منصوب بإضمار أن و وأن يتوب في حكم اسم معطوف بأو على الأمر أو على شيء، أي لي لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم. أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم، وقيل أو بمعنى إلا أن كقولك: لألزمك أو تعطيني حقي، على معنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل: شجّه عتبة بن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم، وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم، فنزلت. وقيل: أراد أن يدعو الله عليهم فهناه الله تعالى، لعلمه أن فيهم من يؤمن. وعن الحسن "يغفر لمن يشاء" بالتوبة، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين "ويعذب من يشاء" ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين للعذاب. وعن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً وأتباعه. قوله: "أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم

ظالمون" تفسير بين لمن يشاء، وأنهم المتوب عليهم، أو الظالمون، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء، ويطيّبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم: يهب الذنب الكبير لمن يشاء، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

"يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم تفلحون، واتقوا النار التي أعدت للكافرين، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون" "لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً" نهي عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل فاستغرق بالشئ الطفيف مال المديون "واتقوا النار التي أعدت للكافرين" كان أبو حنيفة رحمه الله يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمد ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين برحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله. ومن تأمل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى، وفي ذكره تعالى لعل وعسى في نحو هذه المواضع - وإن قال الناس ما قالوا - ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

"وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين، قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين" في مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو. وقرأ الباقون بالواو. وتنصره قراءة أبي وعبد الله: وسابقوا ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يستحقان به "عرضها السموات والأرض" الحديد: 1، أي عرضها عرض السموات والأرض، كقوله: "عرضها كعرض السماء والأرض" والمراد وصفها بالسعة والبسطة، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخص العرض، لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله: "بطائنها من استبرق" الرحمن: 54. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كسيع سموات وسيع أرضين لو وصل بعضها ببعض "في السراء والضراء" في حال الرخاء واليسر وحال الضيقة والعسر، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل، كما حكى عن بعض السلف: أنه ربما تصدق ببصلة، وعن عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب أو في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء، من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس، فإنه لا يدع الإحسان. وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة: إذا ملأها وشد فاهها. وكظم البعير: إذا لم يجتر. ومنه كظم الغيظ، وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً". وعن عائشة رضي الله عنها: أن خادماً لها غاظها فقالت: لله در التقوى، ما تركت لذي غيظ شفاء.

"والعافين عن الناس" إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه وروي: ينادي مناد يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا وعن ابن عيينة: أنه رواه للرشيذ وقد غضب على رجل فخلاه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هؤلاء في أمي قليل إلا من عصم الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت" "والله يحب المحسنين" يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورين. وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء "والذين" عطف على المتقين. أي أعدت للمتقين وللتائبين. وقوله: "وأولئك" إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك "فاحشة" فعلة متزايدة القبح "أو ظلموا أنفسهم" أو أذنبوا أي ذنب كان مما يؤاخذون به. وقيل: الفاحشة الزنا. وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل: الفاحشة الكبيرة. وظلم النفس الصغيرة "ذكروا الله" تذكروا عقابه أو وعيده أو نهي، أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه "فاستغفروا لذنوبهم" فتأبوا عنها لقبحها نادمين عازمين "ومن يغفر الذنوب إلا الله" وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفرغ للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب، لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو والتجاوز وفيه تطيب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى: أنه وحده معه مصححات المغفرة وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه "ولم يصروا" ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة" وروي:

"لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار" "وهم يعلمون" حال من فعل الإصرار وحرف النفي منصب عليهما معاً. والمعنى: وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهاي عنها وبالوعيد عليها، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح. وفي هذه الآيات بيان قاطع أن الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متقون وتائبون ومصرون. وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم، دون المصيرين. ومن خالف ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه. قال "أجر العاملين" بعد قوله: "جزاؤهم" آل عمران: 87، لأنهما في معنى واحد. وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل، وأجر مستحق عليه، لا كما يقول المبطلون. وروي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى: ما أقل حياء من يطعم في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي. وعن شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حق وجهالة. وعن الحسن رضي الله عنه: يقول الله تعالى يوم القيامة "جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم" وعن رابعة البصرية رضي الله عنها أنها كانت تنشد:

تجرو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم أجر العاملين ذلك. يعني المغفرة والجنات "قد خلت من قبلكم سنن" يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائعهم، كقوله: "وقتلوا تقتيلاً سنة الله في الذين خلوا من قبل" الأحزاب: 61، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً" الفتح: 22، "سنة الله التي قد خلت من قبل" الفتح: 23.

"هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" "هذا بيان للناس" إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم "وهدى وموعظة للمتقين" يعني أنه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين ويجوز أن يكون قوله: "قد خلت" جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين، ويكون قوله: "هذا بيان" غشارة إلى ما لخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصرين "ولا تهنوا ولا تحزنوا" تلمسية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم، يعني ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي لا يورثكم ذلك وهناً وجبناً، ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح "وأنتم الأعلون" وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب، لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو وأنتم الأعلون شأنًا، لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته، وقاتلهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، ولأن قتالكم في الجنة وقتلهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة، أي وأنتم الأعلون في العاقبة "وإن جندنا لهم الغالبون" الصافات: 173. "إن كنتم مؤمنين" متعلق بالنهي بمعنى: ولا تهنوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه. أو بالأعلون، أي إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

"إن يمسسكم قرحٌ فقد مس القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين" قرئ قرح بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف. قيل: هو بالفتح الجراح، وبالضم ألمها. وقرأ أبو السمال قرح بفتححتين. وقيل: القرع والقرح كالطرد والطرء. والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يشبطهم عن معاودتكم بالقتال. فأنتم أولى أن لا تضعفوا. ونحوه "فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون" النساء: 104، وقيل: كان ذلك يوم أحد، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: كيف قيل "قرحٌ مثله" وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم ياذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون" آل عمران: 75. "وتلك الأيام" تلك مبتدأ، والأيام صفته. و"نداؤها" خبره، ويجوز أن يكون "تلك الأيام" مبتدأ وخبراً، كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد. والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة، نداؤها: نصرها بين الناس نديلاً تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء كقوله وهو من أبيات الكتاب:

فيوماً علينا ويوماً لنا فيوماً نساء ويوماً نسر

ومن أمثال العرب: الحرب سجال. وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ثم قال: أين ابن أبي كبشة، أين ابن أبي قحافة، أين ابن الخطاب. فقال عمر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أبو بكر، وها

أنا عمر. فقال أبو سفيان يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال. فقال عمر رضي الله عنه: لا سواء، قتلتنا في الجنة، وقتلناكم في النار. فقال: إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا، والمداولة مثل المعاورة. وقال:

يرد المياه فلا يزال مداولاً في الناس بين تمثل وسماع

يقال: داوت بينهم الشئ فتداولوه "وليعلم الله الذين آمنوا" فيه وجهان: أحدهما أن يكون المعلل محذوفاً معناه: وليتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف، فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. وقيل: معناه وليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثبات، والثاني أن تكون العلة محذوفة، وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله. وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة، ليسليهم عما جرى عليهم، وليبصرهم أن العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب، ولا يشعر أن الله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه "ويتخذ منكم شهداء" وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يتلى به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: "لتكونوا شهداء على الناس" البقرة: 143. "والله لا يحب الظالمين" اعتراض بين بعض التعليل وبعض. ومعناه: والله لا يجب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيل الله، المحصنين من الذنوب. والتمحيص: التطهير والتصفية "ويعحق الكافرين" ويهلكهم. يعني: إن كانت الدولة على المؤمنين للتمييز والاستشهاد والتمحيص، وغير ذلك مما هو أصلح لهم. وإن كانت على الكافرين، فلمحقهم ومحو آثارهم.

"أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين" "أم" منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار "ولما يعلم الله" بمعنى ولما تجاهدوا، لأن العلم متعلق بالمعلوم فتزل نفي العلم منزلة نفي متعلقة لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد: مافيه خير حتى يعلمه. ولما بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول: وعدني أن يفعل كذا، ولما تريد، ولم يفعل، وأنا أتوقع فعله. وقرئ: ولما يعلم الله بفتح الميم. وقيل: أراد النون الخفيفة ولما يعلمن فحذفها "ويعلم الصابرين" نصب بإضمار أن والواو بمعنى الجمع، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو ويعلم بالرفع على أن الواو للحال، كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

"ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون" "ولقد كنتم تمنون الموت" خوطب به الذين لم يشهدوا بداراً وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر. وهم الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى المشركين، وكان رأيهم في الإقامة بالمدينة، يعني: وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته وصعوبة مقاساته "فقد رأيتموه وأنتم تنظرون" أي رأيتموه معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا. وهذا

توبيخ لهم على تمنيهم الموت، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلحاحهم عليه، ثم انهزمهم عنه وقلة ثباتهم عنده. فإن قلت: كيف يجوز تمني الشهادة وفي تمنيتها تمني غلبة الكافر المسلم؟ قلت: قصد متمني الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصد إلى حصول المأمول من الشفاء، ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة وإحسان إلى عدو الله وتنفيقا لصناعته. ولقد قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه - حين نهض إلى مؤتة وقيل له ردكم الله:

وَضْرِبَةٌ ذَاتِ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبْدَا

لَكُنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً

بَحْرِيَّةٌ تَنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبْدَا

أَوْ طَعْنَةً بِيَدِي حِرَانٍ مَجْهَرَةً

أَرْشَدَكَ اللَّهُ مِنْ غَارٍ وَقَدْ رَشَدَا

حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرَوْا عَلَى جَدْتِي

"وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفأنت مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين" لما رمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، أقبل يريد قتله فذب عنه صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى قتله ابن قميئة وهو يرى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: قد قتلت محمداً. وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل. وقيل: كان الصارخ الشيطان، ففغشا في الناس خبر قتله فانكفؤا، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: "إني عباد الله" حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله - فدينناك بآبائنا وأمهاتنا - أتانا خبر قتلِكَ فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فترلت، وروي:

أنه لما صخر الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر - عم أنس بن مالك -: يا قوم، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين: أنه مر بأنصاري يتشحط في دمه، فقال يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم. والمعنى "وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل" فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوه، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه "أفأنت مات" الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلوه الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أن خلوه الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم، لا للانقلاب عنه. فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت: لكونه مجوراً عند المخاطبين. فإن قلت: أما علموه من ناحية قوله: "والله يعصمك من الناس" المائدة: 67؟ قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوي البصيرة. ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم. والانقلاب على الأعقاب: الإدبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم به من أمر الجهاد وغيره.

وقيل: الارتداد. وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسلامه "فلن يضر الله شيئاً" فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع "وسيجزي الله الشاكرين" الذين لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه. وسماهم شاكرين، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا. المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله. وهو على معنيين: أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خوض المهالك واقتحم المعارك. والثاني ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له، فحزرة للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل.

"وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين" "كتاباً" مصدر مؤكد، لأن المعنى: كتب الموت كتاباً "مؤجلاً" موقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر "ومن يرد ثواب الدنيا" تعريض بالذين شغلته الغنائم يوم أحد "نؤته منها" أي من ثوابها "وسنجزي" الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد. وقرئ: يؤته. و سيجزي، بالياء فيهما.

"وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين"

قرئ: قاتل. وقتل، بالتشديد، والفاعل ربيون، أو ضمير النبي. و "معه ربيون" حال عنه بمعنى: قتل كائناً معه ربيون. والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأول. وعن سعيد بن جبير رحمه الله: ما سمعنا بنبي قتل في القتال. والربيون الربايون. وقرئ بالحرركات الثلاث، فالفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب. وقرئ: فما وهنوا بكسر الهاء. والمعنى: فما وهنوا عند قتل النبي "وما ضعفوا" عن الجهاد بعده "وما استكانوا" للعدو. وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم. حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان "وما كان قولهم إلا" هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربايين، هضماً لها واستقصاراً. والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة "فاتاهم الله ثواب الدنيا" من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه، وأنه هو المعتد به عنده "تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة" الأنفال: 67.

"يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين، بل الله مولاكم وهو خير الناصرين، سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثنوى الظالمين" "إن تطيعوا الذين كفروا" قال علي رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى

إخوانكم وادخلوا في دينهم. وعن الحسن رضي الله عنه: إن تستنصحو اليهود والنصارى وتقبلوا منهم، لأنهم كانوا يستغفونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين، ويقولون: لو كان نبياً حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوماً له ويوماً عليه. وعن السدي: إن تستكينوا لأي سفیان وأصحابه وتستأمنوهم "يردوكم" إلى دينهم. وقيل هو عام في جميع الكفار، وإن على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء ولا يترلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجروهم إلى موافقتهم "بل الله مولاكم" أي ناصرهم، لا تحتاجون معه إلى نصره أحد وولايته. وقرأ بالنصب على: بل أطيعوا الله مولاكم "سنلقي" قرئ بالنون والياء. والرعب - بسكون العين وضمها - قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فأنهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً، قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون أرجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا. "بما أشركوا" بسبب إشراكهم، أي كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به "ما لم يترل به سلطاناً" آلهة لم يترل الله بإشراكها حجة. فإن قلت: كان هناك حجة حتى يترلها الله فيصح لهم الإشراك؟ قلت: لم يعن أن هناك حجة إلا أنها لم تترل عليهم، لأن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة، وإنما المراد نفي الحجة ونزولها جميعاً كقوله:

ولا ترى الضب بها ينحجر

"ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم ياذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما آراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يردي الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين، إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمّاً بغم لكيلاً تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانةً ناعساً يغشى طائفةً منكم وطائفةً قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليمٌ بذات الصدور"

"ولقد صدقكم الله وعده" وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى: "إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم" آل عمران: 125، ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى: "سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب" فلما فشلوا وتنازعوا لم يرعهم. وقيل: لما رجعوا إلى المدينة قال ناس من المؤمنين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فترلت. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحداً خلف ظهره، واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يشبوا في مكائهم ولا يبرحوا - كانت الدولة للمسلمين أو عليهم - فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. يحسونهم أي يقتلونهم قتلاً ذريعاً. حتى إذا فشلوا. والفشل: الجبن وضعف الرأي. وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ها هنا وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله: "ومنكم من يريد الآخرة" ونفر أعقابهم يهبون، وهم الذين أرادوا الدنيا،

فكر المشركون على الرماة، وقتلوا عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وأقبلوا على المسلمين، وحالت الريح دبوراً وكانت صباءً، حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: "ثم صرفكم عنهم ليبتليكم" ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها "ولقد عفا عنكم" لما علم من ندمكم على فرط منكم من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم "والله ذو فضل على المؤمنين" يتفضل عليهم بالعفو، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصر رحمة. فإن قلت: أين متعلق "حتى إذا" قلت: محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم منعكم نصره. ويجوز أن يكون المعنى: صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم "إذ تصعدون" نصب بصرفكم، أو بقوله: "ليبتليكم" أو بإضمار اذكر والإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه. يقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض. يقال: أصدنا من مكة إلى المدينة وقرأ الحسن رضي الله عنه: تصعدون، يعني في الجبل. وتعضد الأولى قراءة أبي: إذ تصعدون في الوادي. وقرأ أبو حيوة: تصعدون، بفتح التاء وتشديد العين، من تصعد في السلم وقرأ الحسن رضي الله عنه: تلون، بواو واحدة وقد ذكرنا وجهها. وقرئ: يصعدون. ويلوون بالياء "والرسول يدعوكم" كان يقول: "إلى عباد الله" إلى عباد الله، أنا رسول الله، من يكر فله الجنة "في أخراكم" في ساقطكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة. يقال: جنت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: في أولهم وأولاهم، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى "فأثابكم" عطف على صرفكم، أي فجازاكم الله "غماً" حين صرفكم عنهم وابتلاككم "ب" سبب "غم" أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له، أو غماً مضاعفاً، غماً بعد غم، وغماً متصلاً بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر "لكيلا تحزنوا" لتتزنوا على تجرع الغموم، وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار، ويجوز أن يكون الضمير في "فأثابكم" للرسول، أي فآساكم في الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجرة وغيرهما غمه ما نزل بكم، فأثابكم غماً اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتمتموه لأجله، ولم يشربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله، ولا على ما أصابكم من غلبة العدو. وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغلبيهم النوم.

وعن أبي طلحة رضي الله عنه: غشنا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه، وما أحد إلا ويميل تحت جحفته. وعن الزبير رضي الله عنه: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد علينا الخوف، فأرسل الله علينا النوم. والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. والأمنة: الأمن. وقرئ: أمنة بسكون الميم، كأنها المرة من الأمن، و"نعاساً" بدل من أمنة. ويجوز أن يكون هو المفعول، وأمنة حالاً منه مقدرة عليه، كقولك: رأيت راكباً رجلاً، أو مفعولاً له بمعنى نعستم أمنة. ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين، بمعنى ذوي أمنة، أو على أنه جمع آمن، كبار وبررة "يغشى" قرئ بالياء والتاء رداً على النعاس، أو على الأمنة "طائفة منكم" هم أهل الصدق واليقين "وطائفة" هم المنافقون "قد أهتهم أنفسهم" ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل

بهم في المموم والأشجان، فهم في التشاكي والتباث "غير الحق" في حكم المصدر.

ومعناه: يظنون بالله غير الظن الذي يجب أن يظن به. و "ظن الجاهلية" بدل منه. ويجوز أن يكون المعنى: يظنون بالله ظن الجاهلية. وغير الحق: تأكيد ليظنون، كقولك: هذا القول غير ما تقول، وهذا القول لا قولك وظن الجاهلية، كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق: يريد الظن المختص بالملة الجاهلية. ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية، أي لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله "يقولون" لرسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه "هل لنا من الأمر من شيء" معناه هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط، يعنون النصر والإظهار على العدو "قل إن الأمر كله لله" ولأوليائه المؤمنين وهو النصر والغلبة "كتب الله لأغلبن أنا ورسلي" المجادلة: 21، "وإن جندنا لهم الغالبون" الصافات: 173، "يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك" معناه: يقولون لك فيما يظهرون: هل لنا من الأمر من شيء سؤال المؤمنين المسترشدين وهم فيما يبطنون على النفاق، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكبين لقولك لهم إن الأمر كله لله "لو كان لنا من الأمر شيء" أي لو كان الأمر كما قال محمد إن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون، لما غلبنا قط. ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة "قل لو كنتم في بيوتكم" يعني من علم الله منه أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم "لبرز" من بينكم "الذين" علم الله أنهم يقتلون "إلى مضاجعهم" وهي مصارعهم ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون، لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة، وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة. وقيل: معناه هل لنا من التدبير من شيء، يعنون لم تملك شيئاً من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأي عبد الله بن أبي وغيره، ولو ملكنا من التدبير شيئاً لما قتلنا في هذه المعركة، قل إن التدبير كله لله، يريد أن الله عز وجل قد دبر الأمر كما جرى، ولو أقمتهم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم. وقرئ: كتب عليهم القتال. وكتب عليهم القتال، على البناء للفاعل. ولبرز، بالتشديد وضم الباء "وليبتي الله" وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان. فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح حجة وللابتلاء والتمحيص. فإن قلت: كيف مواقع الجمل التي بعد قوله وطائفة؟ قلت: "قد أهتمهم" صفة لطائفة و "يظنون" صفة أخرى أو حال بمعنى: قد أهتمهم أنفسهم ظانين. أو استئناف على وجه البيان للجملتها. و "يقولون" بدل من يظنون. فإن قلت: كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلاً من الإخبار بالظن؟ قلت: كانت مسألتهم صادرة عن الظن، فلذلك جاز إبداله منه. ويخفون حال من يقولون. و "قل إن الأمر كله لله" آل عمران: 154، اعتراض بين الحال وذوي الحال. و "يقولون" بدل من "يخفون" والأجود أن يكون استئنافاً.

"إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفورٌ حلِيمٌ" "استزهم" طلب منهم الزلل ودعاهم إليه "ببعض ما كسبوا" من ذنوبهم ومعناه: إن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقتروا ذنوباً، فلذلك منعهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا.

وقيل: استزلال الشيطان إياهم هو التولي، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم، لأن الذنب يجز إلى الذنب، كما أن الطاعة تجز إلى الطاعة وتكون لطفاً فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: استزلهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة. وقيل: "ببعض ما كسبوا" هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات فيه. فجرهم ذلك إلى الهزيمة وقيل: ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية. فإن قلت: لم قيل "ببعض ما كسبوا"؟ قلت: هو كقوله تعالى: "ويعفو عن كثير" المائدة: 15. "ولقد عفا الله عنهم" لتوبتهم واعتذارهم "إن الله غفور" للذنوب "حليم" لا يعاجل بالعقوبة.

"يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير، ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون" وقالوا لإخوانهم "أي لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: "وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه" الأحقاف: 11، ومعنى الأخوة: اتفاق الجنس أو النسب "إذا ضربوا في الأرض" إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها "أو كانوا غزى" جمع غاز، كعاف وعفى، كقوله: عفى الحياض أجون. وقرئ بتخفيف الزاي على حذف التاء من غزاة. فإن قلت: كيف قيل: "إذا ضربوا" مع "قالوا"؟ قلت: هو على حكاية الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض فإن قلت: ما متعلق ليجعل؟ قلت: قالوا، أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون "حسرة في قلوبهم" على أن اللام مثلها في "ليكون لهم عدواً وحزناً" القصص: 8، أو لا تكونوا، بمعنى: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده، ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلت: معناه أن الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم، ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عز وجل كقوله: "يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء" الأنعام: 125، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النهي، أي لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادهم، مما يغمهم ويغيظهم "والله يحيي ويميت" رد لقولهم. أي الأمر بيده، قد يحيي المسافر والغازي، ويميت المقيم والقاعد كما يشاء. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عند موته: ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء "والله بما تعملون بصير" فلا تكونوا مثلهم. وقرئ بالياء، يعني الذين كفروا "لمغفرة" جواب القسم، وهو ساد مسد جواب الشرط، وكذلك "إلى الله تحشرون" كذب الكافرين أولاً في زعمهم أن من سافر من إخوانهم أو غزا لو كان في المدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: ولئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله، فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خير من طلاع الأرض ذبابة حمراء. وقرئ بالياء، أي يجمع الكفار "إلى الله تحشرون" إلى الله الرحيم الواسع الرحمة، المشيب العظيم الثواب تحشرون ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به، شأن ليس بالخفي. قرئ: متم بضم الميم وكسرهما، من مات يموت ومات يمات.

"فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لنفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" ما مزيدة للتوكيد والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله ونحوه "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم" المائدة: 13، ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم حتى أثابهم غمّاً بغم وآسأهم بالمبائة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهمزوا وتركوه "ولو كنت فظاً جافياً" غليظ القلب" قاسيه "لأنفضوا من حولك" لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم "فاعف عنهم" فيما يختص بك "واستغفر لهم" فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم "وشاورهم في الأمر" يعني في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحى لتستظهر برأيهم، ولما فيه من تطيب نفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضي الله عنه: قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده. وعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم "ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم" وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل: كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم. وقرئ: وشاورهم في بعض الأمر "فإذا عزمت" فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى "فتوكل على الله" في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلاح، فإن ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله، لا أنت ولا من تشاور. وقرئ: فإذا عزمت بضم التاء، بمعنى فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل علي ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

"إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير" "إن ينصركم الله" كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم "وإن يخذلكم" كما خذلكم يوم أحد "فمن ذا الذي ينصركم" فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه. ونحوه "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده" فاطر: 2. "من بعده" من بعد خذلانه. أو هو من قولك ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان؛ تريد إذا جاوزته. وقرأ عبيد بن عمير: وإن يخذلكم، من أخذه إذا جعله مخذولاً. وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان "وعلى الله" وليخص المؤمنون بهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه. يقال غل شيئاً من المغنم غلولاً وأغل إغلالاً، إذا أخذه في خفية. يقال أغل الجازر، إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد. والغل: الحقد الكامن في الصدر. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "من بعثناه على عمل فغل شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه" وقوله صلى الله عليه وسلم: "هدايا الولاة غلول" وعنه: "ليس على المستعير غير المغل ضمان" وعنه: "لا إغلال ولا إسلال" ويقال: أغله إذا وجده غالاً، كقولك: أبخلته وأفحمته ومعنى "وما كان لنبي أن يغفل" وما صح له ذلك، يعني أن النبوة تنافي الغلول، وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأول، لأن معناه: وما صح له أن يوجد غالاً، ولا يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً. وفيه وجهان: أحدهما أن يبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ويتره وينبه على

عصمته بأن النبوة والغلول متنافيان؟ لنلا يظن به طان شيئاً منه وألا يستريب به أحد، كما روى: أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر. فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها. وروي: أنها نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لو يقسم يوم بدر، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري، فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال صلى الله عليه وسلم: بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم والثاني أن يكون مبالغة في النهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روي: أنه بعث طلحة فغنمت غنائم فقسّمها ولم يقسم للطلحة، فترلت. يعني: وما كان لنبي أن يعطي قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية. وسمى حرمان بعض الغزاة غلواً تغليظاً وتقيحاً لصورة الأمر، ولو قرئ: أن يغل من أغل بمعنى غل، لحاز "يأت بما غل يوم القيامة" يأت بالشيء الذي غله بعينه يحمله كما جاء في الحديث: "جاء يوم القيامة يحمله على عنقه" وروي: "ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببيع له رغاء وبقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء، فينادي يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك" وعن بعض جفاة العرب أنه سرق نافجة مسك، فتليت عليه الآية فقال: إذا أهلها طيبة الريح خفيفة الحمل. ويجوز أن يراد يأتي بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه فإن قلت: هلا قيل: ثم يوفى ما كسب، ليتصل به؟ قلت: جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال خيراً أو شراً مجزي فموفى جزاءه، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب "وهم لا يظلمون" أي يعدل بينهم في الجزاء، كل جزاؤه على قدر كسبه.

"هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون، لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين" "هم درجات" أي هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات كقوله:

أنصب للمنية تعتريهـم رجالي أم همو درج السيول

وقيل: ذوو درجات والمعنى تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب "الله بصير بما يعملون" عالم بأعمالهم ودرجاتهم فمجازيهم على حسبها "لقد من الله على المؤمنين" على من آمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه. وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون بمبعثه "من أنفسهم" من جنسهم عربياً مثلهم. وقيل من ولد إسماعيل كما أنه من ولده، فإن قلت: مما وجه المنة عليهم في أن كان من أنفسهم؟ قلت: إذا كان منهم كان اللسان واحداً، فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والثوق به، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم، كقوله: "وإنه لذكر لك ولقومكم" الزخرف: 44، وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقراءة فاطمة رضي الله عنها: من أنفسهم، أي من أشرفهم. لأن عدنان ذروة ولد إسماعيل، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان، وخندف ذروة مضر، ومدركة ذروة خندف، وقريش ذروة مدركة، وذروة قريش محمد صلى الله عليه وسلم. وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها - وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر - الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع

إسماعيل وضئضى معد وعنصر مضر، وجعلنا حصنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا له نبأ عظيم وخطر جليل. وقرئ: لمن من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم وفيه وجهان: أن يراد لمن من الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم، فحذف لقيام الدلالة، أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه "يتلوا عليهم آياته" بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي "ويزكيهم" ويظهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملازمة الحرمات وسائر الخبائث. وقيل: ويأخذ منهم الزكاة "ويعلمهم الكتاب والحكمة" القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وابعدهم من دراسة العلوم "وإن كانوا من قبل" من قبل بعثة الرسول "لفي ضلال" إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. وتقديره: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال "مبين" ظاهر لا شبهة فيه.

"أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير، وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين" "أصابتكم مصيبة" يريد: ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم "قد أصبتم مثليها" يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين. و"لما" نصب بقلتم. و"أصابتكم" في محل الجر بإضافة "لما" إليه وتقديره: أقلتم حين أصابتكم. و"أنى هذا" نصب لأنه مقول، والهمزة للتقرير والتقرير. فإن قلت: علام عطف الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله: "ولقد صدقكم الله وعده" ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف، كأنه قيل: أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا، أنى هذا: من أين هذا. كقوله تعالى: "أنى لك هذا" آل عمران: 7، لقوله: "من عند أنفسكم" وقوله: "من عند الله" والمعنى: أنتم السبب فيما أصابكم، لاختياركم الخروج من المدينة، أو لتخليتكم المركز. وعن علي رضي الله عنه: لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم "إن الله على كل شيء قدير" فهو قادر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيب بكم تارة ويصيب منكم أخرى "وما أصابكم" يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين "ف" هو كائن "ياذن الله" أي بتخليته، استعار الإذن لتخليته الكفار. وأنه لم يمنعهم منهم ليبتليهم، لأن الآذن محل بين المأذون له ومراده "وليعلم" وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء "وقيل لهم" من جملة الصلة عطف على نافقوا، وإنما لم يقل فقالوا لأنه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال، كأنه قيل: فماذا قالواهم. فقيل: قالوا: لو نعلم. ويجوز أن تقتصر الصلة على "نافقوا"، ويكون "وقيل لهم" كلاماً مبتدأ قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون، وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الآخرة دفعاً عن أنفسهم وأهليهم وأمواهم، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم وذلك ما روى أن عبد الله بن أبي المخذل مع حلفائه، ف قيل له، فقال ذلك. وقيل: "أو ادفعوا" العدو بتكثيركم سواد المجاهدين وإن لم تقاتلوا لأن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. وعن سهل بن سعد الساعدي - وقد كف بصره - لو

أمكنني لبعث داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم. قيل وكيف وقد ذهب بصرك؟ قال لقوله: "أو ادفعوا" أراد: كثروا سوادهم. ووجه آخر وهو أن يكون معنى قولهم: "لو نعلم قتالاً" لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً "لا تبعناكم" يعنون أن ما أنتم فيه خطأ رأيكم وزللکم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال مثله قتال، إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، لأن رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج "هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان" يعني أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أماراة تؤذن بكفرهم، فلما اتخذوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخذال تقوية للمشركين "يقولون بأفواههم" لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم ولا تعي قلوبهم منه شيئاً. وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم، وأن إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم، خلاف صفة المؤمنين في مواطاة قلوبهم لأفواههم "والله أعلم بما يكتُمون" من النفاق. وبما يجري بعضهم مع بعض من ذم المؤمنين وتجهيلهم وتحطئة رأيهم والشماتة بهم وغير ذلك، لأنكم تعلمون بعض ذلك علماً مجملاً بأمارات، وأنا أعلم كله علم إحاطة بتفاصيله وكيفياته "الذين قالوا" في إعرابه أوجه: أن يكون نصباً على الذم أو على الرد على الذين نافقوا، أو رفعاً على هم الذين قالوا أو على الإبدال من واو يكتُمون. ويجوز أن يكون مجروراً بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم، كقوله:

على جوده لضم بالماء حاتم

"لإخوانهم" لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار "وقعدوا" أي قالوا وقد قعدوا على القتال: لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من القعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل "قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين" معناه: قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال، فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً، يعني أن ذلك الدفع غير مغن عنكم، لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت، لم تقدرُوا على دفع سائر أسبابه المشوثة، ولا بد لكم من أن يتعلق بكم بعضها. وروي: أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً. فإن قلت: فقد كانوا صادقين في أنهم دفعوا القتل عن أنفسهم بالقعود، فما معنى قوله: "إن كنتم صادقين"؟ قلت: معناه أن النجاة من القتل يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره، لأن أسباب النجاة كثيرة، وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل، فما يدريكم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون في مقالكم؟ وما أنكرتم أن يكون السبب غيره. ووجه آخر: إن كنتم صادقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا، يعني أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين. وقوله: "فادرؤا عن أنفسكم الموت" استهزاء بهم، أي إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت، فادرؤا جميع أسبابه حتى لا تموتوا. "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين" "ولا تحسبن" الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد. وقرئ بالياء على: ولا يحسبن

رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ولا يحسن حاسب. ويجوز أن يكون "الذين قتلوا" فاعلاً، ويكون التقدير: ولا يحسنهم الذين قتلوا أمواتاً، أي لا يحسن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً. فإن قلت: كيف جاز حذف المفعول الأول؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ، فحذف كما حذف المبتدأ في قوله "أحياء" والمعنى: هم أحياء لدلالة الكلام عليهما. وقرئ: ولا تحسن بفتح السين، وقتلوا بالتشديد. وأحياء بالنصب على معنى: بل احسبهم أحياء "عند ربهم" مقربون عنده ذو وزلفى، كقوله: "فالذين عند ربك" فصلت: 38. "يرزقون" مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون. وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التعم برزق الله "فرحين بما آتاهم الله من فضله" وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم، من كونهم أحياء مقرين معجلاً لهم رزق الجنة ونعيمها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر تدور في أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش" "ويستبشرون ب" إخوانهم المجاهدين "الذين لم يلحوا بهم" أي لم يقتلوا فيلحقوا بهم "من خلفهم" يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم. وقيل: لم يلحقوا بهم، لم يدركوا فضلهم ومزلتهم "ألا خوفٌ عليهم" بدل من الذين. والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة. بشرهم الله بذلك فهو مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على ازدياد الطاعة، والجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم، وإحماد حال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله، ويشرى للمؤمنين بالفوز في المآب. وكرر "يستبشرون" ليعلق به ما هو بيان لقوله: "ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون" من ذكر النعمة والفضل، وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع وقرئ وأن الله بالفتح عطفاً على النعمة والفضل. وبالكسر على الابتداء وعلى أن الجملة اعتراض. وهي قراءة الكسائي. وتعنيها قراءة عبد الله. والله لا يضيع.

"الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيمٌ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضلٍ عظيمٌ" "الذين استجابوا" مبتدأ خبره "الذين أحسنوا" أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح. روي: أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يريهم ويريه من نفسه وأصحابه قوة، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال: لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا، فزلت. و من في "الذين أحسنوا منهم" للتبيين مثلها في قوله تعالى: "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة" الفتح: 29، لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم. وعن عروة بن الزبير: قالت لي عائشة رضي الله عنها إن أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول تعني أبا بكر والزبير "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم" روي

أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد. يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن شاء الله؛ فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران. فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً فقال: يا نعيم، إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي. أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريداً، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم الموسم، فوالله لا يفلت منكم أحد. وقيل: مر بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل لهم حمل يعير من زيب إن ثبطوهم، فكره المسلمون الخروج. فقال صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد، فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل - وقيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار - حتى وافوا بدرًا وأقاموا بها ثمان ليال، وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين. ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق. قالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق. فالتاس الأولون: المشيطون. والآخرون: أبو سفيان وأصحابه. فإن قلت: كيف قيل: "الناس" إن كان نعيم هو المشيط وحده؟ قلت: قيل ذلك لأنه من جنس الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد. أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويشيطون مثل تشبيطه. فإن قلت: إلام يرجع المستكن في "فزادهم"؟ قلت: إلى المقول الذي هو "إن الناس قد جمعوا لكم فخشوهم" كأنه قيل: قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً، أو إلى مصدر قالوا، كقولك: من صدق كان خيراً له. أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده. فإن قلت: كيف زادهم نعيم أو مقوله إيماناً؟ قلت: لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الإسلام، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج؛ ولأن خروجهم على أثر تشبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان؛ لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر: قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: "نعم حتى يدخل صاحبه الجنة. وينقص حتى يدخل صاحبه النار" وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول: قم بنا نزدد إيماناً. وعنه:

لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به. "حسبنا الله" محسبنا، أي كافينا. يقال: أحسبه الشيء إذا كفاه والدليل على أنه بمعنى الخسب أنك تقول: هذا رجل حسبك، فتصف به النكرة؛ لأن إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة "ونعم الوكيل" ونعم الموكول إليه هو "فانقلبوا" فرجعوا من بدر "بنعمة من الله" وهي السلامة وحذر العدو منهم "وفضل" وهو الربح في التجارة، كقوله "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم" البقرة: 198. "لم يمسههم سوء" لم يلقوا ما يسوؤهم من كيد العدو "واتبعوا رضوان الله" بجرأتهم وخروجهم "والله ذو فضل عظيم" قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا. وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار خطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. وروي أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً، فاعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم. "إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين" "الشيطان" خبر ذلكم، بمعنى: إنما ذلكم

المشيط هو الشيطان. ويخوف أوليائه: جملة مستأنفة بيان لشيطنته. أو الشيطان صفة لاسم الإشارة. ويخوف الخبر. والمراد بالشيطان نعيم، أو أبو سفيان. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، بمعنى إنما ذلكم قول الشيطان، أي قول إبليس لعنه الله "يخوف أوليائه" يخوفكم أوليائه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود: يخوفكم أوليائه. وقوله: فلا تخافوهم. وقيل: يخوف أوليائه القاعدين عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: فلإلام رجع الضمير في "فلا تخافوهم" على هذا التفسير؟ قلت: إلى الناس في قوله: "إن الناس قد جمعوا لكم" آل عمران: 183، فلا تخافوهم فتقعوا عن القتال وتجنبوا "وخافون" فجاهدوا مع رسولي وشارعوا إلى ما يأمركم به "إن كنتم مؤمنين" يعني أن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس "ولا يخشون أحداً إلا الله" الأحزاب: 39.

"ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم، إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم، ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين"

"يسارعون في الكفر" يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشد رغبة، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل: هم قوم ارتدوا عن الإسلام. فإن قلت: فما معنى قوله: "ولا يحزنك"؟ ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت: معناه لا يحزنوك لخوف أن يضروك ويعينوا عليك. ألا ترى إلى قوله "إنهم لن يضروا الله شيئاً" يعني أنهم لا يضرون ويعينوا عليك. ألا ترى إلى قوله "إنهم لن يضروا الله شيئاً" يعني أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله: "يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة" أي نصيباً من الثواب "ولهم" بدل الثواب "عذاب عظيم" وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه. فإن قلت: هلا قيل: لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة، وأي فائدة في ذكر الإرادة؟ قلت: فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر، تنبيهاً على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه، حتى إن أرحم الراحمين يريد ألا يرحمهم "إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان" إما أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم. وإما أن يكون عاماً للكفار، والأول خاصاً فيمن نافق من المتخلفين. أو ارتد عن الإسلام أو على العكس. و"شيئاً" نصب على المصدر؛ لأن المعنى: شيئاً من الضر وبعض الضر "الذين كفروا" فيمن قرأ بالتاء نصب و"إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم" بدل منه: أي ولا تحسبن أن ما نملي للكافرين خير لهم، وأن مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين، كقوله: "أم تحسبن أن أكثرهم يسمعون" الفرقان: 44، وما مصدرية، بمعنى: ولا تحسبن أن إملأنا خيراً، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة. ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف. فإن قلت: كيف صح مجيء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين، ولا يجوز الاختصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت: صح ذلك من حيث إن التعويل على البدل والمبدل منه في حكم المنحى، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض، مع امتناع سكوتك على متاعك. ويجوز أن يقدر مضاف محذوف على: ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم. أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم. وهو فيمن قرأ بالياء رفع، والفعل متعلق بأن وما في حيزه. والإملاء

لهم: تخليتهم وشأنهم، مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. وقيل: هو إمهالهم وإطالة عمرهم. والمعنى: ولا تحسبن أن الإملاء خير لهم من منعهم أو قطع آجالهم "إنما غلي لهم" ما هذه حقها أن تكتب متصلة، لأنها كافة دون الأولى، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها، كأنه قيل: ما بالهم لا يسحبون الإملاء خيراً لهم، فقيل: إنما غلي لهم ليزدادوا إثماً. فإن قلت: كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إمهاله لهم؟ قلت: هو علة للإملاء، وما كل علة بغرض. ألا تراك تقول: قعدت عن الغزو للعجز والفاقة، وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء منها بغرض لك. وإنما هي علل وأسباب، فكذلك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسبباً فيه. فإن قلت: كيف يكون ازدياد الإثم علة للإملاء كما كان العجز علة للعود عن الحرب؟ قلت: لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنهم مزدادون إثماً، فكأن الإملاء وقع من أجله ويسببه على طريق انجاز. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأول وفتح الثانية. ولا يحسبن بالياء، على معنى: ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لازدياد الإثم كما يفعلون، وإنما هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. وقوله: "إنما غلي لهم خيرٌ لأنفسهم" اعتراض بين الفعل ومعموله. ومعناه: أن إملاءنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم بتفسيح المدة وترك المعالجة بالعقوبة. فإن قلت: فما معنى قوله: "ولهم عذابٌ مهينٌ" على هذه القراءة؟ قلت: معناه: ولا تحسبوا أن إملاءنا لزيادة الإثم وللتعذيب، والواو للحال، كأنه قيل: ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين.

"ما كان الله ليذرم المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجرٌ عظيمٌ"

اللام لتأكيد النفي "على ما أنتم عليه" من اختلاط المؤمنين المخلص والمنافقين "حتى يميز الخبيث من الطيب" حتى يعزل المنافق عن المخلص. وقرئ: يميز. من ميز. وفي رواية عن ابن كثير: يميز من أمار بمعنى ميز. فإن قلت: لمن الخطاب في "أنتم" قلت: للمصدقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل: ما كان الله ليذرم المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها - من اختلاط بعضهم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً - حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم، ثم قال: "وما كان الله ليطلعكم على الغيب" أي وما كان الله ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطلع على ما في القلوب إطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها "ولكن الله" يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأن في الغيب كذا، وأن فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة اطلاعه على المغيبات. ويجوز أن يراد: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب، بأن يكلفكم التكليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخالص الذي امتحن الله قلوبهم. كبذل الأرواح في الجهاد، وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم، حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله به. وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها "ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء" فيخبره ببعض المغيبات "فآمنوا بالله ورسله" بأن تقدروه حق قدره، وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب، وأن تتزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عباداً مجتبيين، لا يعلمون إلا ما علمهم الله، ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله

به من الغيوب، وليسوا من علم الغيب في شيء. وعن السدي قال الكافرون: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فترلت.

"ولا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبيرٌ" "ولا تحسن" من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفاً، أي ولا تحسن بخل الذين ييخلون هو خيراً لهم. وكذلك من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسن ضمير رسول الله، أو ضمير رسول الله، أو ضمير أحد. ومن جعل فاعله الذين ييخلون كان المفعول الأول عنده محذوفاً تقديره: ولا يحسن الذين ييخلون بخلهم "هو خيراً لهم" والذي سوغ حذفه دلالة "ييخلون" عليه، وهو فصل. وقرأ الأعمش بغير هو "سيطوقون" تفسير لقوله: "هو شرٌ لهم" أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة، إذا جاء بهمة يسب به ويدم. وقيل: يجعل ما بخل من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة، تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك. وعن النبي صلى الله عليه وسلم في مانع الزكاة: "يطوق بشجاع أقرع" وروي "بشجاع أسود" وعن النخعي: سيطوقون بطوق من نار "والله ميراث السموات والأرض" أي وله ما فيها مما يتوارثه أهلها من مال وغيره فمألهم ييخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله: "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه" الحديد: 7، وقرئ بما تعملون بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد والياء على الظاهر.

"لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقٍ ونقول ذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد"

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى: "من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً"، فلا يخلو إما أن يقولوه عن اعتقاد لذلك، أو عن استهزاء بالقرآن، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن متمردين في كفرهم. ومعنى سماع الله له: أنه لم يخف عليه، وأنه أعد له كفاؤه من العقاب "سنكتب ما قالوا" في صحائف الحفظة. أو سنحفظه ونثبت في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فإن قلت: كيف قال: "لقد سمع الله" ثم قال "سنكتب" وهلا قيل: ولقد كتبنا؟ قلت: ذكر وجود السماع أولاً مؤكداً بالقسم ثم قال: سنكتب على جهة الوعيد بمعنى لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء. وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيداناً بأنهم في العظم أخوان، وبأن هذا ليس بأول ما ركبوه من العظائم. وأهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول. وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرصاً حسناً، فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حين سألنا القرض فلطمه أبو بكر في وجهه وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله، فترلت. ونحوه قولهم: "يد الله مغلولة" المائدة: 64، "ونقول" لهم "ذوقوا" وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة: ذوقوا "عذاب الحريق" كما أذقتم المسلمين الغصص. يقال للمتقم منه: أحس، وذق. وقال أبو سفيان لحمزة رضي الله عنه: ذق عقق وقرأ حمزة: سيكتب، بالياء على البناء للمفعول، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج: سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود: ويقال ذوقوا "ذك" إشارة إلى ما تقدم من عقابهم وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تراول بهن، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل

التغليب فإن قلت: فلم عطف قوله "وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد" على "ما قدمت أيديكم"، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب؟ قلت: معنى كونه غير ظلام للعبيد أنه عادل عليهم ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

"الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين، فإن كذبوك فقد كذب رسلٌ من قبلك جاءو بالبينات والزبر والكتاب المنير" "عهد إلينا" أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قرباناً تنزل نار من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بني إسرائيل تلك آيتهم، كان يقرب بالقربان، فيقوم النبي فيدعو، فتزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله، لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات. وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاؤهم بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق، وجاؤهم أيضاً بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلوهم إن كانوا صادقين أن الإيمان يلزمهم بإتيانها وقرئ بقربان بضمين. ونظيره السلطان. فإن قلت: ما معنى قوله: "وبالذي قلتم"؟ قلت: معناه، وبمعنى الذي قلتموه من قولكم: قربان تأكله النار. ومؤداه كقوله: "ثم يعودون لما قالوا" المجادلة: 3، أي لمعنى ما قالوا. في مصاحف أهل الشام: وبالزبر، وهي الصحف "والكتاب المنير" التوراة والإنجيل والزبور. وهذه تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه وتكذيب اليهود. "كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" وقرأ اليزيدي ذائقة الموت على الأصل. وقرأ الأعمش ذائقة الموت بطرح التنوين مع النصب كقوله:

ولا ذاكر الله إلا قليلا

فإن قلت: كيف اتصل به قوله: "وإنما توفون أجوركم"؟ قلت: اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بد لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور. فإن قلت فهذا يوهم نفي ما يروى أن

"القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار". قلت: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور. الزحزحة: الترحية والإبعاد تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة "فقد فاز" فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لم ندرك به عندك الفوز في المآب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه" وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلّس به على المستام ويغر حتى يشتريه ثم يتبين له فساده ورداءته. والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب الآخرة بما فإنا متاع بلاغ، خوطب المؤمنون بذلك

ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها، حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من يصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه.

"لتبطلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور" والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب. وفي الأموال: الإنفاق في سبل الخير وما يقع فيها من الآفات. وما يسمعون من أهل الكتاب المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن. وما كان من كعب بن الأشرف من هجائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريض المشركين، ومن فنحاص، ومن بني قريظة والنضير "فإن ذلك" فإن الصبر والتقوى "من عزم الأمور" من معزومات الأمور، أي مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون، يعني أن ذلك عزمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا.

"وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون" "وإذا أخذ الله" واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب "لتبيننه" الضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانهم كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه وقيل له: الله لتفعلن "فنبذوه وراء ظهورهم" فنبذوا الميثاق وتأكده عليهم، يعني لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه. والنبذ وراء الظهر مثل في الطرح وترك الاعتداد. ونقيضه جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه، وكفى به دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطيب لنفوسهم. واستجلاب لمسارهم أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية: مما لا دليل عليه ولا أمانة أو لبخل بالعلم، وغيره أن ينسب إليه غيرهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من كتم علماً عن أهله أجم بلجام من نار" وعن طاوس أنه قال لوهب: إني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب. وقال: والله لو كنت نبياً فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك، وعن محمد بن كعب: لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا. وقرئ: ليبيننه. ولا يكتمونهم. بالياء لأهم غيب. وبالناء على حكاية مخاطبتهم، كقوله: "وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن" الإسراء: 4.

"ولا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم"

"لا تحسبن" خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحد المفعولين "الذين يفرحون" والثاني "بمفازة" وقوله: "فلا تحسبنهم" تأكيد تقديره: لا تحسبنهم، فلا تحسبنهم فائزين. وقرئ: لا تحسبن. فلا تحسبنهم، بضم الباء على خطاب المؤمنين ولا يحسبن. فلا يحسبنهم، بالياء وفتح الباء فيهما، على أن الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني، على أن الفعل للذين يفرحون، والمفعول الأول محذوف على: لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين، وفلا يحسبنهم، تأكيد. ومعنى "بما أوتوا" بما فعلوا. وأتى وجاء، يستعملان بمعنى فعل قال الله تعالى: "إنه كان وعده مأتياً" مريم: 61، "لقد جئت شيئاً فرياً" مريم: 27. ويدل

عليه قراءة أبي: يفرحون بما فعلوا. وقرئ: آتوا، بمعنى أعطوا. وعن علي رضي الله عنه: بما أوتوا. ومعنى "بمفازة من العذاب" بمنجاة منه. روي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتبوا الحق وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم: أي لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا - من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه - ناجين من العذاب. ومعنى "فرحين" بما أوتوه من علم التوراة. وقيل: يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا أن إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه. وقيل: هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة في التخلف، واستحمدوا إليه بترك الخروج. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أوتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطانهم الكفر. ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بما فرح إعجاب. ويجب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه.

"والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير، إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار" "والله ملك السموات والأرض" فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير، فهو يقدر على عقابهم "لآيات" لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته "لأولي الألباب" للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار. ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر. وفي النصائح الصغار: املاً عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكراً في قدرة مقدرها، متدبراً حكمة مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قلت لعائشة رضي الله عنها: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال: يا عائشة، هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت: يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب هواك، قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت. فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأثاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً. ثم قال: وما لي لا أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة "إن في خلق السموات والأرض" ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروي: "ويل لمن لا كهها بين فكيه ولم يتأملها" وعن علي رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: "إن في خلق السموات والأرض" وحكي: أن الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمت سحابة، فعبدها فتى من فتيانهم فلم تظله، فقالت له أمه: لعل فرطة فرطت منك في مدتك؟ فقال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر؟ قال: لعل. قالت: فما أتيت إلا من ذاك "الذين يذكرون الله" ذكراً دائماً على أي حال كانوا، من قيام وقعود

واضطجاع لا يخلون بالذكر في أغلب أحوالهم. وعن ابن عمر وعروة ابن الزبير وجماعة: أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: "يذكرون الله قياماً وقعوداً" فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله" وقيل: معناه يصلون في هذه الأحوال على حسب استطاعتهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمران بن الحصين: "صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب، تومئ إيماء" وهذه حجة للشافعي رحمه الله في إضجاع المريض على جنبه كما في اللحد. وعند أبي حنيفة رحمه الله أنه يستلقي حتى إذا وجد خفة قعد. ومحل "على جنوبهم" نصب على الحال عطفاً على ما قبله، كأنه قيل قياماً وقعوداً ومضطجعين "ويتفكرون في خلق السموات والأرض" وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام وإبداع صنعتها وما دبر فيها مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم شأن الصانع وكبرياء سلطانه. وعن سفيان الثوري أنه صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشي عليه، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا عبادة كالتفكير" وقيل: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشبية كما يحدث الماء للزرع النبات. وما جلست القلوب بمثل الأحران ولا استنارت بمثل الفكرة. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يرفع له في كل يوم مثل عمل أهل الأرض" قالوا: وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله الذي هو عمل القلب، لأن أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض "ما خلقت هذا باطلاً" على إرادة القول. أي يقولون ذلك وهو في محل الحال، بمعنى يتفكرون قائلين. والمعنى: ما خلقته خلقاً باطلاً بغير حكمة، بل خلقته لداعي حكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك؛ ولذلك وصل به قوله: "فقنا عذاب النار" لأنه جزاء من عصى ولم يطع. فإن قلت: هذا إشارة إلى ماذا؟ قلت: إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، كأنه قيل: ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض، أي فيما خلق منها. ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض؛ لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً. وفي هذا ضرب من التعظيم كقوله: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم" الإسراء: 90، ويجوز أن يكون باطلاً حالاً من هذا. وسبحانك: اعتراض للتنزيه من العبث، وأن يخلق شيئاً بغير حكمة.

"ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد"

"فقد أخزيته" فقد أبلغت في إخزائه. وهو نظير قوله فقد فاز. ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق "وما للظالمين" اللام إشارة إلى من يدخل النار وإعلام بأن من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعاة ولا غيرها. تقول: سمعت رجلاً يقول كذا، وسمعت زيداً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع، لأنك وصفته بما يسمع أو جعلته حالاً عنه فأغناك عن ذكره، ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بد، وأن يقال

سمعت كلام فلان أو قوله. فإن قلت: فأني فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلت: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي؛ لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان. ونحوه قولك: مررت بهاد يهدي للإسلام. وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء النائرة، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق ويهدي لسداد الرأي وغير ذلك؛ فإذا قلت: ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته. ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، وندبه له وإليه، وناداه له وإليه. ونحوه: هداية للطريق وإليه، وذلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً، والمادي هو الرسول "أدعو إلى الله" يوسف: 108، و"ادع إلى سبيل ربك" النحل: 125. وعن محمد بن كعب: القرآن "إن آمنوا" أي آمنوا، أو بأن آمنوا "ذنوبنا" كبائرنا "سيئاتنا" صغائرنا "مع الأبرار" مخصوصين بصحبتهم، معدودين في جملتهم. والأبرار: جمع بر أو بار، كبر وأرباب، وصاحب وأصحاب "على رسلك" على هذه صلة للوعد، كما في قولك: وعد الله الجنة على الطاعة. والمعنى: ما وعدتنا على تصديق رسلك. ألا تراه كيف أتبع ذكر المنادي للإيمان وهو الرسول وقوله آمنا وهو التصديق ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف، أي ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً على رسلك، لأن الرسل يحملون ذلك "فإنما عليه ما حمل" النور: 54، وقيل: على السنة رسلك. والموعود هو الثواب. وقيل: النصر على الأعداء. فإن قلت: كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد الله لا يخلف الميعاد؟ قلت: معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد أو هو باب من اللجأ إلى الله والخضوع له، كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربهم والتضرع إليه، واللجأ الذي هو سيما العبودية.

"فاستجاب لهم ربهم أي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب" يقال: استجاب له واستجاب به.

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

"أني لا أضيع" قرئ بالفتح على حذف الياء، وبالكسر على إرادة القول. وقرئ: لا أضيع، بالتشديد "من ذكرٍ أو أنثى" بيان لعامل "بعضكم من بعض" أي يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي من أصله، أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم. وقيل المراد وصلة الإسلام. وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين وروي:

أن أم سلمة قالت: يا رسول الله، إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء. فترلت "فالذين هاجروا" تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفاتكة، وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطروا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشؤوا بما سامهم المشركون من الخسف "وأوذوا في سبيلي" من أجله وبسببه، يريد سبيل الدين "وقاتلوا وقتلوا" وغزوا المشركين واستشهدوا. وقرئ: وقتلوا، بالتشديد. وقتلوا وقتلوا - على التقديم - بالتخفيف

والتشديد وقتلوا، وقتلوا، على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول. وقتلوا، وقتلوا، على بنائهما للفاعل "ثواباً" في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو تنويهاً "من عند الله" لأن قوله: "لأكفرون عنهم.... ولأدخلنهم" في معنى، لأثيبنهم. "وعنده" مثل: أن يختص به ويقدرته وفضله، لا يشييه غيره ولا يقدر عليه، كما يقول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرته. وهذا تعليم من الله كيف يدعي وكيف يبتهل إليه ويتضرع. وتكرير "ربنا" من باب الابتغال، وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة، من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه، وتسجيل على من لا يرى الثواب موصولاً إليه، بالعمل بالجهل والغباوة. وروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه: من حربه أمر فقال خمس مرات "ربنا" أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية. وعن الحسن: حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات "ربنا" ثم أخبر أنه استجاب لهم، إلا أنه اتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به، فلا بد من تقديمه بين يدي الدعاء.

"لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد" "لا يغرنك" الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد، أي لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب ودرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض، وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون. عن ابن عباس: هم أهل مكة. وقيل: هم اليهود. وروي أن أناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فإن قلت: كيف جاز أن يغتر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حتى ينهي عن الاغترار به؟ قلت: فيه وجهان أحدهما أن مدرة القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: لا يغرنكم والثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غي مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: "ولا تكن مع الكافرين" هود: 42، "ولا تكونن من المشركين" الأنعام: 14، "فلا تطع المكذبين" القلم: 8، وهذا في النهي نظير قوله في الأمر "اهدنا الصراط المستقيم" الفاتحة: 6، "يا أيها الذين آمنوا آمنوا" النساء: 36، وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب، وهذا من تزييل السبب منزلة المسبب، لأن التقلب لو غره لاغتر به، فمنع السبب ليمتنع المسبب. وقرئ: لا يغرنك بالنون الخفيفة "متاعٌ قليلٌ" خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك متاع قليل وهو التقلب في البلاد، أراد قلته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو في جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع" "وبئس المهاد" وساء ما مهدوا لأنفسهم.

"ولكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خيرٌ للأبرار" التزل والتزل: ما يقام للنازل. وقال أبو الشعراء الضبي:

**وكننا إذا الجبار بالجيش ضافنا
جعلنا القنا والمرهفات له نزلا**

وانتصابه إما على الحال من جنات لتخصصها بالوصف والعامل اللام، ويجوز أن يكون بمعنى مصدر مؤكد، كأنه

قيل: زرقاء أو عطاء "من عند الله وما عند الله" من الكثير الدائم "خير للأبرار" مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل، وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش "نزلاً" بالسكون. وقرأ يزيد بن القعقاع: لكن الذين اتقوا بالتشديد. "وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب" "وإن من أهل الكتاب" عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب. وقيل في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا. وقيل: في أصحمة النجاشي ملك الحبشة، ومعنى أصحمة عطية بالعربية. وذلك أنه.

لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم، فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه واستغفر له: فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علق نصراني لم يره قط وليس على دينه، فترلت. ودخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما؛ كقوله: "وإن منكم لمن ليبطن" النساء: 72. "وما أنزل إليكم" من القرآن "وما أنزل إليهم" من الكتابين "خاشعين لله" حال من فاعل يؤمن، لأن من يؤمن في معنى الجمع "لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً" كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم "أولئك لهم أجرهم عند ربهم" أي ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعدوه في قوله: "أولئك يؤتون أجرهم مرتين" القصص: 54، "يؤتكم كفلين من رحمته" القصص: 54. "إن الله سريع الحساب" لنفوذ علمه في كل شيء، فهو عالم بما يستوجه كل عامل من الأجر. ويجوز أن يراد: إنما توعدون لآت قريب بعد ذكر الموعد.

"يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" اصبروا على الدين وتكاليفه "وصابروا" أعداء الله في الجهاد، أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً والمصابرة: باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصاً لشدة وصعوبته "ورابطوا" وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها، مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل: "ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" الأنفال: 60، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه، لا يفطر، ولا يفتل عن صلاته إلا لحاجة".

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم". وعنه عليه الصلاة والسلام: "من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس".

سورة النساء

مدنية، وهي مائة وست وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً"

"يا أيها الناس" يا بني آدم "خلقكم من نفس واحدة" فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم. فإن قلت: علام عطف قوله: "وخلق منها زوجها"؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يعطف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها، وخلق منها زوجها. وإنما حذف لدلالة المعنى عليه. والمعنى: شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها "وبث منهما" نوعي جنس الإنس وهما الذكور والإناث، فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل بكيفية خلقهم منها. والثاني: أن يعطف على خلقكم، ويكون الخطاب في "يا أيها الناس" للذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمعنى: خلقكم من نفس آدم، لأنهم من جملة الجنس المفرع منه، وخلق منها أمكم حواء وبث منهما "رجالاً كثيراً ونساءً" غيركم من الأمم الفاتنة للحصر. فإن قلت: الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعوا إليها؟ قلت: لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة. ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب العصاة، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم، فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطوا ما يجب عليهم وصله، فقيل: اتقوا ربكم الذي وصل بينكم، حيث جعلكم صنوناً مفرعة من أرومة واحدة. فيما يجب على بعضكم لبعض، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة. وقرئ: وخالق منها زوجها. وبأث منهما، بلفظ اسم الفاعل، وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهو خالق "تساءلون به" تتساءلون به، فأدغمت التاء في السين. وقرئ تتساءلون بطرح التاء الثانية، أي يسأل بعضكم بعضاً بالله وبالرحم. فيقول: بالله والرحم، فقليل تفاعلون موضع تفعلون للجمع، كقولك: رأيت الهلال وتراءى بناه. وتنصره قراءة من قرأ: تسلون به. مهموز أو غير مهموز. وقرئ والأرحام بالحرركات الثلاث، فالنصب على وجهين، إما على: واتقوا الله والأرحام، أو أن يعطف على محل الجار والجرور، كقولك: مررت بزيد وعمراً. وينصره قراءة ابن مسعود: تسألون به وبالأرحام، والجر على عطف الظاهر على المضمَر، وليس بسديد؛ لأن الضمير المتصل متصل كاسمه، والجار والجرور كشيء واحد، فكانا في قولك: مررت به وزيد وهذا غلامه وزيد شديدي الاتصال، فلما اشتد الاتصال لتكرره أشبه العطف على بعض الكلمة، فلم يجوز ووجب تكرير العامل، كقولك: مررت به وبزيد وهذا غلامه وغلام زيد ألا ترى إلى صحة قولك: رأيتك وزيداً ومرت بزيد وعمرو لما لم يقو الاتصال، لأنه لم يتكرر، وقد تمحل لصحة هذه القراءة بأنها على تقدير تكرير الجار ونظيرها.

فأذهب فما بك والأيام من عجب

والرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف، كأنه قيل: والأرحام كذلك، على معنى: والأرحام مما يتقى أو الأرحام مما يسأل به. والمعنى أنهم كانوا يقرون بأن لهم خالقاً، وكانوا يتساءلون بذكر الله والرحم، فقليل لهم: اتقوا الله الذي

خلقكم، واتقوا الذي تتناشدون به واتقوا الأرحام فلا تقطعوهما. أو واتقوا الله الذي تتعاطفون بإذكاره وبإذكار الرحم. وقد آذن عز وجل إذ قرن الأرحام باسمه - أن صلتها منه بمكان، كما قال: "أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً" الإسراء: 23، وعن الحسن: إذا سألك بالله فأعطه، وإذا سألك بالرحم فأعطه. وللرحم حجنه عند العرش، ومعناه ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه: الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاها الواصل بشت به وكلمته. وإذا أتاها القاطع احتجبت منه. وسئل ابن عيينة عن قوله عليه الصلاة والسلام: "تخيروا لنطفكم".

فقال: يقول لأولادكم وذلك أن يضع ولده في الحلال. ألم تسمع قوله تعالى: "واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام" وأول صلتها أن يختار له الموضع الحلال، فلا يقطع رحمه ولا نسبه فإنما للعاهر الحجر، ثم يختار الصحة ويحسب الدر، ولا يضعه موضع سوء يتبع شهوته وهواه بغير هدى من الله.

"وأتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالهم إنه كان حوباً كبيراً" "اليتامى" الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتيم الانفراد. ومنه: الرملة اليتيمة والدرة اليتيمة. وقيل: اليتيم في الأناسي من قبل الآباء. وفي البهائم من قبل الأمهات. فإن قلت: كيف جمع اليتيم - وهو فعيل كمريض - على يتامى؟ قلت: فيه وجهان: أن يجمع على يتمى كأسرى، لأن اليتيم من وادي الآفات والأوجاع، ثم يجمع فعلى على فعالى كأسارى. ويجوز أن يجمع على فعالل لجري اليتيم مجرى الأسماء، نحو صاحب وفارس، فيقال: يتائم، ثم يتامى على القلب. وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، إلا أنه قد غلب أن يسموا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم وانتصبوا كفاة يكفلون غيرهم ويقومون عليهم، زال عنهم هذا الاسم، وكانت قریش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يتيم أبي طالب، إما على القياس وإما حكاية للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضيحاً له. وأما قوله عليه السلام: "لا يتم بعد الحلم".

فما هو إلا تعليم شريعة لا لغة، يعني أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار. فإن قلت: فما معنى قوله: "وأتوا اليتامى أموالهم"؟ قلت: إما أن يراد باليتامى الصغارن ويأتيهم الأموال: أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاة السوء وقضاته ويكفغوا أيديهم الخاطفة، حتى تأتي اليتامى إذا بلغوا سالمة غير محذوفة. وإما أن يراد الكبار تسمية لهم يتامى على القياس، أو لقرب عهدهم - إذا بلغوا - بالصغر، كما تسمى الناقة عشاء بعد وضعها. على أن فيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ، ولا يمتطوا إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار.

وقيل: هي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ طلب المال فمنعه عمه فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فترلت، فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع ماله إليه؛ فقال النبي عليه السلام: "ومن يوق شح نفسه يقطع ربه هكذا فإنه يحل داره - يعني جنته - فلما قبض ألفوا ماله أنفق في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ثبت الأجر، ثبت الأجر وبقي الوزر" قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا أنه ثبت الأجر كيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال: "ثبت أجر الغلام، وبقي الوزر على والده".

"ولا تبدلوا الخبيث بالطيب" ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما أبيع لكم من المكاسب ورزق الله المبتوث في الأرض فتأكلوه مكانه. أو لا تستبدلوا الأمر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع منها والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز. منه التعجل بمعنى الاستعجال، والتأخر بمعنى الاستتجار. قال ذو الرمة:

فيا كرم السكن الذين تحملوا عن الدار والمستخلف المتبدل

أراد: ويا لؤم ما استخلفته الدال واستبدلته. وقيل: هو أن يعطي رديناً ويأخذ جيداً. وعن السدي: أن يجعل شاة مهزولة مكان سمينة، وهذا ليس بتبدل، وإنما هو تبديل إلا أن يكارم صديقاً له فيأخذ منه عجفاء مكان سمينة من مال الصبي "ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم" ولا تنفقوها معها. وحقيقتها: ولا تضموها إليها في الإنفاق، حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحل لكم. وتسوية بينه وبين الحلال. فإن قلت: قد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم، فلم ورد النهي عن أكله؟ معها قلت: لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال. وهم على ذلك يطمعون فيها. كان القبح أبلغ والذم أحق ولأنهم كانوا يفعلون كذلك قنعى عليهم فعلهم وسمع بهم، ليكون أزجر لهم. والحب: الذنب العظيم. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "إن طلاق أم أيوب لخبث" فكأنه قيل: إنه كان ذنباً كبيراً. وقرأ الحسن حوباً بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوباً. وقرئ: حاباً. ونظير الحب والحاب: القول والقال. والطرء والطرء.

"وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا"

ولما نزلت الآية في اليتامى وما في أكل أموالهم من الحوب الكبير، خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك الإقسط في حقوق اليتامى، وأخذوا يتخرجون من ولايتهم، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست فلا يقوم بحقوقهن ولا يعدل بينهن، فقليل لهم: إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتخرجتم منها، فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات، لأن من تخرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متخرج ولا تائب، لأنه إنما وجب أن يتخرج من الذنب ويتاب منه لقبحه، والقبح قائم في كل ذنب، وقيل: كانوا لا يتخرجون من الزنا وهم يتخرجون من ولاية اليتامى، فقليل: إن خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا. فانكحوا ما حل لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرمات. وقيل: كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجهال أو يكون وليها، فيتزوجها ضناً بما عن غيره، فربما اجتمعت عنده عشر منهن، فيخاف - لضعفهن وفقد من يغضبهن - أن يظلمهن حقوقهن ويفرط فيما يجب لهن، فقليل لهم: إن خفتم أن لا تقسطوا في يتامى النساء فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم. ويقال للإناث اليتامى كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة على القلب، كما قيل: أيامى، والأصل: أيامم ويتائم. وقرأ النخعي تقسطوا بفتح التاء على أن لا مزيدة مثلها في "لئلا يعلم" الحديد: 29، يريد: وإن خفتم أن تجوروا "ما طاب" ما حل "لكم من النساء" لأن منهن ما حرم كاللاني في آية التحريم. وقيل: ما ذهباً إلى الصفة. ولأن الإناث من العقلاء يجزى غير العقلاء: ومنه قوله تعالى: "أو ما ملكت أيمانكم" مثنى وثلاث ورباع

معدولة عن أعداد مكررة، وإنما منعت الصرف لما فيها من العدلين: عدلها عن صيغها، وعدلها عن تكررها، وهي نكرات يعرفن بلام التعريف. تقول: فلان ينكح المثنى والثلاث والرابع، ومحلهن النصب على الحال مما طاب، تقديره: فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد، ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. فإن قلت: الذي أطلق للنكاح في الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع، فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع؟ قلت: الخطاب للجميع، فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له، كما تقول للجماعة: اقسّموا هذا المال - وهو ألف درهم - درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. ولو أفردت لم يكن له معنى. فإن قلت: فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ قلت: كما جاء بالواو في المثال الذي حدوته لك. ولو ذهبت تقول: اقسّموا هذا المال درهمين درهمين، أو ثلاثة ثلاثة، أو أربعة أربعة: أعلمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تشية، وبعضه على تثليث، وبعضه على تربيع.

وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو. وتحريره: أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع، إن شاءوا مختلفين في تلك الأعداد، وإن شاءوا متفقين فيها، محظوراً عليهم ما وراء ذلك. وقرأ إبراهيم: وثلاث ورباع، على القصر من ثلاث ورباع "فإن خفتم ألا تعدلوا" بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها "فواحدة" فالزموا: أو فاختروا واحدة وذروا الجمع رأساً. فإن الأمر كله يدور مع العدل، فأينما وجدتم العدل فعليكم به. وقرئ فواحدة بالرفع على: فالمقنع واحدة، أو فكفت واحدة، أو فحسبكم واحدة "أو ما ملكت أيما نكم" سوى في السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء، من غير حصر ولا توقيت عدد. ولعمري إهن أقل تبعه وأقصر شغباً وأخف مؤنة من المهائر، لا عليك أكثرت منهن أم أقللت، عدلت بينهن في القسم أم لم تعدل، عزلت عنهن أم لم تعزل. وقرأ ابن أبي عتبة: من ملكت "ذلك" إشارة إلى اختيار الواحدة والتسري "أدنى ألا تعولوا" أقرب من أن لا تميلوا، من قولهم: عال الميزان عولاً، إذا مال. وميزان فلان عائل، وعال الحاكم في حكمه إذا جار. وروي أن أعرابياً حكم عليه حاكم فقال له: أتعول علي. وقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"ألا تعولوا: أن لا تجوروا" والذي يحكى عن الشافعي رحمه الله أنه فسر أن لا تعولوا أن لا تكثر عيالكم. فوجهه أن يجعل من قولك: عال الرجل عياله يعولهم، كقولهم: ما هم بموفهم، إذا أنفق عليهم، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب. وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين، حقيقي بالحمل على الصحة والسداد، وأن لا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظن بكلمة خرجت من في أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً. وكفى بكتابتنا المترجم بكتاب شافي العي، من كلام الشافعي شاهداً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعاً في علم كلام العرب، من أن يخفى عليه مثل هذا، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب. فسلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات. فإن قلت: كيف يقال عيال من تسرى، وفي السراي نحو ما في المهائر؟ قلت: ليس كذلك، لأن الغرض بالتزوج التوالد والتناسل بخلاف التسري، ولذلك جاز العزل عن السراي بغير إذن، فكان التسري مظنة لقلّة الولد

بالإضافة إلى التزوج، كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع. وقرأ طاوس: أن لا تعيلوا، من أعال الرجل إذا كثر عياله. وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعي رحمه الله من حيث المعنى الذي قصده.

"وأتوا النساء صدقاتهن نحلةً فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً" صدقاتهن "مهورهن، وفي حديث شريح: قضى ابن عباس لها بالصدقة. وقرئ: صدقاتهن بفتح الصاد وسكون الدال على تخفيف صدقاتهن. و صدقاتهن بم الصاد وسكون الدال جمع صدقة بوزن غرفة. وقرئ: صدقتهن، بضم الصاد والدال على التوحيد، وهو تنقيص صدقة، كقولك في ظلمة: ظلمة. "نحلة" من نحله كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلاً. ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: إني كنت لنحلتك جداد عشرين وسقاً بالعالية. وانتصابها على المصدر لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء فكأنه قيل: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة، أي أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم، أو على الحال من المخاطبين، أي آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالإعطاء، أو من الصدقات، أي منحولة معطاة عن طيبة الأنفس. وقيل: نحلة من الله عطية من عنده وتفضلاً منه عليهن، وقيل: النحلة الملة، ونحلة الإسلام خير النحل. وفلان ينتحل كذا: أي يدين به. والمعنى: آتوهن مهورهن ديانة، على أنها مفعول لها. ويجوز أن يكون حالاً من الصدقات، أي ديناً من الله شرعه وفرضه. والخطاب للأزواج. وقيل: للأولياء، لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم، وكانوا يقولون: هنيئاً لك النافجة، لمن تولد له بنت، يعنون: تأخذ مهرها فتنفج به مالك أي تعظمه. الضمير في منه جار مجرى اسم الإشارة كأنه قيل عن شيء من ذلك، كما قال الله تعالى: "قل أؤنبئكم بخيرٍ من ذلكم" آل عمران: 15، بعد ذكر الشهوات، ومن الحجج المسموعة من أفواه العرب ما روى عن رؤية أنه قيل له في قوله:

كأنه في الجلد توليع البهق

فقال: أردت كأن ذاك. أو يرجع إلى ما هو في معنى الصدقات وهو الصداق، لأنك لو قلت: وأتوا النساء صدقاتهن، لم تخل بالمعنى، فهو نحو قوله: "فأصدق وأكن من الصالحين" المنافقون: 12، كأنه قيل: أصدق. و"نفساً" تمييز، وتوحيدها لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه. والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق وتجاغت عنه نفوسهن طيبات غير محببات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم "فكلوه" فأنفقوه. قالوا: فإن وهبت له ثم طلبت منه بعد الهبة، علم أنها لم تطب منه نفساً، وعن الشعبي: أن رجلاً أتى مع امرأته شريفاً في عطية أعطتها إياه وهي تطلب أن ترجع، فقال شريح: رد عليها. فقال الرجل: أليس قد قال الله تعالى: "فإن طبن لكم" قال: لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه. وعنه: أقيلهما فيما وهبت ولا أقيله، لأنهن يخذعن. وحكى أن رجلاً من آل معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقاً كان لها عليه، فلبث شهراً ثم طلقها، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان، فقال الرجل: أعطني طيبة بما نفسها، فقال عبد الملك: فأين الآية التي بعدها فلا تأخذوا منه شيئاً؟ إردد عليها. وعن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى قضااته: إن النساء يعطين رغبة ورهبة. فأبما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها، وعن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال: "إذا جادت لزوجهها بالعطية طائعة غير مكرهة لا يقضى به عليكم سلطان ولا يؤاخذكم الله به في الآخرة". وروي: أن أناساً كانوا

يتأثمون أن يرجع أحد منهم في شيء مما ساق إلى امرأته، فقال الله تعالى إن طابت نفس واحدة من غير إكراه ولا خديعة فكلوه سائغاً هنيئاً. وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط، حيث بنى الشرط على طيب النفس فقليل: فإن طبن، ولم يقل: فإن وهبن أو سمحن، إعلماً بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة. وقيل: فإن طبن لكم عن شيء منه. ولم يقل: فإن طبن لكم عنها، بعثاً لمن على تقليل الموهوب. وعن الليث بن سعد: لا يجوز تبرعها إلا باليسير. وعن الأوزاعي: لا يجوز تبرعها ما لم تلد أو تقم في بيت زوجها سنة. ويجوز أن يكون تذكير الضمير لينصرف إلى الصداق الواحد، فيكون متناولاً بعضه، ولو أنث لتناول ظاهره هبة هنؤ الطعام ومرؤ، إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه. وقيل: الهنيء: ما يلذه الأكل. والمريء ما يحمد عاقبته. وقيل هو ما ينساغ في مجراه. وقيل لدخل الطعام من الحلقوم إلى فم المعدة المريء لمروء الطعام فيه وهو انسياغه، وهما وصف للمصدر، أي أكلاً هنيئاً مريئاً، أو حال من الضمير، أي كلوه وهو هنيء مريء، وقد يوقف على فكلوه هنيئاً مريئاً على الدعاء، وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين، كأنه قيل: هنا مرأ. وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة.

"ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً" "السفهاء" المبذرون أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ولا يدى لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها. والخطاب للأولياء: وأضاف الأموال إليهم لأنها من جنس ما يقيم به الناس معاشهم، كما قال: "ولا تقتلوا أنفسكم" النساء: 79، "فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات" النساء: 25، والدليل على أنه خطاب للأولياء في أموال اليتامى قوله: "وارزقوهم فيها واكسوهم"، "جعل الله لكم قياماً" أي تقومون بها وتنتعشون، ولو ضيعتموها لصعتم فكأنها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم. وقرئ: قيما، بمعنى قياماً، كما جاء عوداً بمعنى عياداً. وقرأ عبد الله بن عمر: قواماً، بالواو. وقوام الشيء: ما يقام به، كقولك هو ملاك الأمر لما يملك به. وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك ما لا يحاسبني الله عليه، خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان - وكانت له بضاعة يقلبها -: لولاها لتمنل بني بنو العباس. وعن غيره - وقيل له إنها تدنيك من الدنيا -: لئن أدتني من الدنيا لقد صانتني عنها. وكانوا يقولون: التجروا واكتسبوا، فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه، وربما رأوا رجلاً في جنازة فقالوا له: اذهب إلى دكانك "وارزقوهم فيها" واجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتترجوا، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال فلا يأكلها الإنفاق. وقيل: هو أمر لكل أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء، قريب أو أجنبي، رجل أو امرأة، يعلم أنه يضعه فيما لا ينبغي ويفسده "قولاً معروفاً" قال ابن جريج: عدة جميلة، إن صلحتكم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم. وعن عطاء: إذا ربحت أعطيتك، وإن غنمت في غزاتي جعلت لك حظاً. وقيل: إن لم يكن من وجبت عليك نفقته فقل: عافانا الله وإياك، بارك الله فيك. وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه عقلاً أو شرعاً من قول أو عمل، فهو معروف، وما أنكرته ونفرت منه لقبحه، فهو منكر.

"وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً" "وابتلوا اليتامى" واختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف، قبل البلوغ حتى إذا تبينتم

منهم رشدًا - أي هداية - دفعتم إليهم أموالهم من غير تأخير عن حد البلوغ. وبلوغ النكاح. أن يحتلم لأنه يصلح للنكاح عنده، ولطلب ما هو مقصود به وهو التوالد والتناسل. والإيناس: الاستيضاح فاستعير للتبيين. واختلف في الابتلاء والرشد، فالابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه: أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى يستبين حاله فيما يجيء منه. والرشد: التهدي إلى وجوه التصرف. وعن ابن عباس: الصلاح في العقل والحفظ للمال. وعند مالك والشافعي: الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والإعطاء، ويتبصر مخايله وميله إلى الدين. والرشد: الصلاح في الدين، لأن الفسق مفسدة للمال. فإن قلت: فإن لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمان عشرة سنة، فإذا زادت عليها سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله عليه الصلاة والسلام: "مروهم بالصلاة لسبع" دفع إليه ماله أونس منه الرشد أو لم يؤنس. وعند أصحابه: لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد. فإن قلت: ما معنى تنكير الرشد؟ قلت: معناه نوعاً من الرشد وهو الرشد في التصرف والتجارة، أو طرفاً من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد. فإن قلت: كيف نظم هذا الكلام؟ قلت: ما بعد "حتى" إلى "فادفعوا إليهم أموالهم" جعل غاية للابتلاء، وهي حتى التي تقع بعدها الجمل. كالتي في قوله:

بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

فما زالت القتلَى تمج دماءها

والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية لأن إذا متضمنة معنى الشرط، وفعل الشرط بلغوا النكاح وقوله: "فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم" جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأول الذي هو إذا بلغوا النكاح، فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم، فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم. وقرأ ابن مسعود: فإن أحسيتهم بمعنى أحسستم قال:

أحسن به فهن إليه شوس

وقرى: رشدًا، بفتحين، ورشدًا، بضمين "إسرافاً وبداراً" مسرفين مبادرين كبرهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم، تفرطون في إنفاقها، وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا. ثم قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعف من أكلها ولا يطمع، ويقتنع بما رزقه الله من الغنى إشفافاً على اليتيم، وإبقاء على ماله. والفقر يأكل قوتاً مقدراً محتاطاً في تقديره على وجه الأجرة، أو استقراضاً على ما في ذلك من الاختلاف ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف، مما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً قال له: إن في حجري يتيماً أفأكل من ماله؟ قال: بالمعروف غير متأثلاً مالاً ولا واق مالك بماله فقال: أفأضربه؟ قال: مما كنت ضارباً منه ولدك وعن ابن عباس: أن ولي اليتيم قال له: أفأشرب من لبن إبله؟ قال: إن كنت تبغي ضاللتها، وتلوط حوضها، وتهاجرها وتسقيها يوم وردها، فأشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك في الحلب وعنه: يضرب بيده مع أيديهم، فليأكل بالمعروف، ولا يلبس عمامة فما فوقها. وعن إبراهيم: لا يلبس الكتان والحلل. ولكن ما سد الجوعة ووارى العورة. وعن محمد بن كعب يتقرم تقرم البهيمة ويتزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بد منه. وعن الشعبي: يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه. وعنه: كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضي.

وعن مجاهد: يستسلف، فإذا أيسر أدى. وعن سعيد بن جبير: إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر وليس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أيسر قضاءه، وإن أعسر فهو في حل. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم، إن استغيت استعفت، وإن افتقرت أكلت المعروف، وإذا أيسرت قضيت واستعف أبلغ من عف، كأنه طالب زيادة العفة "فأشهدوا عليهم" بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت عنها ذمكم، وذلك أبعد من التخاصم والتجاحد وأدخل في الأمانة وبراءة الساحة. ألا ترى أنه إذا لم يشهد فادعى عليه صدق مع اليمين عند أبي حنيفة وأصحابه. وعند مالك والشافعي لا يصدق إلا بالبينة، فكان في الإشهاد الاستحراز من توجه الحلف المفضي إلى التهمة أو من وجوب الضمان إذا لم يقم البينة "وكفى بالله حسيباً" أي كافياً في الشهادة عليكم بالدفع والقبض، أو محاسباً. فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب.

"للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً، وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً" والأقربون هم المتوارثون من ذوي القرابة دون غيرهم "مما قل منه أو كثر" بدل مما ترك بتكرير العامل. و "نصيباً مفروضاً" نصب على الاختصاص، بمعنى: أعني نصيباً مفروضاً مقطوعاً واجباً لا بد لهم من أن يجوزوه ولا يستأثر به. ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله: "فريضة من الله" النساء: 11، كأنه قيل: قسمة مفروضة.

وروي: أن أوس بن ثابت الأنصاري ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فروى ابنا عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرمح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد الفضيخ فشكت إليه، فقال: "ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله" فترلت، فبعث إليهما لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لمن نصيباً ولم يبين حتى يبين فترلت "يوصيكم الله" النساء: 11، فأعطى أم كحة الثمن، والبنات الثلثين، والباقي ابني العم "وإذا حضر القسمة" أي قسمة التركة "أولو القربى" ممن لا يرث "فارزقوهم منه" الضمير لما ترك الوالدان والأقربون، وهو أمر على الندب قال الحسن: كان المؤمنون يفعلون ذلك، إذا اجتمعت الورثة حضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بالشيء من رثة المتاع. فحضرهم الله على ذلك تأديباً من غير أن يكون فريضة. قالوا: ولو كان فريضة لضرب له حد ومقدار كما لغيره من الحقوق، وروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قسم ميراث أبيه وعائشة رضي الله عنها حية؟ فلم يدع في الدار أحداً إلا أعطاه، وتلا هذه الآية. وقيل: هو على الوجوب. وقيل: هو منسوخ بآيات الميراث كالوصية. وعن سعيد بن جبير: أن ناساً يقولون نسخت، والله ما نسخت، ولكنها مما تهاونت به الناس. والقول المعروف أن يلففوا لهم القول ويقولوا: خذوا بارك الله عليكم، ويعتذروا إليهم، ويستقلوا ما أعطوهم ولا يستكثروهم، ولا يمنوا عليهم. وعن الحسن والنخعي: أدركنا الناس وهم يقسمون على القربات والمساكين واليتامى من العين، يعينان الورق والذهب. فإذا قسم الورق والذهب وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك، قالوا لهم قولاً معروفاً، كانوا يقولون لهم: بورك فيكم.

"وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً" "لو" مع ما في حيزه

صلة للذين. والمراد بهم: الأوصياء، أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ويشفقوا عليهم، خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً وشفقتهم عليهم وأن يقدروا ذلك في أنفسهم ويصوروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة. ويجوز أن يكون المعنى: وليخشوا على اليتامى من الضياع. وقيل: هم الذين يجلسون إلى المريض فيقولون: إن ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئاً، فقدم مالك، فيستغرقه بالوصايا، فأمرؤا بأن يخشوا ربهم، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولاد أنفسهم لو كانوا. ويجوز أن يتصل بما قبله وأن يكون أمراً بالشفقة للورثة على الذين يحضرون القسمة من ضعفاء أقاربهم واليتامى والمساكين وأن يتصوروا أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضائعين محتاجين. هل كانوا يخافون عليهم الحرمان والخيبة؟ فإن قلت: ما معنى وقوع "لو تركوا" وجوابه صلة للذين؟ قلت: معناه: وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم، كما قال القائل:

لقد زاد الحياة إلي حباً بناتي أنهن من الضعاف

أحاذر أن يرين البؤس بعدي وأن يشربن رنقاً بعد صافي

وقرى: ضعفاء، وضعافى. نحو سكارى، وسكارى. والقول السديد من الأوصياء: أن لا يؤذوا اليتامى ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب، ويدعوهم بيا بني ويا ولدي، ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له إذا أراد الوصية: لا تسرف في وصيتك فتجحف بأولادك، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: "إنك إن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس" وكان الصحابة رضي الله عنهم يستحبون أن لا تبلغ الوصية الثلث وأن الخمس أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث. ومن المتقاسمين ميراثهم أن يلففوا القول ويحملوه للحاضرين.

"إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً" "ظلماً" ظالمين، أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته "في بطونهم" ملء بطونهم يقال: أكل فلان في بطنه، وفي بعض بطنه. قال:

كلوا في بعض بطنكموا تعفوا

ومعنى يأكلون ناراً: ما يجر إلى النار، فكأنه نار في الحقيقة. وروي:

"أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا". وقرئ وسيصلون بضم الياء وتخفيف اللام وتشديد "سعيراً" ناراً من النيران مبهمة الوصف.

"يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدةً فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولدٌ فإن لم يكن له ولدٌ وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دينٍ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً".

"يوصيكم الله" يعهد إليكم ويأمركم "في أولادكم" في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة. وهذا إجمال تفصيله

"للذكر مثل حظ الأنثيين" فإن قلت: هلا قيل: للأنثيين مثل حظ الذكر أو للأنثى نصف حظ الذكر؛ قلت ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظه لذلك، ولأن قوله: "للذكر مثل حظ الأنثيين" قصد إلى بيان فضل الذكر. وقولك: للأنثيين مثل حظ الذكر، قصد إلى بيان نقص الأنثى، وما كان قصداً إلى بيان فضله، كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه: ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث وهو السبب لورود الآية، فقل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث، فلا يتمادى في حظهن حتى يحرم من مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به. فإن قلت: فإن حظ الأنثيين الثلثان، فكأنه قيل للذكر الثلثان. قلت: أريد حال الاجتماع لا الانفراد أي إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان، كما أن لهما سهمين. وأما في حال الانفراد، فالابن يأخذ المال كله والبنات يأخذان الثلثين. والدليل على أن الغرض حكم الاجتماع، أنه أتبعه حكم الانفراد، وهو قوله: "فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك" والمعنى للذكر منهم، أي من أولادكم، فحذف الراجع إليه لأنه مفهوم، كقولهم: السمن منون بدرهم "فإن كن نساءً" فإن كانت البنات أو المولودات نساءً خلصاً. ليس معهن رجل يعني بنات ليس معهن ابن "فوق اثنتين" يجوز أن يكون خبراً ثانياً لكان وأن يكون صفة لنساء أي نساء زائدات على اثنتين "وإن كانت واحدة" وإن كانت البنت أو المولودة منفردة فذة ليس معها أخرى "فلها النصف" وقرئ: واحدة بالرفع على كان التامة والقراءة بالنصب أوفق لقوله: "فإن كن نساءً" وقرأ زيد بن ثابت النصف بالضم. والضمير في "ترك" للميت: لأن الآية لما كانت في الميراث، علم أن التارك هو الميت. فإن قلت: قوله: "للذكر مثل حظ الأنثيين" كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد، لا لبيان حظ الأنثيين، فكيف صح أن يردف قوله: "فإن كن نساءً" وهو لبيان حظ الإناث؟ قلت: وإن كان مسوقاً لبيان حظ الذكر، إلا أنه لما فقه منه وتبين حظ الأنثيين مع أخيهما؛ كان كأنه مسوق للأمرين جميعاً. فلذلك صح أن يقال: "فإن كن نساءً": فإن قلت: هل يصح أن يكون الضميران في كن و كانت مبهمين، ويكون نساء و واحدة تفسيراً لهما، على أن كان تامة؟ قلت: لا أبعد ذلك. فإن قلت: لم قيل "فإن كن نساءً" ولم يقل: وإن كانت امرأة؟ قلت: لأن الغرض ثمة خلوصهن إناثاً لا ذكر فيهن، ليميز بين ما ذكر من اجتماعهن مع الذكور في قوله: "للذكر مثل حظ الأنثيين" وبين انفرادهن.

وأريد هاهنا أن يميز بين كون البنت مع غيرها وبين كونها وحدها لا قرينة لها. فإن قلت: قد ذكر حكم البنيتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفراد، ولم يذكر حكم البنيتين في حال الانفراد فما حكمهما، وما باله لم يذكر؟ قلت: أما حكمهما فمختلف فيه، فابن عباس أبي تزييلهما منزلة الجماعة. لقوله تعالى: "فإن كن نساءً فوق اثنتين" فأعطاهما حكم الواحدة وهو ظاهر مكشوف. وأما سائر الصحابة فقد أعطوهما حكم الجماعة، والذي يعلل به قولهم، أن قوله: "للذكر مثل حظ الأنثيين" قد دل على أن حكم الأنثيين حكم الذكر، وذلك أن الذكر كما يجوز الثلثين مع الواحدة، فالأنثيان كذلك يجوزان الثلثين، فلما ذكر ما دل على حكم الأنثيين قيل: "فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك" على معنى: فإن كن جماعة بالغات ما بلغن من العدد فلهن ما للأنثيين وهو الثلثان لا يتجاوزنه لكثرة ليعلم أن حكم الجماعة حكم الثنتين بغير تفاوت. وقيل: إن الثنتين أمس رحماً بالميت من الأخنتين فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين. ولم يروا أن يقصروا بهما عن حظ من هو أبعد رحماً

منهما. وقيل: إن البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كانت أخرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها. ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه، فوجب لهما الثلثان "ولأبوية" الضمير للميت. و"لكل واحد منهما" بدل من "ولأبوية" بتكرير العامل. وفائدة هذه البدل أنه لو قيل: ولأبوية السدس، لكان ظاهره اشتراكهما فيه. ولو قيل: ولأبوية السدسان، لأوهم قسمة السدسين عليها على التسوية وعلى خلافها. فإن قلت: فهلا قيل: ولكل واحد من أبويه السدس، وأي فائدة في ذكر الأبوين أولاً، ثم في الإبدال منهما؟ قلت: لأن في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً وتشديداً، كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير. والسدس: مبتدأ. وخبره: لأبوية. والبدل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة السدس بالتخفيف، وكذلك الثلث والرابع والثلثون. والولد: يقع على الذكر والأنثى، ويختلف حكم الأب في ذلك. فإن كان ذكراً اقتصر بالأب على السدس، وإن كانت أنثى عصب مع إعطاء السدس. فإن قلت: قد بين حكم الأبوين في الإرث مع الولد، ثم حكمهما مع عدمه، فهلا قيل: فإن لم يكن له ولد فلائمه الثلث. وأي فائدة في قوله: "ورثه أبواه"؟ قلت معناه: فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فحسب، فلائمه الثلث مما ترك، كما قال: "لكل واحد منهما السدس مما ترك" لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين، كان للأُم ثلث ما بقي بعد إخراج نصيب الزوج، لا ثلث ما ترك، إلا عند ابن عباس. والمعنى: أن الأبوين إذا خلصا تقاسما الميراث: للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن قلت: ما العلة في أن كان لها ثلث ما بقي دون ثلث المال؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن الزوج إنما استحق ما يسهم له بحق العقد لا بالقرابة.

فأشبهه الوصية في قسمة ما وراءه. والثاني: أن الأب أقوى في الإرث من الأم، بدليل أنه يضعف عليها إذا خلصا ويكون صاحب فرض وعصبة، وجامعاً بين الأمرين، فلو ضرب لها الثلث كمالاً لأدى إلى حظ نصيبه عن نصيبه. ألا ترى أن امرأة لو تركت زوجاً وأبوين فصار للزوج النصف وللأم الثلث والباقي للأب، حازت الأم سهمين والأب سهماً واحداً؛ فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكركين "فإن كان له إخوة فلائمه السدس" الإخوة يحجبون الأم عن الثلث وإن كانوا لا يرثون مع الأب، فيكون لها السدس وللأب خمسة الأسداس، ويستوي في الحجب الاثنان فصاعداً إلا عند ابن عباس. وعنه أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم. فإن قلت: فكيف صح أن يتناول الإخوة الأخوين. الجمع خلاف التثنية؟ قلت: الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية، والتثنية كالتثليث والتربيع في إفادة الكمية، وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق، فدل بالإخوة عليه. وقرئ: فلائمه، بكسر الهمزة إتباعاً للجر. ألا تراها لا تكسر في قوله: "وجعلنا ابن مريم وأمه آية" المؤمنون: 50، "من بعد وصية" متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها، لا بما يليه وحده، كأنه قيل قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصى بها. وقرئ يوصي بها بالتخفيف والتشديد. و يوصى بها على البناء المفعول مخففاً، فإن قلت: ما معنى أو؟ قلت: معناها الإباحة: وأنه إن كان أحدهما أو كلاهما، قدم على قسمة الميراث، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين. فإن قلت: لم قدمت الوصية على الدين والدين مقدم عليها في الشريعة؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاضدهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدمت على الدين بعثاً على وجوبها والمساواة إلى

إخراجها مع الدين، ولذلك جيء بكلمة أو للتسوية بينهما في الوجود، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله: "آباؤكم وأبناؤكم" أي لا تدرون من أنفع لكم من آباءكم وأبنائكم الذين يموتون، أمن أوصى منهم أمن لم يوص؟ يعني أن من أوصى ببعض ماله فعرضكم لثواب الآخرة يامضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعاً وأحضر جدوى ممن ترك الوصية، فوفر عليكم عرض الدنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدنيا، ذهاباً إلى حقيقة الأمر، لأن عرض الدنيا وإن كان عاجلاً قريباً في الصورة، إلا أنه فان، فهو في الحقيقة الأبعد الأقصى. وثواب الآخرة وإن كان عاجلاً إلا أنه باق فهو في الحقيقة الأقرب الأدنى. وقيل: إن الابن إن كان أرفع درجة من أبيه في الجنة سأل أن يرفع أبوه إليه فيرفع. وكذلك الأب إن كان أرفع درجة من ابنه، سأل أن يرفع إليه ابنه. فأنتم لا تدرون في الدنيا أيهم أقرب لكم نفعاً. وقيل: قد فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم لكم أنفع، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. وقيل: الأب يجب عليه النفقة على الابن إذا احتاج، وكذلك الابن إذا كان محتاجاً فهما في النفع بالنفقة لا يدري أيهما أقرب نفعاً. وليس شيء من هذه الأقاويل بملائم للمعنى ولا مجابو له، لأنه هذه الجملة اعتراضية. ومن حق الاعتراضي أن يؤكد ما اعترض بينه وبينه، والقول ما تقدم "فريضة" نصبت نصب المصدر المؤكد، أي فرض ذلك فرضاً "إن الله كان عليماً" بمصالح خلقه "حكيماً" في كل ما فرض وقسم من الموارث وغيرها.

"ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليمٌ حلِيمٌ"

"فإن كان لهن ولد" منكم أو من غيركم. جعلت المرأة على النصف من الرجل بحق الزواج، كما جعلت كذلك بحق النسب. والواحدة والجماعة سواء في الربع والثمن "وإن كان رجلٌ" يعني الميت. و "يورث" من ورث، أي يورث منه وهو صفة لرجل. و "كلالة" خبر كان، أي وإن كان رجل موروث منه كلالة، أو يجعل يورث خبر كان، وكلالة حالاً من الضمير في يورث. وقرئ يورث ويورث بالتخفيف والتشديد على البناء للفاعل، وكلالة حال أو مفعول به. فإن قلت: ما الكلالة؟ قلت: ينطلق على ثلاثة على من لم يخلف ولداً ولا والدًا، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد. ومنه قولهم: ما ورث المجد عن كلالة، كما تقول: ما صمت عن عي، وما كف عن جبن. والكلالة في الأصل: مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء. قال الأعشى:

فَالَيْتَ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كِلَالَةٍ

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد، لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالة ضعيفة، وإذا جعل صفة للموروث أو الوارث فبمعنى ذي كلالة. كما تقول: فلان من قرابتي، تريد من ذوي قرابتي. ويجوز أن تكون صفة كالهجاجة والنفقة للأحقق. فإن قلت: فإن جعلتها اسماً للقرابة في الآية فعلام تنصبها؟ قلت: على أنها مفعول له أي يورث لأجل الكلالة أو يورث غيره لأجلها، فإن قلت: فإن جعلت يورث على البناء للمفعول من أورث، فما وجهه؟

قلت: الرجل حينئذ هو الوارث لا الموروث. فإن قلت: فالضمير في قوله: "فلكل واحد منهما" إلى من يرجع حينئذ؟ قلت: إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته، وعلى الأول إليهما. فإن قلت: إذا رجع الضمير إليهما أفاد استواءهما في حيازة السدس من غير مفاضلة الذكر والأنثى، فهل تبقى هذه الفائدة قائمة في هذا الوجه؟ قلت: نعم، لأنك إذا قلت السدس له أو لواحد من الأخ أو الأخت على التخيير فقد سويت بين الذكر والأنثى. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيه برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء. الكلالة: ما خلا الولد والوالد. وعن عطاء والضحاك: أن الكلالة هو الموروث. وعن سعيد بن جبير: هو الوارث، وقد أجمعوا على أن المراد أولاد الأم. وتدل عليه قراءة أبي: وله أخ أو أخت من الأم. وقراءة سعد بن أبي وقاص: وله أخ أو أخت من أم. وقيل: إنما استدل على أن الكلالة ها هنا الإخوة للأم خاصة بما ذكر في آخر السورة من أن للأختين الثلثين وأن للإخوة كل المال، فلعلم ها هنا - لما جعل للواحد السدس، وللأختين الثلث، ولم يزدوا على الثلث شيئاً - أنه يعني بهم الإخوة للأم، وإلا فالكلالة عامة لمن عدا الولد والوالد من سائر الإخوة الأخياف والأعيان وأولاد العلات وغيرهم "غير مضار" حال، أي يوصي بها وهو غير مضار لورثته وذلك أن يوصي بزيادة على الثلث، أو يوصي بالثلث فما دونه، ونيته مضارة ورثته ومغاضبتهم لا وجه الله تعالى. وعن قتادة: كره الله الضرار في الحياة وعند الممات ونهى عنه. وعن الحسن: المضارة في الدين أن يوصي بدين لي عليه ومعناه الإقرار "وصية من الله" مصدر مؤكد، أي يوصيكم بذلك وصية، كقوله: "فريضة من الله" النساء: 11، ويجوز أن تكون منصوبة بغير مضار، أي لا يضار وصية من الله وهو الثلث فما دونه بزيادته على الثلث أو وصية من الله بالأولاد وأن لا يدعهم عالة يأسرافه في الوصية. وينصر هذا الوجه قراءة الحسن: غير مضار وصية من الله بالإضافة "والله عليم" بمن جار أو عدل في وصيته "حليم" عن الجائر لا يعاجله. وهذا وعيد. فإن قلت: في "يوصي" ضمير الرجل إذا جعلته الموروث، فكيف تعمل إذا جعلته الوارث؟ قلت: كما علمت في قوله تعالى: "فلهن ثلثا ما ترك" النساء: 11، لأنه علم أن التارك والموصي هو الميت. فإن قلت: فأين ذو الحال فيمن قرأ يوصي بها على ما لم يسم فاعله؟ قلت: يضمير يوصي فينتصب عن فاعله لأنه لما قيل "يوصي بها" علم أن ثم موصياً، كما قال: "يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال" النور: 36، على ما لم يسم فاعله، فعلم أن ثم مسيحاً، فأضمر يسبح فكما كان رجال فاعل ما يدل عليه يسبح، كان غير مضار حالاً عما يدل عليه يوصي بها.

"تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين" "تلك" إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى والوصايا والموارث. وسماها حدوداً، لأن الشرائع كالحُدود المضروبة الموقفة للمكلفين، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتخطوها إلى ما ليس لهم بحق "يدخله" قرئ بالياء والنون، وكذلك "يدخله ناراً" وقيل: يدخله، وخالدين حملاً على لفظ من ومعناه. وانتصب خالدين وخالداً على الحال. فإن قلت: هل يجوز أن يكونا صفتين لجنات وناراً؟ قلت: لا، لأنهما جريا على غير من هما له. فلا بد من الضمير وهو قولك: خالدين هم فيها. وخالداً هو فيها.

"واللاقي يأتين الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً، والذان يأتياها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً" "يأتين الفاحشة" يرهقنها. يقال أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها بمعنى. وفي قراءة ابن مسعود: يأتين بالفاحشة. والفاحشة: الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح "فأمسكوهن في البيوت" قيل معناه: فخلدوهن محبوسات في بيوتكم، وكان ذلك عقوبتهن في أول الإسلام. ثم نسخ بقوله تعالى: "الزانية والزاني..." الآية النور: 2، ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوماً بالكتاب والسنة، ويوصي بإمساكنهن في البيوت، بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال "أو يجعل الله لهن سبيلاً" هو النكاح الذي يستغنين به عن السفاح. وقيل: السبيل هو الحد، لأنه لم يكن مشروعاً ذلك الوقت. فإن قلت: ما معنى يتوفاهن الموت - والتوفي والموت بمعنى واحد، كأنه قيل: حتى يميتهن الموت -؟ قلت: يجوز أن يراد حتى يتوفاهن ملائكة الموت، كقوله: "الذين تتوفاهم الملائكة" النحل: 28، "إن الذين توفاهم الملائكة" النساء: 97، "قل يتوفاكم ملك الموت" السجدة: 11، أو حتى يأخذهن الموت ويستوفي أرواحهن "والذان يأتياها منكم" يريد الزاني والزانية "فآذوهما" فوجّوهما وذمّوهما وقلّوا لهما: أما استحيتهما، أما خفتم الله "فإن تابا وأصلحا" وغير الحال "فأعرضوا عنهما" واقطعوا التوبيخ والمذمة، فإن التوبة تمنع استحقاق الذم والعقاب، ويحتمل أن يكون خطاباً للشهود العائرين على سرهما، ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الإمام والحد، فإن تابا قبل الرفع إلى الإمام فأعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما. وقيل: نزلت الأولى في السحاقيات وهذه في اللواطين. وقرئ: والذان بتشديد النون. والذّان: بالهمزة وتشديد النون.

"إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً" "التوبة" من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له، يعني إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء "بجهالة" في موضع الحال أي يعملون السوء جاهلين سفهاء، لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة، لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل. وعند مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى يترع عن جهالته "من قريب" من زمان قريب. والزمان القريب: ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله: "حتى إذا حضر أحدهم الموت" فبين أن وقت الاحتضار وهو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة فبقي ما وراء ذلك في حكم القريب. وعن ابن عباس: قبل أن يترل به سلطان الموت. وعن الضحاك: كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن النخعي: ما لم يؤخذ بكظمه. وروى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" وعن عطاء: ولا قبل موته بفواق ناقة.

وعن الحسن:

أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض: وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه في جسده. فقال تعالى: وعزتي لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر. فإن قلت: ما معنى "من" في قوله: "من قريب"؟ قلت: معناه التبعية، أي يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زماناً قريباً، ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان

فهو تائب من قريب، وإلا فهو تائب من بعيد. فإن قلت: ما فائدة قوله: "فأولئك يتوب الله عليهم" بعد قوله: إنما التوبة على الله لهم؟ قلت: قوله: "إنما التوبة على الله" إعلام بوجودها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات. وقوله: "فأولئك يتوب عليهم" عدة بأنه يفي بما وجب عليه، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب "ولا الذين يموتون" عطف على الذين يعملون السيئات. سوى بين الذين سوفوا توبتهم إلى حضرة الموت، وبين الذين ماتوا على الكفر في أنه لا توبة لهم، لأن حضرة الموت أول أحوال الآخرة، فكما أن المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين، فكذلك المسوف إلى حضرة الموت تجاوزت كل واحد منهما أوان التكليف والاختيار "أولئك اعتدنا لهم" في الوعيد نظير قوله: "فأولئك يتوب الله عليهم" في الوعد ليتبين أن الأمرين كائن لا محالة. فإن قلت: من المراد بالذين يعملون السيئات. أهم الفساق من أهل القبلة أم الكفار؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد الكفار، لظاهر قوله: "وهم كفار"، وأن يراد الفساق، لأن الكلام إنما وقع في الزانيين، والإعراض عنهما إن تابا وأصلحا، ويكون قوله: "وهم كفار" وراداً على سبيل التغليظ كقوله: "ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" آل عمران: 97، وقوله: فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً من ترك الصلاة متمعداً فقد كفر لأن من كان مصدقاً ومات وهو لم يحدث نفسه بالتوبة، حاله قريبة من حال الكافر، لأنه لا يجترئ على ذلك إلا قلب مصمت.

"يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً" كان يبلون النساء بضروب من البلايا ويظلموهن بأنواع من الظلم، فخرجوا عن ذلك، كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو آخر أو حميم عن امرأة، ألقى ثوبه عليها وقال أنا أحق بها من كل أحد. فقل: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز الموارث وهن كارهات لذلك، أو مكرهات. وقيل: كان يمسكها حتى تموت. فقل: لا يحل لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن سوء العشرة والقهر. لتفتدي منه بما لها وتختلع، فقل: ولا تعضلوهن لذهبوا ببعض ما آتيتموهن. والعضل: الحبس والتضييق. ومنه: عضلت المرأة بولدها، إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقي بعضه "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة" وهي النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلطة، أي إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرت في طلب الخلع. ويدل عليه قراءة أبي: إلا أن يفحشن عليكم، وعن الحسن: الفاحشة الزنا، فإن فعلت حل لزوجها أن يسألها الخلع. وقيل: كانوا إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها. وعن أبي قلابة ومحمد بن سيرين: لا يحل الخلع حتى يوجد رجل على بطنها. وعن قتادة: لا يحل له أن يجبسها ضراراً حتى تفتدي منه، يعني وإن زنت. وقيل: نسخ ذلك بالحدود، وكانوا يسيئون معاشرته النساء فقليل لهم: "وعاشروهن بالمعروف" وهو النصفة في المبيت والنفقة، والإجمال في القول: "فإن كرهتموهن" فلا تفارقوهن لكرهتهن أنفسهن حدها فرما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأحمد وأدنى إلى الخير، وأحب ما هو بضد ذلك، ولكن للنظر في أسباب الصلاح.

"وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً" وكان الرجل إذا طمحت عينه إلى استطراف امرأة؟ هت التي تحته ورماتها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. فقل: "وإن

أردتم استبدال زوج الآية. والقنطار: المال العظيم، من قنطرت الشيء إذا رفعته، ومنه القنطرة، لأنها بناء مشيد.
قال:

لنتكثفن حتى تشاد بقرمد

كقنطرة الرومي أقسم ربها

وعن عمر رضي الله عنه أنه قام خطيباً فقال: أيها الناس، لا تغالوا بصدق النساء، فلو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثني عشر أوقية، فقامت إليه امرأة فقالت له: يا أمير المؤمنين، لم تمنعنا حقاً جعله الله لنا والله يقول: "وآتيتم إحداهن قنطاراً" فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر ثم قال لأصحابه: تسمعونني أقول مثل هذا القول فلا تنكروني علي حتى ترد علي امرأة ليست من أعلم النساء والبهتان: أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو بريء منه، لأنه يبهت عند ذلك، أي يتحير. وانتصب "بمئناً على الحال، أي باهتين وآثمين، أو على أنه مفعول له وإن لم يكن غرضاً، كقولك: قعد عن القتال جبناً. والميثاق الغليظ: حق الصحبة والمضاجعة، كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً، أي بإفضاء بعضكم إلى بعض. ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه، فقد قالوا: صحبة عشرين يوماً قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟ وقيل: هو قول الولي عند العقد: أنكحتك على ما في كتاب الله من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله".

"ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً" وكانوا ينكحون رواهم، وناس منهم يمتقونهم من ذي مروآتهم، ويسمونهم نكاح المقت. وكان المولود عليه يقال له المقتي. ومن ثم قيل: "ومقتاً" كأنه قيل: هو فاحشة في دين الله بالغة في القبح، قبيح ممقوت في المروءة ولا مزيد على ما يجمع القبحين. وقرئ: لا تحل لكم بالنساء، على أن ترثوا بمعنى الوراثة. وكرها - بالفتح، والضم - من الكراهة والإكراه. وقرئ "بفاحشة مبينة" النساء: 19، من أبانت بمعنى تبينت أو بينت، كما قرئ مبينة بكسر الياء وفتحها. و"يجعل الله" بالرفع، على أنه في موضع الحال، "وآتيتم إحداهن" بوصل همزة إحداهن. كما قرئ "فلا إثم عليه" البقرة: 173. فإن قلت: تعضلوهم، ما وجه إعرابه؟ قلت: النصب عطفًا على أن ترثوا. ولا لتأكيد النفي. أي لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهم. فإن قلت: أي فرق بين تعدية ذهب بالياء، وبينها بالهمزة؟ قلت: إذا عدي بالياء فمعناه الأخذ والاستصحاب، كقوله تعالى: "فلما ذهبوا به" يوسف: 15، وأما الإذهاب فكالإزالة. فإن قلت: "إلا أن يأتين" النساء: 19، ما هذا الاستثناء؟ قلت: هو استثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له، كأنه قيل: ولا تعضلوهم في جميع الأوقات إلا وقت أن يأتين بفاحشة. أو: ولا تعضلوهم لعل من العلل إلا لأن يأتين بفاحشة. فإن قلت: من أي وجه صح قوله: "فعسى أن تكرهوا" جزاء للشرط؟ قلت: من حيث أن المعنى: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً ليس فيما تحبونه فإن قلت كيف استثنى ما قد سلف مما نكح آبائكم؟ قلت: كما استثنى غير أن سيوفهم من قوله: ولا عيب فيهم يعني: إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف، فانكحوه، فلا يحل لكم غيره. وذلك ممكن. والغرض المبالغة في تحريمه وسد الطريق إلى إباحته، كما يعلق

بالحال في التأيد نحو قولهم: حتى يبيض القار، وحتى يلج الحمل في سم الحياط.

"حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً"

معنى "حرمت عليكم أمهاتكم" تحريم نكاحهن لقوله: "ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء" النساء: 22، ولأن تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهن، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله. وقرئ وبنات الأخت بتخفيف الهمزة. وقد نزل الله الرضاة منزلة النسب، حتى سمي المرضعة أمّاً للرضيع، والمرضاة أختاً، وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه. وأم المرضعة جدته، وأختها خالته، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه، ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم.

"يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم النسب إلا في مسألتين: إحداهما أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من النسب ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع، لأن المانع في النسب وطؤه أمها. وهذا المعنى غير موجود في الرضاع. والثانية: لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب، ويجوز في الرضاع، لأن المانع في النسب وطء الأب إياها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع "من نسائكم" متعلق بربائكم. ومعناه أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها. فإن قلت: هل يصح أن يتعلق بقوله: "وأمهات نسائكم"؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق بهن وبالربائب، فتكون حرمتهم وحرمة الربائب غير مبهمتين جميعاً، وإما أن يتعلق بهن دون الربائب فتكون حرمتهم غير مبهمة وحرمة الربائب مبهمة فلا يجوز الأول، لأن معنى من مع أحد المتعلقين، خلاف مع الآخر. ألا تراك أنك إذا قلت: وأمهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فقد جعلت من لبيان النساء. وتمييز المدخول بهن من غير المدخول بهن. وإذا قلت وربائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإنك جاعل من لا ابتداء الغاية، كما تقول: بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة، وليس بصحيح أن يعني بالكلمة الواحدة في خطاب واحد معنيين مختلفان. ولا يجوز الثاني لأن ما يليه هو الذي يستوجب التعليق به، ما لم يعترض أمر لا يرد، إلا أن تقول: أعلقه بالنساء والربائب، وأجعل من للاتصال، كقوله تعالى: "المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض" التوبة: 67، فإني لست منك ولست مني. ما أنا من دد ولا الدد مني: وأمهات النساء متصلات بالنساء لأنهن أمهاتهن كما أن: الربائب متصلات بأمهاتهن لأنهن بناتهن. هذا وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب، على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها أنه قال: "لا بأس أن يتزوج ابنتها، ولا يحل له أن يتزوج أمها"، وعن عمر وعمران بن الحصين رضي الله عنهما: أن الأم تحرم بنفس العقد، وعن مسروق: هي مرسلة فأرسلوا ما أرسل الله. وعن ابن عباس: أجموا ما أجم الله، إلا ما روي عن علي وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير: أنهم قرءوا: وأمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن. وكان ابن عباس يقول: والله ما نزل

إلا هكذا. وعن جابر روايتان. وعن سعيد بن المسيب عن زيد: إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها، كره أن يخلف على أمها. وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل، أقام الموت مقام الدخول في ذلك، كما قام مقامه في باب المهر. وسمى ولد المرأة من غير زوجها ربيياً وربيباً، لأنه يربهما كما يرب ولده في غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسمياً بذلك وإن لم يربهما. فإن قلت: ما فائدة قوله في حجورك؟ قلت: فائدته التعليل للتحريم، وأنهن لا احتضانكم هن أو لكونهن بصدد احتضانكم، وفي حكم القلب في حجورك إذا دخلتم بأمهاتهن، وتمكن بدخولكم حكم الزواج وثبت الخلطة والألفة، وجعل الله بينكم المودة والرحمة، وكانت الحال خليقة بأن تجروا أولادهن مجرى أولادكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم. وعن علي رضي الله عنه، أنه شرط ذلك في التحريم. وبه أخذ داود. فإن قلت: ما معنى "دخلتم بهن"؟ قلت: هي كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها وضرب عليها الحجاب يعني أدخلتموهن الستر. والباء للتعدية واللمس. ونحوه؛ يقوم مقام الدخول عند أبي حنيفة. وعن عمر رضي الله عنه أنه خلا بجارية فجردها، فاستوهبها ابن له فقال: إنما لا تحل لك. وعن مسروق أنه أمر أن تباع جاريته بعد موته وقال: أما إنني لم أصب منها إلا ما يجرمها على ولدي من اللمس والنظر. وعن الحسن في الرجل يملك الأمة فيغمرها لشهوة أو يقبلها أو يكشفها: إنما لا تحل لولده بحال، وعن عطاء وحامد بن أبي سليمان: إذا نظر إلى فرج امرأة فلا ينكح أمها ولا ابنتها. وعن الأوزاعي: إذا دخل بالأم فعرها ولمسها بيده وأغلق الباب وأرخى الستر، فلا يحل له نكاح ابنتها. وعن ابن عباس وطاوس وعمرو بن دينار: أن التحريم لا يقع إلا بالجماع وحده "الذين من أصلابكم" دون من تبنيتم.

وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب حين فارقها زيد بن حارثة، وقال عز وجل: "لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم" الأحزاب: 37. "وأن تجمعوا" في موضع الرفع عطف على المحرمات، أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين. والمراد حرمة النكاح، لأن التحريم في الآية تحريم النكاح وأما الجمع بينهما في ملك اليمين، فعن عثمان وعلي رضي الله عنهما أنهما قالاً: أحلتها آية وحرمتها آية يعينان هذه الآية وقوله: "أو ما ملكت أيمانكم" النساء: 3، فرجح علي التحريم، وعثمان التحليل. "إلا ما قد سلف" ولكن ما مضى مغفور بدليل قوله: "إن الله كان غفوراً رحيماً".

"والحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً" والحصنات القراءة بفتح الصاد. وعن طلحة بن مصرف أنه قرأ بكسر الصاد. وهن ذوات الأزواج. لأنهن أحصن فزوجهن بالتزويج. فهن محصنات ومحصنات "إلا ما ملكت أيمانكم" يريد: ما ملكت أيمانهم من اللاتي سبين وهن أزواج في دار الكفر فهن حلال لغزاة المسلمين وإن كن محصنات. وفي معناه قول الفرزدق:

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلق

"كتاب الله عليكم" مصدر مؤكد، أي كتاب الله ذلك عليكم كتاباً وفرضه فرضاً، وهو تحريم ما حرم. فإن قلت:

علام عطف قوله: "وأحل لكم"؟ قلت: على الفعل المضمر الذي نصب "كتاب الله" أي كتب الله عليكم تحريم ذلك، وأحل لكم ما وراء ذلكم. ويدل عليه قراءة اليماني: كتب الله عليكم، وأحل لكم. وروي عن اليماني: كتب الله عليكم، على الجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم. ومن قرأ: وأحل لكم، على البناء للمفعول، فقد عطفه على حرمت. "أن تبتغوا" مفعول له بمعنى بين لكم ما يحل مما يحرم، إرادة أن يكون ابتغاءكم "بأموالكم" التي جعل الله لكم قياماً في حال كونكم "محصنين غير مسافحين" لئلا تضيعوا أموالكم وتفقدوا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دنياكم ودينكم، ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين. والإحصان: العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام، والأموال: المهور وما يخرج في المناكح. فإن قلت: أين مفعول تبتغوا؟ قلت: يجوز أن يكون مقدراً وهو النساء. والأجود أن لا يقدر، وكأنه قيل: أن تخرجوا أموالكم. ويجوز أن يكون "أن تبتغوا" بدلاً من "وراء ذلك" والمسافح الزاني، من السفح وهو صب المني. وكان الفاجر يقول للفاجرة: سافحيني وماذيني من المذي "فما استمتعتم به منهن" فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهن "فآتوهن أجورهن" عليه، فأسقط الراجع إلى ما لأنه لا يلبس، كقوله: "إن ذلك من عزم الأمور" لقمان: 17، بإسقاط منه. ويجوز أن تكون ما في معنى النساء، و من للتبعيض أو البيان، ويرجع الضمير إليه على اللفظ في به، وعلى المعنى في "فآتوهن" وأجورهن مهورهن لأن المهر ثواب على البضع "فريضة" حال من الأجور بمعنى مفروضة أو وضعت موضع إيتاء لأن الإيتاء مفروض أو مصدر مؤكد. أي فرض ذلك فريضة "فيما تراضيتن به من بعد الفريضة" فيما تحط عنه من المهر، أو تمب له من كله أو يزيد لها على مقداره. وقيل: فيما تراضيا به من مقام أو فراق وقيل: نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله عليه الصلاة والسلام ثم نسخت، كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك، ويقضي منها وطره ثم يسرحها. سميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتعها بها بما يعطيها. وعن عمر: لا أوتي برجل تزوج امرأة إلى أجل إلا رجعتها بالحجارة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أباحها، ثم أصبح يقول: "يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء: ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة"، وقيل: أبيع مرتين وحرم مرتين. وعن ابن عباس: هي محكمة يعني لم تنسخ، وكان يقرأ: فما استمتعتن به منهن إلى أجل مسمى. ويروى أنه رجع عن ذلك عند موته وقال: اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة، وقولي في الصرف.

"ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيماكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فإنكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أحيان فإذا أحصن فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفورٌ رحيم" الطول: الفضل، يقال: فلان على فلان طول أي زيادة وفضل. وقد طاله طولاً فهو طائل. قال:

بغيضٌ إلى كل امرئ غير طائل

لقد زادني حباً لنفسي أنني

ومنه قولهم: ما حلا منه بطائل، أي بشيء يعتد به مما له فضل وخطر. ومنه الطول في الجسم لأنه زيادة فيه، كما أن القصر قصور فيه ونقصان. والمعنى: ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة فليتكح أمة. قال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحرم عليه نكاح الإماء. وهو الظاهر، وعليه مذهب الشافعي رحمه الله. وأما أبو حنيفة رحمه الله فيقول: الغني والفقر سواء في جواز نكاح الأمة، ويفسر الآية بأن من لم يملك فراش الحرة، على أن النكاح هو الوطء، فله أن يتكح أمة. وفي رواية عن ابن عباس أنه قال: وما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسراً. وكذلك قوله: "من فتياكم المؤمنات" الظاهر أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وهو مذهب أهل الحجاز. وعند أهل العراق يجوز نكاحها، ونكاح الأمة المؤمنة أفضل، فحملوه على الفضل لا على الوجوب، واستشهدوا على أن الإيمان ليس بشرط يوصف الحرائر به، مع علمنا أنه ليس بشرط فيهن على الاتفاق، ولكنه أفضل. فإن قلت: لم كان نكاح الأمة منوطاً عن نكاح الحرة؟ قلت: لما فيه من إتباع الولد الأم في الرق، ولثبوت حق المولى فيها وفي استخدامها، ولأنها ممتنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله نقصان راجع إلى النكاح ومهانة، والعزة من صفات المؤمنين. وقوله: "من فتياكم" أي من فتيا المسلمين، لا من فتيا غيركم وهم المخالفون في الدين. فإن قلت: فما معنى قوله: "والله أعلم بإيمانكم"؟ قلت: معناه أن الله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أركانكم في الإيمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم، وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة، والمرأة أفضل من في الإيمان الرجل وحق المؤمنين أن لا يعتبروا إلا فضل الإيمان لا فضل الأحساب والأنساب، وهذا تأنيس بنكاح الإماء وترك الاستكفاف منه "بعضكم من بعض" أي أنتم وأرقاؤكم متواصلون متناسبون لا شراككم في الإيمان، لا يفضل حر عبداً إلا برجحان فيه "ياذن أهلهم" اشتراط لإذن المولي في نكاحهن. ويحتج به لقول أبي حنيفة: إن هن أن يباشرن العقد بأنفسهن، لأنه اعتبر إذن المولي لا عقدهم. "وآتوهن أجورهن بالمعروف" وأدوا إليهن مهورهن بغير مطل وضرار وإحواج إلى الاقتضاء واللز. فإن قلت: المولي هم ملاك مهورهن لا هن، والواجب أدؤها إليهم لا إليهن، فلم قيل: وآتوهن؟ قلت: لأنهن وما في أيديهن مال المولي، فكان أدؤها إليهن أداء إلى المولي. أو على أن أصله: فآتوا مواليهن، فحذف المضاف "المحصنات" عفاف. والأخذان: الأخلاء في السر، كأنه قيل: غير مجاهرات بالسفاح ولا مسرات له "فإذا أحصن" بالتزويج. وقرئ: أحصن "نصف ما على المحصنات" أي الحرائر "من العذاب" من الحد كقوله: "وليشهد عذابهما" النور: 2، "ويدرء عنها العذاب" النور: 8، ولا رجم عليهن، لأن الرجم لا يتنصف "ذلك" إشارة إلى نكاح الإماء "لمن خشي العنت" لمن خاف الإثم الذي يؤدي إليه غلبة الشهوة. وأصل العنت: إنكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم من مواجهة المآثم. وقيل: أريد به الحد، لأنه إذا هويها خشي أن يواقعها فيحد فيتزوجها "وأن تصبروا" في محل الرفع على الابتداء، أي وصبركم عن نكاح الإماء متعففين "خير لكم" وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "الحرائر صلاح البيت، والإماء هلاك البيت".

"يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً"

"يريد الله لبيّن لكم" أصله يريد الله أن يبين لكم فريدت اللام مؤكدة لإرادة التبين كما زيدت في: لا أبالك، لتأكيد إضافة الأب. والمعنى: يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتنوا بهم "ويتوب عليكم" ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيئاتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم "والله يريد أن يتوب عليكم" أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم "ويريد" الفجرة "الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً" وهو الميل عن القصد والحق، ولا ميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات. وقيل: هم اليهود. وقيل: الخوس: كانوا يحلون نكاح الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرمهن الله قالوا: فإنكم تحلون بنت الخالة والعمة، والخالة والعمة عليكم حرام فأنكحوا بنات الأخ والأخت فترلت يقول تعالى يريدون أن تكونوا زناة مثلهم يريد الله أن يخفف عنكم بإحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص "وخلق الإنسان ضعيفاً" لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات. وعن سعيد بن المسيب: ما أيسر الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء، فقد أتى علي ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى. وإن أخوف ما أخاف علي فتنة النساء. وقرئ: أن يميلوا بالياء. والضمير للذين يتبعون الشهوات. وقرأ ابن عباس: وخلق الإنسان على البناء للفاعل ونصب الإنسان وعنه رضي الله عنه: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: "يريد الله لبيّن لكم"، "والله يريد أن يتوب عليكم"، يريد الله أن يخفف عنكم"، "إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه" النساء: 31، "إن الله لا يغفر أن يشرك به" النساء: 40، "إن الله لا يظلم مثقال ذرة" النساء: 48، "ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه" النساء: 110، "ما يفعل الله بعذابكم" النساء: 147.

"يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً، ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً" "الباطل" بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا "إلا أن تكون تجارةً" إلا أن تقع تجارة. وقرئ تجارة على: إلا أن تكون التجارة تجارة. "عن تراضٍ منكم" والاستثناء منقطع. معناه: ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراضٍ منكم. أو ولكن كون تجارة عن تراضٍ غير منهني عنه. وقوله: عن تراضٍ صفة لتجارة، أي تجارة صادرة عن تراضٍ وخص التجارة بالذكر. لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها. والتراضي رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه في حال البيع وقت الإيجاب والقبول، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وعند الشافعي رحمه الله تفرقهما عن مجلس العقد متراضين. "ولا تقتلوا أنفسكم" من كان من جنسكم من المؤمنين. وعن الحسن: لا تقتلوا إخوانكم، أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة.

وعن عمرو بن العاص: أنه تأوله في التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم. وقرأ علي رضي الله عنه: ولا تقتلوا معناه أنه أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم، وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة. "ذلك" إشارة إلى القتل، أي ومن يقدم على قتل النفس "عدواناً وظلماً" لا خطأ ولا اقتصاصاً. وقرئ: عدواناً بالكسر. ونصليه بتخفيف اللام وتشديدها. ونصليه بفتح النون من صلاة يصليه. ومنه شاة مصلية، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى، أو لذلك،

لكونه سبباً للصلي "ناراً" أي ناراً مخصوصة شديدة العذاب "وكان ذلك على الله يسيراً" لأن الحكمة تدعو إليه، ولا صارف عنه من ظلم أو نحوه.

"إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً"

"كبائر ما تنهون عنه" وقرئ: كبير ما تنهون عنه، أي ما كبر من المعاصي التي ينهاكم الله عنها والرسول "نكفر عنكم سيئاتكم" فخط ما تستحقونه من العقاب في كل وقت على صغائركم، ونجعلها كأن لم تكن، لزيادة الثواب المستحق على اجتنابكم الكبائر وصبركم عنها، على عقاب السيئات. والكبيرة والصغيرة إنما وصفنا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب فاعلهما. والتكفير: إمالة المستحق من العقاب بثواب أزيد، أو بتوبة. والإحباط: نقيضه، وهو إمالة الثواب المستحق بعقاب أزيد أو بندم على الطاعة. وعن علي رضي الله عنه: الكبائر سبع: الشرك، والقتل، والقذف، والزنا، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة. وزاد ابن عمر: السحر، واستحلال البيت الحرام. وعن ابن عباس: أن رجلاً قال له: الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى سبعمائة أقرب، لأنه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. وروي: إلى سبعين. وقرئ: يكفر، بالياء. ومدخلاً بضم الميم وفتحها، بمعنى المكان والمصدر فيهما.

"ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وستلوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليمًا" "ولا تتمنوا" نحووا عن التحاسد وعن تمني ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال، لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح المقسوم له من بسط في الرزق أو قبض "ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض" الشورى: 27، فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له علماً بأن ما قسم له هو مصلحته، ولو كان خلافه لكان مفسدة له، ولا يحسد أخاه على حظه "للرجال نصيب مما اكتسبوا" جعل ما قسم لكل من الرجال والنساء على حسب ما عرف الله من حاله الموجبة للبسط أو القبض كسباً له "وستلوا الله من فضله" ولا تتمنوا أنصباء غيركم من الفضل، ولكن سلوا الله من خزائنه التي لا تنفذ. وقيل: كان الرجال قالوا: إن الله فضلنا على النساء في الدنيا: لنا سهمان ولهن سهم واحد، فرجو أن يكون لنا أجران في الآخرة على الأعمال ولهن أجر واحد، فقالت أم سلمة ونسوة معها: ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم. فزلت.

"ولكل جعلنا موالٍ مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً" "مما ترك" تبين لكل، أي: ولكل شيء مما ترك "الوالدان والأقربون" من المال جعلنا موالٍ وراثاً يلوونه ويحزونه، أو ولكل قوم جعلناهم موالٍ، نصيب مما ترك الوالدان والأقربون على أن "جعلنا موالٍ" صفة لكل، والضمير الراجع إلى كل محذوف، والكلام مبتدأ وخبر، كما تقول: لكل من خلقه الله إنساناً من رزق الله، أي حظ من رزق الله، أو: ولكل أحد جعلنا موالٍ مما ترك، أي وراثاً مما ترك، على أن من صلة موالٍ، لأنهم في معنى الوراث، وفي ترك ضمير كل، ثم فسر الموالى بقوله: "الوالدان والأقربون" كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الوالدان والأقربون "والذين عقدت أيمانكم" مبتدأ ضمن معنى الشرط. فوقع خبره مع الفاء وهو قوله: "فآتوهم نصيبهم" ويجوز أن يكون منصوباً على قولك: زيداً فاضربه، ويجوز أن يعطف على الوالدان، ويكون المضمر في فآتوهم للموالى، والمراد

بالذين عاقدت أيمانكم: موالي الموالاة كان الرجل يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك. وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف، فنسخ. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب يوم الفتح فقال: "ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به، فإنه لم يزد الإسلام إلا شدة، ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام" وعند أبي حنيفة: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق الموالاة خلافاً للشافعي. وقيل: المعاقدة التبي. ومعنى عاقدت أيمانكم: عاقدتهم أيديكم وماسحتموهم. وقرئ عقدت بالتشديد والتخفيف بمعنى عقدت عهودهم أيمانكم.

"الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً" قوامون على النساء" يقومون عليهن آمرين ناهين، كما يقوم الولاية على الرعايا. وسموا قواماً لذلك. والضمير في "بعضهم" للرجال والنساء جميعاً، يعني إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال، على بعض وهم النساء. وفيه دليل على أن الولاية إنما تستحق بالفضل، لا بالتغلب والاستطالة والقهر. وقد ذكروا في فضل الرجال: العقل، والحزم، والعزم، والقوة، والكتابة - في الغالب، والفروسية، والرمي، وأن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى، والجهاد، والأذان، والخطبة، والاعتكاف، وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة، والشهادة في الحدود، والقصاص، وزيادة السهم، والتعصيب في الميراث، والحمل، والقسامة، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة، وعدد الأزواج، وإليه الانتساب، وهم أصحاب اللحي والعمائم "وبما أنفقوا" وبسبب ما أخرجوا في نكاحهن من أموالهم في المهور والنفقات. وروي: أن سعد بن أبي الربيع وكان نقيباً من نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير. فلطمها. فانطلق بها أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أفرشته كريمي فلطمها فقال: لتقتص منه فترلت، فقال صلى الله عليه وسلم: أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير، ورفع القصاص. واختلف في ذلك، فقيل لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ولو شجها، ولكن يجب العقل. وقيل: لا قصاص إلا في الجرح والقتل. وأما اللطمة ونحوها فلا "قانتات" مطيعات قانتات بما عليهن للأزواج "حافظات للغيب" الغيب خلاف الشهادة. أي حافظات لمواجب الغيب إذا كان الأزواج غير شاهدين لمن حفظهن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة. من الفروج والبيوت والأموال. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في ماها ونفسها"، وتلا الآية وقيل: "للغيب" لأسرارهم "بما حفظ الله" بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج في كتابه وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام فقال: "استوصوا بالنساء خيراً" أو بما حفظهن الله وعصمهن ووقفهن لحفظ الغيب، أو بما حفظهن حين وعدهن الثواب العظيم على حفظ الغيب، وأوعدهن بالعذاب الشديد على الخيانة. و ما مصدرية. وقرئ بما حفظ الله بالنصب على أن ما موصولة، أي حافظات للغيب بالأمر الذي يحفظ حق الله وأمانة الله، وهو التعفف والتحصن والشفقة على الرجال والنصيحة لهم. وقرأ ابن مسعود:

فالسوايح قوانت حواظ للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهن. نشوزها ونشوصها: أن تعصي زوجها، ولا تظمن إليه وأصله الانزعاج "في المضاجع" في المراقدة. أي لا تداخلوهن تحت اللحف أو هي كناية عن الجماع. وقيل: هو أن يوليها ظهره في المضجع وقيل: في المضاجع: في بيوتهن التي يبتن فيها. أي لا تبايتوهن. وقرئ: في المضجع، وفي المضطجع. وذلك لتعرف أحوالهن وتحقق أمرهن في النشوز أمر بوعظهن أولاً، ثم هجرانهن في المضاجع، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهجران. وقيل: معناه أكرهوهن على الجماع واربطوهن، من هجر البعير إذا شده بالهजार. وهذا من تفسير الثقلاء. وقالوا: يجب أن يكون ضرباً غير مبرح لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ويجتنب الوجه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "علق سوطك حيث يراه أهلك" وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام، فإذا غضب على إحداها ضربها بعود المشجب حتى يكسره عليها. ويروى عن الزبير أبيات منها:

ولولا بنوها حولها لخطبتها

"فلا تبغوا عليهن سبيلاً" فأزيلوا عنهن التعرض بالأذى والنويخ والتجني، وتوبوا عليهن واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن بعد رجوعهن إلى الطاعة والانقياد وترك النشوز "إن الله كان علياً كبيراً" فاحذروه واعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم. ويروى:

أن أبا مسعود الأنصاري رفع سوطه ليضرب غلاماً له، فبصر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصاح به: "أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه" فرمى بالسوط وأعتق الغلام. أو إن الله كان علياً كبيراً وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه، ثم تتوبون فيتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عمن يجني عليكم إذا رجع.

"وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريداً إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً" "شقاق بينهما" أصله: شقاقاً بينهما، فأضيف الشقاق إلى الطرف على طريق الإلتصاف، كقوله: "بل مكر الليل والنهار" سبأ: 33، وأصله: بل مكر في الليل والنهار. أو على أن جعل البين مشاقاً والليل والنهار ماكرين، على قولهم: نهارك صائم. والضمير للزوجين. ولم يجر ذكرهما لجري ذكر ما يدل عليهما، وهو الرجال والنساء "حكماً من أهله" رجالاً مقنعاً رضىاً يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما، وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصالح، وإنما تسكن إليهم نفوس الزوجين، ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصلحة والفرقة، وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزيوانه عن الأجانب ولا يحبان أن يطلعوا فقيلاً: ليس إليهما ذلك إلا بإذن الزوجين. وقيل: ذلك إليهما، وما جعلاً حكيمين إلا إليهما بناء الأمر على ما يقتضيه اجتهادهما. وعن عبيدة السلماني: شهدت علياً رضي الله عنه وقد جاءته امرأة وزوجها ومع كل واحد منهما فنام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً. فقال علي رضي الله عنه للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعما جمعتما. فقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال علي: كذب والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله لك وعليك. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي. وعن الحسن: يجمعان ولا يفرقان. وعن الشعبي: ما قضى الحكمان جاز. والألف في "وإن يريداً إصلاحاً" للحكمين. وفي "يوفق الله

بينهما" للزوجين أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهم صحيحة وقلوبهم ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بطيب نفسيهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة. وقيل: الضميران للحكمين، أي إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينهما، فيتفقان على الكلمة الواحدة، ويتساندان في طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد. وقيل: الضميران للزوجين. أي: إن يريد إصلاح ما بينهما وطلبا الخير وأن يزول عنهما الشقاق يطرح الله بينهما الألفة، وأبدلهما بالشقاق وفاقاً وبالغضاء مودة. "إن الله كان عليمًا خبيرًا" يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المتفرقين "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم" الأنفال: 63.

"واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً" وبالوالدين إحساناً" وأحسنوا بهما إحساناً "وبذي القربى" وبكل من بينكم وبينه قربي من أخ أو عم أو غيرهما "والجار ذي القربى" الذي قرب جواره "والجار الجنب" الذي جواره بعيد. وقيل الجار: القريب النسيب، والجار الجنب: الأجنبي. وأنشد لبلعاء بن قيس:

لا يجتويها مجاورٌ أبداً ذو رحمٍ أو مجاورٌ جنب

وقرئ: والجار ذا القربى، نصباً على الاختصاص. كما قرئ "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى" البقرة: 238، تنبيهاً على عظم حقه لإدلائه بحق الجوار والقربى "والصاحب بالجنب" هو الذي صحبتك بأن حصل بجنبك، إما رفيقاً في سفر، وإما جاراً ملاصقاً، وإما شريكاً في تعلم علم أو حرفة. وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك، من أدنى صحبة التأمّت بينك وبينه. فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه، وتجعله ذريعة إلى الإحسان. وقيل: الصاحب بالجنب: المرأة "وابن السبيل" المسافر المنقطع به، وقيل الضيف، والمختال: التباهي الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه، فلا يتحفى بهم ولا يلتفت إليهم. وقرئ: والجار الجنب، بفتح الجيم وسكون النون.

"الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً" "الذين ييخلون" بدل من قوله: "من كان مختالاً فخوراً" أو نصب على الذم. ويجوز أن يكون رفعاً عليه، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف، كأنه قيل: الذين ييخلون ويفعلون ويصنعون، أحقاء بكل ملامة. وقرئ بالبخل بضم الباء وفتحها. وبفتحتين. وبضميتين: أي ييخلون بذات أيديهم، وبما في أيدي غيرهم. فيأمرهم بأن ييخلوا به مقتاً للسخاء ممن وجد. وفي أمثال العرب: أبخل من الضنين بنائل غيره. قال:

وإن امرءاً ضنت يداه على امرئ بنيل يدٍ من غيره لبخيل

ولقد رأينا ممن بلي بداء البخل، من إذا طرق سمعه أن أحداً جاد على أحد. شخص به وحل حوته، واضطرب، ودارت عيناه في رأسه، كأنما نهب رحله وكسرت خزانته، ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده. وقيل: هم اليهود،

كانوا يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحوهم ويقولون: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون. وقد عابهم الله بكتمان نعمة الله وما آتاهم من فضل الغنى والتفاقر إلى الناس. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته على عبده" وبني عامل للرشيد قصراً حذاء قصره، فتم به عنده. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته، فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك، فأعجبه كلامه. وقيل: نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليمًا" "رئاء الناس" للفخار، وليقال: ما أسخاهم وما أجودهم! لا ابتغاء وجه الله. وقيل: نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فساء قريناً" حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر. ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقرن بهم في النار "وماذا عليهم" وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله، والمراد الذم والتوبيخ. وإلا فكل منفعة ومفلة في ذلك. وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت. وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت باراً. وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزأة في العفو والبر. ولكنه ذم وتوبيخ وتهويل بمكان المنفعة "وكان الله بهم عليمًا" وعيد.

"إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً" الذرة النملة الصغيرة. وفي قراءة عبد الله: مثقال غلّة، وعن ابن عباس: أنه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء في الكوة ذرة. وفيه دليل على أنه لو نقص من الأجر أدنى شيء وأصغره، أو زاد في العقاب لكان ظلماً، وأنه لا يفعل ولا يستحالة في الحكمة لا لاستحالته في القدرة "وإن تك حسنة" وإن يكن مثقال ذرة حسنة وإنما أنت ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى مؤنث. وقرئ - بالرفع - على كان التامة "يضاعفها" يضاعف ثوابها لاستحقاقها عند الثواب في كل وقت من الأوقات المستقبلية غير المتناهية. وعن أبي عثمان النهدي أنه قال لأبي هريرة: بلغني عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله تعالى يعطي عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة" قال أبو هريرة: لا، بل سمعته يقول: إن الله تعالى يعطيه ألفي ألف حسنة ثم تلا هذه الآية. والمراد: الكثرة لا التحديد "ويؤت من لدنه أجراً عظيماً" ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل عطاء عظيماً وسماه أجراً لأنه تابع للأجر لا يشبث إلا بثباته. قرئ: يضعفها بالتشديد والتخفيف، من أضعف وضعف: وقرأ ابن هرمز: نضاعفها بالنون "فكيف" يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم "إذا جئنا من كل أمة بشهيد" يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبههم، كقوله: "وكنتم عليهم شهيداً ما دمت فيهم" المائدة: 117. "وجئنا بك على هؤلاء" المكذبين "شهيداً" وعن ابن مسعود:

أنه قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله: "وجئنا بك على هؤلاء شهيداً" فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "حسبنا" "لو تسوى بهم الأرض" لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى. وقيل: يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء وقيل: تصير البهائم تراباً، فيودون حالها "ولا يكتمون"

الله حديثاً ولا يقدرّون على كتمانهم على جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال، أي يودّون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لا يكتُمون الله حديثاً. ولا يكذبون في قولهم: "والله ربنا ما كنا مشركين" الأنعام: 23، لأنهم إذا قالوا ذلك وجحدوا شركهم، ختم الله على أفواههم عند ذلك، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بتكذيبهم والشهادة عليهم بالشرك فلشدّة الأمر عليهم يتمنون أن تسوى بهم الأرض: وقرئ: تسوى، بحذف التاء من تتسوى. يقال: سويته فتسوى نحو: لويته فتلوى. وتسوى يادغام التاء في السين، كقوله: "يسمعون" الصافات: 8، وماضيه أسوى كآزكى. "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً".

روي: أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كانت الخمر مباحة، فأكلوا وشربوا، فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قدموا أحدهم ليصلي بهم، فقرأ: أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، فتزلت، فكانوا لا يشربون في أوقات الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون. ثم نزل تحريمها. ومعنى "لا تقربوا الصلاة" لا تغشوها ولا تقوموا إليها واجتنبوها. كقوله: "ولا تقربوا الزنا" الإسراء: 32، "ولا تقربوا الفواحش" الأنعام: 51، وقيل معناه: ولا تقربوا مواضعها وهي المساجد، لقوله عليه الصلاة والسلام: "جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم" وقيل: هو سكر النعاس وغلبة النوم، كقوله:

بسکر سناتھم کل الریون

.....ورائوا

وقرئ: سكارى، بفتح السين وسكرى، على أن يكون جمعاً، نحو: هلكى، وجوعى، لأن السكر علة تلحق العقل. أو مفرداً بمعنى: وأنتم جماعة سكرى، كقولك: امرأة سكرى، وسكرى بضم السين كحلبى. على أن تكون صفة للجماعة. وحكى جناح بن حبيش: كسلى وكسلى، بالفتح والضم "ولا جنباً" عطف على قوله: "وأنتم سكارى" لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً. والجنب: يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب "إلا عابري سبيل" استثناء من عامة أحوال المخاطبين. وانتصابه على الحال. فإن قلت: كيف جمع بين هذه الحال والحال التي قبلها؟ قلت: كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة، إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها، وهي حال السفر. وعبور السبيل: عبارة عنه. ويجوز أن لا يكون حالاً ولكن صفة، لقوله جنباً أي ولا تقربوا الصلاة جنباً غير عابري سبيل، أي جنباً مقيمين غير معذورين، فإن قلت: كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر؟ قلت: أريد بالجنب: الذين لم يغتسلوا كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين. حتى تغتسلوا، إلا أن تكونوا مسافرين. وقال: من فسر الصلاة غير مغتسلين. حتى تغتسلوا، إلا أن تكونوا مسافرين. وقال: من فسر الصلاة بالمسجد معناه: لا تقربوا المسجد جنباً إلا مجتازين فيه، إذا كان الطريق فيه إلى الماء، أو كان الماء فيه أو احتملتم فيه. وقيل: إن رجالاً من الأنصار كانت أبواهم في المسجد، فتصيبهم الجنابة ولا يجدون مراً إلا في المسجد، فرخص لهم. وروي:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحد أن يجلس في المسجد أو يمر فيه وهو جنب إلا لعلي رضي الله عنه. لأن بيته كان في المسجد فإن قلت: أدخل في حكم الشرط أربعة: وهم المرضى، والمسافرون، واخذثون وأهل الجنبانة فيمن تعلق الجزاء الذي هو الأمر بالتيمة عند عدم الماء منهم. قلت: الظاهر أنه تعلق بهم جميعاً وأن المرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه فلهم أن يتيمموا. وكذلك السفر إذا عدموه. لبعده. واخذثون وأهل الجنبانة كذلك إذا لم يجدوه لبعض الأسباب. وقال الزجاج: الصعيد وجه الأرض، تراباً كان أو غيره. وإن كان صخراً لا تراب عليه لو ضرب التيمم يده عليه ومسح. لكان ذلك طهوره. وهو مذهب أبي حنيفة رحمة الله عليه. فإن قلت: فما يصنع بقوله تعالى في سورة المائدة: "فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه" المائدة: 6، أي بعضه، وهذا لا يتأتى في الصخر الذي لا تراب عليه؟ قلت: قالوا إن من لا ابتداء الغاية. فإن قلت: قولهم إنما لا ابتداء الغاية قول متعسف. ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل: مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب، إلا معنى التبعيض. قلت: هو كما تقول. والإذعان للحق أحق من المراء "إن الله كان عفواً غفوراً" كناية عن الترخيص والتيسير. لأن من كانت عادته أن يعفو عن الخطئين ويغفر لهم، أثر أن يكون ميسراً غير معسر. فإن قلت: كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين، وبين اأخذثين والجنبين، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة، والحدث سبب لوجوب الوضوء. والجنبانة سبب لوجوب الغسل؟ قلت: أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء في التيمم بالتراب، فخص أول من بينهم مرضاهم وسفرهم، لأنهم المتقدمون في استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوذه الماء لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استسقاء أو إرهاب في مكان لا ماء فيه وغير ذلك مما لا يكثر كثرة المرض والسفر. وقرئ: من غيط، قيل هو تخفيف غيط، كهين في هين، والغيط بمعنى الغائط.

"ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً" "ألم تر" من رؤية القلب، وعدى يلى، على معنى: ألم ينته علمك إليهم؟ أو بمعنى: ألم تنظر إليهم؟ "أوتوا نصيباً من الكتاب" حظاً من علم التوراة، وهم أحبار اليهود "يشترون الضلالة" يستبدلوها بالهدى، وهو البقاء على اليهودية. بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والإنجيل "ويريدون أن تضلوا" أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه، وتنخرطوا في سلوكهم لا تكفيهم ضلالتهم؛ بل يحبون أن يضل معهم غيرهم. وقرئ: أن يضلوا، بالياء بفتح الضاد وكسرهما "والله أعلم" منكم "بأعدائكم" وقد أخبركم بعداوة هؤلاء، وأطلعكم على أحوالهم وما يريدون بكم؛ فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم ولا تستشيروهم "وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً" فثقوا بولايته ونصرته دونهم. أو لا تبالوا بهم، فإن الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم.

"من الذين هادوا يجرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا وسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمعنا وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً" "من الذين هادوا" بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب: لأنهم يهود ونصارى. وقوله: "والله أعلم"، "وكفى بالله"، "وكفى بالله" جهل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض أو بيان لأعدائكم، وما بينهما اعتراض أو صلة

لنصيراً، أي ينصركم من الذين هادوا، كقوله: "ونصرناه من القوم الذين كذبوا" الأنبياء: 77، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، على أن "يخرفون" صفة مبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا قوم يخرفون. كقوله:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما موت وأخرى أبتغي العيش أكدح

أي فمنهما تارة أموت فيها "يخرفون الكلم عن مواضعه" يميلونه عنها ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلاماً غيره، فقد أزالوا عن مواضعه التي وضعه الله فيها، وأزالوه عنها، وذلك نحو تحريفهم أسمى أربعة عن موضعه في التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه، ونحو تحريفهم الرجم بوضعهم الحد بدله: فإن قلت: كيف قيل هاهنا عن مواضعه وفي المائدة "من بعد مواضعه" المائدة: 41، قلت: أما عن مواضعه فعلى ما فسرناه من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. وأما "من بعد مواضعه" فالمعنى: أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقاره، والمعنيان متقاربان. وقرئ: يخرفون الكلام. والكلم - بكسر الكاف وسكون اللام -: جمع كلمة تخفيف كلمة. قولهم: "غير مسمع" حال من المخاطب، أي اسمع وأنت غير مسمع، وهو قول ذو وجهين، يحتمل الذم أي اسمع منا مدعوا عليك - بلا سمعت - لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع، فكان أصم غير مسمع. قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم - لا سمعت - دعوة مستجابة أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. ومعناه غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنك لم تسمع شيئاً. أو اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، فسمعك عنه ناب. ويجوز على هذا أن يكون غير مسمع مفعول اسمع، أي اسمع كلاماً غير مسمع إياك، لأن أذنك لا تعيه نبواً عنه. ويحتمل المدح، أي اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: اسمع فلان فلاناً إذا سبه. وكذلك قولهم: "راعنا" يحتمل راعنا نكلمك، أي ارقبنا وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهي: راعينا، فكانوا - سخرية بالدين وهزواً برسول الله صلى الله عليه وسلم - يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام "لياً بألستهم" فتلاً بها وتحريفاً، أي يفتلون بألستهم الحق إلى الباطل، حيث يضعون راعناً موضع انظرنا وغير مسمع موضع: لا أسمعته مكروهاً. أو يفتلون بألستهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقاً. فإن قلت: كيف جاؤوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرحوا وقاوا: سمعنا وعصينا؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان. ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء. ويجوز أن يقولوه فيما بينهم. ويجوز أن لا ينطقوا بذلك، ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به. وقرأ أبي: وأنظرنا، من الإنظار وهو الإمهال. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: "لكان خيراً لهم" قلت: إلى أنهم قالوا لأن المعنى. ولو ثبت قولهم سمعنا وأطعنا. لكان قولهم ذلك خيراً لهم "وأقوم" وأعدل وأسد "فلا يؤمنون إلا" إيماناً "قليلاً" أي ضعيفاً ركيكاً لا يعبأ به، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره، أو أراد بالقلة العدم، كقوله:

قليل التشكي للمهم يصيبه

أي عديم التشكي، أو إلا قليلاً منهم قد آمنوا.

"يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً"

"أن نطمس وجوهاً" أي نمحو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم "فنردها على أدبارها" فنجعلها على هيئة أدبارها، وهي الأقفاء مطموسة مثلها. والفاء للتسيب، وإن جعلتها للتعقيب على أنهم توعدوا بعقابين: أحدهما عقيب الآخر، ردها على أدبارها بعد طمسها؛ فالمعنى أن نطمس وجوهاً فننكسها، الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قدام. ووجه آخر: وهو أن يراد بالطمس القلب والتغيير، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة. وبالوجوه، رؤوسهم ووجهاؤهم أي من قبل أن نغير أحوال وجهاتهم، فنسلمهم إقبالهم ووجهاتهم ونكسوهم صغارهم وإدبارهم أو نردهم إلى حيث جاؤا منه. وهي: أذرعات الشام، يريد: إجلاء بني النضير. فإن قلت: لمن الراجع في قوله: أو نلعنهم؟ قلت: للوجوه إن أريد الوجهاء، أو لأصحاب الوجوه. لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قوم أو يرجع إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات "أو نلعنهم" أو نجزيهم بالمسخ، كما مسخنا أصحاب السبت. فإن قلت: فأين وقوع الوعيد. قلت: هو مشروط بالإيمان. وقد آمن منهم ناس. وقيل: هو منتظر، ولا بد من طمس ومسح لليهود قبل يوم القيامة، ولأن الله عز وجل أوعدهم بأحد الأمرين، بطمس وجوه منهم، أو بلعنهم فإن الطمس تبديل أحوال رؤسائهم، أو إجلأؤهم إلى الشام، فقد كان أحد الأمرين وإن كان غيره فقد حصل اللعن. فإنهم ملعونون بكل لسان، والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ ألا ترى إلى قوله تعالى: "قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير" المائدة: 60، "وكان أمر الله مفعولاً" فلا بد أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

"إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً" فإن قلت: قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة، فما وجه قول الله تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"؟ قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجّهين إلى قوله تعالى: "لمن يشاء" كأنه قيل: إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أن المراد بالأول من لم يتب، وبالثاني من تاب. ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد: لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله "فقد افترى إثماً" أي ارتكبه وهو مفتر مفتعل ما لا يصح كونه.

"ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئاً، انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً" الذين يزكون أنفسهم اليهود والنصارى، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وقيل: جاء رجال من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطفالهم فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: لا. قالوا: والله ما نحن إلا كهنتهم، ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار. فترلت. ويدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بركاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله. فإن قلت: أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض"؟ قلت: إنما

قال ذلك: حين قال له المنافقون: اعدل في القسمة، إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه، وشتان من شهد الله له بالتركية، ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم "بل الله يزكي من يشاء" إعلام بأن تركية الله هي التي يعتد بها. لا تركية غيره لأنه هو العالم بمن هو أهل للتركية. ومعنى يزكي من يشاء: يزكي المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصفهم به "ولا يظلمون فتيلاً" أي الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تركيتهم أنفسهم حق جزائهم. أو من يشاء يثابون على زكائهم ولا ينقص من ثوابهم. ونحوه "فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى" النجم: 32، "كيف يفترون على الله الكذب" في زعمهم أنهم عند الله أزكيا "وكفى" بزعمهم هذا "إثماً مبيناً" من بين سائر آثامهم.

"ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً"

الجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله: والطاغوت: الشيطان. وذلك أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكرهم، فاسجدوا لآهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم "بالجبت والطاغوت" لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد. فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك. قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، ونسقي الحاج، ونفري الضيف، ونفك العاني، وذكروا أفعالهم، فقال: أنتم أهدى سبيلاً.

"أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً" وصف اليهود بالبخل والحسد وهما شر خصلتين: يمنعون ما أوتوا من النعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم فقال: "أم لهم نصيب من الملك" على أن أم منقطعة ومعنى الهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ثم قال: "فإذا لا يؤتون" أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم: والنقير: النقرة في ظهر النواة وهو مثل في القلة، كالفتيل والقطمير. والمراد بالملك: إما ملك أهل الدنيا. وإما ملك الله كقوله تعالى: "قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق" الإسراء: 100، وهذا أوصف لهم بالشح، وأحسن لطباقة نظيره من القرآن. ويجوز أن يكون معنى الهمزة في أم: لإنكار أنهم قد أوتوا نصيباً من الملك، وكانوا أصحاب أموال ويساتين وقصور مشيدة كما تكون أحوال الملوك. وأنهم لا يؤتون أحداً مما يملكون شيئاً. وقرأ ابن مسعود: فإذا لا يؤتوا، على إعمال إذا عملها الذي هو النصب، وهي ملغاة في قراءة العامة، كأنه قيل: فلا يؤتون الناس نقيراً إذا "أم يحسدون الناس" بل يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على إنكار الحسد واستقبحه. وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصر والغلبة وازدياد العز والتقدم كل يوم "فقد آتينا" إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة "آل إبراهيم" الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس بيدع أن يؤتية الله مثل ما آتى أسلافه. وعن ابن عباس: الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان. وقيل: استكثروا نساء فقيل لهم: كيف استكثرت له التسع وقد كان لداود مائة ولسيمان ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرية؟ "فمنهم" فمن

اليهود "من آمن به" أي بما ذكر من حديث آل إبراهيم "ومنهم من صد عنه" وأنكره مع علمه بصحته. أو من اليهود من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من أنكر نبوته. أو من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم، ومنهم من كفر، كقوله: "فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون" الحديد: 26.

"إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً" "بدلناهم جلوداً غيرها" أبدلناهم إياها. فإن قلت: كيف تعذب مكان الجلود العاصية جلود لم تعص؟ قلت: العذاب للجملة الحساسة، وهي التي عصت لا للجلد. وعن فضيل: يجعل النضيج غير نضيج. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تبدل جلودهم كل يوم سبع مرات"، وعن الحسن: سبعين مرة يبدلون جلوداً بيضاء كالقرايطس "ليذوقوا العذاب" ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع. كقولك للعزير: أعزك الله، أي أدامك على عزك وزادك فيه "عزيزاً" لا يمتنع عليه شيء مما يريد به بالجرمين "حكيماً" لا يعذب إلا بعدل من يستحقه.

"والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً، إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سمياً بصيراً"

"ظليلاً" صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه. كما يقال: ليل أليل. ويوم أيوم، وما أشبه ذلك. وهو ما كان فينا لا جوب فيه، ودائماً لا تنسخه الشمس، وسجسجاً لا حر فيه ولا برد، وليس ذلك إلا ظل الجنة. رزقنا الله بتوفيقه لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظل. وفي قراءة عبد الله: سيدخلهم بالياء "أن تؤدوا الأمانات" الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة. وقيل: نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار وكان سادن الكعبة. وذلك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده. وأخذه منه وفتح، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين. فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة. فترلت، فأمر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه فقال عثمان لعلي: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة في أولاد عثمان أبداً. وقيل: هو خطاب للولادة بأداء الأمانات والحكم بالعدل. وقرئ: الأمانة، على التوحيد "نعما يعظكم به" ما إما أن تكون منصوبة موصوفة بيعظكم به، وإما أن تكون مرفوعة موصولة به، كأنه قيل: نعم شيئاً يعظكم به. أو نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، أي نعما يعظكم به ذلك، وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكم. وقرئ نعما بفتح النون.

"يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً" لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل، أمر الناس بأن يطيعوهم ويزلوا على قضايهم. والمراد بأولي الأمر منكم: أمراء الحق؛ لأن - أمراء الجور - الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثبات العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان.

وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: أستم أمرتم بطاعتنا في قوله: "وأولي الأمر منكم" قال: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتكم الحق بقوله: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول" وقيل: هم أمراء السرايا وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد أطاعني ومن يعص أميري فقد عصاني"، وقيل: هم العلماء الدينون الذين يعلمون الناس الدين ويأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. "فإن تنازعتم في شيء" فإن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر منكم في شيء من أمور الدين، فردوه إلى الله ورسوله، أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولي الأمر بما لا يبقى معه شك، وهو أن أمرهم أولاً بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخر بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولوا الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة "ذلك" إشارة إلى الرد إلى الكتاب والسنة "خيراً" لكم وأصلح "وأحسن تأويلاً" وأحسن عاقبة. وقيل: أحسن تأويلاً من تأويلكم أنتم. "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً" روي: أن بشراً المنافق خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاضى لليهودي فلم يرض المنافق وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله فلم يرض بقضائه. فقال للمنافق: أكذاك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل على سيفه، ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله، فترلت. وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنت الفاروق". والطاغوت: كعب بن الأشرف، سماه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه. أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان، بدليل قوله: "وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم". وقرئ "بما أنزل... وما أنزل" على البناء للفاعل. وقرأ عباس بن الفضل: أن يكفروا بها، ذهاباً بالطاغوت إلى الجمع، كقوله: "أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم" البقرة: 257، وقرأ الحسن تعالى بضم اللام على أنه حذف اللام من تعاليت تخفيفاً، كما قالوا: ما باليت به بالة، وأصلها بالية كعافية، وكما قال الكسائي في آية إن أصلها آيية فاعلة، فحذفت اللام، فلما حذفت وقعت واو الجمع بعد اللام من تعال فضمت، فصار تعالوا، نحو: تقدموا. ومنه قول أهلكمة: تعالي، بكسر اللام للمرأة، وفي شعر الحماني:

تعالي أقاسمك الهوم تعالي

والوجه فتح اللام "فكيف" يكون حالهم، وكيف يصنعون؟ يعني أنهم يعجزون عند ذلك فلا يصدرون أمراً ولا يوردونه "إذا أصابهم مصيبة بما قدمت أيديهم" من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك في الحكم "ثم جاؤك" حين يصابون فيعتذرون إليك "يخلفون" ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك "إلا إحساً" لا إساءة "وتوفيقاً" بين الخصمين، ولم يرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك، ففرج عنا بدعائك وهذا وعيد لهم على فعلهم، وأهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم. ولا يغني عنهم الاعتذار عند حلول بأس الله. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حم به "فأعرض عنهم" لا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم، ولا ترد على كفهم بالموعظة والنصيحة عما هم عليه "وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً" بالغ في وعظهم بالتخفيف والإنذار. فإن قلت: بم تعلق قوله: "في أنفسهم"؟ قلت: بقوله: بليغاً أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يگتمون به اغتناماً، ويستشعرون منه الخوف استشعاراً، وهو التوعد بالقتل والاستتصال إن نجم منهم النفاق وأطلع قرنه، وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين، وما هذه المكافة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراكم الكفر وإضماره، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف. أو يتعلق بقوله: "قل لهم" أي قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً، وأن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغني عنكم إبطانه. فأصلحو أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالجاهرين بالشرك من انتقامه، وشرّاً من ذلك وأغلظ. أو قل لهم في أنفسهم - خالياً بهم، ليس معهم غيرهم، مساراً لهم بالنصيحة، لأنه في السر أنجح، وفي الإمحاض أدخل "قولاً بليغاً" يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

"وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً"

"وما أرسلنا من رسول" وما أرسلنا رسولاً قط "إلا ليطاع بإذن الله" بسبب إذن الله في طاعته، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه، لأنه مؤد عن الله، فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ويجوز أن يراد بتيسير الله وتوفيقه في طاعته "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم" بالتحاكم إلى الطاغوت "جاؤك" تائبين من النفاق متصلين عما ارتكبوا "فاستغفروا الله" من ذلك بالإخلاص، وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد قضائك، حتى انتصبت شافعاً لهم إلى الله ومستغفراً "لوجدوا الله تواباً" لعلموه تواباً، أي لتاب عليهم. ولم يقل. واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره، وتنبه على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان "فلا وربك" معناه فوربك كقوله تعالى: "فوربك لنسألنهم" الحجر: 92، ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في "لنلا يعلم" الحديد: 29، لتأكيد وجود العلم. و"لا يؤمنون" جواب القسم فإن قلت: هلا زعمت أنها زيدت لتظاهر لا في لا يؤمنون؟ قلت: يأتي ذلك استواء النفي والإثبات فيه، وذلك قوله: "فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم" التكوين: 19، "فيما شجر بينهم" فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه "حرجاً" ضيقاً، أي لا تضيق صدورهم من

حكمك، وقيل: شكاً، لأن الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين "ويسلموا" وينقادوا ويدعوا لما تأتي به من قضائك، لا يعارضوه بشيء، من قولك: سلم الأمر لله وأسلم له، وحقيقة سلم نفسه له وأسلمها، إذا جعلها سائلة له خالصة، و"تسليماً" تأكيد للفعل بمثالة تكريره. كأنه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه، بظاهريهم وباطنيهم. قيل: نزلت في شأن المنافق واليهودي. وقيل: في شأن الزبير وحاطب بن أبي بلتعة؛ وذلك أنهما اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة. كانا يسقيان بها النخل، فقال: "اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك" فغضب حاطب وقال: لأن كان ابن عمك؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقلك، ثم أرسله إلى جارك" كان قد أشار على الزبير برأي فيه السعة له وخصمه؛ فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، استوعب للزبير حقه في صريح الحكم، ثم خرجا فمرا على المقداد، فقال: لمن كان القضاء؟ فقال الأنصاري: قضى لابن عمته، ولوى شذقه. ففطن يهودي كان مع المقداد فقال: قاتل الله هؤلاء، يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونونه في قضاء يقضى بينهم، وإيم الله، لقد أذنبنا ذنباً مرة في حياة موسى، فدعانا إلى التوبة منه وقال: اقتلوا أنفسكم، ففعلنا، فبلغ قتلنا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا. فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إن الله ليعلم مني الصدق، لو أمرني محمد أن أقتل نفسي لقتلتها. وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده إن من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي". وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: والله لو أمرنا ربنا لفعلنا، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك، فزلت الآية في شأن حاطب، ونزلت في شأن هؤلاء. "ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تشبهاً، وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً، ولهديناهم صراطاً مستقيماً" "ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم" أي لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل من قتلهم أنفسهم، أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل "ما فعلوه إلا" ناس "قليل منهم" وهذا توبيخ عظيم. والرفع على البدل من الواو في فعلوه. وقرئ: إلا قليلاً، بالنصب على أصل الاستثناء، أو على إلا فعلاً قليلاً "ما يوعظون به" من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته. والانقياد لما يراه ويحكم به، لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى "كان خيراً لهم" في عاجلهم وآجلهم "وأشد تشبهاً" لإيمانهم وأبعد من الاضطراب فيه "وإذا" جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل: وماذا يكون لهم أيضاً بعد التشبث، فقيل: وإذا لو ثبتوا "لآتيناهم" لأن إذا جواب وجزاء "من لدنا أجراً عظيماً" كقوله: "ويؤت من لدنه أجراً عظيماً" النساء: 40، في أن المراد العطاء المتفضل به من عنده وتسميته أجراً، لأنه تابع للأجر لا يشبث إلا بنباته "ولهديناهم" ولطفنا بهم ووفقناهم لازدياد الخيرات. "ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا" الصديقون: أفاضل صحابة الأنبياء الذين تقدموا في تصديقهم كأبي بكر الصديق رضي الله عنه وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم. وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة، حيث وعدوا مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده "وحسن أولئك رفيقاً" فيه معنى التعجب كأنه قيل: وما أحسن أولئك رفيقاً ولا استقلاله بمعنى التعجب. قرئ: وحسن، بسكون السين. يقول المتعجب: حسن الوجه وجهك!

وحسن الوجه وجهك، بالفتح والضم مع التسكين. والرفيق: كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه، ويجوز أن يكون مفرداً، بين به الجنس في باب التمييز. وروي: أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه، فأثاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله، فقال: يا رسول الله، ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة، فحفت أن لا أراك هناك، لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزل، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً، فزلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين". وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة "ذلك" مبتدأ و "الفضل" صفته و "من الله" الخبر، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ، والفضل من الله خبره، والمعنى: أن ما أعطي المطيعون من الأجر العظيم ومرافقة المنعم عليهم من الله لأنه تفضل به عليهم تبعاً لثوابهم "وكفى بالله عليمًا" جزاء من أطاعه أو أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله، لأنهم اكتسبوه بتمكينه وتوفيقه وكفى بالله عليمًا بعباده فهو يوفقهم على حسب أحوالهم. "يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً" "خذوا حذركم" الحذر والحذر بمعنى، كالإثر والأثر، يقال: أخذ حذره، إذا تيقظ واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آلتته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه. والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم "فانفروا" إذا نفرتم إلى العدو. إما "ثبات" جماعات متفرقة سرية بعد سرية، وإما "جميعاً" أي مجتمعين كوكبة واحدة، ولا تتخاذلوا فتلحقوا بأنفسكم إلى التهلكة. وقرئ: فانفروا بضم الفاء.

"وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبةٌ قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً، ولئن أصابكم فضلٌ من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودةٌ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً"

اللام في لمن للابتداء بمثلتها في قوله: "إن الله لغفور" النحل: 18، وفي "ليبطئن" جواب قسم محذوف تقديره: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن، والقسم وجوابه صلة من، والضمير الراجع منها إليه ما استكن في "ليبطئن" والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمبطئون منهم المنافقون لأنهم كانوا يغزون معهم نفاقاً. ومعنى ليبطئن ليشاكلن وليتخلفن عن الجهاد وبطاً بمعنى: أبطأ كعتم بمعنى: أعتم، إذا أبطأ، وقرئ ليبطئن بالتخفيف يقال: بطأ علي فلان وأبطأ علي وبطؤ نحو: ثقل، ويقال: ما بظاً بك، فيعدى بالباء، ويجوز أن يكون منقولاً من بطؤ، نحو؟ ثقل من ثقل، فإراد ليبطئن غيره وليشبطنه عن الغزو، وكان هذا ديدن المنافق عبد الله بن أبي، وهو الذي ثبط الناس يوم أحد "فإن أصابتكم مصيبةٌ من قتل أو هزيمة" فضلٌ من الله من فتح أو غنيمة "ليقولن" وقرأ الحسن ليقولن بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى من لأن قوله: لمن ليبطئن في معنى الجماعة، وقوله: "كأن لم تكن بينكم وبينه مودةٌ" اعتراض بين الفعل الذي هو ليقولن وبين مفعوله وهو "يا ليتني" والمعنى كأن لم تتقدم له مكم مودة، لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر، وإن كانوا يبعون لهم الغوائل في الباطن، والظاهر أنه تمكّم لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدّهم حسداً لهم، فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تمكّمًا بحالهم. وقرئ: فأفوز بالرفع عطفاً على كنت معهم لينتظم الكون معهم، والفوز معنى التمني، فيكونا متمنين جميعاً، ويجوز أن يكون خبر

مبتدأ محذوف، بمعنى فأنا أفوز في ذلك الوقت .

"فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً، الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً" "يشرون" بمعنى يشترون ويبيعون قال ابن مفرغ:

وشريت برداً ليتني

من بعد برد كنت هامه

فالذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة هم المبطؤون، وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله، ويجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد، والذي يبيعون هم المؤمنون الذين يستحبون الآجلة على العاجلة ويستبدلون بها، والمعنى: إن صد الذين مرضت قلوبهم وضعفت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون و وعد المقاتل في سبيل الله ظافراً أو مظفوراً به إتياء الأجر العظيم على اجتتهاده في إعزاز دين الله " والمستضعفين" فيه وجهان أن يكون مجروراً عطفاً على سبيل الله أي في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين ومنصوباً على الاختصاص يعني واختص في سبيل الله خلاص المستضعفين لأن سبيل الله عام في كل خير، وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه المستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصددهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد، وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولي وناصر وهو محمد صلى الله عليه وسلم فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر، ولما خرج استعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد فأروا منه الولاية والنصرة كما أرادوا، قال ابن عباس: كان ينصر الضعيف من القوي حتى كانوا أعز بها من الظلمة. فإن قلت: لم ذكر الولدان؟ قلت: تسجيلاً يافراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين، إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم ومبغضة لهم لمكائهم، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيبتهم في دعائهم استنزاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا، كما فعل قوم يونس وكما وردت السنة بإخراجهم في الاستسقاء، وعن ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان، ويجوز أن يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرائر، وبالولدان العبيد والإماء، لأن العبد والأمة يقال لهما الوليد والوليدة، وقيل للولدان والولائد الولدان لتغليب الذكور على الإناث كما يقال الآباء والإخوة. فإن قلت: لم ذكر الظالم وموصوفه مؤنث؟ قلت: هو وصف للقرية إلا أنه مسند إلى أهلها. فأعطي إعراب القرية لأنه صفتها، وذكر لإسناده إلى الأهل كما تقول من هذه القرية التي ظلم أهلها، ولو أنث فقيل: الظالمة أهلها، لجاز لا لتأنيث الموصوف، ولكن لأن الأهل يذكر ويؤنث. فإن قلت: هل يجوز من هذه القرية الظالمين أهلها؟ قلت: نعم، كما تقول: التي ظلموا أهلها، على لغة من يقول: أكلوني البراغيث. ومنه "وأسروا النجوى الذين ظلموا" الأنبياء: 3، رغب الله المؤمنين ترغيباً وشجعهم تشجيعاً بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل

الله. فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا ولي لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

"ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً"

"كفوا أيديكم" أي كفوها عن القتال وذلك أن المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ماداموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه "فلما كتب عليهم القتال" بالمدينة كع فريق منهم لا شكاً في الدين ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً من الإخطار بالأرواح وخوفاً من الموت "كخشية الله" من إضافة المصدر إلى المفعول، فإن قلت: ما محل خشية الله من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في يخشون أي يخشون الناس مثل أهل خشية الله، أي مشبهين لأهل خشية الله "أو أشد خشية" بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله، وأشد معطوف على الحال. فإن قلت: لم عدلت عن الظاهر وهو كونه صفة للمصدر ولم تقدر يخشون خشية مثل خشية الله، بمعنى مثل ما يخشى الله؟ قلت: أبيت ذلك قوله: "أو أشد خشية" لأنه وما عطف عليه في حكم واحد، ولو قلت يخشون الناس أشد خشية؟ لم يكن إلا حال عن ضمير الفريق ولم ينتصب انتصاب المصدر، لأنك لا تقول خشي فلان أشد خشية، فتنصب خشية وأنت تريد المصدر، وإنما تقول أشد خشية فتجرها، وإذا نصبتها لم يكن أشد خشية إلا عبارة عن الفاعل حالاً منه، اللهم إلا أن تجعل مثل خشية الله، أو خشية أشد خشية من خشية الله، ويجوز على هذا أن يكون محل أشد مجروراً عطفاً على خشية الله تريد كخشية الله أو كخشية أشد خشية منها "لولا أخرتنا إلى أجل قريب" استزادة في مدة الكف، واستمهال إلى وقت آخر، كقوله: "لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق" المنافقون: 15. "ولا تظلمون فتيلاً" ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتال فلا ترغبوا عنه، وقرئ: ولا يظلمون، بالياء.

"أينما تكونوا يدر ككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً" قرئ يدر ككم بالرفع وقيل: هو على حذف الفاء، كأنه قيل: فيدر ككم الموت، وشبه بقول القائل:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

ويجوز أن يقال: حمل على ما يقع موقع "أينما تكونوا"، وهو أينما كنتم، كما حمل ولا ناعب، على ما يقع موقع ليسوا مصلحين وهو ليسوا بمصلحين، فرفع كما رفع زهير:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

وهو قول نخوي سبيوي. ويجوز أن يتصل بقوله: "ولا تظلمون فتيلاً" أي ولا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم. أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها، ثم ابتداء قوله: "يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" والوقف على

هذا الوجه على أينما تكونوا.

والبروج: الحصون. مشيدة مرفعة. وقرئ مشيدة من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الحص. وقرأ نعيم بن ميسرة مشيدة بكسر الياء وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً كما قالوا: قصيدة شاعرة، وإنما الشاعر قارضها. السيئة تقع على البلية والمعصية. والحسنة على النعمة والطاعة. قال الله تعالى: "وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون" الأعراف: 198، وقال: "إن الحسنات يذهبن السيئات" هود: 114. والمعنى: وإن تصبهم نعمة من خصب ورخاء نسبوا إلى الله، وإن تصبهم بلية من قحط وشدة أضافوها إليك وقالوا: هي من عندك، وما كانت إلا بشؤمك، كما حكى الله عن قوم موسى: "وإن تصبهم سيئةً يطيروا بموسى ومن معه" الأعراف: 131، وعن قوم صالح: "قالوا اطرنا بك وبمن معك" النمل: 47، وروي عن اليهود - لعنت - أنها تشاءمت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: منذ دخل المدينة نقصت ثمارها وغلّت أسعارها، فرد الله عليهم "قل كل من عند الله" ييسط الأرزاق ويقبضها على حسب المصالح "لا يكادون يفقهون حديثاً" فيعلموا أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب ثم قال "ما أصابك" يا إنسان خطاباً عاماً "من حسنة" أي من نعمة وإحسان "فمن الله" تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً "وما أصابك من سيئة" أي من بلية ومصيبة "فمن نفسك" لأنك السبب فيها بما اكتسبت يدك "وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير" الشورى: 30، وعن عائشة رضي الله عنها: ما من مسلم يصيبه صيب ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها، وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر "وأرسلناك للناس رسولا" أي رسولا للناس جميعاً لست برسول العرب وحدهم، أنت رسول العرب والعجم، كقوله: "وما أرسلناك إلا كافة للناس" سبأ: 28، "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً" الأعراف: 158، "وكفى بالله شهيداً" على ذلك، فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك.

"من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً" "من يطع الرسول فقد أطاع الله" لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه فكانت طاعته في امتثال ما أمر به والانتفاء عما نهى عنه طاعة لله، وروي أنه قال: "من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله" فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل، لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله! ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى، فترلت: "ومن تولى" عن الطاعة فأعرض عنه "فما أرسلناك" إلا نذيراً، لا حفيظاً ومهيماً عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم، كقوله: "وما أنت عليهم بوكيل" الأنعام: 107.

"ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً" ويقولون "إذا أمرهم بشيء" طاعة بالرفع أي أمرنا وشأننا طاعة. ويجوز النصب بمعنى أطعناك طاعة. وهذا من قول المرتسم: سمعاً وطاعة. وسمع وطاعة. ونحوه قول سيبويه: وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمد الله وثناء عليه، كأنه قال أمري وشأني حمد الله. ولو نصب حمد الله وثناء عليه. كان على الفعل والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها "بيت طائفة" زورت طائفة وسوت "غير الذي تقول" خلاف ما قلت وما أمرت به. أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة، لأنهم أبطلوا الرد لا القبول،

والعصيان لا الطاعة. وإنما ينافقون بما يقولون ويظهرون. والتبصير: إما من البتوتة لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، يقال: هذا أمر بيت بليل. وإما من أبيات الشعر، لأن الشاعر يدبرها ويسويها "والله يكتب ما يبيتون" يشته في صحائف أعمالهم، ويجازيهم عليه على سبيل الوعيد. أو يكتبه في جملة ما يوحى إليك فيطعلك على أسرارهم فلا يحسبوا أن إبطائهم يغني عنهم "فأعرض عنهم" ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم "وتوكل على الله" في شأنهم، فإن الله يكفيك معرفهم وينتقم لك منهم إذا قوي أمر الإسلام وعز أنصاره. وقرئ بيت طائفة بالإدغام وتذكير الفعل، لأن تأنيث الطائفة غير حقيقي، ولأنها في معنى الفريق والفوج.

"أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً"

تدبر الأمر: تأمله والنظر في إدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه "لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً" لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً قد تفاوت نظمته وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغاً حد الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته، وبعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني. وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتزم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلاء وتناصر صحة معان وصدق إخبار، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه أحد سواه. فإن قلت: أليس نحو قوله: "إذا هي ثعبانٌ مبينٌ" الأعراف: 107، "كانها جانٌ" النمل: 10، "فوركك لنسألهم أجمعين" الحجر: 92، "فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌ" الرحمن: 39، من الاختلاف؟ قلت: ليس باختلاف عند المتدبرين.

"وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً، فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً" هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ولا استبطان للأمر. كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل "أذاعوا به" وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمر منهم - وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمر أو الذين كانوا يؤمرون منهم - "لعلمه" لعلم تدبير ما أخبروا به "الذين يستنبطونه" الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمر الحرب ومكايدها. وقيل: كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء، أو على خوف واستشعار، فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء، فتعود إذاعتهم مفسدة. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا، لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويزرون فيه. وقيل: كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا مظنوناً غير معلوم الصحة فيذيعونه، فيعود ذلك وبالأعلى المؤمنين. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر وقالوا: نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع، لعلمه الذين يستنبطونه منهم، لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هؤلاء المذيعون، وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر، أي يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم. يقال: أذاع السر، وأذاع به. قال:

أذاع به في الناس حتى كأنه

بعلياء ناراً أوقدت بثقوب

ويجوز أن يكون المعنى فعلوا به الإذاعة، وهو أبلغ من أذاعه، وقرئ لعلمه بإسكان اللام كقوله:

فإن أهجه يضجر كما ضجر بازل

من الأدم دبّرت صفحتاه وغاربه

والنبط: الماء يخرج من البئر أول ما تحفر، وإنباطه واستنباطه: إخراج واستخراجه، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني والتدابير فيما يعضل ويهم "ولولا فضل الله عليكم ورحمته" وهو إرسال الرسول، وإنزال الكتاب، والتوفيق "لاتبعنم الشيطان" لبقيتن على الكفر "إلا قليلاً" منكم. أو إلا اتباعاً قليلاً، لما ذكر في الآي قبلها تشبطهم عن القتال، وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال: "فقاتل في سبيل الله" إن أفردوك وتركوك وحدك "لا تكلف إلا نفسك" غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد، فإن الله هو ناصرك لا الجنود، فإن شاء نصرتك وحدك كما ينصرك وحولك الألو ف. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اللقاء فيها، فكره بعض الناس أن يخرجوا فزلت، فخرج وما معه إلا سبعون لم يلو على أحد، ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده، وقرئ "لا تكلف" بالجرم على النهي، ولا نكلف: بالنون وكسر اللام، أي لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها "وحرص المؤمنين" وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب، لا التعنيف بهم "عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا" وهم قريش، وقد كف بأسهم فقد بدا لأبي سفيان وقال: هذا عام مجذب، وما كان معهم زاد إلا السويق، ولا يلقون إلا في عام مخصب فرجع بهم "والله أشد بأساً" من قريش "وأشد تنكيلاً" تعذيباً. "من يشفع شفاعةً حسنةً يكن له نصيبٌ منها ومن يشفع شفاعةً سيئةً يكن له كفلٌ منها وكان الله على كل شيء مقيتاً" الشفاعة الحسنة: هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير. وابتغي بها وجه الله ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله ولا في حق من الحقوق. والسيئة: ما كان بخلاف ذلك. وعن مسروق أنه شفع شفاعة فأهدى إليه المشفوع جارية، فغضب وردّها وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك، ولا أتكلم فيما بقي منها وقيل: الشفاعة الحسنة: هي الدعوة للمسلم، لأنها في معنى الشفاعة إلى الله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك: ولك مثل ذلك، فذلك النصيب"، والدعوة على المسلم بضد ذلك "مقيتاً" شهيداً حفيظاً. وقيل: مقتدراً. وأقات على الشيء، قال الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضغنٍ نفيت السوء عنه

وكنت على إساءته مقيتاً

وقال السموأل:

ألي الفضل أم علي إذا حو

سبت إني على الحساب مقيت

واشتقاقه من القوت لأنه يمسك النفس ويحفظها.

"وإذا حييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً" الأحسن منها أن تقول: وعليكم السلام ورحمة الله إذا قال: السلام عليكم وأن تزيد وبركاته إذا قال: ورحمة الله وروي: أن رجلاً قال لرسول الله

صلى الله عليه وسلم: السلام عليك، فقال: "وعليك السلام ورحمة الله" وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله، فقال: "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته" وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: "وعليك". فقال الرجل: نقصتني، فاين ما قال الله؟ وتلا الآية. فقال: "إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله" "أو ردوها" أو أجيبوها بمثلها. ورد السلام ورجعه: جوابه بمثله، لأن الجيب يرد قول المسلم ويكرره، وجواب التسليمة واجب، والتخير إنما وقع بين الزيادة وتركها. وعن أبي يوسف رحمه الله: من قال لآخر: أقرئ فلاناً السلام، وجب عليه أن يفعل. وعن النخعي: السلام سنة والرد فريضة. وعن ابن عباس: الرد واجب. وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردت عليه الملائكة. ولا يرد السلام في الخطبة، وقراءة القرآن، جهراً ورواية الحديث، وعند مذاكرة العلم، والأذان، والإقامة، وعن أبي يوسف: لا يسلم على لاعب النرد والشطرنج، والمغني، والقاعد لحاجته، ومطير الحمام، والعارى من غير عذر في حمام أو غيره. وذكر الطحاوي: أن المستحب رد السلام على طهارة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه تيمم لرد السلام. قالوا: ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته. ولا يسلم على أجنبية. ويسلم الماشي على القاعد. والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر. وإذا التقيا ابتدرا. وعن أبي حنيفة: لا تجهر بالرد يعني الجهر الكثير. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم" أي وعليكم ما قلتم؛ لأنهم كانوا يقولون: السام عليكم. وروي: "لا تتدئ اليهودي بالسلام، وإن بدأك فقل وعليك". وعن الحسن: يجوز أن تقول للكافر: وعليك السلام، ولا تقل: ورحمة الله، فإنها استغفار. وعن الشعبي أنه قال لنصراني سلم عليه: وعليك السلام ورحمة الله. فقل له في ذلك، فقال: أليس في رحمة الله يعيش؟ وقد رخص بعض العلماء في أن يبدأ أهل الذمة بالسلام إذا دعت إلى ذلك حادثة تحوج إليهم. وروى ذلك عن النخعي. وعن أبي حنيفة: لا تبدأ بسلام في كتاب ولا غيره. وعن أبي يوسف لا تسلم عليهم ولا تصحافهم، وإذا دخلت فقل: السلام على من اتبع الهدى. ولا بأس بالدعاء له بما يصلحه في دنياه "على كل شيء حسياً" أي يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

"الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً" "لا إله إلا هو" إما خبر المبتدأ. وإما اعتراض والخبر "ليجمعنكم". ومعناه: الله. والله ليجمعنكم "إلى يوم القيامة" أي ليحشرنكم إليه. والقيامة والقيام. كالطلابة والطلاب، وهي قيامهم من القبور أو قيامهم للحساب. قال الله تعالى: "يوم يقوم الناس لرب العالمين" المطففين: 6، "ومن أصدق من الله حديثاً" لأنه عز وعلا صادق لا يجوز عليه الكذب. وذلك أن الكذب مستقل بصارف عن الإقدام عليه وهو قبحه. ووجه قبحه الذي هو كونه كذباً وإخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه. فمن كذب لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يكذب ليجر منفعة أو يدفع مضرة. أو هو غني عنه إلا أنه يجهل غناه. أو هو جاهل بقبحه. أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب في إخباره ولا يبالي بأيهما نطق، وربما كان الكذب أحلى على حنكه من الصدق. وعن بعض السفهاء أنه عوتب على الكذب فقال: لو غرغرت لهواتك به ما فارقت. وقيل لكذاب: هل صدقت قط؟ فقال: لولا أي صادق في قولي لا لقلتها. فكان الحكيم الغني الذي لا يجوز عليه الحاجات العالم بكل معلوم، متهماً عنه، كما هو متهمة عن سائر القبائح.

"فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً" فئتين" نصب على الحال، كقولك: ما لك قائماً؟ روي أن قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار. وقال بعضهم: هم مسلمون. وقيل: كانوا قوماً هاجروا من مكة، ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا على دينك وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا. وقيل: هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا. وقيل: هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا يساراً. وقيل: هم قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. ومعناه: ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقاً ظاهراً وتفرقتهم فيه فئتين وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم "والله أركسهم" أي ردهم في حكم المشركين كما كانوا "بما كسبوا" من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتياهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو أركسهم في الكفر بأن خذلهم حتى أركسوا فيه. لما علم من مرض قلوبهم، "أتريدون أن تهدوا" أن تجعلوا من جملة المهتدين "من أضل الله" من جعله من جملة الضلال، وحكم عليه بذلك أو خذله حتى ضل. وقرئ: ركسهم. وركسوا فيها.

"ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً، إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً"

"فتكونون" عطف على "تكفرون" ولو نصب على جواب التمني لجاز. والمعنى: ودوا كفركم فكونكم معهم شرعاً واحداً فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء. فلا تتولوهم وإن آمنوا حتى يظاهروا إيمانهم بهجرة صحيحة هي لله ورسوله - لا لغرض من أغراض الدنيا - مستقيمة ليس لبعدها بداء ولا تعرب. "فإن تولوا" عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة، فحكمهم حكم سائر المشركين يقتلون حيث وجدوا في الحل والحرم، وجانبوهم مجانبة كلية، وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم "إلا الذين يصلون" استثناء من قوله: "فخذوهم واقتلوهم" ومعنى "يصلون إلى قوم" ينتهون إليهم ويتصلون بهم. وعن أبي عبيدة: هو من الانتساب. وصلت إلى فلان واتصلت به إذا انتميت إليه. وقيل: إن الانتساب لا أثر له في منع القتال، فقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من هو من أنسابهم، والقوم هم المسلمون، كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، وذلك أنه وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال. وقيل: القوم بنو بكر بن زيد مناة كانوا في الصلح "أو جاءوكم" لا يخلو من أن يكون معطوفاً على صفة قوم، كأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم مسكين عن القتال لا لكم ولا

عليكم، أو على صلة الذين، كأنه قيل: إلا الذين يتصلون بالمعاهدين، أو الذين لا يقاتلونكم والوجه العطف على الصلة لقوله: "فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً" بعد قوله: "فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم" فقرر أن كفهم عن القتال أحد سببي استحقاقهم لنفي التعرض عنهم وترك الإيقاع بهم. فإن قلت: كل واحد من الاتصاليين له تأثير في صحة الاستثناء، واستحقاق إزالة التعرض للاتصال بالمعاهدين والاتصال بالمكافين، لأن الاتصال بمؤلاء أو هؤلاء دخول في حكمهم، فهلا جوزت أن يكون العطف على صفة قوم، ويكون قوله: "فإن اعتزلوكم" تقريراً لحكم اتصالحهم بالمكافين واختلاطهم بهم وحريهم على سنتهم؟ قلت: هو جائز، ولكن الأول أظهر وأجرى على أسلوب الكلام. وفي قراءة أبي: بينكم وبينهم ميثاق جاؤكم حصرت صدورهم بغير أو ووجهه أن يكون جاؤكم بياناً ليصلون، أو بدلاً أو استئنافاً، أو صفة بعد صفة لقوم. حصرت صدورهم في موضع الحال بإضمار قد. والدليل عليه قراءة من قرأ: حصرة صدورهم، و حصرات صدورهم. و حاصرات صدورهم. وجعله المبرد صفة لموصوف محذوف على: أو جاؤكم قوماً حصرت صدورهم. وقيل: هو بيان لجاؤكم، وهم بنو مدلج جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين. والخصر الضيق والانقباض "أن يقاتلوكم" عن أن يقاتلوكم. أو كراهة أن يقاتلوكم. فإن قلت: كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت: ما كانت مكافتهم إلا لقتل الله الرعب في قلوبهم، ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقدفه، فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين، فذلك معنى التسليط. وقرئ: قلفتلوكم، بالتخفيف والتشديد "فإن اعتزلوكم" فإن لم يتعرضوا لكم "وألقوا إليكم السلم" أي الانقياد والاستسلام. وقرئ بسكون اللام مع فتح السين "فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً" فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم "ستجدون آخرين" هم قوم من بني أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليامنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم "كل ما ردوا إلى الفتنة" كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين "أركسوا فيها" قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه، وكانوا شراً فيها من كل عدو "حيث ثقفتموهم" حيث تمكنتهم منهم "سلطاناً مبيناً" حجة واضحة لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنا لكم في قتلهم.

"وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً، ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليماً" "وما كان لمؤمن" وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، كقوله: "وما كان لنبي أن يغفل" آل عمران: 161، "وما يكون لنا أن نعود فيها" الأعراف: 89، "أن يقتل مؤمناً ابتداء غير قصاص" "إلا خطأً" إلا على وجه الخطأ. فإن قلت: بم انتصب خطأ؟ قلت: بأنه مفعول له، أي ما ينبغي له أن يقتله لعله من العلل إلا للخطأ وحده. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ. وأن يكون صفة للمصدر إلا قتلاً خطأً. والمعنى أن من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد، بأن يرمي كافرأ فيصيب مسلماً، أو يرمي

شخصاً على أنه كافر فإذا هو مسلم. وقرئ: خطأ - بالمد - وخطأ، بوزن عمى - بتخفيف الهمزة - وروي: أن عياش بن أبي ربيعة - وكان أخاً أبي جهل لأمه - أسلم وهاجر خوفاً من قومه إلى المدينة، وذلك قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع. فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه وهو في أطم فقتل منه أبو جهل في الذروة والغارب، وقال: أليس محمد يحنك على صلة الرحم، انصرف وبر أمك وأنت على دينك، حتى نزل وذهب معهما، فلما فسحا عن المدينة كتفاه، وجلده كل واحد مائة جلدة. فقال للحارث: هذا أخي، فمن أنت يا حارث؟ لله علي إن وجدتك خالياً أن أقتلك، وقدما به على أمه، فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد. ففعل ثم هاجر بعد ذلك وأسلم، وأسلم الحارث وهاجر، فلقيه عياش بظهر قباء - ولم يشعر بإسلامه - فألقى عليه فقتله، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قتلته ولم أشعر بإسلامه، فترلت "فتحرير رقبة" فعليه تحرير رقبة. والتحرير: الإعتاق. والحر والعتيق: الكرم، لأن الكرم في الأحرار كما أن اللؤم في العبيد. ومنه: عتاق الخيل، وعتاق الطير لكرامها. وحر الوجه: أكرم موضع منه. وقولهم للنسيم: عبد. وفلان عبد الفعل: أي لنسيم الفعل. والرقبة: عبارة عن النسمة، كما عبر عنها بالرأس في قولهم: فلان يملك كذا رأساً من الرقيق. والمراد برقبة مؤمنة: كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء. وعن الحسن: لا تجزئ إلا رقبة قد صلت وصامت، ولا تجزئ الصغيرة. وقاس عليها الشفاعي كفارة الطهار، فاشتراط الإيمان. وقيل: لما أخرج نفساً مؤمنة عن جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار "مسلمة إلى أهله" مؤادة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، يقضى منها الدين، وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارث فهي لبيت المال، لأن المسلمين يقومون مقام الورثة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا وارث من لا وارث له". وعن عمر رضي الله عنه: أنه قضى بدية المقتول، فجاءت امرأته تطلب ميراثها من عقله فقال: لا أعلم لك شيئاً، إنما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه. فقام الضحاك بن سفيان الكلابي فقال: كتب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم. فورثها عمر، وعن ابن مسعود: يرث كل وارث من الدية غير القاتل. وعن شريك: لا يقضى من الدية دين، ولا تنفذ وصية. وعن ربيعة: الغرة لأُم الجنين وحدها، وذلك خلاف قول الجماعة. فإن قلت: على من تجب الرقبة والدية؟ قلت: على القاتل إلا أن الرقبة في ماله، والدية تتحملها عنه العاقلة، فإن لم تكن له عاقلة فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله "إلا أن يصدقوا" إلا أن يتصدقوا عليه بالدية ومعناه العفو، كقوله: "إلا أن يعفون" البقرة: 237، ونحوه "وأن تصدقوا خير لكم" البقرة: 280، وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"كل معروف صدقة"، وقرأ أي: إلا أن يتصدقوا. فإن قلت: بم تعلق أن يصدقوا، وما محله؟ قلت: تعلق بعليه، أو بمسلمة، كأنه قيل: وتجب عليه الدية أو يسلمها، إلا حين يتصدقون عليه. ومحلهما النصب على الظرف بتقدير حذف الزمان، كقولهم: اجلس ما دام زيد جالساً. ويجوز أن يكون حالاً من أهله بمعنى "إلا متصدقين" من قوم عدو لكم من قوم كفار أهل الحرب وذلك نحو رجل أسلم في قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم، فعلى قاتله الكفارة إذا قتله خطأ وليس على عاقلته لأهله شيء. لأنهم كفار محاربون. وقيل: كان الرجل يسلم؛ ثم يأتي قومه وهم مشركون

فيغزوهم جيش المسلمين، فيقتل فيهم خطأ لأنهم يظنون كافراً مثلهم "وإن كان من قوم" كفره لهم ذمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمة من الكتابيين، فحكمه حكم مسلم من مسلمين "فمن لم يجد" رقبة، بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليه "ف" عليه "فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله" قبولاً من الله ورحمة منه، من تاب الله عليه إذا قبل توبته يعني شرع ذلك توبة منه، أو نقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه. هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ. ومن ثم روي عن ابن عباس ما روي من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة. وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا: لا توبة له، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة. وناهيك بمحو الشرك دليلاً. وفي الحديث: "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم" وفيه: "لو أن رجلاً قتل بالمشرك وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه" وفيه: "إن هذا الإنسان بنیان الله. ملعون من هدم بنيانه" وفيه: "من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله". والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، وقول ابن عباس بمنع التوبة. ثم لا تدعهم أشعيتهم وطماعتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يحيل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" محمد: 24، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة في قتل الخطأ، لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ فيه حسم للأطماع وأي حسم، ولكن لا حياة لمن تنادي. فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل وهو تناول قوله: "ومن يقتل" أي قاتل كان، من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرج الدليل. فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله.

"يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً" "فتبينوا" وقرئ: فتثبتوا، وهما التفعّل بمعنى الاستفعال. أي اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تنهوكوا فيه من غير روية. وقرئ: السلم. والسلام وهما الاستسلام. وقيل: الإسلام. وقيل: التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام "لست مؤمناً" وقرئ مؤمناً بفتح الميم من آمنه، أي لا تؤمنك، وأصله:

أن مرداس بن فهيك رجلاً من أهل فذك أسلم ولم يسلم من قومه غيره، فغزاهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان عليها غالب بن فضالة الليثي، فهربوا وبقي مرداس لثقتهم بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجداً شديداً وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثم قرأ الآية على أسامة، فقال: يا رسول الله استغفر لي. قال: فكيف بلا إله إلا الله، قال أسامة: فما زال يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر لي وقال: أعتق رقبة. "تبتغون عرض الحياة الدنيا" تطلبون الغنيمة التي هي حطام سريع النفاد، فهو الذي يدعوكم إلى ترك الثبوت وقلة البحث عن حال من تقتلون "فعند الله مغانم كثيرة" يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله "كذلك كنتم من قبل" أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار

الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم "فمن الله عليكم" بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم، وإن صرتم أعلاماً فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم، وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكافة، ولا تقولوا إن تمليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية، فتجعلوه سلماً إلى استباحة دمه وماله وقد حرمهما الله وقوله: "فتبينوا" تكرير للأمر بالتبين ليؤكد عليهم "إن الله كان بما تعملون خبيراً" فلا تتهافتوا في القتل وكونوا محتريزين محتاطين في ذلك. "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، درجاتٍ منه ومغفرةً وكان الله غفوراً رحيماً" "غير أولي الضرر" قرئ بالحركات الثلاث، فالرفع صفة للقاعدون، والنصب استثناء منهم أو حال عنهم، والجر صفة للمؤمنين. والضرر: المرض، أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها. وعن زيد بن ثابت: كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيت السكينة، فوقعت فخذته على فخذتي حتى خشيت أن ترضها، ثم سري عنه فقال: اكتب فكتبت في كتف "لا يستوي القاعدون من المؤمنين" "والمجاهدون" فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى: يا رسول الله، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين. فغشيت السكينة كذلك، ثم قال: اقرأ يا زيد، فقرأت "لا يستوي القاعدون من المؤمنين" فقال غير أولي الضرر قال زيد: أنزله الله وحدها، فألحقها. والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع في الكتف. وعن ابن عباس: لا يستوي القاعدون عن بدر والخارجون إليها. وعن مقاتل: إلى تبوك. فإن قلت: معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان، فما فائدة نفي الاستواء؟ قلت: معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد، ليأنف القاعد ويرفع بنفسه عن الخطأ مثلته، فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته، ونحوه "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" الزمر: 9، أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التعلم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم "فضل الله المجاهدين" جملة موضحة لما نفي من استواء القاعدين والمجاهدين كأنه قيل: ما لهم لا يستوون، فأجيب بذلك. والمعنى على القاعدين غير أولي الضرر لكون الجملة بياناً للجملة الأولى المتضمنة لهذا الوصف "وكلاً" وكل فريق من القاعدين والمجاهدين "وعد الله الحسنى" أي المثوبة الحسنى وهي الجنة وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"لقد خلفتم بالمدينة أقوماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم" وهم الذين صحت نياقتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تموى إلى الجهاد، وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره. فإن قلت: قد ذكر الله تعالى ملصلين درجة ومفضلين درجات، فمن هم؟ قلت: أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضرأ وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم، لأن الغزو فرض كفاية. فإن قلت: لم نصب درجة وأجراً ودرجات؟ قلت: نصب قوله: درجة لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل فضلهم تفضيلة واحدة. ونظيره قولك: ضربه سوطاً، بمعنى ضربه ضربة. وأما أجراً فقد انتصب بفضل، لأنه في معنى أجرهم أجراً ودرجات، ومغفرة، ورحمة: بدل من أجراً، ويجوز أن ينتصب درجات نصب درجة. كما تقول: ضربه أسواطاً بمعنى ضربات، كأنه قيل: وفضله تفضيلات. ونصب "أجراً عظيماً" على أنه حال عن النكرة التي هي درجات مقدمة عليها، وانتصب مغفرة ورحمة بإضمار فعلهما بمعنى: وغفر لهم ورحمهم، مغفرة

ورحمة.

"إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً" "توفاهم" يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ: توفتهم. ومضارعاً بمعنى تتوفاهم، كقراءة من قرأ: توفاهم، على مضارع وفيت، بمعنى أن الله يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفوهم. أي يمكنهم من استيفائها فيستوفوهم "ظالمي أنفسهم" في حال ظلمهم أنفسهم "قالوا" قال الملائكة للمتوفين "فيمكنتم" في أي شيء كنتم من أمر دينكم. وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة. فإن قلت: كيف صح وقوع قوله: "كنا مستضعفين في الأرض" جواباً عن قولهم: "فيم كنتم"؟ وكان حق الجواب أن يقولوا: كنا في كذا أو لم نكن في شيء؟ قلت: معنى "فيم كنتم" التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين، حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا، فقالوا: كنا مستضعفين اعتذاراً مما ونحو به واعتلالاً بالاستضعاف، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء، فبكثتهم الملائكة بقوله: "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة. وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة - حقت عليه المهاجرة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام". اللهم إن كنت تعلم أن هجري إليك لم تكن إلا للفرار بديني فاجعلها سبباً في خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك والمبتغى من رحمتك وصل جوارى لك بعكوفي عند بيتك، بجوارك في دار كرامتك يا واسع المغفرة، ثم استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة في الخروج لفقرهم وعجزهم ولا معرفة لهم بالمسالك. وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بهذه الآية إلى مسلمي مكة، فقال جندب بن ضمرة أو ضمرة بن جندب لنبیه: احملوني، فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة. فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً فمات بالتنعيم.

فإن قلت: كيف أدخل الولدان في جملة المستثنى من أهل الوعيد، كأنهم كانوا يستحقون الوعيد مع الرجال والنساء لو استطاعوا حيلة واهتدوا سبيلاً؟ قلت: الرجال والنساء قد يكونون مستطيعين مهتدين وقد لا يكونون كذلك. وأما الولدان فلا يكونون إلا عاجزين عن ذلك، فلا يتوجه عليهم وعيد، لأن سبب خروج الرجال والنساء من جملة أهل الوعيد إنما هو كونهم عاجزين، فإذا كان العجز متمكناً في الولدان لا ينفكون عنه، كانوا خارجين من جملة من ضرورة. هذا إذا أريد بالولدان الأطفال ويجوز أن يراد المراهقون منهم الذين عقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقوا بهم في التكليف. وإن أريد بهم العبيد والإماء البالغون فلا سؤال. فإن قلت: الجملة التي هي "لا يستطيعون"

ما موقعها؟ قلت: هي صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان. وإنما جاز ذلك والجمل نكرات، لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف فليس لشيء بعينه، كقوله:

ولقد أمر على اللئيم يسبني

فإن قلت: لم قيل "عسى الله أن يعفو عنهم" بكلمة الإطماع؟ قلت: للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه، حتى إن المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عني، فكيف بغيره. "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعةً ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً" "مراغماً" مهاجراً وطريقاً يراغم بسلكه قومه، أي يفارقهم على رغم أنوفهم. والرغم: الذل والهوان. وأصله لصوق الأنف بالرغام - وهو التراب - يقال: راغمت الرجل إذا فارقتة وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك. قال النابغة الجعدي.

عزيز المراغم والمذهب

كطود يلاذ بأركانه

وقرئ مرغماً. قرئ "ثم يدركه الموت" بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقيل: رفع الكاف منقول من الهاء كأنه أراد أن يقف عليها، ثم نقل حركة الهاء إلى الكاف، كقوله:

من عنزي سبني لم أضربه

وقرئ يدركه بالنصب على إضمار أن، كقوله:

والحق بالحجاز فأستريحاً

"فقد وقع أجره على الله" فقد وجب ثوابه عليه: وحقيقة الوجوب: الوقوع والسقوط "إذا وجبت جنوبها" الحج: 36، ووجبت الشمس: سقط قرصها. والمعنى: فقد علم الله كيف يثيبه وذلك واجب عليه. وروي في قصة جندب بن ضمرة: أنه لما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك. فمات حميداً فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو توفي بالمدينة لكان أتم أجراً، وقال المشركون وهم يضحكون: ما أدرك هذا ما طلب. فترلت. وقالوا: كل هجرة لغرض ديني - من طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة وزهداً في الدنيا، أو ابتغاء رزق طيب - فهي هجرة إلى الله ورسوله. وإن أدركه الموت في طريقه، فأجره واقع على الله. "وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً" الضرب في الأرض: هو السفر، وأدنى مدة السفر الذي يجوز فيه القصر عند أبي حنيفة: مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن بسير الإبل ومشى الأقدام على القصد، ولا اعتبار بإبطاء الضارب وإسراعه. فلو سار مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن في يوم، قصر. ولو سار مسيرة يوم في ثلاثة أيام، لم يقصر. وعند الشافعي أدنى مدة السفر أربعة برد مسيرة يومين. وقوله: "فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة" ظاهره التخيير بين القصر والإتمام، وأن الإتمام أفضل. وإلى التخيير ذهب الشافعي. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه أتم في السفر. وعن عائشة رضي الله عنها: اعتمدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قلت يا

رسول الله، بأي أنت وأمي، قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت. فقال: أحسنت يا عائشة وما عاب علي. وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر. وعند أبي حنيفة رحمه الله: القصر في السفر عزيمة غير رخصة لا يجوز غيره. وعن عمر رضي الله عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم. وعن عائشة رضي الله عنها: أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين، فأقرت في السفر، وزيدت في الحضر. فإن قلت: فما تصنع بقوله: "فليس عليكم جناح أن تقصروا"؟ قلت: كأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ويطمئنون إليه. وقرئ: تقصروا من أقصر. وجاء في الحديث إقصار الخطبة، بمعنى تقصيرها. وقرأ الزهري تقصروا بالتشديد. والقصر ثابت بنص الكتاب في حال الخوف خاصة، وهو قوله: "إن خفتهم أن يفتنكم الذين كفروا" وأما في حال الأمن فبالسنة، وفي قراءة عبد الله: من الصلاة أن يفتنكم ليس فيها "وإن خفتهم" على أنه مفعول له، بمعنى: كراهة أن يفتنكم. والمراد بالفتنة: القتال والتعرض بما يكره.

"وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفةً منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفةً أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدةً ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرهم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً، فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً"

"وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة" يتعلق بظاهره من لا يرى صلاة الخوف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث شرط كونه فيهم، وقال من رآها بعده: إن الأئمة نواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل عصر، قوام بما كان يقوم به فكان الخطاب له متناولاً لكل إمام يكون حاضر الجماعة في حال الخوف، عليه أن يؤمهم كما أم رسول الله صلى الله عليه وسلم الجماعات التي كان يحضرها. والضمير في فيهم للخاصين "فلتقم طائفةً منهم معك" فاجعلهم طائفتين فلتقم إحدهما معك فصل بهم "وليأخذوا أسلحتهم" الضمير إما للمصلين وإما لغيرهم فإن كان للمصلين فقالوا: يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر ونحوهما. وإن كان لغيرهم فلا كلام فيه "فإذا سجدوا فليكونوا" يعني غير المصلين "من ورائكم" يحرسونكم وصلة صلاة الخوف عند أبي حنيفة: أن يصلي الإمام بإحدى الطائفتين ركعة إن كانت الصلاة ركعتين - والأخرى بإزاء العدو - ثم تقف هذه الطائفة بإزاء العدو وتأتي الأخرى فيصلّي بها ركعة ويتم صلاته. ثم تقف بإزاء العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تحرس، وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها. والسجود على ظاهره عند أبي حنيفة. وعند مالك بمعنى الصلاة، لأن الإمام يصلي عنده بطائفة ركعة ويقف قائماً حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب، ثم يصلي بالثانية ركعة ويقف قاعداً حتى تتم صلاتها. ويسلم بهم ويعضده "ولتأت طائفةً أخرى لم يصلوا فليصلوا معك". وقرئ: وأمتعتكم: فإن قلت: كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ. قلت: جعل الحذر وهو التحرز واليقظ آلة يستعملها الغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ، وجعلاً مأخوذتين. ونحوه قوله تعالى:

"والذين تبوءوا الدار والإيمان" الحشر: 9، جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبواً لتمكنهم فيه فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوء "فيميلون عليكم" فيشدون عليكم شدة واحدة. ورخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب

ما يبلهم من مطر أو يضعفهم من مرض، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهم عليهم العدو. فإن قلت: كيف طابق الأمر بالحذر قوله: "إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً"؟ قلت: الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واعتزازه. فنفي عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أن الله يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه، لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك، وإنما هو تعبد من الله كما قال: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" البقرة: 165، "إذا قضيت الصلاة" فإذا صليتم في حال الخوف والقتال "فاذكروا الله" فصلوها "قياماً" مسايقين ومقارعين "وقعوداً" جاثين على الركب مرامين "وعلى جنوبكم" مثخنين بالجراح "إذا اطمأننتم" حين تضع الحرب أوزارها وأمنتهم "فأقيموا الصلاة" فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القلق والانزعاج "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً" محدوداً بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أي حال كنتم، خوف أو أمن. وهذا ظاهر على مذهب الشافعي رحمه الله في إيجابه الصلاة على المحارب في حالة المسابقة والمشي والاضطراب في المعركة إذا حضر وقتها، فإذا اطمأن فعلية القضاء. وأما عند أبي حنيفة رحمه الله فهو معذور في تركها إلى أن يطمئن. وقيل: معناه فإذا قضيت صلاة الخوف فأديموا ذكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين بالنصرة والتأييد في كافة أحوالكم من قيام وقعود واضطجاع، فإن ما أنتم فيه من خوف وحرب جدير بذكر الله ودعائه واللجأ إليه "إذا اطمأننتم" فإذا أقمتم "فأقيموا الصلاة" فأتموها.

"ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً"

"ولا تهنوا" ولا تضعفوا ولا تتوانوا "في ابتغاء القوم" في طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم، ثم ألزمهم الحجة بقوله: "إن تكونوا تألمون" أي ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه وتشجعون. فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أولى منهم بالصبر لأنكم "ترجون من الله ما لا يرجون" من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة. وقرأ الأعرج: أن تكونوا تألمون، بفتح الهمزة، بمعنى: ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون. وقوله: "فإنهم يألمون كما تألمون" تعليل. وقرئ: فإنهم ييلمون كما تيلمون. وروي أن هذا في بدر الصغرى، كان بهم جراح فتواكلوا "وكان الله عليماً حكيماً" لا يكلفكم شيئاً ولا يأمركم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم.

"إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً، واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً" روي: أن طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر سرق درعاً من جارية له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها، وما له بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال: دفعها إلي طعمة، وشهد له ناس من اليهود. فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودي. وقيل: هم أن يقطع يده فترلت. وروي أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله. "بما أراك الله" بما عرفك وأوحى به إليك. وعن عمر رضي الله عنه: لا يقولن

أحدكم قضيت بما أراي الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم، ولكن ليجتهد رأيه، لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً، لأن الله كان يريه إياه، وهو منا الظن والتكلف "ولا تكن للخائنين خصيماً" ولا تكن لأجل الخائنين محاصماً للبراء. يعني لا تحاصم اليهود لأجل بني ظفر "واستغفر الله" مما هممت به من عقاب اليهودي.

"ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما تعملون محيطاً، ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً، ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً"

"يختانون أنفسهم" يخونونها بالمعصية. كقوله: "علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم" البقرة: 187، جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلماً لها: لأن الضرر راجع إليهم. فإن قلت: لم قيل "للخائنين" و "يختانون أنفسهم" وكان السارق طعمة وحده؟ قلت: لوجهين، أحدهما: أن بني ظفر شهدوا له بالبراءة ونصروه، فكانوا شركاء له في الإثم. والثاني: أنه جمع ليتناول طعمة وكان من خان خيانتها، فلا تحاصم لخائن قط ولا تجادل عنه. فإن قلت: لم قيل "خواناً أثيماً" على المبالغة؟ قلت: كان الله عالماً من طعمة بالإفراط في الخيانة وركوب المآثم، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك في حاله. وقيل: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر رضي الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه. فقال: كذبت، إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة "يستخفون" يستترون "من الناس" حياء منهم وخوفاً من ضررهم "ولا يستخفون من الله" ولا يستحيون منه "وهو معهم" وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليهم خاف من سرهم، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم، مع علمهم إن كانوا مؤمنين أنهم في حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتصاح "يبيتون" يدبرون ويزورون وأصله أن يكون بالليل "ما لا يرضى من القول" وهو تدبير طعمة أن يرمي بالدرع في دار زيد ليسرق دونه ويحلف ببراءته. فإن قلت: كيف سمى التدبير قولاً، وإنما هو معنى في النفس؟ قلت لما حدث بذلك نفسه سمي قولاً على المجاز. ويجوز أن يراد بالقول: الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيته، وتوريكه الذنب على اليهودي "ها أنتم هؤلاء" ها للتنبيه في أنتم. وأولاء، وهما مبتدأ وخبر. و "جادلتم" جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً، كما تقول لبعض الأسخياء: أنت حاتم، تجود بمالك، وتؤثر على نفسك. ويجوز أن يكون أولاء اسماً موصولاً بمعنى الذين، وجادلتم صلتها. والمعنى: هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وقومه في الدنيا. فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرأ عبد الله: عنه، أي عن طعمة "وكيلاً" حافظاً ومحامياً من بأس الله وانتقامه "ومن يعمل سوءاً" قبيحاً متعدياً يسوء به غيره، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي "أو يظلم نفسه" بما يختص به كالحلف الكاذب. وقيل: ومن يعمل سوءاً من ذنب دون الشرك. أو يظلم نفسه بالشرك. وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة لتلزمه الحجة، مع العلم بما يكون منه. أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذب عنه.

"ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليمًا حكيمًا، ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد

احتمل بهتاناً وإثماً مبيئاً" فإنما يكسبه على نفسه" أي لا يتعداه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء "خطيئة" صغيرة "أو إثماً" أو كبيرة "ثم يرم به بريئاً" كما رمى طعنة زيدا "فقد احتمل بهتاناً وإثماً" لأنه بكسب الإثم آثم وبرمي البريء باهت فهو جامع بين الأمرين. وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: ومن يكسب، بكسر الكاف والسين المشددة وأصله يكتسب.

"ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً" "ولولا فضل الله عليك ورحمته" أي عصمته وألطافه وما أوحى إليك من الاطلاع على سرهم "لهمت طائفة منهم" من بني ظفر "أن يضلوك" عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل، مع علمهم بأن الجاني هو صاحبهم، فقد روي أن نساء منهم كانوا يعلمون كنه القصة "وما يضلون إلا أنفسهم" لأن وباله عليهم "وما يضرونك من شيء" لأنك إنما عملت بظاهر الحال، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك "وعلمك ما لم تكن تعلم" من خفيات الأمور وضماير القلوب، أو من أمور الدين والشرائع. ويجوز أن يراد بالطائفة بنو ظفر، ويرجع الضمير في منهم إلى الناس. وقيل: الآية في المنافقين.

"لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً"

"لا خير في كثير من نجواهم" من تناجي الناس "إلا من أمر بصدقة" إلا نجوى من أمر، على أنه مجرور بدل من كثير، كما تقول: لا خير في قيامهم غلا قيام زيد. ويجوز أن يكون منصوباً على الانقطاع، بمعنى: ولكن من أمر بصدقة، ففي نجواه الخير. وقيل: المعروف القرض. وقيل: إغاثة الملهوف. وقيل: هو عام في كل جميل.

ويجوز أن يراد بالصدقة الواجب والمعروف ما يتصدق به على سبيل التطوع. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله" وسمع سفيان رجلاً يقول:

ما أشد هذا الحديث. فقال: ألم تسمع الله يقول: "لا خير في كثير من نجواهم" فهو هذا بعينه أو ما سمعت يقول

"والعصر إن الإنسان لفي خسر" العصر: 1-2، فهذا هو بعينه. وشرط في استيجاب الأجر العظيم أن ينوي فاعل الخير عبادة الله والتقرب به إليه، وأن يتنهي به وجهه خالصاً. لأن الأعمال بالنيات. فإن قلت: كيف قال: "إلا من أمر" ثم قال: "ومن يفعل ذلك"؟ قلت: قد ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله، لأنه إذا دخل الأمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل. ثم قال: "ومن يفعل ذلك" فذكر الفاعل وقرن به الوعد بالأجر العظيم، ويجوز أن يراد: ومن يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر الأفعال، وقرئ: يؤتيه، بالياء.

"ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً، لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً، ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً، يعدهم ويمنينهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً" ويتبع غير سبيل المؤمنين" وهو السبيل الذي هم عليه من الدين الخفيفي القيم، وهو دليل على أن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها، كما

لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة، لأن الله عز وعلا جمع بين اتباع سبيل غير المؤمنين، وبين مشاققة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجباً كمواالات الرسول عليه الصلاة والسلام. قوله: "نوله ما تولى" نجعله والياً لما تولى من الضلال، بأن نخذله ونخلي بينه وبين ما اختاره "ونصله جهنم" وقرئ: ونصله، بفتح النون، من صلاه. وقيل: هي في طعمة وارتداده وخروجه إلى مكة "إن الله لا يغفر أن يشرك به" تكرير للتأكيد، وقيل: كرر لقصة طعمة، وروي: أنه مات مشركاً. وقيل:

جاء شيخ من العرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني شيخ منهمك في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً ولا مكابرة له، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب مستغفر، فما ترى حالي عند الله؟ فزلت. وهذا الحديث ينصر قول من فسر "من يشاء" بالتائب من ذنبه "إلا إنائاً" هي اللات والعزى ومناة. وعن الحسن لم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بني فلان. وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم هن بنات الله. وقيل: المراد الملائكة. لقولهم: الملائكة بنات الله. وقرئ: أنثاً جمع أنثى أو أناث. ووثناً. وأنث، بالتخفيف والتثقيل جمع وثن، كقولك أسد وأسد وأسد. وقلب الواو ألفاً نحو أجوه في وجوه. وقرأت عائشة رضي الله عنها: أوثاناً "وإن يدعون" وإن يعبدون بعبادة الأصنام "إلا شيطاناً" لأنه هو الذي أغراهم على عبادتها فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة. و"لعنه الله وقال لأتخذن" صفتان بمعنى شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع "نصيياً مفروضاً" مقطوعاً واجباً فرضته لنفسه من قولهم: فرض له في العطاء، وفرض الجند رزقه. قال الحسن: من كل ألف تسعمائة وتسعين إلى النار "ولأمنينهم" الأمانى الباطلة من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ونحو ذلك. وتبتيكهم الأذان فعلهم بالبجائر، كانوا يشقون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرموها على أنفسهم الانتفاع بها. وتغيرهم خلق الله: فقء عين الحامي وإعفاؤه عن الركوب. وقيل: الخصاء، وهو في قول عامة العلماء مباح في البهائم. وأما في بني آدم فمحظور. وعند أبي حنيفة: يكره شراء الخصيان وإمساكهم واستخدامهم، لأن الرغبة فيهم تدعو إلى خصائهم. وقيل: فطرة الله التي هي دين الإسلام، وقيل للحسن: إن عكرمة يقول هو الخصاء، فقال: كذب عكرمة، هو دين الله. وعن ابن مسعود: هو الوشم. وعنه: "لعن الله الواشرات والمتنمصات والمستوشمات المغيرات خلق الله". وقيل: النخنت.

"والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قبلاً" "وعد الله حقاً" مصدران: الأول مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره "ومن أصدق من الله قبلاً" تأكيد ثالث بليغ. فإن قلت: ما فائدة هذه التوكيدات؟ قلت: معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، ترغيباً للعباد في إثبات ما يستحقون به تنجز وعد الله، على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان.

"ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً، ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً" في "ليس" ضمير وعد الله، أي ليس ينال ما وعد الله من الثواب "بأمانيكم ولا" ب "أمانى أهل الكتاب" والخطاب

للمسلمين لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به، وكذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان بوعد الله. وعن مسروق والسدي: هي في المسلمين. وعن الحسن: ليس الإيمان بالتبني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته العمل، إن قوماً أهدتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا في الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له. وقيل: إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبياكم، وكتابنا قبل كتابكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله. فترلت. ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركون لقولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً "الأوتين مالاً وولداً" مريم: 77، "إن لي عنده للحسنى" فصلت: 50، وكان أهل الكتاب يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه. لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، ويعضده تقدم ذكر أهل الشرك قبله. وعن مجاهد: إن الخطاب للمشركون. قوله: "من يعمل سوءاً يجز به" وقوله: "ومن يعمل من الصالحات" بعد ذكر تبني أهل الكتاب، نحو من قوله: "بلى من كسب سيئاً وأحاطت به خطيئته" البقرة: 81، وقوله: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات" عقيب قوله: "وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة" البقرة: 80، وإذا أبطل الله الأمانى وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل، وأن من أصلح عمله فهو الفائز. ومن أساء عمله فهو الهالك: تبين الأمر ووضح، ووجب قطع الأمانى وحسم المطامع، والإقبال على العمل الصالح. ولكنه فصيح لا تعيه الآذان ولا تلقى إليه الأذهان. فإن قلت: ما الفرق بين من الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعض، أراد ومن يعمل بعض الصالحات؛ لأن كلا لا يتمكن من عمل كل الصالحات لاختلاف الأحوال، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه. وكم من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال. والثانية لتبيين الإبهام في "ومن يعمل" فإن قلت: كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون الراجع في ولا يظلمون لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً. والثاني أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالاً على ذكره عند الآخر، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم، ولأن ظلم المسيء أن يزداد في عقابه، وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزيد في عقاب الجرم، فكان ذكره مستغنى عنه وأما أحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب، فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب. فكان نفي الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان في الفضل. "ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً" "أسلم وجهه لله" أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه "وهو محسنٌ" وهو عامل للحسنات تارك للسيئات "حنيفاً" حال من المتبع، أو من إبراهيم كقوله: "بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" البقرة: 135، وهو الذي تخفف أي مال عن الأديان كلها إلى دين الإسلام "واتخذ الله إبراهيم خليلاً" مجاز عن اصطفاؤه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله. والخليل: المخال، وهو الذي يخالك أي يوافقك في خالك، أو يسارك في طريقك، من الخل: وهو الطريق في الرمل، أو يسد خللك كما تسد خلله، أو يداخلك خلال منازلك وحجبتك. فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب، كنعو ما يجيء في الشعر من قولهم:

.....والحوادث جمّة

فائدتهما تأكيد وجوب اتباع ملته، لأن من بلغ من الزلّفى عند الله أن اتخذهُ خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته. ولو جعلتها معطوفة على الجملة قبلها لم يكن لها معنى. وقيل: إن إبراهيم عليه السلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه. فقال خليله: لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت، ولكنه يريدُها للأضياف، فاجتاز غلمانهُ ببطحاء لينة فملؤا منها الغرائر حياء من الناس. فلما أخبروا إبراهيم عليه السلام ساءه الخبر، فحملته عيناه وعمدت امرأته إلى غرارة منها فأخرجت أحسن حوارى، واختبرت واستنبه إبراهيم عليه السلام فاشتتم رائحة الخبز، فقال: من أين لكم؟ فقالت امرأته: من خليلك المصري. فقال: بل من عند خليلي الله عز وجل، فسماه الله خليلاً.

"والله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً" "والله ما في السموات وما في الأرض" متصل بذكر العمال الصالحين والطالحين. معناه: أن له ملك أهل السموات والأرض، فطاعته واجبة عليهم "وكان الله بكل شيء محيطاً" فكان عالماً بأعمالهم فمجازيهم على خيرها وشرها. فعليهم أن يختاروا لأنفسهم ما هو أصلح لها.

"ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليمًا" "ما يتلى" في محل الرفع. أي الله يفتيكم والمتلو "في الكتاب" في معنى يتامى، يعني قوله: "وإن خفتن أن لا تقسطوا في يتامى" النساء: 3، وهو من قولك: أعجبتني زيد وكرمه. ويجوز أن يكون. "ما يتلى عليكم" مبتدأ و"في الكتاب: خبره على أنها جملة معترضة، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ تعظيماً للمتلو عليهم، وأن العدل والنصفة في حقوق يتامى من عظام الأمور المرفوعة الدرجات عند الله التي تجب مراعاتها والحفاظة عليها، والمخل بها ظالم متهاون بما عظمه الله. ونحوه في تعظيم القرآن: "وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم" الزخرف: 4، ويجوز أن يكون مجروراً على القسم، كأنه قيل: قل الله يفتيكم فيهن، وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب. والقسم أيضاً معنى التعظيم، وليس بسديد أن يعطف على المجرور في فيهن، لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى، فإن قلت بم تعلق قوله: "في يتامى النساء؟ قلت: في الوجه الأول هو صلة يتلى أي يتلى عليكم في معناه. ويجوز أن يكون في يتامى النساء بدلاً من فيهن وأما في الوجهين الآخرين فبدل لا غير. فإن قلت: الإضافة في يتامى النساء ما هي؟ قلت: إضافة بمعنى من كقولك: عندي سحق عمامة. وقرئ: في ييامى النساء بياءين على قلب همزة أيامى ياء "لا تؤتوهن ما كتب لهن" وقرئ: ما كتب الله لهن. أي ما فرض لهن من الميراث. وكان الرجل منهم يضم اليتيمة إلى نفسه ومالها. فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال، وإن كانت دميعة عضلها عن الزوج حتى تموت فيرثها وترغبون أن تنكحوهن" يحتمل في أن تنكحوهن" لجمالهن، وعن أن تنكحوهن لدمايتهن. وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا جاءه ولي اليتيمة نظر، فإن كانت جميلة غنية قال: زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك، وإن كانت دميعة ولا مال لها قال: تزوجها فانت أحق بها "والمستضعفين" مجرور معطوف على يتامى النساء، وكانوا في الجاهلية إنما يورثون

الرجال القوام بالأمر دون الأطفال والنساء. ويجوز أن يكون خطاباً للأوصياء كقوله: "ولا تبدلوا الخبيث بالطيب" النساء: 2، "وأن تقوموا" مجرور كالمستضعفين بمعنى: يفتيكم في يتامى النساء، وفي المستضعفين. وفي أن تقوموا. ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم، ولا يخلوا أحداً يهتضمهم.

"وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير" وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً"

"خافت من بعلها" توقعت منه ذلك لما لاح لها مخايله وأماراته. والنشوز: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقتها والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن يؤذيها بسبب أو ضرب، والإعراض: أن يعرض عنها بأن يقلل محادثتها ومؤانستها، وذلك لبعض الأسباب من طعن في سن، أو دمامة، أو شيء في خلق أو خلق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك فلا بأس بهما في أن يصلحا بينهما. وقرئ: يصلحا. ويصالحا، بمعنى: يتصالحا، ويصطلحا. ونحو أصلح: اصبر في اصطبر "صلحاً" في معنى مصدر كل واحد من الأفعال الثلاثة. ومعنى الصلح: أن يتصالحا على أن تطيب له نفساً عن القسمة أو عن بعضها.

كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت مكان عائشة من قلبه، فوهبت لها يومها. كما روي أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد فقالت: لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي في كل شهرين فقال: إن في هذا يصلح فهو أحب إلي، فأقرها. أو تهب له بعض المهر، أو كله، أو النفقة؛ فإن لم تفعل فليس له إلا أن يمسكها بإحسان أو يسرحها "والصلح خير" من الفرقة أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة. أو هو خير من الخصومة في كل شيء. أو الصلح خير من الخيور، كما أن الخصومة شر من الشرور وهذه الجملة اعتراض، وكذلك قوله "وأحضرت الأنفس الشح" ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه، يعني أنها مطبوعة عليه والغرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها "وإن تحسنوا" بالإقامة على نساءكم وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصلح "وتتقوا" النشوز والإعراض وما يؤدي إلى الأذى والخصومة "فإن الله كان بما تعملون" من الإحسان والتقوى "خبيراً" وهو يشيكم عليه. وكان عمران بن حطان الخارجي من آدم بني آدم، وامراته من أجملهم، فأجالت في وجهه نظرها يوماً ثم تابعت الحمد لله، فقال: مالك؟ قالت: حمدت الله على أي وإياك من أهل الجنة. قال: كيف؟ قالت: لأنك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت، وقد وعد الله الجنة عباده الشاكرين والصابرين.

"ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً" "ولن تستطيعوا" ومحال أن تستطيعوا العدل "بين النساء" والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، فرفع لذلك عنكم تمام العدل وغايته، وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبدلوا فيه وسعكم وطاقتكم، لأن تكليف ما لا يستطاع داخل في حد الظلم "وما ربك بظالم للعبيد" فصلت: 46، وقيل: معناه أن تعدلوا في الخبة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول "هذه

قسمتي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك" يعني الحبة؛ لأن عائشة رضي الله عنها كانت أحب إليه. وقيل: إن العدل بينهما أمر صعب بالغ من الصعوبة جداً يؤهم أنه غير مستطاع، لأنه يجب أن يسوي بينهما في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والمخالطة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد الحصر يأتي من ورائه، فهو كالأخارج من حد الاستطاعة. هذا إذا كن محبوبات كلهن؛ فكيف إذا مال القلب مع بعضهن "فلا تميلوا كل الميل" فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمتها من غير رضا منها، يعني: أن اجتناب كل الميل مما هو في حد اليسر والسعة؛ فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله. وفيه ضرب من التوبيخ "فتذروها كالمعلقة" وهي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة قال:

هل هي غلا حظةً أو تطليق أو صلفاً أو بين ذاك تعليق

وفي قراءة أبي: فتذروها كالمسجونة. وفي الحديث: "من كانت له امرأتان يميل مع إحدهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل".

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال، فقالت عائشة رضي الله عنها: ألي كل أزواج رسول الله بعث عمر مثل هذا؟ قالوا: لا، بعث إلى القرشيات بمثل هذا وإلى غيرهن بغيره، فقالت: أرفع رأسك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا في القسمة بماله ونفسه. فرجع الرسول فأخبره، فأتهم لمن جميعاً وكان لمعاذ امرأتان، فإذا كان عند إحدهما لم يتوضأ في بيت الأخرى، فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد "وإن تصلحوا" ما مضى من ميلكم وتنداركوه بالتوبة "وتتقوا" فيما يستقبل، غفر الله لكم. "وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيمًا" وقرئ: وإن يتفارقا بمعنى وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه "يغن الله كلاً" يرزقه زوجاً خيراً من زوجه وعيشاً أهنأ من عيشه. والسعة الغني. والمقدرة: والواسع: الغني المقتدر.

"والله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً، والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا" "من قبلكم" متعلق بوصينا، أو بأوتوا "وإياكم" عطف على الذين أوتوا "الكتاب" اسم للجنس يتناول الكتب السماوية "أن اتقوا" بأن اتقوا. وتكون أن المفسرة، لأن التوصية في معنى القول: وقوله: "وإن تكفروا فإن الله" عطف على اتقوا: لأن المعنى: أمرناهم وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإن الله. والمعنى: إن الله الخلق كله وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحقه أن يكون مطاعاً في خلقه غير معصي. يتقون عقابه ويرجون ثوابه. ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من الأمم السالفة ووصيناكم أن اتقوا الله، يعني أنها وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده، لستم بها مخصوصين، لأنهم بالتقوى يسعدون عنده، وبها ينالون النجاة في العاقبة، وقلنا لهم ولكم: وإن تكفروا فإن الله في سمواته وأرضه من الملائكة والثقلين من يوحده ويعبده ويتقوه "وكان الله" مع ذلك "غنياً" عن خلقه وعن عبادته

جميعاً، مستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه وإن لم يحمد أحد منهم وتكرير قوله: "الله ما في السموات وما في الأرض" تقرير لما هو موجب تقواه ليتقوه فيطيعوه ولا يعصوه، لأن الخشية والتقوى أصل الخير كله "إن يشأ يذهبكم" يفنكم ويعدمكم كما أوجدكم وأنشأكم "ويأت بآخرين" ويوجد إنساً آخرين مكانكم أو خلقاً آخرين غير الإنس "وكان الله على ذلك" من الإعدام والإيجاد "قديراً" بليغ القدرة لا يمتنع عليه شيء أرادته، وهذا غضب عليهم وتخويف وبيان لاقتداره. وقيل: هو خطاب لمن كان يعادي رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب. أي: إن يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه.

ويروى: أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ظهر سلمان وقال: "إنهم قوم هذا" يريد أبناء فارس.

"من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً" "من كان يريد ثواب الدنيا" كاجاهد يريد بجهاذه الغنيمة "فعند الله ثواب الدنيا والآخرة" فماله يطلب أحدهما دون الآخر والذي يطلبه أحسهما، لأن من جاهد الله خالصاً لم تخطئه الغنيمة، وله من ثواب الآخرة ما الغنيمة إلى جنبه كلا شيء. والمعنى: فعند الله ثواب الدنيا والآخرة له إن أرادته حتى يتعلق الجزاء بالشرط.

"يا أيها الذين آمنوا كونوا بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوأ أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً"

"قوامين بالقسط" مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تجوروا "شهداء لله" تقيمون شهادتكم لوجه الله كما أمرتم بإقامتها "ولو على أنفسكم" ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم. فإن قلت: الشهادة على الوالدين والأقربين أن تقول: أشهد أن لفلان على والذي كذا، أو على أقاربي. فما معنى الشهادة على نفسه؟ قلت: هي الإقرار على نفسه، لأنه في معنى الشهادة عليها بالزمام الحق لها. ويجوز أن يكون المعنى: وإن كانت الشهادة وبالأ

على أنفسكم، أو على آبائكم وأقاربكم، وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره "إن يكن" إن يكن المشهود عليه "غنياً" فلا تمنع الشهادة عليه لغناه طلباً لرضاه "أو فقيراً" فلا تمنعها ترحمًا عليه "فالله أولى بهما" بالغني والفقير أي بالنظر لهما وإرادة مصلحتهما، ولولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها، لأنه أنظر لعباده من كل ناظر. فإن قلت: لم ثنى الضمير في أولى بهما وكان حقه أن يوحده، لأن قوله: "إن يكن غنياً أو فقيراً" في معنى إن يكن أحد هذين؟ قلت: قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله: "إن يكن غنياً أو فقيراً" لا إلى المذكور، فلذلك ثنى

ولم يفرد، وهو جنس الغني وجنس الفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنسي الغني والفقير، أي بالأغنياء والفقراء، وفي قراءة أبي: فالله أولى بهم وهي شاهدة على ذلك. وقرأ عبد الله: إن يكن غني أو فقير، على كان التامة "أن تعدلوا" يحتمل العدل والعدل، كأنه قيل: فلا تتبعوا الهوى، كراهة أنتعدلوا بين الناس، أو إرادة أن تعدلوا عن الحق "وإن تلوأ أو تعرضوا" وإن تلوأ ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل، أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم وتمنعوها. وقرئ: وإن تلوأ، أو تعرضوا، بمعنى: وإن وليتم إقامة الشهادة أو أعرضتم عن إقامتها "فإن الله كان بما تعملون خبيراً" وبمجازاتكم عليه.

"يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله

وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً" "يا أيها الذين آمنوا" خطاب للمسلمين. ومعنى "آمنوا" اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه "والكتاب الذي أنزل من قبل" المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب، والدليل عليه قوله: "وكتبه" و قرئ: و كتابه على إرادة الجنس. و قرئ: نزل. وأنزل، على البناء للفاعل. وقيل: الخطاب لأهل الكتاب، لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسول وكفروا ببعض. وروي: أنه لعبد الله بن سلام، وأسد وأسيد ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام بن أخت عبد الله بن سلام، وسلمة ابن أخيه، ويامين بن يامين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله، إنا نؤمن بك وبكتابك وموسى والنوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسول، فقال عليه السلام: "بل آمنوا بالله ورسوله محمد و كتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل، فترلت، فأمنوا كلهم. وقيل: هو للمنافقين، كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً. فإن قلت: كيف قيل لأهل الكتاب "والكتاب الذي أنزل من قبل" وكانوا مؤمنين بالنوراة والإنجيل؟ قلت: كانوا مؤمنين فحسب، وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب، فأمرُوا أن يؤمنوا بالجنس كله، ولأن إيمانهم ببعض الكتب لا يصح إيماناً به، لأن طريق الإيمان به هو المعجزة، ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة، فلم يكن إيمانهم إيماناً. وهذا الذي أراد عز وجل في قوله: "ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً" النساء: 150. فإن قلت: لم قيل نزل على رسوله و أنزل من قبل؟ قلت: لأن القرآن نزل مفزاً منجماً في عشرين سنة، بخلاف الكتب قبله، ومعنى قوله: "ومن يكفر بالله" الآية، ومن يكفر بشيء من ذلك "فقد ضل" لأن الكفر ببعضه كفر بكله. ألا ترى كيف قدم الأمر بالإيمان به جميعاً.

"إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم كفروا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً" "لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً" نفي للغفران والهداية وهي اللطف على سبيل المبالغة التي تعطيها اللام، والمراد بنفيهما نفي ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت. والمعنى: إن الذين تكرر منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه، يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله، لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردة، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه، حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأن ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع، لا يكاد يرجي منه الثبات. والغالب أنه يموت على شر حال وأسمج صورة. وقيل: هم اليهود، آمنوا بالنوراة وبموسى ثم كفروا بالإنجيل وبوعيسى. ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

"بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنهم عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً" "بشر المنافقين" وضع بشر مكان: أخبر، تمكماً بهم. و "الذين" نصب على الذم أو رفع بمعنى أريد الذين، أو هم الذين. وكانوا يميلون الكفرة ويوالونهم ويقول بعضهم لبعض: لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود. "فإن العزة لله جميعاً" يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم، وقال: "والله العزة و لرسوله وللمؤمنين"

المنافقون: 8.

"وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستنهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً، الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً" "أن إذا سمعتم" هي أن المخففة من الثقيلة. والمعنى أنه إذا سمعتم، أي نزل عليكم أن الشأن كذا والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها، وأن مع ما في حيزها في موضع الرفع ب نزل، أو في موضع النصب ب نزل، فيمن قرأ به. والمتزل عليهم في الكتاب: هو ما نزل عليهم بمكة من قوله: "وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره" الأنعام: 68، وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزؤون به، فنهى المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة. وكان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار هم المنافقون، فقليل هم إنكم إذا مثل الأحبار في الكفر "إن الله جامع المنافقين والكافرين" يعني القاعدون والمقعود معهم. فإن قلت: الضمير في قوله: "فلا تقعدوا معهم" إلى من يرجع؟ قلت: إلى من دل عليه "يكفر بها ويستنهزأ بها" كأنه قيل: فلا تقعدوا مع الكافرين بها والمستنهزئين بها. فإن قلت: لم يكونوا مثلهم بالمجالسة إليهم في وقت الخوض؟ قلت: لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين. والراضي بالكفر كافر. فإن قلت: فهلا كان المسلمون بمكة - حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين - منافقين؟ قلت: لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم، فكان ترك الإنكار لرضاهم "الذين يتربصون" إما بدل من الذين يتخذون وإما صفة للمنافقين أو نصب على الذم منهم "يتربصون بكم" أي ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق "ألم نكن معكم" مظاهرين فأسهموا لنا في الغيمة "ألم نستحوذ عليكم" ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم "ونمنعكم من المؤمنين" بأن ثبطناهم عنكم. وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبكم ومرضوا في قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم، فهاتوا نصيباً لنا بما أصبتم. وقرئ ونمنعكم بالنصب بإضمار أن، قال الخطيب:

وبينكم المودة والإخاء

ألم أك جاركم ويكون بيني

فإن قلت: لم سمى ظفر المسلمين فتحان وظفر الكافرين نصيباً؟ قلت: تعظيماً لشأن المسلمين وتخسيساً لحظ الكافرين؛ لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى يتزل على أوليائه، وأما ظفر الكافرين، فما هو إلا حظ دني ولطة من الدنيا يصيبونها.

"إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً" "يخادعون الله" يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر "وهو خادعهم" وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يخلهم في العاجل من فضيحة

وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم. والخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه. وقيل: يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين، فينادون: انظرونا نقبّس من نوركم "كسالى" قرئ بضم الكاف وفتحها، جمع كسلان، كسكارى في سكران، أي يقومون متتالين متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئاً على كره لا عن طيبة نفس ورغبة "يراءون الناس" يقصدون بصلاقتهم الرياء والسمعة "ولا يذكرون الله إلا قليلاً" ولا يصلون إلا قليلاً لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به، وما يجاهرون به قليل أيضاً لأنهم ما وجدوا مندوحة من تكلف ما ليس في قلوبهم لم يتكلفوه. أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل إلا ذكراً قليلاً في الندرة، وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبتهم الأيام والليالي لم تسمع منه قليلة ولا تسبيحة ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه. ويجوز أن يراد بالقلّة العدم. فإن قلت: ما معنى المراءة وهي مفاعلة من الرؤية؟ قلت: فيها وجهان، أحدهما: أن المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسانه. والثاني: أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل، فيقال: راءى الناس. يعني رآهم، كقولك: نعمه وناعمه، وفنقه وفائقه وعيش مفائق. روى أبو زيد: رأت المرأة المرأة الرجل، إذا أمسكتها لترى وجهه، ويدل عليه قراءة ابن أبي إسحاق: يراؤهم بمزمة مشددة: مثل. يرعوهم، أي يبصروهم أعمالهم ويرأؤهم كذلك "مذبذبين" إما حال نحو قوله: ولا يذكرون عن واو يراؤن، أي يراؤهم غير ذاكرين مذبذبين، أو منصوب على الذم. ومعنى مذبذبين ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم مترددون بينهما متحIRON. وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين أي يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمى به الرحوان إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه. وقرأ ابن عباس مذبذبين بكسر الهمزة، بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو رأيهم. أو بمعنى يتذبذبون. كما جاء: صلصل وتصلصل بمعنى. وفي مصحف عبد الله. متذبذبين. وعن أبي جعفر: مذبذبين بالدال غير المعجمة وكان المعنى: أخذ بهم تارة في دبة وتارة في دبة، فليسوا بماضين على دبة واحدة. والدبة: الطريقة ومنها: دبة قريش. و"ذلك" إشارة إلى الكفر والإيمان "لا إلى هؤلاء" لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين "ولا إلى هؤلاء" ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين. "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً" لا تتخذوا الكافرين أولياء لا تشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أولياء "سلطاناً" حجة بينة، يعني أن موالاة الكافرين بينة على النفاق. وعن صعصعة بن صوحان أنه قال لابن أخ له: خالص المؤمن، وخالق الكافر والفاجر؛ فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وإنه يحق عليك أن تحالض المؤمن. "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً" "الدرك الأسفل" الطبقة الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك لأنها متدركة متتابعة بعضها فوق بعض، وقرئ بسكون الراء، والوجه التحريك، لقولهم: أدراك جهنم. فإن قلت: لم كان المنافق أشدّ عذاباً من الكافر؟ قلت: لأنه مثله في الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجمهم "وأصلحوا" ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق "واعتصموا بالله" ووثقوا به كما يتق المؤمنون الخالص "وأخلصوا دينهم لله" لا

يبتغون بطاعتهم إلا وجهه "فأولئك مع المؤمنين" فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم في الدارين "وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً" فيشاركونهم فيه ويساهمونهم. فإن قلت: من المنافق؟ قلت: هو في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر. وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به: بالمنافق فللتغليظ، كقوله: "من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر" ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان" وقيل لحذيفة رضي الله عنه: من المنافق؟ فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وقيل لابن عمر: ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه فقال: كنا نعهده من النفاق. وعن الحسن: أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه، فأصبح وقد عمم وقلد وأعطى سيفاً، يعني الحجاج. "ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليمًا" "ما يفعل الله بعذابكم" أيتشفي به من الغيظ، أم يدرك به النار، أم يستجلب به نفعاً، أم يستدفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم، وهو الغني الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك. وإنما هو أمر أوجبه الحكمة أن يعاقب المسيء، فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب "وكان الله شاكراً" مثيباً موفياً أجوركم "عليمًا" بحق شكركم وإيمانكم. فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شاكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شاكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدماً على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره.

"لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليمًا، إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً" "إلا من ظلم" إلا جهر من ظلم، استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم. وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه من السوء. وقيل: هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم "ولمن انتصر بعد ظلمه الشورى: 41، وقيل: ضاف رجل قوماً فلم يطعموه، فأصبح شاكياً، فعوتب على الشكاية فترلت، وقرئ إلا من ظلم على البناء للفاعل للانقطاع. أي ولكن الظالم راكب ما لا يحبه الله فيجهر بالسوء. ويجوز أن يكون من ظلم مرفوعاً، كأنه قيل: لا يحب الله الجهر بالسوء، إلا الظالم على لغة من يقول: ما جاءني زيد إلا عمرو، بمعنى ما جاءني إلا عمرو. ومنه "لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله" النمل: 65، ثم حث على العفو، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار، بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوباً، حثاً على الأحب إليه، والأفضل عنده والأدخل في الكرم والتخشع والعبودية، وذكر إبداء الخير وإخفائه تنبيهاً للعفو، ثم عطفه عليهما اعتداداً به وتنبيهاً على منزلته، وأن له مكاناً في باب الخير وسيطاً والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله: "إن الله كان عفواً قديراً" أي يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله. "إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً"

جعل الذين آمنوا بالله وكفروا برسله أو آمنوا بالله وبيعض رسله وكفروا ببعض كافرين بالله ورسله جميعاً لما ذكرنا من العلة، ومعنى اتخاذهم بين ذلك سبيلاً: أن يتخذوا ديناً وسطاً بين الإيمان والكفر كقوله: "ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً" الإسراء: 110، أي طريقاً وسطاً في القراءة وهو ما بين الجهر والمخافتة. وقد

أخطؤوا، فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان ولذلك قال: "أولئك هم الكافرون حقاً" أي هم الكاملون في الكفر. وحقاً تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هو عبد الله حقاً، أي حق ذلك حقاً، وهو كونهم كاملين في الكفر، أو على صفة لمصدر الكافرين، أي هم الذين كفروا كفراً حقاً ثابتاً يقيناً لا شك فيه.

"والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً" فإن قلت: كيف جاز دخول "بين" على "أحد" وهو يقتضي شيئين فصاعداً؟ قلت: إن أحداً عام في الواحد المذكور والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما، تقول: ما رأيت أحداً، فتقصد العموم، ألا تراك تقول: إلا بني فلان، وإلا بنات فلان؛ فالمعنى: ولم يفرقوا بين اثنين منهم أو بين جماعة ومنه قوله تعالى: "لستن كأحد من النساء" الأحزاب: 32، "سوف يؤتيهم أجورهم" معناه: أن إيتاءها كائن لا محالة وإن تأخر فالغرض به توكيد الوعد وتثنيته لا كونه متأخراً. "يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً، ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً، فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما هم به من علمٍ إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً" روي:

أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازورا وغيرهما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبياً صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى. فترلت. وقيل: كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان أنك رسول الله، وقيل: كتاباً نعاينه حين ينزل. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت، قال الحسن: ولو سألوهم لكي يتبينوا الحق لأعطاهم، وفيما آتاهم كفاية "فقد سألوا موسى" جواب لشرط مقدر. معناه: إن استكبرت ما سألوهم منك فقد سألوا موسى. "أكبر من ذلك" وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آباءهم في أيام موسى وهم النقباء السبعون، لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت "جهرة" عياناً بمعنى أرنا نره جهرة "بظلمهم" بسبب سؤالهم الرؤية. ولو طلبوا أمراً جائزاً لما سموا ظالمين ولما أخذتهم الصاعقة، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى فلم يسمعه ظالماً ولا رماه بالصاعقة، فتنبأ للمشبهة ورمياً بالصواعق "وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً" تسلطاً واستيلاءً ظاهراً عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم حتى يتاب عليهم فأطاعوه، واحتبوا بأفئدتهم والسيوف تتساقط عليهم فيالك من سلطان مبين "بميثاقهم" بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه "وقلنا لهم" والطور مطل عليهم "ادخلوا الباب سجداً" ولا تعدوا في السبت، وقد أخذ منهم الميثاق على ذلك، وقولهم سمعنا وأطعنا، ومعاهدتهم على أن يتموا عليه ثم نقضوه بعد. وقرئ: لا تعتدوا. ولا تعدوا، يادغم التاء في الدال "فبما نقضهم" فنقضهم. و ما مزيدة للتوكيد. فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ وما معنى التوكيد؟ قلت: إما أن يتعلق بمحذوف، كأنه قيل: فيما نقضهم ميثاقهم فعلمنا بهم ما فعلنا، وإما أن يتعلق بقوله: حرماً عليهم" على أن قوله: "فبظلم من الذين هادوا"

النساء: 160، بدل من قوله: "فبما نقضهم ميثاقهم" وأما التوكيد فمعناه تحقيق أن العقاب أو تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد وما عطف عليه من الكفر وقتل الأنبياء وغير ذلك. فإن قلت: هلا زعمت أن الحذوف الذي تعلقت به الباء ما دل عليه قوله: "بل طبع الله عليها" فيكون التقدير: فيما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم، بل طبع الله عليها بكفرهم. قلت: لم يصح هذا التقدير لأن قوله: "بل طبع الله عليها بكفرهم" رد وإنكار لقولهم: "قلوبنا غلف" فكان متعلقاً به، وذلك أنهم أرادوا بقولهم: قلوبنا غلف أن الله خلق قلوبنا غلفاً، أي في أكنة لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة، كما حكى الله عن المشركين وقالوا: "لو شاء الرحمن ما عبدناهم" الزخرف: 20، وكمذهب الجبرية أخزاهم الله، فقليل لهم: بل خذها الله ومنعها الألفاظ بسبب كفرهم، فصارت كالمطبوع عليها، لا أن تخلق غلفاً غير قابلة للذكر ولا متمكنة من قبوله. فإن قلت: علام عطف قوله: "وبكفرهم"؟ قلت: الوجه أن يعطف على فيما نقضهم ويجعل قوله: "بل طبع الله عليها بكفرهم" كلاماً تبع قوله: "وقالوا قلوبنا غلف" على وجه الاستطراد، يجوز عطفه على ما يليه من قوله: بكفرهم.

فإن قلت: ما معنى الجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه ذكره، سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب، أو على ما بعده، وهو قوله: "وكفرهم بآيات الله" وقوله: "بكفرهم"؟ قلت: قد تكرر منهم الكفر، لأنهم كفروا بموسى، ثم بعبسى، ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه، كأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء وقولهم: قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم، وافتخارهم بقتل عيسى، عاقبناهم. أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا. والبهتان العظيم: هو التزنية. فإن قلت: كانوا كافرين بعبسى عليه السلام، أعداء له، عامدين لقتله، يسمونه الساحر بن الساحرة، والفاعل بن الفاعلة، فكيف قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله؟ قلت: قالوه على وجه الاستهزاء، كقول فرعون "إن رسولكم الذي أرسل إليكم نجون" الشعراء: 27، ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعبسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله: "ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهداً" الزخرف: 9، روي أن رهطاً من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم اللهم أنت ربي وبكلمتك خلقتني، اللهم العن من سبني وسب والدتي، فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير، فأجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويظهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقي عليه شبيهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا. فألقي - عليه شبيهه فقتل وصلب. وقيل: كان رجلاً يوافق عيسى، فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه، فدخل بيت عيسى فرفع عيسى وألقي شبيهه على المناقب، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى، ثم اختلفوا فقال بعضهم: إنه إله لا يصح قتله. وقال بعضهم: إنه قتل وصلب. وقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم رفع إلى السماء وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا. فإن قلت: "شبه" مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح، فالمسيح مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر قلت: هو مسند إلى الجار والجرور وهو "لهم" كقولك خيل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يسند

إلى ضمير المقتول: لأن قوله: إنا قتلنا يدل عليه، كأنه قيل: ولكن شبه لهم من قتلوه "إلا اتباع الظن" استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، يعني: ولكنهم يتبعون الظن.

فإن قلت: قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجانبين، ثم وصفوا بالظن والظن أن يرتجح أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط، ولكن إن لاحت لهم أماراة فظنوا، فذاك "وما قتلوه يقيناً" وما قتلوه قتلاً يقيناً. أو ما قتلوه متيقنين، كما ادعوا ذلك في قولهم: إنا قتلنا المسيح أو يجعل يقيناً تأكيداً لقوله: "وما قتلوه" كقولك: ما قتلوه حقاً أي حق انتفاء قتله حقاً. وقيل: هو من قولهم: قتل الشيء علماً ونحرته علماً إذا تباع فيه علمك. وفيه تمكيم، لأنه إذا نفى عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستغراق. ثم قيل: وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تمكماً بهم "ليؤمنن به" جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به. ونحوه: "وما منا إلا له مقام معلوم" الصفات: 164، "وإن منكم إلا واردها" مريم: 71، والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته ببعيسى، وبأنه عبد الله ورسوله، يعني: إذا عاين قبل أن ترهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. وعن شهر بن حوشب: قال لي الحجاج: آية ما قرأتما إلا تحالج في نفسي شيء منها يعني هذه الآية، وقال: إني أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك، فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا: يا عدو الله، أتاك موسى نبياً فكذبت به فيقول: آمنت أنه عبد نبي. وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه. قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إلي وقال: ممن؟ قلت: حدثني محمد بن علي ابن الحنفية، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية، أو من معدنها. قال الكلبي: فقلت له: ما أردت إلى أن تقول حدثني محمد بن علي ابن الحنفية. قال: أردت أن أغيظه، يعني بزيادة اسم علي، لأنه مشهور بابن الحنفية.

وعن ابن عباس أنه فسره كذلك، فقال له عكرمة: فإن أتاه رجل فضرب عنقه قال: لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه. قال: وإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به. وتدل عليه قراءة أبي: إلا ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون على معنى: وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم، لأن أحداً يصلح للجمع. فإن قلت: ما فائدة الإخبار بإيمانهم ببعيسى قبل موتهم؟ قلت: فأئذته الوعيد، وليكون علمهم بأنهم لابد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثاً لهم وتنبيهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاماً للحجة لهم، وكذلك قوله: "ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً" يشهد على اليهود بأنهم كذبه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله. وقيل: الضميران لبعيسى، بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن ببعيسى قبل موت بعيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. روي: أنه يتزل من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفونونه. ويجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد

من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به، على أن الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان، ويعلمهم نزوله وما أنزل له، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم. وقيل: الضمير في به يرجع إلى الله تعالى. وقيل: إلى محمد صلى الله عليه وسلم. "فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد هؤوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً، لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً"

"فبظلم من الذين هادوا" فبأي ظلم ظلم منهم. والمعنى ما حرمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبه. وهو ما عدد لهم من الكفر والكبائر العظيمة. والطيبات التي حرمت عليهم: ما ذكره في قوله: "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر" الأنعام: 146، وحرمت عليهم الألبان، وكلما أذنبوا ذنباً صغيراً أو كبيراً حرم عليهم بعض الطيبات في المطاعم وغيرها "وبصدهم عن سبيل الله كثيراً" ناساً كثيراً أو صديقاً كثيراً "بالباطل" بالرشوة التي كانوا يأخذونها من سفلتهم في تحريف الكتاب "لكن الراسخون" يريد من آمن منهم، كعبد الله بن سلام وأضرابه، والراسخون في العلم الثابتون فيه المتقنون المستبصرون "والمؤمنون" يعني المؤمنين منهم، أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار. وارتفع الراسخون على الابتداء.

"والمؤمنون" خبره. "والمقيمين" نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع. وقد كسره سيويه على أمثلة وشواهد. ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف. وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتتان، وغبي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه، من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدها من بعدهم وخرقاً يرفوه من يلحق بهم. وقيل: هو عطف على "بما أنزل إليك" أي يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء. وفي مصحف عبد الله: والمقيمون، بالواو. وهي قراءة مالك بن دينار، والجحدري، وعيسى الثقفي.

"إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلمك عليك وكلم الله موسى تكليماً، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً" "إنا أوحينا إليك" جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزل عليهم كتاباً من السماء. واحتجاج عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا. وقرئ زبوراً بضم الزاي جمع زبر وهو الكتاب "ورسلاً" نصب بمضمرة في معنى: أوحينا إلينا وهو: أرسلنا، ونبأنا، وما أشبه ذلك. أو بما فسره قصصناهم. وفي قراءة أبيك ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم. وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب: أنهما قرآ "وكلم الله" بالنصب. ومن بدع التفاسير أنه من الكلم، وأن معناه وجرح الله موسى بأظفار الخن ومخالبة الفتى "رسلاً مبشرين ومنذرين" الأوجه أن ينتصب على المدح. ويجوز انتصابه على التكرير. فإن قلت: كيف يكون

للناس على الله حجة قبل الرسل، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟ قلت: الرسل منبهون عن الغفلة، وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتنميماً للإلزام الحجة، لنلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له. وقرأ السلمي: لكن الله يشهد، بالتشديد. فإن قلت: الاستدراك لا بد له من مستدرك فيما هو قوله: "ولكن الله يشهد"؟ قلت: لما سأل أهل الكتاب إنزال الكتاب من السماء وتعتنوا بذلك واحتج عليهم بقوله: "إنا أوحينا إليك" قال: لكن الله يشهد، بمعنى أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد. وقيل: لما نزل "إنا أوحينا إليك" قالوا: ما نشهد لك بهذا، فتر "لكن الله يشهد" ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه: إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات. وشهادة الملائكة: شهادتهم بأنه حق وصدق. فإن قلت: بم يجابون لو قالوا: بم يعلم أن الملائكة يشهدون بذلك؟ قلت: يجابون بأنه يعلم بشهادة الله، لأنه لما علم بإظهار المعجزات أنه شاهد بصحته علم أن الملائكة يشهدون بصحة ما شهد بصحته؛ لأن شهادتهم تتبع لشهادته. فإن قلت: ما معنى قوله: "أنزله بعلمه" وما موقعه من الجملة التي قبله؟ قلت: معناه أنزله ملتبساً بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره، وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان، وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة، وأن شهادته بصحته أنه أنزله بالنظم المعجز الفائق للقدرة. وقيل أنزله وهو عالم بأنك أهل لانزاله إليك وأنتك مبلغه. وقيل: أنزله بما علم من مصالح العباد مشتملاً عليه. ويحتمل: أنه أنزل وهو عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة، والملائكة يشهدون بذلك، كما قال في آخر سورة الجن. ألا ترى إلى قوله تعالى: "وأحاط بما لديهم" الجن: 8، والإحاطة بمعنى العلم "وكفى بالله شهيداً" وإن لم يشهد غيره، لأن التصديق بالمعجزة هو الشهادة حقاً "قل أي شيء أكبر شهادة قل الله الأنعام: 19.

"إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً، إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً، إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً" "كفروا وظلموا" جمعوا بين الكفر والمعاصي، وكان بعضهم كافرين وبعضهم ظالمين أصحاب كبائر، لأنه لا فرق بين الفريقين في أنه لا يغفر لهما إلا بالتوبة "ولا ليهديهم طريقاً" لا يلطف بهم فيسلكون الطريق الموصل إلى جهنم. أو لا يهديهم يوم القيامة طريقاً إلا طريقها "يسيراً" أي لا صارف له عنه.

"يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً، يا أهل التاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً"

"فآمنوا خيراً لكم" وكذلك "انتهوا خيراً لكم" انتصابه بمضمر، وذلك أنه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم على أمر فقال: "خيراً لكم" أي اقصدا، أو اتنوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث. وهو الإيمان والتوحيد "لا تغلوا في دينكم" غلت اليهود في حط المسيح عن منزلته، حيث جعلته مولوداً

لغير رشدة. وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلهاً "ولا تقولوا على الله إلا الحق" وهو تزييه عن الشريك والولد. وقرأ جعفر بن محمد إنما المسيح بوزن السكيت. وقيل لعيسى كلمة الله وكلمة منه لأنه وجد بكلمته وأمره لا غير، من غير واسطة أب ولا نطفة. وقيل له: روح الله، وروح منه، لذلك، لأنه ذو روح وجد من غير جزء من ذي روح، كالنطفة المنفصلة من الأب الحي وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة. ومعنى "ألقاها إلى مريم" أوصلها إليها وحصلها فيها "ثلاثة" خبر مبتدأ محذوف، فإن صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون: هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم، أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس. وأهم يريدون بأقنوم الأب: الذات، وبأقنوم الابن: العلم، وبأقنوم روح القدس: الحياة، فتقديره الله ثلاثة؛ وإلا فتقديره: الآلهة ثلاثة. والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله: "أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله" المائدة: 116، "وقالت النصارى المسيح ابن الله" التوبة: 30، والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم. ويدل عليه قوله: "إنما المسيح عيسى ابن مريم" فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها، وأن اتصاله بالله تعالى من حيث أنه رسوله، وأنه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب، فنفي أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء. وقوله: "سبحانه أن يكون له ولد" سبحة تسبيحاً من أن يكون له ولد. وقرأ الحسن: إن يكون، بكسر الهمزة ورفع النون: أي سبحانه ما يكون له ولد. على أن الكلام جملتان "له ما في السموات وما في الأرض" بيان لتزهره عما نسب إليه، يعني أن كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض "وكفى بالله وكيلاً" يكل إليه الخلق كلهم أمورهم، فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه.

"لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً" "لن يستنكف المسيح" لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة، من نكفت الدمع، إذا نحته عن خدك بأصابعك "ولا الملائكة المقربون" ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن في طبقتهم. فإن قلت: من أين دل قوله: "ولا الملائكة المقربون" على أن المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك. وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة، كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية، فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بيّنة، تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلامهم منزلة. ومثاله قول القائل:

وما مثله ممن يجاود حاتمٌ ولا البحر ذو الأمواج يلتج زاخره

لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذي الأمواج: ما هو فوق حاتم في الجود. ومن كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى" البقرة: 120، حتى يعترف بالفرق بين. وقرأ علي رضي الله عنه: عبداً لله، على التصغير. وروي

أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى. قال: وأي شيء أقول؟ قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله. قال: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله. قالوا: بلى، فترلت: أي لا يستنكف عيسى من ذلك فلا تستنكفوا له منه، فلو كان موضع استنكاف لكان هو أولى بأن يستنكف لأن العار ألصق به. فإن قلت: علام عطف قوله: "ولا الملائكة"؟ قلت: لا يخلو إما أن يعطف على المسيح، أو على اسم يكون أو على المستتر في عبداً لما فيه من معنى الوصف، لدلالته على معنى العبادة، كقولك: مررت برجل عبد أبوه، فالعطف على المسيح هو الظاهر لأداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض، وهو أن المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية، أو أن يعبد الله هو ومن فوقه. فإن قلت: قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبداً لله في هذا العطف، فما وجهه؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد: ولا كل واحد من الملائكة أو ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة عبداً لله عليه إيجازاً. وأما إذا عطفهم على الضمير في عبداً فقد طاح هذا السؤال. قرئ فسيحشرهم بضم الشين وكسرهما وبالنون.

"فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً، يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً" فإن قلت: التفصيل غير مطابق للمفصل؛ لأنه اشتمل على الفريقين، والمفصل على فريق واحد. قلت: هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكل به، وصحة ذلك لوجهين، أحدهما: أن يحذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه، ولأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا "فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به" والثاني، وهو أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم، فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم فكأنه قيل: ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله. البرهان والنور المبين: القرآن. أو أراد بالبرهان دين الحق أو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالنور المبين: ما يبينه ويصدق من الكتاب المعجز "في رحمة منه وفضل" في ثواب مستحق وتفضل "ويهديهم إليه" إلى عبادته "صراطاً مستقيماً" وهو طريق الإسلام. والمعنى: توفيقهم وتثبيتهم.

"يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانت اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تصلوا والله بكل شيء عليم" روي أنه آخر ما نزل من الأحكام.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة عام حجة الوداع، فأتاه جابر بن عبد الله فقال: إن لي أختاً، فكم آخذ من ميراثها إن ماتت؟ وقيل: كان مريضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني كلاله فكيف أصنع في مالي؟ فترلت "إن امرؤ هلك" ارتفع امرؤ بمضمرة يفسره الظاهر. ومحل "ليس له ولد" الرفع على الصفة لا النصب على الحال. أي: إن هلك امرؤ غير ذي ولد. والمراد بالولد الابن وهو اسم مشترك يجوز إيقاعه على الذكر وعلى الأنثى؛ لأن الابن يسقط الأخت، ولا تسقطها البنت إلا في مذهب ابن عباس، وبالأخت التي هي لأب وأم دون التي لأم، لأن الله تعالى فرض لها النصف وجعل أختها عصبة وقال: "للذكر مثل حظ الأنثيين" وأما الأخت للأم فلها

السدس فيآية المواريث مسوى بينها وبين أخيها "وهو يرثها" وأخوها يرثها إن قدر الأمر على العكس من موقتها وبقائه بعدها "إن لم يكن لها ولد" أي ابن؛ لأن الابن يسقط الأخ دون البنت. فإن قلت: الابن لا يسقط الأخ وحده فإن الأب نظيره في الإسقاط، فلم اقتصر على نفي الولد؟ قلت: بين حكم انتفاء الولد، ووكل حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة، وهو قوله عليه السلام:

"ألقوا الفرائض بأهلها فما بقي فالأولى عصبه ذكر" والأب أولى من الأخ، وليس بأول حكمين بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة. ويجوز أن يدل بحكم انتفاء الولد على حكم انتفاء الوالد، لأن الولد أقرب إلى الميت من الوالد، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب، فأولى أن يرث عند انتفاء الأبعد، ولأن الكلاله تتناول انتفاء الوالد والولد جميعاً، فكان ذكر انتفاء أحدهما دالاً على انتفاء الآخر. فإن قلت: إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع في قوله: "فإن كانتا اثنتين" وإن كانوا إخوة؟ قلت: أصله: فإن كان من يرث بالأخوة اثنتين، وإن كان من يرث بالأخوة ذكوراً وإناثاً: وإنما قيل: فإن كانتا، وإن كانوا، كما قيل: من كانت أمك. فكما أنت ضمير من لمكان تأنيث الخبر، كذلك ثنى وجمع ضمير من يرث في كانتا وكانوا، لمكان تثنية الخبر وجمعه، والمراد بالإخوة، الإخوة و الأخوات، تغليباً لحكم الذكورة "أن تضلوا" مفعول له. ومعناه: كراهة أن تضلوا. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثاً، وأعطى من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرئ من الشرك وكان في مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم."

سورة المائدة

مدنية وهي مائة وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحرّم ما يريد" يقال وفي بالعهد وأوفي به ومنه: "الموفون بعهدهم" البقرة: 177. والعقد: العهد الموثق، شبه بعقد الحبل ونحوه، قال الخطيب:

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

وهي عقود الله التي عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف. وقيل: هي ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبيعات ونحوها. والظاهر أنها عقود الله عليهم الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبيعات ونحوها. والظاهر أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه وأنه كلام قدم مجملاً ثم عقب بالتفصيل وهو قوله: "أحلت لكم" وما بعده. البهيمة: كل ذات أربع في البر والبحر، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، وهي الإضافة التي بمعنى من كخاتم فضة. ومعناه: البهيمة من الأنعام "إلا ما يتلى عليكم" إلا محرم

ما يتلى عليكم من القرآن، من نحو قوله: "حرمت عليكم الميتة"، أو إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه. والأنعام: الأزواج الثمانية. وقيل: بهيمة الأنعام الطباء وبقر الوحش ونحوها كأنهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيها من جنس البهائم في الاجترار وعدم الأنياب، فأضيفت إلى الأنعام لملايسة الشبه "غير محلي الصيد" نصب على الحال من الضمير في لكم أي أحلت لكم هذه الأشياء لا محلين الصيد. وعن الأخفش أن انتصابه عن قوله: "أوفوا بالعقود" وقوله: "وأنتم حرم" حال عن محلي الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون، لنلا نخرج عليكم "إن الله يحكم ما يريد" من الأحكام، ويعلم أنه حكمة ومصلحة. والحرم: جمع حرام وهو المحرم.

"يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمكم شئنان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب"

الشعائر جمع شعيرة وهي اسم ما اشعر، أي جعل شعاراً وعلماً للنسك، من مواقف الحج ومرامي الجمار، والمطاف، والمسعى، والأفعال التي هي علامات الحج يعرف بها من الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر. والشهر الحرام: شهر الحج. والهدي: ما أهدي إلى البيت وتقرب به إلى الله من النسائك. وهو جمع هدية، كما يقال جدي في جمع جدية السرج والقلائد: جمع قلادة، وهي ما قلده به الهدي من نعل أو عروة مزادة، أو لحاء شجر، أو غيره.

وآمو المسجد الحرام: قاصدوه، وهم الحجاج والعمار. وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بجرمة الشعائر وأن يحال بينها وبين المنتسكين بها، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج، وأن يتعرض للهدي بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله. وأما القلائد ففيها وجهان، أحدهما: أن يراد بها ذوات القلائد من الهدي وهي البدن، وتعطف على الهدي للاختصاص وزيادة التوسية بها لأنها أشرف الهدي، كقوله: "وجبريل وميكال" البقرة: 98، كأنه قيل: والقلائد منها خصوصاً. والثاني: أن ينهي عن التعرض لقلائد الهدي مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، على معنى: ولا تحلوا قلائدها فضلاً أن تحلوها، كما قال: "ولا يبيدين زينتهن" النور: 31، فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها "ولا آمين" ولا تحلوا قوماً قاصدين المسجد الحرام "يبتغون فضلاً من ربهم" وهو الثواب "ورضواناً" وأن يرضى عنهم، أي لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم، تعظيماً لهم واستنكاراً أن يتعرض لمشملهم. قيل: هي محمة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها" وقال الحسن: ليس فيها منسوخ. وعن أبي ميسرة: فيها ثمان عشرة فريضة وليس فيها منسوخ. وقيل: هي منسوخة. وعن ابن عباس: كان المسلمون والمشركون يحجون جميعاً، فهى الله المسلمين أن يمنعوا أحداً عن حج البيت بقوله: "لا تحلوا" ثم نزل بعد ذلك: "إنما المشركون نجس" التوبة: 28، "ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله" التوبة: 17، وقال مجاهد والشعبي: "لا تحلوا" نسخ بقوله: "واقتلوهم حيث وجدتموهم" النساء: 89. وفسر ابتغاء الفضل بالتجارة، وابتغاء الرضوان بأن المشركين كانوا يظنون في أنفسهم أنهم على سداد من دينهم، وأن الحج يقرّبهم إلى الله، فوصفهم الله بظنهم. وقرأ عبد الله: ولا أُمي البيت الحرام، على الإضافة. وقرأ حميد بن قيس والأعرج: تبتغون، بالتاء على خطاب المؤمنين "فاصطادوا" إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم، كأنه قيل: وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا. وقرئ بكسر الفاء. وقيل: هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداء. وقرئ: وإذا حللتم، يقال حل المحرم

وأحل. جرم يجري مجرى كسب في تعديه إلى مفعول واحد واثنين. تقول: جرم ذنباً، نحو كسبه. وجرمته ذنباً، نحو كسبته إياه. ويقال: أجرمته ذنباً، على نقل المتعدي إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين، كقولهم: أكسبته ذنباً. وعليه قراءة عبد الله: ولا يجرمكم بضم الياء، وأول المفعولين على القراءتين ضمير المخاطبين، والثاني: "أن تعتدوا". و"أن صدوكم" بفتح الهمزة، متعلق بالشأن بمعنى العلة، والشأن: شدة البغض. وقرئ بسكون النون. والمعنى: ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم الاعتداء، ولا يحملنكم عليه. وقرئ: إن صدوكم، على إن الشرطية. وفي قراءة عبد الله: إن يصدوكم. ومعنى صدوهم إياهم عن المسجد الحرام: منع أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة، ومعنى الاعتداء: الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم "وتعاونوا على البر والتقوى" على العفو والإغضاء "ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" على الانتقام والتشفي. ويجوز أن يراد العموم لكل بر وتقوى وكل إثم وعدوان، فيتناول بعمومه العفو والانتصار.

"حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق" اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في محمصةٍ غير متجانفٍ لإثمٍ فإن الله غفورٌ رحيمٌ

كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها، والفصيد وهو الدم في المباعر، يشوونها ويقولون: لم يحرم من فرد له "وما أهل لغير الله به" أي رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه "والمنخنقة" التي خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بسبب "والموقوذة" التي أنخنوها ضرباً بعضاً أو حجر حتى ماتت "والمتردية" التي تردت من جبل أو في بئر فماتت "والنطيحة" التي نطحتها أخرى فماتت النطح "وما أكل السبع" بعضه "إلا ما ذكيت" إلا ما أدركتم ذكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتخشب أوداجه. وقرأ ابن عباس: وأكيل السبع "وما ذبح على النصب" كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها، ويعظمونها بذلك ويتقربون به إليها، تسمى الأنصاب، والنصب واحد. قال الأعشى:

وذا النصب المنسوب لا تعبدنه لعاقبة الله ربك فاعبدوا

وقيل: هو جمع، والوحد نصاب. وقرئ: النصب بسكون الصاد "وأن تستقسموا بالأزلام" وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام أي بالقداح. كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معازم الأمور ضرب بالقداح، وهي مكتوب على بعضها: فماني ري، وعلى بعضها: أمري ري، وبعضها غفل؛ فإن خرج الأمر مضى لطيته، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أجأها عوداً. فمعنى الاستقسام بالأزلام: طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام. وقيل: هو الميسر. وقسمتهم الجزور على الأنصباء المعلومة "ذلكم فسق" الإشارة إلى الاستقسام: أو إلى تناول ما حرم عليهم؛ لأن المعنى حرم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا. فإن قلت: لم كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام لتعرف الحال فسقاً؟ قلت: لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوم وقال: "لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله" النمل: 65، واعتقاد أن إليه طريقاً وإلى استنباطه، وقوله: أمري ري،

ونفاني ربي: افتراء على الله. وما يدريه أنه أمره أو نهاه. والكهنة والمنجمون بهذه المثابة. وإن كانوا أرادوا بالرب الصنم - فقد روي أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم - فأمره ظاهر "اليوم" لم يرد به يوماً بعينه، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، كقولك: كنت بالأمس شاباً، وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك. ونحوه الآن في قوله:

الآن لما ابيض مسربتني وعضضت من نابي على جذم

وقيل: أريد يوم نزولها، وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع "ينس الذين كفروا من دينكم" ينسوا منه أن يطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث بعد ما حرمت عليكم. وقيل: ينسوا من دينكم أن يغلبوه؛ لأن الله عز وجل وفي بوعدة من إظهاره على الدين كله "فلا تخشوهم" بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين مقهورين بعد ما كانوا غالبين "واخشوني" وأخلصوا لي الخشية "أكملت لكم دينكم" كفيتكم أمر عدوكم، وجعلت اليد العليا لكم، كما تقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد، إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيتهم. أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد "وأتممت عليكم نعمتي" بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن من لم يحج معكم مشرك، ولم يطف بالبيت عريان. أو أتممت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك، لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام "ورضيت لكم الإسلام ديناً" يعني اخترته لكم من بين الأديان، وأذنتمكم بأنه هو الدين المرضي وحده "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه" آل عمران: 85، "إن هذه أمتكم أمة واحدة" الأنبياء: 92. فإن قلت: بما اتصل قوله: "فمن اضطر؟" قلت: بذكر الحرمات. وقوله: "ذلكم فسق" اعتراض أكد به معنى التحريم، وكذلك ما بعده؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل. ومعناه: فمن اضطر إلى الميتة أو إلى غيرها "في مخمصة" في جماعة "غير متجانف لإثم" غير منحرف إليه، كقوله: "غير باغ ولا عاد" البقرة: 173. "فإن الله غفور" لا يؤاخذ بذلك.

"يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب" في السؤال معنى القول، فلذلك وقع بعده "ماذا أحل لهم" كأنه قيل: يقولون لك ماذا أحل لهم. وإنما لم يقل: ماذا أحل لنا، حكاية لما قالوه لأن يسألونك بلفظ الغيبة، كما تقول أقسم زيد ليفعلن. ولو قيل: لأفعلن وأحل لنا، لكان صواباً. و ماذا مبتدأ، وأحل لهم خيرة كقولك: أي شيء أحل لهم؟ ومعناه: ماذا أحل لهم من المطاعم كأنهم حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المأكول سألوا عما أحل لهم منها، فقيل: "أحل لكم الطيبات" أي ما ليس بخبيث منها، وهو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب أو سنة أو قياس مجتهد. "وما علمتم من الجوارح" عطف على الطيبات أي أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف. أو تجعل ما شرطية، وجوابها فكلوا والجوارح: الكواكب من سباع البهائم والطيور، كالكلب

والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلب: مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها، ورائضها لذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف، واشتقاقه من الكلب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتق من لفظه لكثرة من جنسه. أو لأن السبع يسمى كلباً. ومنه قوله عليه السلام: "اللهم سلط عليه كلباً من كلابك" فأكله الأسد. أو من الكلب الذي هو بمعنى الضراوة. يقال: هو كلب بكذا، إذا كان ضارياً به. وانتصاب "مكلبين" على الحال من علمتم. فإن قلت: ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلمتم؟ قلت: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح تحريراً في علمه مدرباً فيه، موصوفاً بالتكليب. و"تعلموهم" حال ثانية أو استئناف. وفيه فائدة جلييلة، وهي أن على كل آخذ علماً أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً وأنخرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من آخذ من غير متقن، قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله "مما علمكم الله" من علم التكليب، لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل. أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وانزجاره بزجره. وانصرافه بدعائه، وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه. وقرئ: مكلبين بالتخفيف. وأفعل وفعل يشتركان كثيراً. والإمساك على صاحبه أن لا يأكل منه، لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم:

"وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه" وعن علي رضي الله عنه: إذا أكل البازي فلا تأكل. وفرق العلماء، فاشتطوا في سباع البهائم ترك الأكل لأنها تؤدب بالضرب، ولم يشترطوه في سباع الطير. ومنهم من لم يعتبر ترك الأكل أصلاً ولم يفرق بين إمساك الكل والبعض. وعن سلمان، وسعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة رضي الله عنهم: إذا أكل الكلب ثلثيه وبقي ثلثه وذكرت اسم الله عليه فكل. فإن قلت: إلام رجع الضمير في قوله: "واذكروا اسم الله عليه"؟ قلت: إما أن يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته، أو إلى ما علمتم من الجوارح. أي سموا عليه عند إرساله.

"اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتىموهم أجورهم محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين" "وطعام الذين أوتوا الكتاب" قيل: هو ذبائحهم. وقيل: هو جميع مطاعمهم. ويستوي في ذلك جميع النصارى. وعن علي رضي الله عنه: أنه استثنى نصارى بني تغلب وقال: ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر، وبه أخذ الشافعي. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأس. وهو قول عامة التابعين، وبه أخذ أبو حنيفة وأصحابه. وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة. وقال أصحابه: هم صنفان: صنف يقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة. وصنف لا يقرؤون كتاباً ويعبدون النجوم؛ فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب. وأما الجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم. وقد روي عن ابن المسيب أنه قال: إذا كان المسلم مريضاً فأمر الجوسي أن يذكر اسم الله ويذبح فلا بأس. وقال أبو ثور: وإن أمره بذلك في الصحة فلا بأس وقد أساء "وطعامكم حل لهم" فلا عليكم أن تطعموهم، لأنه لو كان حراماً عليهم طعام المؤمنين لما ساء لهم إطعامهم "والمحصنات" الحرائر أو العفاف وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنطفهم والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق، وكذلك نكاح غير

العفاف منهن، وأما الإمام الكتابيات، فعند أبي حنيفة: هن كالمسلمات، وخالفه الشافعي، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتابيات، ويحتج بقوله: "ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن" البقرة: 221، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من قولها: إن ربها عيسى. وعن عطاء: قد أكثر الله المسلمات، وإنما رخص لهم يومئذ "محصنين" أعفاء "ولا متخذين أحداً" صدائق، والحدن يقع على الذكر والأنثى "ومن يكفر بالإيمان" بشرائع الإسلام وما أحل الله وحرم. "يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون"

"إذا قمتم إلى الصلاة كقولها: "فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله" النحل: 98، وكقولك: إذا ضربت غلامك فهون عليه، في أن المراد إرادة الفعل. فإن قلت: لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه، فكما عبر عن القدرة عن الفعل بالفعل في قوله: الإنسان لا يطير، والأعمى لا يبصر، أي لا يقدران على الطيران والإبصار. ومنه قوله تعالى: "نعينه وعداً علينا إنا كنا فاعلين" الأنبياء: 104، يعني إنا كنا قادرين على الإعادة، كذلك عبر عن إرادة الفعل بالفعل، وذلك لأن الفعل مسبب عن القدرة والإرادة، فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما، ولا يجاز الكلام ونحوه من إقامة المسبب مقام السبب قولهم: كما تدين تدان، إن عبر عن الفعل المبتدأ الذي هو سبب الجزاء بلفظ الجزاء الذي هو مسبب عنه. وقيل: معنى قمتم إلى الصلاة قصدتموها؛ لأن من توجه إلى شيء وقام إليه كان قاصداً له لا محالة، فعبر عن القصد له بالقيام إليه. فإن قلت: ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة محدث وغير محدث، فما وجهه؟ قلت: يحتمل أن يكون الأمر للوجوب، فيكون الخطاب للمحدثين خاصة، وأن يكون للندب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده، أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات" وعنه عليه السلام: أنه كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح مسح على خفيه فصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد، فقال له عمر: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه فقال: "عمداً فعلته يا عمر" يعني بياناً للجواز؟ فإن قلت: هل يجوز أن يكون الأمر شاملاً للمحدثين وغيرهم لهؤلاء على وجه الإيجاب، ولهؤلاء على وجه الندب. قلت: لا، لأن تناول الكلمة لمعتين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية. وقيل: كان الوضوء لكل صلاة واجباً أول ما فرض. ثم نسخ إلى تفيد معنى الغاية مطلقاً. فأما دخولها في الحكم وخروجها، فأمر يدور مع الدليل، فمما فيه دليل على الخروج قوله: "فنطرةً إلى ميسرة" البقرة: 280، لأن الإعسار علة الإنذار. وبوجود الميسرة تزول العلة، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظرًا في كلتا الحالتين معسراً وموسراً. وكذلك: "ثم أقموا الصيام إلى الليل" البقرة: 187، لو دخل الليل لوجب الوصال. ومما فيه دليل على أن الدخول قولك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله. ومنه قوله تعالى: "من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى" الإسراء: 1، لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله: "إلى المرافق" و"إلى الكعبين" لا دليل فيه على أحد الأمرين فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها في الغسل.

وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يدير الماء على مرفقيه. "وامسحوا برءوسكم" المراد إلصاق المسح بالرأس. وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح، كلاهما ملصق للمسح برأسه. فقد أخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب أو أكثره على اختلاف الرواية، وأخذ الشافعي باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما روي: أنه مسح على ناصيته. وقدر الناصية بربع الرأس. قرأ جماعة وأرجلكم بالنصب، فدل على أن الأرجل مغسولة فإن قلت: فما تصنع بقراءة الجهر ودخولها في حكم المسح؟ قلت: الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي عنه، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل: "إلى الكعبين" فجاء بالغاية إمالة لظن طان يحسبها ممسوحة، لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وعن علي رضي الله عنه: أنه أشرف على فتية من قريش فرأى في وضوئهم تجوزاً، فقال: ويل للأعقاب من النار، فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلًا ويدلكونها دلكاً. وعن ابن عمر و: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح فقال: "ويل للأعقاب من النار" وفي رواية جابر:

"ويل للعراقيب" وعن عمر أنه رأى رجلاً يتوضأ فترك باطن قدميه، فأمره أن يعيد الوضوء، وذلك للتغليظ عليه، وعن عائشة رضي الله عنها لأن تقطعا أحب إلي من أن أمسح على القدمين بغير خفين. وعن عطاء: والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح على القدمين. وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح. وعن الحسن: أنه جمع بين الأمرين. وعن الشعبي: نزل القرآن بالمسح والغسل سنة. وقرأ الحسن: وارجلكم، بالرفع بمعنى وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبين. وقرئ: فاطهروا أي فطهروا أبدانكم، وكذلك ليطهركم. وفي قراءة عبد الله: فأما صعيداً "ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج" في باب الطهارة، حتى لا يرخص لكم في التيمم "ولكن يريد ليطهركم" بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء "وليتم نعمته عليكم" وليتم برخصته إنعامه عليكم بعزائمه "لعلكم تشكرون" نعمته فيثيبكم.

"واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليماً بذات الصدور" "واذكروا نعمة الله عليكم" وهي نعمة الإسلام "وميثاقه الذي واثقكم به" أي عاقدكم به عقداً وثيقاً هو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره فقبلوا وقالوا: سمعنا وأطعنا. وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة وفيبيعة الرضوان.

"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجرٌ عظيم، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم" عدى "يجرمكم" بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يجرمنكم. ويجوز أن يكون قوله: "أن تعتدوا" بمعنى على أن تعتدوا، فحذف مع أن ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: "من أتبع على ملئ فليتبع" لأنه بمعنى أحيل. وقرئ: شنآن بالسكون. ونظيره في المصادر ليان والمعنى: لا يجرمنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك "اعدلوا هو

أقرب للتقوى" فهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله: "هو أقرب للتقوى" أي العدل أقرب إلى التقوى، وأدخل في مناسبتها. أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفاً فيها. وفيه تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟ "لهم مغفرة وأجرٌ عظيم" بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله، كأنه قال: قدم لهم وعداً فقليل: أي شيء وعده لهم؟ فقليل: لهم مغفرة وأجر عظيم. أو يكون على إرادة القول بمعنى وعدهم وقال لهم مغفرة. أو على إجراء وعد مجرى قال: لأنه ضرب من القول. أو يجعل وعد واقعاً على الجملة التي هي لهم مغفرة، كما وقع "تركنا" على قوله: "سلاماً على نوح" الصفات: 119، كأنه قيل: وعدهم هذا القول وإذا وعدهم من لا يخلف الميعاد هذا القول، فقد وعدهم مضمونه من المغفرة والأجر العظيم. وهذا القول يتلقون به عند الموت ويوم القيامة، فيسرون به ويستروحون إليه ويهون عليهم السكرات والأهوال قبل الوصول إلى الثواب.

"يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون" روي: أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معاً، وذلك بعسفان في غزوة ذي أثمار. فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم، فقالوا: إن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آباتهم وأبنائهم، يعنون صلاة العصر وهموا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها. فترل جبريل بصلاة الخوف. وروي:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني قريظة ومعه الشيخان وعلي رضي الله عنهم يستقرضهم دية مسلمين قتلها عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين. فقالوا: نعم يا أبا القاسم، اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه في صفة وهموا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحا عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده ونزل جبريل فأخبره، فخرج. وقيل: نزل منزلاً وتفرق الناس في العضاء يستظلون بها، فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي فسل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، قالها ثلاثاً، فشام الأعرابي السيف فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم، وأبى أن يعاقبه. يقال: بسط إليه لسانه إذا شتمه، وبسط إليه يده إذا بطش به "ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء" الممتحنة: ، ومعنى بسط اليد مدها إلى المبطوش به. ألا ترى إلى قولهم: فلان بسيط الباع، ومديد الباع، بمعنى "فكف أيديهم عنكم" فمنعها أن تمد إليكم.

"ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لنن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وآمنتم برسلي وعزمتهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا تكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل، فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين"

لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون

الجبابة، وقال لهم: إني كتبته لكم داراً قراراً، فخرجوا إليها وجاهدوا من فيها، وإني ناصركم، وأمر موسى عليه السلام بأن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفل لهم به النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون، فأروا أجراماً عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم وقد فهاهم موسى عليه السلام أن يحدثوهم، فنكتوا الميثاق، إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط أفرايم بن يوسف، وكانا من النقباء. والنقيب: الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها، كما قيل له: عريف، لأنه يتعرفها "إني معكم" أي ناصركم ومعينكم "وعزرتهم" نصرتهم من أيدي العدو. ومنه التعزير، وهو التنكيل والمنع من معاودة الفساد. وقرئ بالتخفيف يقال: عزرت الرجل إذا حطته وكنفته. والتعزير والتأزير من واد واحد. ومنه: لأنصرك نصرًا مؤزرًا، أي قويًا. وقيل معناه: ولقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان والتوحيد وبعثنا منهم اثني عشر ملكاً يقيمون فيهم العدل ويأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. واللام في "لئن أقمت" موطئة للقسم وفي "لأكفرن" جواب له، وهذا الجواب ساد مسد جواب القسم والشرط جميعاً "بعد ذلك" بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق بالوعد العظيم. فإن قلت: من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضل سواء السبيل. قلت: أجل، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم، لأن الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وتمادى "لعناهم" طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا. وقيل: مسخناهم. وقيل: ضربنا عليهم الجزية "وجعلنا قلوبهم قاسية" خذلناهم ومنعناهم اللطاف حتى قست قلوبهم. أو أملينا لهم ولم نعالجهم بالعقوبة حتى قست. وقرأ عبد الله: قسية، أي ردية مغشوشة، من قولهم: درهم قسي وهو من القسوة؛ لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين والمغشوش فيه ييس وصلابة، والقاسي والقاسح - بالخاء - أخوان في الدلالة على اليس والصلابة وقرئ: قسية، بكسر القاف للإتباع "يحرفون الكلم" بيان لقسوة قلوبهم، لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير حيه "ونسوا حظاً" وتركوا نصيباً جزيلاً وقسطاً وافياً "مما ذكروا به" من التوراة، يعني أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم، أو قست قلوبهم وفسدت فحرفوا التوراة وزالت أشياء منها عن حفظهم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قد ينسى المرء الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويبان نعتة "ولا تزال تطلع" أي هذه عادتهم وهجراهم وكان عليها أسلافهم كانوا يخونون الرسل وهؤلاء يخونونك ينكثون عهودك ويظاهرون المشركين على حربك ويهمون بالفتك بك وأن يسموك "على خائنة" على خيانة، أو على فعلة ذات خيانة، أو على نفس، أو فرقة خائنة. ويقال: رجل خائنة، كقولهم: رجل راوية للشعر للمبالغة. قال:

للغدر خائنة مضل الأصبع

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن

وقرئ على خيانة "منهم إلا قليلاً منهم" وهم الذين آمنوا منهم "فاعف عنهم" بعث على مخالفتهم. وقيل هو منسوخ بآية السيف. وقيل: فاعف عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم. "ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة" وسوف ينبتهم الله بما كانوا يصنعون "أخذنا ميثاقهم" أخذنا من النصارى ميثاق من ذكر قبلهم من قوم موسى، أي مثل ميثاقهم بالإيمان بالله والرسول وأفعال الخير، وأخذنا من النصارى ميثاق أنفسهم بذلك. فإن قلت: فهلا قيل:

من النصارى؟ قلت: لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، ثم اختلفوا بعد: نسطورية، ويعقوبية، وملكانية. أنصاراً للشيطان "فأغرنا" فألصقنا وألزمنا من غري بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره. ومنه الغراء الذي يلصق به "بينهم" بين فرق النصارى المختلفين. وقيل: بينهم وبين اليهود. ونحوه "وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً" الأنعام: 129، "أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض" الأنعام: 69.

"يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ" "يا أهل الكتاب" خطاب لليهود والنصارى "مما كنتم تخفون" من نحو صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن نحو الرجم "ويعفوا عن كثيرٍ" مما تخفونه لا يبينه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية، ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته مما لا بد من بيانه، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة. وعن الحسن: ويعفو عن كثير منكم لا يؤاخذهم "قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ" يريد القرآن، لكشفه ظلمات الشرك والشك، لإبانتها ما كان خافياً عن الناس من الحق. أو لأنه ظاهر الإعجاز "من اتبع رضوانه" من آمن به "سبل السلام" طرق السلامة والنجاة من عذاب الله أو سبل الله.

"لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير" قولهم: "إن الله هو المسيح" معناه بت القول، على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير. قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك. وقيل: ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي إليه، حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم "فمن يملك من الله شيئاً" فمن يمنع من قدرته ومشئته شيئاً "إن أراد أن يهلك" من دعوه إلهاً من المسيح وأمه دلالة على أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد. وأراد بعطف "من في الأرض" على "المسيح وأمه" أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم في البشرية "يخلق ما يشاء" أي يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم. أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكف والأبرص، وغير ذلك. فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده.

"وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير" "أبناء الله" أشياع ابني الله عزير والمسيح، كما قيل لأشياع أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير الحبيون وكما كان يقول رهط مسيلمة: نحن أنبياء الله. ويقول أقرباء الملك وذووه وحشمه: نحن الملوك. ولذلك قال مؤمن آل فرعون: لكم الملك اليوم. "فلم يعذبكم بذنوبكم" فإن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم تذبون وتعذبون بذنوبكم فتمسخون وتمسكم النار أياماً معدودات على زعمكم. ولو كنتم أبناء الله، لكنتم من جنس الأب، غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب. ولو كنتم أحباؤه، لما عصيتهم وما عاقبكم "بل أنتم بشرٌ" من جملة من خلق من البشر "يغفر لمن يشاء" وهم أهل الطاعة "ويعذب من

يشاء" وهم العصاة.

"يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كل شيءٍ قديرٌ" "يبين لكم" إما أن يقدر المبين وهو الدين والشرائع، وحذفه لظهور ما ورد الرسول لتبيينه. أو يقدر ما كنتم تخفون، وحذفه لتقدم ذكره. أو لا يقدر ويكون المعنى. يبذل لكم البيان، ومحله النصب على الحال، أي مبيناً لكم. "على فترة" متعلق بجاءكم، أي جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي "أن تقولوا" كراهة أن تقولوا "فقد جاءكم" متعلق بمحذوف، أي لا تعتذروا فقد جاءكم. وقيل: كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة. وقيل: ستمائة. وقيل: أربعمائة ونيف وستون. وعن الكلبي: كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما أربعة أنبياء. ثلاث من بني إسرائيل، وواحد من العرب: خالد بن سنان العبسي. والمعنى: الامتنان عليهم، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي أحوج ما يكون إليه، ليهشوا إليه ويعودوه أعظم نعمة من الله، وفتح باب إلى الرحمة، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من بينهم عن غفلتهم.

"وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجال من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون" "جعل فيكم أنبياء" لأنه لم يبتع في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء "وجعلكم ملوكاً" لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه، وبعد الجابرة ملكهم: ولأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل: كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله، فسمي إنقاذهم ملكاً. وقيل: الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار. وقيل: من له بيت وخدم. وقيل: من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق "ما لم يؤت أحداً من العالمين" من فلق البحر، وإغراق العدو، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الأمور العظام، وقيل: أراد عالمي زمانهم "الأرض المقدسة" يعني أرض بيت المقدس. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: الشام. وقيل فلسطين ودمشق وبعض الأردن. وقيل: سماها الله لإبراهيم ميراثاً لولده حين رفع على الجبل، فقيل له: انظر، فلك ما أدرك بصرك، وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين "كتب الله لكم" قسمها لكم وسماها، أو خط في اللوح المحفوظ أنها لكم "ولا ترتدوا على أدباركم" ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجابرة جبناً وهلعاً، وقيل: لما حدثهم النقباء بحال الجابرة ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر. وقالوا: تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. ويجوز أن يراد: لا ترتدوا على أدباركم في دينكم بمخالفتكم أمر ربكم وعصيانكم نبيكم: فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. الجبار فعال من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد "قال رجال" هما كالب ويوشع "من الذين يخافون" من الذين يخافون الله ويخشونه، كأنه قيل: رجال من المتقين. ويجوز أن تكون الواو لبني إسرائيل والراجع

إلى الموصول محذوف تقديره: من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون، وهما رجالان منهم "أنعم الله عليهما" بالإيمان فآمنا، قالوا لهم: إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها، فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم بشجعائهم على قتالهم. وقراءة من قرأ: يخافون بالضم شاهدة له، وكذلك أنعم الله عليهما، كأنه قيل: من المخوفين. وقيل: هو من الإخافة، ومعناه من الذين يخوفون من الله بالتذكيرة والموعظة. أو يخوفهم وعيد الله بالعقاب. فإن قلت: ما محل أنعم الله عليهما؟ قلت: إن انتظم مع قوله: من الذين يخافون في حكم الوصف لرجلان فمرفوع، وإن جعل كلاماً معترضاً فلا محل له. فإن قلت: من أين علما أنهم غالبون؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك. وقوله تعالى: "كتب الله لكم" وقيل: من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرته رسله، وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبابرة. والباب: باب قريتهم "لن ندخلها" نفى لدخولهم في المستقبل على وجه التأکید المؤيس. و "أبدأ" تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطول. و "ما داموا فيها" بيان للأبد "فاذهب أنت وربك" يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب، ولكن كما تقول: كلمته فذهب يجيني، تريد معنى الإرادة والقصد للجواب، كأنهم قالوا: أريد قتالهم. والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة. والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم ويحكى أن موسى وهارون عليهما السلام خرا لوجوههما قدامهم لشدة ما ورد عليهما، فهما برجمهما. ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله تعالى: "لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا" المائدة: 82.

"قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين" لما عصوه وتمردوا عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هارون "قال رب إني لا أملك" لنصرة دينك "إلا نفسي وأخي" وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي يمثلها تستجلب الرحمة وتستتزل النصرة ونحوه قول يعقوب عليه السلام "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله" يوسف: 86. وعن علي رضي الله عنه أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة، فما أجابه إلا رجلان فتنفس الصعداء. ودعا لهما وقال: أين تقعان مما أريد؟ وذكر في إعراب أخي وجوه: أن يكون منصوباً عطفاً على نفسي أو على الضمير في إني بمعنى: ولا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه. ومرفوعاً عطفاً على محل إن واسمها. كأنه قيل: أنا لا أملك إلا نفسي، وهارون كذلك لا يملك إلا نفسه أو على الضمير في لا أملك. وجاز للفصل. ومجروراً عطفاً على الضمير في نفسي، وهو ضعيف لقبح العطف على ضمير المجرور إلا بتكرير الجار. فإن قلت: أما كان معه الرجلان المذكوران؟ قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما، لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومهم وتلوهمهم وقسوة قلوبهم، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره، ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عندما سمع منهم تقليلاً لمن يوافقه. ويجوز أن يريد: ومن يؤاخيني على ديني "فافرق" فافصل "بيننا" وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق، وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم. ولذلك وصل به قوله: "إنها محرمة عليهم" على وجه التسييب، أو فباعد

بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم كقوله: "ونجني من القوم الظالمين" القصص: 21، "فإنها" فإن الأرض المقدسة "محرمة عليهم" لا يدخلونها ولا يملكونها، فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله: "التي كتب الله لكم" المائدة: 21؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها فلما أبوا الجهاد قيل: فإنها محرمة عليهم. والثاني: أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب، فقد روي أن موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل وكان يوشع على مقدمته ففتح أريحاء وأقام فيها ما شاء الله ثم قبض صلوات الله عليه. وقيل: لما مات موسى بعث يوشع نبياً، فأخبرهم بأنه نبي الله، وأن الله أمره بقتال الجابرة، فصدقوه وبايعوه وسار بهم إلى أريحاء وقتل الجبارين وأخرجهم، وصار الشام كله لبني إسرائيل. وقيل: لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال: "إننا لن ندخلها" وهلكوا في التيه ونشأت نواشيء من ذرياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها والعامل في الظرف إما محرمة وإما يتيهون ومعنى "يتيهون في الأرض" يسرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً. والته: المفازة التي يتاه فيها. روي أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسرون كل يوم جادين، حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظللهم من حر الشمس، ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضيء لهم، ويتزل عليهم المن والسلوى، ولا تطول شعورهم، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله. فإن قلت: فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره، وهم معاقبون؟ قلت: كما يتزل بعض النوازل على العصاة عرماً لهم، وعليهم مع ذلك النعمة متظاهرة. ومثل ذلك مثل الوالد المشفق يضرب ولده ويؤذيه ليتأدب ويتقف ولا يقطع عنه معرفته وإحسانه. فإن قلت: هل كان معهم في التيه موسى وهارون عليهما السلام؟ قلت: اختلف في ذلك، فقيل لم يكونا معهم لأنه كان عقاباً، وقد طلب موسى إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم. وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحاً لهما وسلامة، ولا عقوبة، كالنار لإبراهيم، وملائكة العذاب. وروي أن هارون مات في التيه. ومات موسى بعده فيه بسنة. ودخل يوشع أريحاء بعد موته بثلاثة أشهر. ومات النقباء في التيه بغتة، إلا كالب ويوشع "فلا تأس" فلا تحزن عليهم لأنه ندم على الدعاء عليهم، فقيل: إنهم أحقاء لفسقهم بالعذاب، فلا تحزن ولا تندم.

"واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين، لن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلنك إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، فبعث الله غراباً يبيح في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتنا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين، من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون" هما ابنا آدم لصلبه قابيل وهابيل، أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، وكانت توأمة قابيل أجهل واسمها إقليما فحسد عليها أخاه وسخط. فقال لهما آدم: قربا قرباناً، فمن أيكما تقبل زوجها، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته؛ فازداد قابيل حسداً وسخطاً، وتوعده بالقتل. وقيل: هما رجلان من بني إسرائيل "بالحق" تلاوة متلبسة بالحق والصحة. أو اتله نبأ متلبساً بالصدق موافقاً لما في كتب الأولين.

أو بالغرض الصحيح وهو تقييح الحسد؛ لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغنون عليه. أو اتل عليهم وأنت محق صادق. و "إذ قرباً" نصب بالنبأ أي قصتهم وحديثهم في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون بدلاً من النبأ، أي اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت، على تقدير حذف المضاف. والقربان: اسم ما يتقرب به إلى الله من نسيكة أو صدقة، كما أن الحلوان اسم ما يحلى أي يعطى. يقال: قرب صدقة وتقرب بها، لأن تقرب مطاوع قرب، قال الأصمعي: تقربوا قرف القمع فيعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب. فإن قلت: كيف كان قوله: "إنما يتقبل الله من المتقين" جواباً لقوله: "لأقتلنك"؟ قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي، فلم تقتلني؟ وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أفعالهم. وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقبل له: ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ قال إني أسمع الله يقول: "إنما يتقبل الله من المتقين". "ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلنك" قيل: كان أقوى من القاتل وأبطش منه، ولكنه تخرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفاً من الله؛ لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت. قاله مجاهد وغيره "إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك" أن تحتل إثم قتلي لك لو قتلنك وإثم قتلنك لي. فإن قلت: كيف يحمل إثم قتله له ولا تزر وازرة وزر أخرى؟ قلت: المراد بمثل إثمي على الاتساع في الكلام، كما تقول: قرأت قراءة فلان، وكتبت كتابته، تريد المثل وهو اتساع فاش مستفيض لا يكاد يستعمل غيره. ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام:

"المستبان ما قالوا فعلى البادي ما لم يعتد المظلوم" على أن البادي عليه إثم سبه، ومثل إثم سب صاحبه؛ لأنه كان سبياً فيه، إلا أن الإثم محطوط عن صاحبه معفو عنه، لأنه مكافئ مدافع عن عرضه. ألا ترى إلى قوله: "ما لم يعتد المظلوم" لأنه إذا خرج من حد المكافأة واعتدى لم يسلم. فإن قلت: فحين كف هابيل عن قتل أخيه واستسلم وتخرج عما كان محظوراً في شريعته من الدفع، فأين الإثم حتى يتحمل أخوه مثله فيجتمع عليه الإثم؟ قلت: هو مقدر فهو يتحمل مثل الإثم المقدر، كأنه قيل: إني أريد أن تبوء بمثل إثمي لو بسطت يدي إليك. وقيل: بإثمي بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك فإن قلت: فكيف جاز أن يريد شقاوة أخيه وتعذيبه بالنار؟ قلت: كان ظالماً وجزاء الظالم حسن جائز أن يراد. ألا ترى إلى قوله تعالى: "وذلك جزاء الظالمين" وإذا جاز أن يريد الله، جاز أن يريد العبد؛ لأنه لا يريد إلا ما هو حسن. والمراد بالإثم وبالقتل وما يجره من استحقاق العقاب، فإن قلت: لم جاء الشرط بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله: "لئن بسطت..... ما أنا بباسط"؟ قلت: ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع. ولذلك أكد بالباء المؤكدة للنفي، "فطوعت له نفسه قتل أخيه" فوسعته له ويسرته، من طاع له المرتع: إذا اتسع. وقرأ الحسن: فطاوعت. وفيه وجهان: أن يكون مما جاء من فاعل بمعنى فعل، وأن يراد أن قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع، وله لزيادة الربط كقولك: حفظت لزبد ماله. وقيل: قتل وهو ابن عشرين سنة، وكان قتله عند عقبة حراء، وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم "فبعث الله غراباً" روي: أنه أول قتيل قتل على وجه الأرض من بني آدم. ولما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، فخاف عليه السباع فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أرواح وعكفت عليه السباع، فبعث الله غرابين

فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة "قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب" ويروى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلته ولذلك اسود جسدي. وروي أن آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك وأنه رثاه بشعر، وهو كذب بحت، وما الشعر إلا منحول ملحون. وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. "ليريه" ليريه الله. أو ليريه الغراب، أي ليعلمه؛ لأنه لما كان سبب تعليمه، فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز "سوءة أخيه" عورة أخيه وما لا يجوز أن ينكشف من جسده. والسوأة: الفضيحة لقبها. قال:

يا لقوم للسوأة السوأة

أي للفضيحة العظيمة فكأن بها عنها "فأواري" بالنصب على جواب الاستفهام. وقرئ بالسكون على: فأنا أواري. أو على التسكين في موضع النصب للتخفيف "من النادمين" على قتله، لما تعب فيه من حمله وتحيره في أمره، وتبين له من عجزه، وتلمذه للغراب، واسوداد لونه وسخط أبيه، ولم يندم ندم التائبين "من أجل ذلك" بسبب ذلك وبعلته. وقيل: أصله من أجل شرا إذا جناه يأجله أجلاً. ومنه قوله:

وأهل خباء صالح ذات بينهم قد احتربوا في عاجل أنا آجله

كأنك إذا قلت: من أجلك فعلت كذا، أردت من أن جنيت فعلته وأوجبت، ويدل عليه قولهم: من جراك فعلته، أي من أن جررت به معنى جنيت. وذلك إشارة إلى القتل المذكور، أي من أن جنى ذلك القتل الكذب وجره "كتبنا على بني إسرائيل" و من لا ابتداء الغاية، أي ابتداء الكذب ونشأ من أجل ذلك. ويقال: فعلت كذا لأجل كذا. وقد يقال: أجل كذا، بحذف الجار وإيصال الفعل قال: أجل إن الله قد فضلكم. وقرئ: من أجل ذلك بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها. وقرأ أبو جعفر: من أجل ذلك، بكسر الهمزة وهي لغة فإذا خفف كسر النون ملقياً لكسرة الهمزة عليها "بغير نفس" بغير قتل نفس، لا على وجه الاقتصاص "أو فساد" عطف على نفس بمعنى أو بغير فساد "في الأرض" وهو الشرك. وقيل: قطع الطريق "ومن أحيائها" ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك. فإن قلت: كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت: لأن كل إنسان يبدى بما يلي به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمة وعلى العكس، فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك. فإن قلت: فما الفائدة في ذكر ذلك؟ قلت: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشتمز الناس عن الجسارة عليها، ويتراغبوا في الخامة على حرمتها؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعها عظم ذلك عليه فبطه، وكذلك الذي أراد إحياءها. وعن مجاهد: قاتل النفس جزاءه جهنم، وغضب الله، والعذاب العظيم. ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. وعن الحسن: يا ابن آدم، أرايت لو قتلنا الناس جميعاً أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازي ذلك فيغفر لك به؟ كلا إنه شيء سولته لك نفسك والشيطان، فكذلك إذا قتلت واحداً "بعد ذلك" بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجيء الرسل بالآيات "لمسرفون" يعني في القتل لا يبالون بعظمته.

"إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيمٌ" يحاربون الله ورسوله" يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاربة المسلمين في حكم محاربتهم "ويسعون في الأرض فساداً" مفسدين، أو لأن سعيهم في الأرض لما كان على طريق الفساد نزل مثله: ويفسدون في الأرض فانتصب فساداً. على المعنى، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي الفساد. نزلت في قوم هلال بن عويمر وكان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وقد مر بهم قوم يريدون رسول الله فقطعوا عليهم. وقيل: في العرنيين، فأوحى إليه أن من جمع بين القتل وأخذ المال قتل وصلب ومن أفرد القتل قتل. ومن أفرد أخذ المال قطعت يده لأخذ المال، ورجله لإخافة السبيل. ومن أفرد الإخافة نفى من الأرض. وقيل: هذا حكم كل قاطع طريق كافراً كان أو مسلماً. ومعناه "أن يقتلوا" من غير صلب، إن أفردوا القتل "أو يصلبوا" مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ. قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله: يصلب حياً، ويطعن حتى يموت "أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف" إن أخذوا المال "أو ينفوا من الأرض" إذا لم يزيدوا على الإخافة. وعن جماعة منهم الحسن والنخعي: أن الإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل. والنفي: الحبس عند أبي حنيفة، وعند الشافعي: النفي من بلد إلى بلد، لا يزال يطلب وهو هارب فرعاً، وقيل: ينفي من بلده، وكانوا ينفونهم إلى دهلك وهو بلد في أقصى قنطرة، و ناصع وهو بلد من بلاد الحبشة "خزي" ذل وفضيحة "إلا الذين تابوا" استثناء من المعاقبين عقاب قطع الطريق خاصة. وأما حكم القتل والجراح وأخذ المال فإلى الأولياء، إن شاؤوا عفواً، وإن شاؤوا استوفوا. وعن علي رضي الله عنه: أن الحرث بن بدر جاءه تائباً بعد ما كان يقطع الطريق، فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة.

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون" الوسيلة: كل ما يتوسل به أي يتقرب من قرابة أو صنعة أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي. وأنشد للبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ألا كل ذي لبٍّ إلى الله واسل

"إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم، يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم" ليفتدوا به" ليجعلوه فدية لأنفسهم. وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "يقال للكافر يوم القيامة: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به، فيقول: نعم، فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك" و لو مع ما في حيزه خير إن. فإن قلت: لم وحد الراجع في قوله: "ليفتدوا به" وقد ذكر شيتان؟ قلت: نحو قوله:

فإني وقيارٌ بها لغريب

أو على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنه قيل: ليفتدوا بذلك. ويجوز أن يكون الواو في مثله بمعنى مع فيتوحد المرجوع إليه. فإن قلت: فبم ينصب المفعول معه؟ قلت: بما يستدعيه لو من الفعل، لأن التقدير: لو ثبت أن لهم ما في الأرض. قرأ أبو واقد أن يخرجوا بضم الياء من أخرج. ويشهد لقراءة العامة قوله: بخارجين. وما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوماً يخرجون من النار، وقد قال الله تعالى: "وما هم بخارجين منها" فقال: ويحك، اقرأ ما فوقها. هذا للكفار. فما لفقته الحجة وليس بأول تكاذيبهم وفراهم. وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهر أعضاده من قريش وأنضاده من بني عبد المطلب وهو حبر الأمة ومجرها ومفسرها، بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا، وبرفعه إلى عكرمة دليلين ناصين أن الحديث فرية ما فيها مرية.

"والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفورٌ رحيم، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير" "والسارق والسارقة" رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند سيبويه، كأنه قيل: وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أي حكمهما. ووجه آخر وهو أن يرتفعا بالابتداء، والخبر "فاقطعوا أيديهما" ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط، لأن المعنى: والذي سرق والتي سرقت فاقطعوا أيديهما، والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب، وفضلها سيبويه على قراءة العامة لأجل الأمر لأن زياداً فاضربه أحسن من زيد فاضربه "أيديهما" أيديهما، ونحوه: "فقد صغت قلوبكما" التحريم: 4، اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف. وأريد باليمين اليمينان، بدليل قراءة عبد الله: والسارقون والسارقات فاقطعوا أيماهم، والسارق في الشريعة: من سرق من الحرز: والمقطع. الرسغ. وعند الخوارج: المنكب. والمقدار الذي يجب به القطع عشرة دراهم عند أبي حنيفة، وعند مالك والشافعي رحمهما الله ربع دينار. وعن الحسن درهم وفي مواضعه: احذر من قطع يدك في درهم "جزاءً" و "نكالاً" مفعول لهما "فمن تاب" من السراق "من بعد ظلمه" من بعد سرقة "وأصلح" أمره بالتفصي عن التبعات "فإن الله يتوب عليه" ويسقط عنه عقاب الآخرة. وأما القطع فلا تسقطه التوبة عند أبي حنيفة وأصحابه وعند الشافعي في أحد قوليه تسقطه من يشاء من يجب في الحكمة تعذيبه والمغفرة له من المصرين والتائبين. وقيل: يسقط حد الحربي إذا سرق بالتوبة، ليكون أدعى له إلى الإسلام وأبعد من التنفير عنه، ولا يسقطه عن المسلم: لأن في إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة "ولكم في القصص حياة" البقرة: 179. فإن قلت: لم قدم التعذيب على المغفرة؟ قلت: لأنه قبل بذلك تقدم السرقة على التوبة.

"يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم"

قري لا يحزنك بضم الياء. ويسرعون. والمعنى: لا تهم ولا تبال بمسارعة المنافقين "في الكفر" أي في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالة المشركين، فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم. يقال: أسرع فيه الشيب.

واسرع فيه الفساد، بمعنى: وقع فيه سريعاً، فكذلك مسارعتهم في الكفر ووقوعهم وقفاتهم فيه، أسرع شيء إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها. و"آمنّا" مفعول قالوا. و"بأفواههم" متعلق بقالوا لا بآمنّا "ومن الذين هادوا" منقطع مما قبله خبر لسماعون، أي: ومن اليهود قوم سماعون. ويجوز أن يعطف على "من الذين قالوا" ويرتفع سماعون على: هم سماعون. والضمير للفريقين. أو للذين هادوا. ومعنى "سماعون للكذب" قابلون لما يفتره الأخبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه من قولك الملك يسمع كلام فلان. ومنه سمع الله لمن حمده "سماعون لقوم آخرين لم يأتوك" يعني اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجاؤا عنه لما أفرط فيهم من شدة البغضاء وتبالغ من العداوة، أي قابلون من الأخبار ومن أولئك المفرطين في العداوة الذين لا يقدر أن ينظروا إليك. وقيل: سماعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل أن يكذبوا عليه بأن يمسخوا ما سمعوا منه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير، سماعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيوناً ليبلغهم ما سمعوا منه. وقيل: السماعون: بنو قريظة. والقوم الآخرون: يهود خيبر "يحرفون الكلم" يميلونه ويزيلونه "عن مواضعه" التي وضعه الله تعالى فيها، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع "إن أوتيتهم هذا" اخرف المزال عن مواضعه "فخذوه" واعلموا أنه الحق واعملوا به "وإن لم تؤتوه" وأفتاكم محمد بخلافه "فاحذروا" وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال. وروي: أن شريقاً من خير زنى بشريفة وهما محصنان وحدهما الرجم في التوراة، فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطاً منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقالوا: إن أمركم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن يأمركم بالرجم فلا تقبلوا، وأرسلوا الزانيين معهم، فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل: اجعل بينك وبينهم ابن سوريا، فقال: "هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فذك يقال له: ابن سوريا؟" قالوا: نعم وهو أعلم يهودي على وجه الأرض ورضوا به حكماً. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه، هل تجدون فيه الرجم على من أحصن؟" قال: نعم، فوثب عليه سفلة اليهود، فقال: خفت إن كذبت أنه أن يتزل علينا العذاب. ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله النبي الأمي العربي الذي بشر به المرسلون، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده "ومن يرد الله فتنته" تركه مفتوناً وخذلانه "فلن تملك له من الله شيئاً" فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً "أولئك الذين لم يرد الله أن ينجيهم من الظلمات إلى النور؛ لأنهم ليسوا من أهلها، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع" إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله" النحل: 104، "كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم" آل عمران: 86.

"سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين"

"السحت" كل ما لا يحل كسبه، وهو من - سحته - إذا استأصله لأنه مسحوت البركة كما قال تعالى: "يحقق الله الربا" البقرة: 276، والربا باب منه. وقرئ: السحت بالتخفيف والتثقيل. والسحت بفتح السين على لفظ المصدر

من سحته. والسحت، بفتح السين. وبكسر السين. وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وعن الحسن: كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كفه فأراها إياه وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيأكل الرشوة ويسمع الكذب. وحكي أن عاملاً قدم من عمله فجاءه قومه، فقدم إليهم العرصة وجعل يحدثهم بما جرى له في عمله، فقال أعرابي من القوم: نحن كما قال الله تعالى: "سمعون للكذب أكالون للسحت" وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به" قيل: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيراً - إذا تحاكم إليه أهل الكتاب - بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم. وعن عطاء والنخعي والشعبي: أنهم إذا ارتفعوا إلى حكام المسلمين، فإن شاءوا حكموا وإن شاءوا أعرضوا. وقيل: هو منسوخ بقوله: "وأن احكم بينهم بما أنزل الله" وعند أبي حنيفة رحمه الله: إن احتكموا إلينا حملوا على حكم الإسلام، وإن زنى منهم رجل بمسلمة أو سرق من مسلم شيئاً أقيم عليه الحد. وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة الحدود عليهم، يذهبون إلى أنهم قد صولخوا على شركهم وهو أعظم من الحدود. ويقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين قبل نزول الجزية "فلن يضروك شيئاً" لأنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم، كالجلد مكان الرجم. فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم، شق عليهم وتكرهوا إعراضه عنهم وكانوا خلقاء بأن يعادون ويضاروه، فأمن الله سره "بالقسط" بالعدل والاحتياط كما حكم بالرجم "وكيف يحكمونك" تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الإيمان به "ثم يتولون من بعد ذلك" ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم لا يرضون به "وما أولئك بالمؤمنين" بكتابهم كما يدعون. أو وما أولئك بالكاملين في الإيمان على سبيل التهكم بهم. فإن قلت: "فيها حكم الله" ما موضعه من الإعراب؟ قلت: إما أن ينتصب حالاً من التوراة وهي مبتدأ خبره عندهم وإما أن يرتفع خبراً عنها كقولك: وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله وإما أن لا يكون له محل وتكون جملة مبنية، لأن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم، كما تقول: عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب، فما تصنع بغيره؟ فإن قلت: لم أنثت التوراة؟ قلت: لكونها نظيرة لموادة ودودة ونحوها في كلام العرب. فإن قلت: علام عطف ثم يتولون؟ قلت: على يحكمونك.

"إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور" يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"

"فيها هدى" يهدي للحق والعدل "ونور" يبين ما استبهم من الأحكام "الذين أسلموا" صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح، كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة والتوضيح، وأريد بإجرائها التعريض باليهود، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث، وأن اليهودية بمعزل منها. وقوله: "الذين أسلموا للذين هادوا" مناد على ذلك "والربانيون والأخبار" والزهاد والعلماء من ولد هارون، الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود "بما استحفظوا من كتاب الله" بما سألهم أنبياءهم حفظه من التوراة، أي بسبب سؤال أنبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغير والتبديل، و من في من كتاب الله للتبيين "وكانوا عليه شهداء" رقباء لئلا يبدل. والمعنى يحكم بأحكام التوراة النبيون - بين موسى وعيسى وكان بينهما ألف نبى وعيسى - للذين هادوا يحملونهم

على أحكام التوراة لا يتركوهم أن يعدلوا عنها، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حملهم على حكم الرجم وإرغام أنوفهم، وإبائه عليهم ما اشتوهه من الجلد. وكذلك حكم الربانيون والأخبار والمسلمون بسبب ما استحفظهم أنبيأؤهم من كتاب الله والقضاء بأحكامه، وبسبب كونهم عليه شهداء. ويجوز أن يكون الضمير في استحفظوا للأنبياء والربانيين والأخبار جميعاً ويكون الاستحفاظ من الله، أي كلفهم الله حفظه وأن يكونوا عليه شهداء "فلا تخشوا الناس" فهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإدهائهم فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل الخشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء "ولا تشتروا" ولا تستبدلوا ولا تستعيصوا "بآياتي" وأحكامه "ثمناً قليلاً" وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس، كما حرف أخبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وطلباً للرياسة فهلكوا "ومن لم يحكم بما أنزل الله" مستهيناً به "فأولئك هم الكافرون" والظالمون والفاسقون: وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهانة. وتمردوا بأن حكموا بغيرها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الكافرين والظالمين والفاسقين: أهل الكتاب. وعنه: نعم القوم أنتم، ما كان من حلو فلکم، وما كان من مره فهو لأهل الكتاب، من جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق. وعن الشعبي: هذه في أهل الإسلام والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى. وعن ابن مسعود: هو عام في اليهود وغيرهم. وعن حذيفة: أنتم أشبه الأمم سماً ببني إسرائيل: لتركن طريقهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، غير أنني لا أدري أتعبدون العجل أم لا؟ "وكتبتنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص" فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون" في مصحف أبي: وأنزل الله على بني إسرائيل فيها وفيه: وأن الجروح قصاص. والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة، والرفع للعطف على محل أن النفس، لأن المعنى وكتبتنا عليهم النفس بالنفس، إما لإجراء كتبتنا مجرى قلنا، وإما لأن معنى الجملة التي هي قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتاب كما تقع عليه القراءة. تقول: كتبت الحمد لله، وقرأ سورة أنزلناها. ولذلك قال الزجاج: لو قرئ: إن النفس بالنفس، بالكسر؛ لكان صحيحاً. أو للاستئناف. والمعنى: فرضنا عليهم فيها "أن النفس" مأخوذة "بالنفس" مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق "و" كذلك "العين" مفقوعة "بالعين والأنف" مجدوع "بالأنف والأذن" مصلومة "بالأذن والسن" مقلوعة "بالسن والجروح قصاص" ذات قصاص، وهو المقاصة، ومعناه: ما يمكن فيه القصاص وتعرف المساواة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فتزلت. "فمن تصدق" من أصحاب الحق "به" بالقصاص وعفا عنه "فهو كفارة له" فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته، وعن عبد الله بن عمرو يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به، وقيل: فهو كفارة للجاني، إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه، وفي قراءة أبي: فهو كفارته. له يعني فالتصدق بكفارته له أي الكفارة التي يستحقها له لا ينقص منها، وهو تعظيم لما فعل، كقوله تعالى "فأجره على الله" الشورى: 40، وترغيب في العفو.

"وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونورٌ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظةً للمتقين، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الفاسقون" قفيتها مثل عقبته، إذا أتبعته ثم يقال قفيتها بفلان وعقبته به، فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء، فإن قلت: فأين المفعول الأول في الآية؟ قلت: هو محذوف والظرف الذي هو "على آثارهم" كالسناد مسده؛ لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في آثارهم للنبيين في قوله: "يحكم بما النبيون الذين أسلموا". وقرأ الحسن: الإنجيل بفتح الهمزة؛ فإن صح عنه فلا أنه أعجمي خرج لعجمته عن زنات العربية، كما خرج هايل واجر "ومصدقاً" عطف على محل "فيه هدى" ومحله النصب على الحال "وهدى وموعظة" يجوز أن ينتصبا على الحال. كقوله: "مصدقاً" وأن ينتصبا مفعولاً لهما، كقوله: "وليحكم" كأنه قيل. وللهدى والموعظة آتيانه الإنجيل، وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام. فإن قلت: فإن نظمت "وهدى وموعظة" في سلك مصدقاً، فما تصنع بقوله وليحكم قلت: اصنع به ما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتهما مفعولاً لهما، فأقدر: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيانه إياه. وقرئ: وليحكم على لفظ الأمر بمعنى: وقلنا ليحكم. وروي في قراءة أبي: وأن ليحكم، بزيادة أن مع الأمر على أن موصولة بالأمر، كقولك: أمرته بأن قم كأنه قيل: وآتيانه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل. وقيل: إن عيسى عليه السلام كان متعبداً بما في التوراة من الأحكام؛ لأن الإنجيل مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلة. وظاهر قوله: "وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه" يرد ذلك، وكذلك قوله: "لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً" المائدة: 48، وإن ساغ لقاتل أن يقول: معناه: وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة.

"وأنزّلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" فإن قلت: أي فرق بين التعريفيين في قوله: "وأنزّلنا إليك الكتاب" وقوله: "لما بين يديه من الكتاب"؟ قلت، الأول: تعريف العهد، لأنه عني به القرآن. والثاني: تعريف الجنس، لأنه عني به جنس الكتب المنزلّة: ويجوز أن يقال: هو للعهد؛ لأنه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق، وإنما أريد نوع معلوم منه، وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن "ومهيماً" ورقياً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات. وقرئ: مهيماً عليه بفتح الميم، أي هو من عليه بأن حفظ من التغير والتبديل، كما قال: "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه" فصلت: 42، والذي هيمن الله عليه عز وجل أو الحفاظ في كل بلد، لو حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد، ولا شأزوا رادين ومنكرين. ضمن "ولا تتبع" معنى ولا تنحرف؛ فلذلك عدي بعن كأنه قيل: ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم "لكل جعلنا منكم" أيها الناس "شرعةً" شريعة. وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الشين "ومنهاجاً" وطريقاً واضحاً في الدين تجرون عليه. وقيل: هذا دليل على أنا غير متعبدین بشرائع من قبلنا "لجعلكم أمةً واحدةً" جماعة متفقة على شريعة واحدة، أو ذوي أمة واحدة أي دين واحد لا اختلاف فيه "ولكن" أراد "ليلوكم في ما آتاكم" من الشرائع المختلفة، هل تعملون بها مدعين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات، معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة؟ أم تتبعون الشبه وتفترطون في العمل؟ "فاستبقوا الخيرات" فابتدروها وتسابقوا نحوها "إلى الله مرجعكم" استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات "فينبئكم" فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محكمكم ومبطلكم، وعاملكم ومفرطكم في العمل.

"وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون"
 فإن قلت: "وأن احكم بينهم" معطوف على ماذا؟ قلت: على الكتاب في قوله: "وأنزلنا إليك الكتاب" كأنه قيل: وأنزلنا إليك أن احكم على أن وصلت بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال، ويجوز أن يكون معطوفاً على بالحق أي أنزلناه بالحق وبأن احكم "أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك" أن يضلوك عنه ويستزلوك، وذلك: أن كعب بن أسيد وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس من أحرار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أن أحرار اليهود، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فتتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترلت "فإن تولوا" عن الحكم بما أنزل الله إليك وأرادوا غيره "فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم" يعني بذنب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه، فوضع "بعض ذنوبهم" موضع ذلك وأراد أن لهم ذنوباً جمة كثيرة العدد، وأن هذا الذنب مع عظمه بعضه وواحد منها، وهذا الإيهام لتعظيم التولي واستسرافهم في ارتكابه. ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد:

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أراد نفسه، وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإيهام، كأنه قال: نفساً كبيرة، ونفساً أي نفس، فكما أن التشكير يعطي معنى التكبير وهو معنى البعضية، فكذلك إذا صرح بالبعض "لفاسقون" لمتردون في الكفر معتدون فيه، يعني أن التولي عن حكم الله من التمرد العظيم والاعتداء في الكفر.
 "أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون" "أفحكم الجاهلية يبغون" فيه وجهان، أحدهما: أن قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: "القتلى بواء" فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك فترلت، والثاني: أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم، وهم يبغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحي من الله تعالى، وعن الحسن: هو عام في كل من يبغي غير حكم الله: والحكم حكمان: حكم بعلم فهو حكم الله، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعد ولده على بعض، فقرأ هذه الآية. وقرئ: تبغون، بالتاء والياء. وقرأ السلمي: أفحكم الجاهلية يبغون، برفع الحكم على الابتداء، وإيقاع يبغون خبراً وإسقاط الراجع عنه كإسقاطه عن الصلة في "أهذا الذي بعث الله رسولا" الفرقان: 31، وعن الصفة في الناس رجلاً: رجل أهنت، ورجل أكرمت. وعن الحال في مررت بهند يضرب زيد وقرأ قتادة: "أفحكم الجاهلية" على أن هذا الحكم الذي يبغونه إنما يحكم به أفعى نجران، أو نظيره من حكام الجاهلية، فأرادوا بسفههم أن يكون محمد خاتم النبيين حكماً كأولئك الحكام. اللام في قوله: "لقوم يوقنون" للبيان كاللام في هيت لك أي هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم الذين يتيقنون أن لا أعدل من الله ولا أحسن حكماً منه.
 "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا

يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين، ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين" لا تتخذوهم أولياء تنصروهم وتستنصروهم وتؤاخوهم وتصافوهم وتعاشروهم معاشرة المؤمنين. ثم علل النهي بقوله: "بعضهم أولياء بعض" أي إنما يوالي بعضهم بعضاً لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر، فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم "ومن يتولهم منكم فإنه" من جملتهم وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لا تراءى ناراهما" ومنه قول عمر رضي الله عنه لأبي موسى في كتابه النصرائي: لا تكرمواهم إذ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذ خوهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله. وروي: أنه قال له أبو موسى: لا قوام للبصرة إلا به، فقال: مات النصرائي والسلام، يعني هب أنه قد مات، فما كنت تكون صانعاً حينئذ فاصنعه الساعة، واستغن عنه بغيره "إن الله لا يهدي القوم الظالمين" يعني الذين ظلموا أنفسهم بموالة الكفر يمنعهم الله لطافته ويخذلهم مقتاً لهم "يسارعون فيهم" ينكمشون في موالاتهم ويرغبون فيها ويعتدرون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان، أي صرف من صروفه ودولة من دوله، فيحتاجون إليهم وإلى معاونتهم، وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لي موالي من يهود كثير أعددتهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي وهم يهود بني قينقاع. "فعسى الله أن يأتي بالفتح" لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار المسلمين "أو أمرٍ من عنده" يقطع شأفة اليهود ويجليهم عن بلادهم، فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم: وذلك أنهم كانوا يشكون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: ما نظن أن يتم له أمر، وبالخري أن تكون الدولة والغلبة هؤلاء. وقيل: أو أمر من عنده، أو أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على نفاقهم. وقيل: أو أمر من عند الله لا يكون فيه للناس فعل كجني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب. فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب "ويقول الذين آمنوا" قرئ بالنصب عطفاً على أن يأتي. وبالرفع على أنه كلام مبتدأ، أي: ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت: وقرئ: يقول: بغير واو، وهي في مصاحف مكة والمدينة والشأم كذلك على أنه جواب قائل يقول: فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل: يقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا. فإن قلت: لمن يقولون هذا القول؟ قلت: إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجباً من حالهم واغتياباً بما من الله عليهم من التوفيق في الإخلاص "هؤلاء الذين أقسموا" لكم بإغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار. وإما أن يقولوه لليهود لأنهم حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة. كما حكى الله عنهم "وإن قوتلتهم لننصرنكم" الحشر: 11. "حبطت أعمالهم" من جملة قول المؤمنين، أي بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها في رأي أعين الناس. وفيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم! فما أخسرهم! أو من قول الله عز وجل شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجباً من سوء حالهم.

"يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على

الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم" وقرئ: من يرتد ومن يرتدد، وهو في الإمام بدالين، وهو من الكائنات التي أخبر عنها في القرآن قبل كونها. وقيل: بل كان أهل الردة إحدى عشرة فرقة: ثلاث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: بنو مدلج، ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي، وكان كاهناً تنبأ باليمن واستولى على بلاده، وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن، فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل، فسر المسلمون وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد. وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول.

وبنو حنيفة، قوم مسيلمة تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك. فأجاب عليه الصلاة والسلام: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين، وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة. وكان يقول: قتل خير الناس في الجاهلية، وشر الناس في الإسلام، أراد في جاهليتي وإسلامي. وبنو أسد: قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً فأنزله بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه. وسبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه: فزارة قوم عيينة بن حصين وغطفان قوم قررة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل. وبنو يربوع، قوم مالك بن نويرة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المنتبئة التي زوجت نفسها مسيلمة الكذاب، وفيها يقول أبو العلاء المعري في كتاب استغفر واستغفري:

أمت سجاح ووالاها مسيلمة كذابة في بني الدنيا وكذاب

وكندة، قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد، وكفى الله أمرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه: غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطيمة وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه "فسوف يأتي الله بقوم" قيل: لما نزلت أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي موسى الأشعري فقال: "قوم هذا" وقيل: هم ألفان من النخع، وخمسة آلاف من كندة وحبيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس جاهدوا يوم القادسية. وقيل: هم الأنصار. وقيل:

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال: "هذا وذووه" ثم قال: لو كان الإيمان معلقاً بالشريا لناله رجال من أبناء فارس "يحبهم ويحبونه" محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه، ومحبة الله لعباده أن يشبههم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم: وأما ما يعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهالة والسفهاء شيئاً، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف، وما يدينون به من الحبة والعشق، والتغني على كراسيهم خرباً الله، وفي مراقصهم عطلها الله، بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسموهم

شهداء، وصعقناهم التي أين عنها صعقة موسى عند ذلك الطور، فتعالى الله عنه علواً كبيراً، ومن كلماتهم: كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته، فإن الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات. ومنها: الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك لم تكن فيه حقيقة. فإن قلت: أين الراجع من الجزء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط؟ قلت: هو محذوف معناه: فسوف يأتي الله بقوم مكافهم أو بقوم غيرهم، أو ما أشبه ذلك "أذلة" جمع ذليل. وأما ذلول فجمعه ذلل. ومن زعم أنه من الذل الذي هو نقيض الصعوبة، فقد غيى عنه أن ذلولاً لا يجمع على أذلة، فإن قلت: هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما أن يضمن الذل معنى الخو والعطف كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع. والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنتهم. ونحوه قوله عز وجل: "أشداء على الكفار رحماء بينهم" الفتح: 29، وقرئ: أذلة وأعزة بالنصب على الحال "ولا يخافون لومة لائم" يحتمل أن تكون الواو للحال، على أنهم يجاهدون وحالهم في الجاهدة خلاف حال المنافقين، فإنهم كانوا موالين لليهود - لعنت - فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط. وأن تكون للعطف، على أن من صفتهم الجاهدة في سبيل الله، وأنهم صلاب في دينهم، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين إنكار منكر أو أمر بمعروف، مضوا فيه كالمسامير الحماة، لا يرفعهم قول قاتل ولا اعتراض معترض ولا لومة لائم، يشق عليهم جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم. واللومة: المرة من اللوم، وفيها وفي التنكير مبالغتان كأنه قيل: لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوام. و "ذلك" إشارة إلى ما وصف به القوم من الخبة والذلة والعزة والجاهدة وانتفاء خوف اللومة "يؤتية" يوفق له "من يشاء" ممن يعلم أن له لطفاً "وساع" كثير الفواضل والألطف "عليهم" بمن هو من أهلها.

"إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون" عقب النهي عن موالاة من تجب معاداتهم ذكر من تجب موالاتهم بقوله تعالى: "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا" ومعنى إنما وجوب اختصاصهم بالموالاة. فإن قلت: قد ذكرت جماعة فهلا قيل: إنما أولياؤكم؟ قلت: أصل الكلام: إنما وليكم الله، فجعلت الولاية لله على طريق الأصاله، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التبع، ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا، لم يكن في الكلام أصل وتبع وفي قراءة عبد الله: إنما مولاكم. فإن قلت: "الذين يقيمون" ما محله؟ قلت: الرفع على البدل من الذين آمنوا، أو على: هم الذين يقيمون. أو النصب على المدح. وفيه تمييز للخلص من الذين آمنوا نفاقاً، أو واطأت قلوبهم ألسنتهم إلا أنهم مفرطون في العمل "وهم راكعون" الواو فيه للحال، أي يعملون ذلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات والتواضع لله إذا صلوا وإذا زكوا. وقيل: هو حال من يؤتون الزكاة، بمعنى يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة، و إنما نزلت في علي كرم الله وجهه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه.

كأنه كان مرجأً في خنصره، فلم يتكلف خلعه كثير عما تفسد بمثله صلاته، فإن قلت: كيف صح أن يكون لعلي رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة؟ قلت: جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً، ليرغب الناس

في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه، ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان وتفقد الفقراء، حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة، لم يؤخروه إلى الفراغ منها. "ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون" "فإن حزب الله" من إقامة الظاهر مقام المضمر. ومعناه: فإنهم هم الغالبون، ولكنهم بذلك جعلوا أعلاماً لكونهم حزب الله. وأصل الحزب؟ القوم يجتمعون لأمر حزبيهم. ويحتمل أن يريد بحزب الله: الرسول والمؤمنين. ويكون المعنى: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله، واعتضد بمن لا يغالب.

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون" روي أن رفاعه بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرنا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فزلت. يعني أن اتخذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغيضاء والشتان والمناذرة. وفصل المستهزئين باهل الكتاب والكفار - وإن كان أهل الكتاب من الكفار - إطلاقاً للكفار على المشركين خاصة. والدليل عليه قراءة عبد الله: ومن الذين أشركوا. وقرئ: والكفار بالنصب والجر. وتعصد قراءة الجز قراءة أي: ومن الكفار "واتقوا الله" في موالاة الكفار وغيرها "إن كنتم مؤمنين" حقاً؛ لأن الإيمان حقاً يأتي موالاة أعداء الدين "اتخذوها" الضمير للصلاة أو للمناداة. قيل: كان رجلاً من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الكاذب، فدخلت خادمه بنار ذات ليلة وهو نائم، فتطايرت منها شرارة في البيت فاحترق البيت، واحترق هو وأهله. وقيل: فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالنام وحده "لا يعقلون" لأن لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنه لا عقل لهم.

"قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون" قرأ الحسن: هل تنقمون بفتح القاف. والفصيح كسرهما. والمعنى هل تعييون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المتزلة كلها "وأن أكثركم فاسقون". فإن قلت: علام عطف قوله: "وإن أكثرهم فاسقون"؟ قلت: فيه وجوه: منها أن يعطف على أن آمنا، بمعنى: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي واعتقاد أنكم فاسقون ومنها أن يعطف على الجرور، أي وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون. ويجوز أن يكون تعليلاً معطوفاً على تعليل محذوف، كأنه قيل: وما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات. ويدل عليه تفسير الحسن: بفسقكم نقيض ذلك علينا.

"قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل، وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون" وروي:

أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود فسألوه عن يؤمن به من الرسل؟ فقال: "أؤمن بالله وما أنزل

إلينا إلى قوله: ونحن له مسلمون" فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام: ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً أشر من دينكم. فترلت. وعن نعيم بن مسيرة: "وإن أكثركم"، بالكسر. ويحتمل أن ينتصب وأن أكثركم بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون، أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو يرتفع على الابتداء والخبر محذوف، أي وفسقكم ثابت معلوم عندكم، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل، إلا أن حب الرياسة وكسب الأموال لا يدعكم فتتصفوا "ذلك" إشارة إلى المنقوم، ولا بد من حذف مضاف قبله، أو قبل من تقديره: بشر من أهل ذلك، أو دين من لعنه الله. و"من لعنه الله" في محل الرفع على قولك: هو من لعنه الله، كقوله تعالى: "قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار" أو في محل الجر على البدل من شر. وقرئ: مثوبة. ومثوبة. ومثالهما: مشورة، ومشورة. فإن قلت: المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف جاءت في الإساءة؟ قلت: وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله:

تحية بينهم ضربٌ وجيع

ومنه "فبشرهم بعذاب أليم" آل عمران: 21. فإن قلت: المعاقبون من الفريقين هم اليهود، فلم شورك بينهم في العقوبة؟ قلت: كان اليهود - لعنوا - يزعمون أن المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب، ف قيل لهم: من لعنه الله شر عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام في زعمكم ودعواكم "وعبد الطاغوت" عطف على صلة من كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت. وفي قراء أبي وعبدوا الطاغوت، على المعنى. وعن ابن مسعود: ومن عبدوا. وقرئ وعابد الطاغوت عطفاً على القردة. وعابدي. وعباد. وعبد. وعبد. ومعناه: الغلو في العبودية، كقولهم، رجل حذر وفطن، للبليغ في الحذر والفتنة. قال:

أمة وإن أباكمو عبد

أبني لبيني إن أمكم

وعبد بوزن حطم. وعبيد. وعبد - بضمين - جمع عبيد: وعبدة بوزن كفرة. وعبد، وأصله عبدة، فحذفت التاء للإضافة. أو هو كخدم في جمع خادم. وعبد وعباد. وأعبد، وعبد الطاغوت، على البناء للمفعول، وحذف الراجع، بمعنى: وعبد الطاغوت فيهم، أو بينهم، وعبد الطاغوت بمعنى صار الطاغوت معبوداً من دون الله، كقولك أمر إذا صار أميراً. وعبد الطاغوت، بالجر عطفاً على "من لعنه الله". فإن قلت: كيف جاز أن يجعل الله منهم عباد الطاغوت؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنه خذلهم حتى عبدوه. والثاني: أنه حكم عليهم بذلك ووصفهم به، كقوله تعالى: "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً" الزخرف: 19، وقيل: الطاغوت: العجل؛ لأنه معبود من دون الله، ولأن عبادتهم للعجل مما زينهم الشيطان، فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: أطاعوا الكهنة، وكل من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده. وقرأ الحسن: الطواغيت. وقيل: وجعل منهم القردة أصحاب السبت، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى. وقيل: كلا المسخين من أصحاب السبت، فشباهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير. وروي أنها لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون: يا إخوة القردة والخنازير فينكسون رءوسهم "أولئك" الملعونون المسوخو "شرّ مكاناً" جعلت الشرارة للمكان وهي لأهلها. وفيه مبالغة ليست في قولك: أولئك شر وأضل، لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز. نزلت في ناس

من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر لهم الإيمان نفاقاً، فأخبره الله تعالى بشأنهم وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا، لم يتعلق بهم شيء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله ومواعظك. وقوله: بالكفر وبه حالان، أي دخلوا كافرين وخرجوا كافرين. وتقديره: ملتبسين بالكفر. وكذلك قوله: وقد دخلوا؛ وهم قد خرجوا ولذلك دخلت قد تقريباً للماضي من الحال. ولمعنى آخر: وهو أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متوقفاً لإظهار الله ما كتموه، فدخل حرف التوقع وهو متعلق بقوله: قالوا آمنا أي قالوا ذلك وهذه حالهم.

"وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون، لولا ينهاهم الربانيون والأخبار عن قوهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون" الإثم الكذب بدليل قوله تعالى: "عن قوهم الإثم". "والعدوان" الظلم. وقيل: الإثم كلمة الشرك. وقولهم: عزيز ابن الله. وقيل: الإثم ما يختص بهم. والعدوان: ما يتعداهم إلى غيرهم. والمسارة في الشيء الشروع فيه بسرعة "لبئس ما كانوا يصنعون" كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير لأن كل عامل لا يسمى صانعاً، ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه، وكأن المعنى في ذلك أن مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها، وأما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره، فإذا فرط في الإنكار كان أشد حالاً من المواقع. ولعمري إن هذه الآي مما يقذف السامع وينعي على العلماء توانيهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي أشد آية في القرآن. وعن الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

"وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين" غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط" الإسراء: 29، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة، حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقوله:

شكرت نداه تلاعه ووهاده

جاد الحمى بسط اليدين بوابل

ولقد جعل لبيد للشمال يداً في قوله:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال: بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان. ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبث به. فإن قلت: قد صح أن قولهم: "يد الله مغلولة" عبارة عن البخل. فما تصنع بقوله: "غلت أيديهم"؟ ومن حقه أن يطابق ما تقدمه

وإلا تنافر الكلام وزل عن سننه؟ قلت: يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم أبخل خلق الله وأنكدهم. ونحوه بيت الأشر:

ولقيت أضيافي بوجه عبوس

بقيت وفري وانحرفت عن العلا

وجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدي حقيقة، يغللون في الدنيا أسارى، وفي الآخرة معذنين بأغلال جهنم، والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز، كما تقول: سبني سب الله دابره، أي قطعه؛ لأن السب أصله القطع. فإن قلت: كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم، فيزيدون بخلاً إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الأحداث التي تخزيهم وتمزق أعراضهم. فإن قلت: لم ثبتت اليد في قوله تعالى: "بل يدها مبسوطتان" وهي مفردة في "يد الله مغلوله"؟ قلت: ليكون ردة قولهم وإنكاره وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه. وذلك أن غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً فبني المجاز على ذلك. وقرئ: ولعنوا بسكون العين. وفي مصحف عبد الله: بل يدها بسطان. يقال: يده بسط بالمعروف. ونحوه مشية شح وناقة صرح "ينفق كيف يشاء" تأكيد للوصف بالسخاء، ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة. روي أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله في محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلوله، ورضي بقوله الآخرون فأشركوا فيه "وليزیدن" أي يزدادون عند نزول القرآن لحسدكم تمادياً في الجحود وكفروا بآيات الله "وألقينا بينهم العداوة" فكلمهم أبداً مختلف، وقلوبهم شتى، لا يقع اتفاق بينهم ولا تعاضد "كلما أوقدوا ناراً" كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقدروا على نصر من الله على أحد قط، وقد أتاهم الإسلام في ملك الجوس. وقيل: خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومي ثم أفسدوا فسلط الله عليهم الجوس، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمين. وقيل: كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم. وعن قتادة رضي الله عنه لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس "ويسعون" ويجتهدون في الكيد للإسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم.

"ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون" "ولو أن أهل الكتاب" مع ما عددنا من سيئاتهم "آمنوا" برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به. وقرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشريطة في الفوز بالإيمان "لكفرنا عنهم" تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها "ولأدخلناهم" مع المسلمين الجنة. وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى، وأن الإيمان لا ينجي ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى، كما قال الحسن: هذا العمود فأين الإطناب "ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل" أقاموا

أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم "وما أنزل إليهم" من سائر كتب الله، لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها، فكأنما أنزلت إليهم؛ وقيل: هو القرآن. لو سأل الله عليهم الرزق وكانوا قد قحطوا. وقوله: "لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم" عبارة عن التوسعة. وفيه ثلاث أوجه: أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض وأن يكثر الأشجار المثمرة والزرع المغلة أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم "منهم أمة مقتصدّة" طائفة حالها أمة في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: هي الطائفة المؤمنة عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى، و"ساء ما يعملون" فيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم، وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه والروم.

"يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين"

"بلغ ما أنزل إليك" جميع ما أنزل إليك وأي شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروه "وإن لم تفعل" وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك "فما بلغت رسالته" وقرئ: رسالاته، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالات، ولم تؤد منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكليها، لإدلاء كل منها بما يدلّه غيرها. وكونا كذلك في حكم شيء واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلغاً غير مبلغ، مؤمناً به غير مؤمن به. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن كتبت آية لم تبلغ رسالاتي وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثني الله برسالاته فضقت بما ذرعاً، فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك. وضمن لي العصمة فقويت". فإن قلت: وقوع قوله: "فما بلغت رسالته" جزاء للشرط ما وجه صحته؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنه إذا لم يمثل أمر الله في تبليغ الرسالات وكتبتها كلها كأنه لم يبعث رسولاً كان أمراً شنيعاً لإخفاء بشاعته، فقليل: إن لم تبلغ منها أدنى شيء وإن كان كلمة واحدة، فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها، كما عظم قتل النفس بقوله: "فكأنما قتل الناس جميعاً" المائدة: 32، والثاني: أن يراد: فإن لم تفعل فلك ما يوجب كتمان الوحي كله من العقاب فوضع السبب موضع المسبب، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام: "فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك" "والله يعصمك" عدة من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك، فما عذرك في مراقبتهم؟ فإن قلت: أين ضمان العصمة وقد شج في وجهه يوم أحد وكسرت ربابيته صلوات الله عليه؟ قلت: المراد أنه يعصمه من القتل. وفيه: أن عليه أن يحتمل كل ما دون النفس في ذات الله، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل: نزلت بعد يوم أحد، والناس الكفار بدليل قوله: "إن الله لا يهدي القوم الكافرين" ومعناه أنه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك. وعن أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة آدم وقال: "انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس".

"قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيد كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين" "لستم على شيء" أي على دين يعتد به حتى يسمى

شيئاً لفساده وبطلانه، كما تقول: هذا ليس بشيء تريد تحقيره وتصغير شأنه. وفي أمثالهم: أقل من لا شيء "فلا تأس" فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك، وفي المؤمنين غنى عنهم. "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون" والصابئون "رفع على الابتداء وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها، كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا، والصابئون كذلك، وأنشد سيبويه شاهداً له:

بغاة ما بقينا في شقاق

وإلا فاعلموا أنا وأنتم

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، فإن قلت: هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها. قلت: لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر، لا تقول: إن زيداً وعمرو منطلقان. فإن قلت لم لا يصح والنية به التأخير، فكأنك قلت: إن زيداً منطلق وعمرو؟ قلت: لأنني إذا رفعتاه عطفاً على محل إن واسمها، والعامل في محلها هو الابتداء، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين في عمله كما تنتظمها إن في عملها؛ فلو رفعت الصابئون المنوي به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بأن، لأعملت فيهما رافعين مختلفين. فإن قلت: فقوله والصابئون معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلت: هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: "إن الذين آمنوا..." الخ ولا محل لها، كما لا محل للتي عطف عليها، فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة هذا التقديم؟ قلت: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم. وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدّهم غياً، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبّوا عن الأديان كلها، أي خرجوا، كما أن الشاعر قدم قوله: وأنتم تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغاة من قومه، حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو بغاة لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً فإن قلت: فلو قيل: والصابئين وإياكم لكان التقديم حاصلاً. قلت: لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه، وإنما يقال مقدم ومؤخر للمزال لا للقرار في مكانه. ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض في الكلام، فإن قلت: كيف قال: "الذين آمنوا" ثم قال: "من آمن"؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يراد بالذين آمنوا: الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون وأن يراد بمن آمن. من ثبت على الإيمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه. فإن قلت: ما محل من آمن قلت: إما الرفع على الابتداء وخبره "فلا خوفٌ عليهم" والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر إن، وإما النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه، أو من المعطوف عليه. فإن قلت: فأين الراجع إلى اسم إن؟ قلت: هو محذوف تقديره من آمن منهم، كما جاء في موضع آخر. وقرئ: والصابئون، بياء صريحة، وهو من تخفيف الهمزة، كقراءة من قرأ: يستهزئون. والصابئون: وهو من صبوت، لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا أدلة العقل والسمع. وفي قراءة أبي رضي الله عنه: والصابئين، بالنصب. وبها قرأ ابن كثير. وقرأ عبد الله: يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.

"لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسولٌ بما لا تقوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً

يقتلون" "لقد أخذنا" ميثاقهم بالتوحيد "وأرسلنا إليهم رسلاً" ليفقوهم على ما يأتون وما يذورن في دينهم "كلما جاءهم رسول" جملة شرطية وقعت صفة لرسلاً، والراجع محذوف أي رسول منهم "بما لا تهوى أنفسهم" بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع. فإن قلت: أين جواب الشرط فإن قوله: "فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون" ناب عن الجواب، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ولأنه يحسن أن تقول إن أكرمت أخي أحاك أكرمت؟ قلت: هو محذوف يدل عليه قوله: "فريقاً وفريقاً يقتلون" كأنه قيل كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه، وقوله: "فريقاً كذبوا" جواب مستأنف لقائل يقول: كيف فعلوا برسلكهم؟ فإن قلت: لم جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً؟ قلت: جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها. قرئ: أن لا يكون، بالنصب على الظاهر. وبالرفع عن أن هي المخففة من الثقيلة، أصله: أنه لا يكون فتنة فخففت أن وحذف ضمير الشأن.

"وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون" فإن قلت: كيف دخل فعل الحسبان على أن التي للتحقيق؟ قلت: نزل حسبانهم لقوته في صدورهم مثالة العلم، فإن قلت: فأين مفعولاً حسب؟ قلت: سد ما يشتمل عليه صلة أن وأن من المسند والمسند إليه مسد المفعولين، والمعنى: وحسب بنو إسرائيل أنه لا يصيبهم من الله فتنة، أي بلاء وعذاب في الدنيا والآخرة "فعموا" عن الدين "وصموا" حين عبدوا العجل، ثم تابوا عن عبادة العجل ف "تاب الله عليهم ثم عموا وصموا" كرة ثانية بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو الرؤية: وقرئ: عموا وصموا، بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم، أي رماهم وضربهم بالعمى والصمم، كما يقال: نركته إذا ضربته بالنيزك وركبته إذا ضربته بركبته "وكثير منهم" بدل من الضمير: أو على قوهم: أكلوني البراغيث، أو هو خير مبتدأ محذوف أي أولئك كثير منهم.

"لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار" لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم في أنه عبد مربوب كمثلهم، وهو احتجاج على النصارى "إنه من يشرك بالله" في عبادته، أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله "فقد حرم الله عليه الجنة" التي هي دار الموحدين أي حرمه دخولها ومنعه منه، كما يمنع الحرم من الحرم عليه "وما للظالمين من أنصار" من كلام الله على أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قوهم رده وأنكره، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره. أو من قول عيسى عليه السلام، على معنى: ولا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالة وبعده عن المعقول. أو ولا ينصركم ناصر في الآخرة من عذاب الله.

"لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاباً أليماً، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيمٌ، ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون"

من في قوله: "وما من إله إلا إله واحد" للاستغراق وهي القدرة مع لا التي لنفي الجنس في قولك: لا إله إلا الله والمعنى: وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له، وهو الله وحده لا شريك له، و من في قوله:

"ليمسن الذين كفروا منهم" للبيان كالتي في قوله تعالى: "فاجتنبوا الرجس من الأوثان" الحج: 30، فإن قلت: فهلا قيل: ليمسّنهم عذاب أليم. قلت: في إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله: "لقد كفر الذين قالوا" وفي البيان فائدة أخرى وهي الإعلام في تفسير الذين كفروا منهم أنهم بمكان من الكفر. والمعنى: ليسمن الذين كفروا من النصارى خاصة "عذاب أليم" أي نوع شديد الألم من العذاب كما تقول: أعطني عشرين من الثياب، تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون. ويجوز أن تكون للتعريض، على معنى: ليمسّن الذين بقوا على الكفر منهم، لأن كثيراً منهم تابوا من النصرانية "افلا يتوبون" ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر. وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه. وفيه تعجيب من إصرارهم "والله غفورٌ رحيمٌ" يغفر هؤلاء إن تابوا ولغيرهم "قد خلت من قبله الرسل" صفة لرسول، أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، أن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى، وفلق بها البحر، وطمس على يد موسى. وإن خلقه من غير ذكر، فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى "وأمة صديقة" أي وما أمه أيضاً إلا كصديقة ك بعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين: أحدهما نبي، والآخر صحابي. فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم؟ مع أنه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه. ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما في قوله: "كانا يأكلان الطعام" لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفص لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام "كيف نبين لهم الآيات" أي الإعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم: "أنى يؤفكون" كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله. فإن قلت: ما معنى التراخي في قوله: ثم انظر؟ قلت: معناه ما بين العجيين، يعني أنه بين لهم الآيات بيانا عجيباً، وأن إعراضهم عنها أعجب منه.

"قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم" "ما لا يملك" هو عيسى، أي شيئاً لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فيقدار الله وتمكينه، فكأنه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية، حيث جعله لا يستطيع ضرراً ولا نفعاً. وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور على قدرته "والله هو السميع العليم" متعلق بأتعبدون، أي أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون أو أتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، ولن يكون كذلك إلا وهو حي قادر.

"قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل" "غير الحق" صفة للمصدر أي لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق أي غلواً باطلاً؛ لأن الغلو في الدين غلوان غلو حق. وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم. وغلوا باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه، كما يفعل أهل الأهواء والبدع "قد ضلوا من قبل" هم أئمتهم في النصرانية، كانوا على

الضلال قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم "وأضلوا كثيراً" من شايعهم على التثليث "وضلوا" لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم "عن سواء السبيل" حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه.

"لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيراً منهم يتولون الذي كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون" نزل الله لعنهم في الزبور "على لسان داود" وفي الإنجيل على لسان عيسى. وقيل إن أهل أيلة، لما اعتدوا في السبت قال داود عليه السلام: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخوا قردة. ولما كفر أصحاب عيسى عليه السلام بعد المائدة قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل، ما فيهم امرأة ولا صبي "ذلك بما عصوا" أي لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذي كان سبب المسخ، إلا لأجل المعصية والاعتداء، لا لشيء آخر؛ ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله: "كانوا لا يتناهون" لا ينهى بعضهم بعضاً "عن منكر فعلوه" ثم قال: "لبئس ما كانوا يفعلون" للتعجب من سوء فعلهم، مؤكداً لذلك بالقسم، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير، وقلة عيبتهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب. فإن قلت كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت: من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهي، فكان الإخلال به معصية وهو اعتداء، لأن في التناهي حسماً للفساد فكان تركه على عكسه. فإن قلت: ما معنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهي بعد الفعل؟ قلت: معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، كما ترى أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهاين فتتكسر. ويجوز أن يرد: لا ينتهون ولا يمتنعون عن منك فعلوه، بل يصبرون عليه ويدأبون على فعله. يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع منه وتركه "ترى كثيراً منهم" هم منافقو أهل الكتاب، كانوا يوالون المشركين ويصافوهم "أن سخط الله عليهم" هو المخصوص بالذم، ومحله الرفع، كأنه قيل: لبئس زادهم إلى الآخرة سخط الله عليهم. والمعنى: موجب سخط الله "ولو كانوا يؤمنون" إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين "أولياء" يعني أن موالاتهم المشركين كفى بما دليلاً على نفاقهم، وأن إيمانهم ليس بإيمان "ولكن كثيراً منهم فاسقون" متمردون في كفرهم ونفاقهم، وقيل معناه: ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون، ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

"لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، فأنابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم" وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق

ولين عريكة النصارى وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الإسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقدمهم على الذين أشركوا، وكذلك فعل في قوله: "ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا" البقرة: 96، ولعمري إنهم لكذلك وأشد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله" وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين "بأن منهم قسيسين ورهباناً" أي علماء وعباداً "وأهم" قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم، واليهود على خلاف ذلك. وفيه دليل بين على أن التعلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير وأدله على الفوز حتى علم القسيسين، وكذلك غم الآخرة والتحدث بالعاقبة وإن كان في راهب، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني. ووصفهم الله بركة القلوب وأهم ييكون عند استماع القرآن، وذلك نحو ما يحكى عن النجاشي رضي الله عنه أنه قال لجعفر بن أبي طالب - حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون لعنوا وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنتهم عنده: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، فقرأها إلى قوله: "ذلك عيسى ابن مريم" مريم: 34، وقرأ سورة طه إلى قوله: "وهل أتاك حديث موسى" طه: 9، فبكى النجاشي وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة يس. فبكوا. فإن قلت: بم تعلق اللام في قوله: "للذين آمنوا"؟ قلت: بعداوة ومودة، على أن عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشد العداوات وأظهرها، وأن مودة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودات، وأداها وجوداً، وأسهلها حصولاً. ووصف اليهود بالعداوة والنصارى بالمودة مما يؤذن بالتفاوت، ثم وصف العداوة والمودة بالأشد والأقرب. فإن قلت: ما معنى قوله: "تفيض من الدمع" قلت: معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك دمعت عينه دمعاً فإن قلت: أي فرق بين من ومن في قوله: "مما عرفوا من الحق"؟ قلت الأولى لابتداء الغاية، على أن فيض الدمع ابتداء ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله وبسببه. والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا. وتحتل معنى التبعض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟ وقرئ ترى أعينهم على البناء للمفعول "ربنا آمناً" المراد به إنشاء الإيمان، والدخول فيه "فاكتبنا مع الشاهدين" مع أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة "لتكونوا شهداء على الناس" البقرة: 143، وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك "وما لنا لا نؤمن بالله" إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجه وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين، وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لا موهم فأجابوهم بذلك. ومحل لا نؤمن النصب على الحال، بمعنى: غير مؤمنين، كقولك: مالك قائماً. والواو في "وطمع" واو الحال. فإن قلت: ما العامل في الحال الأولى والثانية؟ قلت: العامل في الأولى ما في اللام من معنى الفعل، كأنه قيل: أي شيء حصل لنا غير مؤمنين، وفي الثانية معنى هذا الفعل، ولكن مقيداً بالحال الأولى؛ لأنك لو أزلتها وقلت: وما لنا ونطمع، لم يكن كلاماً. ويجوز أن يكون ونطمع حالاً من لا نؤمن، على أنهم أنكروا على نفوسهم أنهم لا يوحدون الله، ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين، وأن يكون معطوفاً على لا نؤمن على معنى: وما لنا لا نجتمع

بينهما بالدخول في الإسلام، لأن الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين. قرأ الحسن: قاتاهم "بما قالوا" بما تكلموا به عن اعتصام وإخلاص، من قولك: هذا قول فلان، أي اعتقاده وما يذهب إليه.

"يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون" "طيبات ما أحل الله لكم" ما طاب ولد من الحلال. ومعنى "لا تحرموا" لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم. أو لا تقولوا حرمانها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً وروي:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة يوماً لأصحابه، فبالغ وأشبع الكلام في الإنذار، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون، واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين، وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح ويسبحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: "إني لم أؤمر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" ونزلت. وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ، وكان يعجبه الحلواء والعسل. وقال: "إن المؤمن حلواً يحب الحلوة"، وعن ابن مسعود أن رجلاً قال له: إني حرمت الفراش فتلا هذه الآية وقال: نم على فراشك وكفر عن يمينك. وعن الحسن أنه دعي إلى طعام ومعه فرقد السنجي وأصحابه، فقعدها على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان. فأقبل الحسن عليه وقال: يا فريقد، أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن يعيبه مسلم. وعنه أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذ ويقول: لا أؤدي شكره. قال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم. قال: إنه جاهل، إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ. وعنه: إن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم. قال الله تعالى: "لينفق ذو سعة من سعته" الطلاق: 7، ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر زواها عنهم فعصوه "ولا تعتدوا" ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم. أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات. أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلماً، فمنه عن الاعتداء ليدخل تحته النهي عن تحريمها دخولاً أولاً. لوروده على عقبه أو أراد ولا تعتدوا بذلك "وكلوا مما رزقكم الله" أي من الوجوه الطيبة التي تسمى رزقاً "حلالاً" حال مما رزقكم الله "واتقوا الله" تأكيد للتوصية بما أمر به. وزاده تأكيداً بقوله: "الذي أنتم به مؤمنون" لأن الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى ما أمر به وعما نهى عنه.

"لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون" اللغو في اليمين: الساقط الذي لا يتعلق به حكم، واختلف فيه، فعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عنه فقالت: هو قول الرجل لا والله، بلى والله وهو مذهب الشافعي. وعن مجاهد: هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله "بما عقدتم

الأيمان" بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية. وروي أن الحسن رضي الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال: يا أبا سعيد، دعني أجب عنك فقال:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وقرى: عقدتم، بالتخفيف. وعاقدم. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذه. لأنه كان معلوماً عندهم، أو بنكت ما عقدتم. فحذف المضاف "فكفارتة" فكفارة نكته. والكفارة: الفعل التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها "من أوسط ما تطعمون" من أقصده، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله، ومنهم من يقتدر وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين، أو يغذيهم ويعشيهم. وعند الشافعي رحمه الله: مد لكل مسكين. وقرأ جعفر بن محمد: أهاليكم، بسكون الياء، والأهالي: اسم جمع لأهل: كالليالي في جمع ليلة، والأراضي في جمع أرض. وقولهم: أهلون كقولهم أرضون بسكون الراء. وأما تسكين الياء في حال النصب فللتخفيف، كما قالوا: رأيت معد يكرب، تشبيهاً للياء بالألف "أو كسوتهم" عطف على محل من أوسط وقرئ بضم الكاف، ونحوه: قدوة في قدوة، وأسوة في إسوة، والكسوة ثوب يغطي العورة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت العباءة تجزئ يومئذ. وعن ابن عمر: إزار أو قميص أو رداء أو كساء. وعن مجاهد: ثوب جامع. وعن الحسن: ثوبان أبيضان. وقرأ سعيد بن المسيب واليماني: أو كأسوتهم، بمعنى: أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً. لا تنقصوهم عن مقدار نفقتهم، ولكن تواسون بينهم وبينهم. فإن قلت: ما محل الكاف؟ قلت: الرفع، تقديره: أو طعامهم كأسوتهم، بمعنى: كمثل طعامهم إن لم يطعموهم الأوسط "أو تحرير رقبة" شرط الشافعي رحمه الله الإيمان قياساً على كفارة سوى كفارة القتل. وأما أبو حنيفة وأصحابه، فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة سوى كفارة القتل. فإن قلت: ما معنى أو؟ قلت: التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الإطلاق، بأيتها أخذ المكفر فقد أصاب "فمن لم يجد" إحداها "فصيام ثلاثة أيام" متتابعات عند أبي حنيفة رحمه الله، تمسكاً بقراءة أبي وابن مسعود رضي الله عنهما: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. وعن مجاهد: كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان، ويخير في كفارة اليمين "ذلك" المذكور "كفارة أيمانكم" ولو قيل: تلك كفارة أيمانكم، لكان صحيحاً بمعنى تلك الأشياء أو لتأنيث الكفارة. والمعنى "إذا حلفتكم" وحنثتم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة إنما تجب بالحنث في الحلف، لا بنفس الحلف، والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث "واحفظوا أيمانكم" فبروا فيها ولا تحنثوا أراد الأيمان التي الحنث فيها معصية، لأن الأيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله. وقيل: احفظوها بأن تكفروها. وقيل: احفظوها كيف حلفتكم بها، ولا تنسوها قهواً بها "كذلك" مثل ذلك البيان "يبين الله لكم آياته" أعلام شريعته وأحكامه "لعلكم تشكرون" نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه.

"يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم

منتھون" أكد تحريم الخمر والميسر وجوهاً من التأكيد منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرئها بعبادة الأصنام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام

"شارب الخمر كعابد الوثن" ومنها أنه جعلهما رجساً، كما قال تعالى: "فاجتنبوا الرجس من الأوثان" الحج: 30، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وقوله: "فهل أنتم منتھون" من أبلغ ما ينهي عنه، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتھون. أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تترجروا؟ فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: "فاجتنبوه"؟ قلت: إلى المضاف المحذوف، كأنه قيل: إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال: "رجسٌ من عمل الشيطان" فإن قلت: لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً ثم أفردهما آخر؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين. وإنما فهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنماً وأشرك بالله في علم الغيب، وبين من شرب خمرًا أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر. وقوله: "وعن الصلاة" اختصاص للصلاة من بين الذكر كأنه قيل: وعن الصلاة خصوصاً.

"وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين" "واحذروا" وكونوا حذرين خاشعين، لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى انقاء كل سيئة وعمل كل حسنة. ويجوز أن يراد: واحذروا ما عليكم في الخمر والميسر، أو في ترك طاعة الله والرسول "فإن توليتم فاعلموا" أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول، لأن الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم.

"ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين" رفع الجناح عن المؤمنين في أي شيء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها "إذا ما اتقوا" ما حرم عليهم منها "وآمنوا" وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه "ثم اتقوا وآمنوا" ثم ثبتوا على التقوى والإيمان "ثم اتقوا وأحسنوا" ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أفعالهم، أو أحسنوا إلى الناس: واسوهم بما رزقهم الله من الطيبات. وقيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة: يا رسول الله، فكيف ياخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر فترلت. يعني أن المؤمنين لا جناح عليهم في أي شيء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، على معنى: أن أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان. ومثاله أن يقال لك: هل على زيد فيما فعل جناح؟ فنقول - وقد علمت أن ذلك أمر مباح -: ليس على أحد جناح في المباح، إذا اتقى المحارم، وكان مؤمناً محسناً، تريد: أن زيدا تقي مؤمن محسن؛ وأنه غير مؤاخذ بما فعل.

"يا أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشيءٍ من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى

بعد ذلك فله عذابٌ أليمٌ" نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده، أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم "ليعلم الله من يخافه بالغيب" ليميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر في الآخرة فيتقي الصيد، مما لا يخافه فيقدم عليه "فمن اعتدى" فصاد "بعد ذلك" الابتلاء فالوعيد لاحق به. فإن قلت: ما معنى التقليل والتصغير في قوله: "بشيء من الصيد"؟ قلت: قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تدحض عندها أقدام الثابتين، كالاتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنما هو شبهة بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه. وقرأ إبراهيم: يناله، بالياء.

"يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرمٌ ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدلٍ منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليدوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيزٌ ذو انتقام"

"حرمٌ" محرمون، جمع حرام، كروح في جمع رداح. والتعمد: أن يقتله وهو ذاكراً لإحرامه، أو عالم أن ما يقتله مما يرحم عليه قتله، فإن قتله وهو ناس لإحرامه أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فإذا هو صيد، أو قصد برميهِ غير صيد فعُدل السهم عن رميته فأصاب صيداً فهو مخطئ. فإن قلت: فمحظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ، فما بال التعمد مشروطاً في الآية؟ قلت: لأن مورد الآية فيمن تعمد؛ فقد روي أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحش، فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمح فقتله، فقليل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم فزلت ولأن الأصل فعل التعمد، والخطأ لاحق به للتغليظ. ويدل عليه قوله تعالى: "ليدوق وبال أمره" "ومن عاد فينتقم الله منه" وعن الزهري: نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير: لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً باشتراط العمد في الآية. وعن الحسن روايتان "فجزاءٌ مثل ما قتل" برفع جزاء ومثل جميعاً، بمعنى: فعليه جزاء بمثل ما قتل من الصيد، وهو عند أبي حنيفة قيمة المصيد يقوم حيث صيد. فإن بلغت قيمته ثمن هدي، تخير بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد، وبين أن يشتري بقيمته طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من غيره، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً، فإن فضل ما لا يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدق به. وعند محمد والشافعي رحمهما الله مثله نظيره من النعم، فإن لم يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبي حنيفة رحمه الله. فإن قلت: فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله: "من النعم" وهو تفسير للمثل، ويقول: "هدياً بالغ الكعبة"؟ قلت: قد خير من أوجب القيمة بين أن يشتري بها هدياً أو طعاماً أو يصوم، كما خير الله تعالى في الآية. فكان قوله: "من النعم" بياناً للهدى المشتري بالقيمة في أحد وجوه التخيير؛ لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فأهداه، فقد جرى بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزي بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم، إنما يستقيم استقامة ظاهرة بغير تعسف إذا قوم ونظر بعد التقويم أي الثلاثة بخيار، فأما إذا عمد إلى النظر وجعله الواجب وحده من غير تخيير - فإذا كان شيئاً لا نظير له قوم حينئذ ثم يخير بين الإطعام والصوم - ففيه نبو عما في الآية. ألا ترى إلى قوله تعالى: "أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً" كيف خير بين الأشياء الثلاثة، ولا

سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم. وقرأ عبد الله: فجزاؤه مثل ما قتل، وقرئ: فجزاء مثل ما قتل، على الإضافة، وأصله. فجزاء مثل ما قتل، بنصب مثل بمعنى: فعلية أن يجزى مثل ما قتل، ثم أضيف كما تقول: عجت من ضرب زيد، وقرأ السلمي على الأصل وقرأ محمد بن مقاتل، فجزاء مثل ما قتل، بنصبهما، بمعنى: فليجز جزاء مثل ما قتل. وقرأ الحسن: من النعم. بسكون العين، استثقل الحركة على حرف الحلق فسكنه "يحكم بها" بمثل ما قتل "ذوا عدل منكم" حكمان عادلان من المسلمين. قالوا: وفيه دليل على أن المثل القيمة، لأن التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة. وعن قبيصة أنه أصاب ظبياً وهو محرم فسأل عمر، فشاور عبد الرحمن بن عوف، ثم أمره بذبح شاة، فقال قبيصة لصاحبه: والله ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره، فأقبل عليه ضرباً بالدرّة وقال: أنغمص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم. قال الله تعالى: "يحكم به ذوا عدل منكم" فأنا عمر، وهذا عبد الرحمن. وقرأ محمد بن جعفر ذو عدل منكم أراد يحكم به من يعدل منكم ولم يرد الوحدة. وقيل: أراد الإمام "هدياً" حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل، لأن الصفة خصصته فقربته من المعرفة، أو بدل عن مثل فيمن نصبه، أو عن محله فيمن جره. ويجوز أن ينتصب حالاً عن الضمير في به. ووصف هدياً بـ "بالغ الكعبة" لأن إضافته غير حقيقية. ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم، فأما التصديق به فحيث شئت عند أبي حنيفة، وعند الشافعي في الحرم. فإن قلت: بم يرفع "كفارة" من ينصب جزاء؟ قلت: يجعلها خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: أو الواجب عليه كفارة. أو يقدر: فعليه أن يجزي جزاء أو كفارة. فيعطفها على أن يجزي. وقرئ: أو كفارة طعام مساكين على الإضافة، وهذه الإضافة مبينة، كأنه قيل: أو كفارة من طعام مساكين، كقولك: خاتم فضة، بمعنى خاتم من فضة. بالواحد الدال على الجنس. وقرئ: أو عدل ذلك، بكسر العين. والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه، كالصوم والإطعام. وعدله ما عدل به في المقدار، ومنه عدلا الحمل، لأن كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا، كأن المفتوح تسمية بالمصدر، والمكسور بمعنى المفعول به، كالذبح ونحوه، ونحوهما الحمل والحمل. و "ذلك" إشارة إلى الطعام "وصياماً" تمييز للعدل كقولك: لي مثله رجلاً. والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبي حنيفة وأبي يوسف. وعند محمد إلى الحكمين "ليذوق" متعلق بقوله: فجزاء أي فعليه أن يجازى أو يكفر، ليذوق سوء عاقبة هتكه حرمة الإحرام. والوبال: المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه، كقوله تعالى: "فأخذناه أخذاً" وبيلاً المزمل: 16، ثقیلاً. والطعام الوبيل: الذي يثقل على المعدة فلا يستمر "عفا الله عما سلف" لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسألوه عن جوازه. وقيل: عما سلف لكم في الجاهلية منه، لأنهم كانوا متعبدین بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً "ومن عاد" إلى قتل الصيد وهو محرم بعد نزول النهي "فينتقم الله منه" ينتقم: خبر مبتدأ محذوف تقديره: فهو ينتقم الله منه، ولذلك دخلت الفاء. ونحوه "فمن يؤمن بربه فلا يخاف" الحجر: 13، يعني ينتقم منه في الآخرة. واختلف في وجوب الكفارة على العائد، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبیر والحسن: وجوبها، وعليه عامة العلماء. وعن ابن عباس وشريح: أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر، وأنه لم يذكر الكفارة.

"أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون"

"صيد البحر" مصيدات البحر مما يؤكل وما لا يؤكل "وطعامه" وما يطعم من صيده والمعنى: أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبي حنيفة. وعند ابن أبي ليلى جميع ما يصاد منه، على أن تفسير الآية عنده أحل لم صيد حيوان البحر وأن تطعموه "متاعاً لكم" مفعول له، أي أحل لكم تمتيعاً لكم وهو في المفعول له بمثالة قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة" الأنبياء: 72، في باب الحال، لأن قوله: "متاعاً لكم" مفعول له مختص بالطعام، كما أن نافلة حال مختصة بيعقوب، يعني أحل لكم طعامه تمتيعاً لتناثركم يأكلونه طرياً، ولسيارتكم يتزودونه قديداً، كما تزود موسى عليه السلام الخوت في مسيره إلى الخضر عليهما السلام. وقرئ: وطعمه. وصيد البر: ما صيد فيه. وهو ما يفرخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات، كطير الماء عند أبي حنيفة. واختلف فيه فمنهم من حرم على الحرم كل شيء يقع عليه اسم الصيد، وهو قول عمر وابن عباس، وعن أبي هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير: أنهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال، وإن صاده لأجله، إذا لم يدل ولم يشر، وكذلك ما ذبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمه الله، وعند مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله: لا يباح له ما صيد لأجله. فإن قلت: ما يصنع أبو حنيفة بعموم قوله: صيد البر؟ قلت قد أخذ أبو حنيفة رحمه الله بالمفهوم من قوله: "وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً" لأن ظاهره أنه صيد الحرم دون صيد غيرهم، لأنهم هم المخاطبون فكأنه قيل: وحرم عليكم ما صدتم في البر، فيخرج منه مصيد غيرهم، ومصيدهم حين كانوا غير محرمين. ويدل عليه قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم" وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: وحرم عليكم صيد البر، أي الله عز وجل. وقرئ ما دمتم بكسر الدال، فيمن يقول دام يدام.

"جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم، اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفورٌ رحيم" "البيت الحرام" عطف بيان على جهة المدح، لا على جهة التوضيح، كما تحيى الصفة كذلك "قياماً للناس" انتعاشاً لهم في أمر دينهم ودنياهم، ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهن، وأنواع منافعهن. وعن عطاء بن أبي رباح: لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا "والشهر الحرام" الشهر الذي يؤدي فيه الحج، وهو ذو الحجة، لأن لاختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد عرفه الله تعالى. وقيل: عني به جنس الأشهر الحرم "والهدي والقلائد" والمقلد منه خصوصاً وهو البدن، لأن الثواب فيه أكثر، وبهاء الحج معه أظهر "ذلك" إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره "لتعلموا أن الله يعلم" كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينعشكم مما أمركم به وكلفكم "شديد العقاب" لمن انتهك محارمه "غفورٌ رحيم" لمن حافظ عليها.

"ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون" "ما على الرسول إلا البلاغ" تشديد في إيجاب القيام بما أمر به، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة، ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفریط.

"قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون" البون بين

الخبث والطيب بعيد عند الله تعالى وإن كان قريباً عندكم، فلا تعجبوا بكثرة الخبث حتى تؤثره لكثرتة على القليل الطيب، فإن ما تنوهمونه في الكثرة من الفضل، لا يوازي النقصان في الخبث، وفوات الطيب، وهو عام في حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وصحيح المذهب وفاسدها، وجيد الناس ورديهم "فاتقوا الله" وآثروا الطيب، وإن قل، على الخبث وإن كثر. ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجرة إذا افتخروا بالكثرة كما قيل:

وكاثر بسعدٍ إن سعاداً كثيرةً ولا ترج من سعدٍ وفاءً ولا نصراً

وكما قيل:

لا يدهمك من دهمائهم عددٌ فإن جلهم بل كلهم بقر

وقيل: نزلت في حجاج اليمامة، حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم، فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين. "يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفورٌ حلِيمٌ، قد سأها قومٌ من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين" الجملة الشرطية والمعطوفة عليها أعني قوله: "إن تبد لكم تسؤكم" صفة للأشياء. والمعنى: لا تكثروا مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم، إن أفناكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها. وذلك نحو ما روي: أن سراقه بن مالك أو عكاشة بن محصن قال: يا رسول الله، الحج علينا كل عام؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد مسأله ثلاث مرات، فقال صلى الله عليه وسلم: "ويحك! ما يؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه" "وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن"، وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه، تبد لكم. تلك التكاليف الصعبة التي تسؤكم، وتؤمروا بتحملها، فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها "عفا الله عنها" عفا الله عما سلف، من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها "والله غفورٌ حلِيمٌ" لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته. فإن قلت: كيف قال: "لا تسئلوا عن أشياء" ثم قال: "قد سأها" ولم يقل: قد سأل عنها؟ قلت: الضمير في "سأها" ليس برافع إلى أشياء حتى تجب تعديته بعن، وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها "ولا تسئلوا" يعني قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين "ثم أصبحوا بها" أي بمرجوعها أو بسببها "كافرين" وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبيائهم عن أشياء، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا. "ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون" كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، بحروا أذنفاً، أي شقوها وحرموها ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعبي لم يركبها. واسمها البحيرة. وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقني سائبة. وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبداً قال: هو

سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث. وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لأهنتهم. فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أحاها، فلم يذبحوا الذكر لأهنتهم. وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا من حمى ظهره، فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى "ما جعل" ما شرع ذلك ولا أمر بالتحريم والتسيب وغير ذلك، ولكنهم بتحريمهم ما حرموا "يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون" فلا ينسبون التحريم إلى الله حتى يفتروا، ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارها.

"وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون" الواو في قوله: "أو لو كان آباؤهم" واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره: أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم "لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون" والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدي، وإنما يعرف اهتدائه بالحجة.

"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون"

كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعدا من الكفرة، يتمنون دخولهم في الإسلام، فقليل لهم "عليكم أنفسكم" وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طرق الهدى "لا يضركم" الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات" فاطر: 8، وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي، ولا يزال يذكر معائبهم ومناكيرهم. فهو مخاطب به، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه، وعن ابن مسعود: أما قرئت عنده فقال: إن هذا ليس بزمانها إنما اليوم مقبولة. ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم، فهي على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه، وبسط لعذره. وعنه: ليس هذا زمان تأويلها. قيل: فمتى؟ قال: إذا جعل دونها السيف والسوط والسجن. وعن أبي ثعلبة الخشني: أنه سئل عن ذلك فقال للسائل: سألت عنها خيراً. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال: "اتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا ما رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك ودع أمر العوام. وإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن كقبض على الجمر، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله" وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، ولا موه. فترلت "عليكم أنفسكم" عليكم: من أسماء الفعل، بمعنى: الزموا إصلاح أنفسكم، ولذلك جزم جوابه. وعن نافع: عليكم أنفسكم، بالرفع. وقرئ لا يضركم وفيه وجهان أن يكون خبراً مرفوعاً وتنصره قراءة أبي حيوة، لا يضركم؛ وأن يكون جواباً للأمر مجزوماً، وإنما ضمت الراء إتياعاً لضممة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة. والأصل: لا يضركم، ويجوز أن يكون نهيًا، ولا يضركم، بكسر الضاد وضمها من ضاره يضره ويضره.

"يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت تحبسونها من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنًا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين، فإن عثر على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما

من الذين استحق عليهم الأولين فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين، ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهه أو يخافوا أن ترد أيماناً بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين" ارتفع اثنان على أنه خبر للمبتدأ الذي هو "شهادة بينكم" على تقدير: شهادة بينكم شهادة اثنين. أو على أنه فاعل شهادة بينكم على معنى: فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان: وقرأ الشعبي: شهادة بينكم بالتثوين. وقرأ الحسن: شهادة، بالنصب والتثوين على: لقيم شهادة اثنان. و"إذا حضر" ظرف للشهادة. و"حين الوصية" بدل منه، إبداله منه دليل على وجوب الوصية، وأنها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها. وحضور الموت: مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل "منكم" من أقاربكم. و"من غيركم" من الأجانب "إن أنتم ضربتم في الأرض" يعني إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم، فاستشهدوا أجنيين على الوصية، وجعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وما هو أصلح وهم له أنصح. وقيل "منكم" من المسلمين، و"من غيركم" من أهل الذمة. وقيل: هو منسوخ لا تجوز شهادة الذمي على المسلم، وإنما جازت في أول الإسلام لقلّة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر. وعن مكحول: نسخها قوله تعالى: "وأشهدوا ذوي عدل منكم" الطلاق: 2، وروى:

أنه خرج بديل بن أبي مرجم مولى عمرو بن العاص وكان من المهاجرين، مع عدي بن زيد وقيم بن أوس - وكانا نصرانيين - تجاراً إلى الشام، فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه، وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه، وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله. ومات ففتشا متاعه، فأخذوا إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشاً بالذهب، فغياها، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء، فجحدا فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزلت "تجسوهما" تقفوهما وتصبروهما للحلف "من بعد الصلاة" من بعد صلاة العصر، لأن وقت اجتماع الناس. وعن الحسن: بعد صلاة العصر أو الظهر؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل: أنها لما نزلت صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا بعدي وقيم فاستحلفهما عند المنبر، فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة، فقالوا: إنا اشتريناه من تميم وعدي. وقيل: هي صلاة أهل الذمة، وهم يعظمون صلاة العصر "إن ارتبتم" اعتراض بين القسم والمقسم عليه. والمعنى: إن ارتبتم في شأهما واقتمتموهما فحلفوهما. وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين: وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما. وعن علي رضي الله عنه: أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا أتمهما والضمير في "به" للقسم. وفي "كان" للمقسم له يعني: لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا، أي لا نحلف كاذبين لأجل المال، ولو كان من نقسم له قريباً منا، على معنى: أن هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً، وأهمهم داخلون تحت قوله تعالى: "كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين" النساء: 135. "شهادة الله" أي الشهادة التي أمر الله بحفظها وتعظيمها. وعن الشعبي أنه وقف على شهادة، ثم ابتداءً بالله بالمد، عل طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه. وروى عنه بغير مد على ما ذكر سيبويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام، فيقول: الله لقد كان كذا. وقرئ: الملائين يحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها، كقوله: عاد لولي، فإن قلت: ما موقع تجسوهما؟ قلت: هو استئناف كلام، كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما، فقيل: تجسوهما فإن

قلت: كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهي مطلقة؟ قلت: لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها، أغنى ذلك عن التقييد، كما لو قلت في بعض أئمة الفقه: إذا صلى أخذ في الدرس علم أنها صلاة الفجر. ويجوز أن تكون اللام للجنس، وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً في النطق بالصدق، ونهاية عن الكذب والزور "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" العنكبوت: 45، "فإن عشر" فإن اطلع "على أنهما استحقا إثماً" أي فعلاً ما أوجب إثماً، واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين "فآخران" فشهدان آخران "يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم" أي من الذين استحق عليهم الإثم. معناه من الذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرتهم. وفي قصة بديل: أنه لما ظهرت خيانة الرجلين، حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما، وأن شهادتهما أحق من شهادتهما. "الأولين" الأحقان بالشهادة لقرايتهما ومعرفتهما، وارتفاعهما على: هما الأوليان كأنه قيل ومن هما؟ فقيل: الأوليان. وقيل: هما بدل من الضمير في يقومان، أو من آخران. ويجوز أن يرتفعوا باستحقاق، أي من الذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال. وقرئ الأولين على أنه وصف للذين استحق عليهم، مجرور، أو منصوب على المدح. ومعنى الأولوية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها. وقرئ: الأولين على الشبهة، وانتصابه على المدح. وقرأ الحسن: الأولان، ويحتاج به من يرى رد اليمين على المدعي. وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك. فوجهه عندهم أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا، فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما، فأنكر الورثة فكانت اليمين على الورثة لإنكارهم الشراء. فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ استحق عليهم الأوليان على البناء للفاعل، وهم علي: وأي وابن عباس؟ قلت: معناه من الورثة الذي استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة، أن يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين "ذلك" الذي تقدم من بيان الحكم "أدنى" أن

يأتي الشهداء على نحو تلك الحادثة "بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيماناً" أن تكرر أيمان شهود آخرين بعد إيمانهم، فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في قصة بديل. "واسمعوا" سمع إجابة وقبول. "يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب، إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين"

"يوم يجمع" بدل من المنصوب في قوله: واتقوا الله وهو من بدل الاشتمال، كأنه قيل: واتقوا الله يوم جمعه. أو ظرف لقوله: لا يهدي أي لا يهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم. أو ينصب على إضمار اذكر. أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت. و"ماذا" منتصب بأجبتم انتصاب مصدره، على معنى: أي إجابة أجبتم. ولو أريد الجواب لقيل: بماذا أجبتم. فإن قلت: ما معنى سؤالهم؟ قلت: توبيخ قومهم، كما كان سؤال المؤددة توبيخاً للوائد. فإن قلت: كيف يقولون: "لا علم لنا" وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهاراً للتشكي واللجأ إلى ربه في الانتقام

منهم، وذلك أعظم على الكفرة وأفت في أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم إذا اجتمع توبيخ الله وتشكي أنبيائه عليهم. ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينهما ويقول له: ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به، يريد توبيخه وتبكيته، فيقول له: أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه، واتكلاً عليه، وإظهاراً للشكاية، وتعظيماً لما حل به منه. وقيل: من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب، ثم يجيئون بعد ما تنوب إليهم عقولهم بالشهادة على أمهم. وقيل: معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به، لأنك علام الغيوب. ومن علم الخفيات لم تحف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسولهم، فكانه لا علم لنا إلى جنب علمك. وقيل: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة. وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موجحين. وقرئ: علام الغيوب بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: "إنك أنت" أي إنك اموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص، أو على النداء، أو هو صفة لاسم إن "إذ قال الله" بدل من يوم يجمع والمعنى: أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم، وبتعديدهما أظهر على أيديهم من الآيات العظام، فكذبوهم وسموهم سحرة. أو جاوزوا حد التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة، كما قال بعض بني إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى عليه السلام من البنيات والمعجزات "هذا سحر مبین" الأحقاف: 7، واتخذ بعضهم وأمه إلهمين "أيدتك" قويتك. وقرئ: أيدتك، على أفعلتك "بروح القدس" بالكلام الذي يحيا به الدين، وأضافه إلى القدس، لأنه سبب الطهر من أضرار الآثام. والدليل عليه قوله تعالى: "تكلم الناس" و"في المهد" في موضع الحال، لأن المعنى تكلمهم طفلاً "وكهلاً" إلا أن في المهد فيه دليل على حد من الطفولة. وقيل روح اقدس: جبريل عليه السلام، أيد به لتثبيت الحجة. فإن قلت: ما معنى قوله: في المهد وكهلاً؟ قلت: معناه تكلمهم في هاتين الحالتين، من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحد الذي يستنبأ فيه الأنبياء "والتوراة والإنجيل" خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة، لأن المراد بهما جنس الكتاب والحكمة. وقيل: الكتاب الخط. و الحكمة الكلام المحكم الصواب "كهنة الطير" هيئة مثل هيئة الطير "ياذي" بتسهيلي "فتنفخ فيها" الضمير للكاف، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست في خلقه ولا من نفخه في شيء. وكذلك الضمير في فتكون "تخرج الموتى" تخرجهم من القبور وتبعثهم. قيل: أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية "وإذ كففت بني إسرائيل عنك" يعني اليهود حين هموا بقتله. وقيل: لما قال الله تعالى لعيسى "اذكر نعمتي عليك" كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئاً لغد يقول: مع كل يوم رزقه، م يكن له بيت فيخرب، ولا ولد فيموت، أينما أمسى بات.

"وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون، إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منهما وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر

بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين" "أوحيت إلى الخواريين" أمرتهم على ألسنة الرسل "مسلمون" مخلصون، من أسلم وجهه لله "بعيسى" في محل النصب على إتباع حركة الابن، كقولك: يا زيد بن عمرو، وهي اللغة الفاشية ويجوز أن يكون مضموماً كقولك: يا زيد بن عمرو. والدليل عليه قوله:

أحار بن عمرو كأني خمر ويبدو على المرء ما يأتذر

لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم. فإن قلت: كيف قالوا: "هل يستطيع ربك" بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما، ثم أتبعه قوله: "إذ قالوا" فأذن أن دعواهم كانت باطلة، وأنهم كانوا شاكين، وقوله: هل يستطيع ربك كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه: اتقوا الله ولا تشكوا في اقتدراه واستطاعته، ولا تقترحوا عليه، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها "إن كنتم مؤمنين" إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة. وقرئ: هل تستطيع ربك، أي هل تستطيع سؤال ربك، والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله. والمائدة: الخوان إذا كان عليه الطعام، وهي من ماله إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليه "ونكون عليها من الشاهدين" نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة، عاكفين عليها، على أن عليها في موضع الحال، وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم الإيمان والإخلاص. وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكما لها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا. وقرئ: ويعلم، بالياء على البناء للمفعول. وتعلم. وتكون، بالتاء. والضمير للقلوب "اللهم" أصله يا الله. فحذف حرف النداء، وعوضت منه الميم. و"ربنا" نداء ثان "تكون لنا عيداً" أي يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد. ومن ثم اتخذه النصارى عيداً، وقيل: العيد السرور العائد، ولذلك يقال: يوم عيد. فكأن معناه: تكون لنا سروراً وفرحاً، وقرأ عبد الله: تكن، على جواب الأمر. ونظيرهما. يرثني ويرثني "لأولنا وآخرنا" بدل من لنا بتكرير العامل، أي لمن في زماننا من أهل ديننا، ولم يأتي بعدنا. وقيل: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم، ويجوز للمقدمين منا والأتباع. وفي قراءة زيد: لأولنا وآخرنا، والتأنيث بمعنى الأمة والجماعة "عذاباً" بمعنى تعذيباً. والضمير في لا أعذبه للمصدر، ولو أريد بالعذاب ما يعذب به، لم يكن بد من الباء. وروي أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً، ثم قال: اللهم أنزل علينا، فترلت سفرة حمراء بين غمامتين: غمامة فوقها وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها. فقال شمعون رأس الخواريين: أنت أولى بذلك، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً. وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: يا روح الله، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما، ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتكم واشكروا

يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقال الحواريون: يا روح الله، لو أرينا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة احبي ياذن الله، فاضطربت. ثم قال لها: كوني كما كنت، فعادت مشوية. ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسخوا قردة وخنازير: وروي أنهم لما سمعوا بالشريعة وهي قوله تعالى: "فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه" قالوا: لا نريد فلم تنزل. وعن الحسن: والله ما نزلت، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة، لقوله: وآخرا. والصحيح أنها نزلت. "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" "سبحانك" من أن يكون لك شريك "ما يكون لي" ما ينبغي لي "أن أقول" قولاً لا يحق لي أن أقوله "في نفسي" في قلبي. والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه، فقل: "في نفسك" لقوله في نفسي "إنك أنت علام الغيوب" تقرير للجملتين معاً، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد.

"ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" أن في قوله "أن اعبدوا الله" إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر. والمفسر إما فعل القول وإما فعل الأمر، وكلاهما لا وجه له. أما فعل القول فيحكي بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير، لا تقول: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله. ولكن: ما قلت لهم إلا اعبدوا الله. وأما فعل الأمر، فمسند إلى ضمير الله عز وجل. فلو فسرته باعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم؛ لأن الله تعالى لا يقول: اعبدوا الله ربي وربكم، وإن جعلتها موصولة بالفعل لم تخل من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به، أو من الهاء في به، وكلاهما غير مستقيم: لأن البديل هو الذي يقوم مقام المبدل منه. ولا يقال: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله، بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته؛ لأن العبادة لا تقال. وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء لأنك لو أقمت أن اعبدوا الله مقام الهاء، فقلت: إلا ما أمرتني بأن أعبدوا الله، لم يصح، لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته. فإن قلت: فكيف يصنع؟ قلت: يحمل فعل القول على معناه؛ لأن معنى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به. ما أمرهم إلا بما أمرتني به، حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم. ويجوز أن تكون أن موصولة عطف بيان للهاء لا بدلاً "وكنت عليهم شهيداً" رقيباً كالشاهد على المشهود عليه، أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به "فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم" تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة، وأنزلت عليهم من البينات، وأرسلت إليهم من الرسل "إن تعذبهم فإنهم عبادك" الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك "وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز" القوي القادر على الثواب والعقاب "الحكيم" الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب. فإن قلت: المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال: وإن تغفر لهم؟ قلت: ما قال إنك تغفر لهم، ولكنه بنى الكلام على: إن غفرت، فقال: إن عذبهم عدلت، لأنهم أحقاء بالعذاب، وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول، بل متى كان الجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن.

"قال الله هذا يوم ينفع اصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم" قرئ: هذا يوم ينفع بالرفع والإضافة. وبالنصب إما على أنه ظرف لقال: وإما على أن هذا مبتدأ، والظرف خبر. ومعناه: هذا الذي ذكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع. ولا يجوز أن يكون فتحاً، كقوله تعالى: "يوم لا تملك" الانفطار: 9، لأنه مضاف إلى متمكن. وقرأ الأعمش: يوم ينفع بالتثنية، كقوله تعالى: "واتقوا يوماً لا تجزي نفس" البقرة: 48، فإن قلت: ما معنى قوله: ينفع الصادقين صدقهم؟ إن أريد صدقهم في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل، وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه؛ لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟ قلت: معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم. وعن تقادة: متكلمان تكلمتا يوم القيامة. أما إبليس فقال: إن الله وعدكم وعد الحق، فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذباً، فلم ينفعه صدقه. وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

"لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير" فإن قلت: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء، فقليل: ومن فيهن؟ قلت: ما يتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد: ما هو؟ قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره، فكان أولى بإرادة العموم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا".

الجزء الثاني

سورة الأنعام

مكية وعن ابن عباس: غير ست آيات. وآياتها 165

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون".

"جعل" يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كقوله: "وجعل الظلمات والنور" وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير، كقوله: "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً" الزخرف: 19، والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك "وجعل منها زوجها" الأعراف: 189، "وجعل الظلمات والنور" لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار "ثم جعلكم أزواجاً" فاطر: 11، "أجعل الآلهة إلهاً واحداً"، فإن قلت: لم أفرد النور؟ قلت: للقصد إلى الجنس، كقوله تعالى: "والملك على أرجائها" الحاقة: 17، أو لأن الظلمات كثيرة، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار. فإن قلت: علام عطف قوله: "ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ"؟ قلت: إما على قوله: "الحمد لله" على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؟ لأنه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته وإما على قوله: "خلق السموات" على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. فإن قلت: فما معنى ثم؟ قلت: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك "ثم أنتم تمترون" الأنعام: 2، استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ" "ثم قضى أجلاً" أجل الموت "وأجل مسمى عنده" أجل القيامة. وقيل: الأجل الأول: ما بين أن يخلق إلى أن يموت. والثاني: ما بين الموت والبعث وهو البرزخ. وقيل: الأول النوم. والثاني: الموت. فإن قلت: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيرها فلم جاز تقديمه في قوله: "وأجل مسمى عنده"؟ قلت: لأنه تخصيص بالصفة فقارب المعرفة، كقوله: "ولعبد مؤمن خير من مشرك" البقرة: 221، فإن قلت: الكلام الساتر أن يقال: عندي ثوب جيد، ولي عبد كيس، وما أشبه ذلك؟ فما أوجب التقديم؟ قلت: أوجبه أن المعنى: وأي أجل مسمى عنده تعظيماً لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم.

"وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون" "في السموات" متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود عيها. ومنه قوله: "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله" الزخرف: 84، أو هو المعروف بالإنسية أو المتوحد بالإنسية فيها، أو هو الذي يقال له: الله فيها لا يشرك به في هذا الاسم ويجوز أن يكون "الله في السموات" خبراً بعد خبر على معنى: أنه الله وأنه في السموات والأرض، بمعنى: أنه عالم بما فيهما لا يخفى عليه منه شيء، كأن ذاته فيهما، فإن قلت: كيف موقع قوله: "يعلم سرُّكم وجهركم"؟ قلت: إن أردت المتوحد بالإنسية كان تقريراً له؛ لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، وكذلك إذا جعلت في السموات خبراً بعد خبر، وإلا فهو كلام مبتدأ بمعنى: هو يعلم سركم وجهركم. أو خبر ثالث "ويعلم ما تكسبون"، من الخير والشر، ويشيب عليه، ويعاقب.

"وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون" "من" في "من آية" للاستغراق. وفي "من آيات ربهم" للتبويض. يعني: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار، إلا كانوا عنه معرضين: تاركين للنظر لا يلتفتون إليه ولا يرفعون به رأساً، لقلّة خوفهم وتدبرهم للعواقب، "فقد كذبوا" مردود على كلام محذوف كأنه قيل إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها وهو الحق "لما جاءهم" يعني القرآن الذي تحدوا به على تبالغهم في الفصاحة فعمزوا عنه "فسوف يأتيهم أنباء" الشيء الذي "كانوا به يستهزؤون"، وهو القرآن، أي أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزؤا. وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

"ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين". مكن له في الأرض: جعل له مكاناً فيها. ونحوه: أرض له. ومنه قوله: "إنا مكنّا له في الأرض" الكهف: 184 "أو لم نمكن لهم" القصص: 57، وأما مكنته في الأرض فأثبتته فيها. ومنه قوله: "ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه" الأحقاف: 26، ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله: "مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم" والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم، من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا. والسماء المظلة، لأن الماء يتزل منها إلى السحاب، أو السحاب أو المطر. والمدار: المغزار. فإن قلت: أي فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم، قلت: الدلالة على أنه لا يتعاضمه أن يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده، كقوله تعالى: "ولا يخاف عقباها" الشمس: 15.

"وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ، وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَلِكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلِكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ، وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلِكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ". "كتاباً" مكتوباً "في قِرْطَاسٍ" في ورق "فلمسوه بأيديهم" ولم يقتصر بهم على الرؤية، لئلا يقولوا سكرت أبصارنا، ولا تبقى لهم علة. لقالوا "إن هذا إلا سحر مبين" تعنتاً وعناداً للحق بعد ظهوره "لقضي الأمر" لقضي أمر إهلاكهم بعد

نزوله طرفة عين. إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن، ثم لا يؤمنون كما قال: "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى" الأنعام: 111، لم يكن بد من إهلاكهم، كما أهلك أصحاب المائدة، وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة، فيجب إهلاكهم. وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ومعنى "ثم" بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة "ولو جعلناه ملكاً"، ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك. وتارة يقولون: "ما هذا إلا بشر مثلكم" المؤمنون: 33، "ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة"، فصلت: 14، "لجعلناه رجلاً" لآرسلناه في صورة رجل، كما.

كان يزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعم الأحوال في صورة دحية. لأنهم لا ييقنون مع رؤية الملائكة في صورهم "وَلَكَّسْنَا عَلَيْهِمْ" وخلقنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون: إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل على أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق بأن ملك لا بشر كذبه كما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن، فهو لبس الله عليهم. ويجوز أن يراد: "وللبسنا عليهم" حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة: وقرأ ابن محيصن: "ولبسنا عليهم"، بلام واحدة. وقرأ الزهري: "وللبسنا عليهم ما يلبسون"، بالتشديد.

"ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون".
"ولق استهزئ" تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقي من قومه "فحاق" بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤون به وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.
"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" فإن قلت: أي فرق بين قوله "فانظروا" وبين قوله: "ثُمَّ أَنْظِرُوا" قلت: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله: "فانظروا" فكأنه قيل سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله: "سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا" فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بشم، لتباعد ما بين الواجب والمباح.

"قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ".

"لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ" سؤال تبيكيت، و"قُلْ لِلَّهِ" تقرير لهم، أي هو الله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره "كتب على نفسه الرحمة" أي أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السموات الأرض، ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله "لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" فيجازيكم على إشراككم. وقوله: "الذين خسروا أنفسهم" نصب على الدم، أو رفع: أي أريد الذين خسروا أنفسهم، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم.

فإن قلت: كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسارتهم، والأمر على العكس؟ قلت: معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله: لاختيارهم الكفر. فهم لا يؤمنون.

"وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم".

"وله" عطف على الله "مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" من السكنى وتعديه بفي كما في قوله: "وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم". "وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

"قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل أي أمرت أن أكون أول من أسلم ولا أكون من المشركين، قل أي أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، من يصرف عنه يومئذ رحمته وذلك الفوز العظيم".

أولي "أغير الله" همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو "اتخذوا لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً، لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم. ونحوه "أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون" الزمر: 64، "اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ" يونس 59. وقرئ "فَاطِرِ السَّمَوَاتِ" بالجر صفة لله، وبالرفع على المدح. وقرأ الزهري: "فَطَرٌ". وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر كقال أحدهما: أنا فطرهما أي ابتدعتها "وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ" وهو يرزق ولا يُرَزَق، كقوله: "ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون" الذاريات: 59.

والمعنى: أن المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع. وقرئ: "ولا يَطْعَمُ"، بفتح الياء. وروى ابن المأمون عن يعقوب: "وهو يُطْعَمُ وَلَا يُطْعِمُ"، على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: "وهو يطعم ولا يطعم"، على بناءهما للفاعل. وفسر بأن معناه: وهو يطعم، ولا يستطعم. وحكى الأزهري: أطعمت،

بمعنى استطعمت، ونحوه أفدت. ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح، كقولك: وهو يعطي ويمنع، ويسقط، ويقدر، ويغني ويفقر "وأول من أسلم" لأن النبي سابق أمته في الإسلام، كقوله "وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" الأنعام: 163، وكقول موسى: "سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين"

الأعراف: 143، "ولا تكونن" وقيل لي لا تكونن "من المشركين" ومعناه: أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك. و "من يَصْرِفُ عَنْهُ"، العذاب "يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ" الله الرحمة العظمى وهي النجاة، كقولك: إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه؟ تريد: فقد أتممت الإحسان إليه أو، فقد أدخله الجنة، لأن من لم يعذب لم يكن له بد من الثواب.

وقرئ: "من يصرف عنه" على البناء للفاعل، والمعنى: من يصرف الله عنه في ذلك اليوم فقد رحمته، بمعنى: من يدفع الله عنه. ويحفظه، وقد علم من المدفوع عنه. وترك ذكر المصروف؟ لكونه معلوماً أو مذكوراً قبله وهو العذاب.

ويجوز أن ينتصب يومئذ بيصرف انتصاب المفعول به، أي من يصرف الله عنه ذلك اليوم: أي هوله، فقد رحمته. وينصر هذه القراءة قراءة أبي رضي الله عنه: من يصرف الله عنه.

"وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير".

"وإن يمسسك الله يضُرُّ" من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو "وإن يمسسك بخير" من غنى أو صحة "فَهُوَ على كل شيء قدير"، فكان قادراً على إدامته أو إزالته.

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ".

"فَوْقَ عِبَادِهِ"، تصوير للقهر والعلو بالغلبة والقدرة، كقوله: "وإنا فوقهم قاهرون" الأعراف: 127، الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والخال والمستقيم. ولذلك صح أن يقال في الله عز وجل: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح: جسم لا كالأجسام.

"قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أأنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون". وأراد: أي شهيد "أكبر شهادة" فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في التعميم "قل الله شهيد بيني وبينكم" يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله: "قل الله" بمعنى الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ "شهيد بيني وبينكم" أي هو شهيد بيني وبينكم، وأن يكون "الله شهيد بيني وبينكم" هو الجواب، لدلالته على أن الله عز وجل إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكثر شيء شهادة شهيد له "وَمَنْ بَلَغَ" عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة. أي: لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم. وقيل: من الثقيلين. وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم "أنتم لتشهدون" تقرير لهم مع إنكار واستبعاد "قل لا أشهد" شهادتكم.

"الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون، ومن أضل ممن أفترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون". "الذين آتيناهم الكتاب"، يعني اليهود والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة "كما يعرفون أبناءهم" بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته. ثم قال: "الذين خسروا أنفسهم" من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين "فهم لا يؤمنون" به، جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة، والبرهان الصحيح، حيث قالوا: "لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا" الأنعام: 148، وقالوا: "والله أمرنا بها"، الأعراف: 28، وقالوا: الملائكة بنات الله و"هؤلاء شفعائنا عند الله" يونس: 18، ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات، وسموها سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم. "ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون".

"ويوم نحشرهم" ناصبه محذوف تقديره: ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف "أين شركاؤكم" أي آفتكم التي جعلتموها شركاء لله. وقوله: "الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" معناه تزعموهم شركاء، فحذف المفعولان. وقرئ: "ويحشرهم" ثم يقول: بالياء فيهما. وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز

أن يشاهدوهم، إلا أنهم حين لا ينفعوهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة. فكأنهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم، وحسرتهم "فنتتهم" كفرهم. والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقتلوا عليه وافتخروا به، وقالوا دين آباءنا إلا جحوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من التدين به. ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا فسمي فتنة، لأنه كذب. وقرئ: "تكن" بالتاء و"فنتتهم" بالنصب. وإنما أنت "أن قالوا، لوقوع الخبر مؤثراً، كقولك: من كانت أمك؟ وقرئ بالياء ونصب الفتنة. وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ: "ربنا" بالنصب على النداء "وَصَلَّ عَنْهُمْ" وغاب عنهم "ما كانوا يفترون" أي يفترون إلهيته وشفاعته. فإن قلت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور على أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً: ألا تراه يقولون: "ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون" المؤمنون: 107، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، "ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك" الزخرف: 77، وقد علموا أنه لا يقضى عليهم. وأما قول من يقول: معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وجاهل قوله: "انظر كيف كذبوا على أنفسهم، يعني في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عي وإقحام، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمرجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشد النبؤ. وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى: "يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون" المجادلة: 18، بعد قوله: "ويحلفون على الكذب وهم يعلمون" المجادلة: 114، فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

"ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبكم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين، وهم يبهون عنه وينبتون عنه وإن يهلكوا إلا أنفسهم وما يشعرون".

"ومنهم من يستمع إليك" حين تتلوا القرآن. روي: أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل، وأصراهم يسمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر: يا أبا قُتَيْبَةَ، ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته يعني الكعبة ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً. فقال أبو جهل: كلا، فزلت. والأكنة على القلوب، والوقر في الأذان: مثل في نبؤ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته. ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله: "وجعلنا" للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم، كأنهم مجبولون عليه. أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم "وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب" فصلت: 5، وقرأ طلحة: "وقرأ" بكسر الواو "حتى إذا جاءوك يجادلونك" هي حتى التي تقع بعدها الجمل. والجملته قوله: "إذا جاءوك" يقول الذين كفروا و"يجادلونك" في موضع الحال. ويجوز أن تكون الجارة ويكون إذا جاؤك في محل الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، وقوله: يقول "الذين كفروا". تفسير له. والمعنى بأنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلهم بأنهم يقولون: "إن هذا إلا

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث، خرافات وأكاذيب، وهي الغاية في التكذيب "وَهُمْ يَنْهَوْنَ" الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه، ويشطوهم عن الإيمان به "عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ" بأنفسهم فيضلون ويضلون "وإن يهلكُونَ" بذلك "إلا أنفسهم" ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، إن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: هو أبو طالب لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه ولا يؤمن به. وروي أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءاً. فقال:

وَاللّٰهُ لَن يَصْلُوْا اِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ	حَتّٰى اَوْسَدَ فِى التَّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ	وَابْشُرْ بِذَٰكَ وَقَرِّ مِنْهُ عِيُونَا
وَدَعَوْتِنِي وَزَعَمْتَ نَاصِح	وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا لَا مُحَالَةَ أَنَّهُ	مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِي سَبَّة	لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَٰكَ مَبِينَا

فترلت: "ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون".

"وَلَوْ تَرَىٰ" جوابه محذوف تقديره. ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً "وَقِفُّوا عَلَى النَّارِ" أروها حتى يعاينوها. أو اطلعوا عليها اطلاعاً هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته، وقرئ: "وقفوا" على البناء للفاعل، ومن وقف عليه وقوفاً "يا ليتنا نرد" تم تنيهم. ثم ابتدؤا "ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين" واعددين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات. وشبهة سيويه بقولهم: دعني ولا أعود، بمعنى: دعني وأنا لا أعود، تركتني أو لم تتركني. ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد، أو حالاً على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمني. فإن قلت: يدفع ذلك قوله: "وإنهم لكاذبون" لأن التمني لا يكون كاذباً. قلت: هذا ممن قد تضمن معنى العدة، فجاز أن يتعلق به التكذيب، كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمن في معنى الواعد، فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، كأنه قال: إن رزقني الله مالاً كافأتك على الإحسان. وقرئ: "ولا نكذب ونكون" بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين "بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ" من قبل "من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم؟ فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً، لا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا. وقيل: هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه. وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَلَوْ رُدُّوا" إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار "لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ" من الكفر والمعاصي "وإنهم لكاذبون" فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به. وقالوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ".

"وَقَالُوا" عطف على لعادوا. أي: ولو ردوا لكفروا ولقالوا: "إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا" كما كانوا يقولون قبل معاناة القيامة. ويجوز أن يعطف على قوله: وإهم لكاذبون، على معنى: وإهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا. وكفى به دليلاً على كذبهم.

"ولو ترى إذ وقفوا على رُجُم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون".

"وَقِفُوا عَلَى رُجُم" مجاز على الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه. وقيل: وقفوا على جزاء رُجُم. وقيل: عرفوه حق التعريف "قَالَ" مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم رُجُم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال: "أليس هذا بالحق" وهذا تعبير من الله تعالى لهم على التكذيب. وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء: ما هو بحق وما هو إلا باطل "بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" بكفركم ببقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها. وقد حقق الكلام فيه في مواضع أخرى. و"حتى" غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسراهم لا غاية له. أي ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة. فإن قلت: أما يتحسرون عند موتهم؟ قلت: لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مات فقد قامت قيامته". أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة "بَغْتَةً" فجأة وانتصباها على الحال بمعنى باغتة؛ أو على المصدر كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة "فَرَطْنَا فِيهَا" الضمير للحياة الدنيا، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة، أو الساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرطت في فلان. ومنه فرطت في جنب الله "تَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ" كقوله: "فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ" الشورى: 30، لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهر، كما ألف الكسب بالأيدي "سَاءَ مَا يَزِرُونَ" بنس شيئاً يزرون وزرهم، كقوله "ساء مثلاً القوم" الأعراف: 177.

"وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون".

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالاً بما لا يعني ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة. وقوله: "للذين يتقون" دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: "ولدار الآخرة" وقرئ: "تعقلون" بالناء والياء.

"وقد نعلم إنه ليحزنك الذين يقولون فإهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون".

قد في قد نعلم بمعنى ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته، كقوله:

أَخُو ثَقَّةٍ لَا تَهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَهْلِكُ الْمَالُ نَائِلَهُ

والهاء في إنه ضمير الشأن ليحزنك قرئ بفتح الياء وضمها. والذي يقولون هو قولهم: ساحر كذاب لا يكذبونك قرئ بالتشديد والتخفيف من كذبه إذا جعله كاذباً في زعمه وأكذبه إذا وجده كاذباً. والمعنى أن تكذيبك أمر راجع

إلى الله، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بمجود آياته، فإله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليشغلك عن ذلك ما هو أهم وهو استعظامك بمجود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه. ونحوه قول السيد لغلالمه إذا أهانه بعض الناس: إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني. وفي هذه الطريقة قوله تعالى: "إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله" الفتح: 10، وقيل: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بالسنتهم. وقيل: فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق، ولكنهم يجحدون بآيات الله. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء، ولكنهم كانوا يجحدون. وكان أبو جهل يقول: ما نكذبك لأنك عندنا صادق، وإنما نكذب ما جئنا به. وروي: أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة، فماذا يكون لسائر قریش، فترلت، وقوله: "ولكن الظالمين" من إقامة الظاهر مقام المضمر، للدلالة على أنهم ظلّموا في جحودهم.

"ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين".

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ، تسليّة لرسول صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على أن قوله: "فإنهم لا يكذبونك" الأنعام: 33، ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلالمك: ما أهانوك ولكنهم أهانوني "على ما كُذِّبُوا وَأُؤْذُوا" على تكذيبهم وإيذائهم "ولا مبدل لكلمات الله" لمواعيده من قوله: "ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون" الصافات: 171، "وَلَقَدْ جَاءكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ" بعض أنبيائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

"وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكن من الجاهلين، إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعذبهم الله ثم إليه يرجعون".

كان يكبر على النبي صلى الله عليه وسلم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فترلت: "لعلك باخع نفسك" في الشعراء: 3، "إنك لا تهدي من أحببت" القصص: 56، "وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغي نفقاً في الأرض" منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها "أو سلماً في السماء فتأتيهم" منها بآية، فافعل. يعني أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل: كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا إليها لتمادي حرصه على إيمانهم. فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون. ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآيات، كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقي إلى السماء لفعلت، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها. وحذف جواب إن كما تقول إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نزوره ولو شاء الله

لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة "فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ" من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه "إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ" يعني أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمترلة المولى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب من يسمع، كقوله: "إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى" النمل: 85، "والموتى يعثهم الله" ، مثل لقدرته على إجلاتهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة "ثم إليه يرجعون" للجزاء فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان. وأنت لا تقدر على ذلك. وقيل: معناه: وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يعثهم الله. ثم إليه يرجعون، فحينئذ يسمعون. وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم وقرئ: "يرجعون" بفتح الياء.

"وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".

"لولا نزل عليه آية" نزل بمعنى أنزل. وقرئ: "أن ينزل" بالتشديد والتخفيف. وذكر الفعل والفاعل مؤنث. لأن التأنيث آية غير حقيقي، وحسن للفصل. وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم "قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً" تضطربهم إلى الإيمان. كنتن الجبل على بني إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب ولكن أكثرهم لا يعلمون" أن الله قادر على أن ينزل تلك الآيات، وأن صارفاً من الحكمة يصرفه عن إنزالها.

"وما من دابة في الأرض ولا طير يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون" "أمم أمثالكم" مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم "وما فرطنا" ما تركنا وما أغفلنا "في الكتاب" في اللوح المحفوظ "من شيء" من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به "ثم إلى ربهم يحشرون" يعني الأمم كلها من الدواب والطيور فيعوضها وينصف بعضها من بعض، كما روي:

أنه يأخذ للجماء من القرناء، فإن قلت: كيف قيل: "إلا أمم" مع أفراد الدابة والطيور؟ فإن قلت: لما كان قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ دَالًّا عَلَىٰ مَعْنَى الْاسْتِعْرَاقِ وَمَغْنِيًّا عَنْ أَنْ يُقَالَ: وَمَا مِنْ دَوَابٍ وَلَا طَيْرٍ، حَمَلِ قَوْلِهِ: "إِلَّا أُمَّمٌ" عَلَى الْمَعْنَى، فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا قِيلَ: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَا طَائِرٍ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالَكُمْ؟ وَمَا مَعْنَى زِيَادَةِ قَوْلِهِ: "وَفِي الْأَرْضِ" وَ"يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ" قُلْتَ: مَعْنَى ذَلِكَ زِيَادَةُ التَّعْمِيمِ وَالْإِحَاطَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ قَطُّ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِينَ السَّيْعِ، وَمَا مِنْ طَائِرٍ قَطُّ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مِنْ جَمِيعِ مَا يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالَكُمْ مُحْفُوظَةٌ أَحْوَالُهَا غَيْرُ مَهْمَلٍ أَمْرُهَا. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْغَرَضُ فِي ذِكْرِ ذَلِكَ؟ قُلْتَ: الدَّلَالَةُ عَلَى عَظَمِ قُدْرَتِهِ، وَلَطْفِ عِلْمِهِ، وَسَعَةِ سُلْطَانِهِ وَتَدْبِيرِهِ تِلْكَ الْخَلَائِقِ الْمُنْفَاوَةِ الْأَجْنَاسِ، الْمُتَكَثِّرَةِ الْأَصْنَافِ، وَهُوَ حَافِظٌ لِمَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا، مَهْيَمٌ عَلَى أَحْوَالِهَا، لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَأَنَّ الْمَكْلَفِينَ لَيْسُوا بِمَخْصُوصِينَ بِذَلِكَ دُونَ مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ. وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ: "وَلَا طَائِرٌ"، بِالرَّفْعِ عَلَى الْخَلِّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا دَابَّةٌ وَلَا طَائِرٌ. وَقَرَأَ عَلْقَمَةُ "مَا فَرَطْنَا" بِالتَّخْفِيفِ.

"وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صَمٌّ بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" فإن قلت: كيف أتبعه قوله: "وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا؟" قلت: لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادي على عظمته قال: والمكذبون "صم" لا يسمعون كلام المنبه "وبكم" لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات الكفر، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكير فيه، ثم قال إيذاناً بأنهم من أهل الطبع "مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَضِلُّهُ" أي يخذله ويخله وضلاله لم

يلطف به، لأنه ليس من أهل اللطف "وَمَنْ يَشَأْ نجعلهُ عَلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ" أي يلطف به لأن اللطف يجدي عليه.
"قل أرايتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون".

"أرايتم" أخبروني. والضمير الثاني لا محل له من الإعراب، لأنك تقول: أرايتك زيداً ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كأنك تقول: أرايت نفسك زيداً ما شأنه؟ وهو خلف من القول، ومتعلق الاستخبار محذوف، تقديره: إن أتاكم عذاب الله "أو أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ" من تدعون. ثم بكتهم بقوله: "أَغْيَرَ الله تدعون" بمعنى أخصون أهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرر، أم تدعون الله دونها "بل إياه تدعون" بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة "فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ" أي ما تدعونه إلى كشفه "إن شاء" إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة "وَتَنْسَوْنَ مَا تَشْرِكُونَ" وتتركون أهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت: لأن أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضرر دون غيره، ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: "أَغْيَرَ الله تدعون" كأنه قيل: أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله. فإن قلت: إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله: "فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ" مع قوله: "أو أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ" وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين؟ قلت: قد اشترط في الكشف المشيئة، وهو قوله: "إن شاء" إيذاناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه.
"ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالأساء والضراء لعلمهم يتضرعون، فولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبسورون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين".

الأساء، والضراء: البؤس، والضرر. وقيل: الأساء: القحط والجوع. والضراء: المرض ونقصان الأموال والأنفس. والمعنى: ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم "لعلمهم يتضرعون" يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم "فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا" معناه: نفي التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم، وأعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم "فلما نسوا ذكروا به" من الأساء والضراء: أي تركوا الاعتاز به ولم ينفع فيهم ولم يزرهم "فَتَحْنًا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ" من الصحة والسعة وصنوف النعمة، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلطفه أخرى، طلباً لصلاحه "حتى إذا فرحوا بما أوتوا" من الخير والنعم، لم يزدوا على الفرح والبطر، من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار "أخذناهم بَغْتَةً" فإذا هم مبسورون، متحسرون آيسون "فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ" آخرهم لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم "والحمد لله رب العالمين" إيذان بوجود الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم وأجزل القسم. وقرئ: "فَتَحْنًا" بالتشديد.
"قل أرايتم إن أخذ الله بسمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون".

"إن أخذ الله بسمعكم وأبصاركم" بأن يصمكم ويعميكم "وختم على قلوبكم" بأن يغطي عليها ما يذهب عنده

فهمكم وعقلكم "يأتيكم به" أي يأتيكم بذلك، إجراء للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه "يصدفون" يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

"قل رأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمين" لما كانت البغته أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته، قيل: "بغته أو جهرة" وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً. وقرئ: بغته أو جهرة "هل يهلك" أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ: هل يهلك بفتح الباء.

"وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون".
"مبشرين ومنذرين" من آمن بهم وبما جاءوا به وأطاعهم، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهم بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة "وأصلح" ما يجب عليه إصلاحه مما كلف.
"والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون".

جعل العذاب ماساً، كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام. ومنه قولهم: لقيت منه الأمرين والأقورين، حيث جمعوا جمع العقلاء. وقوله: "إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً" الفرقان: 12.

"قل لا أقول لكم عندي خزائن الأرض ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون".

أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وهي قسمة بين الخلق وإرزاقه، وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه. أي لم أدع إلهية ولا ملكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، حتى تستبعدوا دعواي وتستكرونها. وإنما أدعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة "هل يستوي الأعمى والبصير" مثل للضلال والمهتدي ويجوز أن يكون مثلاً لمن اتبع ما يوحى إليه. ومن لم يتبع. أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة. والخال وهو الإلهية أو الملكية "أفلا تتفكرون" فلا تكونوا ضالين أشباه العميان. أو فتعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر. أو فتعلموا أن اتباع ما يوحى إلي مما لا بد لي منه. فإن قلت: "أعلم الغيب" ما محله من الإعراب؟ قلت: النصب عطفًا على قوله: "عندي خزائن الأرض" لأنه من جملة المقول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

"وأندر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من ولي ولا شفيع لعلهم يتقون".

"وأندر به" الضمير راجع إلى قوله: "وما يوحى إلي" و"الذين يخافون أن تحشروا" إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث ألا أنهم مفردون في العمل فيندبرهم بما يوحى إليه "لعلهم يتقون" أي يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين. وأما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث. وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار، دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله: "ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع" في موضع الحال من يحشروا، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم، ولا يد من هذه الحال، لأن كلاً محشور، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال.
"ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم

من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين".

ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وأكرامهم، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أي عبادته ويواظبون عليها، والمراد بذكر الغداة والعشي: الدوام. وقيل معناه: يصلون صلاة الصبح والعصر، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله: "يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته. روي: أن رؤوساً من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو طردت عنا هؤلاء الأعداء يعنون فقراء المسلمين، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأصراهم رضوان الله عليهم وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب من صوف جلسنا إليك وحادثناك، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بطارد المؤمنين. فقالوا: فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت. فقال: نعم، طمعاً في إيمانهم. وروي: أن عمر رضي الله عنه قال: لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون. قال فاكتب بذلك كتاباً، فدعا بصحيفة ويعلي رضي الله عنه ليكتب. فترلت. فرمى بالصحيفة، واعتذر عمر من مقالته. قال سلمان وخباب: فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبنا ركبته. وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فترلت: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم" فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي. معكم اخيا ومعكم الممات "وما عليك من حسابهم من شيء" كقوله: "إن حسابهم إلا على ربي" الشعراء: 113، وذلك أنهم طعنوا في دينهم وأخلاصهم، فقال: "مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ" بعد شهادته لهم بالإخلاص وإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم، كقوله: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" الزمر: 17. فإن قلت: أما كفى قوله: "مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ" حتى ضم إليه "وما من حسابك عليهم من شيء"؟ قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى في قوله: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" الزمر: 7، ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً، كأنه قيل: لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه. وقيل: الضمير للمشركين. والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم، حتى يهلك إيمانهم ويحرك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين "فَتَطْرُدُهُمْ" جواب النفي "فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ" جواب النهي. ويجوز أن يكون عطفاً على "فَتَطْرُدُهُمْ" على وجه التسبب، لأن كونه ظالماً مسبب عن طردهم. وقرئ: "بالغدوة والعشي". وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين".

"وكذلك فتنا" ومثل ذلك الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض، أي ابتليناهم بهم. وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين "أهؤلاء" الذين "من الله عليهم من بيننا" أي أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا، ونحن المقدمون والرؤساء، وهم العبيد والفقراء، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنوناً عليهم من بينهم بالخير، ونحوه "أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا" القمر: 25، "ولو كان خيراً ما سيقونا إليه" الأحقاف: 11. ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك: خذلناهم فافتتنوا، حتى كان افتنائهم سبباً لهذا القول، لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا

مخدول مفتون "أليس الله بأعلم بالشاكرين" أي الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان. وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق.

"وإذا جاء الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم".

"فقل سلام عليكم" إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم. وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطبيعاً لقلوبهم. وكذلك قوله: "كتب ربكم على نفسه الرحمة" من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم.

وقرى: "إنه" فإنه بالكسر على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت ف قيل: "إنه من عمل منكم" وبالفتح على الإبدال من الرحمة "بجهالة" في موضع الحال، أي عمله وهو جاهل. وفيه معنيان، أحدهما: أنه فاعل فعل الجهالة لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل، لا من أهل الحكمة والتدبير. ومنه قول الشاعر:

على أنها قالت عشية زرتها جهلت على عمد ولم تكن جاهلاً

والثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة. ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته. وقيل: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة. "وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المحرمين".

وقرى: "ولتستبين" بالتاء والياء مع رفع السبيل لأنها تذكر وتؤنث. وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل. يقال: استبان الأمر وتبين واستبينته وتبينته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المحرمين. من هو مطبوع على قلبه لا يرجي إسلامه، ومن يرى فيه إمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به، فصلنا ذلك التفصيل.

"قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، قل إني على بينة من ربي وكذبتكم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين، قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين".

"نهيته" صرفت وزجرت بما ركب في من أدلة العقل، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون "من دون الله" وفيه استجهال لهم ووصف بالافتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة "قل لا أتبع أهواءكم" أي لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل "قد ضللت إذا" أي إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى في شيء يعني أنكم كذلك. ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً نبه على ما يجب اتباعه بقوله: "قل إني على بينة

من ربي" ومعنى قوله: "إني على بينة من ربي وكذبت به": إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه، على حجة واضحة وشاهد صدق "وكذبت به" أنتم حيث أشركتم به غيره. ويقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه، إذا كان ثابتاً عندك بدليل. ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافسوا بالعذاب المستأصل فقال: "مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ" يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم: "فأمطر علينا حجارة من السماء" 11 الأنفال: 32، "إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ" في تأخير عذابكم "يقضي الحق" أي القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل في أقسامه "وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ" أي القاضين.

وَقُرِئَ: "يقص الحق" أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره، من قص أثره "لو أن عندي" أي في قدرتي وإمكاني "ما تستعجلون به" من العذاب "لقضي الأمر بيني وبينكم" لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي وامتعضاً من تكذيبكم به. ولتخلصت منكم سريعاً "والله أعلم بالظالمين" بما يجب في الحكمة من كنه عقابهم. وقيل "على بينة من ربي" على حجة من جهة ربي وهي القرآن "وكذبت به" أي بالبينه. وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن. فإن قلت: لم انتصب الحق؟ قلت: بأنه صفة لمصدر يقضي أي يقضي القضاء الحق. ويجوز أن يكون مفعولاً به من قولهم: قضى الدرع إذا صنعها، أي يصنع الحق ويدبره. وفي قراءة عبد الله: يقضي بالحق فإن قلت: لم أسقطت الباء في الخط؟ قلت: إتباعاً للخط اللفظ، وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

"وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين".

جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة، لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال. ومن كلم مفاتيحها وكيف تفتح، توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتيح أقفال المخازن ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن. والمفاتيح: جمع مفتاح وهو المفتاح. وقرئ: "مفاتيح" وقيل: هي جمع مفتاح بفتح الميم وهو المخزن. "ولا حبة... ولا رطب ولا يابس" عطف على ورقة وداخل في حكمها، كأنه قيل: وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه. وقوله: "إلا في كتاب مبين" كالتكرير لقوله: "إلا يعلمها" لأن معنى "إلا في كتاب مبين" واحد. والكتاب المبين: علم الله تعالى، أو اللوح. وقرئ: "ولا حبة، ولا رطب، ولا يابس" بالرفع. وفيه وجهان: أن يكون عطفًا على محل "مِنْ وَرَقَةٍ" وأن يكون رفعًا على الابتداء وخبره "إلا في كتاب مبين" كقولك: لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار.

"وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ".

"وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ" الخطاب للكفرة، أي أنتم منسرحون الليل كله كالجيف "ويعلم ما جرحتم باللها" ما كسبتم من الآثام فيه "ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ" ثُمَّ يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم، من النوم بالليل، وكسب الآثام بالنهار، ومن أجله، كقولك: فيم دعوتني؟ فتقول: في أمر كذا "ليقضي أجل مسمى" وهو الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم. "ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ" وهو المرجع إلى موقف الحساب "ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" في ليالكم ونهاركم.

"وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليهم حفظة حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسين".

"الحفظة" ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون. وعن أبي حاتم السجستاني كان يكتب عن الأصمعي كل شيء بلفظ به من فوائد العلم، حتى قال فيه: أنت شبيه الحفظة، تكتب لفظ اللفظة: فقال أبو حاتم: وهذا أيضاً مما يكتب. فإن قلت: الله تعالى غني بعلمه عن كتبة الملائكة، فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أفعالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء "تَوَفَّتْهُ رُسُنَا" أي استوفت روحه وهم ملك الموت وأعدائه. وعن مجاهد: جعلت الأرض له مثل الطست يتناول من يتناوله. وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين. وقرئ: "توفاه"، ويجوز أن يكون ماضياً ومضارعاً بمعنى تتوفاه. "وَيَفْرطُونَ" بالتشديد والتخفيف، فالتفريط التواني والتأخير عن الحد، والإفراط مجاوزة الحد أي لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه "ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ" أي إلى حكمه وجزائه "مولاهم" مالكمهم الذي يلي عليهم أمورهم "الحق" العدل الذي لا يحكم إلا بالحق "أَلَا لَهُ الْحُكْمُ" يومئذ لا حكم فيه لغيره "وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِينَ" لا يشغله حساب عن حساب. وقرئ: "الحق" بالنصب على المدح كقولك: الحمد لله الحق.

"قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون".

"ظلمات البر والبحر" مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما. يقال لليوم الشديد: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب. أي اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل، ويجوز أن يراد. ما يشفون عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتهما "لئن أنجيننا" على إرادة القول "من هذه" من هذه الظلمة الشديدة. وقرئ: "ينجيكم" بالتشديد والتخفيف، وأنجانا، وخفية، بالضم والكسر.

"قل هو القادر على أن يعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرَف الآيات لعلهم يفقهون، وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل، لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون".

"هو القادر" هو الذي عرفتموه قادراً وهو الكامل القدرة "عذاباً من فوقكم" كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان "أو من تحت أرجلكم" كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل من فوقكم: من قبل أكابركم وسلاطينكم. ومن تحت أرجلكم: من قبل سفلكم وعبيدكم. وقيل: هو حبس المطر والنبات "أو يلبسكم شيعاً" أو يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال، من قوله:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبتت نفضت لها يدي

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف"، وعن جابر بن عبد الله: لما نزل "من فوقكم" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بوجهك" فلما نزل: "أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً" قال: "هاتان أهون" ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة. والضمير في قوله: "وكذب به" راجع إلى العذاب "وهو الحق" أي لا بد أن يتزل بهم "قُل لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" بحفيظ وكل إلي أمركم أمنعكم من التكذيب إجباراً، إنما أنا منذر "لكل نبأ" لكل شيء ينبأ به، يعني إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به "مستقر" وقت استقرار وحصول لا بد منه. وقيل: الضمير في "به" للقرآن.

"وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين، وما على الذين تتقون من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون".

"يخوضون في آياتنا" في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قریش في أنديتهم يفعلون ذلك "فأعرض عنهم" فلا تجالسهم وقم عنهم "حتى يخوضوا في حديث غيره" فلا بأس أن تجالسهم حينئذ "وإما ينسينك الشيطان" وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم "فلا تقعد" معهم "بعد الذكرى" بعد أن تذكر الله. وقرئ: "ينسينك" بالتشديد. ويجوز أن يراد: وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهي قبح مجالسة المستهزين لأنها مما تنكره العقول "فلا تقعد بعد الذكرى" بعد أن ذكرناك قبحها ونهيناك عليه معهم "وما على الذين تتقون من حسابهم من شيء" ما يلزم المتقين الذين يجالسوهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم "ولكن" عليهم أن يذكروهم "ذكرى" إذا سمعهم يخوضون، بالقيام عنهم، وإظهار الكراهة لهم، وموعظتهم "لعلهم يتقون" لعلهم يجتنبون الخوض حياءً أو كراهة لمساءتهم. ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون، أي يذكروهم إرادة أن يشبوا على تقواهم ويزدادوها. وروي: أن المسلمين قالوا: لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف، فرخص لهم. فإن قلت: ما محل "الذكرى"؟ قلت: يجوز أن يكون نصباً على: ولكن يذكروهم ذكرى، أي تذكيراً. ورفعاً على: ولكن عليهم ذكرى. ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل "من شيء" كقولك: ما في الدار من أحد ولكن زيد، لأن قوله: "من حسابهم" يأبى ذلك.

"وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً وهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين ألبسوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون".

"اتخذوا دينهم لعباً وهواً" أي دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعباً وهواً. وذلك أن عبادة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب وغير ذلك، من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة، ومن جنس الهزل دون الجد. أو اتخذوا ما هو لعب وهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم. أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً وهواً، حيث سخروا به واستهزؤا. وقيل: جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً وهواً، وغير المسلمين

فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله. ومعنى "ذرهم" أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم، "وذكر به" أي: بالقرآن "أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ" مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترقن بسوء كسبها. وأصل الإيسال المنع، لأن المسلم إليه يمنع المسلم، قال:

وإيسالي بني بغير جرم

بعوناه ولا بدم مراق

ومنه: هذا عليك بسل، أي حرام محذور. والباسل: الشجاع لامتناعه من قرنه، أو لأنه شديد البسور. يقال: بسر الرجل إذا اشتد عبوسه. فإذا زاد قالوا: بسل. والعباس: منقبض الوجه "وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها" وإن تفد كل فداء، والعدل: الفدية. لأن الفادي يعدل المفدي بمثله. وكل عدل: نصب على المصدر. وفاعل "يؤخذ" قوله: "منها" لا ضمير العدل لأن العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ. وأما في قوله تعالى: "ولا يؤخذ منها عدل" البقرة: 148، فبمعنى المفدي به، فصح إسناده إليه "أولئك" إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً وهواً. قيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان.

"قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى أئتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين".

"قل أندعوا" أنعبد "من دون الله" الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا "ونرد على أعقابنا" راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام "كالذي استهوته الشياطين" كالذي ذهبت به مرددة الجن والغيلان "وفي الأرض" المهمة "حيران" تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع "له" أي لهذا المستوى "أصحاب" رفقة "يدعونه" إلى الهدى "إلى أن يهدوه الطريق المستوي". أو سمي الطريق المستقيم بالهدى، يقولون له "ائتنا" وقد اعتسف المهمة تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم. وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقد: أن الجن تستهوي الإنسان. والغيلان تستولي عليه، كقوله: "كالذي يتخبطه الشيطان من المس" البقرة: 275، فشبه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم "قل إن هدى الله" وهو الإسلام "هو الهدى" وحده وما وراءه ضلال وغي "ومن يتبع غير الإسلام ديناً" آل عمران: 85. "فماذا بعد الحق إلا الضلال" يونس: 32. فإن قلت: فما محل الكاف في قوله: "كالذي استهوته"؟ قلت: النصب على الحال من الضمير في "نرد على أعقابنا" أي: أنكص مشبهين من استهوته الشياطين؟ فإن قلت: ما معنى "استهوته"؟ قلت: هو استفعال، من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويه وحرصت عليه. فإن قلت: ما محل: "أمرنا" قلت: النصب عطفاً على محل قوله: "إن هدى الله هو الهدى" على أنهما مقولان، كأنه قيل: قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم. فإن قلت: ما معنى اللام في "لنسلم"؟ قلت: هي تعليل للأمر، بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم. فإن قلت: فإذا كان هذا وارداً في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قل أندعو قل: للاتحاد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، خصوصاً بينه وبين الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

"وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون، وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن

فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير".
 فإن قلت علام عطف قوله "وأن أقيموا"؟ قلت: على موضع "لنسلم" كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم، وأن أقيموا ويجوز أن يكون التقدير وأمرنا لأن نسلم ولأن أقيموا: أي للإسلام ولإقامة الصلاة "قوله الحق" مبتدأ. ويوم يقول: خبره مقدماً عليه، وانتصابه بمعنى الاستقراء، كقولك: يوم الجمعة القتال. واليوم بمعنى الحين. والمعنى: أنه خلق السموات والأرض قائماً بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء "كن" فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة. أي لا يكون شيئاً من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب. و"يَوْمَ يُنْفَخُ" ظرف لقوله: "لمن الملك" كقوله: "لمن الملك اليوم"؟ غافر: 16، ويجوز أن يكون "قوله الحق" فاعل يكون، على معنى: وحين يقول لقوله الحق، أي لقضائه الحق "كن" فيكون قوله الحق. وانتصاب اليوم لمخدوف دل عليه قوله "بالحق" كأنه قيل: وحين يكون ويقدر يقوم بالحق "عالم الغيب" هو عالم الغيب، وارتفاعه على المدح.

"وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن الليل عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين".

"أزر" اسم أبي إبراهيم عليه السلام. وفي كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية تارح. والأقرب أن يكون وزن "أزر" فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لأبيه. وقرئ: "أزر" بالضم على النداء. وقيل: "أزر" اسم صنم، فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتي كان يشبب بهن، فقيل: ابن قيس الرقيات. وفي شعر بعض الخدثين:

أَدْعَى بِأَسْمَاءَ نَبَزاً فِي قَبَائِلِهَا كَأَنَّ أَسْمَاءَ أَضَحَّتْ بَعْدَ أَسْمَائِي

أو أريد عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ: "أزر" تتخذ أصناماً آلهة بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاي ساكنة وراء منصوبة منونة، وهو اسم صنم. ومعناه: أتعبد آزرأ على الإنكار؟ ثم قال: تتخذ أصناماً آلهة تثبيتاً لذلك وتقريراً، وهو داخل في حكم الإنكار، لأنه كالبيان له "فلما جن عليه الليل" عطف على قال إبراهيم لأبيه: وقوله: "وكذلك نرى إبراهيم" جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ملكوت السموات والأرض: يعني الربوبية والإلهية ونوقفه لمعرفة ذلك ونرشده بما شرحنا صدره وسددنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. وليكون من الموقنين: فعلنا ذلك. ونري: حكاية حال ماضية، وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، مدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها

ومسيرها وسائر أحوالها "هذا ربي" قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجي من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة "لا أحب الآفلين" لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى آخر، المحتجين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام "بازعاً" مبتدئاً في الطلوع "لئن لم يهديني ربي" تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه "هذا أكبر" من باب استعمال النصفة أيضاً مع خصومه "إني بريء مما تشركون" من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها "إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض" أي الذي دلت هذه الحداثات عليه وعلى أنه مبتدئها ومبتدعها. وقيل: هذا كان نظره واستدلالة في نفسه، فحكاها الله. والأول أظهر لقوله: "لئن لم يهديني ربي". وقوله: "يا قوم إني بريء مما تشركون". فإن قلت: لم احتج عليهم بالأفول دون البرزخ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت: الاحتجاج بالأفول أظهر، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب. فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله: "هَذَا رَبِّي" والإشارة للشمس؟ قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد، كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومن كانت أمك و"لم تكن فنتهم إلا أن قالوا" الأنعام: 23، وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث. ألا تراهم قالوا في صفة الله علام لم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ، احترازاً من علامة التأنيث. وقرئ: "تري إبراهيم ملكوت السموات والأرض" بالناء ورفع الملكوت. ومعناه: تبصره دلائل الربوبية.

"وحاجه قومه قال أتحتاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يزل به من عليكم سلطاناً فأني الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، وتلك حاجتنا آتيناهم إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم، ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وألياس كل من الصالحين، وإسماعيل وإسحاق ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط المستقيم، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بكافرين، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين".

"وحاجه قومه قال أتحتاجوني في الله" وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك "وَقَدْ هَدَانِ" يعني إلى التوحيد "وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ" وقد خوفوه أن معبوداتهم تصييه بسوء "إلا أن يشاء ربي شيئاً"، إلا وقت مشيئة ربي شيئاً يخاف، فحذف الوقت، يعني لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؟ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة، إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ذنباً استوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجني بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجعلها قادرة على مضرتي "وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً" أي ليس بعجب

ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها "أفلا تتذكرون" فتميزوا بين الصحيح والفساد والقادر والعاجز "وكيف أخاف" لتخويفكم شيئاً مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه "و" أنتم "لا تخافون" ما يتعلق به كل مخوف وهو إشراككم بالله ما لم يترل بإشراكه "سلطاناً" أي حجة، لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال: وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم، احترازاً من تركيته نفسه، فعدل عنه إلى قوله: "فأي الفريقين" يعني فريقي المشركين والموحدين. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسدهم. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس "وتلك" إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قوميه من قوله: "فلما جن عليه الليل" إلى قوله: "وهم مهتدون". ومعنى "أتيناها" أرشدها إليها ووفقناه لها "نرفع درجات من نشاء" يعني في العلم والحكمة. وقرئ بالتنوين "ومن ذريته" الضمير لنوح أو لإبراهيم. و "داود" عطف على نوحاً، أي وهدينا داود "ومن آباءهم" في موضع النصب عطفاً على كلاً، بمعنى: وفضلنا بعض آباءهم "ولو أشركوا" مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات. لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم، كما قال تعالى وتقدس "لئن أشركت ليحبطن عملك" الزمر: 65، "أتيناها" الكتاب "يريد الجنس" "فإن يكفر بها" بالكتاب والحكمة والنبوة. أو بالنبوة "هؤلاء" يعني أهل مكة "قوماً" هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله: "ألك الذين هدى الله بهداهم اقتده" وبدليل وصل قوله: "فإن يكفر بها هؤلاء" بما قبله. وقيل: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكل من آمن به. وقيل: كل مؤمن من بني آدم. وقيل: الملائكة وادعى الأنصار أنها لهم. وعن مجاهد: هم الفرس. ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به، ويتعهده ويحافظ عليه. والباء في "بها" صلة كافرين. وفي "بكافرين" تأكيد النفي. "فبهدهم اقتده" فاختص هدايتهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع، فإنها مختلفة وهي هدى، ما لم تنسخ. فإذا نسخت لم تبقى هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً. والهاء في "اقتده" للوقوف تسقط في الدرج. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف.

"وما قدروا لله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون".

"وما قدروا لله حق قدره" وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللفظ بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم وأجل نعمته "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" الأنبياء: 107، أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدة بطشه بهم، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة. والقائلون هم اليهود، بدليل قراءة من قرأ: "تجعلونه" بالتاء. وكذلك "تبدونها وتخفون" وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فآلزموا ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعي عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتخريفهم، لما بداء بعض وإخفاء بعض

فَقِيلَ: "جاء به موسى" وهو نور وهدى للناس، حتى غيروه، ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء. وروى: أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يَغْضُ الحبر السمين؟ فأنت الحبر السمين، قد سميت من مالك الذي يطعمك اليهود. فضحك القوم، فغضب، ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له قومه: ويا لك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، فترعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف. وقيل: القاتلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب، لكننا أهدى منهم "وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم" الخطاب لليهود، أي علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم، وأنتم حملة التوراة، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم "إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون" النمل: 76، وقيل الخطاب لمن آمن من قريش، كقوله تعالى: "لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم" ياسين: 6، "قل الله" أي أنزله الله، فإنهم لا يقدرُونَ أن يناكروك "ثم ذرهم في خوضهم" في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة. ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه: إنما أنت لاعب. و"يلعبون" حال من ذرهم، أو من خوضهم، ويجوز أن يكون "في خوضهم" حالاً من يلعبون، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم.

"وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون".

"مُبَارَكٌ" كثير المنافع والفوائد "ولتنذر" معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب، كأنه قيل: أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار. وقرئ: "ولينذر" بالياء والتاء. وسميت مكة "أم القرى" لأنها مكان أول بيت وضع للناس، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم. لأنها أعظم القرى شأنًا لبعض المجاورين:

فَمَنْ يَلْقَى فِي بَعْضِ الْقُرَيَّاتِ رَحْلَهُ فَأَمَّ الْقُرَى مَلَقَى رِحَالِي وَمُنْتَابِي

"وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يَصْدُقُونَ بِالْعَاقِبَةِ وَيَخَافُوهَا "يُؤْمِنُونَ" بهذا الكتاب. وذلك أن أصل الدين خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخص الصلاة لأنها عماد الدين. ومن حافظ عليها كانت لطفاً في المحافظة على أخواتها.

"ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلي ولم يوحى إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون".

"افترى على الله كذباً" فزعم أن الله بعثه نبياً "أو قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ" وهو مسيلمة الخنفي الكذاب. أو كذاب صنعاء الأسود العنسي. وعن النبي صلى الله عليه وسلم.

رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَأَنَّ فِي يَدَيِ سَوَارِينَ مِنْ ذَهَبٍ فَكَبَّرُوا عَلَيَّ وَأَهْمَانِي فَأَوْحَى إِلَيَّ أَنِ أَنْفَخْتَهُمَا، فَنفختهما فطارا عني، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب البمامة مسيلمة. وكذاب صنعاء الأسود العنسي. "وَمَنْ قَالَ

سَأَنْزَلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ الْقُرَشِيُّ.

كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا أملى عليه سمياً عليماً، كتب هو: عليماً حكيماً. وإذا قال: عليماً حكيماً، كتب غفوراً رحيماً. فلما نزلت: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" المؤمنون: 12، إلى آخر الآية، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان: فقال: تبارك الله أحسن الخالقين. فقال عليه الصلاة والسلام، اكتسبها: فكذلك نزلت، فشك عبد الله وقال: لئن كان محمداً صادقاً لقد أوحى إلي مثل ما أوحى إليه. ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال: فارتد عن الإسلام ولحق بمكة، ثم رجع مسلماً قبل فتح مكة. وقيل: هو النضر بن الحرث والمستهزؤون "وَلَوْ تَرَىٰ" جوابه محذوف. أي: رأيت أمراً عظيماً "إِذِ الظَّالِمُونَ" يريد الذين ذكرهم من اليهود والمنجبة، فتكون اللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله. و"غَمَرَتِ الْمَوْتَ" شدائده وسكراته، وأصل الغمرة: ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدّة الغالبة "بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ" ييسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم. وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح، والتشديد في الإزهاق، من غير تنفيس وإمهال، وإنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط ييسط يده إلى من عليه الحق، ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله، ويقول له: "أخرج" إلي ما لي عليك الساعة، ولا أريم مكاني، حتى أنزعه من أحداقك. وقيل: معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب "أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ" خلصوها من أيدينا، أي لا تقدرّون على الخلاص "اليوم تجزون" يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة الترع، وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاوّل الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. والهون: الهوان الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه "عن آياته تستكبرون" فلا تؤمنون بها.

"ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم وما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم ترعمون".

"فرادى" منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه، وأترقوه من دنياكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاءكم وشركاء لله "كَمَا" خلقناكم أول مرة "على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد" وتركتم ما خولناكم" ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة "وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ" لم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيراً ولا قدمتموه لأنفسكم "فِيكُمْ" شركاء في استبعادكم، لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها، فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفي استبعادهم. وقرئ: "فرادى" بالتثنية. وفردى، نحو سكرى: فإن قلت: كما خلقناكم، في أي محل هو؟ قلت: في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا، أي مجئنا مثل خلقنا لكم "تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ" وقع التقطع بينكم، كما تقول: جمع بين الشيئين، تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف كما تقول قوتل خلفكم وأمامكم. وفي قراءة عبد الله: "لقد تقطع ما بينكم".

"إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذالكم الله فأنى تؤفكون". "فالق الحب والنوى" بالنبات والشجر. وعن مجاهد: أراد الشقين الذين في النواة والحنطة "يُخْرِجُ" الحي من الميت أي الحيوان، والنامي من النطف. والبيض والحب والنوى "وَمُخْرِجٌ" هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامي. فإن

قلت: كيف قال: "مخرج الميت من الحي" بلفظ اسم الفاعل، بعد قوله: "يخرج الحي من الميت" قلت: عطفه على فائق الحب والنوى، لا على الفعل. ويخرج الحي من الميت: موقعة موقع الجملة المبينة لقوله: "فائق الحب والنوى" لأن فائق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت، لأن النامي في حكم الحيوان. ألا ترى إلى قوله: "يحيي الأرض بعد موتها" الروم: 50، "ذَلِكُمُ اللَّهُ" أي ذلكم الحي والميت هو الله الذي تحق له الربوبية "فَأَن تَوَفَّكُونَ" فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

"فائق الإصباح وجعل الليل ساكناً والشمس والقمر حساباً ذلكم تقدير العزيز العليم".

"الإصباح" مصدر سمي به الصبح. وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح، وأنشد قوله:

أفنى رباحاً وبني رباح تناسخ الإمساء والإصباح

بالكسر والفتح مصدرين، وجمع مساء وصبح. فإن قلت: فما معنى فلق الصبح، والظلمة هي التي تنفلق عن الصبح. كما قال:

تردت به ثم انفري عن أديمها تفري ليل عن بياض نهار

قلت وفيه وجهان أحدهما: أن يراد فائق الظلمة الإصباح وهي الغيش في آخر الليل ومنقضاء الذي يلي الصبح، والثاني أن يراد فائق الإصباح الذي هو عامود الفجر عن بياض النهار وإسفاره، وقالوا أنشق عامود الفجر، وانصدع الفجر. وسموا الفجر فلماً بمعنى مفلوق. وقال الطائي:

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وقرى: فائق الإصباح، وجاعل الليل سكناً بالنصب على المدح. وقرأ النخعي: فلق الإصباح وجعل الليل السكن: ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه، من زوج أو حبيب. ومنه قيل للنار: سكن، لأنه يستأنس بها. ألا تراهم سموها المؤنسة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجهاه، ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله: "لتسكنوا فيه" "والشمس والقمر" قرنا بالحركات الثلاث، فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل، أي وجعل الشمس والقمر حساباً. أو يعطفان على محل الليل. فإن قلت كيف يكون ليل محل والإضافة حقيقية، لأن اسم الفاعل المضاف إليه في معنى الماضي، ولا تقول: زيد ضارب عمراً أمس، قلت: ما هو في معنى الماضي، وإنما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة، وكذلك فائق الحب، وفائق الإصباح، كما تقول: الله قادر عالم، فلا تقصد زماناً دون زمان، والجر عطف على لفظ الليل، والرفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: والشمس والقمر مجعولان حساباً، أو محسوبان حساباً، ومعنى جعل الشمس والقمر حساباً: جعلهما على حساب، لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما. والحسبان بالضم: مصدر حسب، كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب. ونظيره الكفران والشكران "ذَلِكْ" إشارة إلى جعلهما حساباً، أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم "تقدير العزيز" الذي قهرهما وسخرهما "العليم" بتدبيرهما وتدويرهما.

"هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون".

"في ظلمات البحر والبر" في ظلمات الليل بالبر والبحر، وأضافها إليهما ملابستها لهما، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات.

"هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يتفقهون".

من فتح قاف المستقر، كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدرأ. ومن كسرهما، كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول. والمعنى فلحكم مستقر في الرحم. ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها. أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع. فإن قلت: لم قيل "يعلمون" مع ذكر النجوم و"يفقهون" مع ذكر إنشاء بني آدم؟ قلت: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له.

"وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتهياً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون".

"فأخرجنا به" بالماء "نبات كل شيء" نبت كل صنف من أصناف النامي، يعني أن السبب واحد وهو الماء. والمسببات صنوف مفتنة، كما قال: "تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل" الرعد: 4، "فأخرجنا منه" من النبات "خضراً" شيئاً غضاً أخضر. يقال أخضر وخضر، كأعور وعور، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة "نخرج منه" من الخضر "حباً متراكباً" وهو السنبل. و"قنوان" رفع بالابتداء. و"من النخل" خبره. و"من طلعها" بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان. ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه تقديره ومخرجة من طلع النخل قنوان ومن قرأ يخرج منه حب متراكب، كان "قنوان" عنده معطوفاً على حب. والقنوان: جمع قنو، ونظيره: صنو وصنوان. وقرئ: بضم القاف وفتحها، على أنه اسم جمع كركب، لأن إعلان ليس من زيادة التكرير "دانية" سهلة المجتنى معرضة للقاطف، كالشيء الداني القريب المتناول، ولأن النخلة وإن كانت صغيرة يراها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول. وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض. وقيل: ذكر القرية وترك ذكر البعيدة، لأن النعمة فيها أظهر وأدل بذكر القرية على ذكر البعيدة، كقوله: "سراييل تقيم الحر" النحل: 81، وقوله: "وجنات من أعناب" فيه وجهان، أحدهما: أن يراد: وثمر جنات من أعناب، أي مع النخل. والثاني: أن يعطف على "قنوان" على معنى: وحاصلة، أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب، أي من نبات أعناب. وقرئ: وجنات بالنصب عطفاً على "نبات كل شيء" أي: وأخرجنا به جنات من أعناب، وكذلك قوله: "الزيتون والرمان" والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص، كقوله: "والمقيم الصلاة" النساء: 162، لفضل هذين الصنفين "مشتهياً" وغير مشتهية" يقال اشتبه الشيطان وتشابها، كقولك استويا وتساويا. والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً. وقرئ: متشابهاً وغير متشابهه وتقديره: والزيتون متشابهاً وغير متشابهه، والرمان كذلك كقوله:

كنت منه ووالدي برياً

والمعنى: بعضه متشابهاً وبعضه غير متشابه، في القدر واللون والطعم. وذلك دليل على التعمد دون الإهمال "انظروا إلى ثمره إذا أثمر" إذا أخرج ثمره كيف يخرج ضيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال إلى حال. وقرئ "وينعه" بالضم. يقال: ينعت الثمرة ينعاً وينعاً. وقرأ ابن محيصن: ويانعه. وقرئ: وثمره، بالضم. "وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون".

إن جعلت "الله شركاء" مفعولي جعلوا، نصبت الجن بدلاً من شركاء، وإن جعلت "الله" لغواً كان "شركاء الجن" مفعولين قدم ثانيهما على الأول. فإن قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدم اسم الله على الشركاء. وقرئ: الجن بالرفع، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن. وبالجر على الإضافة التي للتبيين. والمعنى أشركوهم في عبادته، لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله. وقيل: هم الذين زعموا أن الله خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضار "وخلقكم" وخلق الجاعلين لله شركاء. ومعناه: وعلموا أن الله خالقهم دون الجن، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكاً للخالق. وقيل: الضمير للجن. وقرئ: وخلقهم أي اختلاقهم الإلفك، يعني: وجعلوا الله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم "والله أمرنا بها" الأعراف: 28، "وخرقوا له" وخلقوا له، أي افتعلوا له "بنين وبنات" وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير، وقول قريش في الملائكة يقال: خلق الإلفك وخرقه واختلفه واخترقه، بمعنى: وسئل الحسن عنه فقال: كلمة عربية كانت العرب تقولها: كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم: قد خرقها والله، ويجوز أن يكون من خرق الشوب إذا شقه، أي اشتقوا له بنين وبنات، وقرئ: وخرقوا بالتشديد للتكثير، لقوله: "بنين وبنات" وقرأ ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما وحرّفوا له بمعنى: وزوروا له أولاداً لأن المزور محرف مغير للحق إلى الباطل "بغير علم" من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رمية بقول عن عمى وجهالة. من غير فكر وروية.

"بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل خلق عليم". "بديع السموات" من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، كقولك: فلان بديع الشعر أي بديع شعره أو هو بديع في السموات والأرض كقولك: فلان ثبت الغدر، أي ثابت فيه، والمعنى أنه عديم النظر والمثل فيها. وقيل: البديع بمعنى المبدع، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره "أنى يكون له ولد" أو فاعل تعالى، وقرئ بالجر رداً على قوله "وجعلوا لله" أو على "سبحانه". وبالنصب على المدح، وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه، أحدها: مبدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم يوصف بالولادة لأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والدًا. والثاني: أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة، فلم تصح الولادة. والثالث: أنه ما من شيء وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج. وقرئ: "ولم يكن له صاحبة" وإنما جاز للفصل كقوله:

لقد ولد الأخطيل أم سوء

"ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فأعبده وهو على كل شيء وكيل".
"ذلكم" إشارة إلى الموصوف مما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي "الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء" أي ذلكم الجامع لهذه الصفات "فأعبده" مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فأعبده ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه. ثم قال: "وهو على كل شيء قدير" يعني وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال.
"لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير".

البصر: هو الجوهر اللطيف الذي ركبته الله في حاسة النظر، به تدرك المبصرات، فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه، لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام والهيئات "وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ" وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك "وَهُوَ اللطيف" يلطف عن أن تدركه الأبصار "الخبير" بكل لطيف فهو يدرك الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف.

"قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ".

"قد جاءكم بصائر من ربكم" هو وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقوله: "وما أنا عليكم بحفيظ" والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أي جاءكم من الوحي، والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالْبصائر "فَمَنْ أَبْصَرَ" الحق وآمن "فَنَفْسِهِ" أبصر وإياها نفع "ومن عمي" عنه فعل نفسه عمى وإياها ضر بالعمى "وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ" أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

"وكذلك نصرَف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون".

"ويقولون" جوابه محذوف تقديره. وليقولوا درست تصرفها. ومعنى "دَرَسْتُ" قرأت وتعلمت. وقرئ: درست أي درست العلماء. ودرست بمعنى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا: أساطير الأولين، ودرست بضم الراء، مبالغة في درست، أي اشتد دروسها. ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عفيت. ودارست. وفسروها بدارست اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم، وجاز الإضمار، لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم. ويجوز أن يكون الفعل للآيات، وهو لأهلها، أي دارس أهل الآيات وحملتها محمداً، وهم أهل الكتاب. ودرس أي درس محمد. ودارسات، على: هي دارسات، أي قديمات. أو ذات دروس، كعيشة راضية، فإن قلت: أي فرق بين اللامين في "ليقولوا"، "ولنبينه"؟ قلت: الفرق بينهما أن الأولى مجاز والثانية حقيقة، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصرف الآيات كما حصل التبيين، شبه به فسق مساقه. وقيل: ليقولوا كما قيل لنبينه: فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: "ولنبينه"؟ قلت: إلى الآيات لأنها في معنى القرآن،

كأنه قيل: وكذلك نصرف القرآن. أو إلى القرآن وان لم يجر له ذكر، لكونه معلوماً إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل، كقولهم: ضربته زيداً. ويجوز أن يراد فيمن قرأ درست ودارست: درست الكتاب ودارسته، فيرجع إلى الكتاب المقدر.

"اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين، ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل".

"لا إله إلا هو" اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي لا محل له من الإعراب. ويجوز أن يكون حالاً من ربك، وهي حال مؤكدة كقوله "وهو الحق مصداقاً" البقرة: 91.

"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون".

"ولا تسبوا" الآلهة "الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله" وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم" الأنبياء: 98، لتستهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك. وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم، فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله تعالى. فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة، فكيف صح النهي عنه، وإنما يصح النهي عن المعاصي قلت: رب طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة، فيجب النهي عنها لأنها معصية، لا لأنها طاعة كالنهي عن المنكر هو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية، ووجب النهي عن ذلك النهي. كما يجب النهي عن المنكر. فإن قلت: فقد روي عن الحسن وابن سيرين: أنهما حضرا جنازة فرأى محمد نساء فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا. قلت: ليس هذا ممن نحن بصدد، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة وليس بسبب لحضور النساء فإنهم يحضرونها حضر الرجال أو لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة. وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن. "عدواً" ظلماً وعدواناً. وقرئ: "عُدواً" بضم العين وتشديد الواو بمعناه. ويقال: عدا فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداء. وعن ابن كثير: "عدواً"، بفتح العين بمعنى أعداء "بغير علم" على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به "كذلك زينا لكل أمة" مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من أمم الكفار سوء عملهم. أو خليانهم وشأنهم، ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم. وقولهم: إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا "فينبئهم" فيؤنبئهم ويعاقبهم.

"وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون".

"لئن جاءهم آية" من مقترحاتهم "ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله" وهو قادر عليها، ولكنه لا يترها إلا على موجب الحكمة، أو إنما الآيات عند الله لا عندي. فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها "وَمَا يَشْعُرْكُمْ" وما يدريكم "أنها" أن الآية التي تقترحونها "إذا جاءت لا يؤمنون" يعني أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها. فقال عز وجل وما يدريكم أنهم لا

يؤمنون على معنى أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون به ألا ترى إلى قوله "كما لم يؤمنوا به أول مرة" وقيل: "أما" بمعنى لعلها من قول العرب: انت السوق أنك تشتري لحماً. وقال امرؤ القيس:

عُوجًا عَلَى الطَّلِّ المَحِيلِ لَأَنَّا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خُذَامٍ

وتقويها قراءة أبي لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، وقرئ بالكسر على أن الكلام قد تم قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: إنما إذا جاءت لا يؤمنون البتة. ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح وقرئ: "وما يشعركم أما إذا جاءت لا يؤمنون" أي يخلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها. وما يشعركم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعاً عليها فلا يؤمنوا بها. "ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون". "ونقلب أفئدتهم... وَنَذَرُهُمْ" عطف على يؤمنون، داخل في حكم وما يشعركم، بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم: أي نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا، أو لا يؤمنون بما لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم أي نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه. وقرئ: ويقلب ويذرهم بالياء أي الله عز وجل. وقرأ الأعمش: وتقلب أفئدتهم وأبصارهم على البناء للمفعول. "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون".

"ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة" كما قالوا لولا أنزل علينا الملائكة الفرقان: 21، "وكلمهم الموتى" كما قالوا: "فأتوا بآبائنا" الدخان: 36، "وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً" كما قالوا "أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً" الإسراء: 92، قبلاً كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا، أو جماعات. وقيل: "قبلاً" مقابلة. وقرئ: قبلاً أي عياناً "إلا أن يشاء الله" مشيئة إكراه واضطرار "ولكن أكثرهم يجهلون" فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات. أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطروهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

"وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوا فذرهم وما يفترون".

"وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً" وكما خلى بينك وبين أعدائك، وكذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم، لم نمنعهم من العداوة، لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر، وكثرة الثواب والأجر. وانتصب "الشياطين" على البديل من عدوا. أو على أهما مفعولان كقوله "وجعلوا لله شركاء الجن" الأنعام: 100، "يُوحى بعضهم إلى بعض" يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس. وكذلك بعض الجن إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض. وعن مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن، لأني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الأنس يجيئني فيجزي إلى المعاصي عياناً "زُخِرْفَ القول" ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على

المعاصي ويموهه "غروراً" خدعاً وأخذاً على غزاة "ولو شاء ربك ما فعلوه" ما فعلوا ذلك، أي ما عادوك، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأهم.
"ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوا وليقتروا ما هم مقترفون".

"ولتصغي" جوابه محذوف تقديره: وليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدواً، على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر. والضمير في "إليه" يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه، أي ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين "أفئدة" الكفار "وليرضوا" لأنفسهم "وليقتروا ما هم مقترفون" من الآثام.
"أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين أتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين".

"أفغير الله أبتغي حكماً" على إرادة القول، أي قل يا محمد: أفغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم، ويفصل الحق منا من المبتطل "وهو الذي أنزل إليكم الكتاب" المعجز "مفصلاً" مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة على أن القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقه له "فلا تكونن من الممترين" من باب التهيج والإلهاب، كقوله تعالى: "ولا تكونن من المشركين" الأنعام: 14، أو "فلا تكونن من الممترين" في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به. ويجوز أن يكون "فلا تكونن" خطاباً لكل أحد، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه، فما ينبغي أن يمتري فيه أحد. وقيل: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته.
"وقمت كلمات ربك صدقاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم".

"وقمت كلمات ربك صدقاً" أي تم كل ما أخبر به، وأمر ونهى، ووعد وأوعد "صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته" لا أحد يبدل شيئاً من ذلك مما هو أصدق وأعدل. وصدقاً وعدلاً. نصب على الحال. وقرئ: كلمة ربك أي ما تكلم به. وقيل: هي القرآن.

"وإن تطع أكثر من في الأرض يضلونك عن سبيل الله وإن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون".
"وإن تطع أكثر من في الأرض" أي من الناس أضلوك، لأن الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم، ثم قال: "إن يتبعون إلا الظن" وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدوهم "إن هم إلا يخرصون" يقدرون أنهم على شيء. أو يكذبون في أن الله حرم كذا وأحل كذا.
"إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ، فَكُتِبَ عَلَيْكُمُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ، وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ لِيَضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بغير علم إن ربك هم أعلم بالمعتدين".

وقرئ: من يضل بضم الياء أي يضلله الله "فكلوا" مسبب عن إنكار اتباع المضلين، الذي يحلون الحرام ويحرمون الحلال. وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله، فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم، فقل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا "مما ذكر اسم الله عليه" خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره

من آلهتهم أو مات حتف أنفه، وما ذكر اسم الله عليه هو المذكي بسم الله "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا" وأي غرض لكم في أن لا تأكلوا "وَقَدْ فَصَلَ لَكُمْ" وقد بين لكم ما حرم عليكم مما لم يحرم وهو قوله: أحرمت عليكم الميتة، المائدة: 3، وقرئ: "فصل لكم ما حرم عليكم" على تسمية الفاعل، وهو الله عز وجل "إِلَّا مَا أَضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ" مما حرم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة "وَأِنْ كَثُرَ لِيَضْلُونَ" قرئ بفتح الياء وضمها، أي يضلون فيحرمون ويحللون "بأهوائهم" وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

"وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون".

"ظاهر الإثم وباطنه" ما أعلنتم منه وما أسررت. وقيل: ما عملتم وما نويتم.

وقيل: ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السر.

"ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون".

"وإنه لفسق" الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف اللهي، يعني وإن الأكل منه لفسق. أو إلى الموصول على: وإن أكله لفسق، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقاً. فإن قلت: قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد. قلت: قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه: كقوله: "أو فسقاً أهل لغير الله به" الأنعام: 145، "ليوحون" ليوسوسون "إلى أوليائهم" من المشركين "ليجادلونك" بقولهم: ولا تأكلوا مما قتله الله. وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة "إنكم لمشركون" لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به. ومن حق ذي البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان، لما يرى في الآية من التشديد العظيم، وإن كان أبو حنيفة رحمة الله مرخصاً في النسيان دون العمد ومالك والشافعي رحمهما الله فيهما.

"أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون، وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا أنفسهم وما يشعرون".

مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين الحق والمبطل والمهتدي والضال، بمن كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به، فيميز بعضهم من بعض، ويفصل بين حلالهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله: "كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها" كمن صفتة هذه وهي قوله: "في الظلمات ليس بخارج منها" بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها، كقوله تعالى: "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار" محمد: 15، أي صفتها هذه، وهي قوله: "فيها أنهار". "وزين للكافرين" أي زين الشيطان، أو الله عز وعلا على قوله: "زيناهم أعماهم" النمل: 4، ويدل عليه قوله: "وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها" يعني: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك. ومعناه: خليئناهم ليمكروا وما كفناهم عن المكر، وخص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون

بالناس، كقوله: "أمرنا مترفيها" الإسراء: 16، وقرئ: أكبر مجرميها على قولك: هم أكبر قومهم، وكابر قومهم "وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ" لأن مكرهم يحق بهم. وهذه تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روي: أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالاً. وروي: أن أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفريسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فزلت ونحوها قوله تعالى: "بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسرة" المدثر: 52.

"وإذا جاءهم آية قالوا لن نؤمن بها حتى نؤتى مثل ما أتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون".

"الله أعلم" كلام مستأنف للإتكاف عليهم، وأن لا يصطفى للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم "سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا" من أكابرها "صغار" وقماء بعد كبرهم وعظمتهم "وَعَذَابٌ شَدِيدٌ" في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

"فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون، وهذا سراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون، لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون".

"فمن يرد الله أن يهديه" أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف "يشرح صدره للإسلام" يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه "وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ" أن يخذله ويخليه وشأنه، وهو الذي لا لطف له "يجعل صدره ضيقاً حرجاً" يمنعه أطفاه، حتى يقسو قلبه، وينبو عن قبول الحق وينسد فلا يدخله الإيمان. وقرئ: ضيقاً بالتخفيف والتشديد: "حرجاً" بالكسر، وحرجاً بالفتح وصفاً بالمصدر "كأنما يصعد في السماء" كأنما يزاوّل أمراً غير ممكن. لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضييق عنه المقدرة. وقرئ: يصعد وأصله يتصعد. وقرأ عبد الله: يتصعد. ويصاعد. وأصله: يتصاعد ويصعد، من صعد، ويصعد من أصدع "يجعل الله الرجس" يعني الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب. أو أراد الفعل المؤذي إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب "وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ" وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان "مستقيماً" عادلاً مطرداً. وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله: "وهو الحق مصداقاً البقرة: 91، لهم" لقوم يذكرون "دَارُ السَّلَامِ" دار الله، يعني الجنة أضافها إلى نفسه تعظيماً لها أو دار السلامة من كل آفة وكدر "عند ربهم" في ضمانه كما تقول لفلان عندي حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها، كقوله: "فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين" السجدة: 17، "وَهُوَ وَلِيَهُمْ" مواليهم ومحبههم أو ناصرهم على أعدائهم "بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" بسبب أفعالهم، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون.

"ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن لقد استكثرت من الإنس وقال أولياءهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك عليم حكيم".

"ويوم نحشرهم" منصوب بمحذوف، أي واذكر يوم نحشرهم، أو يوم نحشرهم قلنا "يا معشر الجن" أو يوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجن كان ما لا يوصف لفظاعته، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم. والجن هم الشياطين "قد استكثرتم من الإنس" أضللتهم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم فحضر معكم منهم الجم الغفير، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأشياء "وقال أوليائهم من الإنس" الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم "ربنا استمتع بعضنا ببعض" أي انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوهم في إغوائهم، وقيل: استمتع الإنس بالجن ما في قوله: "وأنة كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن" الجن: 65، وأن الرجل كان إذا نزل وادياً وخاف قال: أعوذ برب هذا الوادي، يعني به كبير الجن. واستمتع الجن والإنس: اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم "وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا" يعنون يوم البعث وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لربهم وتحسر على حالهم "خالدين فيها إلا ما شاء الله" أي يخلدون في عذاب النار الأبد كله، إلا ما شاء الله إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روي: أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم. أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقته. أهلكني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه عن التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلا إذا شئت، من أشد الوعيد، مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع "إن ربك حكيم" لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة "العليم" بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد.

"وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون".

"نولي بعض الظالمين بعضاً" نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو نجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا "بما كانوا يكسبون" بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي.

"يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين".

يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ "ألم يأتكم رسل منكم" واختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم، فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم، لأنهم به آنس وله آلف. وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة، وإنما قيل: رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما، كقوله: "يخرج منها اللؤلؤ والمرجان" الرحمن: 22، وقيل: أراد رسل الرسل من الجن إليهم، كقوله تعالى: "ولوا إلى قومهم منذرين" الأحقاف: 29، وعن الكلبي: كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الإنس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن "قالوا شهدنا على أنفسنا" حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله: "ألم يأتكم" لأن الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريراً لهم. وقولهم: "شهدنا على أنفسنا" إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم، وأنهم محجوجون بها. فإن قلت: ما لهم مقرين في هذه الآية

جاحدين في قوله: "والله ربنا ما كنا مشركين" الأنعام: 23،؟ قلت: تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاوّل، فيقرون في بعضها، ويححدون في بعضها أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يجتمع على أفواههم. فإن قلت: لمكرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت: الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون؟ والثانية ذم لهم، وتخطئة لرأيهم، ووصف لقلّة نظرهم لأنفسهم، وأنهم قوم غرقم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

"ذلك إن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، ولكن درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون". "ذلك" إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة، وهو خبر مبتدأ محذوف: أي الأمر ذلك. و "وأن لم يكن ربك مهلك القرى" تعليل، أي الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم، على أن "أن" هي التي تنصب الأفعال، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، على معنى: لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم. ولك أن تجعله بدلاً من ذلك، كقوله: "وقضينا إليه ذلك الأمر في دابر هؤلاء مقطوع" الحجر: 66، "بظلم" سبب ظلم قدموا عليه. أو ظالمًا، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون ولم ينبهوا برسول وكتاب، لكان ظلمًا، لم هو متعال عن الظلم وعن كل قبيح "ولكل" من المكلفين درجات "منازل" مما عملوا من جزاء أعمالهم "وما ربك بغافل عما يعملون" بساه عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر. "وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما شاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين، إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين".

"وربك الغني" عن عباده وعن عبادتهم "ذو الرحمة" يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة "إن يشأ يذهبكم" أيها العصاة "ويستخلف من بعدكم ما يشاء" من الخلق المطيع "كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين" من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام. "قل يا قوم أعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون".

المكانة تكون مصدرًا يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن. ومعنى المكان، يقال: مكان ومكانة ومقام ومقامة. وقوله: "اعملوا على مكانتكم" يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم. أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله؟ على مكانتك يا فلان، أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه "إني عامل" أي عامل على مكانتي التي أنا عليها. والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" أينما تكون له العاقبة المحمودة. وطريقة هذا الأمر طريقة قوله "اعملوا ما شئتم" فصلت: 40، وهي التخليّة والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكانه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفصى عنه ويعمل بخلافه، فإن قلت: ما موضع فإن قلت: الرفع إذا كان بمعنى أي وعلق عنه فعل العلم. أو النصب إذا كان بمعنى الذي و "عاقبة الدار" العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها. وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن

شدة الوعيد، والوثوق بأن المنذر محق والمنذر مبطل.

"وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمكم وهذا لشركائهم فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون".

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله، وأشياء منها لأهنتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلوا بأن الله غني، وإنما ذاك لحبهم آهنتهم وإيثارهم لها: وقوله: "مَّا ذَرَأَ" فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي، لأنه هو الذي ذرأه وزكاه، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرء ولا تركيه "بزعمهم" وقرئ: بالضم، أي قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك، لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القرية "فلا يصل إلى الله" أي لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين "فهو يصل إلى شركائهم" من إنفاق عليها في بذبح النسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك "ساء ما يحكمون" في إيثار آهنتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم.

"وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون".

"وكذلك" ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي هو علم من الشياطين. والمعنى: أن شركاءهم من الشياطين، أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوآد، أو بنحرمهم للآلهة وكان الرجل في الجاهلية يحلف: لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم، كما حلف عبد المطلب. وقرئ: زين على البناء للفاعل الذي هو شركائهم، ونصب "قتل أولادهم" وزين، على البناء للمفعول الذي هو القتل، ورفع شركائهم بإضمار فعل دل عليه زين، كأنه قيل: لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه؟ فقيل: زينه لهم شركائهم. وأما قراءة ابن عامر: قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما بغير الظرف، فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر، لكان سمجاً مردوداً، كما سمح ورد.

زج القلوص أبي مزاده

فكيف به في الكلام المنشور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته. والذي حملة على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء. ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأق الأولاد شركائهم في أمواهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب "ليردهم" ليهلكوهم بالإغواء "وليبسوا عليهم دينهم" وليخلطوا، عليهم ويشبهوه.

ودينهم: ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك. وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه. وقيل معناه وليوقعوهم في دين ملتبس. فإن قلت: ما معنى اللام؟ قلت: إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة "ولو شاء الله" مشيئة قسر "ما فعلوه" لما فعل المشركون ما

زين لهم من القتل. أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك، إن جعلت الضمير جارياً مجرى اسم الإشارة "وَمَا يَفْتَرُونَ" وما يفترونه من الإفك. أو وافترأؤهم.

"وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكّر اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيه بما كانوا يفترون".

"حجر" فعل بمعنى مفعول كالذبح والطحن، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات: وقرأ الحسن وقتادة "حجر" بضم الحاء. وقرأ ابن عباس: حرج وهو من التضيق وكانوا إذا عينو أشياء من حرثهم وأنعامهم لأهنتهم قالوا: "لا يطعمها إلا من نشاء" يعنون خدم الأوثان، والرجال دون النساء "وأنعام حرمت ظهورها" وهي البحائر والسوانب والحوامي "وأنعام لا يذكّر اسم الله عليها" في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام. وقيل: لا يحجون عليها ولا يلبن على ظهورها. والمعنى: أنهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعام حجر، وأنعام محرمة الظهور، وهذه أنعام لا يذكّر عليها اسم الله. فجعلوها أجناساً بجهاهم، ونسبوا ذلك التنجيس إلى الله "افتراء عليه" أي فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وانتصابه على أنه مفعول له: أو حال، أو مصدر مؤكد، لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء.

"وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم".

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوانب: ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث. وأنت "خالصة" للحمل على المعنى، لأن ما في معنى الأجنة وذكر "وأنعام حرمت للحمل على اللفظ. ونظيره "ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك" محمد: 16، ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر. وأن تكون مصدراً وقع موقع الخالص، كالعاقبة أي ذو خالصة. ويدل عليه قراءة من قرأ: خالصة بالنصب على أن قوله "لذكورنا" هو الخبر، وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدمة، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله. وقرأ ابن عباس: خالصة على الإضافة. وفي مصحف عبد الله: خالص "وإن يكن ميتة" وإن يكن ما في بطونها ميتة. وقرئ: وإن تكن بالتأنيث، على: وإن تكن الأجنة ميتة. وقرأ أهل مكة: "وإن تكن ميتة" بالتأنيث والرفع على كان التامة وتذكير الضمير في قوله: "فهم فيه شركاء" لأن الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى، فكانه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء "سيجزيهم وصفهم" أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم من قوله تعالى: "ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام" النحل: 116.

"قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين".

نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يندون بناتهم مخافة السبي والفقر "سفهاً بغير علم" خفة أحلامهم، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم، لا هم. وقرئ: قتلوا بالتشديد "ما رزقهم الله" من البحائر والسوانب وغيرها.

"وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخيل والزروع مختلف أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر وآثروا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين".

"أنشأ جنات" من الكروم "معروشات" مسموكات "وغير معروشات" متروكات على وجه الأرض لم تعرش. وقيل:

المعروشات ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه "وغيرَ معروشات" مما أنبتته الله وحشياً في البراري والجبال، فهو غير معروش. يقال: عرشت الكرم، إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان.

وسقف البيت: عرشه "مختلفاً أكله" في اللون والطعم والحجم والرائحة. وقرئ: أكله بالضم والسكون وهو ثمره الذي يؤكل. والضمير للنخل والزروع داخل في حكمه، لكونه معطوفاً عليه. ومختلفاً: حال مقدرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك، كقوله تعالى: "فادخلوها خالدين" الزمر: 73،. وقرئ: ثمرة بضمين. فإن قلت: ما فائدة قوله: "إذا أثمر" وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه؟ قلت: لما أبيح لهم الأكل من ثمره قيل: إذا أثمر، ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع "وأثروا حقه يوم حصاده" الآية مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة، فأريد بالحق ما كان يتصدق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجباً حتى نسخه افتراض العشر، ونصف العشر. وقيل مدنية، والحق هو الزكاة المفروضة. ومعناه: واعزموا على إيتاء الحق واقتصدوه واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء "ولا تسرفوا" في الصدقة كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس: أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله "ولا تبسطها كل البسط فتقع ملوماً محسوراً" الإسراء: 29.

"ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكركم حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركم حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه الأرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن أفترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين".

"حمولة وفرشاً" عطف على جنات. أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح، أو ينسج من وبره وصفه وشعره الفرش. وقيل: الحمولة الكبار التي تصلح للحمل والفرش الصغار كالفصلاان والعجاجيل والغنم، لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها، مثل الفرش المفروش عليها "ولا تتبعوا خطوات الشيطان" في التحليل والتحریم من عند أنفسكم فعل كما أهل الجاهلية "ثمانية أزواج" بدل من حمولة وفرشاً "اثنيين" زوجين اثنين، يريد الذكر والأنثى، كالجمل والناقة، والثور والبقرة، والكبش والنعجة، والتمس والعز والواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منها زوجاً، وهما زوجان، بدليل قوله: "خلق الزوجين الذكر والأنثى" النجم: 45، والدليل عليه قوله تعالى: "ثمانية أزواج" ثم فسرهما بقوله: "من الضأن اثنين ومن المعز اثنين"، "ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين" ونحو تسميتهم الفرد بالزوج، بشرط أن يكون معه آخر من جنسه: تسميتهم الزجاجة كاساً بشرط أن يكون فيها حمر. والضأن والمعز جمع ضائن وماعز، كتاجر وتجر. وقرنا بفتح العين. وقرأ أبي: ومن المعزى وقرئ: اثنان على الابتداء.

الهمزة في الذكركم للإنكار والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن والذكر من المعز. وبالإثنين: الأنثى من الضأن والأنثى من المعز، على طريق الجنسية. والمعنى إنكار أن يحرم الله تعالى من جنس الغنم ضاًئها ومعزها شيئاً من نوعي

ذكورها وإنثائها، ولا مما تحمل إناث، الجنسين وكذلك الذكران من جنسي الإبل والبقر والأنثيان منهما وما تحمل إناثهما وذلك أنهم كانوا يحرمون ذكورة الأنعام تارة، وإنثائها تارة، وأولادهما كيفما كانت ذكوراً وإنثاءً، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون قد حرمها الله، فأنكر ذلك عليهم "نبؤني يعلم" خبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرمتهم "إن كنتم صادقين" في أن الله حرمه "أم كنتم شهداء" بل أكنتم شهداء. ومعنى الهمزة الإنكار، يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم؟ وذكر المشاهدة على مذهبيهم، لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون: الله حرم هذا الذي نحرمه، فتعكم بهم في قوله: "أم كنتم شهداء" على معنى: أعرستم التوصية به مشاهدين، لأنكم لا تؤمنون بالرسول "فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً" فنسب إليه تحريم ما لم يحرم "ليضل الناس" وهو عمرو بن لحي بن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب.

"قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم".

فإن قلت: كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه؟ قلت: قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبي من المعدود. وذلك أن الله عز وجل من على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وإباحتها لهم، فاعتراض بالاحتجاج على من حرمها، والاحتجاج على من حرمها تأكيد وتسديد للتحليل، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد "في ما أوحى إلي" تنبيه على أن التحريم إنما يشب بوحى الله تعالى وشرعه، لا بهوى الأنفس "مُحَرَّمًا" طعاماً محرماً من المطاعم التي حرمتها "إلا أن يكون ميتة" إلا أن يكون الشيء المحرم ميتة "أو دماً مسفوحاً" أي: مصبوحاً سائلاً كالدم في العروق، لا كالكدب والطحال. وقد رخص في دم العروق بعد الذبح "أو فسقاً" عطف على المنسوب قبله. سمي ما أهل به لغير الله فسقاً لتوغله في باب الفسق. ومنه قوله تعالى: "ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق" الأنعام: 121، وأهل: صفة له منصوبة للخل. ومجوز أن يكون مفعولاً له من أهل، أي أهل لغير الله به فسقاً. فإن قلت: فعلام تعطف "أهل"؟ لام يرجع الضمير في "به" على هذا القول؟ قلت: يعطف على يكون، ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكن في يكون "فَمَنْ اضْطُرَّ" فمن دعت الضرورة إلى كل شيء من هذه الحرمات "غير باغ" على مضطر مثله تارك لمواساته "ولا عاد" متجاوز قدر حاجته من تناوله "فإن ربك غفور رحيم" لا يؤاخذ. "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ظفر ومن الغنم والبقر حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيهم وإننا لصادقون، فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين".

ذو الظفر ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حرم ذلك عليهم فعم التحريم كل ذي ظفر بدليل قوله: "فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم" النساء: 60، وقوله: ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما" كقولك: من زيد أخذت ماله، تريد الإضافة زيادة الربط. والمعنى أنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة، وهي الشروب وشحوم الكلي. وقوله: "إلا ما حَمَلَتْ ظهورها" يعني إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب

من السحقة "أو الحوايا" أو اشتمل على الأمعاء "وما أختلط بعظم" وهو شحم الإلية. وقيل "الحوايا" عطف على شحومها. وأو بمزلتها في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين "ذلك" الجزاء "جزيناها" وهو تحريم الطيبات "بغيرهم" بسبب ظلمتهم "وإننا لصادقون" فيما أوعدنا به العصاة لا نخلفه، كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة. فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب. "فإن كذبوك" في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة، وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً "فَقُلْ" لهم "ريكم ذو رحمة واسعة" لأهل طاعته "ولا يرد بأسه" مع سعة رحمته "عن القوم الجرمين" فلا تغتر برجاء رحمته عن خوف نقمته.

"سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وأن أنتم إلا تخرسون، قل فله الحجة البالغة فلو شاء هداكم أجمعين".

"سيقول الذين أشركوا" إخبار بما سوف يقولونه ولما قالوه قال: "وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء" النحل: 35، يعنون بكفرهم وتقدمهم أن شركهم وشرك آبائهم، وتحريمهم ما أحل الله، بمشيئة الله وإرادته. ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك، كما ذهب المجرة بعينه "كذلك كذب الذين من قبلهم" أي جاءوا بالتكذيب المطلق، لأن الله عز وجل ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها، والرسول أخبروا بذلك. فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره "حتى ذاقوا بأسنا" حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم "قل هل عندكم من علم" من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم "فتخرجوه لنا" وهذا من التهكم، والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة "وإن تتبعوا إلا الظن" في قولكم هذا "وإن أنتم إلا تخرسون" تقدرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون. وقرئ: "كذلك كذب الذين من قبلهم" بالتخفيف "قل فله الحجة البالغة" يعني فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فله الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم "فلو شاء هداكم أجمعين" منكم ومن مخالفكم في الدين، فان تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته، فتوالوهم ولا تعادوهم، وتوافقوهم ولا تحالفوهم، لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

"قل هل شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهدوا معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهو برهم يعدلون" "هلم" يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث عند الحجازيين. وبنو تميم تؤنث وتجمع. والمعنى: هاتوا شهداءكم وقربوهم. فإن قلت: كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرماً، ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قلت: أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل، ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء، لتساوي أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به. وقوله: "فلا تشهد معهم" يعني فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم: لأنه إذا سلم لهم فكانه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم "ولا تتبع أهواء

الذين كذبوا بآياتنا" من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير، لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصداقاً بآيات موحداً لله تعالى. فإن قلت: هلا قيل: قل لهم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا؟ وأي فرق بينه وبين المتزل؟ قلت: المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم، وكان المشهود لهم يقلدوهم ويتقون بهم ويعتضدون بشهادتهم، ليهدم ما يقومون به فيحق الحق ويبطل الباطل، فأضيفت الشهداء لذلك، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: "فإن شهدوا فلا تشهد معهم" ولو قيل: لهم شهداء يشهدون لكان معناه هاتوا أناساً يشهدون بتحريم ذلك فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالغرض. ويناقضه قوله تعالى: "فإن شهدوا فلا تشهد معهم".

"قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيء وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون".

تعال، من الخاص الذي صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم. و"ما حرم" منصوب بفعل التلاوة، أي أتل الذي حرمه ربكم. أو يحرم بمعنى: أقل أي شيء حرم ربكم، لأن التلاوة من القول، وأن في "إلا تشركوا" مفسرة ولا للنهي. فإن قلت: هلا قلت هي التي تنصب الفعل، وجعلت أن لا تشركوا بدلاً من "ما حرم الله" قلت: وجب أن يكون "لا تشركوا" و"لا تقربوا" و"لا تقتلوا" و"لا تتبعوا السبل" الأنعام: 153، نواهي لانعطاف الأوامر عليها، وهي قوله: "وبالوالدين أحسناً" لأن التقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً. و"أوفوا"، وإذا قلتم فاعدلوا" الأنعام: 152، "وبعهد الله أوفوا" الأنعام: 152. فإن قلت: فما تصنع بقوله: "وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه" فيمن قرأ بالفتح، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل، حتى يكون المعنى: أتل عليكم نفي الإشراف والتوحيد، وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيماً؟ قلت: أجعل قوله: أن هذا صراطي مستقيماً الأنعام: 153، علة للاتباع بتقدير اللام، كقوله تعالى: "أن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً" الجن: 18، بمعنى: ولأن هذا صراطي مستقيم فاتبعوه. والدليل عليه القراءة بالكسر، كأنه قيل: واتبعوا صراطي لأنه مستقيم، أو اتبعوا صراطي إنه مستقيم. فإن قلت: إذا جعلت "أن" مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق حرم ربكم، وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرماً كله، كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي فما تصنع بالأوامر قلت لما وردت هذه الأوامر مع النواهي وتقدمهن جميعاً فعل التحريم واشتركن في الدخول تحت حكمه، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها، وهي الإساءة إلى الوالدين، وبخس الكيل والميزان. وترك العدل في القول، ونكث عهد الله "من إملاق" من أجل فقر ومن خشيته، كقوله تعالى: "خشية إملاق" الإسراء: 31، "وما ظهَرَ منها وما بطن" مثل قوله: "ظاهر الإثم وباطنه" الأنعام: 120، "إلا الحق" كالقصاص، والقتل على الردة، والرجم.

"ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها

وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون".

"إلا بالتى هي أحسن" إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم، وهي حفظه وتثمينه والمعنى: احفظوه عليه حتى يبلغ أشده فادفعوه إليه "بالقسط" بالسوية والعدل، "لا نكلف نفساً إلا وسعها" إلا ما يسعها ولا تعجز عنه. وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل في الميزان ذلك، لأن مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفو عنه "ولو كان ذا قربى" ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القاتل، فما ينبغي أن يزيد في القول أو ينقص، كقوله: "ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين" النساء 135.

"وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرقوا بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون". وقرئ: "وأن هذا صراطي مستقيماً" بتخفيف "أن" وأصله: وأنه هذا صراطي، على أن الهاء ضمير الشأن والحديث. وقرأ الأعمش: وهذا صراطي. وفي مصحف عبد الله: وهذا صراط ربكم. وفي مصحف أبي: وهذا صراط ربك "ولا تتبعوا السبل" الطرق المختلفة في الدين، من اليهودية والنصرانية، والجوسية، وسائر البدع والضلالات "فتفرق بكم" فتفرقكم أيادي سبا "عَنْ سَبِيلِهِ" عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام. وقرئ: "فَتَفَرَّقَ بَكُمْ" بإدغام التاء. وروى أبو وائل عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم:

أنه خط خطاً ثم قال: هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا هذه الآية "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ" وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخن شيء من جميع الكتب. وقيل: إفهن أم الكتاب، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار، وعن كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة. فإن قلت: علام عطف قوله: "ثم آتينا موسى الكتاب" قلت: على "وصاكم به". فإن قلت: كيف صح عطفه عليه بشم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلت: هذه التوصية قديمة، لم تزل توصيها كل أمة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: محكمات لم ينسخن شيء من جميع الكتب، فكانه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً. "ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون".

"ثم أعظم من ذلك أباً" آتينا موسى الكتاب "وأنزلنا هذا الكتاب المبارك. وقيل: هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله تعالى: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب" الأنعام: 84، "تماماً على الذي أحسن" تماماً للكرامة والنعمة، على الذي أحسن، على من كان محسناً صالحاً، يريد جنس المحسنين. وتدل عليه قراءة عبد الله: على الذين أحسنوا أو أراد به موسى عليه السلام، أي تنمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به أو تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته، أي زيادة على علمه على وجه التثمين. وقرأ يحيى بن يعمر: على الذي أحسن، بالرفع، أي على الذي هو أحسن، بحذف المبتدأ كقراءة من قرأ: "مثلاً ما بعوضة" البقرة: 26، الرفع أي على الدين الذي هو أحسن دين وأرضاه. أو آتينا موسى الكتاب تماماً، أي تاماً كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب، أي على الوجه والطريق الذي هو أحسن وهو معنى قول الكلبي: أتم له الكتاب على أحسنه.

"وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون، وأن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون".

"أن تقولوا" كراهة أن تقولوا "على طائفتين" يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل "وإن كنا" هي إن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والأصل: وإنه كنا عن عاصيتهم غافلين، على أن الهاء ضمير الشأن "عن دراستهم" عن قراءتهم، أي لم نعرف مثل دراستهم "لكنا أهدى منهم" لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغازاة حفظنا لأيام العرب ووقائعهم وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها، على أنا أميون، وقرئ: أن يقولوا أو يقولوا بالياء "فقد جاءكم بينة من ربكم" تبكيت لهم، وهو على قراءة من قرأ: "يقولوا" على لفظ الغيبة أحسن، لما فيه من الالتفات. والمعنى: إن صدقتكم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم، فحذف الشرط وهو من أحاسن الخدوف "فمن أظلم ممن كذب بآيات الله" بعد ما عرف صحتها وصدقها، أو تمكن من معرفة ذلك "وصدف عنها" الناس فضل وأصل "سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب" كقوله: "الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب" النحل: 88.

"هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون".
"الملائكة" ملائكة الموت، أو العذاب "أو يأتي ربك" أو يأتي كل آيات ربك.
بدليل قوله: "أو يأتي بعض آيات ربك" يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك. وعن البراء بن عازب:

كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما تتذاكرون؟ فقلنا: نتذاكر الساعة قال: إنما لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وناراً تخرج من عدن". "لم تكن آمنت من قبل" صفة لقوله نفساً. وقوله: "أو كسبت في إيمانها خيراً" عطف على آمنت. والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة، ذهب أو ان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسية في إيمانها خيراً، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً، ليعلم أن قوله: "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" البقرة: 25، جمع بين قرينتين، لا ينبغي أن تنفك إحداها عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقة والهلاك "قل انتظروا إنا منتظرون" وعيد.

وقرئ: "أن يأتيهم الملائكة" بالياء والتاء. وقرأ ابن سيرين: "لا تنفع" بالتاء، لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك: ذهب بعض أصابعه.

"إن الذين فرقوا دينهم كانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون".

"فرقوا دينهم" اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى. وفي الحديث: "افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافتترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في الهاوية إلا واحدة" وقيل: فرقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقرئ: "فارقوا دينهم" أي تركوه "وكانوا شيعاً" فرقاً كل فرقة تشيع إماماً لها "لست منهم في شيء" أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم. وقيل: من عقابهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

"من جاء الحسنه فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون".

"عَشْرُ أمثالها" على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف، تقديره عشر حسنات أمثالها، وقرئ: "عشرُ أمثالها" برفعهما جميعاً على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الإضعاف. وقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد ثواباً بغير حساب. ومضاعفة الحسنات فضل، ومكافأة السيئات عدل "هم لا يُظلمُونَ" لا ينقص من ثوابهم ولا يزداد على عقابهم.

"قل أني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين".

"ديناً" نصب على البدل من محل "إلى صراط" لأن معناه: هادي صراطاً، بدليل قوله: "ويهديكم صراطاً مستقيماً" الفتح: 2، والقيم: فيعمل، من قام، كسيد من ساد، وهو أبلغ من القائم. وقرئ: "قيماً" والقيم: مصدر بمعنى القيام وصف به. و"ملة إبراهيم" عطف بيان. و"حنيفاً" حال من إبراهيم.

"قل أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين".

"قل أن صلاتي ونسكي" وعبادتي وتقربي كله. وقيل: وذبحي. وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله: "فصل لربك وانحر" الكوثر: 2، وقيل: صلاتي وحجتي من مناسك الحج "ومحياي ومماتي" وما آتية في حياتي، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح "لله رب العالمين" خالصة لوجهه "وبذلك" من الإخلاص "أمرت وأنا أول المسلمين" لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته.

"قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفساً إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون".

"قل أغير الله أبغي رباً" جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار، أي منكر أن أبغي رباً غيره "وهو رب كل شيء" فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره، كما قال: "قل أغير الله تأمروني أعبد الزمر: 64"، "ولا تكسب كل نفس إلا عليها" جواب عن قولهم: "اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم" العنكبوت:

12.

"وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم".

"جعلكم خلائف الأرض" لأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فخلفت أمته سائر الأمم. أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً. أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها "ورفع بعضكم فوق بعض درجات" في الشرف والرزق "ليبلوكم فيما آتاكم" من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضع،

والحر بالعبد، والغني بالفقير "إن ربك سريع العقاب" لمن كفر نعمته "وإنه لغفور رحيم" لمن قام بشكرها. ووصف العقاب بالسرعة، لأن ما هو آت قريب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه وسلم واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة".

سورة الأعراف

مكية، وهي مائتان وست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

"المص، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين".
"كتاب" خبر مبتدأ محذوف، أي هو كتاب. و"أنزل إليك" صفة له. والمراد بالكتاب السورة "فلا يكن في صدرك حرج منه" أي شك منه، كقوله: "فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك" يونس: 94، وسمى الشك حرجاً، لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشراح الصدر منفسحه. أي لا تشك في أنه منزل من الله، ولا تخرج من تبليغه لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم. فإن قلت: بم تعلق قوله: "لتنذر"؟ قلت: بأنزل، أي أنزل إليك لإنذارك به أو بالنهي، لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار، لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه، متكلم على عصمته، فإن قلت، فما محل ذكرى؟ قلت: يحتمل الحركات الثلاث. النصب بإضمار فعلها. كأنه قيل: لتنذر به وتذكر تذكيراً لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير، والرفع عطفاً على كتاب، أو بأنه خبر مبتدأ محذوف. والجر للعطف على محل أن تنذر، أي للإنذار وللذكر. فإن قلت: النهي في قوله: "فلا يكن" متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ قلت: هو من قولهم: لا أرينك ههنا.

"اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون".
"اتبعوا ما أنزل إليكم" من القرآن والسنة "ولا تتبعوا من دونه" من دون الله "أولياء" أي ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم، وأمرهم باتباعه. وعن الحسن: يا ابن آدم، أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم. والله ما نزلت آية إلا وهو يجب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: "ولا تتبعوا" من الابتغاء "ومن يتبع غير الإسلام ديناً" آل عمران: 85. ويجوز أن يكون الضمير في "من دونه" لما أنزل، على: ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء "قليلاً ما تذكرون" حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره. وقرئ: "تذكرون"، بحذف التاء. ويتذكرون بالياء. و"قليلاً": نصب بتذكرون، أي تذكرون تذكراً قليلاً. و"ما" مزيدة لتوكيد القلة.

"وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قاتلون".

"فجاءها" فجاء أهلها "بياتاً" مصدر واقع موقع الحال، بمعنى باتتين. يقال: بات بياتاً حسناً، وبيتة حسنة، وقوله: "هم القاتلون" حال معطوفة على بياتاً، كأنه قيل: جاءهم بأسنا باتتين أو قاتلين. فإن قلت: هل يقدر حذف المضاف الذي هو الأهل قبل "قرية" أو قبل الضمير في "أهلكناها"؟ قلت: إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها. وإنما قدرناه قبل الضمير في "فجاءها" لقوله "أم هم قاتلون" فإن قلت: لا يقال: جاءني زيد هو فارس، بغير واو، فما بال قوله: "هم قاتلون"؟ قلت: قدر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج وقال: لو قلت جاءني زيد راجلاً، أو هو فارس. أو جاءني زيد هو فارس، لم يحتج فيه إلى واو، لأن الذكر قد عاد إلى الأول. والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقلاً. لاجتماع حرفي عطف، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل، فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، كلام فصيح وارد على حده وأما جاءني زيد هو فارس فخبيث. فإن قلت: فما معنى قوله: "أهلكناها فجاءها بأسنا" والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس؟ قلت: معناه أردنا إهلاكها، كقوله: "إذا قمتم إلى الصلاة" المائدة: 6، وإنما حض هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيلولة، لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأقطع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

"فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين".

"فما كان دعواهم" ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده. وقولهم: "إنا كنا ظالمين" فيما كنا عليه. ويجوز: فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا، لأنه لا مستغاث من الله بغيره، ومن قولهم دعواهم: يا لكعب. ويجوز، فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم، وأن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم، و"دعواهم" نصب خبر لكان، و"أن قالوا" رفع اسم له، ويجوز العكس.

"فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين، فلنقص عليهم بعلم ما كنا غائبين".

"فلنسألن الذين أرسل إليهم"، "أرسل" مسند إلى الجار والمجرور وهو "إليهم" ومعناه: فلنسألن المرسل إليهم وهم الأمم، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: "ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين" القصص: 65، ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: "يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم" المائدة: 109، "فليقصن عليهم" على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم "بعلم" عالين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم "وما كنا غائبين" عنهم وعما وجد منهم، فإن قلت: فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم، فما معنى سؤالهم؟ قلت: معناه التوبيخ والتقريع والتقريع إذا فاهوا به بالسنتهم وشهد عليهم أنبياءهم.

"والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون".

"والوزن يومئذ الحق" يعني وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها. ورفعها على الابتداء. وخبره "يومئذ".

"الحق" صفته أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلمهم الوزن الحق، أي العدل. وقرئ: القسط. واختلف في كيفية الوزن ف قيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق، تأكيداً للحجة، وإظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بما بآلسنتهم، وتشهد بما عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والإشهاد، وكما تثبت في صحائفهم فيقرؤنها في موقف الحساب. وقيل: هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل "فمن ثقلت موازينه" جمع ميزان أو موزون، أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات. أو ما توزن به حسناتهم. وعن الحسن: وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل. وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف. "بآياتنا يظلمون" يكذبون بما ظلماً. كقوله: "فظلموا بها الإسراء: 59". "ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون".

"مكناكم في الأرض" جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً. أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها "وجعلنا لكم فيها معاش" جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها. أو ما يتوصل به إلى ذلك. والوجه تصريح الباء. وعن ابن عامر: أنه همز، على التشبيه بصحائف.

"ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين". "ولقد خلقناكم ثم صورناكم" يعني خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك. ألا ترى إلى قوله: "ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" الآية "من الساجدين" ممن سجد لآدم. "قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين".

"ألا تسجد" لا في "أن لا تسجد" صلة بدليل قوله: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" ص: 75، ومثلها "لنلا يعلم أهل الكتاب" الحديد: 29، بمعنى ليعلم: فإن قلت: ما فائدة زيادتها؟ قلت: تأكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب. وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك؟ "إذ أمرتك" لأن أمري لك بالسجود أوجبه عليك إيجاباً وأحتمه عليك حتماً لا بد منه، فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدراؤه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه، لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب. فإن قلت: كيف يكون قوله: "أنا خير منه" جواباً لما منعك، وإنما الجواب أن يقول: منعي كذا؟ قلت: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم، وبعلة فضله عليه، وهو أن أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه، وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعداً أن يؤمر بما أمر به.

"قال فأهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين". "فأهبط منها" من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة، إلى الأرض التي هي مقر العاصين المتكبرين من الثقلين "فَمَا يَكُونُ لَكَ" فما يصح لك أن تتكبر فيها" وتعصي "فَأَخْرُجُ إِنْكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ" من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاعراً، إذا أهنته. وفي ضده: قم راشداً. وذلك أنه لما

أظهر الاستكبار ألبس الصغار. وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكَمَتَهُ وقال: انتعش أنعشك الله. ومن تكبر وعدا طوره وهسه الله إلى الأرض.

"قال أنظرنى إلى يوم يبعثون، قال أنك من المنظرين".

فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده.

"قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين".

"فَمَا أَغَوَيْتَنِي" فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم. وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي ولم يثبت كما ثبتت الملائكة مع كونهم أفضل منه ومن آدم أنفساً ومناصب، وعن الأصم: أمرتني بالسجود فحملني الأنف على معصيتك. والمعنى: فبسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسبي، كما فسدت بسبيهم. فإن قلت: بم تعلق الباء، فإن تعلقها بأقعدن يصد عنه لام القسم، لا تقول: والله يزيد لأمرن؟ قلت: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره: فيما أغويتني أقسم بالله لأقعدن، أي فبسبب إغوائك أقسم. ويجوز أن تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؟ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله، لكونه تعريضاً لسعادة الأبد، فكان جديراً بأن يقسم به. ومن تكاذيب المجرة ما حكوه عن طاوس: أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر، فجلس إليه فقال له طاوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إيليس أفقه منه، قال رب بما أغويتني، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من قهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه، أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين. وقيل: "ما" للاستفهام، كأنه قيل: بأي شيء أغويتني، ثم ابتدئ لأقعدن. وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على "ما" الاستفهامية، قليل شاذ. وأصل الغي الفساد. ومنه: غوى الفصيل، إذا بشم. والبشم: فساد في المعدة "لأقعدن لهم صراطك المستقيم" لأعترض لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الطرف، كقوله:

كما عسل الطريق الثعلب

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن، أي على الظهر والبطن. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه: قعد له بطريق الإسلام فقال له: تدع دين آباتك، فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: تدع ديارك وتتغرب، فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك، فعصاه فقاتل "ثم لأتينهم" من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب. وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله: "واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك" الإسراء: 64. فإن قلت: كيف قيل: "من بين أيديهم ومن خلفهم" بحرف الابتداء "وعن أيمانهم وعن

شمالهم" بحرف المجاوزة؟ قلت: المفعول فيه عدي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به. فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس. وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه، وعن شماله وعلى شماله، قلنا: معنى "على يمينه" أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلي عليه. ومعنى "عن يمينه" أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له. ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره، كما ذكرنا في تعال. ونحوه من المفعول به قولهم: رميت عن القوس، وعلى القوس، ومن القوس، لأن السهم يبعد عنها، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي، ويبتدئ الرمي منها. كذلك قالوا: جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه، لأنهما طرفان للفعل. ومن بين يديه ومن خلفه: لأن الفعل يقع في بعض الجهتين، كما تقول: جنته من الليل، تريد بعض الليل، وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي: أما من بين يدي فيقول: لا تخف، فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: "وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، طه: 82، وأما من خلفي، فيخوفني الضيعة على مخلفي فأقرأ: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" هود: 6، وأما من قبل يميني، فيأتي من قبل الشئ فأقرأ: "والعاقبة للمتقين" الأعراف: 128، وأما من قبل شمالي فيأتي من قبل الشهوات فأقرأ: "وحيل بينهم وبين ما يشتهون" سبأ: 54، "ولا تجد أكثرهم شاكرين" قاله تظنيماً، بدليل قوله: "ولقد صدق عليهم إبليس ظنه" سبأ: 20، وقيل: سمعه من الملائكة ياخبر الله تعالى لهم.

"قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن منكم جهنم أجمعين".

"مذموماً" من ذامه إذا ذمه. وقرأ الزهري: مذموماً، بالتخفيف، مثل مسول في مسؤل. واللام في "لمن تبعك" موطنه للقسم. و"لأملأن" جوابه، وهو ساد مسد جواب الشرط "منكم" منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب، كما في قوله: "إنكم قوم تجهلون" الأعراف: 138،. وروى عصمة عن عاصم: "لمن تبعك" بكسر اللام، بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد، وهو قوله: "لأملأن جهنم منكم أجمعين"، على أن "لأملأن" في محل الابتداء، و"لَمَن تَبِعَكَ" خبره. "ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ورى عنهما من سوءتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءتهما وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين". "يا آدم" وقلنا: يا آدم. وقرئ: "هذي الشجرة" والأصل الياء، والهاء بدل منها، ويقال: وسوس، إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره. ومنه وسوس الحلي، وهو فعل غير متعد، كلولت المرأة ووعوع الذئب، ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح، ولكن موسوس له، وموسوس إليه، وهو الذي تلقى إليه الوسوسة. ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، وسوس إليه: ألغاهما إليه "ليبيدي" جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره، وأن لا يطلع عليه مكشوفاً. وفيه دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع مستقبحاً في العقول. فإن قلت: ما للواو المضمومة في "ورئ" لم تقلب همزة كما قلبت في أو يصل؟ قلت: لأن الثانية مدة

كألف وارى. وقد جاء في قراءة عبد الله: "أورى" بالقلب "إلا أن تكونا ملكين" إلا كراهية أن تكونا ملكين. وفيه دليل على أن الملكية بالنظر الأعلى، وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا. وقرئ: ملكين بكسر اللام، كقوله "وملك لا يبلى" طه: 120. "من الخالدين" من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين. وقرئ: "من سوءهما" بالتوحيد، وسؤاها، بالواو المشددة "وقاسمهما" وأقسم لهما "إني لكما من الناصحين". فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقاسماً تحالفاً. ومنه قوله تعالى: "تقاسموا بالله لنبيته" النمل: 49. قلت: كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، وقالوا له أتقسم بالله إنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم. أو أقسم لهما بالنصحية وأقسما له بقبولها أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة، لأنه اجتهد فيه اجتهد المقاسم "فدلأهما" فترهما إلى الأكل من الشجرة "بغرور" بما غرهما به من القسم بالله. وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله. وعن ابن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعق، فقبل له: إنهم يخدعونك، فقال: من خدعنا بالله نخدعنا له "فلما ذاق الشجرة" وجدا طعمها آخذين في الأكل منها. وقيل: الشجرة هي السنبلة. وقيل: شجرة الكرم "بذت لهما سوءهما" أي تهاافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر. وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني. وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار. وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر. ويقال: طفق يفعل كذا، بمعنى جعل يفعل كذا. وقرأ أبو السمال: وطفقا بالفتح "يخصفان" ورقة فوق ورقة على عوراهما ليستترا بها، كما يخصف النعل، بأن تجعل طريقة على طريقة وتوثق بالسيور. وقرأ الحسن: يخصفان بكسر الحاء وتشديد الصاد، وأصله يخصفان. وقرأ الزهري: "يخصفان" من أخصف، وهو منقول من خصف أي يخصفان أنفسهما وقرئ: "يخصفان" من خصف بالتشديد "من ورق الجنة" قيل: كان ورق التين "ألم أهلكما" عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس وروي: أنه قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كذا. فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز.

"قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين".

وسميا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلماً لأنفسهما، وقالوا: لنكونن من الخاسرين" على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات.

"قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون".

"اهبطوا" الخطاب لآدم وحواء وإبليس. و "بعضكم لبعض عدو" في موضع الحال، أي متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه "مستقر" استقرار، أو موضع استقرار "ومتاع إلى حين" وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم. وعن ثابت الباني: لما أهبط آدم وحفرته الوفاة أحاطت به الملائكة، فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وتراً، وحنطته وكفنته في وتر من الثياب، وحفروا له

ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبنيه: هذه سنتكم بعده.

"يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون".

جعل ما في الأرض مثلاً من السماء، لأنه قضى ثم وكتب. ومنه "وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج" الزمر: 6، والريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوءتكم، ولباساً يزينكم؟ لأن الزينة غرض صحيح، كما قال: "لتركبوها وزينة". "ولكم فيها جمال" النحل: 6، وقرأ عثمان رضي الله عنه: "وريشاً" جمع ريش، كشعب وشعاب "ولباس التقوى" ولباس الورع والحشية من الله تعالى، وارتفاعه على الابتداء وخبره إما الجملة التي هي "ذلك خير" كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر. وأما المفرد الذي هو خير وذلك صفة للمبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه جر. ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسواة، لأن موارد السواة من التقوى، تفضيلاً له على لباس الزينة. وقيل: لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف، أي وهو لباس التقوى، ثم قيل: ذلك خير. وفي قراءة عبد الله وأبي: "ولباس التقوى خير" وقيل: المراد بلباس التقوى: ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحروب وقرئ: "ولباس التقوى"، بالنصب عطفًا على لباساً وريشاً "ذلك من آيات الله" الدالة على فضله ورحمته على عباده. يعني إنزال اللباس "لعلهم يذكرون" فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوات وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

"يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يترع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون".

"لا يفتنكم الشيطان" لا يمتحنكم بأن لا تدخلوا الجنة، كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها. "يترع عنهما لباسهما" حال، أي إخراجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما "إنه يراكم هو" تعليل للنهي وتحذير من فتنته، بأنه بمزلة العدو المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون. وعن مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه، لشديد المؤنة إلا من عصم الله "وقبيله" وجنوده من الشياطين، وفيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا يظهرن للإنس، وأن أظهرهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهن زور ومخرقة "إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون" أي خلينا بينهم وبينهم لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سولوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول. فإن قلت: علام عطف وقبيله؟ قلت: على الضمير في يراكم المؤكد به، والضمير في أنه للشأن والحديث، وقرأ اليزيدي: وقبيله بالنصب وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم إن، وأن تكون الواو بمعنى مع، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير في أنه، كان راجعاً إلى إبليس.

"وإذا ما فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليه آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولوا على الله ما لا

تعلمون".

الفاحشة: ما تباع في قبحه من الذنوب، أي إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقصدوا بهم، وبأن الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها. وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم. والثاني: افتراء على الله وإلحاد في صفاته، كانوا، يقولون: لو كره الله منا ما نفعله لنقلنا عنه. وعن الحسن: إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله. وتصديقه قول الله تعالى: "وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء" لأن فعل القبيح مستحيل عليه لعدم الداعي ووجود الصارف، فكيف يأمر بفعله "أتقولون على الله ما لا تعلمون" إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط. وقيل: المراد بالفاحشة: طوافهم بالبيت عراة.

"قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون".
"بالقسط" بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل ميمز. وقيل: بالتوحيد "وأقيموا وجوهكم" وقل: أقيموا وجوهكم أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها "عند كل مسجد" في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود وهو الصلاة "وادعوه" وابدعوه "مخلصين له الدين" أي الطاعة، مبتغين بها وجه الله خالصاً "كما بدأكم تهودون" كما أنشأكم ابتداء يعيدكم، احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق، والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

"فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون".
"فريقاً هدى" وهم الذين أسلموا، أي وفقهم للإيمان "وفريقاً حق عليهم الضلالة" أي كلمة الضلالة، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون. وانتصاب قوله: "وفريقاً" بفعل مضمر يفسره بعده، كأنه قيل: وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة "إنهم" إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة: "اتخذوا الشيطان أولياء" أي تولوهم بالطاعة فيما أمرهم به، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله.
"يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين".

"خذوا زينتكم" أي ريشكم ولباس زينتكم "عند كل مسجد" كلما صليتم أو طفتم وكانوا يطوفون عراة. وعن طاوس، لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب. وقيل: الزينة المشط. وقيل: الطيب. والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجه لا يأكلون الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجههم فقال المسلمون: فإننا أحق أن نفعل، فقيل لهم: وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. ويحكى: أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء. والعلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: "كلوا واشربوا ولا تسرفوا" فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم

شيء في الطب؟ فقال: قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال قوله: "المعدة بيت الداء والحمية رأس الداء وأعط كل بدن ما عودته" فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً. "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون".

"زينة الله" من الثياب وكل ما يتجمل به "والطيبات من الرزق" المستلذات من المأكول والمشرب. ومعنى الاستفهام في من: إنكار تحريم هذه الأشياء. قيل: كانوا إذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها "قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا" غير خالصة لهم، لأن المشركين شركاءهم فيها "خالصة" لهم "يوم القيامة" لا يشركهم فيها أحد. فإن قلت: هلا قيل: هي للذين آمنوا ولغيرهم. قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، وأن الكفرة تبع لهم، كقوله تعالى: "ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار" البقرة: 126، وقرئ: "خالصة" بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خير بعد خبر.

"قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تفعلون".

"الفواحش" ما تفاحش قبحه أي تزايد. وقيل: هي ما يتعلق بالفروج "والإثم" عام لكل ذنب. وقيل: شرب الخمر "والبغي" الظلم والكبر، أفردته بالذكر كما قال: "وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي". "ما لم ينزل به سلطاناً" فيه تمكيم، لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره "وإن تقولوا على الله" وأن تقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

"ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا تستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

"ولكل أمة أجل" وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم وقرئ: "إذا جاء آجالهم". وقال: "ساعة" لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس. يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد أقصر وقت وأقربه.

"يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

"أما يأتينكم" هي أن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط. ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط؟ قلت: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء. والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم، والذين كذبوا منكم. وقرئ: "تأتينكم"، بالتاء.

"فمن أظلم ممن أفترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين".

"فمن أظلم" فمن أشنع ظلماً ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله: "أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب" أي مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار "حتى إذا جاءهم رسلنا" حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له، أي إلى وقت

وفاتهم، وهي حتى التي يبدأ بعدها الكلام، والكلام ههنا الجملة الشرطية، وهي إذا جاءتهم رسلنا قالوا. و"يتوفونهم" حال من الرسل، أي متوفيههم. والرسل ملك الموت وأعوانه. وما وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل، لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون "ضلوا عنا" غابوا عنا فلا نراهم ولا ننتفع بهم، اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم لم يمددوه في العاقبة.

"قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أحرهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأنهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون، وقالت أولاهم لأحرهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون".

"قال ادخلوا" أي يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته" وهم كفار العرب "في أمم" في موضع الحال، أي كائنين في جملة أمم، وفي غمارهم مصاحبين لهم، أي ادخلوا في النار مع أمم "قد خلت من قبلكم" وتقدم زمانهم زمانكم "لعنت أختها" التي ضلت بالاعتداء بها "حتى إذا أدركوا فيها" أي تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار "قالت أحرهم" مثله وهي الأتباع والسفلة "أولاهم" مثله وهي القادة والرؤس. ومعنى أولاهم: لأجل أولاهم، لأن خطابهم مع الله لا معهم "عذاباً ضعفاً" مضاعفاً "لكل ضعف" لأن كلا من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين "ولكن لا تعلمون" قرئ بالياء والتاء "فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ" عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة "لكل ضعف" أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا، وأنا متساوون في استحقاق الضعف "فذوقوا العذاب" من قول القادة، أو من قول الله لهم جميعاً.

"إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل سم الخياط وكذلك نجزي الجرمين، لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين".

"لا تفتح لهم أبواب السماء" لا يصعد لهم عمل صالح "إليه يصعد الكلم الطيب" فاطر 10، "كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين" المطففين: 18، وقيل: إن الجنة في السماء، فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة. وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين. وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون، ففتحنا أبواب السماء. وقرئ: لا تفتح، بالتشديد. ولا يفتح بالياء. ولا تفتح بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات. وبالياء على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ ابن عباس: الجمل، بوزن القمل. وسعيد بن جبیر: الجمل بوزن النغر وقرئ: الجمل بوزن القفل. والجمل بوزن النصب. والجمل. بوزن الحبل. ومعناها القلس الغليظ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل، يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة، والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامة أوقع لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك، يقال: أضيق من خرت الإبرة. وقالوا للدليل الماهر: خريت، للاهتمام به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر. والجمل: مثل في عظم الجرم. قال:

جسم الجمال وأحلام العصفير

إن الرجال ليسوا بجزر تتراد منهم الأجسام، فقليل: لا يدخلون الجنة، حتى يكون ما يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع، في ثقب الإبرة، وعن ابن أنه سئل عن الجمل، فقال: زوج الناقة، استجهلاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف. وقرئ في سم بالحرركات الثلاث: وقرأ عبد الله: في سم المهيط" والمخيطة كالخزام والخزم: ما يخاط به وهو الإبرة "وكذلك" ومثل ذلك الجزاء الفظيع "نجزي المجرمين" ليؤذن أن الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب، وأن كل من أجرم عوقب، وقد كرره فقال: "كذلك تجزي الظالمين" لأن كل مجرم ظالم لنفسه "مهاد" فراش "غواش" أعطية. وقرئ: غواش بالرفع، كقوله تعالى: "وله الجوار المنشآت" الرحمن: 24، في قراءة عبد الله.

"والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون".
"لا نكلف نفساً إلا وسعها" جملة معترضة بين المبتدأ والخبر، للترغيب في اكتساب ما لا يكتنعه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح. وقرأ الأعمش: "لا تكلف نفس".

"ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون".
من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه، فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التواد والتعاطف.
وعن علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم "هدانا لهذا" أي وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح "وما كنا لنهتدي" اللام لتوكيد النفي ويعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه. وفي مصاحف أهل الشام: ما كنا لنهتدي بغير واو، على أنها جملة موضحة للأولى "لقد جاءت رسلنا بالحق" فكان لنا لطفاً وتنبهاً على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سروراً وغباطاً بما نالوا، وتلذذاً بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً، كما نرى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتمالك أن لا يقوله للفرح لا للقربة: "نودوا أن تلکم الجنة" أن مخففة من الثقلية تقديره: ونودوا بأنه تلکم الجنة "أورثتموها" والضمير ضمير الشأن والحديث أو تكون بمعنى أي، لأن المناادة من القول، كأنه قيل: وقيل لهم أي تلکم الجنة أورثتموها. "بما كنتم تعملون" بسبب أعمالكم لا بالتفضل، كما تقول المبطله.

"ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين، الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون".

أن في "أن قد وجدنا" يحتمل أن تكون مخففة من الثقلية وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً، وكذلك "أن لعنة الله على الظالمين" وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وزيادة في غمهم، لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم: لعنة الله على الظالمين. وهو ملك يأمره الله فينادي بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار. وقرئ: أن لعنة الله بالتشديد والنصب. وقرأ الأعمش: إن لعنة الله بكسر إن على إرادة القول، أو على إجراء "أذن" مجرى قال. فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً

لدلالة وعدنا عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعد كله مما ساءهم وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك.

"وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهو يطمعون".

"وبينهما حجاب" يعني بين الجنة والنار. أو بين الفريقين، وهو السور المذكور في قوله تعالى: "فضرب بينهم بسور" الحديد: 13، "وَعَلَى الْأَعْرَافِ" وعلى أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك "رجال" من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم، كأنهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة "يعرفون كلاً" من زمر السعداء والأشقياء "بسيماهم" بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها، يلهمهم الله ذلك: أو تعرفهم الملائكة.

"وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون، أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون".

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم "وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار" ورأوا ما هم فيه من العذاب استعازوا بالله وفرغوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم. ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم: "أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته" إشارة لهم إلى أهل الجنة، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقروهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة "ادخلوا الجنة" يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماهم التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيتردد المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه. وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً.

وقوله: "إذا صرفت أبصارهم" فيه أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا وقرأ الأعمش: "وإذا قلبت أبصارهم" وقرئ: "ادخلوا الجنة" على البناء للمفعول. وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة فإن قلت: كيف لاءم هاتين القراءتين قوله: "لا خوف عليهم ولا أنتم تحزنون"؟ قلت: تأويله: ادخلوا، أو دخلوا الجنة مقولاً لهم: لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. فإن قلت: ما محل قوله: لم يدخلوها وهم يطمعون؟ قلت: لا محل له لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني حالهم أن دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخلوها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم يأسوا. ويجوز أن يكون له محل، بأن يقع صفة لرجال "ما أغنى عنكم جميعاً" المال أو كثرتم واجتماعكم "ما كنتم تستكبرون" واستكباركم عن الحق وعلى

الناس، وقرئ: تستكثرون من الكثرة.

"ونادى أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين، الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرقهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون".
"أفيضوا علينا" فيه دليل على أن الجنة فوق النار "أو مما رزقكم الله" من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام و الفاكهة. كقوله:

علفتها تبناً وماء بارداً

وإنما يطلبون ذلك مع بأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم، كما يفعل المضطر الممتحن. "حرمهما على الكافرين" منعهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما جرم عليه ويحظر، كقوله:

حرام على عيني أن تطعم الكرى

"فَالْيَوْمَ نَنسَأَهُمْ" نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير لا يذكروهم به "كما نسأ لقاء يومهم هذا" كما فعلوا بلفائه فعل الناسين، فلم يخطروه ببأهم ولم يهتموا به.
"ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون".

"فصلناه على علم" عالين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه، حتى جاء حكيماً قيماً غير ذي عوج قرأ ابن محيصن فضلتاه بالضاد المعجمة بمعنى فصلناه على جميع الكتب، عالين أنه أهل للتفضيل عليها، و "هدى ورحمة" حال من منصوب فصلناه، كما أن على علم حال من مرفوعه "إلا تأويله" إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد "قد جاءت رسل ربنا بالحق" أي تبين وصح أنهم جاءوا بالحق "نرد" جملة معطوفة على الجملة التي قبلها، داخلة معها في حكم الاستفهام، كأنه قيل: هل لنا من شفعاء؟ أو هل نرد؟ ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد؟ ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه. فلا يقدر: هل يشفع لنا شافع أو نرد؟ وقرأ ابن أبي إسحاق: أو نرد بالنصب عطفاً على فيشفعوا لنا أو تكون أو بمعنى حتى أن أي يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل وقرأ الحسن بنصب نرد ورفع "فنعمل" بمعنى: فنحن نعمل.
"إن ربكم الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل والنهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين".

"يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً" وقرئ: "يغشى بالتشديد، أي يلحق الليل النهار، والنهار بالليل يحتملها جميعاً. والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس: يغشى الليل النهار، بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار، أي يدرك النهار الليل ويطلبه حثيثاً، حسن الملازمة لقراءة حميد "بأمره" بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات، أي خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره، وكما يريد أن يصرفها سمي ذلك أمراً على التشبيه، كأنهن مأمورات بذلك.

وقرى: "والشمس والقمر والنجوم مسخرات"، بالرفع. لما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال: "ألا له الخلق والأمر" أي هو الذي خلق الأشياء كلها، وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

"ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين، وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون".

"تضرعاً وخفية" نصب على الحال، أي ذوي تضرع وخفية. وكذلك خوفاً وطمعاً. والتضرع تفعل من الضراعة وهو الذل، أي تذلاً وتملقاً. وقرئ: وخفية وعن الحسن رضي الله عنه: إن الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفي، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله تعالى يقول: "ادعوا ربكم تضرعاً وخفية" وقد أثنى على ذكرها فقال: "إذ نادى ربه نداء خفياً" مريم: 3، وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً. "إنه لا يحب المعتدين" أي المجاوزين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج: هو رفع الصوت بالدعاء. وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو الإسهاب في الدعاء. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ قوله تعالى: "إنه لا يحب المعتدين". "إن رَحِمَتَ اللَّهُ قَرِيبَ من المحسنين" كقوله: "وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً" طه: 82، وإنما ذكر "قريب" على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف، أي شيء قريب. أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول كما شبه ذاك به، فقيل قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر، الذي هو النقيض والضعيف. أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي، قرئ: نشرأ وهو مصدر نشر. وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: نشرها نشرأ؛ وإما على الحال بمعنى منتشرات. ونشرأ جمع نشور. ونشرأ تخفيف نشر، كرسل ورسل. وقرأ مسروق: "نشرأ، بمعنى منشورات، فعل بمعنى مفعول، كنفذ وحسب. ومنه قولهم ضم نشره وبشرأ جمع بشير. وبشرأ بتخفيفه. وبشر بفتح الباء مصدر من بشره بمعنى بشره، أي باشرته، وبشرى "بين يدي رحمته" أمام رحمته، وهي الغيث الذي هو من أتم النعم وأجلها وأحسنها أثراً "أقلت" حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة، لأن الرفع المطبق يرى الذي يرفعه قليلاً "سحاباً ثقالاً" سحاب جمع سحابة "سقناه" الضمير للسحاب على اللفظ، ولو حمل على المعنى كالتقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقل ثقيل "بلد ميت" لأجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه. وقرئ:

مَيِّتٌ فَأَنْزَلْنَا بِهِ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق. وكذلك "فأخرجنا به ... كذلك" مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات "نخرج الموتى لعلكم تذكرون" فيؤديكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين. إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه "والبلد الطيب" الأرض الغداة الكريمة التربة "والذي خبث" الأرض السبخة التي لا تنبت ما

ينتفع به "بأذن ربه" بتيسيره وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً لأنه واقع في مقابلة "نكداً" والنكد الذي لا خير فيه. وقرئ: يخرج نباته أن يخرج البلاء وينبته وقوله: "والذي خُبْتُ" صفة للبلاء ومعناه: والبلاء الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً، فحذف المضاف الذي هو النبات، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلاء مقامه، إلا أنه كان مجروراً بارزاً، فانقلب مرفوعاً مستكناً لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر: ونبات الذي خبت. وقرئ: "نكداً" بفتح الكاف على المصدر. أي ذا نكد. ونكداً، يأسكانها للتخفيف، كقوله: نزه عن الريب، بمعنى نزه. وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين، ولمن لا يؤثر شيء من ذلك. وعن مجاهد: آدم وذريته منهم خبيث وطيب. وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبت. والكافر بخلاف ذلك. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر، وإنزاله بالبلاء الميت، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد "وكذلك" مثل ذلك التصريف "نصُرُ الآيات" نرددها ونكررها "لقوم يشكرون" نعمة الله وهم المؤمنون، ليفكروا فيها ويعتبروا بها. وقرئ: يصرف بالياء أي يصرفها الله.

"لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم".

"لقد أرسلنا نوحاً" جواب قسم محذوف. فإن قلت: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام، إلا مع قد وقل عنهم، نحو قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا وصالي

قلت: إنما كان ذلك لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها، التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى قد عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل: أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة، وكان نجاراً وهو نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرئ: غيره بالحركات الثلاث فالرفع على اخل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره. والجر على اللفظ والنصب على الاستثناء بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه، كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيد أو غير زيد. فان قلت: فما موقع الجملتين بعد قوله: "اعبدوا الله؟" قلت: الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة. والثانية: بيان للداعي إلى عبادته لأنه هو الخدور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله واليوم العظيم يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان.

"قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين، قال يا قومي ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون".

"الملأ" الأشراف والسادة، وقيل: الرجال ليس معهم النساء "في ضلال" في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب. فإن قلت: لم قال: "ليس بي ضلالة" ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قلت: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: ما لي تمر فإن قلت: كيف وقع قوله: "ولكني رسول" استدراكاً للانتفاء عن الضلالة. قلت: كونه رسولاً من الله مبلغاً رسالاته ناصحاً، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصح لذلك أن يكون استدراكاً للانتفاء عن

الضلالة. وقرئ: "أبلغكم" بالتخفيف. فإن قلت: كيف موقع قوله: "أبلغكم"؟ قلت: فيه وجهان. أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً بياناً لكونه رسول رب العالمين. والثاني: أن يكون صفة لرسول. فإن قلت: كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظ الغائب؟ قلت: جاز ذلك لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه، كما قال:

أنا الذي سمعتني أمي حيدره

"رسالات ربي" ما أوحى إلي في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر. ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس، وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة "وَأَنْصَحْ لَكُمْ" يقال نصحته ونصحت له. وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحماس النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بما جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام "وأعلم من الله ما لا تعلمون" أي من صفات الله وأحواله، يعني قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يرد عن القوم الجرمين. وقيل: لم يسمعوا يقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحى الله إليه، أو أراد: وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بما قد أوحى إلي بها.

"أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا لعلكم ترحمون".
"أو عجبتم" الهمة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: كذبتهم وعجبتم "أن جاءكم" من أن جاءكم "ذكر" موعظة "من ربكم على رجل منكم" على لسان رجل منكم، كقوله: "ما وعدتنا على رسلك" آل عمران: 194، وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، يعنون إرسال البشر، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة "لينذركم وتتقوا" ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار "ولعلكم ترحمون" ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.
"فكذبوا وأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين".

"والذين معه" قيل: كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. وقيل: تسعة، بنوه صام وحام ويافث، وستة من آمن به. فإن قلت: "في الفلك" بم يتعلق؟ قلت: هو متعلق بمعه، كأنه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك. ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء، أي أنجيناهم في السفينة من الطوفان "عمين" عمى القلوب غير مستبصرين. وقرئ: عامين. والفرق بين العمي والعامي: أن العمي يدل على عمى ثابت، والعامي على عمى حادث. ونحوه قوله: "وضاق به صدرك" هود: 12.

"وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قومي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون، قال الملأ الذين كفروا من قومه إننا لنراك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين، قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون".

"أخاهم" واحداً منهم من قولك: يا أبا العرب للواحد منهم. وإنما جعل واحداً منهم، لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صدقه وأمانته، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وأخاهم: عطف على نوحاً. و "هُود" عطف بيان له. فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله: "قال يا قوم" ولم يقل فقال كما في قصة نوح؟ قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقل: قال يا قوم اعبدوا الله، وكذلك "قال الملائكة". فإن قلت: لم وصف الملائكة "الذين كفروا" دون الملائكة من قوم نوح؟ قلت: كان في أشرف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتنم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشرف قوم نوح مؤمن. ونحوه قوله تعالى: "وقال الملائكة من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة" المؤمنون: 33، ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير "في سفاهة" في خفة حلم وسخافة عقل، حيث تمجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز: أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها. وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم "ناصح أمين" أي عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة فما حقي أن أتهم. أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه "خلفاء من بعد قوم نوح" أي خلفتموني في الأرض، أو جعلكم ملوكاً في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم "في الخلق بصطة" فيما خلق من أجرامكم ذهاباً في الطول والبداة. قيل: كان أقصرهم ستين ذراعاً، وأطولهم مائة ذراع "فأذكروا آلاء الله" في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطايه. وواحد الآلاء إلى نحو إني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعنان. فإن قلت: إذ في قوله: "إذ جعلناكم خلفاء ما وجه انتصابه؟ قلت: هو مفعول به وليس بظرف، أي اذكروا وقت استخلافكم.

"قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانظروا إني معكم من المنتظرين، فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين".

"أجتئنا لنعبد الله وحده" أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء. في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حباً لما نشأوا عليه، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به. فإن قلت: ما معنى الجيء في قوله: "أجتئنا" قلت: فيه أوجه: أن يكون هود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوه. وأن يريدوا به الاستهزاء، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة، فكأنهم قالوا: أجتئنا من السماء كما يجيء الملك، وأن لا يريدوا حقيقة الجيء، ولكن التعرض لذلك والقصد، كما يقال: ذهب يشتني، ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك؟ "فأتنا بما تعدنا" استعجال منهم للعذاب "قد وقع عليكم" أي حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم. جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمثالة الواقع. ونحوه قولك لمن طلب إليك بعض المطالب قد كان

ذلك. وعن حسان، أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل، فجاء يبكي. فقال له يا بني مالك؟ قال: لسعني طوير كأنه ملتف في بردى حبرة، فضمه إلى صدره وقال له: يا بني قد قلت الشعر. والرجس: العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب "في أسماء سميتوها" في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات، لأنكم تسمونها آلهة. ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده. وهذا كقوله تعالى: "ما تدعون من دونه من شيء" ومعنى "سميتوها" سميت بها من: سميت زيدا. وقطع دابرهم: استنصاهم وتدميرهم عن آخرهم. وقصتهم أن عاداً قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت. وكانت لهم أصنام يعبدونها. صداء. وصمود، والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً، فكذبوه وازدادوا عتواً وتجراً، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته اخرم مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم معاوية بن بكر، فجهزت عاد إلى مكة من أمثالهم سبعين رجلاً، منهم قيل بن عتر، ومرثد بن سعد الذي كان يكتنم إسلامه. فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان. قينتان كانتا لمعاوية فلما رأى طول مقامهم وذوهم باللهو عما قدموا له أهمله ذلك، وقال: قد هلك أخوالي وأصهاراي وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين. فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله. فقال معاوية:

لعل الله يسقينا غماماً

ألا يا قيل ويحك قم فهينم

قد أمسوا ما يبينون الكلاما

فيسقي أرض عاد إن عاداً

فلما غنتا به قالوا: إن قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم، فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم وأظهر إسلامه، فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً لا يقدم معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء. يا قيل، اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث، فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرننا، فجاءهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا. فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: "وما كانوا مؤمنين" مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت: هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد، ومن نجا مع هود عليه السلام، كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين، ونجى الله المؤمنين.

"وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم، واذكروا إذ جعلناكم خلفاء من بعد عاد وبوأهم

في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فأذكروها آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين".

قري: "وإلى ثمود" بمنع الصرف بتأويل القبيلة، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل، لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل: سميت ثمود لقلعة مائها، من الثمد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى "قد جاءكم" آية ظاهرة لم شاهد على صحة نبوي. وكأنه قيل: ما هذه البينة؟ فقال: "هذه ناقة الله لكم آية" وآية نصب على الحال، والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية. وخلكم: بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود، لأنهم عابوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال: لكم خصوصاً، وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها، وأما جاءت من عنده مكنونة من غير فعل وطروقة آية من آياته كما تقول: آية الله. وروى أن عاداً لما أهلكت عمريت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمرؤا أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، ففتحوا البيوت من الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام، وكانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: آية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى فيدنا في يوم معلوم لهم من السنة، فتدعوا إلهك، ندعو آلهتنا، فإن استجب لك أتبعناك، وإن استجب لنا اتبعنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبه، ثم قمال سيدهم جندع بن عمرو، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة التي شاكلت البخت فإن فعلت صدقناك وأجبتناك. فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء. كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبها إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه، ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غباً، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً. وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان: عيزة أم غنم، وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيها وكانتا كثيرتي المواشي فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقبها حتى رقي جبلاً اسمه قارة فرغى ثلاثاً وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدرُوا عليه وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها. فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد ذلك غدٍ ووجوهكم حمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ثم يصحبكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه. فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تخطوا بالصبح وتكفؤوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا "تأكل في أرض الله" أي الأرض أرض الله والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما

فيها من النبات من أنباتكم "لا تمسوها بسوء" لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريبوها بشيء من الأذى إكراماً لآية الله. ويروى:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: "لا يدخلن أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم وقال صلى الله عليه وسلم: يا علي، أتدري من أشقى الأولين؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: عاقر ناقة صالح، أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: قاتلك وقرأ أبو جعفر في رواية: تأكل في أرض الله وهو في موضع الحال بمعنى آكلة "بؤاكم" وتر لكم. والمبأة: المتول "في الأرض" في أرض الحجر بين الحجاز والشام "من سهولها قصوراً" أي تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر. وقرأ الحسن: وتنتحون بفتح الحاء وتنتحون بإشباع الفتحة، كقوله:

ينباع من ذفري أسيل حرّة

فإن قلت: علام انتصب "بيوتاً"؟ قلت: على الحال، كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً وابر هذه القصة قلماً، وهي من الحال المقدرة، لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب ولا القصة قميصاً وقلماً في حال الخياطة والبري. وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

"قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح أتنتا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، فأخذنهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين".

"للذين استضعفوا" للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلّوهم، و"لمن آمن منهم" بدل من الذين استضعفوا. فإن قلت: الضمير في منهم راجع إلى ماذا؟ قلت: إلى "قومه" أو إلى "الذين استضعفوا". فإن قلت: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ قلت: نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل "من آمن" مفسراً لمن استضعف منهم، فدل أن استضعافهم كان مقصوداً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن

الاستضعاف مقصوداً عليهم، ودل أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين: "أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه" شيء قالوه على سبيل الطعن والسخرية، كما تقول للمجسمة: أتعلمون أن الله فوق العرش. فإن قلت: كيف صح قولهم: "إنا بما أرسل به مؤمنون" جواباً عنه؟ قلت: سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما

الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون، ولذلك كان جواب الكفرة: "إنا بالذي آمنتم به كافرون" فوضعوا "آمنتم به" موضع "أرسل به" ردّاً لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً "فعقروا الناقة" أسند العقرب إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا، وما فعله إلا واحداً منهم "واعتوا عن أمر ربهم" وتولوا عنه واستكبروا عن امثالها عاتين، وأمر ربهم: ما أمر به على لسان صالح عليه

السلام من قوله: "فذرّوها تأكل في أرض الله" الأعراف: 73، أو شأن ربهم وهو دينه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدر عتوهم عن أمر ربهم، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم. ونحو عن هذه ما في قوله: "وما فعلته عن أمري" الكهف: 82، "أنتنا بما تعدنا" أرادوا من العذاب. وإنما جاز الإطلاق لأنه كان معلوماً. واستعجابهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرون، وهو كونه من المرسلين "الرجفة" الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها "في دارهم" في بلادهم أو في مساكنهم "جاثين" هامدين لا يتحركون موتى. يقال: الناس جثم، أي يعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة. ومنه الجثمة التي جاء النهي عنهما، وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمي. وعن جابر: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: "لا تسألوا الآيات" فقد سأها قوم صالح فأخذتهم الصيحة، فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله. قالوا من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه"، وروى: أن صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره. وروى: أنه عليه السلام مر بقبر أبي رغال فقال:

أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فذكر قصة أبي رغال، وأنه دفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه بأسيا فهم فاستخرجوا الغصن. "فتولى عنهم" الظاهر أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعدما أبصرهم جاثين، تولى مغتم متحسر على ما فاتته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول يا قوم لقد بذلت فيكم وسعي ولم آل جهداً في إيلاج النصيحة لكم ولكنكم "لا تحبون الناصحين" ويجوز أن يتولى عنهم تولى ذاهب عنهم منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب.

وروى: أن عقبرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروي أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسمائة دار. وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم. فإن قلت: كيف صح خطاب الموتى وقوله: "ولكن لا تحبون الناصحين" قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي، كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني؟ وقوله: "ولكن لا تحبون الناصحين" حكاية حال ماضية.

"ولوطاً" إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون، فأخبرناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين".

"ولوطاً" وأرسلنا لوطاً. و"إذ" ظرف لأرسلنا. أو واذكر لوطاً، وإذ بدل منه، بمعنى: واذكر وقت: "قال لقومه أتأتون الفاحشة" أتفعلون السيئة المتبادية في القبح "مَا سَبَقَكُمْ بِهَا" ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتها قبله. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

سبقك بما عكاشة "من أحد من العالمين" من الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق، والثانية للتبعية. فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولاً بقوله: "أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ" ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أول من عملها. أو على أنه جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: لما لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به "إنكم لتأتون الرجال" بيان لقوله: أتأتون الفاحشة. والهمزة مثلها في "أتأتون" للإنكار

والتعظيم. وقرئ: إنكم على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال، من أتى المرأة إذا غشيها "شهوة" مفعول له، أي للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داعٍ آخر، ولا ذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه أو حال بمعنى مشتبهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماحة "بل أنتم قوم مسرفون" أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد. ونحوه "بل أنتم قوم عادون" الشعراء: 166، "ما كان جَوَابَ قومه إلا أن قالوا" يعني ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام، من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسملة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، لكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريبتهم، ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم. وقولهم: "إنهم أناس يتطهرون" سخرية بهم ويتطهرون من الفواحش، واقتحاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصالحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأرجونا من هذا المتزهّد "وأهله" ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين "من الغابرين" من الذين غيروا في ديارهم، أي بقوا فهلكوا. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. وروي: أنها التفتت فأصابها حجر فماتت. وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن. وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم. وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم. وروي: أن تاجراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه. فإن قلت: أي فرق بين مطر وأمطر؟ قلت: يقال مطرهم السماء وواد ممطور. وفي نوابغ الكلم: حرى غير ممطور. وحرى أن يكون غير ممطور ومعنى مطرهم: أصابتهم المطر، كقولهم: غاثتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم. ويقال: أمطرت عليهم كذا، بمعنى أرسلته عليهم إرسال المطر "فأمطر علينا حجارة عن السماء" الأنفال: 32، "وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل" هود: 82، ومعنى "وأمطرنا عليهم مطراً" وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيماً يعني الحجارة. ألا ترى إلى قوله: "فساء مطر المنذرين" النمل: 58، "وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض يعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم واذكروا كيف كان عاقبة المفسدين، وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين".

كان يقال لشعيب عليه السلام خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكايل والموازين "قد جاءتكم بينة من ربكم" معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي والأخذ بما أمركم به والانتهاز عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا. فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة، لقوله: "قد جاءتكم بينة من ربكم" ولأنه لا بد للمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدق له، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئاً

لا نبياً غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه. ومن معجزات شعيب عليه السلام: ما روي من محاربة عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع إليه غنمه. وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات، لأن هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام، فكانت معجزات لشعيب. فإن قلت: كيف قيل: "الكيل والميزان" وهلا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال، أو سمي ما يكال به الكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر، ويقال: بخسته حقه: إذا نقصته إياه. ومنه، قيل للمكس: البخس، وفي أمثاله: تحسبها حقاء وهي باخس. وقيل: "أشياءهم" لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبياعهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين. وروي: أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هي زيوف فقطعوها قطاعاً، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفاً "بعد إصلاحها" بعد الإصلاح فيها، أي لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم. وإضافة قوله: "بل مكر الليل والنهار" سبأ: 33، بمعنى بل مكركم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف "ذلكم" إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه. ومعنى: "خير لكم" يعني في الإنسانية وحسن الأحدث، وما تطلبونه من التكسب والتربح، لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية "إن كنتم مؤمنين" إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم "ولا تقعدوا بكل صراط" ولا تقتدوا بالشيطان في قوله: "لأقعدن لهم صراطك المستقيم" الأعراف: 16، فتقعدوا بكل صراط أي بكل منهاج من مناهج الدين. والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله: "وتصدون عن سبيل الله" ومحل "توعدون" وما عطف عليه: النصب على الحال أي: ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله، وباغيتها عوجاً. فإن قلت: صراط الحق واحد، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" الأنعام: 153، فكيف قيل: بكل صراط؟ قلت: صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أو عدوه وصدوه. فإن قلت؟ إلام يرجع الضمير في "آمن به" قلت: إلى كل صراط. تقديره: توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير، زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدون عنه. وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد فيقولون لمن مر بهم إن شعباً كذاب فلا يفتنكم عن دينكم كما كان يفعل قريش بمكة. وقيل: كانوا يقطعون الطرق. وقيل: كانوا عشارين "وتبغونها عوجاً" وتطلبون لسبيل الله عوجاً، أي تصفونها للناس بأنها سبيل معوج غير مستقيمة، لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها: أو يكون تمكماً بهم، وأهم يطلبون لها ما هو محال، لأن طريق الحق لا يعوج "واذكروا إذ كنتم قليلاً" إذ مفعول به غير ظرف. أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم "فكثركم" الله ووفر عددكم. قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا. ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم: فجعلكم أكثر من موسرين. أو كنتم أقله أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد "عاقبة المفسدين" آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم كقوم

نوح وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي العهد، مما أصاب

المؤتفكة "فاصبروا" فتربصوا وانتظروا "حتى يحكم الله بيننا" أي بين الفريقين"، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم، كقوله: "فتربصوا إنا معكم متربصون" التوبة: 52، أو هو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم. ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين، أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله فيميز الحبيث من الطيب "وهو خير الحاكمين" لأن حكمه حق وعدل، لا يخاف فيه الحيف.

"قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم من بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن شاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا وأنت خير الفاتحين".

أي ليكونن أحد الأمرين: إما إخراجكم؟ وإما عودكم في الكفر. فإن قلت: كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم: "أو لتعودن في ملتنا" وكيف أجابهم بقوله: "إن عدنا في ملتكم من بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها" والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟ قلت: لما قالوا: "لنخرجنك يا شعيب والذين لآمنوا معك" فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: "لنعودن" فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدتين جميعاً، إجراءً للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: "إن عدنا في ملتكم من بعد إذ نجانا الله منها" وهو يريد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه في جهلهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراءً لكلامه على حكم التغليب. فإن قلت: فما معنى قوله "وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن شاء الله" والله تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم في الكفر؟ قلت: معناه إلا أن يشاء الله خذلانا ومنعنا اللطاف، لعلمه أننا لا تنفع فينا وتكون عبثاً. والعبث قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: "وسع ربنا كل شيء علماً" أي هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عبادته كيف تتحول، وقلوبهم كيف تتقلب؟ وكيف تقسو بعد الرقة، وقرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان "على الله توكلنا" في أن يشبنا على الإيمان ويوقفنا لازدياد الإيقان. ويجوز أن يكون قوله: "إلا أن شاء الله" حسماً لطمعهم في العود، لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة "أولو كنا كارهين" الهمة للاستفهام، والواو واو الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراحتنا، ومع كوننا كارهين. وما يكون لنا، وما ينبغي لنا. وما يصح لنا "ربنا افتح بيننا" احكم بيننا. والفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا وبين قومنا" وينكشف بأن تزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل "وأنت خير الفاتحين" كقوله: "وهو خير الحاكمين" يونس: 109،. فإن قلت: كيف أسلوب قوله: "قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم"؟ قلت: هو إخبار مقيد بالشرط، وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب، كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام. لأن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر، لأن الكافر مفتر على الله الكذب. حيث

يزعم أن الله ندأ ولا ند له. والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه، حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل. والثاني: أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام، بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

"وقال الملائكة الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعبياً إنكم إذا لخاسرون، فأخذتم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، الذين كذبوا شعبياً كأن لم تغنوا فيها الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين".

"وقال الملائكة الذين كفروا من قومه" أي أشرفهم للذين دونهم يشطونهم عن الإيمان "لئن اتبعتم شعبياً إنكم إذا لخاسرون" لاستبدالكم الضلالة بالهدى، كقوله تعالى: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم" البقرة: 16، وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية، فإن قلت: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في "لئن اتبعتم شعبياً" وجواب الشرط؟ قلت: قوله: "إنكم إذا لخاسرون" ساد مسد الجوابين "الذين كذبوا شعبياً" مبتدأ خبره "كأن لم يغنوا فيها" وكذلك "كانوا هم الخاسرين" وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذبوا شعبياً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا، كأن لم يقيموا في دارهم؟ لأن الذين اتبعوا شعبياً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعبياً هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون أتباعه فإنهم الراجحون. وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير: مبالغة في رد مقالة الملائكة لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

"فتولى عنهم وقال يا قوم أبلغكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف أسي على قوم كافرين".

الأسى: شدة الحزن. قال العجاج:

وانحلت عيناه من فرط الأسى

اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم ويجوز أن يريد لقد أعذرت إليكم في الإبلان والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني فكيف آسي عليكم يعني أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى بن وثاب: فكيف يأسى بكسر الهمزة.

"وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهو لا يشعرون".

"إلا أخذنا أهلها بالبأساء" بالبؤس والفقر "والضراء" بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه "لعلهم يضرعون" ليتضرعوا ويتذللوا ويخطوا أودية الكبر والعزة "ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة" أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والحنة والرخاء والصحة والسعة كقوله: "وبلوناهم بالحسنات والسيئات" الأعراف: 168، "حتى عفوا" كثروا وغفوا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات وعفا الشحم والوبر، إذا كثرت. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "واعفوا للحي" وقال الخطيئة:

بمستأسد القرى عاف نباته

وقال:

بأسواق عافيات الشحم كوم

ولكننا نعض السيف منها

"وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء" يعني وأبطرهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء. وقد مس آباؤنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب "فأخذناهم" أشد الأخذ وأفظعه، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم. "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون".

اللام في القرى: إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله: "وما أرسلنا في قرية من نبي" الأعراف: 94، كأنه قال: ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا "آمنوا" بدل كفرهم "واتقوا" المعاصي مكان ارتكابها لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض "لآتيناهم بالخير من كل وجه. وقيل: أراد المطر والنبات "ولكن كذبوا فأخذناهم" بسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس. فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلت: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها. ومنها قولهم: فتحت على القارئ إذا تعذرت عليه القراءة فيسرها عليه بالتلقين.

"أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيثا وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون". البيات يكون بمعنى البيتوة. يقال: بات بيثاً. ومنه قوله تعالى: "فجاءها بأسنا بيثاً أو هم قائلون" الأعراف: 4، وقد يكون بمعنى: التبييت، كالسلام بمعنى التسليم. يقال: بيته العدو بيثاً، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو وقت بيث، أو مبيتاً، أو مبيتين، أو يكون بمعنى تبييتاً، كأنه قيل: أن يبيتهم بأسنا بيثاً. و"ضحى" نصب على الظرف. يقال: أتنا ضحى، وضحياً، وضحاء والضحى في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت. والفاء والواو في "أفأمن" و"أو أمن" حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار. فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولم عطف الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله: "فأخذناهم بغتة" وقوله: "ولو أن أهل القرى" الأعراف: 96، إلى "يكسبون" وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطف بالفاء، لأن المعنى: علوا وصنعوا فأخذناهم بغتة بعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيثاً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ وقرئ: أو أمن على العطف بأو "وهم يلعبون" يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأهم يلعبون. "أفأمنوا مكر الله فلا يأمر مكر الله إلا القوم الخاسرين".

فإن قلت: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: "أفأمنوا مكر الله" قلت: هو تكرير لقوله: "أفأمن أهل القرى" الأعراف: 97، ومكر الله: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، ولا استدراجه. فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله، كالحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة. وعن الربيع بن خثيم: أن ابنته قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه، إن أباك يخاف البيات، أراد قوله: "أن يأتيهم بأسنا بيثاً".

"ألم يهد للذين يورثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون". إذا قرئ: أو لم يهد بالياء كان "أن لو نشاء" مرفوعاً بأنه فاعله بمعنى: أو لم يهد للذين يخلفون، من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين. لماذا قرئ بالنون، فهو منصوب كأنه قيل: أو لم يهد الله للوارثين هذا الشأن بمعنى: أو لم نبين لهم أنا "لو نشاء أصبناهم بذنوبهم" كما أصبنا من قبلهم. وإنما عدى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين. فإن قلت بم تعلق قوله تعالى: "ونطبع على قلوبهم" قلت: فيه أوجه، أن يكون معطوفاً على ما دل عليه معنى "أولم يهد" كأنه قيل: يغفلون عن الهداية، ونطبع على قلوبهم. أو على يرثون الأرض أو يكون منقطعاً بمعنى: ونحن نطبع على قلوبهم. فإن قلت: هل يجوز أن يكون "ونطبع" بمعنى وطبعنا، كما كان "لو نشاء" بمعنى: لو شئنا، ويعطف على أصبناهم؟ قلت: لا يساعد عليه المعنى؟ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها. وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة، وأن الله تعالى لو شاء لاتصفوا بها.

"تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين".

"تلك القرى نقص عليك من أنبائها" كقوله: "هذا لعلي شيخاً" هود: 72، في أنه مبتدأ وخبر وحال ويجوز أن يكون "القرى" صفة لتلك و "نقص" خبراً، وأن يكون "القرى نقص" خبر بعد خبر. فإن قلت: ما معنى: "تلك القرى" حتى يكون كلاماً مفيداً؟ قلت: هو مفيد، ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم. فإن قلت: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قلت: معناه: أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك "فما كانوا ليؤمنوا" عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءهم الرسل، أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين، لا يراعون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات. ومعنى اللام تأكيد النفي وأن الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر. وعن مجاهد: هو كقوله: "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه" الأنعام: 28، "كذلك" مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

"وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين".

"وما وجدنا لأكثرهم من عهد" الضمير للناس على الإطلاق، أي وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعني أن أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى "وإن وجدنا" وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة مارقين. والآية اعتراض. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر ومحافة، لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم نخاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: "لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك" إلى قوله: "إذا هم ينكثون" الأعراف: 135، والوجود بمعنى العلم من قولك: وجدت زيدا ذا الحفاظ، بدليل دخول إن المخففة واللام الفارقة. ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر. والأفعال الداخلة عليهما.

"ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين، وقال موسى يا

فرعون إني رسول من رب العالمين، حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل".

"من بعدهم" الضمير للرسل في قوله: "ولقد جاءهم رسلهم" الأعراف: 101، أو للأمم "فَظَلَمُوا بِهَا" فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر لأفهما من واد واحد "إن الشرك لظلم عظيم" لقمان: 13، أو فظلموا الناس بسببها حين أو عدوهم وصدوهم عنها، وآذوا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً،

فلذلك قيل: فظلموا بها، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو مودع الإيمان. يقال: لملك مصر: الفراعنة، كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر وكان اسمه قابوس. وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان "حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق" فيه أربع قراآت، المشهورة: وحقيق علي أن لا أقول، وهي قراءة نافع: "وحقيق أن لا أقول" وهي قراءة عبد الله: "وحقيق بأن لا أقول" وهي قراءة أبي وفي المشهورة إشكال، ولا تخلو من وجوه، أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لأن الإلباس، كقوله:

وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرمح وحقيق علي أن لا أقول وهي قراءة نافع. والثاني: أن ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق، أي لازماً له. والثالث: أن يضمن "حقيق" معنى حريص، كما ضمن "هيجني" معنى ذكرني في بيت الكتاب. والرابع: وهو الأوجه الأدخل في نكت القرآن: أن يغرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيما وقد روى أن عدوا الله فرعون قال له لما قال: "إني رسول من رب العالمين" كذبت، فيقول: أنا حقيق علي قول الحق أي واجب علي قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به "فأرسل معي بني إسرائيل" فخلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم واستعبدتهم، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام. "قال إن كنت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا يده هي بيضاء للناظرين".

فإن قلت: كيف قال له: "فأت بها"، بعد قوله: "إن كنت جئت بأية"؟ قلت: معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بأية فأتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك "ثعبان مبين" ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان. وروي أنه كان ثعباناً ذكراً أشعر فاغراً فاه بين لحبيه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحية الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهمزوا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى، خذه وأنا أو من بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصي. فإن قلت: بم يتعلق "الناظرين"؟ قلت: يتعلق ببيضاء. والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا

كان بياضها عجباً خارجاً عن العادة، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب، وذلك ما يروى: أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلهما جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها، فإذا هي بياضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة.

"قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر مبين، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون، قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين، يأتوك بكل ساحر عليم".

"إن هذا لساحر عليم" أي عالم بالسحر ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصى حية، والآدم أبيض. فإن قلت: قد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعزي ههنا إليهم قلت قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا: أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: "أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم". وقرئ: سحار، أي يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة: أو بخير منه. وكانت هذه مؤامرة مع القبط. وقولهم: "فماذا تأمرون" من امرأته فأمرني بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأي. وقيل: فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم، كأنه قيل: قال فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجه وأخاه، ومعنى أرجه وأخاه: أخرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقيل: احبسهما. وقرئ: أرجته، بالهمزة: وأرجه من أرجاءه وأرجاه.

"وجاء سحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم لمن المقربين".

فإن قلت: هلا قيل: وجاء السحرة فرعون فقالوا: قلت: هو على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذ جاؤ؟ فأجيب بقوله "قالوا إن لنا لأجراً" أي جعلاً على الغلبة: وقرئ: "إن لنا لأجراً" على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه: كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتكثير والتعظيم كقول العرب: إن له لإبلاً، وإن له لغنماً، يقصدون الكثرة. فإن قلت: "وإنكم لمن المقربين" الذي عطف عليه؟ قلت: هو معطوف على محذوف سد مسده حرف الإيجاب، كأنه قال إيجاباً لقولهم: إن لنا لأجراً: نعم إن لكم لأجراً، وإنكم لمن المقربين، أراد: إني لأقتصر بكم على الثواب وحده، وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب وهو التقريب والتعظيم، لأن المثاب إنما يتنهأ بما يصل إليه ويغتنب به إذا نال معه الكرامة والرفعة. وروي أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج. وروى: أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتكم؟ قالوا قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به. وروي أنهم كانوا ثمانين ألفاً. وقيل: سبعين ألفاً وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً. واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر. وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى. وقيل: قال فرعون: لا نغالب موسى إلا بما هو منه، يعني السحر.

"قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون،

فعلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وألقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون".

تخبرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتخاضوا في الجدل، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا للصراع. وقولهم: "وإما أن نكون نحن الملقين" فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلحقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم. وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً "سحروا أعين الناس" أروها بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه، كقوله تعالى: "يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى" طه: 66. روي: أنهم ألقوا حبلاً غلاظاً وخشياً طويلاً، فإذا هي أمثال الحيات، قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضاً "واسترهبهم" وأرهبهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم "بسحر عظيم" في باب السحر. روي أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة. قيل: جعلوا فيها الزئبق "مَا يَأْفِكُونَ" ما موصولة أو مصدرية، بمعنى: ما يأفكونه أي يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه أو إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك روي أنها لما تلقفت ملئ الوادي من الخشب والحبال رفعها موسى. أو إفكهم فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الإبرام العظيمة أو فرقها أجزاء لطيفة قالت للسحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا "فرقع ألق" فحصل وثبت. ومن بدع التفاسير: فوقع قلوبهم، أي فآثر فيها من قولهم. قاس وقيع "وانقلبوا صاغرين" وصاروا أذلاء مهوتين "وألقى السحرة" وخروا سجداً: كأنما ألقاهم ملق لشدة خروهم. وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا. وعن قتادة: كانوا أول النهار كفاراً سحرة؟ وفي آخره شهداء بررة. وعن الحسن: تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا، وكذا، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر، بذلوا أنفسهم لله.

"قال فرعون آمنت به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين".

"آمنت به" على الإخبار، أي فعلتم هذا الفعل الشنيع، توبيخاً لهم وتقريعاً. وقرئ: "آمنتهم" بحرف الاستفهام، ومعناه الإنكار والاستبعاد "إن هذا لمكر مكرموه في المدينة" إن صنعكم هذا حيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويهاً على الناس لنلا يتبعوا السحرة في الإيمان. وروي أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر. وإن غلبتني لأؤمنن بك، وفرعون يسمع، فلذلك قال ما قال: "فسوف تعلمون" وعيد أجهله ثم فصله بقوله: "لأقطعن" وقرئ: "لأقطعن بالتخفيف، وكذلك" ثم لأصلبن، "من خلف" من كل شق طرفاً. وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

"قالوا إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين".

"آمنتهم به" فيه أوجه، أن يريدوا: إنا لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلصنا منك ومن لقائك. أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شذائد القطع والصلب، أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله

فيحكم بيننا، أو إنا لا حمالة ميتون منقلبون إلى الله، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه "وما تنتقم منا إلا أن آمنّا" وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا: وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها، وهو الإيمان. ومنه قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

"أفرغ علينا صبراً" هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا، حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنباً ثم يقول: قد مازحتك، أي يغمره بالحياء، والحجل. أو صمت علينا ما يطهرنا من أوضار الآثام، وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون، لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم "وتوفنا مسلمين" ثابتين على الإسلام.

"وقال الملاء من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويدرك وآهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون".

"ويدرك" عطف على "ليفسدوا" لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم، وكان ذلك مؤذياً إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آهته، فكانه تركهم لذلك. أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء، نحو قول الحطيئة:

وبينكم المودة والإخاء

ألم أك جاركم ويكون بيني

والنصب بإضمار أن تقديره: أكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآهتك. وقرئ: ويدرك وآهتك بالرفع عطفاً على أتذر موسى، بمعنى: أتذره وأيدرك، يعني: تطلق له ذلك. أو يكون مستأنفاً أو حالاً على معنى: أتذره وهو يدرك وآهتك. وقرأ الحسن: ويدرك بالجزم، كأنه قيل: يفسدوا، كما قرئ: "وأكن من الصالحين" المنافقون: 10، كأنه قيل: أصدق. وقرأ أنس رضي الله عنه: ونذكر، بالنون والنصب، أي يصرفنا عن عبادتك فنذرها. وقرئ: ويدرك وإلا هلك، أي عبادتك. وروي: أنهم قالوا له ذلك، لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام، ويقولون: ليقربونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: أنا ربكم الأعلى "سنقتل أبناءهم" يعني سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء؟ ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده، فيشطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه، وأنه منتظر بعد.

"قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، قالوا أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون".

"قال موسى لقومه استعينوا بالله" قال لهم ذلك حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا يسكنهم ويسلبهم، ويعددهم النصر عليهم، ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريتهم أرض وديارهم.

فإن قلت: لم أحليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التي قبلها؟ قلت: هي جملة مبتدأة مستأنفة. وأما "وقال الملا" الأعراف: 127، فمعطوفة على ما سبقها من قوله: "قال الملا من قوم فرعون" وقوله: "إن الأرض لله" يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة، كقوله: "وأورثنا الأرض" الزمر: 74، وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس، وغرضه أن يتناوله تناولاً أولاً "والعاقبة للمتقين" بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط، وأن المشيئة متناولة لهم. وقرأ: والعاقبة للمتقين بالنصب: أبي وابن مسعود، عطفاً على الأرض.

"أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا" يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبى، وإعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسونه به من العذاب "عسى ربكم أن يهلك عدوكم" تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل. وكشف عنه، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر "فينظر كيف تعملون" فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقيحه وشكر النعمة وكفرها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال: قد بقي فينظر كيف تعملون".

"ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون".

"بالسنين" بسني القحط. و السنة من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القوم بمعنى: أقحطوا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيتهم. وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم. وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا ثمرة "لعلهم يذكرون" فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم لآيات الله، ولأن الناس في حال الشدة أضرع حدوداً وألين أعطافاً وأرق أفئدة. وقيل: عاش فرعون أربعمئة سنة ولم ير مكروهاً في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية.

"إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون".

"إذا جاءتهم الحسنة" من الخصب والرخاء قالوا لنا هذه أي هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك. اجل للفرس "وإن تصبهم سيئة" من ضيقة وجذب "يتطيروا بموسى ومن معه" يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه من عندك. فإن قلت: كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة إذا وتعريف الحسنة، وإن تصبهم سيئة إن وتنكير السيئة؟ قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرة واتساعه. وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها. ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء "طائرهم عند الله" أي سبب خيرهم وشرهم عند الله، وهو حكمه ومشيتته، والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة، وليس شؤم

أحد ولا يمنه بسبب فيه، كقوله تعالى: "قل كل من عند الله" النساء: 78، ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله، ويعاقبون له بعد موثم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: "النار يعرضون عليها" غافر: 46، الآية. ولا طائر أشأم من هذا. وقرأ الحسن: إنما طيركم عند الله، وهو اسم جمع طائر غير تكسير، ونظيره: التنجر، والركب. وعند أبي الحسن: هو تكسير. "وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وآيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين".

"مهما" هي ما المضمنة معنى الجزاء، ضمت إليها ما الزيدة المؤكدة للجزاء في قولك: متى ما تخرج أخرج، "أيما تكونوا يدرككم الموت" النساء: 78، "فإنما نذهب بك" الزخرف: 41، إلا أن الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم أن مه هي الصوت الذي يصوت به الكاف، و ما للجزاء، كأنه قيل: كف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فإن قلت: ما محل مهما؟ قلت: الرفع بمعنى: أيما شيء تأتنا به. أو النصب، بمعنى: أيما شيء تحضرنا تأتنا به. ومن آية: تبين لمهما. والضميران في "به" و "بها" راجعان إلى مهما، إلا أن أحدهما ذكر على اللفظ، والثاني أنث على المعنى، لأنه في معنى الآية. ونحوه قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية، فيضعها غير موضعها، وبحسب مهما بمعنى متى ما، ويقول مهما جئتني أعطيتك، وهذا من وضعه، وليس من كلام واضع العربية في شيء، ثم يذهب فيفسر "مهما تأتينا من آية" بمعنى الوقت، فيلحد في آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه. فإن قلت: كيف سموها آية، ثم قالوا لتسحرنا بها؟ قلت: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية، وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي "الطوفان" ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل. قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره. وقيل: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتألت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام. وعن أبي قلابة: الطوفان الجدري، وهو أول عذاب وقع فيهم، فبقي في الأرض. وقيل: هو الموتان وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم، فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكأ والزرع ما لم يعهد بمثله، فأقاموا شهراً، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والشياب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة، فكشف عنهم بعد سبعة أيام. خرج موسى عليه السلا إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجع الجراد

إلى النواحي التي جاء منها، فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا، فأقاموا شهراً، فسلط الله عليهم القمل وهو الحمنان في قول أبي عبيدة كبار القردان. وقيل: الدبا، وهو أولاد الجراد. وقيل: نبات أجنحتها. وقيل: البراغيث. وعن سعيد بن جبير: السوس، فأكل ما أبقاه الجراد، ولحس الأرض، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلي قملاً، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا يسيراً. وعن سعيد بن جبير، أنه كان إلى جنبهم كتيب أعفر، فضربه موسى بعصاه فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشعار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري، فصاحوا وصرخوا وفرعوا إلى موسى فرفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، وعزة فرعون لا نصدقك أبداً، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم وامتألت منها آتيهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيئاً من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه، وكانت تمتلي منها مضاجعهم فلا يقدر على الرقاد، وكانت تقذف بأنفسها في القدر وهي تغلي، وفي التناير وهي تفور، فشكوا إلى موسى وقالوا: ارحمنا هذه المرة، فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً، فشكوا إلى فرعون فقال: إنه سحر كم فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلي الماء حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية اجعلي الماء في فيك ثم فجيه في في فيصير الماء في فيها دماً. وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاباً. وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دماً. وقيل: سلط الله عليهم الرعاف وروي: أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، وروي: أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال: يا رب، إن عبدك هذا قد علا في الأرض فخذ به عقوبة تجعلها له ولقومه نعمة، ولقومي عظة، ولن بعدي آية. فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن: والقمل بفتح القاف وسكون الميم، يريد القمل المعروف "آيات مفصلات" نصب على الحال. ومعنى مفصلات: مبيات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر

عليها غيره، وأما عبرة لهم على كفرهم. أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم، وينظر أيتقون ما وعدوا من أنفسهم، أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم؟.

"ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشف عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسل معك بني إسرائيل، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين".

"بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ" ما مصدرية. والمعنى بعهدك وهو النبوة والباء إما أن تتعلق بقوله: "ادع لنا ربك" على وجهين: أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة. أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهدك. وإما أن يكون قسماً مجاباً بلنؤمنن، أي أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك "إلى أجل هم بالغوه" إلى حد من الزمن هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من

الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله "إذا هم ينكتون" جواب لما، يعني: فلما كشفناه عنهم فجاؤوا النكت وبادروا لم يؤخروه ولكن كما كشف عنهم نكتوا "فانقمنا منهم" فأردنا الانتقام منهم "فأغرقناهم". واليم: البحر الذي لا يدرك قعره. وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم، لأن المستنقعين به يقصدونه "بأنهم كذبوا بآياتنا" أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

"وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون".

"وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون" هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض: أرض مصر والشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية "باركنا فيها" بالخصب وسعة الأرزاق "كلمة ربك الحسنى" قوله: "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض" إلى قوله: "ما كانوا يحذرون" القصص: 6، والحسنى: تأنيث الأحسن صفة للكلمة. ومعنى تمت على بني إسرائيل: مضت عليهم واستمرت من قولك: تم على الأمر إذا مضى عليه "بما صبروا" بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر. وانتظار النصر ضمن الله له الفرج. وعن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف، وقد سمع قوله. وتلا الآية. ومعنى خف: طاش جزعاً وقلة صبر، ولم يرزن رزاة أولي الصبر. وقرأ عاصم في رواية: وتمت كلمات ربك الحسنى ونظيره "من آيات ربه الكبرى" النجم: 18.

"ما كان يصنع فرعون وقومه" ما كانوا يعملون ويسوون من العمارات وبناء القصور "وما كانوا يعرشون" من الجنات "هو الذي أنشأ جنات معروشات" الأنعام: 141، أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء. كصرح هامان وغيره وقرئ: "يعرشون" بالكسر والضم. وذكر الزبيدي أن الكسر أفصح. وبلغني أنه قرأ بعض الناس: يغرسون من غرس الأشجار. وما أحسبه إلا تصحيحاً منه.

"وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله أبعيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين".

وهذا آخر ما اختص الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مملكة فرعون واستعباده، ومعابنتهم الآيات العظام، ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفة ظلوم كفار جهول كنود، إلا من عصمة الله "وقليل من عبادي الشكور" سبأ: 13، وليسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة. وروي: أنه عبر بهم موسى يوم عاشور بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله تعالى: "فأتوا على قوم" فمروا عليهم "يعكفون على أصنام لهم" يواظبون على عبادتها ويلازموها. قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر. وذلك أول شأن العجل وقيل: كانوا قوماً من لحم. وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتلهم وقرئ: وجوزنا بمعنى أجزنا. يقال: أجاز المكان وجوزه وجاوزه بمعنى جازه، كقولك:

أعلاه وعلاه وعالاه. وقرئ: يعكفون بضم الكاف وكسرهما "اجعل لنا إلهاً" صنماً نعكف عليه "كما لهم آلهة" أصنام يعكفون عليها" وما كافة للكاف، ولذلك وقعت الجملة بعدها وعن علي رضي الله عنه أن يهود قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه. فقال: قلت اجعل لنا إلهاً قبل أن تجف أقدامكم "إنكم قوم تجهلون" تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظمى والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكد، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع "إن هؤلاء" يعني عبدة تلك التماثيل "متبر ما هم فيه" مدمر مكسر ما هم فيه، من قولهم إناء متبر، إذا كان فضفاضاً ويقال لكسار الذهب: التبر، أي يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي ويحطم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً "وباطل ما كانوا يعملون" أي ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقريباً إلى الله كما قال تعالى "وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً" الفرقان: 23، وفي إيقاع "هؤلاء" اسماً لأن، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار، وأنه لا يعدوهم البتة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويغض إليهم ما أحبوا "أغير الله أبغيكم إلهاً" أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره، من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحد غيركم، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره. ومعنى الهمة: الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغمورين في نعمة الله عبادة غير الله.

"وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم".

"يسومونكم سوء العذاب" ييغونكم شدة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها. فإن قلت: ما محل يسومونكم؟ قلت: هو استئناف لا محل له. ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين أو من آل فرعون. و"وذلكم" إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. والبلاء: النعمة أو الحنة. وقرئ: يقتلون بالتخفيف.

"وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين".

وروي: أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشتم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. وقيل: أوحى الله تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك. وقيل: أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها بما يقربه من الله ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها. ولقد أجهل ذكر الأربعين في سور البقرة، وفصلها ههنا. و"ميقات ربه" ما وقته له من الوقت وضربه له. و"أربعين ليلة" نصب على الحال أي تم بالغاً هذا العدد. و"هارون" عطف بيان لأخيه. وقرئ بالضم على النداء "اخلفني في قومي" كن خليفتي فيهم "وأصلح" وكن مصلحاً. أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل، ومن دعاك منهم إلى الفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

"ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين".

"لميقاتنا" لوقتنا الذي وقتنا له وحددنا. ومعنى اللام الاختصاص فكأنه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا، كما يقول: أتيتك لعشر خلون من الشهر "وكلمه ربه" من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه: أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح وروي: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كلمه أربعين يوماً وأربعين ليلة، وكتب له الألواح. وقيل: إنما كلمه في أول الأربعين "أرني انظر إليك" ثاني مفعول أرني حذف أي أرني نفسك أنظر إليك، فإن قلت: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: أرني أنظر إليك؟ قلت: معنى أرني نفسك، اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك، فإن قلت: فكيف قال: "لن تراني" ولم يقل: لن تنظر إلي لقوله: "أنظر إليك"؟ قلت: لما قال: "أرني" بمعنى اجعلني متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك، علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه، فقيل: لن تراني، ولم يقل لن تنظر إلي. فإن قلت: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز، ويتعالى عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة. وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة. ومنع المجرة إحالته في العقول غير لازم، لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتيابهم، وكيف يكون طالبه وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة "أهلكنا بما فعل السفهاء منا" الأعراف: 155، إلى قوله: "تصل بما من تشاء" الأعراف: 155، فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالاً؟ قلت: ما كان طلب الرؤية إلا ليكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً، وتبرأ من فعلهم، وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا: لا بد، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله: "لن تراني" ليتيقنوا ويتراجع عنهم ما دخلهم من الشبهة، فلذلك قال: "ربي أرني أنظر إليك" فإن قلت: فهلا قال: أرهم ينظروا إليك؟ قلت: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه، كما أسمعاه كلامه فسمعوه معه، إرادة مبنية على قياس فاسد، فلذلك قال موسى: أرني أنظر إليك، ولأنه إذا زجر عما طلب، وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك: كان غيره أولى بالإنكار، لأن الرسول إمام أمته، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم. وقوله: "انظر إليك" وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلًا بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، وأبي الهذيل والشيخين، وجميع المتكلمين؟ فإن قلت: ما معنى "لن"؟ قلت: تأكيد النفي الذي تعطيه "لا" وذلك أن "لا" تنفي المستقبل. تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً. والمعنى: أن فعله ينافي حالي، كقوله: "لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له" الحج: 73، فقوله: "لا تدركه الأبصار" الأنعام: 103، نفي للرؤية

فيما يستقبل. و "لن ترني" تأكيد وبيان، لأن المنفي مناف لصفاته. فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله: "ولكن انظر إلى الجبل" بما قبله؟ قلت: اتصل به على معنى أن النظر إلى محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية؟ لنستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: "وتخز الجبال هدأً، أن دعوا للرحمن ولداً" مريم: 91. "فإن استقر مكانه" كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً في جهاته "فسوف ترني" تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يذكه دكاً ويسويه بالأرض، وهذا كلام مديح بعضه في بعض، وارد على أسلوب عجيب وغط بديع. ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعني قوله: "فإن استقر مكانه فسوف تراني". "فلما تجلى ربه للجبل" فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته "جعله دكاً" أي مدكوكاً مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير. والدك والدق أخوان كالشك والشق وقرئ: "دكاء" والدكاء اسم للرابية الناشزة من الأرض كالدكة أو أرضاً دكاء مستوية. ومنه قولهم: ناقة دكاء متواضعة السنام، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: ابسط يدك دكاء، أي مدها مستوية. وقرأ يحيى بن وثاب: دكاً أي قطعاً دكا جمع دكاء "وخر موسى صعقاً" من هول ما رأى. وصعق من باب: فعلته ففعل. يقال صعقته فصعق. وأصله من الصاعقة. ويقال لها الصاعقة. من صعقه إذا ضربه على رأسه ومعناه: خز مغشياً عليه غشية كالموت. وروي: أن الملائكة مرت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلکرونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة؟ "فلما أفاق" من صعقته "قال سبحانك" أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها "ثبت إليك" من طلب الرؤية "وأنا أول المؤمنين" بأنك لست بمبرئي ولا مدرك بشيء من الحواس. فإن قلت: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته، فممن تاب؟ قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه، من غير إذن فيه من الله تعالى، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبها وجعله دكاً، وكيف أصعقهم ولم يخل كلمته من نفيان ذلك مبالغة في إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه، وتاب من إجرائه تلك الكلمة على لسانه وقال أنا أول المؤمنين، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً. ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة، فإنه من منصوبات أشياخهم! والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

وجماعة حمر لعمرى موكفه

لجماعة سموا هواهم سنة

شنع الورى فتستروا بالبلكفه

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا

وتفسير آخر: وهو أن يريد بقوله: "أرني أنظر إليك" عرفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً، كأنها إراءة في جلالتها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك "انظر إليك" أعرفك معرفة اضطرار، كأني أنظر إليك، كما جاء في الحديث:

"سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر" بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ

واستوى "قال لن تراني" أي لن تطبق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتل قوتك تلك الآلية المضطربة ولكن انظر إلى الجبل. فإني أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات، فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعض فسوف تثبت لها وتطيقها، "فلما تجلّى ربك للجبل" فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته "جعله دكاً وخر موسى صعقاً" لعظم ما رأى "فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك" مما اقترحت وتجاسرت "وأنا أول المؤمنين" بعظمتك وجلالك، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك.

"قال يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالي وبكلامي فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين".
"اصطفتك على الناس" اخترتك على أهل زمانك وآثرتك عليهم "برسالي" وهي أسفار التوراة "وبكلامي" ويتكلمي إياك "فخذ ما أتيتك" ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة "وكن من الشاكرين" على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم. وقيل: حر موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر. فإن قلت: كيف قيل؟ اصطفتك على الناس وكان هارون مصطفى مثله ونبياً؟ قلت: أجل، ولكنه كان تابعاً له وردءاً وزيراً. والكليم: هو موسى عليه السلام، والأصيل في حمل الرسالة.

"وكتبنا له في الألواح في كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذ بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين، سأصرف عن آياتي الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين، والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبيك أعماهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون".

ذكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح وقيل: سبعة. وقيل، لوحين، وأنها كانت من زمرد جاء بها جبريل عليه السلام. وقيل: من زبرجدة خضراء ويقوتة حمراء. وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له، فقطعها بيده وشققها بأصابعه. وعن الحسن كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة، وأن طولها كان عشرة أذرع. وقوله: "من كل شيء" في محل نصب مفعول كتبنا. و"موعظة" وتفصيلاً بدل منه. والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام. وقيل: أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى عليه السلام. وعن مقاتل: كتب في الألواح: إني أنا الله الرحمن الرحيم، لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزيه، ولا تقتلوا ولا تزنا ولا تعقوا الوالدين "فخذها" فقلنا له: خذها، عطفاً على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: "فخذ ما أتيتك" الأعراف: 144، والضمير في

"فخذها" للألواح، أو كل شيء، لأنه في معنى الأشياء، أو للرسالات، أو للتوراة. ومعنى "بقوة" مجد وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل "يأخذوا بأحسنها" أي فيها ما هو حسن وأحسن، كالإقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر. فبرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر للشواب، كقوله تعالى: "واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم" الزمر: 55، وقيل يأخذوا بما هو واجب أو ندب، لأنه أحسن من المباح.

ويجوز أن يراد: يأخذوا بما أمروا به، دون ما نهوا عنه، على قولك: الصيف أحر من الشتاء "سأريكم دار الفاسقين" يريد دار فرعون وقومه وهي مصر، كيف أفقرت منهم ودمروا لفسقهم، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل

بكم مثل نكالهم. وقيل: منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم في ممرهم عليها في أسفاركم. وقيل: دار الفاسقين: نار جهنم. وقرأ الحسن: سأوريكم وهي لغة فاشية بالحجاز. يقال: أوري كذا، وأوريت. ووجهه أن تكون من أوريت الزند كأن المعنى بينه لي وأنه لأستبينه وقرئ: سأورثكم وهي قراءة حسنة يصححها قوله: "وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون" الأعراف: 137، "سأصرف عن آياتي" بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها، غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم. وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إذا عظمت أمتي الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي". وقيل: سأصرفهم عن إبطائها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى، بأن جمع لها السحرة، فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل. ويجوز: سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها. وتسميتها سحراً ياهلاكهم. وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها، لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم "بغير الحق" فيه وجهان: أن يكون حالاً بمعنى يتكبرون غير محقين، لأن التكبر بالحق لله وحده. وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم "وإن يروا كل آية" من الآيات المتولة عليهم "لا يؤمنون بها" وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا بضم الياء. وقرئ: سبيل الرشد والرشد والرشاد، كقولهم: السقم والسقم والسقام. وما أسفه من ركب المفازة، فإن رأى طريقاً مستقيماً أعرض عنه وتركه، وإن رأى معتسفاً مردياً أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه "ذلك" في محل الرفع أو النصب على معنى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسبب "ولقاء الآخرة" يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به. أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة. "واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجباً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً وكانوا ظالمين، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين".

"من بعده" من بعد فراقه إياهم إلى الطور، فإن قلت: لم قيل: واتخذ قوم موسى عجباً، والمتخذ هو السامري؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن ينسب الفعل إليهم، لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا، والقائل والفاعل واحد، ولأنهم كانوا يريدون لاتخاذهم راضين به، فكأنهم أجمعوا عليه. والثاني: أن يراد واتخذوه لها وعبدوه. وقرئ: "من حليهم" بضم الحاء والتشديد، جمع حلي، كثندي وثدي، ومن حليهم بالكسر للإتباع كدلى. ومن حليهم، على التوحيد، والحلي: اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة. فإن قلت: لم قال: من حليهم، ولم يكن الحلي لهم، إنما كانت عوارى في أيديهم؟ قلت: الإضافة تكون بأدنى ملابسة، وكونها عوارى في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. ألا ترى إلى قوله عز وعلا: "فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل" الشعراء: 57 - 59، "جسداً" بدنناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار: صوت البقر، قال الحسن: إن السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر، فقذفه في في العجل، فكان عجباً له خوار. وقرأ علي رضي

الله عنه: جوار بالجيـم والمهمزة، من جأر إذا صاح. وانتصاب جسداً على البدل من "عجلاً" "ألم يروا" حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل، حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة، وبما أنزل في كتبه. ثم ابتداء فقال: "اتخذوه" أي أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر "وكانوا ظالمين" واضعين كل شيء في غير موضعه، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم، ولا أول مناكيرهم "ولما سقط في أيديهم" ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غماً، فتصير يده مسقوطة فيها، لأن فاه قد وقع فيها. و"سقط" مسند إلى "في أيديهم" وهو من باب الكناية. وقرأ أبو السميـف: سقط في أيديهم، على تسمية الفاعل، أي وقع العض فيها، وقال الزجاج: معناه سقط الندم في أيديهم، أي في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس، وبما يحصل في اليد ويرى العين "ورأوا أنفسهم قد ضلوا" وتبينوا ضلالهم تبيناً كأنهم أبصروه بعيونهم. وقرأ: "لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا" بالتاء. وربنا، بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين، كما قال آدم وحواء عليهما السلام: وإن لم تغفر لنا وترحمنا.

"ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بتسماً خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين، قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين".

الأسف: الشديد الغضب "فلما آسفونا انتقمنا منهم" الزخرف: 55، وقيل: هو الحزين "خلفتموني" قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي. وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل في السامري وأشياعه أو لوجوه بني إسرائيل وهم هارون عليه السلام والمؤمنون معه. ويدل عليه قوله: "اخلفني في قومي" الأعراف: 142، والمعنى: بنس ما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله. فإن قلت: أين ما تقتضيه بنس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ قلت: الفاعل مضمّر يفسره ما خلفتموني. والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بنس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم. فإن قلت: أي معنى لقوله: "من بعدي" بعد قوله: "خلفتموني" قلت: معناه من بعد ما رأيتم مني، من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له. أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر، حين قالوا: "اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة"

الأعراف: 128، ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه. ونحوه: "فخلف من بعدهم خلف" الأعراف: 169، أي من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره، ويضمن معنى سبق فيعدي تعديته، فيقال عجلت الأمر، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار موسى حافظين لعهدده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولن أرجع إليكم فحدثتم أنفسكم بموتي، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. وروي: أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى: إن موسى لن يرجع، وإنه قد مات وروي: أنهم عدوا عشرين يوماً لبلياليها فجعلوها

أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا "وألقى الألواح" وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل، غضباً لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديداً شديداً الغضب، وكان هارون ألين منه جانباً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى. وروي: أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء، وفيما بقي الهدى والرحمة "وأخذ برأس أخيه" أي بشعر رأسه "يجره إليه" بذؤابته وذلك لشدة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته، وظناً بأخيه أنه فرط في الكف "ابن أم" قرئ بالفتح تشبيهاً بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة. وابن أمي، بالياء. وابن إم، بكسر الهمزة والميم. وقيل: كان أخاه لأبيه وأمه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم، إشارة إلى أنهما من بطن واحد. وذلك أدعى إلى العطف والرفقة، وأعظم للحق الواجب، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها "إن القوم استضعفوني" يعني أنه لم يأل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار. وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادهم حتى قهره واستضعفه ولم يبق إلا أن يقتلوه "فلا تشمت بي الأعداء" فلا تفعل بي ما هو أمنيته من الاستهانة بي والإساءة إلي، وقرئ: "فلا يشمت بي الأعداء" على فهمي الأعداء عن الشماتة. والمراد أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله "ولا تجعلني مع القوم الظالمين" ولا تجعلني في موجدتك علي وعقوبتك لي قريباً لهم وصاحباً. أو ولا تعتقد أنني واحد من الظالمين مع برائي منهم ومن ظلمهم. لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء "قال رب اغفر لي ولأخي" ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة. وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

"إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين".

"غضب من ربهم وذلة" الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم. والذلة: خروجهم من ديارهم لأن ذل الغربية مثل مضروب. وقيل: هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير، من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية "المفترين" المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى. ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، وضربت الذلة والمسكنة وبأزوا بغضب من الله.

"والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم".

"والذين عملوا السيئات" من الكفر والمعاصي كلها "ثم تابوا" ثم رجعوا "من بعدها" إلى الله واعتذروا إليه "وآمنوا" وأخلصوا الإيمان "إن ربك من بعدها" من بعد تلك العظائم "لَغُفُورٌ" لستور عليهم محاء لما كان منهم "رحيم" منعهم عليهم بالجنة. وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم. عالم جنائيتهم أو لا ثم أردفها تعظيم رحمته، ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بد من حفظ الشريعة: وهي وجوب التوبة والإنابة، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة، لا يلتفت إليها حازم.

"ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون".

"ولما سكنت عن موسى الغضب" هذا مثل، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا وألقي الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة، وطرفاً من تلك الروعة. وقرئ: ولما سكنت وأسكت أي أسكنه الله، أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفى غضبه "أخذ الألواح" التي ألقاها "وفي نسختها" وفيما نسخ منها، أي كتب. والنسخة فعلة بمعنى مفعول كالحطبة "لرهم يرهبون" دخلت اللام لتقدم المفعول، لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً. ونحوه "الرؤيا تعبرون" يوسف: 43، وتقول: لك ضربت.

"واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربى لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون".

"واختار موسى قومه" أي من قومه، فحذف الجار وأوصل الفعل، كقوله:

ومنا الذي اختير الرجال سماحة

قيل: اختار من اثني عشر سبطاً، من كل سبط ستة حتى تماموا اثنين وسبعين، فقال: ليتخلف منكم رجلان: فتشاحوا، فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجبر من خرج، فقعد كالب ويوشع. وروي: أنه لم يصب إلا ستين شيخاً، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً. وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين، ولم يتجاوزوا الأربعين، قد ذهب عنهم الجهل والصبا، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سيناء، لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا مرسى ودخل فيه وقال للقوم: ادنوا، فدنوا، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه، فطلبوا الرؤية فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم، فقالوا: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فقال: رب أرني أنظر إليك، يريد: أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته، فأجيب بلن تراني، ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجفة "قال" موسى "رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي" وهذا تمن منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية، كما يقول على الأمر إذا رأى سوء المغبة: لو شاء الله لأهلكني قبل هذا "أهلكنا بما فعل السفهاء منا" يعني أهلكنا جميعاً، يعني نفسه وإياهم، لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء، وهم طلبوها سفهاً وجهلاً "إن هي إلا فتنتك"

أي محتكك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً، حتى افتننوا وضلوا "تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء" تضل باخنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت. وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدي منه، لأن محتته لما كانت سبباً لأن ضلوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام "وأنت ولينا" مولانا القائم بأمورنا "واكتب لنا" وأثبت لنا وأقسم "في هذه الدنيا حسنة" عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة "وفي الآخرة" الجنة "هدنا إليك" تبنا إليك. وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب. والهود: جمع هائد، وهو التائب. ول بعضهم:

واسجد كأنك هدهد

يا راكب الذنب هدهد

وقرأ أبو وجرة السعدي: هدنا إليك بكسر الهاء، من هاده يهيده إما حركه وأماله. ويحتمل أمرين، أن يكون مبنياً للفاعل والمفعول بمعنى حركنا إليك أنفسنا وأملناها أو حركنا إليك وأملنا على تقدير: فعلنا، كقولك: عدت يا مريض بكسر العين، فعلت من العبادة. ويجوز: عدت بالإشمام. وعدت، بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض. وقول القول. ويجوز على هذه اللغة أن يكون "هدنا" بالضم فعلنا من هاده يهيده "عذابي" من حاله وصفته أي "أصيب به من أشاء" أي من وجب علي في الحكمة تعذيبه، ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة. وأما "ورحمتي" فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي. وقرأ الحسن: من أساء من الإساءة. فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون، لا يكفرون بشيء منها "الذين يتبعون الرسل" الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن "النبي" صاحب المعجزات "الذي يجدونه" يجد نعت أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل "مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل... ويحل لهم الطيبات" ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة، كالشحوم وغيرها. أو ما طاب في الشريعة والحكم، مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلي كسبه من السحت، ويحرم عليهم الخبائث ما يستخبت من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به أو ما خبت في الحكم، كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة. الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي يحبس من الحراك لثقله وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، وكذلك الأغلال. مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، نحو: بت القضاء بالقصاص عمداً

كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد الثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت. وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم. وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة. وقرئ: آصارهم على الجمع "وعزروه" ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو. وقرئ بالتخفيف. أصل العزر: المنع. ومنه التعزير للضرب دون الحد، لأنه منع عن معاودة القبيح. ألا ترى إلى تسميته الحد، والحد هو المنع. و"النور" القرآن. فإن قلت: ما معنى قوله "أنزل معه" وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت: معناه أنزل مع نبوته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به. ويجوز أن يعلق باتبعوا. أي: واتبعوا القرآن المثل مع اتباع النبي والعمل

بسنته وبما أمر به ونهي عنه، أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه. فإن قلت: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قلت: لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل، أوجب بما هو منظور على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى، وعرض بذلك في قوله: "والذين هم بآياتنا يؤمنون" وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح، وفي أن يحشروا معهم ولا يفرق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.

"قل يا أيها الذين آمنوا إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون".

"إني رسول الله إليكم جميعاً" قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى كافة الإنس والجن. وجميعاً: نصب على الحال من إليكم. فإن قلت: "الذي له ملك السموات والأرض" ما محله؟ قلت: الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعني، وهو الذي يسمى النصب على المدح. ويجوز أن يكون جرراً على الوصف، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: "إليكم جميعاً" وقوله: "لا إله إلا هو" بدل من الصلة التي هي له ملك السموات والأرض، وكذلك "يحيي ويميت" وفي "لا إله إلا هو" بيان للجملة قبلها، لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة. وفي يحيي ويميت: بيان لاختصاصه بالإلهية، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره "وكلماته" وما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ: "وكلمته" على الأفراد وهي القرآن. أو أراد جنس ما كلم به. وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم. وقيل: هي الكلمة التي تكون عنها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: "كن" وإنما قيل إن عيسى كلمة الله، فخص بهذا الاسم، لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة، ولم يكن من نطفة تمني "لعلكم تهتدون" إرادة أن تهتدوا. فإن قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبني، بعد قوله: "إني رسول الله إليكم" قلت: عدل من المضمّر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كأننا من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه.

"ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون".

"ومن قوم موسى أمة" هم المؤمنون الثابتون من بني إسرائيل، لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمنتين عبادة العجل واستجازة رؤية الله تعالى، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلوهم على الاستقامة ويرشدوهم. وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به من أعقابهم. وقيل: إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا. وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن جبريل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم فكلهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من

تكلّمون؟ قالوا: لا. قال: هذا محمد النبي الأمي، فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحداً، فليقرأ عليه مني السلام فرد محمد على موسى عليهما السلام، ثم أقرؤهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يستنون، فأمرهم أن يجتمعوا ويتركوا السبت". وعن مسروق: قرئ بين يدي عبد الله فقال رجل: إني منهم، فقال: عبد الله يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين: وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئا من يهدي بالحق وبه يعدل، وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين. وهذا من باب الفرض والتقدير وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى كل أفق، وتغلغل في كل نفق، ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها، وإلا وقد ألقاه إليهم وملاً به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

"وقطعناهم اثني عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلموا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

"وقطعناهم" وصيرناهم قطعاً، أي فرقاً وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم. وقرئ: "وقطعناهم" بالتخفيف "اثني عشرة أسباطاً" كقولك: اثني عشرة قبيلة. والأسباط: أولاد الولد، جمع سبط وكانوا اثني عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام. فإن قلت: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعاً؟ وهلا قيل: اثني عشر سبطاً؟ قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً لأن المراد: وقطعناهم اثني عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة. ونظيره: 4 بين رماح مالك ونمشل "أمماً" بدل من اثني عشرة بمعنى: وقطعناهم أمماً لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى، لا تكاد تأتلف. وقرئ: "اثني عشرة" بكسر الشين "فانبجست" فانفجرت. والمعنى واحد، وهو الانفتاح بسعة وكثرة: قال العجاج:

وكيف غربي دالج تبجساً

فإن قلت: فهلا قيل: فضرِب فانبجست؟ قلت: لعدم الإلباس، ولجعل الإنجاس مسبباً عن الإيجاء بضرِب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به. من قوله: "كل أناس" نظير قوله: اثني عشرة أسباطاً، يريد كل أمة من تلك الأمم اثني عشرة، والأناس، اسم جمع غير تكسير، نحو: رخال وتناء وتؤام وأخوات لها. ويجوز أن يقال: إن الأصل الكسر والتكسير، والضمة بدل من الكسرة، كما أبدلت في نحو، سكارى وغيارى من الفتحة "وظللنا عليهم الغمام" وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه، و "كلوا" على إرادة القول "وما ظلمونا" وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم، ولكن كانوا يضرون أنفسهم. ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

"وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم

ستزيد الحسنين، فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون".

"وإذ قيلَ لَهُمْ" واذكر إذ قيل لهم. والقرية: بيت المقدس. فإن قلت: كيف اختلفت العبارة ههنا وفي سورة البقرة؟ قلت: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض. ولا تناقض بين قوله، اسكنوا هذه القرية وكلوا منها، وبين قوله: فكلوا لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكنها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو آخروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: "تغفر لكم خطيئاتكم" موعِد بشيئين: بالغفران، وبالزيادة، وطرح الواو لا يخل بذلك، لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقليل له: ستزيد الحسنين، وكذلك زيادة "منهم" زيادة بيان، وأرسلنا، وأنزلنا. و"يظلمون" ويفسقون من واد واحد. وقرئ: "يغفر لكم خطيئاتكم" وتغفر لكم خطاياكم. وخطيئاتكم، وخطيئتكُم، على البناء للمفعول.

"وسلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يستطيعون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون، وإذ قالت أمة منهم لم تعظوا قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس ما كانوا يفسقون، فلما عتوا عما هموا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين".

"وسلهم" وسل اليهود. وقرئ: وأسألمهم وهذا السؤال معناه التقرير والتقريع بتقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم، علم أنه من جهة الوحي. ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك: أعدوتم في السبت؟ والقرية أيلة. وقيل: مدين. وقيل: طبرية. والعرب تسمي المدينة قرية. وعن أبي عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج، يعني رجين من أهل المدن "حاضرة البحر" قرية منه راكبة لشاطئه "إذ تعدون في السبت" إذ يتجاوزون حد الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد هموا عنه. وقرئ: يعدون بمعنى يعتدون، أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين، ويعدون من الإعداد، وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت، وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة. والسبت: مصدر سبت اليهود، إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعب، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم، كذلك قوله: "يوم سبتهم" معناه يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدل عليه قوله: "يوم لا يستطيعون" وقراءة عمر بن عبد العزيز: يوم إسباقتهم، وقرئ: لا يستطيعون، بضم الباء. وقرأ علي: لا يستطيعون ضم الياء، من أسبتوا. وعن الحسن: لا يستطيعون على البناء للمفعول، أي لا يدار عليهم السبت، ولا يؤمرون بأن يسبتوا، فإن قلت: إذ يعدون، وإذ تأتيهم، ما محلها من لإعراب؟ قلت: أما الأول فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها، كأنه قيل: وأسألمهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال. ويجوز أن يكون منصوباً بكانت أو بحاضرة. وأما الثاني فمنصوب بيعدون. ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل. والحيتان السمك، وأكثر ما تستعمل العرب

الحوت في معنى السمكة "شرعاً" ظاهرة على وجه الماء. وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض. يقال شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا. وشرعت على فلان في بيته فرأيتنه يفعل كذا "كذلك نبلوهم" أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم "وإذ قالت" معطوف على إذ يعدون، وحكمه حكمه في الإعراب "أمة منهم" جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم، حتى أيسوا من قبولهم، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم "لم تعظون قوماً الله مهلكهم" أي مخترهم ومطهر الأرض منهم "أو معذبهم عذاباً شديداً" لتماديهم في الشر. وإنما قالوا ذلك، لعلمهم أن الواعظ لا ينفع فيهم "قالوا معذرة إلى ربكم" أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله، ولئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط "ولعلمهم يتقون" ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء. وقرئ: معذرة بالنصب، أي وعظناهم معذرة إلى ربكم، أو اعتذرنا معذرة "فلما نسوا" يعني أهل القرية، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه "أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا" الظالمين الراكبين للمنكر. فإن قلت: الأمة الذين قالوا "لم تعظون" من أي الفريقين هم أمن فريق الناجين أم المعدنين قلت من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين. وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم.

وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه اللهي، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث. ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك، ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك. وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين، ولم يخبروهم كما خبروهم، أو لفرط حرصهم وجدهم في أمرهم كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: "فلعلك باخع نفسك" الكهف: 6، وقيل: الأمة هم الموعوظون، لما وعظوا قالوا للواعظين: لم تعظون منا قوماً ترعمون أن الله مهلكهم أو معذبهم؟ وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: يا ليت شعري ما فعل هؤلاء الذين قالوا: لم تعظون قوماً؟ قال عكرمة: فقلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، فلم أزل به حتى عرفت أنه قد نجوا. وعن الحسن: نجت فرقان وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان. وروي: أن اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا يوم السبت، فابتلوا به وحرم عليهم فيه الصيد، وأمروا بتعظيمه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سمناً كأنها المخاض، لا يرى الماء من كثرتها، ويوم لا يستتون لا تأتيهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم جاءهم إبليس فقال لهم: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياءً تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، فلا تقدر على الخروج منها. وتأخذونها يوم الأحد، وأخذ رجل منهم حوتاً وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل، ثم شواه يوم الأحد، فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين، فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم، صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، فصار أهل القرية أثلاثاً، ثلث هم وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً، وثلث قالوا: لم تعظون قوماً؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة. فلما لم ينتهوا قال المسلمون: إنا لا نساكنكم، فقسموا القرية بحداد: للمسلمين باب،

وللمعتدين باب. ولعنهم داود عليه السلام، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس شأناً، فعلوا الجدار فنظروا فإذا قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسبائها من الأنس، والأنس لا يعرفون أنسبائهم من القردة، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه ويكي، فيقول: ألم ننهك فيقول برأسه: بلى، وقيل: صار الشباب قردة، والشيوخ خنازير. وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها، أثقلها خزيًا في الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة، هاهنا وإيم الله، وما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم. ولكن الله جعل موعداً، والساعة أدهى وأمر "بتس" شديد. يقال: بؤس يبؤس بأساً، إذا اشتد، فهو بئيس. وقرئ: بئس بوزن حذر. وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء. كما يقال: في كبد في كبد. وبئس على قلب الهمزة ياء، كذيب في ذنب، وبئس على فيعل، بكسر الهمزة وفتحها، وبئس بوزن ريس، على قلب همزة بئس ياء وإدغام الياء فيها، وبئس على تخفيف بئس، كهين في هين. وبئس على فاعل "فلما عتوا عما هموا عنه" فلما تكبروا عن ترك ما هموا عنه، كقوله: "عتوا عن أمر ربهم، الأعراف: 77"، قلنا لهم كونوا قردة" عبارة عن مسخهم قردة، كقوله: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" ياسين: 82، والمعنى: أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك فمسخهم. وقيل: فلما عتوا، تكرير لقوله: "فلما نسوا" والعذاب البئيس: هو المسخ.

"وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم".

"تأذن ربك" عزم ربك، وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام، لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به ويؤذنها بفعله، وأجرى مجرى فعل القسم، كعلم الله، وشهد الله. ولذلك أوجب بما يجاب به القسم وهو قوله: "ليعثن" والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليعثن على اليهود "إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب" فكانوا يؤدون الجزية إلى الجوس، إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فضرها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر. ومعنى ليعثن عليهم ليسلطن عليهم، كقوله: "بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد" الإسراء: 5، "وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالחסنات والسيئات لعلهم يرجعون، فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا تقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون".

"وقطعناهم في الأرض أمماً" وفرقناهم فيها، فلا يكاد يخلوا بلد من فرقة منهم "منهم الصالحون" الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو الذين وراء الصين "ومنهم دون ذلك" ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة. فإن قلت: ما محل دون ذلك؟ قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح، ونحوه "وما منا إلا له مقام معلوم" الصافات: 64، بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام "وبلوناهم بالחסنات والسيئات" بالنعم والنقم "لعلهم يرجعون" فينبون "فخلف" من بعد المذكورين "خلف" وهم الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ورثوا الكتاب" التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤها ويقفون على ما فيها

من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم، ولا يعملون بما "يأخذون عرض هذا الأدنى" أي حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها. وفي قوله: "هذا الأدنى" تحسيس وتحقير. والأدنى: إما من الدنو بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب، وإما من دنو الحال وسقوطها وقتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة "ويقولون سيغفر لكم" لا يؤاخذنا الله بما أخذنا. وفاعل "سيغفر" الجار والمجرور، وهو "لنا" ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو مصدر يأخذون "وإن يأثم عرض مثله يأخذوه" الواو للحال، أي يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين. وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة، والمصر لا غفران له "ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب" يعني قوله في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة "ودرسوا ما فيه" في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه التجربة هو مذهب اليهود بعينه كما ترى. وعن مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به، قالوا: سيغفر لنا، لأننا لم نشرك بالله شيئاً، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمة أشباه الذين ذكرهم الله، وتلا الآية. "والدار الآخرة خير" من ذلك العرض الخسيس "للذين يتقون" الرضا ومحارم الله. وقرئ: ورثوا الكتاب، وإلا تقولوا، بالناء. وادارسو، بمعنى تدارسوا. وأفلا تعقلون، بالياء والفاء. فإن قلت: ما موقع قوله: "ألا يقولوا على الله إلا الحق؟" قلت: هو عطف بيان لميثاق الكتاب. ومعنى ميثاق الكتاب. الميثاق المذكور في الكتاب. وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على الله. وتقول عليه ما ليس بحق. وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان "أن لا يقولوا" مفعولاً له. ومعناه: لنلا يقولوا. ويجوز أن تكون "أن مفسرة، و"لا تقولوا" نهيًا، كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على الله إلا الحق؟ فإن قلت: علام عطف قوله: "ودرسوا ما فيه؟" قلت: على "ألم يؤخذ عليهم" لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

"والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين".

"والذين يمسكون بالكتاب" فيه وجهان، أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره "إنا لا نضيع أجر المصلحين" والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم، لأن المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب، كقوله: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً" الكهف: 30، والثاني: أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون، ويكون قوله: "إنا لا نضيع" اعتراضاً. وقرئ: "يمسكون" بالتحديد. وتنصره قراءة أبي: "والذين مسكوا بالكتاب" فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة. ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت؟ قلت: إظهار لمزية الصلاة لكونها عماد الدين، وفارقه بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: "والذين استمسكوا بالكتاب. إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون".

"وإذ نتقنا الجبل فوقهم" قلعه ورفعناه، كقوله: "ورفعنا فوقهم الطور". ومنه: نتق السقاء، إذا نفضه ليقطع الزبدة منه. والظلة: كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب. وقرئ بالطاء، من أطل عليه إذا أشرف "وظنوا أنه واقع بهم" وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقلبوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخاً في فرسخ. وقيل لهم. إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خر كل

رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه "خذوا ما آتيناكم" على إرادة القول. أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، خذوا ما آتيناكم من الكتاب "بقوة" وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه "أذكروا ما فيه" من الأوامر والنواهي ولا تنسوه، أو اذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه. وجوز أن يراد: خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه، كقوله: "إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض" الرحمن: 33، "فأنفذوا". واذكروا ما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار "لعلكم تتقون" ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود: وتذكروا وقرئ: واذكروا بمعنى وتذكروا. "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا من الغافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم بما فعل المبطلون، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون".

"من ظهورهم" بدل من بني آدم بدل البعض من الكل. ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلهم نسباً وإشهادهم على أنفسهم. وقوله: "ألست بربكم قالوا بلى شهدنا" من باب التمثيل والتخييل! ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بما عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وفي كلام العرب. ونظيره قوله تعالى: "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون" النحل: 40، "فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين" فصلت: 11، وقوله:

إذ قالت الأنساع للبطن الحق

قالت له ربح الصبا قرقاز

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى "وأن تقولوا" مفعول له، أي فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول، كراهة "أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا من الغافلين" لم ننبه عليه "أو" كراهة "أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم" فافتدينا بهم، لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء. كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم فإن قلت: بنو آدم وذرياتهم من هم؟ قلت: عني بني آدم: أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله، حيث قالوا: عزيز ابن الله. وبذرياتهم: الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلافهم المقتدين بآبائهم. والدليل على أنها في المشركين وأولادهم: قوله: "أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل" والدليل على أنها في اليهود: الآيات التي عطف عليها هي، والتي عطف عليها وهي على نمطها وأسلوبها، وذلك قوله: "واسألهم عن

القرية" الأعراف: 163، "وإذ قالت أمة منهم لم تعظون" الأعراف: 164، "وإذ تأذن ربك" الأعراف: 167، "وإذ نتقنا الجبل فوقهم الأعراف: 171، "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا" الأعراف: 175، "أفنتهلكنا بما فعل المبطلون" أي كانوا السبب في شركنا، لتأسيسهم الشرك، وتقدمهم فيه، وتركه سنة لنا "وكذلك" ومثل ذلك التفصيل البليغ "نفصل الآيات" هم "لعلم يرجعون" وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها. وقرئ: ذريتهم على التوحيد. وأن يقولوا: بالياء.

"واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص عليهم القصص لعلهم يتفكرون".

"واتل عليهم" على اليهود "نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها" هو عالم من علماء بني إسرائيل. وقيل: من الكنعانيين، اسمه بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله "فانسلخ منها" من الآيات، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره "فأتبعه الشيطان" فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريباً له. أو فأتبعه خطواته. وقرئ: فاتبه بمعنى فتيه "فكان من الغاوين" فصار من الضالين الكافرين. روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة، فألخوا عليه ولم يزلوا به حتى فعل "ولو شئنا لرفعناه بها" لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات "ولكنه أخلد في الأرض" مال إلى الدنيا ورغب فيها. وقيل: مال إلى السفالة. فإن قلت: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع قلت المعنى. ولو لزم بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها. وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة. والمراد: ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها. ألا ترى إلى قوله: "ولكنه أخلد في الأرض" فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله فوجب أن يكون "لو شئنا" في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكننا لم نشأ "فمثله كمثل الكلب" فصفته التي هي مثل في الحسة والضعة كصفة الكلب في أحسن أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه. وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرك، وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها ولكن أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته، فوضع قوله "فمثله كمثل الكلب" موضع حططناه أبلغ حط لأن تمثيله بالكلب في أحسن أحواله وأذلها في معنى ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه، الكلب منقطع الفؤاد، يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه. وقيل: معناه إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طرده فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث. فإن قلت: ما محل الجملة الشرطية؟ قلت: انصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهثاً في الحالتين. وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوق على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب "ذلك مثل الكلب الذين كذبوا بآياتنا" من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به "فاقصص" قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم "لعلهم يتفكرون" فيحذرون

مثل عاقبته، إذ ساروا نحو سيرته، وزاغوا شبه زيغته، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم.

"ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون".

"ساء مثلاً القوم" أي مثل القوم. أو ساء أصحاب مثل القوم. وقرأ الجحدري: ساء مثل القوم. "وأنفسهم كانوا يظلمون" إما أن يكون معطوفاً على كذبوا، فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب، بآيات الله وظلم أنفسهم. وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة، بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب، وتقديم المفعول به للاختصاص، كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها إلى غيرها.

"من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضل فأولئك هم الخاسرون".

"فهو المهتدي" حمل على اللفظ. و"فأولئك هم الخاسرون" حمل على المعنى.

"ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون".

"كثيراً من الجن والإنس" هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظراً اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان. وجعلهم لإعراقهم في الكفر وشدة شكائهم فيه، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار، دلالة على توغلبهم في موجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك ذلوكاً عجن بخمر وإني لأظنكم آل المعيرة ذرة النار. ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا. والمراد وصف حال مود في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع علمهم أنه النبي الموعود. وإثمهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم، كأنهم خلقوا للنار "أولئك" في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر "بل هم أضل" من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر "أولئك هم الغافلون" الكاملون في الغفلة. وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

"ولله الأسماء الحسنى فادعوا بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون بما كانوا يعملون".

"ولله الأسماء الحسنى" التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك "فادعوا بها"

فسموه بتلك الأسماء "وذروا الذين يلحدون في أسمائه" وتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها

فيسمونه لغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا نخي أو أن يابوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى. نحو أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمن وقد قال الله تعالى: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" الإسراء: 110، ويجوز أن يراد: والله الأوصاف الحسنى، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصفوهم بها، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيصفونه بمشينة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها، وقيل: إلحادهم في

أسمائهم: تسميتهم الأصنام آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.
"ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون".

لما قال: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً" الأعراف: 179، فأخبر أن كثيراً من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار، أتبعه قوله: "ومن خلقنا أمة يهدون بالحق" وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقول إذا قرأها: "هذه لكم"، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها، "ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق" الأعراف: 159، وعنه صلى الله عليه وسلم: "إن من أمتي قوماً على الحق حتى يزل عيسى عليه السلام وعن الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب. وقيل: هم العلماء والدعاة إلى الدين.

"والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملئهم إن كيدي متين، أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين، أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون".

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى الاستبعاد، أو الاستئزال درجة بعد درجة. قال الأعشى:

**ورقبت أسباب السماء بسلم
وتعلم أني عنكم غير مفهم**

**فلو كنت في جب ثمانين قامة
ليستدرجك القول حتى تهرة**

ومنه: درج الصبي إذا قارب بين خطاه. وأدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء. ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض. ومعنى "سنستدرجهم" نستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم "من حيث لا يعلمون" ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي. فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه "وأملئهم" عطف على "سنستدرجهم" وهو داخل في حكم السين "إن كيدي مكين" سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان "وما بصاحبهم" بمحمد صلى الله عليه وسلم "من جنة" من جنون، وكانوا يقولون شاعر مجنون. وعن قتادة: أن النبي صلى الله عليه وسلم علا الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله، فقال: إن صاحبكم هذا مجنون، بات يصوت إلى الصباح "لم ينظروا" نظر استدلال "في ملكوت السموات والأرض" فيما تدلان عليه من عظم الملك. والملكوت: الملك العظيم "وما خلق الله من شيء" وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء ومن أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف "وأن عسى" أن مخففة من الثقيلة، والأصل: أنه عسى، على أن الضمير ضمير الشأن. والمعنى: أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى "أن يكون" قد اقترب أجلهم "ولعلمهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم. قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب ويجوز أن يراد باقتراب الأجل: اقتراب الساعة، ويكون من كان التي فيها ضمير الشأن. فإن قلت: بم يتعلق قوله: "فبأي حديث بعده يؤمنون" قلت: بقوله: "عسى أن يكون قد اقترب أجلهم" كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون

بعد وضوح الحق، وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا.

"من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون".

قريئ: ويذرهم بالياء والنون، والرفع على الاستئناف، ويذرهم، بالياء والجزم عطفًا على محل "فلا هادي له" كأنه قيل: من يضل الله لا يهده أحد ويذرهم.

"يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

"يسألونك" قيل: إن قومًا من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً، فإننا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها. وقيل: السائلون قريش. و"الساعة" من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق. "أيان" بمعنى متى. وقيل، اشتقاقه من أي فعلان منه، لأن معناه أي وقت وأي فعل، من أويت إليه، لأن البعض آو إلى الكل متساند إليه، قاله ابن جني، وأبي أن يكون من "أين" لأنه زمان، "وأين" مكان. وقرأ السلمي "أيان" بكسر الهمزة "مرساها" إرساؤها، أو وقت إرسائها، أي إثباتها وإقرارها. وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره. ومنه رسي الجبل وأرسي السفينة. والمرسى: الأنجر الذي ترسى به، ولا أثقل من الساعة، بدليل قوله "ثقلت في السموات والأرض" والمعنى حتى يرسيها الله "إنما علمها" أي علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، ولم يخبر به أحداً من ملك مقرب ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك "لا يجليها لوقتها إلا هو" أي لا تزال خفية، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا جليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها "ثقلت في السموات والأرض" أي كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، وبوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه. أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شذائدها وأهوالها. أو لأن كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها "إلا بغتة" إلا فجأة على غفلة منكم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه" "كأنك حفي عنها" كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقيب عنه، استحكم فيه ورصن وهذا التركيب معناه المبالغة. ومنه إحقاق الشارب. إحتفاء البقل: استئصاله. وأحفي في المسألة، إذا ألحف وحفي بفلان وتحفي به: بالغ في البر به. وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت. وقرأ ابن مسعود: "كأنك حفي بها" أي عالم بها بليغ في العلم بها. وقيل: "عنها" متعلق بيسئلونك: أي يسئلونك عنها كأنك حفي أي عالم بها. وقيل: إن قريشاً قالوا له إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسئلونك عنها كأنك حفي تتحفي بهم فتختصمهم بتعليم وقتها لأجل القرابة تزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به، لكنك بلغه القريب والبعيد من غير تخصيص، كسائر ما أوحى إليك. وقيل: كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره، يعني أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر

الله به ولم يؤته أحداً من خلقه. فإن قلت: لم كرر يسألونك وإنما علمها عند الله؟ قلت: للتأكيد، ولما جاء به من زيادة قوله: "كأنك حفي عنها" وعلى هذا تكرير العلماء الخذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة، منهم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمه الله "ولكن أكثر الناس لا يعلمون" أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها. "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء وإن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون".

"قل لا أملك لنفسي" هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب: أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما الممالك والعبيد "إلا ما شاء الله" ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني "ولو كنت أعلم الغيب" لكانت حالي على خلاف ما هي عليه، من استكثار الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسي شيء منها. ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب. ورايحاً وخاسراً في التجارات، ومصيباً ومخطئاً في التدابير "إن أنا إلا" عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأني أني أعلم الغيب "لقوم يؤمنون" يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم. أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً أي إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

"هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين، فلما آتيناهم صالحاً جعلنا له شركاء فيما آتيناها ففتعالى الله عما يشركون".

"من نفس واحدة" وهي نفس آدم عليه السلام "وجعل منها زوجها" وهي حواء، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه. أو من جنسها كقوله: "جعل لكم من أنفسكم أزواجا" النمل: 72، "ليسكن إليها" ليطمئن إليها ويميل ولا ينفرد؟ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، لماذا كانت بعضاً منه كان السكون والحب أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال: "ليسكن" فذكر بعد ما أنث في قوله: واحدة منها زوجها، ذهاباً إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم. ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى. والتغشي: كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان "حملت حملاً خفيفاً" خف عليها، ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه. وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته "فمرت به" فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق وقيل: "حملت حملاً خفيفاً" يعني النطفة "فمرت به" فقامت به وقعدت. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: فاستمرت به وقرأ يحيى بن يعمر فمرت به بالتخفيف. وقرأ غيره فمارت به من المرية، كقوله: "أفتمارونه" وأفتمرونه. ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل، فارتابت به. "فلما أثقلت" حان وقت ثقل حملها كقولك: أقربت. وقرئ أثقلت على البناء للمفعول: أي أثقلها الحمل "دعوا الله ربهم" دعا آدم وحواء ربهما والذكر الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا: "لئن آتيتنا" لئن وهبت لنا "صالحاً" ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرئ. وقيل: ولداً ذكراً، لأن الذكورة من الصلاح والجودة. والضمير في "آتيتنا" و"لنكونن". هما ولكل من يتناسل من ذريتهما "فلما آتاها" ما طلباه من الولد

الصالح السوي "جعلاً له شركاء" أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك "فيما آتاهما" أي آتى أولادهما، وقد دل على ذلك بقوله: "فتعالى الله عما يشركون" حيث جمع الضمير. وآدم وحواء بريتان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة، وعبد شمس وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم. ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم آل قصي ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد.

فيل لقصي ما زوى الله عنكم به من فخار لا يبارى وسودد

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي، وجعل من جنسها زوجها عريية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلاً له شركاء فيما آتاهما، حيث سما أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار، وجعل الضمير في "يشركون" لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرئ شركاء، أي ذوي شرك وهم الشركاء، أو أحدثا لله شركاً في الولد. "أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون".

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله: "وهم يخلقون" بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة. والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله، وهم يخلقون؟ لأن الله عز وجل خالقهم. أو لا يقدر على اختلاق شيء، لأنه جماد، وهم يخلقون؟ لأن عبدكم يختلفونهم، فهم أعجز من عبدكم "لا يستطيعون لهم" لعبدكم "نصراً ولا أنفسهم ينصرون" فيدفعون عنها ما يعترئها من الحوادث، بل عبدكم هم الذي يدفعون عنهم ويحامون عليهم وإن تدعوهم وإن تدعوا هذه الأصنام "إلى الهدى" أي إلى ما هو هدى ورشاد، وإلى أن يهدوكم. والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ويدل عليه قوله: "فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين" "سواء عليهم أدعوتهم أم صمتتم عن دعائهم، في أنه لا فلاح معهم. فإن قلت: هلا قيل: أم صمتتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم، كقوله: "وإذا مس الناس ضر" الروم: 33، فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، ف قيل: إن دعوتهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

"إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون". "إن الذين تدعون من دون الله أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله "عباد أمثالكم" وقوله: "عباد أمثالكم" استهزاء بهم، أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم. ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: "ألهم أرجل يمشون بها" وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم. وقرأ سعيد بن جبير:

إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم بتخفيف إن ونصب عباداً أمثالكم، والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية "قل ادعوا شركاءكم" واستعينوا بهم في عداوتي "ثم كيدون" جميعاً أنتم وشركاؤكم "فلا تنظرون" فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: "إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء" هود: 54، قال لهم: "إني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون" هود: 55.

"إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون".

"إن ولي الله" أي نصري عليكم الله "الذي نزل الكتاب" الذي أوحى إلي كتابه وأعزني برسالته "وهو يتولى الصالحين" ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم.

"وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون".

"ينظرون إليك" يشبهون الناظرين إليك، لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حقيقته إلى الشيء ينظر إليه "وهم لا يبصرون" وهم لا يدركون المرئي.

"خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين".

"العفو" ضد الجهد: أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تدافهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا، كقوله صلى الله عليه وسلم: "يسروا ولا تعسروا" قال:

خذني العفو مني تستديمي مودتي ولا ينطقي في سورتى حين أغضب

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم، وذلك قبل نزول آية الزكاة، فلما نزلت أمر أن يأخذهم بما طوعاً أو كرهاً. والحرف: المعروف والجميل من الأفعال "وأعرض عن الجاهلين" ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغض على ما يسوؤك منهم. وقيل: لما نزلت الآية سأل جبريل ما هذا فقال: لا أدري حتى أسأل العالم، ثم رجع فقال: يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

"وإما يترغبك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه سميع عليم".

"وإما يترغبك من الشيطان نزع" وإما ينخسك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به "فاستعد بالله" ولا تطعه. الترغ والنسخ: الغرز والنخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل الترغ نازعاً، كما قيل جد جده. وروي: أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يا رب والغضب فتزل "وإما يترغبك من الشيطان نزع" ويجوز أن يراد بترغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبي بكر رضي الله عنه: إن لي شيطاناً يعتريني.

"إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدوهم في الغي ثم لا يقصرون".
"طائف من الشيطان" لمة منه مصدر، من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً قال:

أنى ألم بك الخيال يطيف

أو هو تخفيف طيف فيعل، من طاف يطيف كلين أو من طاف يطرف كهين. وقرئ: طائف، وهو يحتمل الأمرين أيضاً. وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأن المتقين هذه عادتهم: إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان والمأم بوسوسته "تذكروا" ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا السداد ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم. وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين يمدوهم في الغي، أي يكونون مدداً لهم فيه ويعضدوهم. وقرئ: يمدوهم من الإمداد. ويمادوهم، بمعنى يعاونوهم "ثم لا يقصرون" ثم لا يمسون عن إخوانهم حتى يصروا ولا يرجعوا. قوله: "إخوانهم يمدوهم" كقوله:

قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها

في أن الخبر جار على ما هو له. ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين، فيكون الخبر جارياً على ما هو له، والأول أوجه، لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا. فإن قلت: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟ قلت: المراد به الجنس، كقوله: "أولياؤهم الطاغوت" البقرة: 257،
"وإذا لم تأتئهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما اتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون".

اجتبي الشيء، بمعنى جباه لنفسه: أي جمعه، كقولك: اجتمعوا، أو جبي إليه فاجتباها: أي أخذه، كقولك: جليت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى "لولا اجتبيتها" هلا اجتمعتها، افتعالاً من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون: "إن هذا إلا إفك مفترى" سبأ: 43، أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة؟ "قل إنما اتبع ما يوحى إلي من ربي" ولست بمفتعل للآيات، أو لست بمقترح لها "هذا بصائر" هذا القرآن بصائر "من ربكم" أي حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

"وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون".

"وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا" ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة. وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فتزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن. وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وقيل: معنى فاستمعوا له: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

"واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصا ولا تكن من الغافلين".

"واذكر ربك في نفسك" هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك "تضرعاً وخيفة" متضرعاً وخائفاً "ودون الجهر" ومتكلماً كلاماً دون الجهر، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكير "بالغدو والأصا" لفضل هذين الوقتين. أو أراد الدوام. ومعنى بالغدو: بأوقات الغدو، وهي

الغدوات. وقرئ: والإيصال، من أصل إذا دخل في الأصيل، كأقصر وأعتم وهو مطابق للغدو "ولا تكن من الغافلين" من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.

"إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون".

"إن الذين عند ربك" هم الملائكة صلوات الله عليهم. ومعنى "عند" دنو الزلفة، والقرب من رحمة الله تعالى وفضله، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته "وله يسجدون" ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً، وكان آدم شقيقاً له يوم القيامة".

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

سورة الأنفال

مدنية وهي خمس وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله ورسوله فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم".

النفل: الغنيمة، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. قال لبيد:

إن تقوى ربنا خير نفل

والنفل ما ينفله الغازي، أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم، وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله سلبه. أو قال لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلکم نصفه أو ربعه. ولا يخمس النفل، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه. وعند الشافعي رحمه الله في أحد قوليهِ: لا يلزم. ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر، وفي قسمتها، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم، ولمن الحكم في قسمتها؟ أَللمهاجرين أم للأَنْصار؟ أم لهم جميعاً؟ فقل له: قل لهم: هي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم. وقيل: شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله، فتسارع شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، فلما يسر الله لهم الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فقال الشبان: نحن المقاتلون، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداءً لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمتم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه

وسلم: المغنم قليل والناس كثير: وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك. فترلت. وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني، فجتت به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقلت: إن الله قد شفى صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف فقال: ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القَبْض فطرحته وبى ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلمي، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد أنزلت سورة الأنفال، فقال: يا سعد، إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذ. وعن عبادة بن الصامت:

نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فترعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين. وقرأ ابن محيصن: يسألونك عن النفل بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام، وإدغام نون عن في اللام: وقرأ ابن مسعود: يسألونك الأنفال أي يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال. فإن قلت: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله: "قل الأنفال لله ورسوله" قلت: معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد، والمراد: أن الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يواسي المقاتلة المشروط لهم النفل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات،

فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من النحاب والتصافي "فاتقوا الله" في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متحدين متآخين في الله "وأصلحوا ذات بينكم" وتأسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم. وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقساموا غنائمكم بالعدل، فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض. فإن قلت: ما حقيقة قوله: "ذات بينكم" قلت: أحوال بينكم، يعني ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال إلفة ومحبة واتفاق، كقوله: "بذات الصدور" آل عمران: 199، وهي مضمراتها. لما كانت الأحوال ملازمة للبين قيل لها: ذات البين، كقولهم: اسقني ذا إنائك،

يريدون ما في الإناء من الشراب. وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها. ومعنى قوله: "إن كنتم مؤمنين" إن كنتم كاملي الإيمان. واللام في قوله: "إنما المؤمنون" إشارة إليهم. أي إنما الكاملو الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله: "أولئك هم المؤمنون حقاً". "وجلّت قلوبهم" فزعت. وعن أم الدرداء: الوجل في القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعرير؟ قال: بلى، قالت: فادع الله فإن الدعاء يذهب. يعني فزعت لذكره استعظماً له، وقهياً من جلاله وعزة سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه، وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله: "ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" الزمر: 23، لأن ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه. وقيل: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهجم بمعية فيقال له: اتق الله فيترع. وقرئ وجلت، بالفتح، وهي لغة نحو وبقي في بقب، وفي قراءة عبد الله: فَرَقَتْ "زادهم إيماناً" ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة في نفس. لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه، وقد حمل على زيادة العمل. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"الإيمان سبع وسبعون شعبة، أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله. وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من

الإيمان". وعن عمر بن العزيز رضي الله عنه: إن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان "وعلى ربه يتوكلون" ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربه، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه. جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة "حقاً" صفة للمصدر المحذوف، أي أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً، أو هو مصدر مؤكد للجمله التي هي "أولئك هم المؤمنون" كقولك: هو عبد الله حقاً، أي حق ذلك حقاً. وعن الحسن أن رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله: "إنما المؤمنون" فوالله لا أدري أمؤمن أنا أم لا. وعن الثوري: من زعم أنه مؤمن بالله حقاً، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة، فقد آمن بنصف الآية. وهذا إلزام منه، يعني كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً، فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً، وبهذا تعلق من يستثنى في الإيمان. وكان أبو حنيفة رضي الله عنه ممن لا يستثنى فيه. وحكي عنه أنه قال لقتادة: لم تستثنى في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله: "والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين" الشعراء: 82، فقال له: هلا اقتديت به في قوله: "أولم تؤمن قال بلى" البقرة: 260، "درجات" شرف وكرامة وعلو منزلة "ومغفرة" وتجاوز لسيئاتهم "ورزق كريم" نعيم الجنة. يعني لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم، وهذا معنى الثواب.

"كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون".

"كما أخرجك ربك" فيه وجهان أحدهما. أن يرتفع محل الكاف على أنه خير مبتدأ محذوف تقديره. هذه الحال كحال إخراجك. يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب. والثاني: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: "الأنفال لله والرسول" الأنفال: 1، أي الأنفال استقرت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون. و"من بيتك" يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها، لأنها مهاجرة ومسكنه، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه "بالحق" أي إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه "وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون" في موضع الحال، أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك:

أن غير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة معها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، غيركم أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأيت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها: إني رأيت عجباً رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة. فحدث بها العباس فقال أبو جهل: ما يرضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساءهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير. في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير، فقليل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت، فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمر، ونقيم القينات والمغازف ببدر، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإن محمداً لم يصب العير، وإنا قد

أعضضناه، فمضى بهم إلى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة فترل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد؟ إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير، وإما قريشاً، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال: ما تقولون؟ إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم ردد عليهم فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو، فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر أمرك فامض. فوالله لو سرت إلى عدن أبين. ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال المقداد بن عمرو يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فإنا معك حيثما أحبيت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ما دامت عين منا تطرف، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار، لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذماننا، فمما منع منه آباءنا ونساءنا، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليهم نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وروي: أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناده العباس وهو في وثاقه: لا يصلح فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لم؟ قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين. وقد أعطاك ما وعدك، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: "إن فريقاً من المؤمنون لكارهون". "يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون".

والحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلقي النفير، لإيثارهم عليه تلقي العير "بعدما تبين" بعد إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون. وجادلهم: قولهم ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد ونأهب؟ وذلك لكراحتهم القتال. ثم شبه حالهم في فرط فرعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، بحال من يعتل إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن، وهو مشاهد لأسبابه، ناظر إليها لا يشك فيها. وقيل: كان خوفهم لقلة العدد، وأنهم كانوا رجالاً. وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان. "وإذ يعدهم الله إحدى الطائفتين أنهما لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين".

"وإذ" منصوب بإضمار اذكر. و"إنها لكم" بدل من إحدى الطائفتين. والطائفتان: العير والنفير. "غير ذات"

الشوكة" العير، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم: والشوكة: الحدة مستعارة من واحدة الشوك. ويقال: شوكالقنا لشباها. ومنها قولهم: شاتك السلاح، أي تتمنون أن تكون لكم العير، لأنها الطائفة التي لا حدة لها ولا شدة، ولا تريدون الطائفة الأخرى "أن يحق الحق" أن يشته ويعليه "بكلماته" بآياته المتزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر. والدابر الآخر: فاعل مر دبر. إذا أدبر. ومنه دابرة الطائر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم والله عز وجل يريد معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين، ونصرة الحق، وعلو الكلمة، والفوز في الدارين. وشتان ما بين المرادين. ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلبتكم، وأعزكم وأذهبهم، وحصل لكم ما لا تعارض أدناه العير وما فيها. وقرئ: بكلمته على التوحيد.

"ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون".

فإن قلت: بم يتعلق قوله: "ليحق الحق"؟ قلت: بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك، ما فعله إلا هما. وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه. فإن قلت: أليس هذا تكريراً؟ قلت: لا، لأن المعنيين متباينان، وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض. ويجب أن يقدر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى: وقيل: قد تعلق بيقطع.

"إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أي ممدكم بألف من الملائكة مردفين".

فإن قلت بم يتعلق "إذ تستغيثون"؟ قلت: هو يدل من "إذ يمدكم" الأنفال: 7، وقيل بقوله: "ليحق الحق ويبطل الباطل" واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال، طفقوا يدعون الله ويقولون: أي ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا. وعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك" "أي ممدكم" أصله بأي ممدكم، فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله. وعن أبي عمرو أنه قرأ: إني ممدكم بالكسر، على إرادة القول، أو على إجراء استجاب مجرى "قال" لأن الاستجابة من القول. فإن قلت: هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟ قلت: اختلف فيه، فقيل: نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب في صور الرجال، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخوا أذناهما بين أكتافهم. فقالت وقيل: قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين. وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا شرى شخصاً؟ قال: من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم. وروي:

أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشد في أثر رجل من المشركين: إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه، فظفر إلى المشرك قد خر مستلقياً وشق وجهه، فحدث الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: صدقت ذاك من مدد

السماء.

وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي، قيل: لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويشبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلها، فإن جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة. وقرئ مردفين بكسر الدال وفتحها، من قولك: ردفة إذا تبعه. ومنه قوله تعالى: "ردف لكم بعض الذي تستعجلون" النمل: 72، بمعنى ردفكم. وأردفته إياه: إذا أتبعته. ويقال: أردفته، كقولك أتبعته، إذا جئت بعده، فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى متبعين، أو متبعين، فإن كان بمعنى متبعين فلا يخلو من أن يكون بمعنى: متبعين بعضهم بعضاً، أو متبعين بعضهم لبعض، أو بمعنى: متبعين إياهم المؤمنين، أي يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقاتهم، ليكونوا على أعينهم وحفظهم. أو بمعنى متبعين أنفسهم ملائكة آخرين، أو متبعين غيرهم من الملائكة. ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران: "بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين" آل عمران: 124، "بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" آل عمران: 125، ومن قرأ: مردفين بالفتح فهو بمعنى متبعين أو متبعين. وقرئ مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال: وأصله مرتدفين، أي مترادفين أو متبعين، من ارتدفته، فأدغمت تاء الافتعال في الدال، فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل، أو على إتباع الدال. وبالضم على إتباع الميم. وعن السدي: بآلاف من الملائكة. على الجمع ليوافق ما في سورة آل عمران. فإن قلت: فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المرتدفين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين، والمردفين بأردافهم غيرهم؟ قلت: بأن المراد بالآلف من قاتل منهم. أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم. "وما جعله الله إلا بشري ولنطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله وإن الله عزيز حكيم". فإن قلت: إلام يرجع الضمير في "ما جعله" قلت: إلى قوله: "إني ممدكم" الأنفال: 9، لأن المعنى: فاستجاب لكم بإمدادكم. فإن قلت: ففيم قرأ بالكسر؟ قلت: إلى قوله: "إني ممدكم" لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول. ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذي يدل عليه ممدكم "إلا بشري" إلا بشارة لكم بالنصر، كالكسبة لبني إسرائيل، يعني أنكم استغثتم وتضرعتم لقلبتكم وذللتكم، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر، وتسكيناً منكم، وربطاً على قلوبكم "وما النصر إلا من عند الله" يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة. أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله. "إذ يغشاكم النعاس أمنة منه ويتزل عليكم من السماء ماء ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به أقدامكم".

"إذ يغشاكم" بدل ثان من "إذ يعدكم" الأنفال: 7، أو منصوب بالنصر، أو بما في أمن عند الله، الأنفال: 10، من معنى الفعل، أو بما جعله الله، أو بإضمار اذكر. وقرئ يغشاكم بالتخفيف والتشديد ونصب النعاس والضمير لله عز وجل. و "أمنة" مفعول له. فإن قلت: أما وجب أن يكون فاعل الفعل المعلن والعلة واحداً؟ قلت: بلى، ولكن لما كان معنى يغشاكم النعاس. تنعسون، انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم. والمعنى: إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنة،

أي لأمنكم، و "منه" صفة لها: أي أمانة حاصلة لكم من الله عزّ وجل. فإن قلت: فعلى غير هذه القراءة قلت: يجوز أن تكون الأمانة بمعنى الإيمان، أي ينعسكم إيماناً منه. أو على يغشاكم النعاس فتنعسون أماناً فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب على أن الأمانة للنعاس الذي هو فاعل يغشاكم؟ أي يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازي وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة، أو على أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم؟ وإنما غشاكم أمانة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل؟ قلت: لا تبعد فصاحة القرآن عن احتماله، وله فيه نظائر، وقد ألم به من قال:

يهاب النوم أن يغشى عيوناً تهابك فهو نفار شرود

وقرئ أمانة بسكون الميم. ونظير أمن أمانة حيي حياة ونحو أمن أمانة رحم رحمة والمعنى: أن ما كان بهم من الخوف كأن يمنعهم من النوم، فلما طمأن الله قلوبهم وأمنهم رقدوا وعن ابن عباس رضي الله عنه: النعاس في القتال: أمانة من الله، وفي الصلاة: وسوسة من الشيطان "ويتر" قرئ بالتخفيف والتثقل. وقرأ الشعبي ما ليظهركم به قال ابن جني: ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره، فكأنه قال: ما للظهور. و "جزر الشيطان" وسوسته إليهم، وتخويفه إياهم من العطش. وقيل: الجنابة، لأنها من تخييله. وقرئ رجس الشيطان وذلك أن إبليس تمثل لهم، وكان المشركين قد سبقوهم إلى الماء ونزل المسلمون في كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم، فقال لهم: أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة، وقد عطشتم، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة، فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا، فأنزل الله عز وجل المطر، فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحياض على عدوة الوادي، وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس. والضمير في "به" للماء. ويجوز أن يكون للربط، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجراءة ثبتت القدم في مواطن القتال.

"إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان".

"إذ يوحى" يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً من "إذ يعدكم" الأنفال: 7، وأن ينتصب بـ"إني معكم" مفعول يوحى وقرئ إني بالكسر على إرادة القول، أو على إجراء يوحى مجرى يقول، كقوله: "إني مدكم" الأنفال: 9، والمعنى: إني معينكم على التثبيت فثبتوهم. وقوله: "سألقي... فاضربوا" يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: "إني معكم فثبتوا" ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. واجتماعهما غاية النصر. ويجوز أن يكون غير تفسير، وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا بباهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال، وأن يظهر ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة. وقيل: كان الملك يتشبه بالرجل الذي يعرفون وجهه فيأتي فيقول: إني سمعت المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، ويمشي بين الصفين فيقول: أبشروا، فإن الله ناصركم

لأنكم تعبدونه. وهؤلاء لا يعبدونه. وقرئ الرعب بالثقل "فوق الأعناق" أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح، لأنها مفاصل، فكان إيقاع الضرب فيها حزاً وتطهيراً للرؤوس. وقيل: أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق، يعني ضرب الهام. قال:

وأضرب هامة البطل المشيح

غشيته وهو في جأواء باسلة عضباً أصاب سواء الرأس فانفلقا

والبنان: الأصابع، يريد الأطراف. والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوي، لأن الضرب وإما واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً. ويجوز أن يكون قوله "سألقي" إلى قوله: "كل بنان" عقيب قوله: "فثبتوا الذين آمنوا" تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به، كأنه قال: قولوا لهم قولي: "سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب" أو كأنهم قالوا: كيف نثبتهم؟ فقل: قولوا لهم قولي: "سألقي" فالضاربون على هذا هم المؤمنون. "ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب، ذلكم فذروه وأن للكافرين عذاب النار".

"ذلك" إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل، ومحله الرفع على الابتداء و "بأنهم" خبره، أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاققتهم. والمشاقة: مشتقة من الشق، لأن كلا المتعادين في شق خلاف شق صاحبه، وسئلت في المنام عن اشتقاق المعادة فقلت: لأن هذا في عدوة وذاك في عدوة، كما قيل: المخاصمة والمشاقة، لأن هذا في خصم أي في جانب، وذاك في خصم، وهذا في شق، وذاك في شق. والكاف في "ذلك" لخطاب الرسول عليه الصلاة والسلام، أو لخطاب كل واحد، وفي "ذلكم" للكفرة، على طريقة الالتفات. ومحل "ذلكم" الرفع على ذلكم العقاب، أو العقاب ذلكم "فذوقوه" ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم ذلكم فذوقوه، كقولك: زيداً فاضربه "وإن للكافرين" عطف على ذلكم في وجهيه، أو نصب على أن الواو بمعنى مع. والمعنى: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وقرأ الحسن وإن للكافرين بالكسر. "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن تولوهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير".

"زحفاً" حال من الذين كفروا. والزحف: الجيش الدهم الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف، أي يدب ديباً، من زحف الصبي إذا دلت على آسته قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر والجمع زحوف والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفروا، فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، أو حال من الفريقين. أي إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين، وهم زحف من الزحوف اثني عشر ألفاً، وتقدمه هي لهم عن الفرار يومئذ. وفي قوله: "ومن يولهم يومئذ أماراً عليه" إلا متحرفاً لقتال هو الكر بعد الفر، يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها "أو متحيزاً" أو منحازاً "إلى فئة" إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وعن ابن عمر رضي الله عنه: خرجت

سرية وأنا فيهم ففروا فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت، فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون، فقال: بل أنتم العكارون وأنا فتكم. وانهزم رجل من القادسية، فأتى المدينة إلى عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين هلك، فررت من الزحف، فقال عمر رضي الله عنه: أنا فتك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر. فإن قلت: بم انتصب "إلا محترفاً"؟ قلت: على الحال، وإلا لغو. أو على الاستثناء من المولين، أي: ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً. وقرأ الحسن دبره بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل، لأنه من حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز.

"فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنون منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم".

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا أقبلوا على التفاخر، فكان القائل يقول: قتلت وأسرت، ولما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هذه قريش قد جاءت بخيالاتها وفخرها يكذبون رسلك، اللهم إني أسألك ما وعدتني، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، قال: لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه: أعطني قبضة من حصاء الوادي، فرمى بها في وجوههم وقال: شأهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلوهم ويأسروهم، فقليل لهم "فلم تقتلوهم". والفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم "ولكن الله قتلهم" لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر وقرى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع "وما رميت" أنت يا محمد "إذ رميت ولكن الله رمى" يعني أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكأن الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلاً. وقرئ "ولكن الله قتلهم" ولكن الله رمى، بتخفيف لكن ورفع ما بعده "وليبيلي المؤمنين" وليعطيهم "بلاء حسناً" عطاء جميلاً. قال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلى

والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعله إلا لذلك "إن الله سميع" "لدعائهم" عليهم "عليهم" بأحوالهم. "ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين".

"ذلكم" إشارة إلى البلاء الحسن، ومحله الرفع: أي الغرض ذلكم وأن الله موهن "معطوف على ذلكم. يعني: أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين. وقرئ: موهن بالتشديد. وقرئ على الإضافة، وعلى الأصل الذي هو التنوين والإعمال.

"إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين".

"إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح" خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا. وروي: أنهم قالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفتنين، وأكرم الحزبين. وروي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم، أي فأهلكه. وقيل: "وإن تستفتحوا" خطاب للمؤمنين وإن تنتهوا خطاب للكافرين، يعني وإن تنتهوا عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم "فهو خير لكم" وأسلم "وإن تعودوا" خابته "نعد" لنصرتهم عليكم وإن الله قرئ بالفتح على: ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك وقرئ بالكسر، وهذه أوجه. ويعضدها قراءة ابن مسعود والله مع المؤمنين وقرئ ولن يغني عنكم بالياء للفصل. "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون".

"ولا تولوا" قرئ بطرح إحدى التائين وإدغامها، والضمير في "عنه" لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن المعنى: وأطيعوا رسول الله كقوله: الله ورسوله أحق أن يرضوه، ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد "من يطع الرسول فقد أطاع الله" النساء: 8، فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما، كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان. ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة، أي: ولا تولوا عن هذا الأمر وامتناله وأنتم تسمعون. أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه "وانتم تسمعون" أي تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة "ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا" أي ادعوا السماع "وهم لا يسمعون" لأنهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين. والمعنى: أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها، كان تصديقكم كلاً تصديق، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن. ثم قال: "إن شر الدواب" أي إن شر من يدب على وجه الأرض. أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شرها "ولو علم الله" في هؤلاء الصم البكم "خيراً" أي انتفاعاً باللفظ "لأسمعهم" للطف بهم حتى يسمعوهم المصدقين، ثم قال: "ولو أسمعهم لتولوا" عنه. يعني: ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف، فلذلك منعهم أطفاه. أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا، وقيل: هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم إلا رجلاً: مصعب بن عمير، وسويد بن حرملة: كانوا يقولون: نحن صم بكم غمي عما جاء به محمد، لا نسمعه ولا نجيبه، فقتلوا جميعاً بأحد، وكانوا أصحاب اللواء. وعن ابن جريج: هم المنافقون. وعن الحسن: أهل الكتاب. "يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله ورسوله إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون".

"إِذَا دَعَاكُمْ" وحد الضمير كما وحده فيما قبله، لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، والمراد بالاستجابة: الطاعة والامتثال. وبالذعوة: البعث والتحريض. وروى أبو هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على باب أبي بن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء

فقال: ما منعك عن إجابتي؟ قال: كنت أصلي. قال: ألم تخبر فيما أوحى إلي "استجيبوا لله وللرسول" قال: لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك. وفيه قولان، أحدهما: إن هذا مما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم. والثاني أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير، وإذا وقع مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته "لما يحييكم" من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة، كما أن الجهل موت. ولبعضهم:

لا تعجبين الجهول حلتته

فذاك ميت وثوبه كفن

وقيل مجاهدة الكفار، لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم، كقوله: "ولكم في القصص حياة" البقرة: 179، وقيل للشهادة، لقوله: "بل أحياء عند ربهم" آل عمران: 169، "وعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه" يعني أنه يميتته فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله وردده سليماً كما يريد الله، فاستثمروا هذه الفرصة، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله "واعلموا أنكم إليه تحشرون" فيثيكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة. وقيل: معناه إن الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه، ويغير نياته ومقاصده، ويبدله بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً، وبالنسيان ذكراً، وما أشبه ذلك مما هو جائر على الله تعالى. فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب من أفعال القلوب فلا، والحجرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر، وبينه وبين الكفر إذا آمن، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقيل معناه: أنه يطلع على كل ما يخطر المرء بباليه، لا يخفي عليه شيء من ضمائره، فكأنه بينه وبين قلبه. وقرئ: "بين المرء" بتشديد الراء. ووجهه أنه قد حذف الهمزة وألقى حركتها على الراء، كالحب، ثم نوى الوقف على لغة من يقول: مررت بعمر. "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب".

"فتنة" ذنباً. قيل هو إقرار المنكر بين أظهرهم. وقيل: افتراق الكلمة. وقيل: "فتنة" عذاباً. وقوله: "لا تصيبن" لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر. أو نهيًا بعد أمر. أو صفة لفتنة، فإذا كان جواباً، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وهذا كما يحكى أن علماء بني إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيراً فعمهم الله بالعذاب، وإذا كانت نهيًا بعد أمر فكأنه قيل: واحذروا ذنباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول، كأنه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيبن، ونظيره قوله:

حتى إذا جن الظلام واختلط

جاءوا بمذق هل رأيت الذنب قط

أي بمذق مقول فيه هذا القول، لأنه سمار فيه لون الورق التي هي لون الذنب. ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود: "لتصيبن" على جواب القسم الخدوف. وعن الحسن: نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة. قال الزبير: نزلت فينا وقرأناها زماناً، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها. وعن السدي: نزلت في أهل بدر فاقتتلوا يوم الجمل. وروي: أن الزبير كان يساير النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، إذ أقبل علي رضي الله عنه، فضحك إليه الزبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف حبك لعلي؟ فقال يا رسول الله، بأي أنت وأمي، إني

أحبه كحبي لوالدي أو أشد حباً. قال: فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله، فإن قلت: كيف جاز أن يدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؟ قلت: لأن فيه معنى النهي، إذا قلت: أنزل عن الدابة لا تطرحك، فلذلك جاز لا تطرحك ولا تصيب ولا يحطمنكم. فإن قلت: فما معنى من في قوله: "الذين ظلموا منكم" قلت: التبعض على الوجه الأول، والتبيين على الثاني، لأن المعنى: لا تصيبكم خاصة على ظلمكم؟ لأن الظلم أفصح منكم من سائر الناس. "واذكروا إذ كنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون".

"إذ أنتم" نصبه على أنه مفعول به مذكور لا ظرف: أي اذكروا وقت كونكم أقلّة أذلة مستضعفين "في الأرض" أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش "تخافون أن يتخطفكم الناس" لأن الناس كانوا جميعاً لهم أعداء منافين مضادين "فآواكم" إلى المدينة "وأيدكم بنصره" بمظاهرة الأنصار وإمداد الملائكة يوم بدر "ورزقكم من الطيبات" من الغنائم "لعلكم تشكرون" إرادة أن تشكروا هذه النعم وعن قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس، وأشقاهم عيشاً، وأعراهم جلدًا، وأبينهم ضلالاً، يؤكلون ولا يأكلون، فمكن الله لهم في البلاد، ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكاً.

"يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون". معنى الخون: النقص، كما أن معنى الوفاء التمام. ومنه: تخونه، إذا تنقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد استعير فقيلاً: خان الدلو الكرب، وخان المشتار السبب لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يف له. ومنه قوله تعالى: "وتخونوا أماناتكم" والمعنى لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه، ورسوله بأن لا تستنوا به. و"أماناتكم" فيما بينكم بأن لا تحفظوها "وأنتم تعلمون" تبعة ذلك ووباله، وقيل وأنتم تعلمون أنكم تخونون، يعني أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو. وقيل: وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن. وروي:

أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا له: ما ترى، هل نزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه إنه الذبح، قال أبو لبابة فما زالت قدماي حتى علمت أي قد خنت الله ورسوله فترلت، فشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، فقيلاً له: قد تيب عليك فحل نفسك. فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي. فقال صلى الله عليه وسلم: يجزيك الثلث أن تتصدق به. وعن المغيرة: نزلت في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقيل: "أماناتكم" ما ائتمنكم الله عليه من فرائضه وحدوده. فإن قلت: "وتخونوا" جزم هو أم نصب؟ قلت: يحتمل أن يكون جزماً داخلياً في حكم النهي وأن يكون نصباً بإضمار أن كقوله: "وتكتموا الحق" البقرة: 42، وقرأ مجاهد:

"وتخونوا أمانتكم" على التوحيد.

"واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر الحسنين".

جعل الأموال والأولاد فتنة، لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب. أو محنة من الله ليلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده و"الله عنده أجر عظيم" فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤدي إليه هممكم، وترهدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد، حتى تورطوا أنفسكم من أجلهما، كقوله: "المال والبنون" الآية الكهف: 46، وقيل: هي من جملة ما نزل في أبي لبابة وما فرط منه لأجل ماله وولده.

"يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم". "فرقاناً" نصراً، لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزيه، والإسلام بإعزاز أهله. ومنه قوله تعالى: "يوم الفرقان" الأنفال: 41، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض، من قولهم: بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان: أي طلع الفجر. أو مخرجاً من الشبهات وتوفيقاً وشرحاً للصدور. أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان، وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة.

"وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين".

ما فتح الله عليه، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك وذلك

أن قريشاً لما أسلمت الأنصار وبايعوه فرقوا أن يتفاهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوى متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من قحاة مكة فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البخري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بنس الرأي؟ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخجوه من بين أظهركم؟ فلا يضركم ما صنع واسترحم. فقال إبليس: بنس الرأي يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا. فقال الشيخ لعنه الله: صدق هذا الفتى، هو أجردكم رأياً. ففارقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله لحيد وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر علياً رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: اتشح ببردي، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه، فأبصروا علياً فبهتوا وخيب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم "ليثبتوك" ليسجنوك أو يوثقوك أو يشنوك بالضرب والجرح، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجعاً. وقرئ: ليثبتوك، بالتشديد. وقرأ النخعي: ليثبتوك ومن البيات. وعن ابن عباس: ليقيدوك، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق "ويمكرون" ويخفون المكائد له "ويمكر الله" ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة "والله خير الماكرين" أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً، أو لأنه لا يزل إلا ما هو حق وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب.

"وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا لو سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب أليم، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون".

"لو نشاء لقلنا مثل هذا" نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة، فإنهم لم يتوانوا في مشيتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المعلي دونه، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة، وأن يمتنهم واحد، فيتعللوا بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس، من حرصهم على أن يقهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتالكهم على أن يغمروه. وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبراً، حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأسفنديار فرعم أن هذا مثل ذاك، وأنه من جملة تلك الأساطير، وهو القائل: "إن كان هذا هو الحق" وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا، إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر. ومراده نفي كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق، كتعليقه باحتمال في قولك: إن كان الباطل حقاً، فأمطر علينا حجارة. وقوله: "هو الحق" تمكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: هذا هو الحق. وقرأ الأعمش "هُوَ الْحَقُّ" بالرفع، على أن هو مبتدأ غير فصل. وهو في القراءة الأولى فصل. ويقال: أمطرت السماء، كقولك أنجمت وأسبلت ومطرت، كقولك: هتنت وهتلت، وقد كثر الأمطار في معنى العذاب. فإن قلت: ما فائدة قوله: "من السماء"؟ والأمطار لا تكون إلا منها. قلت: كأنه يريد أن يقال: فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب، فوضع "حجارة من السماء" موضع السجيل، كما تقول: صب عليه مسرودة من حديد، تريد درعاً "بعذاب أليم" أي بنوع آخر من جنس العذاب الأليم، يعني أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه. وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال: أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق "إن كان هذا الحق من عندك فأمطر علينا حجارة" ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له. اللام لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة، لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم وفيه إشعار بأنهم مرصودون بالعذاب إذا هاجر عنهم. والدليل على هذا الإشعار قوله: "وما لهم ألا يعذبهم الله" وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب، كأنه قال: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتهم، وما لهم أن لا يعذبهم "وهم يستغفرون" في موضع الحال. ومعناه نفي الاستغفار عنهم: أي ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم، كقوله: "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" أهود: 117، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون، ولا يتوقع ذلك منهم. وقيل معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين، "وما لهم أن لا يعذبهم الله" وأي شيء لهم

في انتفاء العذاب عنهم، يعني: لا حظ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة. وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، وإخراجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين من الصد، وكانوا يقولون: نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء "وما كانوا أولياءه" وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاية أمره وأربابه "إن أولياؤه إلا المتقون" من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام "ولكن أكثرهم لا يعلمون" كأنه استغنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة. أو أراد بالأكثر: الجميع، كما يراد بالقلة: العدم.

"ما كان صلاحهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون".

المكاء: فعال بوزن الثغاء والرغاء، من مكأ يمكو إذا صفر: ومنه المكاء، كأنه سمي بذلك لكثرة مكائه. وأصله الصفة، نحو الوضاء والفراء. وقرئ: مكأ بالقصر. ونظيرهما البكي والبكاء. والتصدية: التصفيق، تفعله من الصدى أو من صد يصد، "إذا قومك منه يصدون" الزخرف: 57، وقرأ الأعمش: "وما كان صلاحهم" بالنصب على تقديم خبر كان على اسمه، فإن قلت: ما وجه هذا الكلام؟ قلت: هو نحو من قوله:

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أداهم سوداً أو محدرجة سمرأ

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء، ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة: الرجال والنساء، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته يخلطون عليه "فذوقوا" عذاب القتل والأسر يوم بدر، بسبب كفرهم وأفعالهم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

"إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون، ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون".

قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر. وقيل: قالوا لكل من كان له تجارة في العير: أعينوا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه ثأرنا بما أصيب منا ببدر. وقيل: نزلت في أبي سفیان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً "ليصدوا عن سبيل الله" أي كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله، وإن لم يكن عندهم كذلك "ثم تكون عليهم حسرة" أي تكون عاقبة إنفاقها نداماً وحسرة، فكان ذاتها تصير نداماً وتقلب حسرة "ثم يغلبون" آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجلاً قبل ذلك فيرجعون طلقاء "كتب الله لأغلبن أنا ورسلي" المجادلة: 21، "والذين كفروا" والكافرون منهم "إلى جهنم يحشرون" لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه "ليميز الله الخبيث من الطيب" الفريق الخبيث من الكفار "من" الفريق "الطيب" من المؤمنين،

فيجعل الفريق "الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً" عبارة عن الجمع والضم، حتى يتراكبوا، كقوله تعالى: "كادوا يكونون عليه لبدا" يعني لفرط ازدحامهم "أولئك" إشارة إلى الفريق الخبيث، وقيل: ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كأبي بكر وعثمان في نصرته "فيركمه" فيجعله في جهنم في جملة ما يعذبون به، كقوله: "فتكوى بها جباههم وجنوبهم" الآية التوبة: 35، واللام على هذا متعلقة بقوله: ثم تكون عليهم حسرة" وعلى الأول يبحشرون، وأولئك: إشارة إلى الذين كفروا. وقرئ: ليميز على التخفيف.

"قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين".
"قل للذين كفروا" من أي سفيان وأصحابه. أي قل لأجلهم هذا القول وهو "إن ينتهوا" ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل: إن تنتهوا يغفر لكم، وهي قراءة ابن مسعود. ونحوه: "وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه" الأحقاف: 11، خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه، أي إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الإسلام "يغفر لهم ما قد سلف" لهم من العداوة "وإن تعودوا" لقتاله: "فَقَدْ مَضَتْ سُنْتُ الأولين" منهم الذين حاق بهم مكربهم يوم بدر. أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم فدمروا، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا. وقيل: معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي، وخرجوا منها كما تنسل الشعرة من العجين. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام. الإسلام يجب ما قبله وقالوا: الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط.

وأما الذمي فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقي عليه حقوق الآدميين. وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردة. وقبلها، وفسر "وإن يعودوا" بالارتداد. وقرئ يغفر لهم على أن الضمير لله عز وجل.

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير".

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة" إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط "ويكون الدين كله لله" ويضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده "فإن انتهوا" عن الكفر وأسلموا "فإن الله بما يعملون بصير" يشيهم على توبتهم وإسلامهم. وقرئ: تعملون، بالتاء، فيكون المعنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله والدعوة إلى دينه والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام "بصير" يجازيكم عليه أحسن الجزاء "وإن تولوا" ولم ينتهوا "فاعلموا أن الله مولاكم" أي ناصركم ومعينكم، فنفقوا بولايته ونصرته.

"واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير".

"أنما غنمتم" ما موصولة. و"من شيء" بيانه. قيل: من شيء حتى الخيط والمخيطة، "فأن لله" مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فحق، أو فواجب أن لله خمسة. وروى الجعفي عن أبي عمرو، فإن لله بالكسر. وتقويه قراءة النخعي: فله

خمس. والمشهورة أكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه، ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه، من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات، كقولك: ثابت واجب حق لازم، وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ خمسة بالسكون فإن قلت: كيف قسمة الخمس؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم لذوي قرباء من بني هاشم وبني المطلب، دون بني عبد شمس وبني نوفل، استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة، لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما، أنهما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة: فقال صلى الله عليه وسلم: "إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبني المطلب شيء واحد" وشبك بين أصابعه وثلاثة أسهم: لليتامى والمساكين، وابن السبيل. وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته، وكذلك سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرهم، فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنيائهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وأما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين: كعدة الغزاة من السلاح والكراع. ونحو ذلك. وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين. والباقي للفرق الثلاث. وعند مالك بن أنس رحمه الله: الأمر فيه مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم. فإن قلت: ما معنى ذكر الله عز وجل وعطف الرسول وغيره عليه قلت: يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول، لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله: "والله ورسوله أحق أن يرضوه" التوبة: 62، وأن يراد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب. وأن يراد بقوله: "فإن لله خمسة" أن من حق الخمس أن يكون متقرباً به إليه لا غير. ثم خض من وجوه القرب هذه الخمسة، تفضيلاً لها على غيرها. كقوله تعالى: "وجبريل وميكال" البقرة: 98، فعلى الاحتمال الأول مذهب الإمامين. وعلى الثاني ما قال أبو العالية: أنه يقسم على ستة أسهم: سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة. وعنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى. ثم يقسم ما بقي على خمسة. وقيل: إن سهم الله تعالى لبيت المال، وعلى الثالث مذهب مالك بن أنس. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان على ستة أسهم لله وللرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبض، فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة. وكذلك روي عن عمر ومن بعده من الخلفاء. وروي أن أبا بكر رضي الله عنه منع بني هاشم الخمس وقال: إنما لكم أن يعطى فقيركم ويزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم، فأما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غني لا يعطى من الصدقة شيئاً، ولا يتيم موسر. وعن زيد بن علي رضي الله عنه: كذلك قال، ليس لنا أن نبي منه قصوراً، ولا أن نركب منه البراذين. وقيل: الخمس كله للقراة. وعن علي رضي الله عنه أنه قيل له: إن الله تعالى قال: "واليتامى والمساكين" البقرة: 83، فقال: أيتامنا ومساكيننا. وعن الحسن رضي الله عنه في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لولي الأمر من بعده. وعن الكلبي رضي الله عنه أن الآية نزلت ببدر. وقال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال، على رأس

عشرين شهراً من الهجرة. فإن قلت: بم تعلق قوله: "إن كنتم آمنتم بالله؟" قلت: بمحذوف يدل عليه "واعلموا" المعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم الجرد، ولكنه العلم المضمن بالعمل، والطاعة لأمر الله تعالى؟ لأن العلم الجرد يستوي فيه المؤمن والكافر "وما أنزلنا" معطوف على "لله" أي إن كنتم آمنتم بالله وبالمثل: "على عبدنا" وقرئ عبدنا كقوله: "وعبد الطاغوت" المائدة: 65، بضميتين "يوم الفرقان" يوم بدر. و"الجمعان" الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ "والله على كل شيء قدير" يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والدليل على العزيز، كما فعل بكم ذلك اليوم.

"إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلقتهم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم".

"إذ" بدل من يوم الفرقان. والعدوة: شط الوادي بالكسر والضم والفتح. وقرئ بهن وبالعدوة على قلب الواو ياء، لأن بينها وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما في الصبية. والدنيا والقصوى: تأنيث الأدنى والأقصى. فإن قلت: كلتاها فعلى من بنات الواو، فلم جاءت إحداها بالياء والثانية بالواو؟ قلت: القياس هو قلب الواو ياء كالعليا. وأما القصوى فكالقول في مجيئه على الأصل. وقد جاء القصيا، إلا أن استعمال القصوى أكثر، كما كثر استعمال استصوب مع مجيء استصاب وأغيلت مع أغالت والعدوة الدنيا مما يلي المدينة، والقصوى مما يلي مكة "والركب أسفل منكم" يعني الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل. وأسفل: نصب على الظرف، معناه: مكاناً أسفل من مكانكم، وهو مرفوع الخل، لأنه خبر المبتدأ. فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين والتيات أمرهم وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله سبحانه، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أن العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل، ولا يمش فيها إلا بتعب ومشقة. وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها، تضاعف حميتهم وتشجذ في المقاتلة عنها نياهم. ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم، ليعتصموا بالذبح عن الحرم والغيرة على الحرم على بذل جهيدهم في القتال، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط همهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدتهم. وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر. ليقضي أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين بمهمة غير مينة، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص بقریش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم، حتى نفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان "ولو تواعدتم" أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه القتال،

خالف بعضهم بعضاً فبسطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد، وثبطهم ما في قلوبهم من قهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلم يتفق لكم من التلاقي في ما وفقه الله وسبب له "ليقضي" متعلق بمحذوف، أي ليقضي أمراً كان واجباً أن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. وقوله: "ليهلك" بدل منه. واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام، أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة، لا عن مخالطة شبهة، حتى لا تبقى له على الله حجة، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغز المحجلة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها. وقرئ: "ليهلك" بفتح اللام وحي، بإظهار التضعيف "لسميع عليم" يعلم كيف يدبر أموركم ويسوي مصالحكم. أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

"إذ يريكم الله في منامك قليلاً ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتهم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور".

"إذ يريكم الله" نصبه بإضمار اذكر. أو هو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بقوله "لسميع عليم" أي يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك "في منامك" في رؤياك. وذلك أن الله عز وجل أراه في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه فكان تنبيهاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. وعن الحسن: في منامك في عينك، لأنها مكان النوم، كما قيل للقطيفة: المنامة، لأنه ينام فيها. وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته "لفشلتم" لجبنتم وهبتم الإقدام "لتنازعتهم" في الرأي، وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم، وترجحت بين الثبات والفرار "ولكن الله سلم" أي عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف "إنه عليم بذات الصدور" يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

"وإذ يريكموهم إذ النقيتم في أعينكم قليلاً ويقللکم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور".

"وإذ يريكموهم" الضميران مفعولان. يعني: وإذ يصركم إياهم. و"قليلاً" نصب على الحال، وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وليعابنوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويشبوا. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أترأهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً "ويقللکم في أعينهم" حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور. فإن قلت: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قلت: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثروهم فيها بعده ليجترؤا عليهم، قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، وذلك قوله: "يروهم مثلهم رأي العين" آل عمران: 13، ولئلا يستعدوا لهم، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولاً وكثرتهم آخراً. فإن قلت: بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً؟ قلت بأن يستر الله عنهم بعضه بسائر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين. قيل لبعضهم: إن الأحول يرى الواحد اثنين، وكان بين يديه ديك واحد فقال: مالي لا أرى هذين الديكين أربعة؟ "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين".

"إذا لقيتم فئة" إذا حاربتم جماعة من الكفار، وترك أن يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار. واللقاء اسم للقتال غالب "فأثبتوا" لقاتلهم ولا تفروا "واذكروا الله كثيراً" في مواطن الحرب مستظهريين بذكره، مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم، اللهم اقطع دابرهم "لعلكم تفلحون" لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة. وفيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون همّاً، وأن تكون نفسه مجمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره. وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في أيام صفين وفي مشاهدته مع البغاة والخوارج من البلاغة والبيان ولطائف المعاني، وبلغات المواعظ والنصائح دليلاً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر "ولا تنازعوا" قرئ بتشديد التاء "فتفشلوا" منصوب بإضمار أن، أو مجزوم لدخوله في حكم النهي، وتدل على التقديرين قراءة من قرأ: وتذهب ربحكم بالتاء والنصب وقراءة من قرأ: ويذهب ربحكم بالياء والحزم والريح: الدولة، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيها بالريح وهبوبها، فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره. ومنه قوله:

إلا عبيد قعود بين أذواد

يا صاحبي ألا لحي بالوادي

أم تعدون فإن الريح للعادي

أنتظران قليلاً ريث غفلتهم

وقيل: لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى. وفي الحديث: نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدبور. "ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط".

حذرهم بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. من فشلهم وذهاب ربحهم "كالذين خرجوا من ديارهم" هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرًا نشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان ونطعم بما من حضرنا من العرب. فذلك بطرهم ورئاءهم الناس باطعامهم، فوافوها، فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طرين مرئين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى، والكتابة والحزن من خشية الله عز وجل، مخلصين أعمالهم لله. "وإذ زين الشيطان لهم أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفتنان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب". "و" اذكر "إذ زين لهم الشيطان أعمالهم" التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووسوس إليهم أنهما لا يغلبون ولا يطاقون، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجبرهم فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم، أي بطل كيده حين نزلت جنود الله وكذا عن الحسن رحمه الله: كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم. وقيل: ما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذي بينها وبين بني كنانة من الحرب، فكان ذلك يشيهم، فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني وكان من أشرفهم في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم، وإني مجبركم من بني كنانة. فلما رأى الملائكة تنزل، نكص وقيل:

كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما نكص قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق، وانهمزوا، فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقاً، فبلغ ذلك سراقاً فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان. وفي الحديث: "وما رؤي إبليس يوماً أصغر ولا أذحر ولا أغيظ من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رؤي يوم بدر". فإن قلت: هلا قيل لا غالباً لكم كما يقال: لا ضارباً زيداً عندنا؟ قلت: لو كان لكم مفعولاً لغالب، بمعنى: لا غالباً إياكم لكان الأمر كما قلت؟ لكنه خبر تقديره: لا غالب كائن لكم.

"إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم".
 "إذ يقول المنافقون" بالمدينة "والذين في قلوبهم مرض" يجوز أن يكون من صفه المنافقين، وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثباتي الأقدام في الإسلام. وعن الحسن: هم المشركون "غر هؤلاء دينهم" يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوون به وينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ثم قال جواباً لهم "ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز" غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي.
 "ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذاقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد".

"ولو ترى" ولو عاينت وشاهدت؟ لأن لو ترد المضارع إلى معنى الماضي؟ كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال. و
 "إذ" نصب على الظرف وقرئ: يتوفى بالياء والتاء و"الملائكة" رفعها بالفعل و"يضربون" حال منهم، ويجوز أن يكون في "يتوفى" ضمير الله عز وجل، و"الملائكة" مرفوعة بالابتداء، و"يضربون" خبر. وعن مجاهد: وأدبارهم: استاهمهم، ولكن الله كريم يكتي، وإنما خصوهما بالضرب. لأن الخزي والنكال في ضربهما أشده، وبلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر، ثم يعطي الرجل القوي البطش شيئاً عمل من حديد كهيئة الطبق فيه رزانة وله مقبض، فيضربه على دبره ضربه واحد بقوته فيجمد في مكانه. وقيل: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر "وذوقوا" معطوف على "يضربون" على إرادة القول: أي ويقولون ذوقوا "عذاب الحريق" أي مقدمة عذاب النار. أو وذوقوا عذاب الآخرة: بشاره لهم به. وقيل: كانت معهم مقامع من حديد، كلما ضربوا بها التهمت النار أو ويقال لهم يوم القيامة: ذوقوا. وجواب لو محذوف: أي لرأيت أمراً فظيلاً منكراً "ذلك بما قدمت أيديكم" يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة، و"ذلك" رفع بالابتداء و"بما قدمت" خبره "وأن الله" عفا عليه، أي ذلك العذاب بسبب كفرهم ومعاصيهم وبأن الله "ليس بظلام للعبيد" لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين. وقيل: ظلام للتكثير لأجل العبيد أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمنزلة ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه.

"كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب، ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإن الله سميع عليم، كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين".

الكاف في محل الرفع: أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. ودأبهم: عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه: أي داوموا عليه وواظبوا. و"كفروا" تفسير لدأب آل فرعون. و"ذلك" إشارة إلى ما حل بهم، يعني ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم "حتى يغيروا ما" بهم من الحال. فإن قلت: فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم؟ ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة قلت: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب "وأن الله سميع" لما يقول مكذبو الرسل "عليهم" بما يفعلون "كدأب آل فرعون" تكرير للتأكيد. وفي قوله: "بآيات ربهم" زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق. وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب "وكل كانوا ظالمين" وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي.

"إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإذا تتقفتهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون".

"الذين كفروا فهم لا يؤمنون" أي أصروا على الكفر ولجوا فيه، فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو قريظة، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالئوا عليه فكثروا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم فكثروا ومالوا معهم يوم الخندق، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم "الذين عاهدت منهم" بدل من الذين كفروا، أي الذين عاهدتهم من الذين كفروا جعلهم شر الدواب، لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصرين الناكثون للعهد "وهم لا يتقون" لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون لما فيه من العار والنار، "فإذا تتقفتهم في الحرب" فإذا تصادفتهم وتظفر بهم "فشرد بهم من خلفهم" ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتباراً بهم واتعاضاً بحالهم وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه فشرذ بالذال المعجمة بمعنى: ففرق، وكأنه مقلوب شذر من قولهم ذهبوا شذراً مذر، ومنه: الشذر: المتلقط من المعدن لتفرقه وقرأ أبو حيوة من خلفهم ومعناه: فافعل التشريد من ورائهم، لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الورا وأوقعه فيه؟ لأن الورا جهة المشردين، فإذا جعل الورا ظرفاً للتشريد فقد دل على تشريد من فيه، فلم يبق فرق بين القراءتين "لعلهم يذكرون" لعل المشردين من ورائهم يتعظون.

"وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على السواء إن الله لا يحب الخائنين".

"وإما تخافن من قوم" معاهدين "خِيَانَةً" ونكثاً بإمارات تلوح لك "فانبذ إليهم" فاطرح إليهم العهد "على السواء" على طريق مستو قصد، وذلك أن تظهر لهم نبد العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تنأجهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك "إن الله لا يحب الخائنين" فلا يكن منك إخفاء نكث العهد والخداع وقيل: على استواء في العلم بنقض العهد. وقيل على استواء في العداوة. والجار والجرور في موضع الحال، كأنه قيل: فانبذ إليهم ثابتاً على طريق قصد سوى، أو حاصلين على استواء في العلم أو العداوة، على

أثما حال من النابذ والمنبوذ إليهم معاً.

"ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إثمهم لا يعجزون".

"سبقوا" أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم "إثمهم لا يعجزون" إثمهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم وقرئ: إثمهم بالفتح بمعنى: لأثمهم، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح وقرئ: يعجزون بالتشديد وقرأ ابن محيضر: يعجزون بكسر النون وقرأ الأعمش "ولا تحسب الذين كفروا" بكسر الباء وفتحها على حذف النون الخفيفة وقرأ حمزة: "ولا يحسبن" بالياء على أن الفعل للذين كفروا وقيل فيه: أصله أن سبقوا، فحذفت أن، كقوله: "ومن آياته يريكم البرق" الروم: 24، واستدل عليه بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: إثمهم سبقوا. وقيل: وقع الفعل على إثمهم لا يعجزون، على أن لا صلة، وسبقوا في محل الحال، بمعنى سابقين أي مفلتين هارين. وقيل معناه: ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا، فحذف الضمير لكونه مفهوماً. وقيل: ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا. وهذه الأقاويل كلها متمحلة، وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة. وعن الزهري أثما نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون".

"من قوة" من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها. وعن عقبة بن عامر:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: "ألا إن القوة الرمي" قالها ثلاثاً. ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله. وعن عكرمة: هي الحصون، والرباط: اسم للخيل التي تربط في سبيل الله. ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المراقبة، ويجوز أن يكون جمع رباط كفصيل وفصال وقرأ الحسن ومن ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط. ويجوز أن يكون قوله: "ومن رباط الخيل" تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به، كقوله: "وجبريل وميكال" البقرة: 98، وعن ابن سيرين رحمه الله: أنه سئل عمن أوصى بثلاثمائة في الحصون؟ فقال: يشتري به الخيل، فترابط في سبيل الله ويغزي عليها، فقليل له: إنما أوصى في الحصون، فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

أن الحصون الخيل لا مدر القرى

"ترهبون" قرئ بالتخفيف والتشديد وقرأ ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما تخزون والضمير في "به" راجع إلى ما استطعتم "عدو الله وعدوكم" هم أهل مكة "وآخرين من دونهما" هم اليهود، وقيل: المنافقون وعن السدي: هم أهل فارس، وقيل: كفرة الجن، وجاء في الحديث: إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا داراً فيها فرس عتيق وروي: أن سهيل الخيل يهرب الجن.

"وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم".

جنح له وإليه: إذا مال. والسلم تؤنث تأنيث نقيضها وهي الحرب قال:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرئ بفتح السين وكسرهما. وعن ابن عباس رضي الله عنه أن الآية منسوخة بقوله تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" التوبة: 29، وعن مجاهد بقوله: "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" التوبة: 5، والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس يحتم أن يقاتلوا أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً وقرأ الأشهب العقيلي: فاجح بضم النون "وتوكل على الله" ولا تخف من إبطائهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم. قال مجاهد، يريد قريظة.

"وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم".

"فإن حسبك الله" فإن محسبك الله: قال جرير:

إني وجدت من مكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا

"وألف بين قلوبهم" التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة، لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصية، والإنطواء على الضغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يألف منهم قلبان، ثم اتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتحدوا، وأنشؤا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحاب والتواد، وأماط عنهم من التباغض والتماقت، وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب. فهو يقلبها كما شاء. ويصنع فيها ما أراد، وقيل: هم الأوس والخزرج، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤسائهم ودق جماجمهم، ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى، وبينهما التجاور الذي يهيج الضغائن ويدم التماسد والتنافس، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة وتضافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً، وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبلغ قدرته.

"يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين".

"وَمَنِ اتَّبَعَكَ" الواو بمعنى مع وما بعده منصوب، تقول: حسبك وزيداً درهم، ولا تجر، لأن عطف الظاهر المجرور على المكنى ممنوع قال:

فحسبك والضحاك غضب مهند

والمعنى: كفك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً أو يكون في محل الرفع: أي كفك الله وكفأك المؤمنون، وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال، وعن ابن عباس رضي الله عنه نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه، وعن سعيد بن جبير: أنه أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر، فزلت.

"يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وإن منكم مائة يغلبون ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، ألتن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعيفاً فإن يكن منكم مائة صابرة

يغلبون مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبون ألفين يا ذن الله والله مع الصابرين".

التحريض: المبالغة في الحث على الأمر من الحرص، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت، أو أن تسميه حرصاً: وتقول له: ما أراك إلا حرصاً في هذا الأمر وممرضاً فيه، ليهيج به ويحرك منه. ويقال: حركه وحرصه وحرصه وحرصه وحربه بمعنى، وقرئ حرص بالصاد غير المعجمة، حكاهما الأخفش، من الحرص، وهذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار يعون الله تعالى وتأييده، ثم قال: "بأنهم قوم لا يفقهون" أي بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ويستحقون خذلانه، خلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله تعالى. وعن ابن جريج كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد منهم للعشرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب. قيل: ثم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه، وذلك بعد مدة طويلة، فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثني، وقيل: كان فيهم قلة في الابتداء، ثم لما كثروا بعد نزل التخفيف. وقرئ ضعفاً، بالفتح والضم، كالمكث والمكث، والفقر والفقر. وضعفاً: جمع ضعيف. وقرئ الفعل المسند إلى المائة بالناء والياء في الموضعين، والمراد بالضعف: الضعف في البدن. وقيل: في البصيرة والاستقامة في الدين، وكانوا متفاوتين في ذلك فإن قلت: لم كرر المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر مرتين منها قبل التخفيف وبعده؟ قلت: للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت، لأن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

"ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يشحن في الأرض تريدون عرض الحياة الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب أليم".

وقرئ: للنبي، على التعريف وأسارى. ويشحن، بالتشديد. ومعنى الإثخان: كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنه الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة. وأثخنه المرض إذا أثقله من الشخانة التي هي الغلظ والكثافة، يعني حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله، ويعز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر. ثم الأسر بعد ذلك. ومعنى "وما كان" ما صح له وما استقام، وكان هذا يوم بدر، فلما كثر المسلمون نزل "فإما مناً بعد وإما فداء" محمد: 4، وروى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسيعين أسيراً فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب، فاستشار أبا بكر رضي الله عنه فيهم فقال: قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك. وقال عمر رضي الله عنه: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن الفداء: مكن عالياً من عقيل، وحمزة من العباس، ومكني من فلان لنسيب له، فلنضرب أعناقهم. فقال صلى الله عليه وسلم: لا إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: "فمن تعني فإنه مني ومن عصائي فإنك غفور رحيم" إبراهيم: 36، ومثلك يا عمر مثل نوح، قال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً" نوح: 26، ثم قال لأصحابه: لا أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق. وروى: أنه قال لهم: إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم، واستشهد منكم بعدكم، فقالوا: بل نأخذ الفداء، فاستشهدوا بأحد، وكان فداء الأسارى

عشرين أوقية، وفداء العباس أربعين أوقية. وعن محمد بن سيرين: كان فداؤهم مائة أوقية، والأوقية أربعون درهماً وستة دنانير. وروي:

أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يكيان فقال: يا رسول الله أخبرني، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروي أنه قال: لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ، رضي الله عنهما، لقوله كان الإثنان في القتل أحب إلي "عرض الدنيا" حطامها، سمى بذلك لأنه حدث قليل اللبث، يريد الفداء "والله يريد الآخرة" يعني ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثنان في القتل وقرئ: يريدون، بالياء وقرأ بعضهم والله يريد الآخرة، بجز الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله كقوله:

ونار توقد بالليل نارا

أكل امرئ تحسبين امرأ

ومعناه والله يريد عرض الآخرة. على التقابل، يعني ثوابها "والله عزيز" يغلب أوليائه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسرًا ويطلق لهم الفداء، ولكنه "حكيم" يؤخر ذلك إلى أن يكثرُوا ويعزُوا وهم يعجلون "لولا كتاب من الله سبق" لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح وهو أنه لا يعاقب أحد بخطأ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد؟ لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأقل لشوكتهم. وقيل: كتابه أنه سيحل لهم الفدية التي أخذوها. وقيل: إن أهل بدر مغفور لهم. وقيل: إنه لا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك "فكلوا مما غنمتم" روي: أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها، فترلت. وقيل: هو إباحة للفداء، لأنه من جملة الغنائم "واتقوا الله" فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه.

"فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم".

فإن قلت: ما معنى الفاء؟ قلت: التسبب والسبب محذوف، معناه: قد أبحث لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم. وحلالاً: نصب على الحال من المغنوم، أو صفة للمصدر، أي أكلاً حلالاً، وقوله: "إن الله غفور رحيم" معناه أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

"يا أيها النبي قل لمن في أيديكم كم الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم".

"في أيديكم" في ملكتكم، كأن أيديكم قابضة عليهم وقرئ: من الأسرى "في قلوبكم خيراً" خلوص إيمان وصحة نية "يؤتكم خيراً" مما أخذ منكم من الفداء، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يثيبكم في الآخرة وفي قراءة الأعمش. يشبكم خيراً وعن العباس رضي الله عنه أنه قال: كنت مسلماً، لكنهم استكروهوني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن يكن ما تذكره حقاً فالله يجزيك، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا أو كان أحد الذين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس: "أفد ابني أخيك عقيب بن أبي

طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد، تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت. فقال له: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل؟ فقال العباس وما يدريك؟ قال: "أخبرني به ربي" قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتباً في أمرك، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب. قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً، إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي. وروي: أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم: مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضاً لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة وقرأ الحسن وشيبة: مما أخذ منكم على البناء للفاعل.

"وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم".

"وإن يريدون خيانتك" نكت ما بايعوك عليه من الإسلام والردة واستحباب دين آبائهم "فقد خانوا الله من قبل" في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه "فأمكن منهم" كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانة. وقيل: المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء.

"إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير".

الذين هاجروا: أي فارقوا أوطانهم وقومهم حباً لله ورسوله: هم المهاجرون. والذين آووههم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم: هم الأنصار "بعضهم أولياء بعض" أي يتولى بعضهم بعضاً في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القربات، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى "وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض" وقرئ: "من ولايتهم" بالفتح والكسر أي من توليهم في الميراث. ووجه الكسر أن تولى بعضهم بعضاً شبه بالعمل والصناعة، كأنه بتولييه صاحبه يزاول أمراً ويباشر عملاً "فعليكم النصر" فوجب عليكم أن تنصروهم على المشركين "إلا على قوم" منهم "بينكم وبينهم" عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يتدثون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك.

"والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلون تكن فتنة في الأرض وفساد كبير".

"والذين كفروا بعضهم أولياء بعض" ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين "أولئك بعضهم أولياء بعض" الأنفال: 72، ومعناه: فهي المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباحة دمهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً ثم قال: "إلا تفعلوه" أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا العلائق بينكم وبين الكفار. ولم تجعلوا قرابتهم كلاً قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً

واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً وقرئ كثير بالشاء.

"والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم، والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم".

"أولئك هم المؤمنون حقاً" لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه، بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين، وليس بتكرار لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل "والذين آمنوا من بعد" يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" الحشر: 15، ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلاً منه وترغيباً "وأولوا الأرحام" أولو القرابات أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة "في كتاب الله" تعالى في حكمه وقسمته. وقيل في اللوح. وقيل في القرآن، وهو آية الموارث وقد استدل به أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على توريث ذوي الأرحام.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه بريء من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملة يستغفرون له أيام حياته في الدنيا".

سورة التوبة

مدنية وآياتها تسع وعشرين ومائة

لها عدة أسماء: براءة التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدممة، سورة العذاب، لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقرش من النفاق أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمم عليهم. وعن حذيفة رضي الله عنه: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه. فإن قلت: هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟ قلت: سألت عن ذلك عبد الله بن عباس عثمان رضي الله عنهما فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا لن نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين. وعن أبي بن كعب: إنما توهموا ذلك، لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود. وسئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والحرابة، قال الله تعالى: "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً" النساء: 94، قيل: فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى أهل الحرب: بسم الله الرحمن الرحيم. قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى فمن دعي إلى الله عز وجل فأجاب ودعي إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى، وأما النبذ فإنما هو البراءة

واللعنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم، ولا يقال: لا تفرق ولا تحف، ومترس ولا بأس: هذا أمان كله. وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة، كلتاها نزلت في القتال، تعدان السابعة من الطول وهي سبع وما بعدها المنون، وهذا قول ظاهر، لأنهما معاً مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول. وقد اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

"براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين".

"براءة" خبر مبتدأ محذوف أي هذه براءة و"من" لا ابتداء الغاية، متعلق بمحذوف وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. والمعنى: هذه براءة واصله من الله ورسوله "إلى الذين عاهدتم" كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان. ويجوز أن يكون "براءة" مبتدأ لتخصيصها بصفته، والخبر "إلى الذين عاهدتم" كما تقول: رجل من بني تميم في الدار وقرئ براءة بالنصب، على: اسمعوا براءة وقرأ أهل نجران من الله بكسر النون والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرتة. والمعنى أن الله ورسوله قد برنا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه منبوذ إليهم. فإن قلت: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت: قد أذن الله في معاهدة المشركين أولاً فاتفق المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقبل لهم: اعلموا أن الله ورسوله قد بردا مما عاهدتم به المشركين. وروي أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب، فنكثوا إلا ناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاءوا لا يتعرض لهم، وهي الأشهر الحرم في قوله: "إذا انسلخ الأشهر الحرم" وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها.

وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنة تسع، ثم أتبعه علياً رضي الله عنه راكب العضباء ليقراها على أهل الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر رضي الله عنه؟ فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء، فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. وروي:

أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك، فأرسل علياً، فرجم أبو بكر رضي الله عنهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء قال: نعم، فسر وأنت على الموسم، وعلي ينادي بالآي. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جرة العقبة فقال: يا أيها الناس، إني رسول رسول الله إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. وعن مجاهد رضي الله عنه ثلاثة عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده: فقالوا عند ذلك يا علي، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس

بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرمح وضرب بالسيوف. وقيل: إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه؟ لأن العرب عادت في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر رضي الله عنه. لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود فأزيجت عليهم بتولية ذلك علياً رضي الله عنه فإن قلت: الأشهر الأربعة ما هي؟ قلت: عن الزهري رضي الله عنه أن براءة نزلت في شوال، فهي أربعة أشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والحرم، وقيل هي عشرون من ذي الحجة، والحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من شهر ربيع الآخر. وكانت حرماً؟ لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتلهم. أو على التغليب، لأن ذا الحجة والحرم منها. وقيل: لعشر من ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنبي الذي كان فيهم، ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة. فإن قلت ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صاها الله تعالى عن ذلك؟ قلت: قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها "غير معجزى الله" لا تفوتونه وإن أمهلكم، وهو خزيكم: أي مذلكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

"وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم".

"وأذن" ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها، ولا وجه لقول من قال: إنه معطوف على براءة، كما لا يقال: عمرو معطوف على زيد، في قولك: زيد قائم، وعمرو قاعد، والأذان: بمعنى الإيذان وهو الإعلام، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. فإن قلت: أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ قلت: تلك إخبار بثبوت البراءة. وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. فإن قلت: لم علق البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ قلت: لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث "يوم الحج الأكبر" يوم عرفة. وقيل: يوم النحر، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، من الطواف. والنحر، والحلق، والرمي. وعن علي رضي الله عنه: أن رجلاً أخذ بلجام دابته فقال: ما الحج الأكبر؟ قال يومك هذا. خل عن دابتي. وعن ابن عمر رضي الله عنهما:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال "هذا يوم الحج الأكبر" ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر، أو جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر لأنه معظم واجباته؟ لأنه إذا فات فات الحج، وكذلك إن أريد به يوم النحر؟ لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج فهو الحج الأكبر. وعن الحسن رضي الله عنه: سمي يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم على قلب كل مؤمن وكافر. حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً وقرئ "إن الله" بالكسر لأن الأذان في معنى القول "وَرَسُولُهُ" عطف على المنوي في "بريء" أو على محل إن المكسورة واسمها وقرئ بالنصب، عطفاً على اسم إن أو لأن الواو بمعنى مع: أي بريء معه منهم، وبالجر على الجوار. وقيل: على القسم، كقوله: لعمر ك. ويحكى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأها فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء، فلبى الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فعندها أمر عمر رضي الله عنه بتعلم العربية "فإن تبتم" من الكفر والغدر "فهو خير لكم وإن توليتم" عن التوبة، أو ثبتتم على التولي والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين

الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه.

"إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين".

فإن قلت: مم استثنى قوله "إلا الذين عاهدتم"؟ قلت: وجهه أن يكون مستثنى من قوله: فسيحوا في الأرض" التوبة: 2، لأن الكلام خطاب للمسلمين. ومعناه: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فقولوا لهم سيحوا، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوا فأتموا إليهم عهدهم والاستثناء بمعنى الاستدراك، وكأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين، ولكن الذين لم يمتثلوا فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر "إن الله يحب المتقين" يعني أن قضية التقوى أن لا يسوي بين القبيلين فاتقوا الله في ذلك "لم ينقصوكم شيئاً" لم يقتلوا منكم أحداً ولم يضرروكم قط "ولم يظاهروا" ولم يعاونوا "عليكم" عدواً، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشد:

حلف أبنا وأبيك الأتلدا

ونقصوا ذمامك المؤكدا

وقتلونا ركعاً وسجداً

لاهم إني ناشد محمداً

إن قريشاً أخلفوك الموعدا

هم بيتونا بالحطيم هجدا

فقال عليه الصلاة والسلام: "لا نصرت إن لم أنصركم" وقرئ: "لم ينقصوكم" بالضاد معجمة أي لم ينقصوا عهدهم. ومعنى "فأتموا إليهم" فأدوه إليهم تماماً كاملاً. قال ابن عباس رضي الله عنه: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتم إليهم عهدهم.

"فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم". انسلخ الشهر، كقولك انجرد الشهر، وسنة جرداء. و"الأشهر الحرم" التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا "فاقتلوا المشركين" يعني الذين نقضوكم وظاهروا عليكم "حيث وجدتموهم" من حل أو حرم "وخذوهم" وأسروهم. والأخذ: الأسير "واحصروهم" وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد. وعن ابن عباس رضي الله عنه: حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام "كل مرصد" مجتاز ترصدوهم به، وانتصابه على الطرف كقوله "لأقعدن لهم صراطك المستقيم" الأعراف: 16، "فخلوا سبيلهم" فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصار. أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم كقوله:

خل السبيل لمن يبني المنار به

وعن ابن عباس رضي الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام "إن الله غفور رحيم" يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

"وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون".

"أحد" مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء، لأن إن من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق، فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين ما بعثت له فأمنه "حتى يسمع كلام الله" ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر "ثم أبلغه" بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم. ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت. وعن الحسن رضي الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى علي رضي الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه حاجة قتل؟ قال: لا، لأن الله تعالى يقول: "وإن أحد من المشركين استجارك" الآية. وعن السدي والضحاك رضي الله عنهما: هي منسوخة بقوله تعالى: "فاقتلوا المشركين" التوبة: 5، "ذلك" أي ذلك الأمر، يعني الأمر بالإجارة في قوله: "فأجره". "ب" سبب "أنهم" قوم جهلة "لا يسمعون" ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعون ويفهموا الحق.

"كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين، كيف وإن يظهروا عليكم لا يراقبوا فيكم إلا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون".

"كيف" استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد، لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أصداد وغرة صدورهم، يعني: محال أن يثبت هؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرك ذلك بقوله: "إلا الذين عاهدتم" أي ولكن الذين عاهدتم منهم "عند المسجد الحرام" ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة، فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم "فما استقاموا لكم" على العهد، "فاستقيموا لهم" على مثله "إن الله يحب المتقين" يعني أن التربص بهم من أعمال المتقين "كيف" تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد، وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال:

وخبرتاني أن الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

يريد: فكيف مات. أي: كيف يكون لهم عهد وحالهم أنهم "إن يظهروا عليكم" بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم "لا يرقبوا فيكم إلا" لا يراعوا حلفاً. وقيل: قرابة. وأنشد لحسان رضي الله عنه:

لعمرك إن إلك من قریش كإل السقب من رأل النعام

وقيل: لا إلهاً وقرى: إيلاً بمعناه وقيل: جبرئيل، وجبرئيل، من ذلك. وقيل: منه اشتق الآل بمعنى القرابة، كما اشتقت الرحم من الرحمن، والوجه إن اشتقاق الإل بمعنى الحلف، لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، من الأل وهو الجوار، وله أليل: أي أنين يرفع به صوته. ودعت أليلها: إذا ولولت، ثم قيل لكل عهد وميثاق: إل. وسميت به القرابة، لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق "يرضوكم" كلام مبتدأ في وصف حالهم من

مخالفة الظاهر الباطن، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل "وأكثرهم فاسقون" متمردون خلعاء لا مروءة تزعمهم، ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة، من التفادي عن الكذب والنكث، والتعفف عما يثلم العرض ويجزأ حدوثة السوء.

"اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون".

"اشتروا" استبدلوا "بآيات الله" بالقرآن والإسلام "ثمنًا قليلاً" وهو اتباع الأهواء والشهوات "فصدوا عن سبيله" فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم. وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم "هم المعتدون" المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

"فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون".

"فإن تابوا" عن الكفر ونقض العهد "فإخوانكم في الدين" فهم إخوانكم على حذف المبتدأ، كقوله تعالى: "فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم" الأحزاب: 5، "ونفصل الآيات" ونبيها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى اخفاضة عليها.

"وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون".

"وطعنوا في دينكم" وثلبوه وعابوه "فقاتلوا أئمة الكفر" فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم: إشعاراً بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك قمرًا وطغياناً وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخواناً للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه، لا يشق كافر غبارهم. وقالوا: إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعنًا ظاهراً، جاز قتله، لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة "إنهم لا إيمان لهم" جمع يمين: وقرئ: لا إيمان لهم، أي لا إسلام لهم أو لا يعطون الأمان بعد الردة والنكث، ولا سبيل إليه، فإن قلت: كيف أثبت لهم الإيمان في قوله: "فإن نكثوا أيمانهم" ثم نفاها عنهم؟ قلت: أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال لا إيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن يمين الكافر لا تكون يميناً. وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين. وقال: معناه أنهم لا يوفون بها، بدليل أنه وصفها بالنكث "لعلهم ينتهون" متعلق بقوله "فقاتلوا أئمة الكفر" أي ليكون غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سبباً في انتهائهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد. فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟ قلت: همزة بعدها همزة بين يمين، أي: بين مخرج همزة والياء وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة. ولا يجوز أن تكون قراءة. ومن صرح بها فهو لا حن محرف.

"ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانكم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم والله أحق أن تخشوه إن

كنتم مؤمنين".

"ألا تقاتلون" دخلت الهمزة على "لا تقاتلون" تقريراً بانتفاء المقاتلة. ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة "نكثوا أيمانكم" التي حلفوها في المعاهدة "وهموا بإخراج الرسول" من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة، حتى أذن الله تعالى له في الهجرة، فخرج بنفسه "وهم بدءوكم أول مرة" أي: وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادءون بالقتال والبادئ أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم؟ وبجهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها. ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب، حقيق بأن لا تترك مصادمته، وأن يويخ من فرط فيها "أتخشوهم" تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها "والله أحق أن تخشوه" فتقاتلوا أعداءه "إن كنتم مؤمنين" يعني أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالي بمن سواه، كقوله تعالى: "ولا يخشون أحداً إلا الله الأحزاب: 39".

"قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم".

ولما وبجهم الله على ترك القتال، جرد لهم الأمر به فقال: "قاتلوهم" ووعدهم ليشب قلوبهم وبصح نياتهم أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً، ويخزيهم أسراً، ويوليهم النصر والغلبة عليهم "ويشف صدور" طائفة من المؤمنين، وهم خزاعة، قال ابن عباس رضي الله عنه: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه، فقال: أبشروا فإن الفرج قريب "ويذهب غيظ" قلوبكم لما لقيتم منهم من مكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها، فكان ذلك دليلاً على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته "ويتوب الله على من يشاء" ابتداء كلام، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضاً، فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم، وقرئ: ويتوب بالنصب بإضمار أن ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى "والله عليم" يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان "حكيم" لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

"أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون".

"أم" منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان. والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، حتى يتبين الخالص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة أي بطانة، من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضوان الله عليهم "وَلَمَّا" معناها التوقع، وقد دلت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين. وقوله: "لم يتخذوا" معطوف على جاهدوا، داخل في حيز الصلة، كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم المخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله. والوليجة:

فعيلة من ورج، كالدخيلة من دخل. والمراد بنفي العلم نفي المعلوم، كقول القائل. ما علم الله مني ما قيل في، يريد: ما وجد ذلك مني.

"ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون".

"ما كان للمشركين" ما صح لهم وما استقام "أن يعمرُوا مساجد الله" يعني المسجد الحرام، لقوله: "وعماره المسجـد الحرام" وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان، أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد لأنه قبله المساجد كلها وإمامها؟ فعمره كعمر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد. والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمرُوا جنسها، دخل تحت ذلك أن لا يعمرُوا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد، لأن طريقته طريقة الكناية، كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك. و "شاهدين" حال من الواو في "يعمرُوا" والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته. ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نطوف عليها بشيأ قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها. وقيل: هو قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. وقيل: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر فعبروهم بالشرك، فطفق علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول. فقال العباس: تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا. فقال: أو لكم محاسن قالوا: نعم ونحن أفضل منكم أجراً. إنا لنعمر المسجد الحرام. ونحجب الكعبة، ونسقي الحجاج ونفك العاني، فزلت "حبطت أعمالهم" التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة. وإذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال الثابتة الصحيحة إذا تعقبها، فما ظنك بالمقارن. وإلى ذلك أشار في قوله: "شاهدين" حيث جعله حالاً عنهم ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة، وذلك محال غير مستقيم.

"إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين".

"إنما يعمر مساجد الله" وقرئ بالتوحيد: أي: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتداً بها، والعمارة تتناول رم استرم منها، وقمها وتنظيفها، وتنويرها بالمصايح، وتعظيمها، واعتيادها للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم، بل هو أجله وأعظمه، وصيانتها مما لم تبين له المساجد من أحاديث الدنيا فضلاً عن فضول الحديث، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقة ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة" وفي الحديث: "الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش" وقال عليه الصلاة والسلام: "قال الله تعالى: إن يبوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره وعنه عليه الصلاة والسلام: "من ألف المسجد ألفه الله وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان" وعن أنس رضي الله عنه: من أسرج في

مسجد سراجاً لم تنزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءه. فإن قلت: هلا ذكر الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام لاشتمال كلمة الشهادة والأذان، والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه، انطوى تحت ذكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام. وقيل: دل عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟ فإن قلت: كيف قيل: "ولم يخش إلا الله" والمؤمن يخشى المخاذير، ولا يتمالك أن لا يخشاها؟ قلت: هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وأن لا يختار على رضا الله غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران: أحدهما حق الله، والآخر حق نفسه أن يخاف الله، فيؤثر حق الله على حق نفسه. وقيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم "فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين" تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم من الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها، بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى، اهتدأهم دائر بين عسى ولعل، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون وناثلون عند الله الحسن. وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاعتراض بالله تعالى.

"أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين".

السقاية والعمارة: مصدران من سقى وعمر، كالصيانة والوقاية. ولا بد من مضاف محذوف تقديره "أجعلتم" أهل "سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله" تصدقه قراءة ابن الزبير وأبي جزة السعدي وكان من القراء سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم الخبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوي بينهم. وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر. وروي أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل. وقيل: إن علياً رضي الله عنه قال للعباس: يا عم ألا تهاجرون، ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أأست في أفضل من الهجرة: أسقي حافي بيت الله، وأعمر المسجد الحرام، فلما نزلت قال العباس: ما أراي إلا تارك سقايتنا. فقال عليه الصلاة والسلام: "أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً".

"الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدون فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم".

هم "أعظم درجة عند الله" من أهل السقاية والعمارة عندكم "وأولئك هم الفائزون" لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم وقرئ: يبشرهم بالتخفيف والتثقيل، وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي في المهاجرين خاصة.

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم ولا إخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون، قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون

كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين".

وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا: يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرننا وذهب تجارتنا وهلك أموالنا وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فترلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا يترله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك. وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة فنهى الله تعالى عن موالاتهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يطعم أحدكم طعام الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله: حتى يحب في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه. وقرئ: عشيرتكم وعشيرتكم. وقرأ الحسن: وعشائركم" فتربصوا حتى يأتي الله بأمره" وعبيد عن ابن عباس هو فتح مكة وعن الحسن هي عقوبة عاجلة أو آجلة. وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين، فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوي الله عنه أحقر شيء منها بمصلحته فلا يدري أي طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطره؟.

"لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم".

مواطن الحرب: مقاماتها ومواقفها قال:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوي

وامتناعه من الصرف لأنه جمع، وعلى صيغة لم يأت عليها واحد، والمواطن الكثيرة: وقعات بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة. فإن قلت: كيف عطف الزمان والمكان وهو "يوم حنين" على المواطن؟ قلت: معناه وموطن يوم حنين. أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين. ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين، على أن الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمر لا بهذا الظاهر. وموجب ذلك أن قوله: "إذ أعجبتكم" بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح؟ لأن كثرتكم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به، إلا إذا نصبت إذ ياضمار اذكر وحنين: واد بين مكة والطائف، كانت فيه الواقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا فتح مكة، منضماً إليهم ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضاقهم من إمداد سائر العرب فكان الجم الغفير، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن تغلب اليوم من قلة، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قاتلها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: أبو بكر رضي الله عنه وذلك قوله: "إذ أعجبتكم كثرتكم" فاقتتلوا قتالاً شديداً وأدركت المسلمين كلمة

الإعجاب بالكثرة، وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلىح، ليس معه إلا عمه العباس رضي الله تعالى عنه أخذ بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناهي شجاعته ورباطة جأشه صلى الله عليه وسلم، وما هي إلا من آيات النبوة وقال:

يا ربي اثني بما وعدتني. وقال صلى الله عليه وسلم للعباس وكان صيتاً: صيح بالناس، فنادى الأنصار فخذوا فخذاً، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب البقرة، فكروا عنقاً واحداً وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتال المسلمين فقال: هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم به ثم قال: انهزموا ورب الكعبة فانهزموا، قال العباس: لكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض. خلفهم على بغلته "بما رَحِبْتُ" ما مصدريّة، والباء بمعنى مع، أي مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها، على أن الجار والمجرور في موضع الحال، كقولك: دخلت عليه بشباب السفر، أي ملتبساً بها لم أحلها، تعني مع ثياب السفر. والمعنى: لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب، فكأنها ضاقت عليكم "ثم وليتم مدبرين" ثم انهزمت "سكينة" رحته التي سكنوا بها وآمنوا "وعلى المؤمنين" الذين انهزموا. وقيل: هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع الهرب "وَأَنْزَلَ جُنُوداً" يعني الملائكة. وكانوا ثمانية آلاف، وقيل: خمسة آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً "وعذب الذين كفروا" بالقتل والأسر، وسبي النساء والذراري "ثم يتوب الله" أي يسلم بعد ذلك ناس منهم. وروي: أن ناساً منهم جاءوا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. قيل: سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الأبل والغنم ما لا يحصى، فقال: إن عندي ما ترون، إن خير القول أصدق، اختاروا: إما ذرايكم ونساءكم، وإما أموالكم. قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إن هؤلاء جاءوا مسلمين" وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيء طابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا وليكن قرصاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه. قالوا: رضينا وسلمنا، فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا.

"يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون رجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم".

النجس: مصدر، يقال: نجس نجساً، قدر قدراً. ومعناه ذوو نجس، لأن معهم الشرك الذي هو بمزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من صافح مشركاً توفراً. وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين. وقرئ: نجس بكسر النون وسكون الجيم على تقدير حذف الموصوف، كأنه قيل: إنما المشركون نجس، أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس وهو تخفيف نجس، نحو:

كبد، في كبد "فلا يقربوا المسجد الحرام" فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية "بعد عامهم هذا" بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول علي كرم الله وجهه حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم. وعند الشافعي: يمنعون من المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره من المساجد. وعن عطاء رضي الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين أن لا يمكنهم من دخوله، ونهي المشركين أن يقربوه راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم منه، وقيل: المراد أن يمنعوا من تولي المسجد الحرام والقيام بمصالحة ويعزلوا عن ذلك "وإن خفتهم عيلة" أي فقراً بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب "فسوف يغنيكم الله من فضله" من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدراراً، فأغزر بها خيرهم وأكثر يرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف وقال: من أين تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم بالجزية. وقيل: بفتح البلاد والغنائم. وقرئ: عائلة، بمعنى المصدر كالعافية، أو حالاً عائلة. ومعنى قوله: "إن شاء" الله. إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم "إن الله عليم" بأحوالكم "حكيم" لا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب.

"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

"من الذين أوتوا الكتب" بيان للذين مع ما في حيزه. نفى عنهم الإيمان بالله لأن اليهود مثنية والنصارى مثلثة. وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب وتحريم ما حرم الله ورسوله، لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة. وعن أبي روق: لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، وأن يدينوا دين الحق، وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل. وقيل: دين الله، يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذ دينه ومعتقده. سميت جزية، لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه، أو لأنهم يجزون بها من من عليهم بالإعفاء عن القتل "عن يد" إما أن يراد يد المعطي أو الآخذ فمعناه على إرادة يد المعطي حتى يعطوها عن يد: أي عن يد مؤاتية غير ممتنعة لأن من أبي وامتنع لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد، ولذلك قالوا: أعطى بيده. إذا انقاد وأصب. ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطاعة، كما يقال: خلع ربة الطاعة عن عنقه، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة، لا مبعوثاً على يد أحد. ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية، أو عن إنعام عليهم. لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم "وهم صاغرون" أي تؤخذ منهم على الصغار والذل. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس، وأن يتلثل تلتلة ويؤخذ بتليبيه، ويقال له: أد الجزية، وإن كان يؤديها ويزخ في قفاه، وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض. واختلف فيمن تضرب عليه، فعند أبي حنيفة: تضرب على كل كافر من ذمي ومجوسي وصابي وحري، إلا على مشركي العرب وحدهم. روى الزهري:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح عبدة الأوثان على الجزية، إلا من كان من العرب وقال لأهل مكة: وهل

لكم في كلمة إذا قلمتموها دانت لكم بها العرب وأدت إليكم العجم الجزية، وعند الشافعي لا تؤخذ من مشركي العجم. والمأخوذ عند أبي حنيفة في أول سنة من الفقير الذي له كسب: اثنا عشر درهماً. ومن المتوسط في الغني: ضعفها، ومن المكثّر: ضعف الضعف ثمانية وأربعون، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له. وعند الشافعي: يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار، فقيراً كان أو غنياً، كان له كسب أو لم يكن.

"وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلكم قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون".

"عزيز ابن الله" مبتدأ وخبر، كقوله: المسيح ابن الله، وعزيز: اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه: امتنع صرفه. ومن نون فقد جعله عربياً. وأما قول من قال: سقوط التنوين للالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ: أحد الله أو لأن الابن وقع وصفاً والخبر محذوف وهو معبودنا، فتمحل عنه مندوحة، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة، وما هو بقول كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاماً بين مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا ذلك. وقيل: قاله فنحاص. وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاهها من قلوبهم، فخرج عزيز وهو غلام يسبح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم فحفظه التوراة. فأملأها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه. والدليل على أن هذا القول كان فيهم: أن الآية تليت عليهم، فما أنكروا ولا كذبوا، مع تمالكهم على التكذيب. فإن قلت: كل قول يقال بالفم فما معنى قوله: "ذلكم قولهم بأفواههم" قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أنه قول لا يعصده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملّة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان. وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب. وما لا معنى له مقول بالفم لا غير.

والثاني: أن يراد بالقول المذهب، كقولهم: قول أبي حنيفة، يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد "يضاهون" لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً. والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله تعالى الله عنه. وقيل: الضمير للنصارى، أي يضاهي قولهم: المسيح ابن الله، قول اليهود: عزيز ابن الله، لأنهم أقدم منهم. وقرئ: يضاهون بالهمز من قولهم: امرأة ضهيأ على فعيل: وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزها مزيدة كما في عرقى "قاتلهم الله" أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا، تعجباً من شناعة قولهم، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم "أنى يؤفكون" كيف يصرفون عن الحق؟.

"اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون".

اتخاذهم أرباباً: أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرم الله وتحريم ما حقله، كما تطاع الأرباب في أوامرهم.

ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به: عباده، بل كانوا يعبدون الجن "يا أبت لا تعبد الشيطان" مريم: 44، وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه:

انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: "أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرمه الله فتحلونه؟" قلت: بلى. قال: "فتلك عبادتهم" وعن فضيل رضي الله عنه. ما أبالي أظعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صليت لغير القبلة. وأما المسيح فحين جعلوه ابناً لله فقد أهله للعبادة. ألا ترى إلى قوله: "قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين" الزخرف: 81، "وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً" أمرهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام: أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة "سبحانه" تنزيه له عن الإشراف به، واستبعاد له. ويجوز أن يكون الضمير في "وما أمروا" للمتخذين أرباباً، أي: وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحده، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم. "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون".

مثل حالهم في طلبهم أن يطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالكذب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراف أو الإضاءة. ليطفئه بنفخة ويطمس "ليظهره" ليظهر الرسول عليه السلام "على الدين كله" على أهل الأديان كلهم. أو ليظهر دين الحق على كل دين. فإن قلت: كيف جاز، أي الله إلا كذا، ولا يقال: كرهت أو أبغضت إلا زيداً؟ قلت: قد أجرى أبي مجرى لم يرد ألا ترى كيف قبل "يريدون أن يطفئوا" بقوله: "يأبى الله" وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلا أن يتم نوره. "يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلوا أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم يكثرون لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكثرون". معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ. ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله. وإما على أن الأحوال يؤكل بها فهي سبب الأكل. ومنه قوله:

أن لنا أحمره عجافاً

يأكلن كل ليلة إكافاً

يريد: علفاً يشتري بثمان إكاف. ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام، والتخفيف والمسامحة في الشرائع "والذين يكثرون" يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل، وكثر الأموال، والضمن بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرون بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى، تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطي منكم طيب ماله: سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم. وقيل: نسخت الزكاة آية الكثر. وقيل: هي ثابتة، وإنما عني بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أذى زكاته فليس بكثرة وإن كان باطناً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كثر وإن كان ظاهراً" وعن عمر رضي الله عنه أن

رجلاً سألته عن أرض له باعها فقال: أحرز ممالك الذي أخذت، احفر له تحت فراش امرأتك. قال: أليس بكتر؟ قال: ما أدى زكاته فليس بكتر وعن ابن عمر رضي الله عنهما: كل ما أدت زكاته فليس بكتر وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤد زكاته فهو الذي ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض فإن قلت: فما تصنع بما روى سالم بن أبي الجعد رضي الله عنهم أنهما لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تباً للذهب تباً للفضة" قالها ثلاثاً. فقالوا له: أي مال نتخذ؟ قال: "لساناً ذاكرًا، وقلباً خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه" ويقول عليه الصلاة والسلام: "من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها".

وتوفي رجل فوجد في منزله دينار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كية وتوفي آخر فوجد في منزله ديناران، فقال: كيتان قلت: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة، فأما بعد فرض الزكاة، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه، ويؤدي عنه ما أوجب عليه فيه، ثم يعاقبه. ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضي الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية، لأن الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا، والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه، ولكل شيء حد. وما روي عن علي رضي الله عنه: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما زاد فهو كثر. كلام في الأفضل. فإن قلت: لم قيل: ولا ينفقونها، وقد ذكر شيئان؟ قلت: ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ: لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم، فهو كقوله: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا" وقيل: ذهب به إلى الكنوز، وقيل: إلى الأموال. وقيل: معناه ولا ينفقونها والذهب، كما أن معنى قوله:

فإني وقيار بها لغريب

وقيار كذلك. فإن قلت: لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال؟ قلت: لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء، ولا يكثرهما إلا من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكثرهما لم يعد سائر أجناس المال، فكان ذكر كثرهما دليلاً على ما سواهما، فإن قلت: ما معنى قوله: "يحمى عليها؟" وهلا قيل: تحمى، من قولك: حمى الميم وأحميته، ولا تقول: أحميت على الحديد؟ قلت: معناه أن النار تحمى عليها، أي توقد ذات حمى وحر شديد، من قوله: "نار حامية" القارعة: 11، ولو قيل: يوم تحمى، لم يعط هذا المعنى. فإن قلت: فإذا كان الإجماع للنار، فلم ذكر الفعل؟ قلت: لأنه مسند إلى الجار والمجرور، أصله: يوم تحمى النار عليها، فلما حذفت النار قيل: يحمى عليها، لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير وعن ابن عامر أنه قرأ: تحمى بالناء. وقرأ أبو حيوة: فيكوى بالياء. فإن قلت: لم خصت هذه الأعضاء؟ قلت: لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها في سبيل الله إلا الأغراض الدنيوية، ومن وجاهة عند الناس، وتقدم، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم، يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحشمون، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم، لا يخطرون بباهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذهب أهل الدثور بالأجور" وقيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا

الفقير عبسوا، لماذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم. وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقاديرهم ومآخيرهم وجنوبهم "هذا ما كثرتم" على إرادة القول. وقوله: "لأنفسكم" أي كثرتموه لستفيع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها وما علمتم أنكم كثرتموه لستتضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم "فدوقوا ما كنتم تكثرّون". وقرئ: تكثرّون بضم النون أي وبال المال الذي كنتم تكثرّونه أو وبال كونكم كائنين.

"إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيه أنفسكم وقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين". "في كتاب الله" فيما أثبتته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصواباً. وقيل في اللوح: "أربعة حرم" ثلاثة سرد: ذو القعدة وذو الحجة والحرم، وواحد فرد وهو رجب. ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع: "ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض". والسنة اثنا عشر شهراً: منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والحرم. ورجب مضر الذي بين جهادى وشعبان. والمعنى: رجعت الأشهر إلى كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجة، وبطل النسئ الذي كان في الجاهلية، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكان حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة "ذلكم الدين القيم" يعني أن تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثته منهما، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها، حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجباً: الأصم ومنصل الأسته، حتى أحدثت النسئ فغيروا "فلا تظلموا فيهن" في الحرم "أنفسكم" أي لا تجعلوا حرامها حلالاً. وعن عطاء: تالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا، وما نسخت، وعن عطاء الخراساني رضي الله عنه: أحقت القتال في الأشهر الحرم براءة من الله ورسوله. وقيل: معناه لا تأتموا فيهن، بياناً لعظم حرمتهم، كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى: "فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق" الآية البقرة: 197، وإن كان ذلك محرماً في سائر الشهور "كافة" حال من الفاعل أو المفعول "مع المتقين" ناصر لهم، حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها. "إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا حللونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين".

والنسئ: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهر آخر، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى: "ليواطؤا عدة ما حرم الله" أي ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين. وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت. ولذلك قال عز وعلا "إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً" التوبة: 36، يعني من غير زيادة زادوها. والضمير في: يحلونه، ويحرمونه للنسئ. أي إذا أحلوا شهراً من الأشهر الحرم عاماً، رجعوا فحرموه في العام المقبل، وروي: أنه حدث ذلك في كنانة لأهم كانوا فقراء محاييج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته: إن

أهتكتكم قد أحقت لكم الحرم فأحلوه، ثم يقوم في القابل فيقول: إن أهتكتكم قد حرمت عليكم الحرم فحرموه. جعل النسئ زيادة في الكفر، لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً، "فزادهم رجساً إلى رجسهم" التوبة: 125، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً "فزادهم إيماناً وهم يستبشرون" التوبة: 124، وقرئ: "يُضِلُّ" على البناء للمفعول، وَيُضِلُّ بفتح الياء والضاد، و يَضِلُّ على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ الزهري: ليوطنوا بالتشديد. والنسئ مصدر نسأه إذا أخره. يقال نسأه ونسأ ونساء ونسيئاً، كقولك: مسه مساً ومساساً ومسيساً. وقرئ بهن جميعاً. وقرئ: النسئ بوزن الندى. والنسئ بوزن النهي، وهما تخفيف النسئ والنسء. فإن قلت: ما معنى قوله: "فيحلون ما حرم الله" قلت: معناه فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها "زين لهم سوء أعمالهم" خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة "والله لا يهدي" أي لا يلفظ بهم بل يخذلهم. وقرئ: "زين لهم سوء أعمالهم" على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

"يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم في الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تنصروه شيئاً والله على كل شيء قدير، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم، انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون".

"اثاقلتم" تثاقلتم. وبه قرأ الأعمش، أي تباطأتم وتقاعستم. وضمن معنى الميل والإخلاق فعدى يالى. والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه، ونحوه: "أخلد إلى الأرض واتبع هواه" الأعراف: 176، وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وقرئ: "اثاقلتم"؟ على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ. فإن قلت: فما العامل في "إذا" وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه؟ قلت: ما دل عليه قوله: "اثاقلتم" أو ما في "مالككم" من معنى الفعل، كأنه قيل: ما تصنعون إذا قيل لكم كما تعمله في الحال إذا قلت: مالك قائماً، وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف. استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيط مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم. وقيل: ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة "من الآخرة" أي بدل الآخرة كقوله: "لجعلنا منكم ملائكة" الزخرف: 60، "في الآخرة" في جنب الآخرة "إلا تنفروا" سخط عظيم على المتأقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً. وقيل: الضمير للرسول: أي ولا تنصروه، لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة، وقيل: يريد بقوله: "قوماً غيركم" التوبة: 39، أهل اليمن. وقيل: أبناء فارس، والظاهر مستغن عن التخصيص. فإن قلت: كيف يكون قوله: "فقد نصره الله" جواباً للشرط؟ قلت: فيه وجهان أحدهما: إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد، فدل بقوله: "فقد نصره الله" على أنه ينصره في المستقبل، كما نصره في

ذلك الوقت. والثاني: أنه أوجب له النصره وجعله منصوراً في ذلك الوقت، فلن يخذل من بعده. وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسند إليهم في قوله: "من قريبك التي أخرجتك" محمد: 13، لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه "ثاني اثنين" أحد اثنين، كقوله: "ثالث ثلاثة" وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. يروى: أن جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال: من يخرج معي؟ قال: أبو بكر وانتصابه على الحال. وقرئ: "ثاني اثنين" بالسكون و"إذ هُما" بدل من إذ أخرجه. والغار: ثقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً "إذ يقول" بدل ثان. وقيل: طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصلاة والسلام: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما" وقيل:

لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فسجت عليه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم أعم أبصارهم": فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفتنون. وقد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر، لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة "سكينته" ما ألقى في قلبه من الأمانة، التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه، والجنود الملائكة يوم بدر، والأحزاب وحنين. وكلمة الذين كفروا: دعوتهم إلى الكفر "وكلمة الله" دعوته إلى الإسلام. وقرئ: كلمة الله بالنصب، والرفع أوجه و"هي" فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو، وأنها المختصة به دون سائر الكلم "خَفَافاً وَثَقَالاً" خفافاً في النفور لنشاطكم له، وثقلاً عنه لمشقتة عليكم، أو خفافاً لقلّة عيالكُم وأذيالكُم، وثقلاً لكثرتما. أو خفافاً من السلاح وثقلاً منه. أو ركباناً ومشاة. أو شباباً وشيوخاً. أو مهازِيلَ وسماناً. أو صحاحاً ومراضاً. وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أعلي أن أنقر؟ قال: نعم، حتى نزل قوله: "ليس على الأعمى حرج" النور: 61، وعن ابن عباس: نسخت بقوله: "ليس على الضعفاء ولا على المرضى" التوبة: 91، وعن صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو. فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقلاً، إلا أنه من يحبه الله يبتله. وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يكمي الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع "وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم" إيجاب للجهد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

"لو كان عرضاً قريباً أو سفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون".

العرض: ما عرض لك من منافع الدنيا. يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، أي لو كان ما دعوا إليه غنماً قريباً سهل المنال "سفراً قاصداً" وسطاً مقارباً "الشقة" المسافة الشاقة. وقرأ عيسى بن عمر: "بعدت عليهم الشقة" بكسر العين والشين ومنه قوله:

ولا بعد إلا ما توراي الصفائح

يقولون لا تبعد وهم يدفنونه

"بالله" متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم. والقول مراد في الوجهين، أي سيحلفون يعني المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله "لو استطعنا لخرجنا معكم" أو سيحلفون بالله ويقولون: لو استطعنا، وقوله: "لخرجنا" سد مسد جوابي القسم ولو جميعاً، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم. وقد كان من جملة المعجزات. ومعنى الاستطاعة: استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان، كأهم تمارضوا. وقرئ: "لو استطعنا"، بضم الواو تشبيهاً لها بواو الجمع في قوله: "فتمنوا الموت" البقرة: 94. "يهلكون أنفسهم" إما أن يكون بدلاً من سيحلفون، أو حالاً بمعنى مهلكين. والمعنى: أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف. ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: "لخرجنا" أي لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة. وجاء به على لفظ الغائب، لأنه مخبر عنهم. ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديداً، يقال: حلف بالله ليفعلن ولأفعلن، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكاية.

"عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ".
 "عَفَا اللَّهُ عَنْكَ" كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها. ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت. و"لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ" بيان لما كنى عنه بالعفو. ومعناه: مالك أَذْنَتْ لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعلمهم وهلا استأنيت بالإذن "حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ" من صدق في عذره من كذب فيه. وقيل: شيان فعلهما رسول الله ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه الله تعالى.
 "لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين".

"لا يستأذنك" ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلف من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي أبداً، ولنجاهدن أبداً معه بأموالنا وأنفسنا. ومعنى "أن يجاهدوا" في أن يجاهدوا أو كراهة أن يجاهدوا "والله عليم بالمتقين" شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين، وعدة لهم بأجل الثواب.
 "إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله أنبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون".
 "إنما يستأذنك" يعني المنافقين، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً "يترددون" عبارة عن التحير، لأن التردد دين المتحير، كما أن الثبات والاستقرار دين المستبصر. وقرئ: عدة بمعنى عدته فعل بالعدة ما فعل بالعدة من قال:

وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

من حذف تاء التأنيث، وتعويض المضاف إليه منها. وقرئ: عدة بكسر العين بغير إضافة، وعدة بإضافة. فإن قلت: كيف موقع حرف الاستدراك؟ قلت: لما كان قوله: "ولو أرادوا الخروج" معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو. قيل: "ولكن كره الله أنبعاثهم" كأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكرهه أنبعاثهم، كما تقول:

ما أحسن إلي زيد، ولكن أساء إلي "فثبطهم" فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث "وقيل اقعدوا" جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود. وقيل: هو قول الشيطان بالوسوسة. وقيل: هو قولهم لأنفسهم. وقيل: هو إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم في القعود. فإن قلت: كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة، وتعالى الله عن إلهام القبيح؟ قلت: خروجهم كان مفسدة، لقوله: "لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً" فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة. فإن قلت: فلم خطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن لهم فيما هو مصلحة؟ قلت: لأن إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القول بإعلام الله تعالى، ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه، فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجاوز في قبولها، فمن ثم أتاه العتاب ويجوز أن يكون في ترك رسول الله بمر الإذن لهم مع تثبیط الله إياهم مصلحة أخرى، فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة، وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينعثوا وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة. ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق، وأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر. فإن قلت: ما معنى قوله: "مع القاعدين"؟ قلت: هو ذم لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأهم القعود والجثوم في البيوت، وهم القاعدون والخالفون والخوالف، ويبينه قوله تعالى: "رضوا بأن يكونوا مع الخوالف" التوبة: 87، 93. "إلا خبالاً" ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير المذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء، فكان استثناء متصلاً؟ لأن الخبال بعض أعم العام كأن قيل ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً والخبال الفساد والشر "ولأوضعوا خلالكم" ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وإفساد ذات البين. يقال: وضع البعير وضعا إذا أسرع وأوضعته أنا، والمعنى: ولأوضع ركائبهم بينكم، والمراد الإسراع بالنمائم، لأن الراكب أسرع من المشي. وقرأ ابن الزبير رضي الله عنه: "ولأرقصوا" من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرعت وأرقصتها قال:

والراقصات إلى منى فالغيب

وقرى: ولأوفضوا فإن قلت: كيف خط في المصحف: ولا أوضعوا، بزيادة ألف؟ قلت: كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً، وفتحها ألفاً أخرى، ونحوه: أو لا أذبحنه. "يغونكم الفتنة" يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم "وفيكم سماعون لهم" أي غمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم. أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم "لقد ابتغوا الفتنة أي العنت ونصب الغوائل والسعي في تشيت شملك وتفرق أصحابك عنك، كما فعل عبد الله بن أبي يوم أحد حين انصرف بمن معه. وعن ابن جريج رضي الله عنه: وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الشبية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به "من قبل" من قبل غزوة

تبوك "وقلبوا لك الأمور" ودبروا لك الحيل والمكايد، ودوروا الآراء في إبطال أمرك. وقرئ، وقلبوا بالتخفيف "حتى جاء الحق" وهو تأييدك ونصرك "ظهر أمر الله" وغلب دينه وعلا شرعه.

"ومنهم من يقول انذن لي ولا تفتني إلا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لحيطه بالكافرين".

"انذن لي" في القعود "ولا تفتني" ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم، بأن لا تأذن لي فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت. وقيل: ولا تلقني في الهلكة، فإني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي. وقيل: قال الجدل بن قيس: قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء فلا تفتني بنات الأصفر يعني نساء الروم، ولكني أعينك بمال فاتركني. وقرئ: ولا تفتني من أفنته "ألا في الفتنة سقطوا" أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلف. وفي مصحف أبي رضي الله عنه: سقط، لأن من موحد اللفظ جموع المعنى "لحيطه بالكافرين" يعني أنها تحيط بهم يوم القيامة. أو هي محيطه بهم الآن، لأن أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها.

"إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولون قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولون وهم فرحون".

"إن تصبك" في بعض الغزوات "حسنة" ظفر وغزيمة "تسؤهم وإن تصبك مصيبة" نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك، و "يقولون قد أخذنا أمرنا" أي أمرنا الذي نحن متمسكون به، من الحذر واليقظ والعمل بالحزم "من قبل" من قبل ما وقع. وتولوا عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم "وهم فرحون" مسرورون. وقيل: تولوا: أعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون".

قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: قل هل يصيبنا. وقرأ طلحة رضي الله عنه: هل يصيبنا، بتشديد الياء. ووجهه أن يكون يفعل لا يفعل لأنه من بنات الواو، كقولهم: الصواب، وصاب السهم يصوب، ومصابوب في جمع مصيبة، فحق يفعل منه يصوب؟ ألا ترى إلى قولهم: صوب رأيه، إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب. ومن قوله: أسهمي الصائبات والصيب، واللام في قوله: "إلا ما كتب الله لنا" مفيدة فعنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة. ألا ترى إلى قوله: "هو مولانا" أي الذي يتولانا ونتولاه، ذلك بأن الله إلى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم "وعلى الله فليتوكل المؤمنون" وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله، فليفعلوا ما هو حقهم.

"قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون".

"إلا إحدى الحسنيين" إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسن العواقب، وهما النصرة والشهادة "ونحن نتربص بكم" إحدى السوأيتين من العواقب، إما "أن يصيبكم الله بعذاب من عنده" وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود "أو" بعذاب "بأيدينا" وهو القتل على الكفر "فتربصوا" بنا ما ذكرنا من عواقبنا "إنا معكم متربصون" ما هو عاقبتكم، فلا بد أن يلقي كلنا ما يتربصه لا يتجاوزة. "قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين".

"أنفقوا" يعني في سبيل الله ووجوه البر "طوعاً أو كرهاً" نصب على الحال، أي طائعين أو مكرهين. فإن قلت: كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال: "لن يتقبل منكم"؟ قلت: هو أمر في معنى الخبر، كقوله تبارك وتعالى: "قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً" مريم: 75، ومعناه: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه قوله تعالى: "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم" التوبة: 80، وقوله:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ

أي لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا أم أحسنت. فإن قلت: متى يجوز نحو هذا؟ قلت: إذا دل الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً وغفر له، فإن قلت: لم فعل ذلك؟ قلت: لنكتة فيه، وهي أن كثيراً كأنه يقول لعزة: امتحني لطف محلك عندي وقوة محبتي لك، وعامليني بالإساءة. والإحسان، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسينة كنت أو محسنة؟ وفي معناه قول القائل:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ قُمْتَ بِالسِّيفِ عَامِداً لَتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَفْثِكَ فِي الْوُدِّ

وكذلك المعنى: أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه؟ فإن قلت: ما الغرض في نفي التقبل؟ أهو ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبله منهم ورده عليهم ما يبذلون منه؟ أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ذاهباً هباءً لا ثواب له؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً. وقوله: "طوعاً أو كرهاً" معناه طائعين. من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين. وسمي الإلزام إكراهاً، لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه. أو طائعين من غير إكراه من رؤسائهم، لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم. وروي: أنها نزلت في الجذب بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا مالي أعينك به فاتركني" إنكم" تعليل لرد إنفاقهم. والمراد بالفسق: التمرد والعتو.

"وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون".

"إنهم" فاعل منع. وهم، وأن تقبل مفعولاه. وقرئ: "أن تقبل، بالتاء والياء على البناء للمفعول. ونفقاتهم، ونفقتهم، على الجمع والتوحيد. وقرأ السلمي: "أن يقبل منهم نفقاتهم" على أن الفعل لله عز وجل "كسالى" بالضم والفتح، جمع كسلان، نحو سكارى وغيارى، في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً، ولا يخشون بتركها عقاباً فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى: "وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين" البقرة: 45، وقرأت في بعض الأخبار: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول: كسلت. كأنه ذهب إلى هذه الآية، فإن الكسل من صفات المنافقين، فما ينبغي أن يسند المؤمن إلى نفسه. فإن قلت: الكراهية خلاف الطوعية وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله "طوعاً" ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون. قلت: المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

"فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بما في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون". الإعجاب بالشيء: أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه. والمعنى: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، كقوله تعالى: "ولا تمدن عينيك" طه: 131، فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب، بأن عرضه للتعذب والسبي، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير، وهم كارهون له على رغم أنوفهم، وأذاقهم أنواع الكلف والجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم. فإن قلت: إن صح تعليق التعذيب بإرادة الله تعالى، فما بال زهوق أنفسهم "وهم كارهون"؟ قلت: المراد الاستدراج بالنعم، كقوله تعالى: "إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً" آل عمران: 178، كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

"يخلفوا بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه مهم يجمعون".

"لنكم" من جملة المسلمين "يفرقون" يخافون القتل وما يفعل بالمشركون، فيتظاهرون بالإسلام تقية "ملجأ" مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة "أو مغارات" أو غيراً. وقرئ بضم الميم، من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور. وقيل: هو تعدي غار الشيء وأغرته أنا، يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم. ويجوز أن يكون من: أغار الثعلب، إذا أسرع، بمعنى مهارب ومفار "أو مدخلاً" أو نفقاً يندسون فيه وينجحرون، وهو مفتعل من الدخول. وقرئ مدخلاً من دخل ومدخلاً من أدخل: مكاناً يدخلون فيه أنفسهم. وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: متدخلاً وقرئ: لو ألوا إليه لالتجوا إليه "يجمعون" يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء؟ من الفرس الجموح، وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام. وقرأ أنس رضي الله عنه: يجمعون. فسئل فقال: يجمعون ويجمعون ويشتدون واحد. "ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون".

"يلمزك" يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك. قيل: هم المؤلف قلوبهم. وقيل: هو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله عليه وسلامه: "ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟" وقيل: هو أبو الجواظ، من المنافقين، قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم، وهو يزعم أنه يعدل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أبالك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً" فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام "احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون". وقرئ: يلمزك بالضم، ويلمزك ويلازمك. التثقيب والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز. ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين وما فيه صلاح أهله، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه. وإذا للمفاجأة: أي وإن لم يعطوا منها فاجؤا للسخط.

"ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون". جواب لو محذوف تقديره: لو أنهم رضوا لكان خيراً لهم. والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قل نصيبهم وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى

فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما أتانا اليوم "إنا إلى الله" في أن يغنمنا ويحولنا فضله لراغبون .
"إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم".

"إنما الصدقات للفقراء" قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها، لا تتجاوزها إلى غيرها، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم. ونحوه قولك: إنما الخلافة لقريش، تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها، وعليه مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجزيتهم بما كان أحب إلي. وعند الشافعي رضي الله عنه، لا بد من صرفها إلى الأصناف الثمانية وعن عكرمة رضي الله عنه أنها تفرق في الأصناف الثمانية. وعن الزهري أنه كتب لعمر بن عبد العزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية "والعاملين عليها" السعاة الذين يقبضونها "والمؤلفة قلوبهم" أشرف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة. والرقاب: المكاتبون يعانون منها. وقيل: الأسارى. وقيل: تبتاع الرقاب فتعتق "والغارمين" الذين ركبته الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب. وقيل: الذين تحملوا الحملات فتدائوا فيها وغرموا "وفي سبيل الله" فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم "وابن السبيل" المسافر المنقطع عن ماله فهو فقير حيث هو غني حيث ماله "فريضة من الله" في معنى المصدر المؤكد، لأن قوله إنما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم. وقرئ: فريضة بالرفع على: تلك فريضة. فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى "في" في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره، لأن "في" للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباحاً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، وجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن أهل المال، وتكرير "في" في قوله: "وفي سبيل الله وابن السبيل" فيه فضل ترجيح لهما على الرقاب والغارمين. فإن قلت: فكيف وقعت هذه الآية في تضاعف ذكر المنافقين ومكائدهم؟ قلت: دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم، حسماً لأطماعهم وإشعاراً باستيلاجهم الحرمان، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها، فما لهم وما لها؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه؟.

"ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين رحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم".

الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي بالجراحة التي هي آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم للريثة . عين. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه "هو أذن". وأذن خير، كقولك: رجل صدق، تريد

الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك ودل عليه قراءة حمزة ورحمة بالجر عطفاً عليه أي: هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخالص من المهاجرين والأنصار، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركون، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه، إلا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة. وقيل: إن جماعة منهم ذموا صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك، فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم: لا عليكم فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا أيضاً فيرضى، فقيل: هو أذن خير لكم. وقرئ: أذن خير لكم، على أن أذن خير مبتدأ محذوف؟ وخير كذلك، أي هو أذن هو خير لكم يعني إن كان كما تقولون فهو خير لكم، لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم. وقرأ نافع بتخفيف الذال. فإن قلت: لم عدي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين باللام؟ قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، فعدي بالباء وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقهم، لكونهم صادقين عنده، فعدي باللام، ألا ترى إلى قوله: "وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين" يوسف: 17، ما أنبأه عن الباء. ونحوه: "فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه" يونس: 83، "أنؤمن لك واتبعك الأرذلون" الشعراء 111، "آمنتم له قبل أن أذن لكم" طه: 71، فإن قلت: ما وجه قراءة ابن أبي عبلة: ورحمة بالنصب؟ قلت: هي علة معللها محذوف تقديره: ورحمة لكم يأذن لكم، فحذف لأن قوله: "أذن خير لكم" يدل عليه.

"يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين".
 "لكم ليرضوكم" الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم، ف قيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أَرْضَيْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْوَفَاقِ. وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فكانا في حكم مرضي واحد، كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني. أو والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك.

"ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم".
 اخادة مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق "فإن له" على حذف الخبر، أي: فحق أن له "نَارِ جَهَنَّمَ" وقيل: معناه فله، وأن: تكرير؟ لأن في قوله: "إنه" تأكيداً، ويجوز أن يكون "فإن له" معطوفاً على أنه، على أن جواب "من" محذوف تقديره: ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له نار جهنم. وقرئ: "ألم تعلموا" بالتاء.
 "يبحر المنافقون أن أنزل عليهم سورة تنبؤهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون".

كانوا يستهزؤون بالإسلام وأهله وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم، حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله، لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة، وأن لا يترل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبئهم

للمؤمنين. وفي قلوبهم: للمنافقين.

وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه. ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين، لأن السورة إذا نزلت في معانهم فهي نازلة عليهم. ومعنى تنبئهم بما في قلوبهم كأنها تقود لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنما تخبرهم بها. وقيل: معنى يحذر: الأمر بالحذر، أي ليحذر المنافقون. فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: "يحذر المنافقون أن أنزل عليهم سورة" فما معنى قوله: "مخرج ما تحذرون"؟ قلت: معناه محصل مبرز إنزال السورة. أو أن الله مظهر ما كنتم تحذرونه، أي تحذرون إظهاره من نفاقكم. "ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين".

بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا علي الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر: "أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون" لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود منهم، حتى ونحوا بأخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته "لا تعتذروا" لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سرهم "قد كفرتم" قد ظهر كفرهم باستهزائكم "بعد إيمانكم" بعد إظهاركم الإيمان "إن نعف عن طائفة منكم" بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق "نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين" مصرين على النفاق غير تائبين منه. أو أن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستهزئوا فلم نعذبهم في العاجل نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مستهزئين. وقرأ مجاهد: إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث، والوجه التذكير: لأن المسند إليه الظرف، كما تقول: سير بالدابة. ولا تقول: صيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى، كأنه قيل: إن ترحم طائفة، فأنت لذلك وهو غريب، والجيد قراءة العامة: إن يعف عن طائفة، بالتذكير. وتعذب طائفة، بالتأنيث.

وقرى: إن يعف عن طائفة يعذب طائفة، على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

"المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبيهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم".

"بعضهم من بعض" أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: "ويحلفون بالله إنهم لمنكم" التوبة: 56، وتقدير قوله: "وما هم منكم" التوبة: 56، ثم وصفهم بما يدل على مضادة حال المؤمنين "يأمرون بالمنكر"

بالكفر والمعاصي "وينهون عن المعروف" عن الإيمان والطاعات "ويقبضون أيديهم" شحاً بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله "نسوا الله" أغفلوا ذكره "فنسيتهم" فتركهم من رحمته وفضله "هم الفاسقون" هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كسلت، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله: "كسالى" النساء: 142، فما ظنك بالفسق "خالدين فيها" مقدرين الخلود "هي حسبهم" دلالة على عظم عذابها، وإنه لا شيء أبلغ منه، وأنه بحيث لا يزداد عليه، نعوذ بالله من سخطه وعذابه "ولعنهم الله" وأهانهم من التعذيب، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملعين، كما عظم أهل الجنة وأحقهم بالملائكة المكرمين "ولهم عذاب مقيم" ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار، مقيم دائم كعذاب النار. ويجوز أن يريد: ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن، خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

"كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقكم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون".

الكاف محلها رفع على: أنتم مثل الذين من قبلكم. أو نصب على: فعلتم ما فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا. ونحوه قول النمر:

كاليوم مطلوباً لا طلباً

ياضمار لم أر وقوله: "كانوا أشد منكم قوة" تفسير لتشبيههم بهم، وتمثيل فعلهم بفعلهم. والخلق: النصيب وهو ما خلق للإنسان، أي قدر من خير، كما قيل له قسم لأنه قسم ونصيب، لأنه نصب، أي أثبت. أو الخوض: الدخول في الباطل واللهو "كالذين خاضوا" كالفرج الذي خاضوا، وكالخوض الذي خاضوه. فإن قلت: أي فائدة في قوله: "فاستمتعوا بخلاقهم" وقوله: "كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقكم" مغن عنه كما أغنى قوله: "كالذين خاضوا" عن أن يقال: وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟ قلت: فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة، وأن يخس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الرضى به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله. و"وخضتم كالذي خاضوا" فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة "حبطت أعمالكم في الدنيا والآخرة" نقيض قوله: "وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين" العنكبوت: 27.

"ألم يأثم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

"وأصحاب مدين" وأهل مدين وهم قوم شعيب "والمؤتفكات" مدائن قوم لوط. وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح. وائتفاكهن: انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر "فما كان الله ليظلمهم" فما صح منه أن يظلمهم وهو

حكيم لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

"والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله ذلك هو الفوز العظيم".

"بعضهم أولياء بعض" في مقابلة قوله في المنافقين: "بعضهم من بعض". "سيرهم الله" السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في قولك: سأنتقم منك يوماً، تعني أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه "سيجعل لهم الرحمن وداً" مريم: 96، "ولسوف يعطيك ربك فترضى" الضحى: 5، "سوف يؤتيهم أجورهم" النساء: 152، "عزيز" غالب على كل شيء قادر عليه، فهو يقدر على الثواب والعقاب "حكيم" واضع كلا موضعه على حسب الاستحقاق "ومساكن طيبة" عن الحسن: قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد. و "عدن" علم، بدليل قوله: "جنات عدن التي وعد الرحمن" مريم: 61، ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصديقون، والشهداء. يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك" وقيل: هي مدينة في الجنة. وقيل: نهر جناته على حافته "ورضوان من الله أكبر" وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتنهأ له برضاه، كما إذا علم بسخطه تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة وإن عظمت. وسمعت بعض أولي الهمة البعيدة والنفس المرة من مشايخنا يقول: لا تطمح عيني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة، كما تطمح وتنزع إلى رضاه عني، وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده "ذلك" إشارة إلى ما وعد الله، أو إلى الرضوان: أي هو "الفوز العظيم" وحده دون ما يعده الناس فوزاً. وروي: أن الله عز وجل يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً.

"يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير".

"جاهد الكفار" بالسيف "والمنافقين" بالحجة "وأغلظ عليهم" في الجهادين جميعاً، ولا تحايمهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها، وعن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفره في وجهه فإن لم يستطع فبقلبه. يريد الكراهة والبغضاء والتبرأ منه. وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

"يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعدبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير".

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين يتزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من

معه منهم، منهم الجلاس بن سويد. فقال الجلاس: والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا، فتحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل، والله إن محمداً لصديق وأنت شر بن الحمار. وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فترلت "يخلفون بالله ما قالوا" فقال الجلاس: يا رسول الله، لقد عرض الله علي التوبة. والله لقد قلته وصدق عامر، فتاب الجلاس وحسنت توبته "وكفروا بعد إسلامهم" وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام "وهو بما لم ينالوا" وهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند مرجعه من تبوك:

توالت خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا. وقيل: هم المنافقون بقتل عامر لرده على الجلاس. وقيل: أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم "ما نقوموا" وما أنكروا وما عابوا "إلا أن أغناهم الله" وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى "فإن يتوبوا" هي الآية التي تاب عندها الجلاس "في الدنيا والآخرة" بالقتل والنار.

"ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبتهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون".

روى أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال صلى الله عليه وسلم: "يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه" فراجعته وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فزول وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد. قال: "يا ويح ثعلبة" فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرا بن ثعلبة فسألاه الصدقة وأقره كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: ارجعاً حتى أرى رأي، فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه: "يا ويح ثعلبة" مرتين، فترلت، فجاءه ثعلبة بالصدقة، فقال: "إن الله منعني أن أقبل منك" فجعل التراب على رأسه فقال: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء بها إلى أبي بر رضي الله عنه فلم يقبلها، وجاء إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه. وقرئ: "لنصدقن ولنكونن" بالنون الخفيفة فيهما "من الصالحين" قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد الحج "فأعقبهم" عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما: أن الضمير للبخل. يعني: فأورثهم البخل "نفاقاً" متمكناً "في قلوبهم" لأنه كان سبباً فيه وداعياً إليه. والظاهر أن الضمير لله عز وجل. والمعنى: فخذلهم حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب

إخلافهم ما وعدوا الله من الصدق والصلاح وكوّنهم كاذبين. ومنه: جعل خلف الوعد ثلث النفاق. وقرئ: يكذبون بالتشديد، وألم تعلموا، بالتاء. عن علي رضي الله عنه.

"ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب".

"سرهم ونجواهم" ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها.

"الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم".

"الذين يلمزون" محله النصب أو الرفع على الذم. ويجوز أن يكون في محل الجر بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم. وقرئ: يلمزون، بالضم "المطوعين" المتطوعين المتبرعين. روي:

ما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب. وقيل: بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع من تمر فقال: بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشره على الصدقات، فلمزمهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحمى أن يذكر بنفسه ليعطي من الصدقات، فترلت "إلا جهدهم" إلا طاقتهم. قرئ بالفتح والضم "سخر الله منهم" كقوله: "الله يستهزئ بهم" البقرة: 15، في أنه دعاء. ألا ترى إلى قوله: "ولهم عذاب أليم".

"استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين".

سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً صالحاً أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل، فترلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين" فترلت: "سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم" المنافقون: 6، وقد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر، كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط، وذكرنا النكتة في الحجيء به على لفظ الأمر، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير، قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

سبعين ألفاً عاقدي النواصي

لأصبحن العاص وابن العاصي

فإن قلت: كيف خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار، كيف وقد تلاه بقوله: "ذلك بأنهم كفروا" الآية فين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين قلت: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهاراً

لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه، كقول إبراهيم عليه السلام "ومن عصاني فإنك غفور رحيم" إبراهيم: 36، وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة: لطف لأفته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض. "فرح المخلفون بمقعدهم خلف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون".

"المخلفون" الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان "بمقعدهم" بقعودهم عن الغزو "خلف رسول الله" خلفه. يقال: أقام خلاف الحي. بمعنى بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم، وتشهد له قراءة أبي حنيفة: خلف رسول الله. وقيل: هو بمعنى المخالفة لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال، أي قعدوا لمخالفته أو مخالفين له "أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم" تعريض للمؤمنين وتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض. وكره ذلك المنافقون. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان "قل نار جهنم أشد حراً" استجهال لهم، لأن من تصون من مشقة ساعة فوق بسبب ذلك التصون في مشقة الأبد، كان أجهل من كل جاهل: ولبعضهم:

مساة يوم أريها شبه الصاب

مسرة أحقاب تلقيت بعدها

وراء تقضيها مساة أحقاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة

"فليضحكوا قليلاً وليكوا كثيراً بما كانوا يكسبون".

معناه: فسيضحكون قليلاً، ويككون كثيراً "جزاء" إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق ييكون في النار عمر الدنيا، لا يرقاً لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.

"فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين".

وإنما قال "إلى طائفة منهم" لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح. وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم "فاستأذنوك للخروج" يعني إلى غزوة بعد غزوة تبوك. "أول مرة" هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين "مع الخالفين" قد مر تفسيره. وقرأ مالك بن دينار رحمه الله: مع الخلفين على قصر الخالفين. فإن قلت: "مرة" نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال! على واحدة من المرات؟ قلت: أكثر اللغتين: هند أكبر النساء، وهي أكبرهن. ثم إن قولك: هي كبرى امرأة، لا تكاد تعثر عليه. ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة وآخر مرة.

وعن قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً قيل فيهم ما قيل.

"ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بآيات الله ورسوله وماتوا وهم فاسقون، ولا

تعجبك أمواهم ولا أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترحق أنفسهم وهم كافرون".

روي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبي بعث إليه ليأتيه، فلما دخل عليه قال: أهلكك حب اليهود. فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبي وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته، فسأله عن اسمه فقال: أنت عبد الله ابن عبد الله. الحباب: اسم شيطان، فلما هم بالصلاة عليه قال له عمر: أتصلي على عدو الله، فزلت وقيل: أراد أن يصلي عليه فجذبه جبريل. فإن قلت: كيف جازت له تكريمة المنافق وتكفينه في قميصه؟ قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له. وذلك أن العباس رضي الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيراً ببدر لم يجدوا له قميصاً وكان رجلاً طوالاً، فكساه عبد الله قميصه.

وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأذن لحمد ولكننا نأذن لك، فقال: لا، إن لي في رسول الله أسوة حسنة فشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك، وإجابة له إلى مسئلته إياه، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً، وكان يتوفر على دواعي المروءة ويعمل بعبادات الكرام، وإكراماً لابنه الرجل الصالح، فقد روي: أنه قال له: أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك، وأن تقوم على قبره، ولا يشمت به الأعداء، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان، وليكون إلباسه إياه لطفاً لغيره، فقد روي أنه قيل له: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً، وإنني أومل في الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك ترجمه واستغفاره كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف، لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتماً عليه. فإن قلت: فكيف جازت الصلاة عليه؟ قلت: لم يتقدم نهي عن الصلاة عليهم، وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم، لما في ذلك من المصلحة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما أدري ما هذه الصلاة، إلا أتي أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخادع "مات" صفة لأحد. وإنما قيل: مات، وماتوا بلفظ الماضي والمعنى على الاستقبال على تقدير الكون والوجود، لأنه كائن موجود لا محالة "إنهم كفروا" تعليل للنهي، وقد أعيد قوله: "ولا تعجبك" لأن تجدد التزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهتم يفتقر إلى فضل عناية لا سيما إذا تراخى ما بين التزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

"وإذا نزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك ألوأ الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين، رضوا بأن يكونوا من الخوالم وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأمواهم وأنفسهم وأولئك هم الخيرات وأولئك هم المفلحون، أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم".

يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها في قوله: "إذا نزلت سورة" كما يقع القرآن والكتاب على كله

وعلى بعضه. وقيل: هي براءة، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد "أن آمنوا" هي أن المفسرة "ألوا الطول" ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طولاً "مع القاعدين" مع الذين لهم علة وعذر في التخلف "فهم لا يفقهون" ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك "لكن الرسول" أي إن تخلف هؤلاء فقد نهد إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً، كقوله: "فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلما بها قوماً" الأنعام: 89، "فإن استكبروا فالذين عند ربك" فصلت: 38، "الخيرات" تناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ. وقيل: الحور، لقوله: "فيهن خيرات" الرحمن: 70.

"وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم". "المعذرون" من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد: وحقيقته أنه يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له: أو المعتذرون يادغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لإتباع الميم، ولكن لم تثبت بهما قراءة، وهم الذين يعتذرون بالباطل، كقوله: "يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم" وقرئ: المعتذرون بالتخفيف: وهو الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه. قيل: هم أسد وغطفان. قالوا: إن لنا عيلاً: وإن بنا جهداً فأذن لنا في التخلف. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهاليها ومواشيها، فقال صلى الله عليه وسلم: "سيغني الله عنكم". وعن مجاهد: نفر من غفار، اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى: وعن قتادة: اعتذروا بالكذب. وقرئ: المعتذرون بتشديد العين والذال، من تعذر بمعنى اعتذر، وهذا غير صحيح، لأن التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد، في المطوعين، وأزكى وأصدق. وقيل: أريد المعتذرون بالصحة، وبه فسر المعذرون والمعذرون، على قراءة ابن عباس رضي الله عنه الذين لم يفرطوا في العذر "قعد الذين كذبوا الله ورسوله" هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان. وقرأ أي: كذابوا بالتشديد "سيصيب الذين كفروا منكم" من الأعراب "عذاب أليم" في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

"ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على الحسنين من سبيل والله غفور رحيم، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون". "الضعفاء" الهرمى والزمنى. والذين لا يجدون: الفقراء. وقيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح لله ورسوله: الإيمان بهما، وطاعتهم في السر والعلن، وتوليهم، والحب والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه "على العاملين" على المعذورين الناصحين، ومعنى: لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم. ولا طريق للعاتب عليهم "فقلت لا أحد" حال من الكاف في "أتوك" وقد قبله مضمرة، كما قيل في قوله: "أو جاءكم حصرت صدورهم" النساء: 90، أي إذا ما أتوك قاتلاً لا أجد "تولوا" ولقد حصر الله المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها. وقيل: المستحملون أبو موسى الأشعري وأصحابه. وقيل: البكاؤون، وهم ستة نفر من الأنصار "يفيض من الدمع" كقولك: تفيض دمعاً، وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض، ومن للبيان كقولك: أفديك من رجل، ومحل الجار والجرور النصب على

التمييز "ألا يجدوا" لئلا يجدوا. ومحله نصب على أنه مفعول له، وناصبه المفعول له الذي هو حزناً.

"إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون، يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون".

فإن قلت: "رَضُوا" ما موقعه؟ قلت: هو استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالم "وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ" يعني أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم. فإن قلت: فهل يجوز أن يكون قوله: "قلت لا أجد" استئنافاً مثله، كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحميمهم تولوا، فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: قلت لا أجد ما أحملك عليه. إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاغتراض قلت: نعم ويحسن "لن نؤمن لكم" علة في عن الاعتذار، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال وقوله: "قد نبأنا الله من أخباركم" علة لانتفاء تصديقهم لأن الله عز وجل إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم "وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ" أتنبئون أم تثبتون على كفركم "ثم تردون" إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلائية، فيجازيكم على حسب ذلك.

"سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون".

"لتعرضوا عنهم" فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم "فأعرضوا عنهم" فأعطوهم طلبتهم "إنهم رجس" تعليل لترك معاتبتهم، يعني أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة. والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه، ليظهره التوبخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم "مأواهم جهنم" يعني وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً، فلا تتكلفوا عتابهم.

"يحلّفون لكم لترضوا عنهم فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين".

"لترضوا عنهم" أي غرضهم في الحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم "فإن رضوا عنهم" فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساعطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وأجلها. وقيل: إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم. وقيل: هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلاً منافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة: "لا تجالسوهم ولا تكلموهم". وقيل: جاء عبد الله بن أبي حلف أن لا يتخلف عنه أبداً.

"الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم".

"الأعراب" أهل البدو "أشد كفراً ونفاقاً" من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشتمهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة "وأجدر ألا يعلموا" وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الجفاء والقسوة في الفدادين". "وَاللَّهُ عَلِيمٌ" يعلم حال كل أحد من أهل الوبر

والمدرك "حكيم" فيما يصيب به مسيئتهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.
"ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم".

"مغرمًا" غرامة وخسرانًا. والغرامة: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله عز وجل وابتغاء المثوبة عنده "ويتربص بكم الدوائر" دوائر الزمان: دوله وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة "عليهم دائرة السوء" دعاء معترض، دعى عليهم بنحو ما دعوا به، كقوله عز وجل: "وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم" المائدة: 64، وقرئ السوء بالضم وهو العذاب، كما قيل له سيئة. والسوء بالفتح، وهو ذم للدائرة، كقولك: رجل سوء، في نقيض قولك: رجل صدق، لأن من دارت عليه ذام لها "والله سميع" لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة "عليم" بما يضمرون. وقيل: هم أعراب أسد وغطفان وقيم "قربات" مفعول ثانٍ ليتخذ. والمعنى: أن ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله "وصلوات الرسول" لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله: "اللهم صل على آل أبي أوفى" وقال تعالى: "وصل عليهم" التوبة: 103، فلما كان ما ينفق سببًا لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قربات وصلوات "إلا أنها" شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف، مع حربي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك "سيدخلهم" وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ: قربة بضم الراء. وقيل: هم عبد الله وذو البجادين ورهطه.

"والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم".

"والسابقون الأولون من المهاجرين" هم الذين صفوا إلى القبلتين. وقيل: الذين شهدوا بدرًا. وعن الشعبي: من بايع بالحديبية وهي بيعة الرضوان ما بين الهجرتين "و" من "الأنصار" أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن. وقرأ عمر رضي الله عنه: "والأنصار" بالرفع عطفًا على "السابقون". وعن عمر أنه كان يرى أن قوله: "والذين اتبعوهم بأحسن" بغير واو صفة للأنصار، حتى قال له زيد: إنه بالواو، فقال: انتوني بأبي، فقال تصديق ذلك في أول الجمعة "وآخرين منهم" الجمعة: 3، وأوسط الحشر "والذين جاءوا من بعدهم" الحشر: 10، وآخر الأنفال "والذين آمنوا من بعد" الأنفال: 75،. وروي: أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو، فقال: من أقرأك؟ قال: أبي، فدعاه فقال: أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنك لتبيع القرظ بالبيع، قال: صدقت، وإن شئت قلت: شهدنا وغبتم، ونصرنا وخذلتهم، وآوينا وطردتم. ومن ثم قال عمر: لقد كنت أرانا رفعا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، وارتفع السابقون بالابتداء، وخبره "رضي الله عنهم" ومعناه: رضي عنهم لأعمالهم "ورضوا عنه" لما أفاض عليهم من نعمته الدينية

والدنيوية وفي مصاحف أهل مكة: تجري من تحتها، وهي قراءة ابن كثير، وفي سائر المصاحف: تحتها، بغير من. "ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم وسنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب أليم".

"ومن حولكم" يعني حول بلدتكم وهي المدينة "المنافقون" وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها "ومن أهل المدينة" عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على أن "مردوا" صفة موصوف محذوف كقوله:

أنا ابن جلا

وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاماً مبتدأ أو صفة لمنافقون، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره "مردوا على النفاق" تمهروا فيه، من مرّن فلان عمله، ومرد إليه: إذا درب به وضرى، حتى لأن عليه ومهر فيه، ودل على مراتبهم عليه ومهارتهم فيه بقوله: "لا تعلمهم" أي يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك، ورض تنوقهم في تحامي ما يشكك في أمرهم، ثم قال: "نحن نعلمهم" أي لا يعلمهم إلا الله، ولا يطلع على سرهم غيره، لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطاناً، ويرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين، لا تشك معه في إيمانهم، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه اليد الطولى "سنعذبهم مرتين" قيل: هما القتل وعذاب القبر. وقيل: الفضيحة وعذاب القبر. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنهم اختلفوا في هاتين المرتين، فقال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة فقال: "اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق" فأخرج ناساً وفضحهم فهذا العذاب الأول، والثاني عذاب القبر. وعن الحسن: أخذ الزكاة من أموالهم ونمك أبدانهم "إلى عذاب عظيم" إلى عذاب النار.

"وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم". "اعترفوا بذنوبهم" أي لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بنس ما فعلوا متذممين نادمين، وكانوا ثلاثة: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعه بن حزام. وقيل: كانوا عشرة، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم، بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك، فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته صلى الله عليه وسلم كلما قدم من سفر فرآهم موثقين، فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يخلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يخلصهم، فقال: وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أؤمر فيهم، فترلت، فأطلقهم وعذرهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا، فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فترلت: خذ من أموالهم "عملاً صالحاً" خروجاً إلى الجهاد "وآخر سيئاً" تخلفاً عنه. عن الحسن وعن الكلبي: التوبة والإثم. فإن قلت: قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به، قلت: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به؟ لأن المعنى خلط كل واحد منهما الآخر، كقولك: خلطت الماء واللبن، تريد: خلطت كل واحد منهما بصاحبه. وفيه ما

ليس في قولك: خلطت الماء باللبن؟ لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء، ويجوز أن يكون من قولهم: بعت الشاة شاة ودرهماً، بمعنى شاة بدرهم. فإن قلت: كيف قيل: "أن يتوب عليهم" وما ذكرت توبتهم؟ قلت: إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، فقد ذكرت توبتهم.

"خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم".
"تطهرهم" صفة لصدقة. وقرئ: تطهرهم من أظهره بمعنى طهره. وتطهرهم، بالجزم جواباً للأمر. ولم يقرأ "وتزكيهم" إلا بإثبات الياء. والتاء في "تطهرهم" للخطاب أو لغيبة المؤنث. والتركية: مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال "وصل عليهم" واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصدق لصاحب الصدقة إذا أخذها. وعن الشافعي رحمه الله: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: أجرك الله فيما أعطيت، وجعله طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت. وقرئ: إن صلاتك على التوحيد "سكن لهم" يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم "والله سميع" يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاهم "عليم" بما في ضمائرهم، والغنم من الندم لما فرط منهم.

"ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وإن الله هو التواب الرحيم".

قرئ: "ألم يعلموا" بالياء والتاء، وفيه وجهان، أحدهما: أن يراد المتوب عليهم، يعني: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم "أن الله هو يقبل التوبة" إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو للتخصيص والتأكيد، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين. وقيل: معنى التخصيص في هو: أن ذلك ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه.
"قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون".
"وقل هؤلاء التائبين اعملوا" فإن عملكم لا يخفى خيراً كان أو شراً على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم.
والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة، فقد روي أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فترلت. فإن قلت: فما معنى قوله: "وبأخذ الصدقات" قلت: هو مجاز عن قبوله لها، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل والمعنى: أنه يتقبلها ويضاعف عليها، وقوله: "فسيرى الله" وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.
"وآخرون مجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم".

قرئ: مرجون ومرجؤن من أرجيته، وأرجأته: إذا أخرته. ومنه المرجئة، يعني: وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم "إما يعذبهم" إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا "وإما يتوب عليهم" إن تابوا، وهم ثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله تعالى، وأخلصوا نياهم، ونصحت توبتهم، فرحمهم الله "والله عليم حكيم" وفي قراءة عبد الله:

غفور رحيم. وإما للعباد: أي خافوا عليهم العذاب وارجوا لهم الرحمة.

"والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون، لا تقم فيهم أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين".

في مصاحف أهل المدينة والشام: الذين اتخذوا بغير واو، لأنها قصة على حياها. وفي سائرهما بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم. روي:

أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبي مسجداً ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوانهم، وهو الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد: لا أجد قوماً يقتلوك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين. أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود وخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجداً يحب مسجد قباء، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال صلى الله عليه وسلم: إني على جناح سفر وحال شغل. وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه، فلما قفل من غزوة تبوك سأله إتيان المسجد، فترلت عليه، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه، ففعلوا، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين "ضراراً" مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة "وكفروا" وتقوية للنفاق "وتفريقاً بين المؤمنين" لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتنص بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم "وإرصاداً" وإعداداً "ل" أجل "من حارب الله ورسوله" وهو الراهب: أعدوه له ليصلي فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار. وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه، فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً. وعن عطاء: لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن ينوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه، فإن قلت: "والذين اتخذوا" ما محله من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الاختصاص.

كقوله: "المقيم الصلاة" النساء: 162، وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله: "والسارق والسارقة" المائدة: 38، فإن قلت: بم يتصل قوله: "من قبل"؟ قلت: باتخذوا، أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف "إن أردتم" ما أردنا ببناء هذا المسجد "إلا" الخصلة "الحسنى" أو الإرادة الحسنة، وهي

الصلاة. وذكر الله والتوسعة على المصلين "المسجد أسس على التقوى" قيل: هو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقاء، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة، وهو

أولى، لأن الموازنة بين مسجدي قباء أوقع. وقيل: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وعن أبي سعيد الخدري: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال: "هو مسجدكم هذا مسجد المدينة". "من أول يوم" أول يوم من أيام وجوده "فيه رجال يحبون أن يتطهروا" قيل:

لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم، ثم أعادها: فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم. فقال صلى الله عليه وسلم: "أترضون بالقضاء" لما قالوا: نعم، قال: "أتصبرون على البلاء" قالوا: نعم. قال: "أتشكرون في الرخاء؟" قالوا: نعم. قال صلى الله عليه وسلم: "مؤمنون ورب الكعبة". فجلس ثم قال: يا معشر الأنصار، إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط، فقالوا: يا رسول الله، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء. فتلا النبي صلى الله عليه وسلم: "رجال يحبون أن يتطهروا". وقرئ: أن يطهروا بالإدغام. وقيل: هو عام في التطهر من النجاسات كلها. وقيل: كانوا لا ينامون الليل على الجنباء، ويتبعون الماء أثر البول. وعن الحسن: هو التطهر من الذنوب بالتوبة. وقيل: يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم، فحموا عن آخرهم. فإن قلت: ما معنى المحبتين؟ قلت: محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص الحب للشيء المشتبه له على إثارة. ومحبة الله تعالى إياهم: أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم، كما يفعل الحب بمحبوبه.

"أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فأنهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين".

قرئ: أسس بنيانه وأسس بنيانه، على البناء للفاعل والمفعول. وأسس بنيانه، جمع أساس على الإضافة، وأساس بنيانه، بالفتح والكسر: جمع أس، وأساس بنيانه على وأفعال، جمع أس أيضاً، وأس بنيانه. والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه "خير أم من" أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرعاها وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل "شفا جرف هار" في قلة الثبات والاستمسك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى، لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. فإن قلت: فما معنى قوله: "فأنهار به في نار جهنم"؟ قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل: فأنهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فأنهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها. ، والشفا: الحرف والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط. ووزنه فعل، قصر عن فاعل، كخلف من خالف. ونظيره: شاك وصات، في شائك وصات. وألفه ليست بألف فاعل، إنما هي عينه. وأصله هور وشوك وصوت. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره. وقرئ: جرف، بسكون الراء: فإن قلت: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر: على تقوى من الله، بالتونين؟ قلت: قد جعل الألف للإحاق لا للتأنيث، كترى فيمن نؤن، ألحقها بجعفر. وفي مصحف أبي: فأنهارت به قواعده. وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منه. وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في

مسجد الضرار، فكلهم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لجمع فيؤمهم في مسجدهم فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجل علي، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أنني لا أعلم ما أضمرُوا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فعذره وصدقته وأمره بالصلاة بقومه.

"لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم".

"ريبة" شكاً في الدين ونفاقاً وكان القوم منافقين، وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عز وجل: "ضراراً كفراً" التوبة: 107، فلما هدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ازدادوا لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم تصميماً على النفاق ومقتاً للإسلام، فمعنى قوله: "لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم" لا يزال هدمه سبب شك، ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره "إلا أن تقطع قلوبهم" قطعاً وتفرق أجزاء، فحينئذ يسلمون عنه. وأما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها. ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار. وقرئ: يقطع بالياء. وتقطع بالتخفيف. وتقطع بفتح التاء بمعنى تتقطع. وتقطع قلوبهم، على أن الخطاب للرسول أي إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم. وقرأ الحسن: إلى أن، وفي قراءة عبد الله: ولو قطعت قلوبهم. وعن طلحة: ولو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب. وقيل: معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

"إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم".

مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروع. وروي: تاجرهم فأعلى لهم الثمن. وعن عمر رضي الله عنه فجعل لهم الصفقتين جميعاً. وعن الحسن: أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها. وروي: أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: لكم الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقييل ولا نستقيل. ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي وهو يقرأها فقال: كلام من؟ قال كلام الله. قال: بيع الله مريح لا نقييله ولا نستقيله، فخرج إلى الغزو فاستشهد "يقاتلون" فيه معنى الأمر، كقوله: "تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم" الصف: 11. وقرئ: فيقتلون ويقتلون على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول، وعلى العكس "وعداً" مصدر مؤكد. أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبتته "في التوراة والإنجيل" كما أثبتته في القرآن، ثم قال: "ومن أوفى بعهده من الله" لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

"التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون

لحدود الله وبشر المؤمنين".

"التائبون" رفع على المدح. أي: هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين. ويدل عليه قراءة عبد الله وأبي رضي الله عنهما: التائبين بالياء إلى: والحافظين، نصباً على المدح. ويجوز أن يكون جرّاً صفة للمؤمنين. وجوز الزجاج أن يكون مبتدأ خبره محذوف، أي: التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا، كقوله: "وكلا وعد الله الحسنى" النساء: 95، وقيل: هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون. ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره العابدون، وما بعده خبر بعد خبر، أي التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال. وعن الحسن: هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق. و"العابدون" الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها. و"السائحون" الصائمون شبهوا بذوي السباحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم. وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه.

"ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم". قيل: قال صلى الله عليه وسلم لعنه أبي طالب: "أنت أعظم الناس علي حقاً، وأحسنهم عندي يداً، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي"، فأبى فقال: لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه"، فترلت. وقيل:

لما افتتح مكة سأل أي أبويه أحدث به عهداً؟ فقيل: أملك آمنة، فزار قبرها بالأبواء، ثم قام مستعبراً فقال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمِّي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فترلت. وهذا أصح لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزل بالمدينة. وقيل: استغفر لأبيه. وقيل: قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا وذوي قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعنه "ما كان للنبي" ما صح له الاستغفار في حكم الله وحكمته "من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم" لأنهم ماتوا على الشرك.

"وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم". قرأ طلحة وما استغفر إبراهيم لأبيه، وعنه: وما يستغفر إبراهيم، على حكاية الحال الماضية "إلا عن موعدة وعدها إياه" أي وعدها إبراهيم أباه، وهو قوله: "لأستغفرن لك" الممتحنة: 4، ويدل عليه قراءة الحسن وحامد الراوية:

وعدها أباه. فإن قلت: كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ قلت: يجوز أن يظن أنه ما دام يرجي منه الإيمان جاز الاستغفار له، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي، لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر. ألا ترى إلى قوله عليه السلام لعنه: لأستغفرن لك ما لم أنه. وعن الحسن قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فلاناً يستغفر لأبائه المشركين، فقال: ونحن نستغفر لهم فترلت. وعن علي رضي الله عنه: رأيت

رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له، فقال: أليس قد استغفر إبراهيم. فإن قلت: فما معنى قوله: "فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه"؟ قلت: معناه: فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاءه عنه، قطع استغفاره فهو كقوله: "من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم" التوبة: 113. "أواه" فعال، من أواه كأل من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه. ومعناه أنه لفرط ترجمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له، مع شكاسته عليه، وقوله: لأرجنك.

"ما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم، إن الله له ملك السموات

والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير".

يعني ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالأستغفار للمشركين وغيره مما هي عنه وبين أنه محظور لا يؤخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ضاللاً، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان خطره عليهم وعلمهم أنه واجب الالتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم، كما لا يؤخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه. وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها: وهي أن المهدي للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل في حكم الإضلال، والمراد بما يتقون: ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر، ورد الوديعة فغير موقوف على التوقيف.

"لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم".

"لقد تاب الله على النبي" كقوله: "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" الفتح: 2، وقوله: "واستغفر لذنبك" وهو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح. وقيل: معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه، كقوله: "عفا الله عنك" التوبة: 43، "في ساعة العسرة" في وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشية واليوم:

غداة طفت علماء بكر بن وائل

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة

عشية قارعنا جذام وحميراً

إذا جاء يوماً وارثي يبتغي الغنى

يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر

والعسرة: حالمه في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر: يعتقب العشرة على بعير واحد. وفي عسرة من الزاد: تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والإهالة الرنخة، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء. وفي عسرة من الماء، حتى نحرروا الإبل واعتصروا فروثها. وفي شدة زمان، من حمارة القيظ ومن الجذب والقحط والضيقة الشديدة "كاد تزيغ قلوب فريق منهم" عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة والخروج معه. وفي كاد ضمير الشأن، وشبهه سيبويه بقولهم: ليس خلق الله مثله. وقرئ: يزيغ بالياء. وفي قراءة عبد الله: من بعد ما زاعت قلوب فريق منهم، يريد المتخلفين من المؤمنين كأبي لبابة وأمثاله "ثم تاب عليهم" تكرير للتوكيد. ويجوز أن يكون الضمير للفريق: تاب عليهم لكيد ودمهم. "وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم".

"الثلاثة" كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. ومعنى "خلفوا" خلفوا عن الغزو وقيل عن أبي لبابة وأصحابه حين تيب عليهم بعدهم وقرئ خلفوا أي خلفوا الغازين بالمدينة، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم. وقرأ جعفر الصادق رضي الله عنه: خالفوا. وقرأ الأعمش: "وعلى الثلاثة المخلفين" بما رحبت" برحبها، أي: مع سعتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقيمون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه "وضاقت عليهم أنفسهم" أي قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور، لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم "وظنوا" وعلموا "أن لا ملجأ من" سخط "الله إلا" إلى استغفاره "ثم تاب عليهم ليتوبوا" ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم ويشبوا وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة، علماً منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روي أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. منهم من بدا له وكره مكانه فلاحق به. عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه، ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله. ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطاني ولا خلفني إلا الضن بك لا جرم، والله لأكابدن المفاوز حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فركب ولحق به. ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال، فقال: يا نفس ما خلفني إلا حب الحياة لك والله كابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله، فتأبط زاده ولحق به. قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصبر عليها. وعن أبي ذر الغفاري: أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى سواده: كن أبا ذر، فقال الناس: هو ذاك، فقال: رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده".

وعن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فظفر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع" وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح. ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرتكالريح، فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق، فإذا برأي يزهاه السراب فقال: "كن أبا خيثمة" فكانه. ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له.

ومنهم من بقي لم يلحق به. منهم الثلاثة.

قال كعب: لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد علي كالمغضب بعد ما ذكرني وقال: "ليت شعري ما خلف كعباً؟" فقليل له: ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفه. فقال معاذ: "بس ما قلت والله يا رسول الله" ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً، ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة، فتكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقرهن فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا ببدء من ذروة سلع: أبشر يا كعب بن مالك فخررت ساجداً وكنت كما وصفني ربي "ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم" وتتابع البشارة، فليست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقام إلى طلحة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر: "أبشر يا كعب بخير

يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، ثم تلا علينا الآية وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطناً يغيط الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا تنفقوا نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون".

"مَعَ الصَّادِقِينَ" وقرئ: من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله: "رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه" الأحزاب: 23، وقيل: هم الثلاثة، أي كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب، أي كونوا مع المهاجرين والأنصار، ووافقوهم وانتظموا في جملتهم، وصدقوا مثل صدقهم. وقيل لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يصلح الكذب في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه.

اقرأوا إن شئتم: وكونوا مع الصادقين فهل فيها من رخصة؟ "ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه" أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتراب، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه. فإذا تعرضت مع كرامتها وعزها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً، وتكون أخص شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربنوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا فهي بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتوبيخ لمتابعتها بأنفة وحمية "ذلك" إشارة إلى ما دل عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا من وجوب مشايعته، كأنه قيل ذلك الوجوب "ب" سبب "أنهم لا يصيبهم" شيء من عطش، ولا تعب، ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بخوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم. ولا يتصرفون في أرضهم تصرفاً يغيطهم ويضيق صدورهم "لا ينالون من عدو نيلاً" ولا يرزءونهم شيئاً يقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك "إلا كتب لهم فيه عمل صالح" واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله، وذلك مما يوجب المشايعة. ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة، لا الوطء بالأقدام والخوافر، كقوله عليه السلام: "آخر وطأة وطئها الله بوج" والموطى. إما مصدر كالمورد وإما مكان فإن كان مكاناً فمعنى يغيط الكفار: يغيطهم وطئه والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً، وأن يكون بمنع النيل. ويقال: نال منه إذا رزأه ونقصه، وهو عام في كل ما يسؤوهم وينكبهم ويلحق بهم ضرراً. وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود ومشى وكلام وغير ذلك، وكذلك الشر. وهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة، لأن وطء ديارهم مما يغيطهم وينكي فيهم.

ولقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابني عامر، وقد قدما بعد تقضي الحرب، وأمد أبو بكر الصديق رضي الله

عنه المهاجر بن أبي أمية وزباد بن أبي لبيد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس، فلحقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم. وعند الشافعي: لا يشارك المدد الغائين، وقرأ عبيد ابن عمير: ظماء بالمدح يقال: ظمى ظماء وظماء "لا ينفقون نفقة صغيرة" ولو قمره ولو علاقة سوط "ولا كبيرة" مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة "ولا يقطعون وادياً" أي أرضاً في ذهابهم ومجئهم، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل، وهو في الأصل فاعل من ودى إذا سال. ومنه الودي. وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض. يقولون: لا تصل في وادي غيرك "إلا كتب لهم" ذلك من الإنفاق وقطع الوادي: ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله: "ليجزئهم" متعلق بكتب أي أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء.

"ما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون".

اللام لتأكيد النفي. ومعناه أن نفرير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن. وفيه أنه لو صح وأمكن، ولم يؤد إلى مفسدة لوجب، لوجوب التفقه على الكافة، ولأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة "فلولا نفر" فحين لم يمكن نفرير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر "من كل فرقة منهم طائفة" أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير "ليتفقهوا في الدين" ليتكلفوا الفقه فيه، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها "ولينذروا قومهم" وليجعلوا غرضهم ومرمى هميتهم في التفقه: إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمنونها من المقاصد الركيكة، ومن التصدر والتروؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابستهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشو داء الضرائر بينهم وانقلاب حمالق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر، أو شردمة جثوا بين يديه، وتمالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل: "لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً" القصص: 83، "لعلهم يحذرون" إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحاً.

ووجه آخر: وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمرهم أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلال بالسيف، وقوله: "ليتفقهوا" الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطواف، النافرة من بينهم "ولينذروا قومهم" ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

"يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين". "يلونكم" يقربون منكم، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. ونظيره "وأندر عشيرتك الأقربين" الشعراء: 214، وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشام. وقيل: هم قريظة والنضير وفدك وخيبر. وقيل: الروم، لأنهم كانوا يسكنون الشام والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم، ما لم يضطر إليهم

أهل ناحية أخرى. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن قتال الديلم؟ فقال: عليك بالروم. وقرئ: غلظة بالحرركات الثلاث، فالغلظة كالشدّة، والغلظة كالضغطة، والغلظة كالسحطة ونحوه "واغلظ عليهم" التوبة: 73، "ولا تهنوا" آل عمران: 139، وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة والعنف في القتل والأسر، ومنه "ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله" النور: 2، "مع المتقين" ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوه.

"وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون".
"فمنهم من يقول" فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض "أيكم زادته هذه" السورة "إيماناً" إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به. وأيكم: مرفوع بالابتداء. وقرأ عبيد بن عمير: أيكم بالفتح على إضمار فعل يفسره "زادته" تقديره: أيكم زادت زادته هذه إيماناً "فزادتهم إيماناً" لأنها أزيد لليقين والثبات، وأثّلج للصدر. أو فزادتهم عملاً، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان، لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل "فزادتهم رجساً إلى رجسهم" كفراً مضموماً إلى كفرهم، لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً، ازداد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم.

"أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون".
قرئ: أولاً يرون بالياء والتاء "يفتنون" يتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم، ولا يذكرون، ولا يعتبرون، ولا ينظرون في أمرهم، أو يتلون في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعاينون أمره وما يزل الله عليه من نصرته وتأنيده. أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتلهم وينكل بهم، ثم لا يترجرون "نظر بعضهم إلى بعض" تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخرية به قائلين "هل يراكم من أحد" من المسلمين لنصرف، فإننا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك، فخاف الافتضاح بينهم. أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لوإذا يقولون: هل يراكم من أحد. وقيل: معناه: إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين "صرف الله قلوبهم" دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح "بأنهم" بسبب أنهم "قوم لا يفقهون" لا يتدبرون حتى يفقهوا.
"لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم المؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم".

"من أنفسكم" من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم ذكر ما يتبع لجانسة والمناسبة من النتائج بقوله: "عزيز عليه ما عنتم" أي شديد عليه شاق لكونه بعضاً منكم عنتم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب "حريص عليكم" حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به "بالمؤمنين" منكم ومن غيركم "رؤوف رحيم". وقرئ: من أنفسكم أي من أشرفكم وأفضلكم. وقيل: هي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما. وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير

رسول الله صلى الله عليه وسلم في. قوله: "رؤوف رحيم". "فإن تَوَلَّوْا" فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوض إليه، فهو كافيك معرفهم ولا يضرونك وهو ناصبوك عليهم. وقرئ: "العظيم" بالرفع. وعن ابن عباس رضي الله عنه: العرش لا يقدر أحد قدره. وعن أبي ابن كعب: آخر آية نزلت: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم".

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما نزل علي القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً، ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة".

سورة يونس

مكية، وهي مائة وتسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

"ألر تلك آيات الكتاب الحكيم، أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين".

"ألر" تعديد للحروف على طريق التحدي. و"تلك آيات الكتاب" إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة. و"الحكيم" ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها. أو وصف بصفة محدثة. قال الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قتلها ليقال من ذا قالها

الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه. و"إن أوحينا" اسم كان، وعجباً: خبرها. وقرأ ابن مسعود: عجب فجعله اسماً وهو نكرة و"أن أوحينا" خبراً وهو معرفة، كقوله:

يكون مزاجها عسل وماء

والأجود أن تكون كان تامة، وأن أوحينا بدلاً من عجب. فإن قلت: فما معنى اللام في قوله: "أكان للناس عجباً؟" وما هو الفرق بينه وبين قولك: كان عند الناس عجباً؟ قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزائهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم، دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم. وقال الله تعالى: "قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئننين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً" الإسراء: 95، وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً، لأن الله تعالى: إنما يختار من استحق الاختيار، لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوة. والغنى والتقدم في

الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى" سبأ: 37، والبعث للجزء على الخبر والشر هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزء "أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ" أن هي المفسرة، لأن الإيحاء فيه معنى القول: ويجوز أن تكون المخففة من الثقلية، وأصله: أنه أنذر الناس، علي معنى: أن الشأن قولنا أنذر الناس. و "أَنْ لَهُمْ" الباء معه محذوف "قَدَّمَ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ" أي سابقة وفضلاً ومثّلة رفيعة. فإن قلت: لم سميت السابقة قدماً؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد. وباعاً لأن صاحبها يبيع بها، فقليل: لفلان قدم في الخير. وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق "إن هذا" إن هذا الكتاب وما جاء به محمد "السحر" ومن قرأ: لساحر فهذا إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً، وفي قراءة أبي: "ما هذا إلا سحر".

"إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون، إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون".

"يدبر" يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعل المتحري للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها، لئلا يلقاه ما يكره آخراً. و "الأمر" أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش. فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض، مع بسطتها واتساعها في وقت يسير، وبإلاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: "مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ" دليل على العزة والكبرياء، كقوله: "يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن" النبأ: 38، و "ذلكم" إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة "فاعبدوه" وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلاً عن جهاد لا يضر ولا ينفع "أفلا تذكرون" فإن أدنى التفكير والنظر ينهكم على الخطأ فيما أنتم عليه "إليه مرجعكم جميعاً" أي لا ترجعون فيم العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقاءه "وعد الله" مصدر مؤكد لقوله: "حقاً" مصدر مؤكد لقوله: "وَعَدَ اللَّهُ". "إنه يبدأ الخلق ثم يعيده" استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه، وهو أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أفعالهم. وقرئ: أنه يبدأ الخلق بمعنى لأنه. أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله: أي وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته. والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه. وقرئ: "وعد الله"، على لفظ الفعل. ويبدئ، من أبدأ. ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً، أي حق حقاً بدأ الخلق، كقوله:

ولا ذاهباً إلا على رقيب

أحقاً عباد الله أن لست جائياً

وقرئ: حق أنه يبدؤ الخلق كقولك: حق أن زيداً منطلق "بالقسط" بالعدل، وهو متعلق بيجزى. والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيههم أجورهم. أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً، لأن الشرك ظلم. قال الله تعالى: "إن الشرك لظلم عظيم" لقمان: 13، والعصاة: ظلام أنفسهم، وهذا أوجه، لمقابلة قوله: "بما كانوا يكفرون".

"هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون".

الياء في "ضياء" منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها. وقرئ: ضياء بهمزتين بينهما ألف على القلب، بتقديم اللام على العين، كما قيل في عاق: عقا. والضياء أقوى من النور "وقدره" وقدر القمر. والمعنى وقدر مسيره "مَنَازِل" أو قدره ذا منازل، كقوله تعالى: "والقمر قدرناه منازل" ياسين: 39، "وَالْحَسَاب"، وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي "ذلك" إشارة إلى المذكور أي ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً. وقرئ: يفصل بالياء.

"إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون".

خض المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

"إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون".

"لا يرجون لقاءنا" لا يتوقعونه أصلاً، ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم، المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق. أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف "ورضوا بالحياة الدنيا" من الآخرة، وآثروا القليل القاني على الكثير الباقي، كقوله تعالى: "أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة" التوبة: 38، "واطمأنوا بها" وسكنوا فيها سكون من لا يزجج عنها، فبنوا شديداً وأملوا بعيداً.

"إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم، دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين".

"يهديههم ربهم بإيمانهم" يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدي إلى الثواب، لذلك جعل "تجري من تحتهم الأنهار" بياناً له وتفسيراً، لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد: يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، كقوله تعالى: "يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم" الحديد: 12، ومنه الحديث: إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة وأما الكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار فإن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور. قلت: الأمر كذلك. ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها بين الإيمان والعمل، كأنه قال: إن الذين

جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح، وهو بين واضح لا شبهة فيه "دعواهم" دعاؤهم، لأن اللهم نداء الله ومعناه: اللهم إنا نسبحك، كقول القانت في دعاء القنوت: اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد. ويجوز أن يراد بالدعاء: العبادة "وأعتزلكم وما تدعون من دون الله" مريم: 48، على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة، إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة، كقوله تعالى: "وما كان صلاتكم عند البيت إلا مكاء وتصدية" الأنفال: 35. "وآخر دعواهم" وخاتمة دعائهم الذي هو التسييح "أن" يقولوا: "الحمد لله رب العالمين". ومعنى "وتحتيهم فيها سلام" أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام. وقيل: هي تحية الملائكة إياهم، إضافة للمصدر إلى المفعول. وقيل: تحية الله لهم. وأن هي المخففة من الثقيلة، وأصله: أنه الحمد لله، على أن الضمير للشأن كقوله:

أن هالك كل من يحفي وينتعل

وقرى: أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد. "ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون". أصله "ولو يجعل الله للناس الشر" تعجيله لهم الخير، فوضع "استعجالهم بالخير" موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد أهل مكة. وقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء، يعني: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيهم إليه "لقضى إليهم أجلهم" لأمتيت وأهلكوا. وقرئ: لقضى إليهم أجلهم على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل، وتنصره قراءة عبد الله: لقضينا إليهم أجلهم فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: "فنذر الذين لا يرجون لقاءنا" وما معناه؟ قلت: قوله: "ولو يجعل الله" متضمن معنى نفي التعجيل، كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم "في طغيانهم" أي فتمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم، إلزاماً للحجة عليهم. "إذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون".

"لجنبه" في موضع الحال، بدليل عطف الحاليين عليه أي دعانا مضطجعا "أو قاعداً أو قائماً". فإن قلت: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قلت: معناه أن الضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها إن كان مضطجعا عاجز النهض متخاذل النوء أو كان قاعداً لا يقدر على القيام، أو كان قائماً لا يطيق المشي والمضطرب إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمائها والمسحة بتمامها. ويجوز أن يراد أن من الضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش. ومنهم من هو أخص وهو القادر على القعود. ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء، لأن الإنسان للجنس "مر" أي مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر، ونسي حال الجهد. أو مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه، كأنه لا عهد له به "كأن لم يدعنا" كأنه لم يدعنا، فخفف وحذف ضمير الشأن قال:

كأن ثدياه حقان

"كَذَلِكَ" مثل ذلك التزيين "زين للمسرفين" زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليته "ما كانوا يعملون" من الإغراض عن الذكر واتباع الشهوات.

"ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم الجرمين، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون".

"لما" ظرف لأهلكنا: والواو في "جاءهم" للحال، أي ظلموا بالكذب وقد جاءهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات. وقوله: "وما كانوا ليؤمنوا" يجوز أن يكون عطفاً على ظلموا، وأن يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي، يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً تأكيداً لنفي إيمانهم، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعد منهم. والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إهلاكهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثه الرسل "كذلك" مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك "نجزي" كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرئ: يجزي بالياء "ثم جعلناكم" الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا "لننظر" أتعلمون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم. و"كيف" في محل النصب بتعملون لا بنظر، لأن معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدم عليه عامله. فإن قلت: كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة قلت: هو مستعار للعلم الخقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً شبه بنظر الناظر وعيان المعائن في تحقيقه.

"وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أتت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع ما يوحي إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم".

غاضهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا: "أتت بقرآن" آخر ليس فيه ما يغضبنا من ذلك نبيك "أو بدله" بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل، لأنه داخل، تحت قدرة الإنسان، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة. وأما الإتيان بقرآن آخر، فغير مقدور عليه للإنسان "ما يكون لي"، ما ينبغي لي وما يحل كقوله تعالى: "ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق" المائدة: 116، "أن أبدله من أن تلقاء نفسي" من قبل نفسي. وقرئ: بفتح التاء: من غير أن يأمرني بذلك ربي "إن أتبع ما يوحي إلي" لا آتي ولا أزد شيئاً من نحو ذلك، إلا متبعاً لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وأن بذلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس لي تبديل ولا نسخ "إني أخاف إن عصيت ربي" بالتبديل والنسخ من عند نفسي "عذاب يوم عظيم". فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: "أتت بقرآن غير هذا؟" قلت: بلى، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا. ويقولون: افترى على الله كذباً، فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله. مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغاتها إذا عجزوا عنه، كان الواحد منهم أعجز. فإن قلت: لعلهم أرادوا: أتت بقرآن غير هذا أو بدله، من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته. وأراد بقوله: "ما يكن لي" ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبدله. قلت: يردده قوله: "إني أخاف إن عصيت ربي" فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس

وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت: الكيد والمكر. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنت قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال. وأنه إن وجد منه تبديل، فإما أن يهلكه الله فينجو منه، أو لا يهلكه فيسخره منه، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافتراءه على الله. "قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون".

"لو شاء الله ما تلوته عليكم" يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أُمي لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً، يهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منشور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرائكم أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسرارهم، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به "ولا أدراكم به" ولا أعلمكم به على لساني. وقرأ الحسن: ولا أدراكم به على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته، في معنى أعطيته وأرضيته وتعضده قراءة ابن عباس: ولا أنذرتكم به. ورواه الفراء: أولا أدراكم به بالهمز. وفيه وجهان، أحدهما: أن تقلب الألف همزة، كما قيل: لبأت بالحج. ورثأت الميت وحلأت السويق، وذلك لأن الألف والهمزة من واد واحد. ألا ترى أن الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة. والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته، وأدراكه إذا جعلته دارناً. والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤوني بالجدال وتكذبوني. وعن ابن كثير: ولأدراكم به بلام الابتداء لإثبات الادراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، ولكنه بمن علي من يشاء من عبادي، فخصني بهذه الكرامة ورآني لها أهلاً دون سائر الناس "فقد لبثتم فيكم عمراً" وقرئ: عمراً بالسكون. يعني: فقد أقيمت فيما بينكم يافعاً وكهلاً، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتتهموني باختراعه "أفلا تعقلون" فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي. وهذا جواب عما دسوه تحت قلوبهم: انت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه.

"فمن أظلم ممن أفترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون".
"من أفترى على الله كذباً" يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قلوبهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافوه إليه من الافتراء.

"ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون".

"ما لا يضرهم ولا ينفعهم" الأوثان التي هي جهاد لا تقدر على نفع ولا ضرر. وقيل: إن عبدوها لم تنفعهم، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيراً على الطاعة معاقباً على المعصية. وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العرى ومناة وهبل وإسافاً ونائلة "و" كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وعن النضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى "أتنبئون الله بما لا يعلم" أتخبرونه بكونكم شفعاء عنده، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات، لم يكن شيئاً لأن الشيء ما

يعلم "به" ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه. فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟ قلت: هو تمكّم بهم وبما ادعوه من الخال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأن الذي أنبأ به باطل غير منطوق تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه. وقرئ: أتنبئون بالتخفيف. وقوله: "في السموات ولا في الأرض" تأكيد لنفيه، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم "تشركون" قرئ بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية، أي عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم.

"وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون، ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين".

"وما كان الناس إلا أمة واحدة" حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل. وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً "ولولا كلمة سبقت من ربك" وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة "لقضي بينهم" عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز الحق من المبطّل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف، وتلك دار ثواب وعقاب. وقالوا: "ولولا أنزل عليه آية من ربه" أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتقدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم يزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم يزل عليه آية قط، حتى قالوا: "لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه" وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد وانهماكهم في الغي "فقل إنما الغيب لله" أي هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به، يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو "فانتظروا" نزول ما اقترحتموه "إني معكم من المنتظرين" لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

"وإذا أذقنا الناس رحمة منا من بعد ضراء مستهم إذا هم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون".

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه، وإذا الأولى للشرط، والآخرة جوابها وهي للمفاجأة، والمكر: إخفاء الكيد وطيه، من الجارية الممكورة المطوية الخلق. ومعنى "مستهم" خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم. فإن قلت: ما وصفهم بسرعة المكر، فكيف صح قوله: "أسرع مكرًا" قلت: بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة، كأنه قال: وإذا رحمتهم من بعد ضراء فاجتوا وقوع المكر منهم، وسارعوا إليه قل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء، ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم. والمعنى: أن الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام "إن رسلنا يكتبون" إعلام بأن ما تظنون خافياً مطوياً لا يخفى على الله، وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكرون بالتاء والياء. وقيل: مكرهم قولهم: سقينا بنوء كذا.

وعن أبي هريرة: إن الله ليُصَحِّح القوم بالنعمة ويُمسِّهم بها، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا. "هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف

وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنننحكم بما كنتم تعملون".

قرأ زيد بن ثابت: ينشركم ومثله قوله: "فانتشروا في الأرض" الجمعة: 10، "ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" الروم: 20، فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ قلت: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنجاء. فإن قلت: ما جواب إذا؟ قلت: جاءها. فإن قلت: فدعوا؟ قلت: بدل من ظنوا؟ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به. فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح. فإن قلت: ما وجه قراءة أم الدرداء: في الفلكي بزيادة ياء النسب؟ قلت: قيل هما زائدتان كما في الخارجي والأخري. ويجوز أن يراد به اللج والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه.

والضمير في جرين للفلك، لأنه جمع فلك كالأسد، في فعل أخي فعل. وفي قراءة أم الدرداء: للفلك أيضاً، لأن الفلكي يدل عليه "جاءها" جاءت الريح الطيبة، أي تلقتها. وقيل: الضمير للفلك "من كل مكان" من جميع أمكنة الموج "أحيط بهم" أي أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك "مخلصين له الدين" من غير إشراك به، لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه "لئن أنجيتنا" على إرادة القول. أو لأن "دعوا" من جملة القول: "ييغون في الأرض" يفسدون فيها ويعبثون متراقين في ذلك، معنيين فيه، من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد. فإن قلت: فما معنى قوله: "بغير الحق" والبغي لا يكون بحق؟ قلت: بلى، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة، وهدم دورهم، وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة. قرئ: متاع الحياة الدنيا بالنصب: فإن قلت: ما الفرق بين القراءتين؟ قلت: إذا رفعت كان المتاع خبراً للمبتدأ الذي هو "بغيكم"، و"على أنفسكم" صلته، كقوله: "فبغى عليهم" ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها وإذا نصبت "فعلى أنفسكم" خبر غير صلة معناه إنما بغيكم، بال على أنفسكم، و "متاع الحياة الدنيا" في موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا. ويجوز أن يكون الرفع على: هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تمكر ولا تعن ماكرًا، ولا تبغ ولا تعن باغيًا، ولا تنكث ولا تعن ناكثًا" وكان يتلوها. وعنه عليه الصلاة والسلام: "أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشر عقاباً البغي واليمين الفاجرة".

وروي: "ثنتان يعجلهما الله تعالى في الدنيا: البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي. وكان المأمون يتمثل بمذنين البيتين في أخيه:

فَارْبَعٌ فَخَيْرُ فِعَالٍ الْمَرْءِ أَعْسَلُهُ

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ

لَا تَدْرُكُ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ

وعن محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: "إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ".
"إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت
الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس
كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون".

هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في
جفافه وذهابه حطاماً بعد ما ألتف وتكاثف، وزين الأرض بخضرتها ورفيقه "فاختلط به" فاشتبك بسببه حتى خالط
بعضه بعضاً "أخذت الأرض زخرفها وازينت" كلام فصيح: جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس،
إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين. وأصل ازينت تزينت، فادغم.
وبالأصل قرأ عبد الله. وقرئ: وأزينت، أي أفعلت، من غير إعلال الفعل كأغيلت أي صارت ذات زينة. وازيانت،
بوزن ابياضت "قادرون عليها" متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها، رافعون لعلتها "أتاها أمرنا" وهو ضرب زرعها
ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم "فجعلناها" فجعلنا زرعها "حصيداً" شبيهاً بما يحصد من الزرع في
قطعه واستئصاله "كأن لم تغن" كأن لم يغن زرعها، أي لم ينبت على حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه، وإلا لم
يستقم المعنى. وقرأ الحسن: كأن لم يغن بالياء على أن الضمير للمضاف المحذوف، الذي هو الزرع. وعن مروان أنه
قرأ على المنبر: كأن لم تتغن بالأمس، من قول الأعشى:

طويل النواء طويل التغني

والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كان لم تغن آنفاً.
"والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم".

"دار السلام" الجنة، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها. وقيل السلام السلامة، لأن أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل:
لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم "إلا قليلاً سلاماً سلاماً" الواقعة: 26، "ويهدي" ويوفق "من يشاء" وهم
الذين علم أن اللطف يجدي عليهم، لأن مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها
إلا المهديون.

"الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون".
"الحسنى" المثوبة الحسنى "وزيادة" وما يزيد على المثوبة وهي التفضل. ويدل عليه قوله تعالى: "ويزيدهم من فضله"
النساء: 173، وعن علي رضي الله عنه: الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحسنى:
الحسنة، والزيادة: عشر أمثالها. وعن الحسن رضي الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد رضي الله
عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان. وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن

أمطرهم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرهم. وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرقوع: "إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه" "ولا يرهق وجوههم" لا يغشاهم "قُتِرَ" غيرة فيها سواد "ولا ذلة" ولا أثر هوان وكسوف بال. والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إذكارة بما ينقذهم منه برحمته. ألا ترى إلى قوله تعالى "ترهقها قُتِرَ" عبس: 41، "وترهقهم ذلة" يونس: 27.

"الذين كسبوا السيئات جزاء السيئة مثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

فإن قلت: ما وجه قوله: "الذين كسبوا السيئات جزاء السيئة مثلها" وكيف يتلاءم؟ قلت: لا يخلو، إما أن يكون "الذين كسبوا" معطوفاً. على قوله: "للذين أحسنوا" يونس: 26، كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وإما أن يقدر: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزداد عليها، وهذا أوجه من الأول، لأن في الأول عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل، لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله. وقرئ: يرهقهم ذلة بالياء "من الله من عاصم" أي لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه. ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين "مُظْلَمًا" حال من الله. ومن قرأ: قطعاً بالسكون من قوله: "بقطع من الليل" هود: 81، جعله صفة له. وتعضده قراءة أبي بن كعب: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم. فإن قلت: إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل، فما العامل فيه؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون "اغشيت" من قبل إن "من الليل" صفة لقوله: "قطعاً" فكان إفصاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإما أن يكون معنى الفعل في "من الليل".

"يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون".

"مكانكم" ألزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم. و "انتم" أكد به الضمير في مكانكم لسده مسد قوله: ألزموا "وشركاؤكم" عطف عليه. وقرئ: وشركاءكم على أن الواو بمعنى مع، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل "فزيلنا بينهم" ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم. والوصل التي كانت بينهم في الدنيا. أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرء شركائهم منهم ومن عبادهم، كقوله تعالى: "ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا" غافر: 73، وقرئ: "فزايلنا بينهم" كقولك: صاغر خذه وصعره، وكالمته وكلمته. "ما كنتم إيانا تعبدون" إنما كنتم تعبدون الشياطين، حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعنموهم. "فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين، هناك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وذل عنهم ما كانوا يفترون".

"إن كنا" هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وهم ملائكة والمسيح ومن عبدوه من دون الله

من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله عز وجل فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوها بها أطماعهم "وهناك" في ذلك مقام وفي ذلك الموقف أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان "تبلوا كل نفس" تختبر وتذوق "ما أسلفت" من العمل فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن، أنافع أم ضار، أمقبول أم مردود، كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ليكتنه حاله. ومنه قوله تعالى: "يوم تبلى السرائر" الطارق: 9، وعن عاصم: نبلوا كل نفس، بالنون ونصب كل: أي تختبرها باختبار ما أسلفت من العمل، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها: إن كان حسناً فهي سعيدة، وإن كان سيئاً فهي شقية. والمعنى: نفعل بها فعل الخبر، كقوله تعالى: "ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" هود: 17، ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء وهو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر. وقرئ: "تتلوا" أي تتبع ما أسلفت، لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار. أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر "مولاهم الحق" بهم الصادق ربوبيته، لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة. أو: الذي يتولى حسابهم وثوابهم، العدل الذي لا يظلم أحداً. وقرئ: الحق بالفتح على كيد قوله: "ردوا إلى الله" كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل. أو على المدح كقولك: الحمد لله. أهل الحمد "وضل عنهم ما كانوا يفترون" وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله. أو بطل عنهم ما كانوا يخلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

"قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون، فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون".

"قل من يرزقكم من السماء والأرض" أي يرزقكم منهما جميعاً، لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحته "من يملك السمع والأبصار" من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويها عليه من الفطرة العجيبة. أو من يحميها ويحصنها من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيها أدنى شيء بكلاءته وحفظه "ومن يدبر الأمر" ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص "أفلا تتقون" أفلا تتقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال "فذلکم" إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله "ربكم الحق" الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر "فماذا بعد الحق إلا الضلال" يعني أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع في الضلال "فأنى تصرفون" عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء "كذلك" مثل ذلك الحق "حقت كلمة ربك" أي كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كان حق أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقت كلمة ربك "على الذين فسقوا" أي تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، و "أنهم لا يؤمنون" بدل من الكلمة أي حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك. أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن. أو أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون تعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

"قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون، قل هل من شركائكم يهدي إلى الحق قل الله يهدي إلى الحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون".

فإن قلت: كيف قيل لهم "هل من شركائكم من يبدؤوا الخلق ثم يعيده" وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابراً رداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: "قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده" فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب، يعني أنه لا يدعهم لحاجتهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمه الحق فكلم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين: ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى اشترى، ومنه قوله: "أفمن لا يهدي". وقرئ: لا يهدي بفتح الهاء وكسرهما مع تشديد الدال. والأصل: يهتدي، فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت للتقاء الساكنين، وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها. وقرئ: إلا أن يهدي من هداه وهذاه للمبالغة. ومنه قولهم: تهدى. ومعناه أن الله وحده هو الذي يهدي للحق، بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي صلبها لهم، وبما لطف بهم ووقفهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير، يهدي إلى حق مثل هداية الله. ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع، أم الذي لا يهدي أي لا يهتدي بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله وقيل: معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه، "إلا أن يُهدى" إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه لا هتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه "فما لكم كيف تحكمون" بالباطل، حيث تزعمون أنهم أنداداً لله.

"وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما تفعلون".

"وما يتبع أكثرهم" في قرارهم بالله "إلا ظناً" لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم "إن الظن" في معرفة الله "لا يغني من الحق" وهو العلم "شيئاً" وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أئمة وأئمة شفعاء عند الله إلا الظن. والمراد بالأكثر: الجميع "إن الله عليم" وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: "تفعلون" بالناء.

"وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين، أم يقولون أفتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا ما استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين".

"وما كان هذا القرآن" افتراء "من دون الله ولكن" كان "تصديق الذي بين يديه" وهو ما تقدمه من الكتب المتولة، لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها، كقوله تعالى: "هو الحق مصداقاً لما بين يديه فاطر: 3"، وقرئ: ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب على: ولكن هو تصديق وتفصيل. ومعنى وما كان أن يفترى. وما صح وما استقام، وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى "وتفصيل الكتاب" وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، من قوله: "كتاب الله عليكم" النساء: 24. فإن قلت: بم اتصل قوله: "لا ريب فيه من رب العالمين" قلت: هو داخل في حيز الاستدراك. كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الرب كائناً من رب العالمين. ويجوز أن يراد: ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون "من رب العالمين"

متعلقاً بتصديق وتفصيل، أو يكون "لا ريب" اعتراضاً، ما تقول: زيد لا شك فيه كريم "أم يقولون أفتراه" بل يقولون: اختلقه، على أن الهمزة تقرير للإلزام الحجة عليهم. أو إنكار لقولهم واستبعاد. والمعنيان متقاربان "قل" إن كان الأمر كما تزعمون "فأتوا" أنتم على وجه الافتراء "بسورة مثله" فأنتم مثلي في العرين والفصاحة. ومعنى "بسورة مثله" أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم. وقرئ: بسورة مثله على الإضافة، أي: بسورة كتاب مثله "وادعوا" من دون الله "من أستطعتم" من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله: يعني: أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره، فلا تستعينوه وحده، ثم استعينوا بكل من دونه "إن كنتم صادقين" أنه افتراء "بل كذبوا" بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشيء على التقليد من الحشوية، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه وإن كانت أضواً من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها في أول وهلة، واشتأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب. فإن قلت: ما معنى التوقع في قوله: "ولما يأتيهم تأويله"؟ قلت: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل، تقليداً للآباء. وكذبوه بعد التدبر، تمرداً وعناداً، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي، ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغياً وحسداً "كذلك" أي مثل ذلك التكذيب "كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" يعني قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا. وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون. ويجوز أن يكون معنى "ولما يأتيهم تأويله" ولم يأتمم. بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته، حتى يتبين لهم أنه كذب أم صدق، يعني أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمته، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمته وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبيات وصدقه وكذبه "ومنهم من يؤمن به" يصدق به في نفسه، ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب. ومنهم من يشك فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال، أي: ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيعصر "وربك أعلم بالمفسدين" بالمعاندنين، أو المصرين.

"وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم وأنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون".
 "وإن كذبوك" وإن تموا على تكذيبك ويثبت من إجابته، فثبراً منهم وخلهم فقد أعذرت، كقوله تعالى: "فإن عصوك فقل إني بريء" الشعراء: 216 ، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.
 "ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليك فأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون".

"ومنهم من يستمعون إليك" معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون وناس ينظرون إليك ويعينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: أطمع أنك تقدر

على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم، لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر. وأتخسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى العمي وهو فقد البصر فقد البصيرة، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظن. وأما العمي مع الحق فجهد البلاء، يعني أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمي الذين لا بصائر لهم ولا عقول. وقوله: "أفأنت..... أفأنت" دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوب العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل، إلا هو وحده. "إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون".

"إن الله لا يظلم الناس شيئاً" أي لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب، ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين، يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستيجاب. ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه. "ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين". "إلا ساعة من النهار" يستقربون وقت لبثهم في الدنيا. وقيل: في القبور، هول ما يرون "يتعارفون بينهم" يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم. فإن قلت: "كأن لم يلبثوا" و "يتعارفون" كيف موقعهما؟ قلت: أما الأولى فحال من هم أي يحشرهم مشهين بمن لم يلبث إلا ساعة. وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف. وإما أن كون مبينة، لقوله: "كأن لم يلبثوا إلا ساعة" لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً "قد خسر" على إرادة القول، أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرافهم. والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر "وما كانوا مهتدين" للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم! "وإما نريك بعض الذي نعدهم أو نتوفيك فإلينا مرجعكم ثم الله شهيد على ما تفعلون".

"فإلينا مرجعكم" جواب نتوفيك، وجواب نرينك محذوف، كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو نتوفيك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة. فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟ قلت: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون. وقرأ ابن أبي عبلة: ثم بالفتح، أي هنالك. ويجوز أن يراد: أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حين ينطق جلودهم وألستهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

"ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهو لا يظلمون".

"ولكل أمة رسول" يبعث إليهم لينبهم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق "فإذا جاء" هم "رسولهم" بالبينات فكذبوه، ولم يتبعوه "قضى بينهم" أي بين النبي ومكذبيه "بالقسط" بالعدل، فأنجى الرسول وعذب المكذبون، كقوله، "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً" الإسراء: 15، أو لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، كقوله تعالى: "وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق" الزمر: 69..

"يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

"متى هذا الوعد" استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له "أملك لنفسي ضراً" من مرض أو فقر "ولا نفعاً" من صحة أو غنى "إلا ما شاء الله" استثناء منقطع: أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟ "لكل أمة أجل" يعني أن عذابكم له أجل مضروب عند الله وحد محدود من الزمان "إذا جاء" ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا. وقرأ ابن سيرين: فإذا جاء آجالهم.

"قل رأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون، إثم إذا ما وقع أمنتهم به الآن وقد كنتم به تستعجلون، ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا ما كنتم تكسبون".

"بياتاً" نصب على الظرف، بمعنى. وقت بيات، فإن قلت: هلا قيل ليلاً أو نهاراً؟ قلت: لأنه أريد: إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون، كما يبيت العدو المباغت. والبيات بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، وكذلك قوله: "نهاراً" معناه في وقت أنتم فيه مشغولون بطلب المعاش والكسب. ونحوه "بياتاً وهم نائمون" الأعراف: 98، "ضحى وهم يلعبون" الأعراف: 98، الضمير في "منه" للعذاب. والمعنى: أن العذاب كله مكروه مر المذاق موجب للنفار، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال. ويجوز أن يكون معناه التعجب، كأنه قيل أي شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون من للبيان في هذا الوجه. وقيل: الضمير في "منه" لله تعالى. فإن قلت: بم تعلق الاستفهام؟ وأين جواب الشرط قلت تعلق بأرأيتم لأن المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه. فإن قلت: فهلا قيل: ماذا تستعجلون منه. قلت: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجماع؛ لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه، ويهلك فرعاً من مجيئه وإن أبطأ، فضلاً أن يستعجله. ويجوز أن يكون "ماذا يستعجل منه المجرمون" جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثم تعلق الجملة بأرأيتم، وأن يكون "إثم إذا ما وقع أمنتهم به" جواب الشرط، و "ماذا يستعجل منه المجرمون" اعتراضاً. والمعنى: إن أتاكم عذابه أمنتهم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم، كدخوله على الواو والفاء في قوله: "أفأمن أهل القرى" الأعراف: 97، "أو أمن أهل القرى" الأعراف: 98، "آلآن" على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن أمنتهم به "وقد كنتم به تستعجلون" يعني: وقد كنتم به تكذبون؟ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار. وقرئ: آلآن بحذف الهمزة بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام "ثم قيل للذين ظلموا" عطف على قيل المضمرة قبل آلآن.

"يستنبؤنك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين".

"يستنبؤنك" ويستخبرونك فيقولون: "أحق هو" وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء. وقرأ الأعمش: ألحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل. وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتوه الحق، والضمير للعذاب الموعود. و "إي" بمعنى نعم في القسم خاصة، كما كان هل

بمعنى قد في الاستفهام خاصة. وسمعتهم يقولون في التصديق: إيّ، فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده "وما أنتم بمعجزين" بفائتين العذاب، وهو لاحق بهم لا محالة.

"ولو أن لكل نفس ظلمات ما في الأرض لأفتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون، ألا إن الله ما في السموات والأرض ألا أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون، هو يحيي ويميت وإليه ترجعون".

"ظلمات" صفة لنفس على: ولو أن لكل نفس ظلمة "ما في الأرض" أي ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها "لأفتدت به" جعلته فدية لها. يقال: فده فافتدى. ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه "وأسروا الندامة لما رأوا العذاب" لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم وعانوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم فلم يطبقوا عنده بكاء ولا صراخاً ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما ترى المقدم للصلب ينخنه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامداً مبهوتاً، وقيل: أسر رؤسائهم الندامة من سفالتهم الذين أضلّوهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم وقيل أسروها أخلصوها، إما لأن إخفائها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء، خالصة. وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة. وقيل: أسروا الندامة: أظهروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره. وليس هناك تجلد "وقضى بينهم" أي بين الظالمين والمظلومين، دل على ذلك ذكر الظلم. ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله، وأنه المشيب المعاقب، وما وعدوه من الثواب والعقاب فهو حق. وهو القادر على الإحياء والإماتة، لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك، فيخاف ويرجى ولا يغتر به المغترون.

"يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون".

"قد جاءكم موعظة" أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبية على التوحيد "و" هو "ما في" صدوركم من العقائد الفاسد ودعاء إلى الحق "ورحمة" لمن آمن به منكم. وأصل الكلام: بفضل الله ورحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا، والتكرير للتأكيد والتقريب وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة والفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلية لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوها بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما. ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا. ويجوز أن يراد: قد جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته، فبذلك: فبمجيئها فليفرحوا.

وقرى: فلتفرحوا بالتاء وهو الأصل والقياس، وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي. وعنه: "لتأخذوا مصافكم" قالها في بعض الغزوات. وفي قراءة أبي: فافرحوا "هو" راجع إلى ذلك. وقرئ مما تجمعون بالياء والتاء. وعن أبي بن كعب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا: "قل بفضل الله ورحمته" فقال بكتاب الله والإسلام وقيل فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه.

"قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آله أذن لكم أم على الله تفترون، وما ظن الذين

يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون".

"أرأيتم" أخبروني. و"ما أنزل الله" ما في موضع النصب، بأنزل، أو بأرأيتم، في معنى: أخبروني "فجعلتم منه حراماً وحلالاً" أي أنزل الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه وقتلتم: هذا حلال وهذا حرام، كقولهم: "هذه أنعام وحرث حجر"، "ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا" "آلله أذن لكم" متعلق بأرأيتم. وقل: تكرير للتوكيد. والمعنى: أخبروني الله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه. ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار، وأم منقطعة بمعنى: بل أنفثرون على الله، تقريراً على للافتراء. وكفى بهذه الآية زاجرة زجرأً بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام. ولا عثرة على وجوب الاحتياط فيه، وإن لا يقول أحد في شيء جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليثق بالله ولصمت، وإلا فهو مفتر على الله "يوم القيامة" منصوب بالظن، وهو ظن واقع فيه، يعني: أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أهم أمره. وقرأ عيسى بن عمر: وما ظن على لفظ الفعل. ومعناه: أي ظن ظنوا يوم القيامة. وجيء به على لفظ الماضي لأنه كائن فكأن قد كان "إن الله لذو فضل على الناس حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام" ولكن أكثرهم لا يشكرون" هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

"وما تكون في شأن وما تتلون منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً، إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين" "وما تكون في شأن" ما نافية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والشأن: الأمر، وأصله الهمز بمعنى القصد، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده. والضمير في "منه" للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه، أو للتزليل كأنه قيل: وما تتلوا من التزليل من قرآن لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له، أو الله عز وجل، وما "تعملون" أنتم جميعاً "من عمل" أي عمل كان "إلا كنا عليكم شهوداً" شاهدين رقباء نحصى عليكم "إذ يفيضون فيه" من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه "وما يعزب" قرئ بالضم والكسر وما يبعد وما يغيب ومنه الروض العازب "ولا أصغر من ذلك ولا أكبر" القراءة بالنصب والرفع والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه، وفي العطف على اخل "من مثقال ذرة" أو على لفظ "مثقال ذرة" النساء: 40، فتحاً في موضع الجر لامتناع الصرف إشكال، لأن قولك: لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مشكل، فإن قلت لم قدمت الأرض على السماء، بخلاف قوله: وفي سورة سبأ "عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض" سبأ: 3،؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: "لا يعزب عنه" سبأ: 3، لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم التثنية.

"ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم".

"أولياء الله" الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. وقد فسر ذلك في قوله: "الذين آمنوا وكانوا يتقون" فهم توليهم إياه "هم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة" فهو توليه إياهم. وعن سعيد بن جبير: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: من أولياء الله؟ فقال: "هم الذين يذكر الله برؤيتهم" يعني السمات والهيئات. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإخبات والسكينة. وقيل: هم المتحابون في الله. وعن عمر رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

"إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله" قالوا: يا رسول الله، خبرنا من هم وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبهم، قال: "هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس" ثم قرأ الآية: "الذين آمنوا" نصب أو رفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء والخبر لهم البشرى، والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له" وعنه عليه الصلاة والسلام: "ذهبت النبوة وبقيت المبشرات". وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن. وعن أبي ذر: قلت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال: "تلك عاجل بشرى المؤمن" وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة. قال الله تعالى: "تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة" فصلت: 30، وأما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءون منها، وغير ذلك من البشارات "لا تبديل لكلمات الله" لا تغيير لأقواله ولا إخلال لمواعيده، كقوله تعالى: "ما يدل القول لدي" ق: 29، و"ذلك" إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض. "ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً وهو السميع العليم".

"ولا يحزنك" وقرئ: ولا يحزنك من أحزنه "قولهم" تكذيبهم لك، وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون به في شأنك "إن العزة لله" استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: ما لي لا أحزن؟ فقيل: إن العزة لله جميعاً، أي إن الغلبة والقهر في ملكة الله جميعاً، لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرهم عليهم "كتب الله لأغلبن أنا ورسلي" المجادلة: 21، "إنا لننصر رسلنا" غافر: 51، وقرأ أبو حيوة أن العزة بالفتح بمعنى لأن العزة على صريح التعليل من جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره، فالمنكر هو تخريجه، لا ما أنكر من القراءة به "هو السميع العليم" يسمع ما يقولون. ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه. وهو مكافئهم بذلك. "ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذين من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرسون".

"من في السموات ومن في الأرض" يعني العقلاء المميزين وهم الملائكة والنفوس، إنما خصهم، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم، وهو سبحانه تعالى: ربه ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكاً، وليدل على أن من اتخذ غيره رباً من ملك أو نسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل تابع لما أذى إليه التقليد وترك النظر. معنى: وما يتبعون شركاء، أي:

وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء، لأن شركة الله في الربوبية محال "إن يتبعوا إلا" ظنهم أنها شركاء "وإن هم إلا يخرسون" يحزرون ويقدرّون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً. ويجوز أن يكون "وما يتبع" في معنى الاستفهام، يعني: وأي شيء يتبعون. و"شركاء" على هذا نصب بيدعون، وعلى الأول يتبع. وكان حقه. وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء، فاقصر على أحدهما لدلالة. ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من كأنه قيل: ولله ما يتبعه الذين دعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: دعون، بالتاء، ووجهه أن يحمل "وما يتبع" على الاستفهام، أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبين، يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله تعالى: "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة" الإسراء: 57، ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبين من الحق.

"هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً وإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون".

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحده بالعبادة، إنه جعل لهم الليل مظلاً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في المعاش، والنهار مضياً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم "لقوم يسمعون" سماع معتبر مذكر.

"قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون".

"سبحانه" تزيه له عن اتخاذ الولد، وتعجب من كلمتهم الحمقاء "هو الغني" علة لنفي الولد لأن ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب في كنه الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً "له ما في السموات وما في الأرض" فهو مستغن بملكه لم عن اتخاذ أحد منهم ولداً "إن عندكم من سلطان بهذا" ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: "إن عندكم" على أن يجعل القول مكاناً للسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان "أتقولون على الله ما لا تعلمون" لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالين، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس بعلم.

"قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون".

"يفترون على الله الكذب" بإضافة الولد إليه "متاع في الدنيا" أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبه النبي صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

"واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين، فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين".

"كبر عليكم" عظم عليكم وشق وثقل. ومنها قوله تعالى: "وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين" البقرة: 45. ويقال: تعاضمه الأمر "مقامي" مكاني، يعني نفسه، كما تقول: فعلت كذا لمكان فلان: وفلان ثقيل الظل. ومنه: "ولمن خاف مقام ربه" الرحمن: 46، بمعنى خاف ربه. أو قياسي ومكشي بين أظهركم مدداً طويلاً ألف سنة إلا خمسين عاماً أو مقامي وتذكيري، لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم، ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحوارين قائماً وهم قعود "فأجمعوا أمرهم وشركاهم" من أجمع الأمر، وأزمعه، إذا نواه وعزم عليه. قال:

هل أغدون يوماً وأمرى مجمع

والواو بمعنى مع يعني: فأجمعوا أمركم مع شركائكم. وقرأ الحسن: وشركاؤكم بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام، كما تقول: اضرب زيداً وعمرو. وقرئ: فأجمعوا من الجمع. وشركاءكم نصب للعطف على المفعول، أو لأن الواو بمعنى مع وفي قراءة أبي: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قلت: على وجه التهكم، كقوله: "قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون" الأعراف: 195، فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه، يعني: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكه واحتشدوا فيه وابدلوا وسعكم في كيدي. وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً. وأما الثاني ففيه وجهان، أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعني: ثم أهلكوني لنلا يكون عيشكم بسبي غصة وحالكم عليكم غمة: أي غماً وهماً، والغم والغمة، كالكرب والكرية. والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره. ومنها قوله عليه السلام:

"ولا غمة في فرائض الله" أي لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكه مستوراً عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروني به "ثم اقضوا إلي" ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدوا إلي قطعه وتصحيحه، كقوله تعالى: "وقضينا إليه ذلك الأمر" الحجر: 66، أو أدوا إلي ما هو حق عليكم عندكم من هلاكه كما يقضي الرجل غريمه "ولا تنظرون" ولا تمهلوني. قرئ: ثم افضوا إلي بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلي بشركم. وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي أصبحوا به إلي وأبرزوه لي "فإن توليتهم" فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحتي "فما سألتكم أجراً" فما كان عندي ما يفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظمتكم "إن أجري إلا على الله" وهو الثواب الذي يشيبي به في الآخرة أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا "وأمرت أن أكون من المسلمين" الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به دنيا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به. والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويرى ساحتهم، فذكر أن توليهم لم يكن عن تفریط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير "فكذبوه" فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاوله كتكذيبهم في أولها، وذلك عند مشاركة الهلاك بالطوفان

"وجعلناهم خلأف" يخلفون الهالكين بالغرق "كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ" تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أُنذِرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله، وتسليية له.

"ثم بعثنا من بعدهم رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين".

"من بعده" من بعد نوح "رسلاً إلى قومهم" يعني هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً "فجاءوهم بالبينات" بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم "فما كانوا ليؤمنوا" فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالحال لشدة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه "بما كذبوا به من قبل" يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق. فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد "كذلك نطبع" مثل ذلك الطبع المحكم نطبع "على قلوب المعتدين" والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم، لأن الخذلان يتبعه. ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

"ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين، فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين، قال يا موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون، قالوا أجنبتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين".

"من بعدهم" من بعد الرسل "بآياتنا" بالآيات التسع "فاستكبروا" عن قبولها، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها "وكانوا قوماً مجرمين" كفاراً ذوي آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردها "فلما جاءهم الحق من عندنا" فلما عرفوا أنه هو الحق، وأنه من عند الله، لا من قبل موسى وهارون "قالوا" لحبهم الشهوات "إن هذا لسحر مبين" وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهاً وباطلاً. فإن قلت: هم قطعوا بقولهم: "إن هذا لسحر مبين" على أنه سحر، فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: "أتقولون للحق" أتعينونه وتطعنون فيه. وكان عليكم أن تدعنوا له وتعظموه، من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه، ونحو القول: الذكر، في قوله: "سمعنا فتى يذكرهم" الأنبياء: 60، ثم قال: "أسحر هذا" فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه، وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم: "إن هذا لسحر مبين" كأنه قيل: أتقولون ما تقولون، يعني قولهم: إن هذا لسحر مبين، ثم قيل: أسحر هذا؟ وأن يكون جملة قوله: "أسحر هذا ولا يفلح الساحرون" حكاية لكلامهم، كأنهم قالوا: أجنبتنا بالسحر تطلبان به الفلاح "ولا يفلح الساحرون" كما قال موسى للسحرة: ما جئتم به السحر، إن الله سيبيطه "لتلفتنا" لتصرفنا. واللف والقتل: أخوان، ومطاوعهما الالتفات والانتقال "وجدنا عليه آباءنا" يعنون عبادة الأصنام "وتكون لكما الكبرياء" أي الملك، لأن الملوك موصوفون بالكبر. ولذلك قيل للملك الجبار، ووصف بالصيد والشوس، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله:

جبروت منه ولا كبرياء

ملكه ملك رافة ليس فيه

ينفي ما عليه الملوك من ذلك. ويجوز أن يقصدوا ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرا وتكبيرا، كما قال القبطي لموسى عليه السلام: إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض "وما نحن لكما بمؤمنين" أي مصدقين لكما فيما جئتما به. وقرئ: يطبع ويكون لكما، بالياء.

"وقال فرعون أتوني بكل ساحر عليم، فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون، فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلّه إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره الجرمون". "ما جئتم به" ما موصولة واقعة مبتدأ. و"السحر" خبر، أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله. وقرئ: ألسحر على الاستفهام. فعلى هذه القراءة ما استفهامية، أي: أي شيء جئتم به، أهو السحر؟ وقرأ عبد الله: ما جئتم به سحراً وقرأ أي: ما أتيتم به سحر. والمعنى: لا ما أتيت به "إن الله سيضلّه" سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة "لا يصلح عمل المفسدين" لا يشته ولا يديمه، ولكن يسلط عليه الدمار "ويحق الله الحق" ويثبت "بكلماته" بأوامره وقضاياه. وقرئ: بكلمته بأمره ومشيتته. "فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين".

"فما آمن لموسى" في أول أمره "إلا ذرية من قومه" إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه. وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف. وقيل: الضمير في قومه لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه وماشطته. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: "وملئهم"؟ قلت: إلى فرعون، بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر. أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي على خوف من فرعون وخوف من أشرف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. ويدل عليه قوله: "أن يفتنهم" يريد أن يعذبهم "وإن فرعون لعال في الأرض" لغالب فيها قاهر "وإنه لمن المسرفين" في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتو بادعائه الربوبية. "وقال موسى لقومه إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين".

"إن كنتم آمنتم بالله" صدقتم به وبآياته "فعليه توكلوا" فإليه أستندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام، وهو أن يسلموا نفوسهم لله، أي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه، وإن كانت بك قوة "فقالوا على الله توكلنا" إنما قالوا ذلك، لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم، وأجاب دعاءهم، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه، وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص "لا تجعلنا فتنة" موضع فتنة لهم، أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا. أو فتنة لهم يفتنون بنا ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

"وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتهما قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين".

تبنوا المكان: اتخذهم مباءة، كقولك: توطئه، إذا اتخذته وطناً. والمعنى اجعلوا بمصر بيوتاً من بيوتهم مباءة لقومكم ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه "واجعلوا بيوتكم" تلك "قبلة" أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة. فإن قلت: كيف نوع الخطاب، فثنى أولاً، ثم جمع، ثم وحد آخرًا. قلت: خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبنوا لقومهما بيوتاً، ويختاراهما للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب علي، الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي الغرض تعظيماً لها وللمبشر بها. "وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم".

الزينة: ما يتزين به من لباس أو حلي أو فرش أو أثاث أو غير ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت. فإن قلت: ما معنى قوله: "ربنا ليضلوا عن سبيلك" قلت: هو دعاء بلفظ الأمر، كقوله: "ربنا اطمس"، "وأشد" وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبياناته عرضاً مكرراً وردد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً، وعلى الإنذار إلا استكباراً، وعن النصيحة إلا نبواً، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال، وأن إيمانهم كالحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحى من الله اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقتته وكراهته لحالهم. فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه، كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال. وليكونوا ضلالاً، وليطع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما علي منهم، هم أحق بذلك وأحق كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه، حسرة على ما فاتته من قبول نصيحته، وحرداً عليه، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشد على القلوب. الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان "فلا يؤمنوا" جواب للدعاء الذي هو اشد أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلوا. وقوله: "فلا يؤمنون" عطف على ليضلوا. وقوله: "ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم" دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: أئنك آتيت على الاستفهام، واطمس بضم الميم. "قال لقد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون".

قري: دعواتكم. قيل: كان موسى يدعو وهارون يؤمن. ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان. والمعنى: إن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته "فاستقيما" فائتبا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلاً ولا تستعجلا. قال ابن جريج، فمكث موسى بعد الدعاء

أربعين سنة "ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون" أي لا تتبعنا طريق الجهلة بعادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلاً فإن العجلة ليست بمصلحة. وهذا كما قال لنوح عليه السلام "إني أعظك أن تكون من الجاهلين" هود: 46. وقرئ: ولا تتبعان بالنون الخفيفة، وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية، وبتخفيف التاء من تبع. "وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت إنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين".

قرأ الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجاوزه، وليس من جوز الذي في بيت الأعرشي:

وإذا تجوزنا حبال قبيلة

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال وجوزنا بني إسرائيل في البحر كما قال:

كما جوز السكي في الباب فيتق

"فأتبعهم" فلحقهم. يقال: تبعته حتى أتبعته. وقرأ الحسن: وعدوا. وقرئ: أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان، وإنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من آمنت. كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته. وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.

"الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فالיום ننجيكَ ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون".

"الآن" أنؤ من الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك. قيل: قال ذلك حين أجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق. وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه. والذي يحكي أنه حين قال: "آمنت" أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه، فالغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه. وأما ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله فمن زيادات الباهتين لله وملائكته: وفيه جهالتان، إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس، فحال البحر لا يمنعه. والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر لأن الرضا بالكفر كفر "من المفسدين" من الضالين المضلين عن الإيمان، كقوله: "الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون" النحل: 98. وروي: أن جبريل عليه السلام أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر، فلما أجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه "ننجيك" بالتشديد والتخفيف: نبعذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر. وقيل: نلّقيك بنجوة من الأرض. وقرئ: ننحيك بالخاء: نلّقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور "ببدنك" في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن، أو ببदनك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرياناً لست إلا بدنّاً من غير لباس، أو بدرعك. قال عمرو بن معد يكرب:

وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: بأبدانك وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني: ببدنك كله وافياً بأجزائه. أو يريد: بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها "لمن خلفك آية" لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون ولا يموت أبداً. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه، وكان مطرحة كان على ممر من بني إسرائيل حتى قيل: لمن خلفك. وقيل: "لمن خلفك" لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن تظهر للناس عبوديته ومهانتة، وأن ما كان يدعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانته ربه عز وجل، فما الظن بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك، فلا يجترأوا على نحو ما اجتترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله. وقرئ: لمن خلقت بالقف: أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته. ويجوز أن يراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشبهه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لدعائك العظمة إن مثله لا يغرق ولا يموت. آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعمد منه لإمطة الشبه في أمرك.

"ولقد بوأنا بني إسرائيل ميوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون".

"ميوأ صدق" متولاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام "فما اختلفوا" في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من من بعد ما قرأوا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرق عنه. وقيل: هو العلم بمحمد صلى الله عليه وسلم واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب، اختلافهم في صفته ونعته، وأنه هو أم ليس به. بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه. كما قال الله تعالى: "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم" البقرة: 146.

"فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين".

فإن قلت: كيف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإن كنت شك مما أنزلنا إليك" مع قوله في الكفرة: "وإنهم لفي شك منه مريب". قلت: فرق عظيم بين قوله: "إنهم لفي شك منه مريب" يثبت الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: "فإن كنت في شك" بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيلاً منه تقديراً "فاسأل الذين يقرؤون الكتاب" والمعنى: أن الله عز وجل قدم ذكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم، لأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ويبالغ في ذلك، فقال: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً. وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى

خلها وإماتها، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلتها، وإما بمقادحة العلماء المنهين على الحق. فسل علماء أهل الكتاب، يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل الله إلى رسول الله، لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: "لقد جاءك الحق من ربك" أي ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية "فلا تكونن من الممترين" ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله. ويجوز أن يكون على طريقة التهيج والإلهاب، كقوله: "فلا تكونن ظهيراً للكافرين، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك" القصص: 87، ولزيادة التشييت والعصمة، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله:

"لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق" وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما شك طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم، وقيل: خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد خطاب أمته. ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم، كقوله: "وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً" النساء: 174، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك، كقول العرب: إذا عز أخوك فهن. وقيل: إن للنفي، أي: فما كنت في شك فاسأل، يعني: لا تأمرك بالسؤال لأنك شك، ولكن لتزداد يقيناً، كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى. وقرئ: فاسأل الذين يقرؤون الكتب. "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم". "حقت عليهم كلمة ربك" ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره. وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد تعالى الله عن ذلك. "فلو كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين".

"فلو كانت" فهلا كانت "قرية" واحدة من القرى التي أهلكتها، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاناة وقت بقاء التكليف، ولم تأخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخيقه "فنفعها إيمانها" بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار. وقرأ أبي وعبد الله: فهلا كانت "إلا قوم يونس" استثناء من القرى، لأن المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا. ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء. وقرئ بالرفع على البدل، هكذا روي عن الجرمي والكسائي. روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح، وعجوا أربعين ليلة. وقيل: قال لهم يونس: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آتينا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها فحن بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة. وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل خرجوا إلى شيخ

من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت فقالوها فكشف عنهم. وعن الفضيل بن عياض: قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

"ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين".

"ولو شاء ربك" مشيئة القسر والإلجاء "لآمن من في الأرض كلهم" على وجه الإحاطة والشمول "جميعاً، على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه. ألا ترى إلى قوله: "أفأنت تكره الناس" يعني إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت. وإيلاء الاسم حرف الاستفهام، للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه، وإنما الشأن في المكروه من هو؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه، لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر.

"ما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون".

"وما كان لنفس" يعني من النفوس التي علم أنها تؤمن "إلا بإذن الله" أي بتسهيله وهو منح الألفاظ "ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون" قابل بالإذن بالرجس وهو الخذلان، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر، كقوله: "صم بكم عمي فهم لا يعقلون" وسمي الخذلان رجساً وهو العذاب لأنه سببه. وقرئ: الرجز بالزاي. وقرئ: ونجعل بالنون.

"قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون".

"ماذا في السموات والأرض" من الآيات والعبر "وما تغني الآيات والنذر" والرسل المنذرون. أو الإنذارات "عن قوم لا يؤمنون" لا يتوقع إيمانهم، وهم الذين لا يعقلون وقرئ: وما يغني بالياء، وما نافية، أو استفهامية.

"فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين، ثم نجني رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين".

"أيام الذين خلوا من قبلهم" وقائع الله تعالى فيهم. كما يقال: أيام العرب لوقائعها "ثم نجني رسلنا" معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: "إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم" كأنه قيل: هلك الأمم ثم نجني رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية "والذين آمنوا" ومن آمن معهم، كذلك "ننج المؤمنين" مثل ذلك الإنجاء نجي المؤمنين منكم، وهلك المشركين. و"حقاً علينا" اعتراض، يعني: حق ذلك علينا حقاً. وقرئ: ننج بالتشديد.

"قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين".

"يا أيها الناس" يا أهل مكة "إن كنتم في شك من ديني" وصحته وسداده، فهذا ديني فاسمعوا وصفه، واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه بعين الإنصاف، لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أي لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم "ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم" وإنما وصفه بالتوفي، ليريهام أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى، فيعبدون ما لا يقدر على شيء "وأمرت أن أكون من المؤمنين" يعني أن الله أمرني بذلك، بما ركب في من

العقل، وبما أوحى إلي في كتابه. وقيل: معناه إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه أثبت عليه أن تركه وأوافقكم. فلا تحدثوا أنفسكم بالخال ولا تشكوا في أمري، واقطعوا عني أطماعكم، واعلموا أنني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أختار الضلالة على الهدى، كقوله: "قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون" الكافرون 1-2، أمرت أن أكون، أصله: بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة مع أن و أن. وأن يكون من الحذف غير المطرد، وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر. "وإن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين".

فإن قلت: عطف قوله: "وأن أقم" على "أن أكون" فيه إشكال، لأن أن لا تخلو من أن تكون التي للعبارة، أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول، لأن عطفها على الموصولة يأتي ذلك. والقول بكونها موصولة مثل الأولى، لا يساعد عليه لفظ الأمر، وهو "أقم" لأن الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب. قلت: قد سوغ سبويه أن توصل أن بالأمر والنهي، وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب، لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر. والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال "أقم وجهك" استقم إليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالاً. و"حنيفاً" حال من الذين أو من الوجه.

"ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين".
"فإن فعلت" معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فكيف بالجماد الذي لا شعور به. وكذلك إن أرادك بخير لم إذاً جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان. وجعل من الظالمين، لأنه لا ظلم أعظم من الشرك، "إن الشرك لظلم عظيم" لقمان: 13،
"وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم".

أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أن الله عز وجل هو الضار النافع، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به. وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريدك بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: "إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته" الزمر: 38،. فإن قلت: لم ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني؟ قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً: الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريد منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؟ ليدل بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى:
"يصيب به من يشاء من عباده" والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

"قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل".

"قد جاءكم الحق" فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن أثر الضلال فما ضر إلا نفسه، واللام وعلى: دلا على معنى النفع والضرر. وَكَلَّ إِلَيْهِمُ الْأَمْرَ بَعْدَ إِبَانَةِ الْحَقِّ وَإِزَاحَةِ الْعُلَلِ. وفيه حث علي إيثار الهدى واطراح الضلال مع ذلك "وما أنا عليكم بوكيل" بحفيظ موكل ألي أمركم وملككم على ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

"واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين".

"واصبر" على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم "حتى يحكم الله" لك بالنصرة عليهم والغلبة.

وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال: "إنكم ستجدون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوني" يعني أُنِي أُمِرْتُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا سَامَتَنِي الْكُفْرَةُ فَصَبِرْتُ فَاصْبِرُوا أَنْتُمْ عَلَى مَا يَسُومُكُمْ الْأَمْرَاءُ الْجَوْرَةُ، قَالَ أُنْسٌ: فَلَمْ نَصْبِرْ.

وروي أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد، فقال له: ما لك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أهلك يوم بدر، وقال صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار، إنكم ستلقون بعدي أثره. قال معاوية: فماذا قال؟ قال: "فاصبروا حتى تلقوني" قال فاصبر. قال: إذن نصبر. فقال عبد الرحمن بن حسان:

أمير الظالمين نشأ كلامي

ألا أبلغ معاوية بن حرب

إلى يوم التغابن والخصام

بأننا صابرون فمنظروكم

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون.

سورة هود

عليه السلام

وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير".

"أحكمت آياته" نظمت نظاماً رصيناً محكماً لا يقع في نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف. ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة، من حكم بضم الكاف، إذا صار حكيماً: أي جعلت حكيمه، كقوله تعالى: "آيات الكتاب الحكيم" يونس: 1، وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لئلا تمنعها من الجماع. قال جرير:

وعن قتادة: أحكمت من الباطل "ثم فصلت" كما تفصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص. أو جعلت فصولاً، سورة سورة، وآية آية. أو فرقت في التزليل ولم تنزل جملة واحدة. أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد: أي بين ولخص. وقرئ: "أحكمت آياته ثم فصلت" أي أحكمتها أنا ثم فصلتها. وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت، أي فرقت بين الحق والباطل. فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب: خبر مبتدأ محذوف وأحكمت: صفة له. وقوله: "لأن حكيم خبير" صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبيراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أي: من عنده إحكامها وتفصيلها، وفيه طباق حسن، لأن المعنى: أحكمها حكيم وفصلها: أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

"ألا تعبدوا إلا الله أني لكم نذير وبشير، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير، إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير".

"ألا تعبدوا" مفعول له على معنى: لنلا تعبدوا. أو تكون أن مفسرة، لأن في تفصيل الآيات معنى القوم، كأنه قيل قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله "وأن استغفروا" أي أمركم بالتوحيد والاستغفار. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة. ويدل عليه قوله: "أنني لكم نذير وبشير" كأنه قال: ترك عبادة غير الله، إنني لكم نذير، كقوله تعالى: "فضرِب الرقاب" محمد: 4، والضمير في "منه" الله عز وجل، أي: إنني لكم نذير وبشير من جهته، كقوله: "رسول من الله" البينة: 2، أو هي صلة لنذير، أي: أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم. فإن قلت: ما معنى ثم في قوله: "ثم توبوا إليه"؟ قلت: معناه استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. أو استغفروا والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، كقوله: "ثم استقاموا" الأحقاف: 13،. "يمتعكم" يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة "إلى أجل مسمى" إلى أن يتوفاكم، كقوله: "فلنحيينه حياة طيبة" النحل: 97، "ويؤت كل ذي فضل فضله" ويعطى في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه. أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات "وإن تولوا" وإن تتولوا "عذاب يوم كبير" هو يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل. وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء، فكان قادراً على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه. وقرئ: "وإن تولوا" من ولي.

"ألا أنهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور".

"يشنون صدورهم" يزورون عن الحق وينحرفون عنه، لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدوره، ومن ازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه "ليستخفوا منه" يعني: ويريدون ليستخفوا من الله، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم. ونظير إضمار يريدون لقود المعنى إلى إضماره الإضمار في قوله تعالى: "اضرب بعصاك البحر فانفلق" الشعراء: 63، معناه فضرب فانفلق. ومعنى "ألا حين يستغشون ثيابهم" ويريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم أيضاً، كراهة لاستماع كلام الله تعالى: كقول نوح عليه السلام: "جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم" نوح: 7، ثم قال: "يعلم ما يسرون وما يعلنون" يعني أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء، والله مطلع على ثيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم، ونفاقهم غير نافق عنده. روي أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحجة وله منطق حلو وحسن سياق للحديث، فكان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجالسته ومحادثته، وهو يضمخ خلاف ما يظهر. وقيل: نزلت في المنافقين. وقرئ: تتنوني صدورهم واثنوني من الثني، كاحلولى من الحلاوة، وهو بناء مبالغة، قرئ بالتاء والياء. وعن ابن عباس لتثنوي. وقرئ تثنون وأصله تثنون تفوعول من الثن وهو ما هش وضعف من الكلاء، يريد: مطاوعة صدورهم للثني، كما ينثني الهش من النبات. أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم. وقرئ: تثنن من اثنان أفعال منه، ثم همز كما قيل: ابيأضت، وادهأمت وقرئ: تثنوي بوزن ترعوي.

"وما من دابة على الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين".

فإن قلت: كيف قال: "على الله رزقها" بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل، قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم، رجع التفضل واجباً كذور العباد. والمتستقر: مكانه من الأرض ومسكنه. والمتسودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار، من صلب، أو رحم، أو بيضة "كل" كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في اللوح، يعني ذكرها مكتوب فيه مبين.

"وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين".

"وكان عرشه على الماء" أي ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض. وارتفاعه فوقها إلا الماء. وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض. وقيل: وكان الماء على متن الريح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه "ليبلوكم" متعلق بخلق، أي خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه. ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم. يريد: ليفعل بكم ما يفعل المبتي لأحوالكم كيف تعملون. فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قلت: لما في الاختبار من معنى العلم، لأنه طريق إليه فهو ملابس له، كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتاً؟ لأن النظر والاستماع من طرق العلم. فإن قلت كيف قيل: "أيكم أحسن عملاً" وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قلت: الذين هم أحسن عملاً

هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عبادته، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكافئهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"ليلوكم أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله" قرئ: "ولئن قلت أنكم مبعوثون" بفتح الهمزة. ووجهه أن يكون من قولهم: انت السوق عنك تشتري لنا لحماً، وأنت تشتري بمعنى علك، أي: ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون، بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه، ولا تبتوا القول بإنكاره، لقالوا: "إن هذا إلا سحر مبین" باتين القول ببطالانه. ويجوز أن تضمن قلت معنى ذكرت ومعنى قولهم: "إن هذا إلا سحر مبین" أن السحر أمر باطل، وأن بطالانه كبطالان السحر تشبيهاً له به. أو أشاروا بهذا إلى القرآن لأن القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره. وقرئ: إن هذا إلا ساحر، يريدون الرسول، والساحر: كاذب مبطل.

"ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسهم ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون".

"العذاب" عذاب الآخرة. وقيل عذاب يوم بدر. وعن ابن عباس: قتل جبريل المستهزين "إلى أمة" إلى جماعة من الأوقات "ما يحبسهم" ما يمنعه من التزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء. و"يوم يأتيهم" منصوب بخبر ليس، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها، إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل "وحق بهم" وأحاط بهم "ما كانوا به يستهزئون" العذاب الذي كانوا به يستعجلون. وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون، لأن استعجالهم كان على جهة الاستهزاء. والمعنى: ويحقيق بهم إلا أنه جاء على عادة الله في أخباره.

"ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير".

"الإنسان" للجنس "رحمة" نعمة من صحة وأمن وجدة "ثم نزعناها منه" ثم سلبنا تلك النعمة "إنه ليؤوس" شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة. قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع "كفور" عظيم الكفران لما سلف له من الثقل في نعمة الله نساء له "ذهب السيئات عني" أي المصائب التي ساءتني "إنه لفرح" أشر بطر "فخور" على الناس بما أذاقه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر "إلا الذين" آمنوا، فإن عادتهم إن نالتهم رحمة أن يشكروا، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا.

"فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل".

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم. ومن اقتراحهم "لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك" وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه،

فحرك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: "فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك" أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به "وضائق به صدرك" بأن تتلوهم عليهم "أَنْ يَقُولُوا" مخافة أن يقولوا: "لولا أنزل عليه كثر" أي هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكثر والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه، ثم قال: "إنما أنت نذير" أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه، ولا عليك ردوا أو تهاونوا أو اقترحوا "والله على كل شيء وكيل" يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل، فتوكل عليه، وكل أمرك إليه، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم. فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض، غير ثابت، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرًا. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجلود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد ونحوه كانوا قومًا عامين في بعض القراءات، وقول السمهري العكلي:

بمنزلة أما اللئيم فسامن بها وكرام الناس باد شحوبها

"أم يقولون أفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا ما استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين". "أم" منقطعة. والضمير في "أفتراه" لما يوحى إليك. تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخابر في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد "مثله" بمعنى أمثاله، ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له "مفتريات" صفة لعشر سور لما قالوا: افترت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله، قاودهم على دعواهم وأرخی معهم العنان وقال: هبوا أي اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام. فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟ قلت: معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى. "فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون".

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: "لكم فاعلموا" بعد قوله: "قل" قلت: معناه فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدوهم، وقد قال في موضع آخر: "فإن لم يستجيبوا لك فاعلم" القصص: 50، ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله:

فإن شئت حرمت النساء سواكم

ووجه آخر: وهو أن يكون الخطاب للمشركين، والضمير في "لم يستجيبوا" لمن استطعتم، يعني: فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاقتهم أقصر من أن تبلغه "فاعلموا" أنما أنزل بعلم الله أي أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، من نظم معجز للخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه "و" اعلموا عند ذلك "وأن لا إله إلا الله وحده، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم" فهل أنتم مسلمون

مبايعون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة، وهذا وجه حسن مطرد. ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد. ومعنى "فهل أنتم مسلمون" فهل أنتم مخلصون؟ "من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون".

"نوف إليهم" نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل: هم أهل الرياء. يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحم وتصدق: فعلت حتى يقال، فقيل ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل: وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحماً، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن. وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم في الغنائم. وقرئ: يوف بالياء على أن الفعل لله عز وجل. وتوف إليهم أعمالهم بالتاء، على البناء للمفعول. وفي قراءة الحسن: نوفي بالتخفيف وإثبات الياء، لأن الشرط وقع ماضياً، كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حرم

"وحبط ما صنعوا فيها" وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم، يعني: لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا "وباطل ما كانوا يعملون" أي كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. وقرئ: وبطل على الفعل. وعن عاصم: وباطلاً بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إمامية ينتصب يعملون، ومعناه: وباطلاً، أي باطل كانوا يعملون. وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

"أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهداً منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون".

"أفمن كان على بينة" معناه: أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة أي لا يعقبونهم في المتلة ولا يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً، وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كان على بينة "من ربه" أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل "ويتلوه" ويتبع ذلك البرهان "شاهداً منه" أي شاهد يشهد بصحته، وهو القرآن "منه" من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدم ذكره آنفاً "ومن قبله" ومن قبل القرآن "كتاب موسى" هو التوراة، أي: ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى. وقرئ: كتاب موسى بالنصب، ومعناه: كان على بينة من ربه، وهو الدليل على أن القرآن حق، "ويتلوه": وقرأ القرآن "شاهداً منه" شاهد ممن كان على بينة. كقوله: "وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله" الأحقاف: 10، "قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب" الرعد: 43، "ومن قبله كتاب موسى" ويتلو من قبل القرآن والتوراة "إماماً" كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه "رحمة" ونعمة عظيمة على المتزل إليهم "أولئك" يعني من كان على

بيئة "يؤمنون به" يؤمنون بالقرآن "ومن يكفر به من الأحزاب" يعني أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم "فالنار موعده فلا تك في مرية" وقرئ: مُرية بالضم وهما الشك "منه" من القرآن أو من الموعد.

"ومن أظلم ممن أفترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين، الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون، أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب وما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، أولئك الذين خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون، لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون".

"يعرضون على ربهم" يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم "الأشهاد" من الملائكة والنبين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولدًا وشريكًا، ويقال "ألا لعنة الله على الظالمين" فوا خزيه ووا فضيحتاه. والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد، كأصحاب أو أشرف "ويغونها عوجاً" يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو ييغون أهلها أنيعوجوا بالارتداد، وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به "أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض" أي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد "يضاعف لهم العذاب" وقرئ: يضعف "وما كانوا يستطيعون السمع" أراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكراهتهم له، كأنهم لا يستطيعون السمع ولعل بعض التجربة يتوثب إذا عثر عليه فيوعوع به على أهل العدل، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمع، وهذا مما يمجحه سمعي. ويحتمل أن يريد بقوله: "وما كان لهم من دون الله من أولياء" أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله، ولايتها ليست بشيء، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله: "وما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون" فكيف يصلحون للولاية. وقوله: "يضاعف لهم العذاب" اعتراض بوعيد "خسروا أنفسهم" اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسراهم في تجارتهم ما لا خسران أعظم منه، وهو أنهم خسروا أنفسهم "وَضَلَّ عَنْهُمْ" وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو "ما كانوا يفترون" من الآلهة وشفاعتها "لا جَرَمَ" فسر في مكان آخر "وهم الأخسرون" لا ترى أحداً أبين خسراً منهم.

"إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأحبوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون".

"وأحبوا إلى ربهم" واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة. ومنه قولهم للشيء: الدينء الخبيث. قال:

ق ولا ينفع الكثير الخبيث

ينفع الطيب القليل من الرز

وقيل: التاء فيه بدل من التاء.

"مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون".

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق. وفيه معنيان: أن

يشبه الفريق تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبهه بالذي جمع بين العمى والصمم، أو الذي جمع بين البصر والسمع. على أن تكون الواو في "والأصم" وفي "السميع" لعطف الصفة على الصفة، كقوله:

الصابح فالغانم فالآيب

"هل يستويان" يعني الفريقين "مثلاً" تشبيهاً.

"ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم".
أي أرسلنا نوحاً بأني لكم نذير. ومعناه أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام، وهو قوله: "إني لكم نذير مبين" بالكسر، فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في "كأن" والمعنى على الكسر، وهو قولك: إن زيدا كالأسد. وقرئ بالكسر على إرادة القول "أن لا تعبدوا" بدل من "إني لكم نذير" أي أرسلناه بأن لا تعبدوا "إلا الله" أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير وصف اليوم بأليم من الإسناد الجازي لوقوع الألم فيه. فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟ قلت: مجازي مثله، لأن الأليم في الحقيقة هو المعذب، ونظيرهما قولك: فهاك صائم، وجد جده.
"قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشر مثلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين".

"الملأ" الأشراف من قوهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤا بالأمر، لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وتبديروها. أو لأنهم يتمالئون أي يتظاهرون ويتساندون أو لأنهم يملؤون القلوب هيبة والجالس أمة أو لأنهم ملأوا بالأحلام والآراء الصائبة "ما نراك إلا بشر مثلاً" تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المتزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قوهم: وما نرى لكم علينا من فضل. أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشراً. والأراذل جمع الأرذل كقوله: "أكابر مجرميها" الأنعام: 123، "أحاسنكم أخلاقاً" وقرئ: "بادي الرأي" بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أول الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه. أرادوا: أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استرذلو المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويننون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوة والتأهيل لها، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله "من فضل" من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوة، "بل نظنكم كاذبين" فيما تدعون.
"قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون، يا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً

تجهلون، ويا قوم من ينصري من الله إن طردتهم أفلا تذكرون، ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا علم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تردري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين".

"أرايتم" أخبروني "إن كنت على بينة" على برهان "من ربي" وشاهد منه يشهد بصحة دعواي "وآتاني رحمة من عنده" بإتياء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوة. فإن قلت: فقوله: "فعميت" ظاهر على الوجه الأول، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟ قلت: الوجه أن يقدر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة: ومعنى عميت خفيت. وقرئ: فعميت بمعنى خفيت. وفي قراءة أبي فعماها عليكم فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء، لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره، فمعنى فعميت عليكم البينة فلم تهدكم، كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد. فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟ قلت: المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله: "أنلزمكموها وأنتم لها كارهون" يعني أنكروهم على قبولها ونقسرهم على الاهتداء بها، وأنتم تكروها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضميري المفعولين متصلين جميعاً. ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً كقولك: أنلزمكم إياها. ونحوه "فسيكفيهم الله" البقرة: 137، ويجوز: فسيكفيك إياهم. وحكي عن أبي عمرو إسكان الميم. ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنها الراوي سكوناً. والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر. والضمير في قوله: "لا أسألكم عليه" راجع إلى قوله لهم: "إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله" هود: 25،. وقرئ: "وما أنا بطارد الذين آمنوا" بالتنوين على الأصل. فإن قلت: ما معنى قوله: "إنهم ملاقو ربهم"؟ قلت: معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم. أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظفري منهم وما أعرف غيره منهم. أو على خلاف ذلك مما تفرقوهم به من بناء إيمانهم على بادئ الرأي من غير نظر وتفكير. وما علي أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون. ونحوه "ولا تطرد الذين يدعون ربهم" الآية الأنعام: 52، أو هم مصدقون بقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة "تجهلون" تتسافهون على المؤمنين وتدعوهم أراذل: من قوله:

ألا تجهلون أحد علينا

أو تجهلون بقاء ربكم. أو تجهلون أنهم خير منكم "من ينصري من الله" من يمنعني من انتقامه "إن طردتهم" وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء "أعلم الغيب" معطوف على "عندي خزائن الله" أي لا أقول عندي خزائن الله، ولا أقول: أنا أعلم الغيب. ومعناه: لا أقول لكم: عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلي بقولكم "وما نرى لكم علينا من فضل" هود: 27، ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضماير قلوبهم "ولا أقول إني ملك" حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتهم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا

والآخرة لهُواهم عليه، كما تقولون، مساعدة لكم ونزولاً على هواكم "إني إذا لمن الظالمين" إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من زري عليه إذا عابه. وأزرى به: قصر به، يقال ازدرت به عينه، واقتحمته عينه. "قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين". "جادلتنا فأكثرت جدالنا" معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرت، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب "أتنا بما تعدنا" من العذاب المعجل.

"قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون، أم يقولون افتراه قل إن أفتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون".

"إنما يأتيكم به الله" أي ليس الإتيان بالعذاب إلي إنما هو إلى من كفرتم به وعصيته "إن شاء" يعني إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه. فأكثرت جدالنا فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟ قلت: قوله: "إن كَانَ الله يُريدُ أن يغويكم" جزاؤه ما دل عليه قوله: "لا ينفعكم نصحي" وهذا الدال في حكم ما دل عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إن أحسنت إلي أحسنت إليك إن أمكنني. فإن قلت: فما معنى قوله: "إن كَانَ الله يُريدُ أن يغويكم"؟ قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمي ذلك إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلفظ به: سمي إرشاداً وهداية. وقيل: "أن يغويكم" أن يهلككم من غوى الفصيل غوي، إذا بشم فهلك، ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمتزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي؟ "فعلي إجرامي" وإجرامي بلفظ المصدر والجمع. كقوله: والله يعلم أسرارهم وأسرارهم. ونحو: جرم وأجرام قفل وأقفال. وينصر الجمع أن فسرهُ الأولون بآثامي والمعنى: إن صح وثبت أنني افتريته، فعلي عقوبة إجرامي أي افتراضي. وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا علي "وأنا بريء" يعني ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه. ومعنى "مما تجرمون" من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

"وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون".

"لن يؤمن" إقناط من إيمانهم، وأنه كالأخال الذي لا تعلق به للتوقع "إلا من قد آمن" إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، وقد للتوقع وقد أصابت محزها "فلا تبتئس" فلا تحزن حزن بئس مستكين، قال:

ما يقسم الله فاقبل غير مبتئس منه واقعد كريماً ناعماً بال

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم "بأعيننا" في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن الله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ في صنعه عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه. ووحينا: وأنا نوحى إليك ولنهملك كيف تصنع. عن ابن عباس رضي الله عنه: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر "لا تخاطبني في الذين ظلموا" ولا

تدعني في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك "إنهم مُغرَمُونَ" إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضي به القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، كقوله: "يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود" هود: 76.

"ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم".

"ويصنع الفلك" حكاية حال ماضية "سخروا منه" ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهماء في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً "إننا نسخر منكم" يعني في المستقبل "كما تسخرون" منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل: إن تستجهلوننا فيما نصنع فإننا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا. أو إن تستجهلوننا فإننا نستجهلكم في استجهالكم، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق. وروي أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة. وقيل: إن الحوارين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب فقال: أندرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب بن حام. قال: فضرب الكتيب بعصاه فقال: قم ياذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام: أهكذا هلكت؟ قال لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير. ثم قال: له عد ياذن الله كما كنت، فعاد تراباً "من يأتيه" في محل النصب بتعلمون، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه، ويعني به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا وهو الغرق "ويحل عليه" حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه "عذاب مقيم" وهو عذاب الآخرة.

"حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل، وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم".

"حتى" هي التي يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟ قلت: لقوله ويصنع الفلك، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد، فإن قلت: فإذا اتصلت حتى بيصنع فما تصنع بما بينهما من الكلام؟ قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه.

فإن قلت: فما جواب كلما؟ قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل سخرؤا جواباً وقال استئنافاً، على تقدير سؤال سائل، أو تجعل سخرؤا بدلاً من مر أو صفة لمأ وقال جواباً. "وأهلك" عطف على اثنين، وكذلك "وَمَنْ آمَنَ" يعني: واجل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه وإرادته به تعالى الله عن ذلك قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته، "إلا قليل" روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم" وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة. وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام وحام وياث، ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء. ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل "بسم الله" ب "اركبوا" حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن الجري والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم خفوق النجم، ومقدم الحاج. ويجوز أن يراد مكاناً الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في "بسم الله" من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول. والكلامان: أن يكون "بسم الله مجراها ومرساها" جملة من مبتدأ وخبر مقتضيه، أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها. يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم الاسم، كقوله:

ثم اسم السلام عليكما

ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي بقدرته وأمره. وقرئ: "مجراها ومرساها" بفتح الميم، من جرى ورسى، إما مصدرين أو وقتين أو مكانين. وقرأ مجاهد مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل، مجروري المحل، صفتين لله. فإن قلت: ما معنى قولك: جملة مقتضية؟ قلت: معناه أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته. ويحتمل أن تكون غير مقتضيه بأن تكون في موضع الحال كقوله:

وجاؤنا بهم سكر علينا

فلا تكون كلاماً برأسه، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله بمعنى التقدير، كقوله تعالى: "فادخلوها خالدين" الزمر: 73. 10، "إن ربي لغفور رحيم" لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

"وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين". فإن قلت: بم اتصل قوله: "وهي تجري بهم"؟ قلت: بمحذوف دل عليه "اركبوا فيها بسم الله" هود: 41، كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، "وهي تجري بهم" أي تجري وهم فيها "في موج كالجبال" يريد موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها. فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى

جربها في الموج؟ قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال. ألا ترى إلى قول ابنه: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء. قيل: كان اسم ابنه: كنعان. وقيل: يام. وقرأ علي رضي الله عنه: ابنها، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: ابنه، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكْتَفِيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن. قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه إن ابني من أهلي، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله: "من أهلي" هود: 45، ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان، أحدهما: أن يكون ربيباً له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام. وقرأ السدي ونادى نوح ابنه على الندبة والترثي. أي: قال: يا ابناه. والمعزل: مفعول، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعني وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين. وقيل: كان في معزل عن دين أبيه "يا بني" قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك يا نبياً أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين؟ لأن الراء بعدهما ساكنة "إلا من رحم" إلا الراحم وهو الله تعالى، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكأن لهم غفوراً رحيماً في قوله: "إن ربي لغفور رحيم" هود: 41، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصماً من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة. وقيل لا عاصم، بمعنى: لا إذا عصمة إلا من رحمه الله، كقوله: "ماء دافق" الطارق: 6، و"عيشة راضية" الحاقة: 21، وقيل: "إلا من رحم" استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم، كقوله: "ما لهم به من علم إلا اتباع الظن" النساء: 157، وقرئ إلا من رُحِمَ على البناء للمفعول.

"وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين".

نداء الأرض والسماء بما ينادي به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: يا أرض ويا سماء ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ابلعي ماءك وأقلعي من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممنوعة عليه، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمتهم وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والتزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء. والبلغ: عبارة عن النشف. والإقلاع: الإمساك. يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى "وغيض الماء" من غاضه إذا نقصه "وقضي الأمر" وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه "واستوت" واستقرت السفينة "على الجودي" وهو جبل بالموصل "وقيل بعداً" يقال بعد بعداً وبعداً، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون

قاهر، وإن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله: ابلعي وأقلعي وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك الاخاسن التي هي اللب وما عداها قشور. وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء. وروي أنها مرت بالبيت فطافت به سبعاً، وقد أعتقه الله من الغرق. وروي أن نوحاً صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

"ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين".

نداءه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: "رب" مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله. فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء؟ قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجاء كما جاء قوله: "إذ نادى ربه نداء خفياً قال رب" مريم: 3، بغير فاء "إن ابني من أهلي" أي بعض أهلي، لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيباً له فهو بعض أهله "وإن وعدك الحق" وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ "وأنت أحكم الحاكمين" أي أعلم الحكام وأعدهم؟ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل. ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة، ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة كما قيل دارع من الدرع، وحائض وطالق على مذهب الخليل "إنه عمل غير صالح" تعليل لانتفاء كونه من أهله. وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقتك وخصيصك. ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمه، كقولها:

فإنما هي إقبال وإدبار

وقيل: الضمير لنداء نوح، أي: إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمل فاسد؟ قلت: لما نفاه عن أهله، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقي معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصالحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك. وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك، كقوله: "كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً" التحريم: 10، وقرئ: عمل غير صالح أي عمل عملاً غير صالح. وقرئ: فلا تسئلن بكسر النون بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني فلا تلتمس مني ملتماً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه. وذكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه. فإن قلت: لم سمي نداءه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ قلت: قد تضمن دعاؤه

معنى السؤال وإن لم يصرح به، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشاركة ولده الغرق فقد استنجز. وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباءة، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين. فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما اشفى على الغرق تشابه عليه الأمر، لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكيماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخلف الميعاد، فطلب إمطة الشبهة وطلب إمطة الشبهة واجب، فلم زجر وسمي سؤاله جهلاً؟ قلت: إن الله عز وعلا قدم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سيق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنى لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتهه.

"قال ربي إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين".
"أن أسألك" من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدياً بأدبك واتعاطاً بموعظتك "وإلا تغفر لي" ما فرط مني من ذلك "وترحمني" بالتوبة علي "أكن من الخاسرين" أعمالاً.

"قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم".
وقرئ: يا نوح اهبط بضم الباء "بسلام منا" مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرماً "وبركات عليك" ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية. وقرئ: وبركة على التوحيد "وعلى أمم ممن معك" يحتمل أن تكون من للبيان. فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة، لأنهم كانوا جماعات. أو قيل لهم أمم، لأن الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لإبتداء الغاية أي: على أمم ناشئة من معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه. وقوله: "وأمم" رفع بالابتداء. و "سنمتعهم" صفة، والخبر محذوف تقديره: وعمن معك أمم سنمتعهم، وإنما حذف لأن قوله: "ممن معك" يدل عليه والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة. وعن محمد بن كعب القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلًا، منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

"تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين".
"تلك" إشارة إلى قصة نوح عليه السلام. ومحملها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك "من قبل هذا" من قبل إحيائي إليك وإخبارك بها. أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي. أو من قبل هذا الوقت "فاصبر" على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه "إن العاقبة" في الفوز والنصر والغلبة "للمتقين" وقوله: "ولا قومك" معناه: إن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

"وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون، يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون، يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزيدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين".

"أخاهم" واحداً منهم، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحاً، و "هُوداً" عطف بيان. و "غَيْرُهُ" بالرفع: صفة على محل الجار والمجرور. وقرئ: غيره بالجزء صفة على اللفظ "إن أنتم إلا مفترون" تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء. ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول، لأن شأهم النصيحة، والنصيحة لا يحصها ولا يحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجح ولم تنفع "أفلا تعقلون" إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله. وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك، قيل "استغفروا ربكم" آمنوا به "ثم توبوا إليه" من عبادة غيره، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد الإيمان، والمدار: الكثير الدور، كالمغزار. وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حراساً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة، مستحريين بما من العدو، مهيين في كل ناحية. وقيل: أراد القوة في المال وقيل: القوة على النكاح وقيل: حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية، فلما خرج تبعه بعض حجابيه فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية فقال: هلا سألته مم قال ذلك، فوفد وفدة أخرى، فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود عليه السلام "يزيدكم قوة إلى قوتكم" وقول نوح عليه السلام: "ويمددكم بأموال وبنين" نوح: 12، "ولا تتولى" ولا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه "مجرمين" مصرين على إجرامكم وآثامكم.

"قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين".

"ما جئنا ببينة" كذب منهم وجحود، كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا أنزل عليه آية من ربه، مع فوت آياته الحصر "عن قولك" حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما ترك آلهتنا صادرين عن قولك: "وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ" وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوههم إليه، إقناطاً له من الإجابة. "إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أبي بريء مما تشركون، من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون".

"اعتراك" مفعول نقول، وإلا لغو. والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها. مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذين المبرسمين. وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خبلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام سمعناهم يسمون التائب من ذنوبه مجنوناً والمنيب إلى ربه مخبلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من المودة وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أبي إلا أن ينبض، وضب من الزندقة أراد أن يطلع رأسه وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد،

لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون إلى النصيح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلمهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه. يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقتة بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبتهم. ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه. "ثم اقضوا إلي ولا تنظرون" يونس: 71، أكد براءته من آهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أي لا أفعل كذا ويقول لقومه كونوا شهداء على أي لا أفعله. فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهدهم فما هو إلا تمأون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن ييس الثرى بينه وبينه. اشهد علي أي لا أحبك، تكمماً به واستهانة بحاله "مما تشركون به من دونه" من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركونه من آلهة من دونه، أي أنتم تجعلونها شركاء له، ولم يجعلها هو شركاء. ولم يترل بذلك سلطاناً "فكيدوني جميعاً" أنتم وآهتكم أعجل ما تفعلون، من غير إنظار، فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرفتكم وإن تعاونتم علي وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضربي آهتكم، وما هي إلا جهاد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصدت عن عبادتها، بأن تخبلي وتذهب بعقلي.

"إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ". ولما ذكر توكله على الله وثقتة بحفظه وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم. من كون كل دابة في قبضته وملكنه وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك "إن ربي على صراط مستقيم" يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به "فإن تولوا" فإن تولوا. فإن قلت: الإبلع كان قبل التولي، فكيف وقع جزاء للشرط؟ قلت: معناه فإن تولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلع، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول "ويستخلف" كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم "ولا تضرونه" بتوليكم "شيئاً" من ضرر قط، لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع، وإنما تضرون أنفسكم. وفي قراءة عبد الله "ويستخلف" بالجزم وكذلك: ولا تضروه، عطفاً على محل "فقد أبلغتكم" المعنى: إن يتولوا يعذروني ويستخلف قوماً غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم "على كل شيء حفيظ" أي رقيب عليه مهيم، فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم. أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار، لم يضر مثله مثلكم.

"ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ".
 "والذين آمنوا معه" قيل: كانوا أربعة آلاف. فإن قلت: ما معنى تكرير النجية؟ قلت: ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال: "ونجيناهم من عذاب غليظ" على معنى: وكانت تلك النجية من عذاب غليظ وذلك أن الله

عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أديبارهم فتقطعهم عَصَوًا عَصَوًا. وقيل أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد. وقوله: برحمة منا، يريد: بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له.

"وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود".

"وتلك عاد" إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: "جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله" لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله، "لا نفرق بين أحد من رسله" البقرة: 285، قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده "كل جبار عنيد" يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاهم إلى تكذيب الرسل. ومعنى اتباع أمرهم: طاعتهم. ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله. و"آلا" وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم، تهويل لأمرهم وتفضيع له، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم. فإن قلت: "بعد الموت" دعاء بالهلاك، فما معنى الدعاء به عليهم في هلاكهم؟ قلت: معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له: ألا ترى إلى قوله:

وبلى والله قد بعدوا

إخوتي لا تبعدوا أبداً

"قوم هود" عطف بيان لعاد: فإن قلت: ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بدونه؟ قلت: الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً، وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه، ولأن عاداً عادان: الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم، والأخرى إرم.

"وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لك من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما تعبد آباؤنا وإننا في شك مما تدعونا إليه مريب، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير، يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب، فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا وخزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثين، كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود".

"هو أنشأكم من الأرض" لم ينشئكم منها إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره. وإنشأؤهم منها خلق آدم من التراب "واستعمركم فيها" وأمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار، وعمرروا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: إنهم عمروا بلادهم فعاشر فيها عبادي. وعن معاوية بن أبي سفيان أنه أخذ في إحياء الأرض في آخر أمره، فقيل له، فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل.

ولا تكون له في الأرض آثار

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به

وقيل: استعمركم من العمر، نحو استبقاكم من البقاء، وقد جعل من العمرى. وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون استعمر في معنى أعمار، كقولك استهلكه في معنى أهلكه.

ومعناه: أعماركم فيها دياركم، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم. والثاني أن يكون بمعنى جعلكم معمرين دياركم فيها، لأن الرجل إذا ورث داره من بعده فكأنما أعمره إياها، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره "قريب" داني الرحمة سهل المطلب "مجيب" لمن دعاه وسأله "فيما" فيما بيننا "مرجواً" كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوكم لننتفع بك، وتكون مشاوراً في الأمور ومسترشداً في التدابير، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاءنا كنك وعلمنا أن لا خير فيك. وعن ابن عباس: فاضلاً خيراً نقدمك على جميعنا. وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه "يعبد آباؤنا" حكاية حال ماضية "مريب" من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين. أو من أراب الرجل إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازي. قيل: "إن كنتُ على بينة من ربي" بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة، لأن خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدروا أي على بينة من ربي، وأي نبي على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ "فما تزيدني" إذن حينئذ "غير تخسير" يعني تخسرون أعمالي وتبطلونها. أو فما تزيدوني بما تقولون لي وتحملوني عليه غير أن أخسركم، أي أنسيكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم خاسرون "آية" نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. فإن قلت: فبم يتعلق "لكم" قلت بأية حالاً منها متقدمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال "عذاب قريب" عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم "تمتعوا" استمتعوا بالعيش "في داركم" في بلدكم، وتسمى البلاد الديار، لأنه يدار فيه أي يتصرف. يقال: ديار بكر، لبلادهم. وتقول العرب الذين حوالي مكة: نحن من عرب الدار، يريدون من عرب البلد. وقيل: في دار الدنيا. وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت "غير مكذوب" غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به، كقولك: يوم مشهود، من قوله:

ويوم شهدناه

أو على الحجاز، كأنه قيل للوعد: نفي بك، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكذب. أو وعد غير كذب، على أن المكذوب مصدر كالجلود والمعقول، والمصدوقة بمعنى الصدق "ومن خزي يومئذ" قرئ مفتوح الميم لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن، كقوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا

فإن قلت: علام عطف؟ قلت: على نحينا، لأن تقديره ونحينا هم من خزي يومئذ، كما قال "ونحينا هم من عذاب غليظ" هود: 58، على: وكانت التنجية من خزي يومئذ، أي من ذله ومهانته وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه. ويجوز أن يريد بيومئذ يوم القيامة، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة.

وقرى: "ألا إن ثمود" ولثمود كلاهما بالصرف وامتناعه، فالصرف للذهاب إلى الحي أو الأب الأكبر، ومنعه للتعريف والتأنيث، بمعنى القبيلة.

"ولقد أرسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلاماً فما لبث أن جاء بعجل حنيد، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت فبشرنا بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد".

"أرسلنا" يريد الملائكة. عن ابن عباس: جاءه جبريل عليه السلام وملكاه معه. وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: كانوا تسعة. وعن السدي: أحد عشر "البشرى" هي البشارة بالولد، وقيل: بهلاك قوم لوط، والظاهر الولد "سلاماً" سلمنا عليك سلاماً "سلاماً" أمركم سلام. وقرئ: فقالوا سلاماً قال سلم بمعنى السلام. وقيل: مسلم وسلام، كحرم وحرام، وأنشد:

مررنا فقلنا إيه سلم فسلمت كما اكتل بالبرق الغمام اللوائح

"فما لبث أن جاء" فما لبث في الجيء به، بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه. والعجل: ولد البقرة، ويسمى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام البقر "حنيداً" مشوي بالرضف في أخدود. وقيل "حنيداً" يقطر دمه، من حذت الفرس إذا ألقيت عليها الجل حتى تقطر عرقاً، ويدل عليه "بعجل سمين" الذاريات: 26. يقال: نكره وأنكره واستنكره، ومنكور قليل في كلامهم، وكذلك: أنا أنكرك، ولكن منكر ومستنكر، وأنكرك. قال الأعشى:

أنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

قيل: كان يتزل في طرف من الأرض فخاف أن يريدوا به مكروهاً. وقيل: كانت عابرتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة، ونكرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه، ألا ترى إلى قولهم: "لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط" وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا "فأوجس" فأضمر. وإنما قالوا: "لا تخف" لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه. أو عرفوه بتعريف الله. أو علموا أن علمه بأنهم ملائكة موجب للخوف، لأنهم كانوا لا يتزلون إلا بعذاب "وامرأته قائمة" قيل: كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم. وقيل: كانت قائمة على رؤوسهم تخدمهم. وفي مصحف عبد الله: وامرأته قائمة وهو قاعد "فضحكت" سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث. أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلمهم العذاب. وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإني أعلم أنه يتزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت. وقيل ضحكت فحاضت. وقرأ محمد بن زياد الأعرابي فضحكت بفتح الحاء "يعقوب" رفع بالابتداء، كأنه قيل: ومن وراء إسحاق يعقوب مولود أو موجود، أي من بعده. وقيل

الوراء: ولد الولد. وعن الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال نعم، من الوراء، وكان ولد ولده. وقرئ: يعقوب بالنصب، كأنه قيل. ووهبنا لها إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، على طريقة قوله:

.....لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبَ.....

الألف في "يا ويلتا" مبدلة من ياء الإضافة، وكذلك في يا لهفأ ويا عجبأ وقرأ الحسن: يا ويلتي بالياء على الأصل. و"شيخاً" نصب بما دل عليه اسم الإشارة. وقرئ: شيخ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا بعلي هو شيخ. أو بعلي: بدل من المبتدأ، وشيخ: خبر، أو يكونان معاً خبرين. قيل: بشرت ولها ثمان وتسعون سنة، وإبراهيم مائة وعشرون سنة "إن هذا لشيء غريب" أن يولد ولد من هرمين، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله. وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ف"قالوا أتعجبين من أمر الله" لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها ما يزدهي النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: "رحمة الله وبركاته عليكم" أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عجب. وأمر الله: قدرته وحكمته. وقوله: "رحمة الله وبركاته عليكم" كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم. وقيل: الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل، لأن الأنبياء منهم، وكلهم من ولد إبراهيم "حميد" فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده "مجيد" كريم كثير الإحسان إليهم. وأهل البيت: نصب على النداء أو على الاختصاص لأن "أهل البيت" مدح لهم، إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن.

"فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى تجادلنا في قوم لوط، إن إبراهيم خليل الله منيب".

"الروع" ما أوجس من الخيفة. حين نكر أضيافه. والمعنى: أنه لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سروراً بسبب البشرى بدل الغم، فرغ للمجادلة، فإن قلت: أين جواب لما؟ قلت: هو محذوف كما حذف قوله: "فلما ذهبوا به وأجمعوا" يوسف: 15، وقوله: "يجادلنا" كلام مستأنف دال على الجواب. وتقديره: اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت: ثم ابتداء فقال: "يجادلنا في قوم لوط" وقيل في "يجادلنا": هو جواب لما، وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال: وقيل إن لما ترد المضارع إلى معنى الماضي، كما ترد إن الماضي إلى معنى الاستقبال، وقيل: معناه أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا. والمعنى: يجادل رسلنا. ومجادلته إياهم أنهم قالوا: "إنا مهلكوا أهل هذه القرية" العنكبوت: 31، فقال: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أهلكوهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا حتى بلغ القصرة. قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أهلكوهم؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: "إن فيها لوطاً" العنكبوت: 32، "قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله" العنكبوت: 32، "في قوم لوط" في معناه. وعن ابن عباس: قالوا له: إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب. وعن قتادة: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير. وقيل: كان فيها أربعة آلاف ألف إنسان "إن إبراهيم خليل الله" غير عجول على كل من أساء

إليه "أواه" كثير التأوه من الذنوب "منيب" تائب راجع إلى الله بما يجب ويرضى. وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أن ذلك مما حمله على الجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب. وعملوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه.

"يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود".
"يا إبراهيم" على إرادة القول: أي قالت له الملائكة "أعرض عن هذا" الجدل وإن كانت الرحمة ديدنك، فلا فائدة فيه "إنه قد جاء أمر ربك" وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة، والعذاب نازل بالقوم لا محالة، لا مرد له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

"ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عاصيب".
كانت مساء لوط وضيق ذرعه لأنه حسب أنهم انس، فخاف عليهم خبت قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم. روي أن الله تعالى قال لهم: لا تملكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها. يقال: يوم عاصيب، وعصوصب، إذا كان شديداً من قولك: عصبه، إذا شده.

"وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد".

"يهرعون" يسرعون كأنما يدفعون دفعاً "ومن قبل كانوا يعملون السيئات" ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها، فضروا بها ومروا عليها وقل عندهم استقباحتها، فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء. وقيل معناه: وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك "هؤلاء بناتي" أراد أن يقي أضيافه بناته، وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوجوهن وكان تزويج المسلمات من الكفار جاتراً، كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن وائل قبل الوحي وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه وقرأ ابن مروان هن أطهر لكم النصب، وضعفه سيبويه وقال: احتجى ابن مروان في لحنه. وعن أبي عمرو بن الورد: من قرأ "هْنُ أَطْهَرُ" بالنصب فقد تربع في لحنه، وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالاً قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل، كقوله: "هذا بعلي شيخاً" هود: 72، أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء، وبناتي: بدل، ويعمل هذا المضمر في الحال، وهن فصل، وهذا لا يجوز لأن الفصل مختص بالوقوع بين جزأي الجملة، ولا يقع بين الحال وذو الحال، وقد خرج له وجه لا يكون "هؤلاء" فيه فصلاً، وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ و "بناتي هْنُ" جملة في موضع خبر المبتدأ، كقولك: هذا أخي هو، ويكون "أطهر" حالاً

"فاتقوا الله" ببيانهم عليهم "ولا تحزوني" ولا تقيوني ولا تفضحوني، من الحزي، أو ولا تخجلوني، من الخزية وهي الحياء "في ضيفي" في حق ضيو في فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة "أليس منكم رجل رشيد" رجل واحد يهتدي إلى سبيل الحق وفعل الجميل، والكف عن السوء.

وقرئ: ولا تخزون بطرح الياء. ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعاً في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم، ومن ثم "قالوا لقد علمت" مستشهدين بعلمه "ما لنا في بناتك من حق" لأنك لا ترى مناكحتنا، وما هو إلا عرض سابري. وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأن نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط؟ لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه. ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفي الشهوة "لتعلم ما تريد" عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

"قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد".

جواب لو محذوف، كقوله تعالى: "ولو أن قرآناً سيرت به الجبال" الرعد: 31، يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت. يقال: ما لي به قوة، وما لي به طاقة. ونحوه "لا قبل لهم بما" النمل: 27، وما لي به يدان؟ لأنه في معنى لا أضطلع به ولا أستقل به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمتع به فيحميني منكم. فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة وقد وجدت عليه: إن ركنك لشديد. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "رحم الله أخي لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد" وقرئ: "أو آوي" بالنصب بإضمار أن كأنه قيل لو أن لي بكم قوة أو أوي، كقولها:

للبس عباءة وتقر عيني

وقرئ: إلى ركن بضمين. وروي أنه أغلق بابه حين جاءوا وجعل يرادهم ما حكى الله عنه ويجادلهم، فتسوروا الجدار.

"قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب".

فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يا لوط، إن ركنك لشديد "إنا رسل ربك لن يصلوا إليك" فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الشيا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله تعالى: "فطمسنا أعينهم" القمر: 37، فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط قوماً سحرة "لن يصلوا إليك" جملة موضحة للنبي قبلها؟ لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدرُوا على ضرره. قرئ: "فأسر" بالقطع والوصل. و"إلا امرأتك" بالرفع والنصب. وروي أنه قال لهم: متى موعدهم هلاكهم؟ قالوا: الصبح. فقال: أريد أسرع من ذلك. فقالوا: "أليس الصبح بقريب" وقرئ: "الصبح" بضمين. فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ "إلا امرأتك" بالنصب؟ قلت: استثنائها من قوله: "فأسر بأهلك" والدليل عليه قراءة عبد الله: فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك. ويجوز أن ينتصب عن لا

يلتفت، على أصل الاستثناء وإن كان الفصيح هو البذل، أعني قراءة من قرأ بالرفع، فأبدلها عن أحد. وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنه أخرجها معهم، وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها. وروي أنه أمر بأن يخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم، فلم يسر بها. واختلاف القراءتين لاختلاف الروائتين.

"فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد".

"جعلنا عاليها سافلها" جعل جبريل جناحه في أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم "من سجيل" قيل هي كلمة معربة من سنككل، بدليل قوله: "حجارة" من طين وقيل: هي من أسجله، إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين. ويدل عليه قوله: "لنرسل عليهم حجارة" الذاريات: 33، وقيل: مما كتب الله أن يعذب به من السجل، وسجل لفلان "منضود" نضد في السماء نضداً معداً للعذاب. وقيل يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً "مسومة" معلمة للعذاب وعن الحسن كانت معلمة بياض وحمرة وقيل عليها سيماً لعلم بما أنها ليست من حجارة الأرض. وقيل: مكتوب على كل واحد اسم من يرمي به "وما هي" من كل ظالم ببيعد. وفيه وعيد لأهل مكة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه سأل جبريل عليه السلام؟ فقال: يعني ظلمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة. وقيل الضمير للقرى، أي هي قرية من ظالمي مكة يمرون بها في مسائرهم "بيعد" بشيء بعيد. ويجوز أن يراد: وما هي بمكان بعيد؟ إلا أنها إذا هوت في السماء وهي مكان بعيد، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شيء لحوماً بالمرمي، فكأنها بمكان قريب منه.

"وإلى مدين أخاهم شعبياً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، يا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ".

"إني أراكم بخير" يريد بشروة واسعة تغنيكم من التطفيف. أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون. أو أراكم بخير فلا تزبلوا عنكم بما أنتم عليه، كقول مؤمن آل فرعون: "يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا" غافر: 29، "يوم محيط" مهلك من قومه: "وأحيط بثمره" الكهف: 42، وأصله من إحاطة العدو. فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بما؟ قلت: بل وصف اليوم بما، لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه. فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: أوفوا؟ قلت: فهو أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، لأن في التصريح بالقبيح نعيماً على المنهي. وتعبيراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه، لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه، وجيء به مقيداً بالقسط: أي ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان، أمراً بما هو الواجب، لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب إليه. وفيه توقيف

على أن الموفى عليه أن ينوي بالوفاء بالقسط؟ لأن الإيفاء وجه حسنه أنه قسط وعدل، فهذه ثلاث فوائد. البخس: الهضم والنقص. ويقال للمكس: البخس. قال زهير:

وفي كل ما باع امرؤ بخس درهم

وروي: مكس درهم، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً، كما تفعل السماسرة. أو كانوا يمكسون الناس. أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعني في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل. ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عثياً منهم في الأرض "بقيت الله" ما يبقى لكم من الحلال بعد التزّه عما هو حرام عليكم "خير لكم إن كنتم مؤمنين" بشرط أن تؤمنوا، وإنما خوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان. فإن قلت: بقية الله خير للكفرة، لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف، فلم شرط الإيمان؟ قلت لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب، وحفاء فائدتها مع فقدته لانغماس صاحبها في غمرات الكفر. وفي ذلك استعظام للإيمان، وتنبية على جلالة شأنه. ويجوز أن يراد: إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم. ويجوز أن يراد: ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير لكم، كقوله: "والبقيات الصالحات خير عند ربك" الكهف: 46، وإضافة البقية إلى الله من حيث أنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه. وأما الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً، وإذا أريد به الطاعة فكما تقول: طاعة الله. وقرئ: "تقية الله" بالياء وهي تقراه ومراقبته التي تصرف عن المعاصي والقبائح "وما أنا عليكم بحفيظ" وما بعث لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مبلغاً ومنهياً على الخير وناصحاً، وقد أعذرت حين أذرت. "قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباءنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد".

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم: "أصلاتك تأمرك" السخرية والهزء والصلاة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز، كما كانت ناهية في قوله: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" العنكبوت: 45، وأن يقال: إن الصلاة تأمر بالجميل والمعروف، كما يقال: تدعو إليه وتبعث عليه إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطرّ وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به أمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك بلى أمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال. ومعنى تأمرك "تأمرك أن" تأمرك بتكليف أن نترك "ما يعبد آباؤنا" لحذف المضاف الذي هو التكليف، لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره. وقرئ "أصلاتك" بالتوحيد. وقرأ ابن أبي عبيدة "أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء" بناء الخطاب فيهما، وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس، والاعتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير. وقيل: كان ينهاهم عن حذف الدراهم والدنانير وتقطيعها وأرادوا بقولهم: "إنك لأنت الحليم الرشيد" نسبته إلى غاية السفه والغى، فعكسوا ليهكم كما به، كما يتهكم بالشحيح الذي لا يبض حجره، فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك. وقيل:

معناه إنك للمتواصف بالحلم والرشد في قومك، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به.

"قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

"ورزقي منه" أي من لدنه "رزقاً حسناً" وهو ما رزقه من النبوة والحكمة. وقيل "رزقاً حسناً" حالاً طيباً من غير بخس ولا تطفيف. فإن قلت: أين جواب "أرأيتم" وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح ولوط؟ قلت: جوابه محذوف، وإنما لم يثبت لأن إثباته في القصتين دل على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه. والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربي وكنت نبياً على الحقيقة، أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ يقال: خالفني فلان إلى كذا. إذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولي عمه وأنت قاصده. ويلفك الرجل صادر عن الماء فتسأله عن صاحبه؟ فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً. ومنه قوله تعالى: "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتاكم عنه" يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي هيئتكم عنها، لأستبد بها دونكم "إن أريد إلا الإصلاح" ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمرني بالمعروف ونهي عن المنكر "ما استطعت" ظرف، أي: مدة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكناً منه لا ألو فيه جهداً. أو بدل من الإصلاح، أي: المقدار الذي استطعته منه. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك: إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت. أو مفعول له كقوله:

ضعيف الكناية أعداءه

أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم "وما توفيقي إلا بالله" وما كوني موفقاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونته وتأييده والمعنى: أنه استوفى ربه في إمضاء الأمر على سننه، وطلب منه التأييد والإظهار على عدوه، وفي ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه.

"ويا قوم لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود".

جرم مثل كسب في تعديده إلى مفعول واحد، وإلى مفعولين تقول: جرم ذنباً وكسبه، وجرمته ذنباً وكسبته إياه، قال:

جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا

ومنه قوله تعالى: "لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم" أي لا يكسبكم شقاقي إصابة العذاب. وقرأ ابن كثير بضم الياء، من أجرمته ذنباً، إذا جعلته جارماً له، أي كاسباً، وهو منقول من جرم المتعدي إلى مفعول واحد، كما نقل: أكسبه المال، من كسب المال. وكما لا فرق بين كسبته ما لا وأكسبته إياه، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه. والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما. إلا أن المشهورة أفصح لفظاً، كما إن كسبته ما لا أفصح من أكسبته. والمراد بالفصاحة: أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعريتهم أدور، وهم له أكثر استعمالاً. وقرأ أبو حيوة، ورويت عن نافع: "مثل ما أصاب" بالفتح لإضافته إلى غير متمكن، كقوله:

لم يمنع الشرب

منها غير أن نطقت

"وما قوم لوط منكم بعيد" يعني أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب المالكين منكم. أو لا يبعدون منكم في الكفر والمساوي وما يستحق به الهلاك. فإن قلت: ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه؟ قلت: إما أن يراد. وما إهلاكهم بعيد، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد. ويجوز أن يسوي في قريب وبعيد، وقليل وكثير، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما "رحيم ودود" عظيم الرحمة للتائبين، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، من الإحسان والإجمال.

"قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز، قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط، وبا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كذاب وارتقبوا إني معكم رقيب، ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود".

"ما نفقه" ما نفهم "كثيراً مما تقول" لأنهم كانوا لا يلحقون إليه آذانهم رغبة عنه وكرهية له، كقوله: "وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه" الأنعام: 25. أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبلوه، فكأنهم لم يفقهوه. وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألشغ "فينا ضعيفاً" لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروهاً. وعن الحسن ضعيفاً مهيناً. وقيل: "ضعيفاً" أعمى. وحمير تسمى المكفوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريراً، وليس بسديد، لأن "فينا" ياباه. ألا ترى أنه لو قيل إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً، لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطاً. والرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى السبعة. وإنما قالوا: ولولاهم، احتراماً لهم واعتداداً بهم لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم وعزهم "لرجمناك" لقتلناك شر قتلة "وما أنت علينا بعزيز" أي لا تعز علينا ولا تكرم، حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم. وإنما يعز علينا رهطك، لأنهم من أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم: "أرهطي أعز عليكم من الله" ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصح هذا الجواب. فإن قلت: فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه، فكيف صح قوله: "أرهطي أعز عليكم من الله" قلت: قتلهم به وهو نبي الله قاتلهم بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله. ألا ترى إلى قوله تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" النساء: 80، "واتخذتموه وراءكم ظهرياً" ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به، والظهري: منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب. ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس: أمسي "بما تعملون محيط" قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها "على مكانتكم" لا

تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة. أو تكون مصدرًا من مكن مكانة فهو مكين. والمعنى: اعملوا قارين على جهتك التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي. أو اعملوا متمكين من عداوتي مطيقين لها "إني عامل" على حسب ما يؤتيه الله من النصرة والتأييد ويمكنني "من يأتيه" يجوز أن تكون من استفهامية، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون أين يأتيه عذاب يخزيه، وأينا هو كاذب، وأن تكون موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب. فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعاها في "فسوف تعلمون" قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعاها: وصل خفي تقديره بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إن عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه "وارتقبوا" وانتظروا العاقبة وما أقول لكم "إني معكم رقيب" أي منتظر. والرقب بمعنى الرقيب، من رقبه، كالضرب والصريم بمعنى الضارب والصارم. أو بمعنى المراقب، كالعشير والندم، أو بمعنى المرتقب، كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع. فإن قلت: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق. حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم، قلت: القياس ما ذكرت، ولكنهم لما كانوا يدعون كاذبًا قال: "ومن هو كاذب" يعني في زعمكم ودعواكم، تجهيلًا لهم. فإن قلت: ما بال ساقتي قصة عاد وقصة مدين جاءت بالواو، والساقتان الوسطيان بالفاء؟ قلت: قد رفعت الوسطيان بعد ذكر الوعد، وذلك قوله: "إن موعدهم الصبح" هود: 81، "ذلك وعد غير مكذوب" هود: 65، فجاء بالفاء الذي هو للتسبيح، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت. وأما الأخريان فلم تقعا بتلك المثابة. وإنما وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطف بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة. الجاثم: اللازم لمكانه لا يريم، كاللابد يعني أن جبريل صاح بهم صيحة فزحق روح كل واحد منهم بحيث هو قعصا "كأن لم يغنوا" كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين. البعد: بمعنى البعد وهو الهلاك، كالرشد بمعنى الرشد. ألا ترى إلى قوله: "كما بعدت؟" وقرأ السلمي بعدت بضم العين، والمعنى في البناءين واحد، وهو نقيض القرب، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره، فغيروا البناء كما فرقوا بين ضماني الخير والشر فقالوا: وعد وأوعد، وقراءة السلمي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص، كما يقال: ذهب فلان ومضى، في معنى الموت. وقيل: معناه بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها.

"ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وملئه وما أمر فرعون برشيد، يقدم قومه يوم القيامة فأوردوا النار ويتس والورد المورد، وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة يتس الرفد المرفود". "بآياتنا وسلطان مبين" فيه وجهان: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؟ لأنها أجهرها "وما أمر فرعون برشيد" تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر

الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل من الإلهية ذاتاً وأفعالاً، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته. والأمر الرشيد: الذي فيه رشد أي: وما في أمره رشد إنما هو غي صريح وضلال ظاهر مكشوف، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم. وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين في أمر موسى عليه السلام، وعلموا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط "يقدم قومه" أي كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه. ويجوز أن يريد بقوله: "وما أمر فرعون برشيد" وما أمره بصالح حميد العاقبة. ويكون قوله: "يقدم قومه" تفسيراً لذلك وإيضاحاً. أي: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته. والرشد مستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغي في كل ما يذم ويتسخط. ويقال: قدمه بمعنى تقدمه. ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه، ومنه مقدمة الجيش. وأقدم بمعنى تقدم. ومنه مقدم العين. فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة. و"الورد" المورد. و"المورد" الذي وردوه شبه بالفارط الذي يتقدم الواردة إلى الماء. وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بنس الورد الذي يردونه النار؟ لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار ضده "اتبعوا في هذه" في هذه الدنيا "لعة" أي يلعنون في الدنيا، ويلعنون في الآخرة "بنس الردف المرفود" رفدهم. أي: بنس العون المعان. وذلك أن اللعة في الدنيا ردف للعذاب ومدد له، وقد ردف باللعة في الآخرة، وقيل: بنس العطاء المعطى.

"ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيء".
 "ذَلِكَ" مبتدأ "من أنباء القرى نقصه عليك" خبر بعد خبر، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك منها الضمير للقرى، أي: بعضها باق وبعضها عافي الأثر، كالزرع القائم على ساقه والذي حصد. فإن قلت: ما محل هذه الجملة؟ قلت: هي مستأنفة لا محل لها "وما ظلمناهم" يهاكنا إياهم "ولكن ظلموا أنفسهم" بارتكاب ما به أهلكوا "فما أغنت عنهم آلهتهم" فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله "يدعون" يعبدون وهي حكاية حال ماضية. و"لما" منصوب بما أغنت "أمر ربك" عذابه ونقمته "تنبيء" تحسير. يقال تب إذا خس. وتبيه غيره، إذا أوقعه في الخسران. "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي مظلمة إن أخذه أليم شديد".

محل الكاف الرفع، تقديره: ومثل ذلك الأخذ "أخذ ربك" والنصب فيمن قرأ: وكذلك أخذ ربك، بلفظ الفعل. وقرئ: "إذ أخذ القرى" وهي مظلمة" حال من القرى "أليم شديد" وجيع صعب على المأخوذ. وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقتضيه. فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال.
 "إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود".

"ذلك" إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم "لآية لمن خاف" لعبرة له لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالجرمين في الدنيا وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود،

فيكون له عبرة وعظ ولطفاً في زيادة التقوى والحشية من الله تعالى. ونحوه: "إن في ذلك لعبرة لمن يخشى" النازعات: 26، "ذلك" إشارة إلى يوم القيامة، لأن عذاب الآخرة دل عليه. و"الناس" رفع باسم المفعول الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس. فإن قلت لأي فائدة أوتر اسم المفعول على فعله؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكوا منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: "يوم يجمعكم ليوم الجمع" التغابن: 9، تعثر على صحة ما قلت لك. ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب "يوم مشهود" مشهود فيه، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، كقوله:

ويوم شهدناه سليماً وعامراً

أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد. والمراد بالمشهود: الذي كثر شاهدوه ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور. قال:

في محفل من نواصي الناس مشهود

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه كما قال الله تعالى: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" البقرة: 185،؟. قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهوداً في نفسه؟ لأن سائر أيام الأسبوع مثله يشهدها كل من يشهده، وكذلك قوله: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" البقرة: 185، الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في "فليصمه" والمعنى: فمن شهد منكم في الشهر فليصم فيه، يعني: فمن كان منكم مقيماً حاضراً لوطنه في شهر رمضان فليصم فيه، ولو نصبته مفعولاً فالمسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشهر، لا يشهده المقيم، ويغيب عنه المسافر: "وما تؤخره إلا لأجل معدود".

الأجل: يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره، ويقولون: حل الأجل "إذا جاء أجلهم" الأعراف: 34، يراد آخر مدة التأجيل، والعد إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: "وما تؤخره إلا لأجل معدود" إلا لانتها مدة معدودة بحذف المضاف. وقرئ: "وما يؤخره" بالياء.

"يوم يأت تكلم نفس إلا ياذنه فمنهم شقي وسعيد".

قرئ: يوم يأت بغير ياء. ونحوه قولهم: لا أدر، حكاة الخليل وسيبويه. وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل. فإن قلت: فاعل يأتي ما هو؟ قلت: الله عز وجل، كقوله: "هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله" البقرة: 210، "أو يأتي ربك" الأنعام: 158، "وجاء ربك" الفجر: 122 وتعضده قراءة: "وما يؤخره" بالياء. وقوله: "ياذنه" ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم، كقوله تعالى: "أن تأتيهم الساعة" يوسف: 107، فإن قلت: بما انتصب

الظرف؟ قلت: إما أن ينتصب بلا تكلم. وإما بإضمار اذكر وإما بالانتهاء اخذوف في قوله: "إلا لأجل معدود" هود: 104، أي ينتهي الأجل يوم يأتي، فإن قلت: فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحددت الشيء بنفسه قلت: المراد إتيان هوله وشدائده "لا تكلم" لا تتكلم، وهو نظير قوله: "لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن" عم: 38، فإن قلت: كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى: "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها" النحل: 111، وقوله تعالى: "هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون" المرسلات: 36، قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم "فمنهم" الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا، لأن ذلك معلوم، ولأن قوله: "لا تكلم نفس" يدل عليه، وقد مر ذكر الناس في قوله: "مجموع له الناس" هود: 103، والشقي الذي وجبت له النار لإساءته، والسعيد الذي وجبت له الجنة إحسانه. "فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك لفعل لما يريد".

قراءة العاقبة بفتح الشين. وعن الحسن شقوا بالضم، كما قرئ: سعدوا والزفير: إخراج النفس. والشهيق: رده. قال الشماخ:

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

"ما دامت السموات والأرض" فيه وجهان، أحدهما: أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد. والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى: "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات" إبراهيم: 48، وقوله: "وأورثنا الأرض ننبؤاً من الجنة حيث نشاء" الزمر: 74، ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلمهم: إما سماء يخلقها الله، أو يظلمهم العرش، وكل ما أظلك فهو سماء. والثاني أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع. كقول العرب: ما دام تعار، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد. فإن قلت: فما معنى الاستثناء في قوله: "إلا ما شاء ربك" وقد ثبت خلوا أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء؟ قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار. ومن الخلود في نعيم الجنة: وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم. وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم، وهو رضوان الله، كما قال: "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر" التوبة: 72، ولهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو. فهو المراد بالاستثناء. والدليل عليه قوله: "عطاء غير مجدوذ" هود: 108، ومعنى قوله في مقابلته: "إن ربك فعال لما يريد" أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمله فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولا يخذعك عنه قول المجرة. إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافرائثهم. وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوايب عن عبد الله بن عمرو بن العاص:

ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وقد بلغني أن من الضلال من اغتر بهذا الحديث، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار. وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المين، زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه، وتنبيهاً على أن نعقل عنه، ولئن صح هذا عن ابن العاص، فمعناه أنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فذلك خلو جهنم وصفق أبوابها، وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه، ومقاتلته بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ما يشغله عن تفسير هذا الحديث.

"وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ، فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لوفوهم نصيبهم غير منقوص".

"غير مجذوذ" غير مقطوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية، كقوله: "لهم أجر غير ممنون" فصلت: 8، لما قص قصص عبدة الأوثان، وذكر ما أحل بهم من نقمه، وما أعد لهم من عذابه قال: "فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء" أي: فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرضهم بما لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم ثم قال: "ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم" يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت بين الحالين، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسيترن بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهي عن المرية. وما في مما، وكما: يجوز أن تكون مصدريّة وموصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم. أو مما يعبدون من الأوثان، ومثل ما يعبدون منها "إنا لوفوهم نصيبهم" أي حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصاءهم. فإن قلت: كيف نصب "غير منقوص" حالاً عن النصيب الموفى؟ قلت: يجوز أن يوفى وهو ناقص، ويوفى وهو كامل. ألا تراك تقول. وفيته شطر حقه، وثلث حقه، وحقه كاملاً وناقصاً.

"ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب".
"فاختلف فيه" آمن به قوم وكفر به قوم، كما اختلف في القرآن "ولولا كلمة" يعني كلمة الإنظار إلى يوم القيامة "لقضي بينهم" بين قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التسليّة أيضاً.
"وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير".

"وإن كلاً" التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإن كلهم، وإن جميع المختلفين فيه "ليوفينهم" جواب قسم محذوف. واللام في "لما" موطئة للقسم، وما مزيدة والمعنى: وإن جميعهم والله ليوفينهم "ربك أعمالهم" من حسن وقيح وإيمان وجحود. وقرئ: وإن كلاً بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة، اعتباراً لأصلها الذي هو الثقل. وقرأ أي: وإن كل لما ليوفينهم على أن إن نافية. ولما بمعنى إلا. وقراءة عبد الله مفسرة لها. وإن كل إلا ليوفينهم، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم وإن كلاً لما ليوفينهم بالتنوين، كقوله: "أكلاً لما" الفجر: 19، والمعنى: وإن كلاً ملمومين، بمعنى مجموعين، كأنه قيل: وإن كلاً جميعاً، كقوله: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون" الحجر: 30،
"فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطعنوا إنه بما تعملون بصير".

"فاستقم كما أمرت" فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق، غير عادل عنها "ومن تاب معك" معطوف على المستتر في استقم. وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. والمعنى: فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك "ولا تطغوا" ولا تخرجوا عن حدود الله "إنه بما تعملون بصير" عالم

فهو مجازيكم به، فالقوه. وعن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية. ولهذا قال: شيتني هود والواقعة وأخواتهما. وروي أن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب. فقال: شيتني هود. وعن بعضهم: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيتني هود. فقال: نعم. فقلت: ما الذي شيبك منها؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: "فاستقم كما أمرت". وعن جعفر الصادق رضي الله عنه "فاستقم كما أمرت" قال: افتقر إلى الله بصحة العزم. "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون".

قري: ولا تركنوا، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء. وعن أبي عمرو: بكسر التاء وفتح الكاف، على لغة تميم في كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم. ونحوه قراءة من قرأ "فتمسكم النار" بكسر التاء. وقرأ ابن أبي عبة: ولا تُركنوا على البناء للمفعول، من أركنه إذا أماله، والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم. وذكرهم بما فيه تعظيم لهم. وتأمل قوله: "لا تركنوا" فإن الركون هو الميل اليسير. وقوله: "إلى الذين ظلموا" أي إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل إلى الظالمين. وحكي أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم. وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لادين: "ولا تطغوا" هود: 112، "ولا تركنوا" ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه "لتبينه للناس ولا تكتُمونه" آل عمران: 187، واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخص ما احتملت: أنك أنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحي باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاتهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً" مريم: 59، فإنك تعامل من لا يحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهى زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه" ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت. "ما لكم من دون الله من أولياء" حال من قوله: "فتمسكم" أي: فتمسكم النار وأنتم على هذه الحال. ومعناه: وما لكم

من دون الله من أنصار يقدر على منعكم من عذابه، لا يقدر على منعكم من غيره "ثم لا تنصرون" ثم لا ينصركم هو، لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم. فإن قلت: فما معنى ثم؟ قلت: معناها الاستبعاد، لأن النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له.

"وأقم الصلاة طرقي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين"
"طرقي النهار" غدوة وعشية "وزلفاً من الليل" وساعات من الليل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قرب به وازدلف إليه، وصلاة الغدوة: الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال عشي. وصلاة الزلف: المغرب والعشاء. وانتصاب طرقي النهار على الظرف، لأنهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقيمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار وأوله وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه. ونحوه "وأطراف النهار" طه: 130، وقرئ: "وزُلفاً" بضمّتين. وزلفاً، بسكون اللام. وزلفى: بوزن قربي. فالزلف: جمع زلفة، كظلم في ظلمة. والزلف بالسكون: نحو بسرة وبسر. والزلف بضمّتين نحو بسر في بسر. والزلفى بمعنى الزلفة، كما أن القربى بمعنى القرابة: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل. وقيل: وزلفاً من الليل: وقرباً من الليل، وحققها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة، أي: أقم الصلاة طرقي النهار، وأقم زلفاً من الليل، على معني: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل "إن الحسنات يذهبن السيئات" فيه وجهان، أحدهما: أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: "إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر" والثاني: إن الحسنات يذهبن السيئات، بأن يكن لطفاً في تركها، كقوله: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" العنكبوت: 45، وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر. فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل، فقال صلى الله عليه وسلم: أنتظر أمر ربي، فلما صلى صلاة العصر نزلت، فقال: نعم، اذهب فإنها كفارة لما عملت: وروي أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال: استر على نفسك وتب إلى الله، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فترلت، فقال عمر: أهدأ له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "توضاً وضوءاً حسناً وصل ركعتين" "إن الحسنات يذهبن السيئات" "ذلك" إشارة إلى قوله "فاستقم" فما بعده "ذكرى للذاكرين" عظة للمتعتبين. "واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين".

ثم كر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبية على مكان الصبر ومحله، كأنه قال: وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاة عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به "فإن الله لا يضيع أجر المحسنين" جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتهاة عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.
"فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين".

"فلولا كان من القرون" فهلا كان وقد حكوا عن الخليل: كل لولا في القرآن فمعناها هلا إلا التي في الصافات، وما

صحت هذه الحكاية ففي غير الصفات "لولا أن تداركة نعمة من ربه لنبذ بالعراء" القلم: 49، "ولولا رجال مؤمنون" الفتح: 25، "ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم" الإسراء: 74، "أولوا بقية" أولو فضل وخير. وسمى الفضل والجودة بقية لأن الرجل يستبقي مما يخرج أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. ويقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم. وبه فسر بيت الحماسة:

إن تذبوا ثم يأتيني بقيتكم

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا. ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى، أي: فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرئ: "أولو بقية" بوزن لقية، من بقاء يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه:

"بقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم" والبقية المرة من مصدره. والمعنى: فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم "إلا قليلاً" استثناء منقطع، معناه: ولكن قليلاً من أنجينا من القرون نمواً عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي. و"من" في "من أنجينا" حقها أن تكون للبيان لا للتبعية، لأن النجاة إنما هي للناجين وحدهم، بدليل قوله تعالى: "أنجينا الذين يهتدون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا" الأعراف: 165، فإن قلت: هل لوقوع هذا الاستثناء متصلاً وجه يحمل عليه؟ قلت: إن جعلته متصلاً على ما عليه ظاهر الكلام، كان المعنى فاسداً، لأنه يكون تخصيصاً لأولى البقية على النهي عن الفساد، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول: هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم، تريد استثناء الصالحاء من الخاضعين على قراءة القرآن وإن قلت: في تخصيصهم على النهي عن الفساد معنى نفى عنهم، فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلاً، كان استثناء متصلاً ومعنى صحيحاً، وكان انتصابه على أصل الاستثناء، وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل "واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه" أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعقدوا همهم بالشهوات، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والتترف، من حب الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء. ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم. وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي، واتبع الذين ظلموا، يعني: واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه. ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة: أنهم اتبعوا جزاء إترافهم. وهذا معنى قوي لتقدم الإنجاء، كأنه قيل: إلا قليلاً من أنجينا منهم وهلك السائر. فإن قلت: علام عطف قوله: "واتبع الذين ظلموا"؟ قلت: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات، كان معطوفاً على مضمير، لأن المعنى إلا قليلاً من أنجينا منهم نمواً عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نمواً. وإن كان معناه واتبعوا جزاء الإتراف، فالواو للحال، كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم. فإن قلت: فقوله "وكانوا مجرمين"؟ قلت: على أترفوا أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؟ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام. أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر. أو على اتبعوا، أي اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك. ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

"وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون".

"كان" بمعنى صح واستقام. واللام لتأكيد النفي. و"بظلم" حال من الفاعل. والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القري ظالماً لها "وأهلها" قوم "مصلحون" تزيهاً لذاته عن الظلم، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم. وقيل: الظلم الشرك، ومعناه أنه لا يهلك القري بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر.

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين".

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة" يعني لا يضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة أي ملة واحدة وهي ملة الإسلام، كقوله: "إن هذه أمتكم أمة واحدة" الأنبياء: 92، وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطراب، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلفوا، فلذلك قال: "ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك" إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه "ولذلك خلقهم" ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه، يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليشيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره "وتمت كلمة ربك" وهي قوله للملائكة "أملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين" لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

"وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك من هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين، وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون".

"وكلاً" التنوين فيه عوض عن المضاف إليه كأنه قيل. وكل نبأ "نقص عليك" و"من أنباء الرسل"، بيان لكل. وإما نثبت به فؤادك، بدل من كلاً. ويجوز أن يكون المعنى: وكل واقتصاص نقص عليك، على معنى: وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك، يعني: على الأساليب المختلفة، و"ما نثبت به" مفعول نقص. ومعنى تثبيت فؤاده: زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم "وجاءك من هذه الحق" أي في هذه السورة. أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق "وموعظة وذكرى للمؤمنين، وقل للذين لا يؤمنون" من أهل مكة وغيرهم "اعملوا" على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها "إنا عاملون وانتظروا" بنا الدوائر "إنا منتظرون" أن يترل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

"والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون".

"والله غيب السموات والأرض" لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما، فلا تخفى عليه أعمالكم "وإليه يرجع الأمر كله" فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم "فاعبده وتوكل عليه" فإنه كافيك وكافلك "وما ربك بغافل عما تعملون" وقرئ: تعملون بالتاء: أي أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به، وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك".

سورة يوسف

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"ألم تلك آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين".

"تلك" إشارة إلى آيات السورة. و"الكتاب المبين" السورة، أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهن. أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر. أو الواضحة التي لا تشبه على العرب معانيها لتروها بلسانهم. أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف. فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً لم ينتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف "أنزلناه" أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه "قرآناً عربياً" وسمى بعض القرآن قرآنًا، لأن القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه "لعلكم تعقلون" إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم "ولو جعلناه قرآنًا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته" فصلت: 44. "القصص" على وجهين: يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص، تقول: قص الحديث يقصه قصصاً، كقولك: شله يشله شلاً، إذا طرده. ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنقص والحسب. ونحوه النبأ والخبر: في معنى المنبأ به والمخبر به. ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخلق والصيد. وإن أريد المصدر، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، "بما أوحينا إليك هذا القرآن" أي بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر، لإضافته إليه، ويكون المقصود محذوفاً؟ لأن قوله: "بما أوحينا إليك هذا القرآن" مغن عنه. ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقص، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتص على أبداع طريقة وأعجب أسلوب. ألا ترى أن هذا الحديث مقتص في كتب الأولين وفي كتب التواريخ، وألا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارياً لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص المقصوص. فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها والظاهر أنه أحسن ما يقتص في باب، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد في فنه. فإن قلت: مم اشتقاق القصص؟ قلت: من قص أثره إذا اتبعه، لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه، لأنه يتلو أي يتبع ما حفظ منه آية بعد آية "وإن كنت" إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في "قبله" راجع إلى قوله: ما أوحينا والمعنى: وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه، أي: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط ولا طرق سمعك طرف منه.

"إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين".

"إذ قال يوسف" بدل من أحسن القصص، وهو من بدل الاشتمال، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصود، فإذا قص وقته فقد قص. أو بإضمار اذكر ويوسف اسم عبراني، وقيل عربي وليس بصحيح، لأنه لو كان عربياً لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف. فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ: يوسف بكسر السين، أو يوسف بفتحها، هل يجوز على قراءته أن يقال هو عربي لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل أو المفعول من آسف. وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قلت: لا؟ لأن القراءة المشهورة قامت بالشهادة، على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى، ونحو يوسف: يونس، رويت فيه هذه اللغات الثلاث ولا يقال هو عربي لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"إذا قيل: من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"

"يا أبت" قرئ بالحركات الثلاث. فإن قلت: ما هذه التاء؟ قلت: تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف. فإن قلت: كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالذكر؟ قلت: كما جاز نحو قولك: حمامة ذكر وشاة ذكر، ورجل ربعة، وغلام يفعة. فإن قلت: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟ قلت: لأن التأنيث والإضافة يتناسبان في أن كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره. فإن قلت فما هذه الكسرة؟ قلت: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك: يا أبي، قد زحلت إلى التاء، لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحاً. فإن قلت: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ قلت: امتنع ذلك فيها، لأنها اسم، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرك تخفيفاً، لأنها حرف لين. وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير، فلزم تحريكها. فإن قلت: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوض منه، لأنها في حكم الياء، إذا قلت: يا غلام، فكما لا يجوز يا أبتى لا يجوز يا أبت. قلت الياء والكسرة قبلها شيئان والتاء عوض من أحد الشئين، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير. ألا ترى إلى قولهم يا أبتا مع كون الألف فيه بدلاً من التاء، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوض منه، فالكسرة أبعد من ذلك. فإن قلت: فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة؟ لأنها قرينة الياء ولصيقتهما. فإن دلت على مثل ذلك في يا أبت فالتاء المعوضة لغو: وجودها كعدمها. قلت: بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أبي. فإن قلت: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ قلت: أما من فتح فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها، كما فعل من حذف الياء في يا غلام ويجوز أن يقال: حركها بحركة الباء المعوض منها في قولك يا أبي. وأما من ضم فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: يا أبت كما تقول يا تبة من غير اعتبار لكونها عوضاً من هاء الإضافة، وقرئ: إني رأيت بتحريك الياء. وأحد عشر بسكون العين، تخفيفاً لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد، وكذا إلى تسعة عشر، إلا اثني عشر لنلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا، لا من الرؤية، لأن ما ذكر معلوم أنه منام لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام، ولما خفيت عليه وعلى الناس. فإن قلت: ما أسماء تلك الكواكب؟ قلت: روى جابر أن

يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم: فتزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي "إن أخبرتك هل تسلم؟" قال: نعم. قال: "جريان، والطارق والذيل، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذا الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له" فقال اليهودي: إي والله إنهما لأسماؤها.

وقيل: الشمس والقمر أبواه. وقيل: أبوه وخالته. والكواكب: إخوته وعن وهب أن يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، لماذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم، فيغوا لك الغوائل. وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. وقيل: ثمانون. فإن قلت لم أخرج الشمس والقمر قلت: أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص، بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخرج جبريل، وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. فإن قلت: ما معنى تكرار رأيت قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقديم سؤال وقع جواباً له، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: "إني رأيت أحد عشر كوكباً" كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها؟ فقال: "رأيتهم لي ساجدين" فإن قلت: فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود. أجرى عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم، أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملازمة والمقاربة.

"قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم".

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بآبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم، والرؤيا بمعنى الرؤية؟ إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، فرق بينهما بحرفي التأنيث كما قيل: القرية والقري. وقرئ: رويك بقلب الهمزة واواً. وسمع الكسائي: ريك ورِيك بالإدغام وضم الراء وكسرها، وهي ضعيفة، لأن الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم اتزر من الإزار، واتجر من الأجر "فيكيدوا" منصوب بإضمار أن والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك: فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك، كما قيل: فكيدوني؟ قلت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام، ليفيد معنى فعل الكيد، مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون أكد وأبلغ في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك. ألا ترى إلى تأكيد المصدر "عدو مبين" ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء، ولقوله "لأقعدن" لهم صراطك المستقيم

الأعراف: 16، فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر، ليورط من يحمله، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله "وكذلك" ومثل ذلك الاجتناء "يجتبيك ربك" يعني وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن، كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام. وقوله "ويعلمك" كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه، كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك. والاجتناء، الاصطفاء، افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض: جمعته. والأحاديث: الرؤيا: لأن الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان. وتأويلها عبارة وتفسيرها، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا، وأصحهم عبارة لها. ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها. وسميت أحاديث، لأنه يحدث بها عن الله ورسله. فيقال: قال الله وقال الرسول كذا وكذا. ألا ترى إلى قوله تعالى: "فبأي حديث بعده يؤمنون" الأعراف: 185، "الله نزل أحسن الحديث" الزمر: 23، وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحداثثة. ومعنى إتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكاً. ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة. وقيل: أتمها على إبراهيم بالخلعة، والإنجاء من النار، ومن ذبح الولد. وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح، وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. وقيل: علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب، فلذلك قال "وعلى آل يعقوب" وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه. وقيل: كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخاليل وكان إخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له أخبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه، فتبالغ فيهم الحسد. وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشئت يجمع الله لك بعد دهر طويل. وآل يعقوب. أهله وهم نسله وغيرهم. وأصل آل: أهل، بدليل تصغيره على أهيل، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر. يقال: آل النبي، وآل الملك. ولا يقال: آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلها. وأراد بالأبوين: الجد، وأبا الجد، لأنهما في حكم الأب في الأصالة. ومن ثم يقولون: ابن فلان، وإن كان بينه وبين فلان عدة. و"إبراهيم وإسحاق" عطف بيان لأبويك "إن ربك عليم" يعلم من يحق له الاجتناء "حكيم" لا يتم نعمته إلا على من يستحقها. "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين".

"في يوسف وإخوته" أي في قصتهم وحديثهم "آيات" علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء "للسائلين" لمن سأل عن قصتهم وعرفها. وقيل آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب. وقرئ: آية وفي بعض المصاحف: عبرة، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه، لما رأى من بغي قوميه عليه ليتأسى به. وقيل أساميهم: يهوذا: وروبي، وشمعون، ولاوي، وربالون، ويشجر، ودينه، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر: السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين: زلفة، وبلهة. فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل، فولدت له بنيامين ويوسف.

"إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين".
 "قَالَ يَوْسُفُ" اللام للابتداء. وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه
 "وأخوه" هو بنيامين. وإنما قالوا أخوه وهم جميعاً إخوته، لأن أمهما كانت واحدة. وقيل "أحب" في الاثنين، لأن أفعال
 من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه من ولا بد من الفرق مع لام التعريف،
 وإذا أضيف جاز الأمران. والواو في "ولحن عصبة" واو الحال. يعني: أنه يفضلهما في الحبة علينا، وهما اثنان صغيران
 لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفأة نقوم بمراقبته، فحن أحق بزيادة الحبة منهما، لفضلنا
 بالكثرة والمنفعة عليهما "إن أبانا لفي ضلال مبين" أي في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة:
 العشرة فصاعداً. وقيل: إلى الأربعين، سموا بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النواصب. وروى التزال
 بن سبرة عن علي رضي الله عنه: ونحن عصبة، بالنصب. وقيل: معناه ونحن نجتمع عصبة. وعن ابن الأنباري هذا
 كما تقول العرب، إنما العامري عمته؟ أي يتعهد عمته.

"اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين".
 "اقتلوا يوسف" من جملة ما حكى بعد قوله: إذ قالوا: كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال "لا" "اقتلوا يوسف" وقيل:
 الأمر بالقتل شمعون، وقيل: دان، والباقيين كانوا راضين، فجعلوا آمرين "أرضاً" أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من
 العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإيهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة "يخل
 لكم وجه أبيكم" يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد: سلامة محبته لهم ممن يشار إليهم فيها
 وينازعهم إياها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. ويجوز
 أن يراد بالوجه الذات، كما قال تعالى: "ويبقى وجه ربك" الرحمن: 127 وقيل "يخل لكم" يفرغ لكم من الشغل
 بيوسف "من بعده" من بعد يوسف، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو
 اطرحوا "قوماً صالحين" تائبين إلى الله مما جنيتم عليه. أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه. أو تصلح دنياكم
 وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم. و"تكونوا" إما مجزوم عطفاً على "يخل لكم" أو منصوب بإضمار أن والواو
 بمعنى مع، كقوله: "وتكتموا الحق" البقرة: 42.

"قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين".
 "قائل منهم" هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً. وهو الذي قال: فلن أبرح الأرض. قال لهم: القتل عظيم "وألقوه في
 غيابة الجب" وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله. قال المنخل:

وإن أنا يوماً غيبتني غيابتني فسيروا فسيروا في العشيرة والأهل

أراد غيابة حفرة التي يدفن فيها. وقرئ: غيابات على الجمع. وغيابات بالتشديد. وقرأ الجحدري غيبة والجب:
 البئر لم تطو، لأن الأرض تجب جباً لا غير؟ "يلتقطه" يأخذه بعض السيارة بعض الأقوام الذين يسرون في الطريق.
 وقرئ: تلتقطه بالناء على المعنى، لأن بعض السيارة سيارة، كقوله:

كما شرفت صدر القناة من الدم

ومنه: ذهبت بعض أصابعه "إن كنتم فاعلين" إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم، فهذا هو الرأي.

"قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون".
"ما لك لا تأمنا" قرئ بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام. وتيمنا بكسر التاء مع الإدغام. والمعنى: لم نخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاه عن رأيه وعاداته في حفظه منهم. وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه "نرتع" نتسع في أكل الفواكه وغيرها. وأصل الرتعة: الخصب والسعة. وقرئ: نرتع من ارتعى يرتعي. وقرئ: يرتع ويلعب بالياء، ويرتع، من أرتع ماشيته. وقرأ العلاء بن سبيبة: يرتع بكسر العين، ويلعب، بالرفع على الابتداء. فإن قلت: كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب؟ قلت: كان لعبهم الاستباق والانتضال. ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدو لا للهو، بدليل قوله "إنا ذهبنا نستبق" يوسف: 107، وإنما سموه لعباً لأنه في صورته.

"قال إني ليحزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون".
"ليحزني" اللام لام الابتداء، كقوله: "إن ربك ليحكم بينهم" النحل: 124، ودخولها أحد ما ذكره سيبويه من سبي المضارعة. اعتذر إليهم بشيئين، أحدهما: أن ذهباهم به ومفارقة إياه مما يحزنه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو قل به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم. وقيل: رأى في النوم أن الذئب قد شد على يوسف فكان يحذره، فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق. وقرئ: الذئب بالهمزة على الأصل وبالتخفيف. وقيل: اشتقاقه من تذاعبت الريح إذا أتت من كل جهة.

"قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصابة إنا إذاً لخاسرون".
القسم محذوف تقديره: والله "لئن أكله الذئب" واللام موطئة للقسم. وقوله: "إنا إذاً لخاسرون" جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط، والواو في "ونحن عصابة" واو الحال: حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال، بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذاً لقوم خاسرون، أي هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً. أو مستحقون أن يهلكوا لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم. أو مستحقون لأن يدعي عليهم بالخسارة والدمار، وأن يقال: خسروهم الله ودمروهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون. وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكنا مواشنا إذاً وخسرناها فإن قلت: قد اعتذر إليهم بعذرين، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ قلت: هو الذي كان يغیظهم ويذيقهم الأمرين فأعاروه آذاناً صماً ولم يعبؤوا به.
"فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الحب وأوحينا إليه لتبنيهم بأمرنا هذا وهم لا يشعرون".

"أن يجعلوه" مفعول "وأجمعوا" من قولك: أجمع الأمر وأزمعه "فأجمعوا أمركم" يونس: 71، وقرئ: في غيابات، الحب: وقيل: هو بئر بيت المقدس. وقيل: بأرض الأردن وقيل: بين مصر ومدین. وقيل: على ثلاثة فرائخ من منزل

يعقوب. وجواب لما محذوف. ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي: أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه، وكلما استعاث بواحد منهم لم يغتنه إلا بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه. فجعل يصيح: يا أبتاه، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء، فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بشياهم فترعوها من يده، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوانه، ردوا علي قميصي أتواري به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك، ودلوه في البئر، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وجرى عن ثيابه أناه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تيمة علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه "وأوحينا إليه" قبل أوحى إليه في الصغر كما أوحى إلى يحيى وعيسى: وقيل كان إذ ذاك مدركاً. وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة "لنبتنهم بأمرهم هذا" وإنما أوحى إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة، ويشر بما يؤول إليه أمره. ومعناه: لتخلصن مما أنت فيه، ولتحدثن إخوانك بما فعلوا بك "وهم لا يشعرون" أنك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك، وبعد حالك عن أوهامهم، ولطول العهد المبدل للهيئات والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون، دعا بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فظن فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، وكان يدينه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب، وقتلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمان بخرس. ويجوز أن يتعلق "وهم لا يشعرون" بقوله "وأوحينا" على أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له وقرئ "لنبتنهم" بالنون على أنه وعيد لهم. وقوله: "وهم لا يشعرون" متعلق بأوحينا لا غير. "وجاءوا أباهم عشاء يبكون، قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين".

وعن الحسن عشيًا على تصغير عشي يقال: لقيته عشيًا وعشياناً، وأصيلاً وأصيلاناً ورواه ابن جني: عشي،، لضم العين والقصر. وقالوا عشوا من البكاء وروي أن امرأة حاکمت إلى شريح فبكت فقال له الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة: ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية وروي أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما لكم وأين يوسف؟ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستيق" أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل: والارتقاء والتراخي، وغير ذلك. والمعنى: نتسابق في العدو أو في الرمي. وجاء في التفسير: نتضل "بمؤمن لنا" بمصدق لنا "ولو كنا صادقين" ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا، غير واثق بقولنا.

"وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون".

"بدم كذب" ذي كذب. أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته. ونحوه.

فهن به جود وأنتم به بخل

وقرى: كذباً نصباً على الحال، بمعنى جاءوا به كاذبين، ويجوز أن يكون مفعولاً له. وقرأت عائشة رضي الله عنها: كذب، بالبدال غير المعجمة، أي كدر. وقيل: طري، وقال ابن جني: أصله من الكذب وهو الفوف: البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث. كأنه دم قد أثر في قميصه. روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها، وزل عنهم أن يمزقوه. وروي أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: تالله ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه. وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قد من دبر. فإن قلت: "على قميصه" ما محله؟ قلت: محله النصب على الظرف، كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال. فإن قلت: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟ قلت: لا، لأن حال المجرور لا تتقدم عليه "سولت" سهلت من السول وهو الاسترخاء، أي: سهلت "لكم أنفسكم أمراً" عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونته في أعينكم: استدلل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص. أو أوحى إليه بأنهم قصدوه "فصبر جميل" خبر أو مبتدأ لكونه موصوفاً أي فأمرني صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبي: فصبراً جميلاً والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع: "أنه الذي لا شكوى فيه" ومعناه الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ألا ترى إلى قوله: "إنما أشكوا بشي وحزني إلى الله" يوسف: 86، وقيل: لا أعيشكم على كابة الوجه، بل أكون لكم كما كنت وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصاة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب. خطيئة فاغفرها لي "والله المستعان" أي أستعينه "على" احتمال "ما تصفون" من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه. "وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشري هذا غلام وأسرره بضاعة والله عليم بما يعملون". "وجاءت سيارة" رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الحب، فأخطوا الطريق فزلوا قريباً منه، وكان الحب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة. وقيل: كان ماؤها ملحاً. فعذب حين ألقى فيه يوسف "فأرسلوا" رجالاً يقال له مالك بن زعر الخزاعي، ليطلب لهم الماء. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم "يا بشري" نادى البشري، كأنه يقول: تعالى، فهذا من آونتك وقرئ: يا بشري على إضافتها إلى نفسه. وفي قراءة الحسن وغيره: يا بشري بالياء مكان الألف، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولي. وعن نافع: يا بشري بالسكون، وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حده، إلا أن يقصد الوقف. وقيل: لما أدلى دلوه أي أرسلها في الحب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشري "هذا غلام" وقيل: ذهب به، فلما دنا من

أصحابه صاح بذلك يبشرهم به "وأسروه" الضمير للوارد وأصحابه: أخفوه من الرفقة. وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له في الحب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وعن ابن عباس: أن الضمير لإخوة يوسف وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه وبضاعة، نصب على الحال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما بضع من المال للتجارة أي قطع "والله عليم بما يعملون" لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم. أو: والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

"وشروه بثمان بخر درهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين".

"وَشَرُّهُ" وباعوه "بثمان بخر" مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار "درهم" لا دنانير "معدودة" قليلة تعد عدداً ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون، ويعدون ما دونها. وقيل للقليلة معدودة؟ لأن الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها. وعن ابن عباس: كانت عشرين درهماً. وعن السدي اثنين وعشرين "وكانوا فيه من الزاهدين" ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن لأنهم التقطوه، والمثقت للشيء متهاون به لا يبالي بمباعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن. ويجوز أن يكون معنى "وشروه" واشتروه يعني الرفقة من إخوته "وكانوا فيه من الزاهدين" لأنهم اعتقدوا أنه آن فحافوا أن يخطروا بما لهم فيه. ويروى أن إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يابق. وقوله: "فيه" ليس من صلة الزاهدين "لأن الصلة لا تتقدم على الموصول. إلا تراك لا تقول: وكانوا زيدا من الضاربين، وإنما هو بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا فقال: زهدوا فيه.

"وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

"الذي اشتراه" قيل هو قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة.

وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى، عاش أربع مائة سنة بدليل قوله: "ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات" غافر: 34، وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف. وقيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجي نعل وثوبين أبيضين. وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه، حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ "أكرمي مثواه" اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً، أي حسناً مرضياً، بدليل قوله "إنه ربي أحسن مثواي" يوسف: 23، والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا. ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن يتزل به من رجل أو امرأة، يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده، وهل يراعى حق نزولك به. واللام في "لامرأته" متعلقة بقال، لا باشتراه "عسى أن ينفعنا" لعله إذا تدرب وراض

الأمر وفهم مجاريها، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته. أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيماً لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك. وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف، فقال لامرأته "أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا" والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها "يا أبت استأجره" القصص: 26، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما. وروي أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنسبه فعرفه "وكذلك" الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه، والكاف منصوب تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف "مكناً" له، أي: كما أنجينا وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه "ولنعلمه من تأويل الأحاديث" كان ذلك الإنجاء والتمكين لأن غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل "والله غالب على أمره" على أمر نفسه: لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي. أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره "ولكن أكثر الناس لا يعلمون" أن الأمر كله بيد الله.

"ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي الحسنين".

قيل في الأشد: ثمان عشرة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون. وقيل: أقصاه ثنتان وستون "حكماً" حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه. وقيل: حكماً بين الناس وفقهاً "كذلك نجزي الحسنين" تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبابه آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

"ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون".

المراودة: مفاعلة، من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعني: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقفته إياها "وغلقت الأبواب" قيل: كانت سبعة. وقرئ: هيت بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء، وبنائها كبناء أين، وعيط.

وهيت كجبر وهيت كحيث. وهيت بمعنى هيات يقال: هاء يهيء، كجاء يجيء: إذا قهياً. وهيت لك واللام من صلة الفعل وأما في الأصوات فللبين كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك "معاذ الله" أعوذ بالله معاذاً "إنه" إن الشأن والحديث "ربي" سيدي ومالكي، يريد قطفير "أحسن مثواي" حين قال لك أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم "إنه لا يفلح الظالمون" الذين يجازون الحسن بالسيء. وقيل: أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم. وقيل: أراد الله تعالى، لأنه مسبب الأسباب.

"ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين".

هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه، قال:

تركت على عثمان تبكي حائله

هممت ولم أفعل وكدت وليتني

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيداً ولا همّاً. أي ولا أكاد أن أفعله كيداً، ولا أهم بفعله همّاً، حكاة سيبويه، ومنه: الهمام وهو الذي إذا هم بأمر أمضاه ولم ينكل عنه. وقوله: "ولقد همت به" معناه. ولقد همت بمخالطته "وهم بهاً" وهم بمخالطتها "لولا أن رأى برهان ربه" جوابه محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربه لخالطها، فحذف، لأن قوله: "وهم بهاً" يدل عليه، كقولك: همت بقتله لولا أني خفت الله، معناه لولا أني خفت الله لقتلته. فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ قلت المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم. وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع، لأن استعظام الصبر على الابتلاء، على حسب عظم الابتلاء وشدته. ولو كان همّه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين. ويجوز أن يريد بقوله: "وهم بهاً" وشارف أن يهيم بها، كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشارفة القتل ومشافهته. كأنه شرع فيه فإن قلت: قوله "وهم بهاً" داخل تحت حكم القسم في قوله: "ولقد همت به" أم هو خارج منه؟ قلت: الأمران جائزان. ومن حق القارئ إذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على قوله: "ولقد همت به" ويبتدئ قوله: "وهم بهاً لولا أن رأى برهان ربه" وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين. فإن قلت: لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها وهلا جعلته هو الجواب مقدماً فإن قلت: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها، من قبل أنه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض. وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز، فإن قلت: فلم جعلت لولا متعلقة بهم بها وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: "ولقد همت به وهم بها" لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني. فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً، فكانه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ قلت: نعم ما قلت، ولكن الله سبحانه وتعالى قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال "ولقد همت به وهم بها" فكان إغفاله إلغاء له، فوجب أن يكون التقدير، ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها، على أن المراد بالمخالطين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها "لولا أن رأى برهان ربه" فترك التوصل إلى حظه من الشهوة، فلذلك كانت لولا حقيقة بأن تعلق بهم بها وحده، وقد فسرهم يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس الجامع، وبأنه حل تكة سراويله وقعد شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان لأنه سمع صوتاً:

إياك وإياها، فلم يكثر له، فسمعه ثانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاصاً على أُمّنته. وقيل: ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم، وقيل: صيح به: يا يوسف، لا تكن كالطائر: كان له ريش، فلما زنى قعد لا ريش له. وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم، مكتوب فيها "إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين" الانفطار: 11، فلم ينصرف، ثم رأى فيها "ولا تقرّبوا الزنا إنه كان فاحشة

وساء سبيلاً" الإسراء: 32، فلم ينته، ثم رأى فيها "واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله" البقرة: 281، فلم ينجع فيه، فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف، أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل: رأى تمثال العزيز. وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا. فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحي من السميع البصير، العليم بذوات الصدور. وهذا ونحوه. مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وُجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لُعنيت عليه وذُكرت توبته واستغفاره، كما نُعيت على آدم زلته، وعلى داود، وعلى نوح، وعلى أيوب، وعلى ذي النون، وذُكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى عليه وسمي مخلصاً، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الشاء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصادق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجدته الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله، في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكتله للوقوع عليها، وفي أن ينهيه ربه بثلاث كرات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن، وبالتوبيخ العظيم، وبالوعيد الشديد، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه، حتى يتداركه الله بجبريل وباجباره، ولو أن أوقع الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأصلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا، لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك. فإيا له من مذهب ما أفحشه، ومن ضلال ما أبينه "كذلك" الكاف منصوب محل، أي مثل ذلك التشبث ثبته. أو مرفوعه، أي الأمر مثل ذلك "لنصرف عنه السوء" من خيانة السيد "والفحشاء" من الزنا "إنه من عبادنا المخلصين" الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم. ويجوز أن يريد بالسوء. مقدمات الفاحشة، من القبلة والنظر بشهوة، ونحو ذلك. وقوله: "من عبادنا" معناه بعض عبادنا، أي: هو مخلص من جملة المخلصين. أو هو ناشئ منهم، لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم "إنا أخلصناهم بخالصة" ص: 46. "واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدهن إن كيدهن عظيم، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين".

"واستبقا الباب" وتسابقا إلى الباب على حذف الجار وإيصال الفعل، كقوله "واختار موسى قومه" الأعراف 155، على تضمين أو استبقا معنى ابتدرا نفر منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرع وراءه لتمنعه الخروج. فإن قلت: كيف وجد الباب، وقد جمعه في قوله "وغلقت الأبواب"؟ يوسف: 23، قلت: أراد الباب البراني الذي هو

المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب "وقدت قميصه من دبر" اجتذبت به من خلفه فانقذ، أي انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه "وألفيا سيدها" وصادفاً بعلها وهو قطفير، تقول المرأة لبعليها: سيدي. وقيل: إنما لم يقل سيدهما، لأن ملك يوسف لم يصح، فلم يكن سيدهاً له على الحقيقة. قيل: أليفاه مقبلاً يريد أن يدخل. وقيل جالساً مع ابن عم للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتاضة على يوسف إذ لم يؤاتهما جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيهما: وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيهما خيفة منها ومن مكرها، وكرها لما أيست من مؤاتاته طوعاً. ألا ترى إلى قولها: "ولئن لم يفعل ما أمره ليسجن" يوسف: 32، وما نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامية، بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن، كما تقول: من في الدار إلا زيد. فإن قلت: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف، وإنه أراد بها سوءاً؟ قلت: قصدت العموم، وأن كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب، لأن ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط. ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: "هي راودتني عن نفسي" ولولا ذلك لكتم عليها "وشهد شاهد من أهلها" قيل كان ابن عم لها، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها؟ لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه وقيل: هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب. وقيل كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشير به ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق. وقيل: كان ابن خال لها صبيّاً في المهد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى فإن قلت: لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ قلت: لما أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة: فإن قلت: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ قلت: لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد فقال إن كان قميصه. فإن قلت: إن دل قد قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقدته، فمن أين دل قده من قبل على أنها صادقة، وأنه كان تابعها؟ قلت: من وجهين، أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعت عنه عن نفسها قدت قميصه من قدامه بالدفع. والثاني: أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثر

في مقام قميصه فيشقه. وقرئ: من قبل ومن دبر، بالضم على مذهب الغايات. والمعنى: من قبل القميص ومن دبره. وأما التنكير فمعناه من جهة يقال لها قبل، ومن جهة يقال لها دبر. وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: من قبل ومن دبر بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث. وقرأنا بسكون العين. فإن قلت: كيف جاز الجمع بين إن الذي هو للاستقبال وبين كان؟ قلت: لأن المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قد، ونحوه كقولك: إن أحسنت إلي فقد أحسنت إليك من قبل، لمن يمتن عليك بإحسانه، تريد: إن تمتن علي أمتن عليك "فلما رأى" يعني قطفير وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها "قال إنه" إن قولك "ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً" أو إن الأمر وهم طمعها في يوسف "من كيدهن" الخطاب لها ولأمتها. وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال، إلا أن النساء أطف كيداً وأنفذ حيلة. ولهن في ذلك نيقة ورفق، وبذلك يغلبن الرجال. ومنه قوله تعالى: "ومن شر

النفاثات في العقد" الفلق: 4، والقصريات من بينهن معهن ما ليس مع غيرهن من البوائق وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأن الله تعالى يقول: "إن كيد الشيطان كان ضعيفاً" النساء: 76، وقال للنساء: "إن كدكن عظيم". "يوسف" حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لخله "أعرض عن هذا" الأمر واكتمه ولا تحدث به "واستغفري" أنت "لذنبك إنك كنت من الخاطئين" من جملة القوم المتعمدين للذنب. يقال: خطي، إذا أذنب متعمداً، وإنما قال: "من الخاطئين" بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث، وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً. وروي أنه كان قليل الغيرة.

"وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنهاها في ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكناً وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا إلا ملك كريم، قالت فذلكن الذي لمسني فيه ولقد راودته عن نفسه فاعتصم ولنن لم يفعل ما أمروه ليسجنن وليكونا من الصاغرين".

"وقال نسوة" وقال جماعة من النساء وكن خمساً: امرأة الساقى، وامرأة الحجاز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب. والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنثه غير حقيقي كتأنث اللمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنث. وفيه لغتان: كسر النون وضمها "في المدينة" في مصر "امرأة العزيز" يردن قطفير، والعزيز: الملك بلسان العرب "فتاها" غلامها. يقال: فتاي وفتاتي، أي غلامي وجاريتي "شغفها" خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف حجاب القلب، وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب. قال النابغة:

وقد حال هم دون ذلك والسج مكان الشغاف بتبغيه الأصابع

وقرى: شغفها بالعين، من شغف البعير إذا هنأه فأحرقه بالقطران، قال:

كما شغف المهنوءة الرجل الطالي

"حياً" نصب على التمييز "في ضلال مبين" في خطأ وبُعد عن طريق الصواب "بمكرهن" باغتيالهن وسوء قائلتهن، وقولهن: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتيال مكرراً لأنه في خفية وحال غيبة، كما يخفي الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها "أرسلت إليهن" دعتهن. قيل: دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات "وأعدت لهن متكناً" ما يتكنن عليه من غمارق، قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن: أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها، لأن المتكى إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهن، فتضع الخناجر في أيديهن ليقطعن أيديهن، فتبكتهن بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهن الخناجر، وتوهمه أمهن يثن عليه. وقيل: متكاً: مجلس طعام لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك.

"نهي أن يأكل الرجل متكناً وأتتهن السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن. وقيل: "متكناً" طعاماً، من قولك اتكأنا عند فلان: طعمنا، على سبيل الكناية، لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له تكأة يتكى عليها. قال جميل:

فظللنا بنعمة واتكأنا

وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد "متكناً" طعاماً يجز حزا، كأن المعنى يعتمد بالسكين؟ لأن القاطع يتكى على المقطوع بالسكين. وقرئ: متكاً بغير همز. وعن الحسن: متكاء بالمد، كأنه مفتعال، وذلك لإشباع فتحة الكاف، كقوله بُمُنْتَرَح بمعنى بمنترح. ونحوه ينباع بمعنى ينبع. وقرئ: متكاً وهو الأترج، وأنشد:

فأهدت متكة لبني أبيها

تخب بها العثمثة الوقاح

وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكأها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت بنصفين، وحلا كالعدلين على جمل. وقيل: الزماورد وعن وهب: أترجا وموزاً وبطيخاً. وقيل: أعتدت لمن ما يقطع، من متك الشيء بمعنى يتكه إذا قطعه. وقرأ الأعرج: "متكناً" مفعلاً، من تكى يتكأ، إذا اتكأ "أكبرنه" أعظمته وهب ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق. قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء، فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: يوسف، فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال "كالقمر ليلة البدر".

وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تألؤ وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس من الماء عليها. وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف. وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه. وقيل: ورث الجمال من جدته سارة. وقيل: أكبرن بمعنى حضن، والهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته: دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

"قطعن أيديهن" جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد: جرحتها "حاشا" كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء. تقول: أساء القوم حاشا زيد. قال:

حاشا أبي ثوبان إن به

ضناً عن الملحاة والشتم

وهي حرف من حروف الجر، فوضعت موضع التنزيه والبراءة، فمعنى حاشا الله براءة الله وتنزيه الله، وهي قراءة ابن مسعود، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة. ومن قرأ: حاشا لله، فنحو قولك: سقيا لك؟ كأنه قال: براءة، ثم قال: لله، لبيان من يبرأ ويتره. والدليل على تزيل حاشا منزلة المصدر: قراءة أبي السمال: حاشا لله بالتنوين. وقراءة أبي عمرو حاش لله بحذف الألف الآخرة. وقراءة الأعمش حشا لله بحذف الألف الأولى. وقرئ: حاش لله بسكون الشين، على أن الفتحة تبعت الألف في الإسقاط، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حده. وقرئ: حاشا الإله. فإن قلت: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى: براءة لله؟ قلت: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية. ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه، كيف تركوا عن غير معرب على أصله؟ وعلى في قوله غدت من عليه منقلب الألف إلى الياء مع الضمير؟ والمعنى: تنزيه الله تعالى من صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله. وأما قوله: "حاشا لله ما علمنا عليه من سوء" يوسف: 51، فالتعجب من قدرته على خلق

عفيف مثله "ما هذا بشر" نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه، لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة، إلا ما عليه الفنة الخاسنة المجرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق، وجحودهم للعلوم الضرورية، ومكابرتهم في كل باب، وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القدامى الحجازية وبها ورد القرآن. ومنها قوله تعالى: "ما هن أمهاتهم" المجادلة: 2، ومن قرأ على سليقته من بني تميم، قرأ: بشر بالرفع. وهي في قراءة ابن مسعود. وقرئ: ما هذا بشرى أي ما هو بعبد مملوك لئيم "إن هذا إلا ملك كريم" تقول هذا بشرى، أي حاصل بشرى، بمعنى: هذا مشرى. وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة هي الأولى، لموافقها المصحف؟ ومطابقة بشر الملك "قالت فذلكن" ولم يقل فهذا وهو حاضر، رفعاً لمثلته في الحسن، واستحقاق أن يحب ويفتن به، ورباً بحاله واستبعاداً لخله، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن: عشقت عبدها الكنعاني. تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتني في أنفسكن، ثم لمستني فيه. تعني: أنكن لم تصورنه بحق صورته، ولو صورته بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به. الاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها. ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب. وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أنور منه، على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهم والبرهان. فإن قلت: الضمير في "آمره" راجع إلى الموصول، أم إلى يوسف؟ قلت: بل إلى الموصول. والمعنى: ما أمر به، فحذف الجار كما في قولك: أمرتك الخير، ويجوز أن تجعل ما مصدرية، فيرجع إلى يوسف ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه، أي موجب أمري ومقتضاه. قرئ: وليكونا بالتشديد والتخفيف. والتخفيف أولى، لأن النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف، وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

"قال رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم".

وقرئ: السجن بالفتح على المصدر. وقال "يدعونني" على إسناد الدعوة إليهن جميعاً، لأنهن تنصحن له وزين له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: رب نزول السجن أحب إلي من ركوب المعصية. فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة؟ قلت: كانت أحب إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتماله الوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروها "وإلا تصرف عني كيدهن" فزع منه إلى أطفاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجماع على التعفف والإجاء إليه "أصب إليهن" أمل إليهن. والصورة: الميل إلى الهوى. ومنها: الصبا؟ لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيماها وروحها وقرئ: أصب إليهن من الصباية "من الجاهلين" من الذين لا يعملون

بما يعلمون. لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء. أو من السفهاء، لأن الحكيم لا يفعل القبيح. وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء، لأن قوله "إلا تصرف عني" فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف "السميع" لدعوات الملتجئين إليه "العليم" بأحوالهم وما يصلحهم.

"ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين".

"بدا لهم" فاعله مضمّر، لدلالة ما يفسره عليه وهو: ليسجننه، والمعنى: بداهم بداء، أي: ظهر لهم رأي ليسجننه، والضمير في "لهم" للعزير وأهله "من بعد ما رأوا الآيات" وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستئصال المرأة لزوجها، وقتلها منه في الذروة والغارب وكان مطوعة لها وجميلاً ذلولاً زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه وإلحاق الصغار به كما أوعدته به، وذلك لما أيسر من طاعته لها، أو لطمعها في أن يذلل الله السجن ويسخره لها. وفي قراءة الحسن: "لتسجننه" بالناء على الخطاب: خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم "حتى حين" إلى زمان، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه. وفي قراءة ابن مسعود عني حين وهي لغة هذيل، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: "عني حين" فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل، والسلام.

"ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خمراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبتنا بتأويله إنا نراك من المحسنين".

"مع" يدل على معنى الصحبة واستحداثها، تقول: خرجت مع الأمير، تريد مصاحباً له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له، "فتيان" عبدان للملك: خبازه وشرابه: رقي إليه أنهما يسمانه، فأمر بهما إلى السجن، فأدخلا ساعة أدخل يوسف عليه السلام "إني أراي" يعني في المنام، وهي حكاية حال ماضية "أعصر خمراً" يعني عباً، تسمية للعب بما يؤول إليه. وقيل: الخمر بلغة عمان: اسم للعب. وفي قراءة ابن مسعود أعصر عباً "من المحسنين" من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أي: يجيدونها، رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له، فقالوا له ذلك. أو من العلماء، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم. أو من المحسنين إلى أهل السجن. فأحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاع وسع له، لماذا احتاج جمع له. وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا أصبروا تؤجروا، إن لهذا لأجراً، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خلعت سيبلك، ولكني أحسن جوارك، فكن في أي بيوت السجن شئت. وروي أن الفتيين قالوا له إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل علي من حبه بلاء، لقد أحببني عمي فدخل علي من حبه بلاء، ثم أحبني أبي فدخل علي من حبه بلاء، ثم أحببني زوجة صاحبي فدخل علي من حبه بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال

الشرابي، إني أراي في بستان، فإذا بأصل حبله عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فقطفتها وعصرتها في كأس الملك، وسقيته. وقال الخباز: إني أراي وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، وإذا سباع الطير تنهش منها. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: "نبينا بتأويله"؟ قلت: إلى ما قصا عليه. والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل: نبينا بتأويل ذلك.

"قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون".

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبتهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفاته واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية "بتأويله" ببيان ماهيته وكيفيته؟ لأن ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه "ذلكما" إشارة لهما إلى التأويل، أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات "مما علمني ربي" وأوحى به إلي ولم أقله عن تكهن وتنجم "إني تركت" يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، وأن يكون تعليلاً لما قبله. أي علمني ذلك وأوحى إلي؟ لأني رفضت ملة أولئك واتبع ملة الأنبياء المذكورين وهي الملة الحنيفة، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون: أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة، وأن غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم، ولتوكيد كفرهم بالجزء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزء وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه، بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله: "ما كان لنا" ما صح لنا معشر الأنبياء "أن نشرك بالله" أي شيء كان من ملك أو جني أو إنسي، فضلاً عن أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر، ثم قال "ذلك" التوحيد "من فضل الله علينا وعلى الناس" أي على الرسل وعلى المرسل إليهم؟ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه "ولكن أكثر الناس" المبعوث إليهم "لا يشكرون" فضل الله فيشركون ولا يتنبهون وقيل: إن ذلك من فضل الله علينا لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدل بها. وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لأهوائهم، فيبقون كافرين غير شاكرين.

"يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما

أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون".
 "يا صاحبي السجن" يريد يا صاحبي في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق فتضيفهما إلى الصدق، ولا تريد أنهما صحبا الصدق، ولكن كما تقول رجلا صدق، وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك. ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله: "أصحاب النار وأصحاب الجنة" الحشر: 20، "أرباب متفرقون" يريد التفرق في العدد والتكاثر. يقول أن تكون لكما أرباب شتى، يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا "خير" لكما "أم" أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية، بل هو "القهار" الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام "ما تعبدون" خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر "إلا أسماء" يعني أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة، ثم طفقتم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها. ومعنى "سميتموها" سميتم بها. يقال: سميت به زيد، وسميته زيدا "ما أنزل الله بها" أي بتسميتها "من سلطان" من حجة "إن الحكم" في أمر العبادة والدين "إلا الله" ثم بين ما حكم به فقال "أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم" الثابت الذي دلت عليه البراهين.

"يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه حمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان".

"أما أحدكما" يريد الشرايبي "فيسقي ربه" سيده. وقرأ عكرمة فيسقي ربه أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول. روي أنه قال للأول: ما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده؟ وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل "قضي الأمر" قطع وتم ما "تستفتيان" فيه من أمركما وشأنكما. فإن قلت: ما استفتيا في أمر واحد، بل في أمرين مختلفين، فما وجه التوحيد؟ قلت: المراد بالأمر ما اتفهما به من سم الملك وما سجننا من أجله، وظناً أن ما رآياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيان في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك، فقال لهما: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، أي: ما يجز إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر. وقيل: جحدا وقالاً: ما رأينا شيئاً، على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتهما أو كذبتما.

"وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين".
 "ظن أنه ناج" الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرايبي، ويكون الظن بمعنى اليقين "اذكرني عند ربك" صفني عند الملك بصفتي، وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة "فأنساه الشيطان" فأنسي الشرايبي "ذكر ربه" أن يذكره لربه. وقيل فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره "بضع سنين" البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين. فإن قلت: كيف يقدر الشيطان على الإنسان؟ قلت: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل "ما ننسخ من آية أو ننسها" البقرة:

106. فإن قلت: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك؟ وما هي بإضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ قلت: قد لأبسه في قولك: فأنساه الشيطان ذكر ربه، أو عند ربه فجازت إضافته إليه، لأن الإضافة تكون بأدنى ملائمة. أو على تقدير: فأنساه الشيطان ذكر أخبار ربه، فحذف المضاف الذي هو الإخبار. فإن قلت: لم أنكر على يوسف الاستغانة بغير الله في كشف ما كان فيه، وقد قال الله تعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى" المائدة: 2، وقال حكاية عن عيسى عليه السلام "من أنصاري إلى الله" آل عمران: 52، وفي الحديث: "الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم".

"من فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كربات الآخرة" وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذه النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيته". وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية والتقوى بالأشربة والأطعمة. وإن كان ذلك لأن الملك كان كافراً، فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والفرق والحرق ونحو ذلك من المضار؟ قلت: كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليفته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه، ولا يعتضد إلا به، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً، لتلا يشمت به الكفار ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغينه لما استغاث بنا. وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

"وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملاء أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون".

لما دنا فرج يوسف، رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته: رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس. وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان. ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً آخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها "سِمان" جمع سمين وسمينة، وكذلك رجال ونسوة كرام. فإن قلت: هل من فرق بين إيقاع "سِمان" صفة للمميز وهو "بقرات" دون المميز وهو "سبع" وأن يقال: سبع بقرات سماناً؟ قلت: إذا أوقعها صفة لبقرات. فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن. ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن. فإن قلت: هلا قيل: سبع عجاف على الإضافة؟ قلت: التمييز موضوع لبيان الجنس، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده. فإن قلت: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب. قلت: الفارس والصاحب والراكب ونحوها: صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها. ألا تراك لا تقول: عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ. فإن قلت: ذاك مما يشكل وما نحن بسبيله لا إشكال فيه. ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف، لوقوع العلم بأن المراد البقرات؟ قلت: ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك "سبع عجاف" عما تقترحه من التمييز بالوصف. والعجف: الهزال الذي ليس بعده، والسبب في وقوع عجاف جمعاً لعجفاء وأفعال

وفعلاء لا يجمعان على فعال: حملة على سمان، لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظر على النظر، والنقيض على النقيض. فإن قلت: هل في الآية دليل على أن السنبلات اليابسات كانت كالخضر؟ قلت: الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنبال الخضر، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع، ويكون قوله: "وأخر يابسات" بمعنى وسبعاً آخر. فإن قلت: هل يجوز أن يعطف قوله "وأخر يابسات" على "سنبلات خضر" فيكون مجرور المحل؟ قلت: يؤدي إلى تدافع، وهو أن عطفها على "سنبلات خضر" يقتضي أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة، ولفظ الآخر يقتضي أن تكون غير السبع، بيانه: أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود، بالجر، فيصح؟ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود، على أن بعضهم قيام وبعضهم قعود؟ فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود، تدافع ففسد "يا أيها الملأ" كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء. واللام في قوله "للرؤيا" إما أن تكون للبيان، كقوله "وكانوا فيه من الزاهدين" يوسف: 20، وإما أن تدخل، لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه، فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل، إذا قلت: هو عابر للرؤيا؟ لانهطاطه عن الفعل في القوة. ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان، كما تقول: كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه. و"تعبرون" خبر آخر، أو حال، وأن يضمن "تعبرون" معنى فعل يتعدى باللام، كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا. وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره. ونحوه: أولت الرؤيا إذا ذكرت مالها وهو مرجعها. وعبرت الرؤيا بالتخفيف، هو الذي اعتمده الأئمة، ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر. وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض الأعراب:

وكننت للأحلام عباراً

رأيت رؤيا ثم عبرتها

"قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين".
 "أضغاث أحلام" تخاليطها وأباطيلها، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان. وأصل الأضغاث: ما جمع من أخلاط النبات وحزم، الواحد: ضغث، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى من أي أضغاث من أحلام والمعنى: هي أضغاث أحلام. فإن قلت: ما هو إلا حلم واحد، فلم قالوا: أضغاث أحلام فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمامة الخز، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة، تزيداً في الوصف، فهؤلاء أيضاً تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام. ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها "وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين" إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة، فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير.

"وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبتكم بتأويله فأرسلون".

قري: وادكر بالبدال وهو الفصح. وعن الحسن: وادكر، بالذال المعجمة. والأصل تذكر، أي تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه "بعد أمة" بعد مدة طويلة، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعزل

على الملاء تأويلها، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك. وقرأ الأشهب العقيلي بعد إمة بكسر الهمزة، والإمة النعمة. قال عدي:

ة وارتمهم هناك القبور

ثم بعد الفلاح والملك الإم

أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة. وقرئ: بعد أمه بعد نسيان. يقال: أمه يأمة أمها، إذا نسي. ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ "أنا أنبئكم بتأويله" أنا أخبركم به عمن عنده علمه. وفي قراءة الحسن: أنا آتيكم بتأويله "فأرسلون" فابعثوني إليه لأسأله، ومروني باستعاره وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

"يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون".

المعنى فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فقال "يوسف أيها الصديق" أيها البليغ في الصدق، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول، ولذلك كلمه كلام محترز فقال "لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون" لأنه ليس على يقين من الرجوع، فربما اخترم دونه ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى "لعلهم يعلمون" لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محتك.

"قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون".

"تَزْرَعُونَ" خبر في معنى الأمر، كقوله: "تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون" الصف: 11، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد الأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه. والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: "فَذَرُوهُ فِي سُنْبِلِهِ". "دأباً" بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدران: دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أي دائبين: إما على تدأبون دأباً، وإما على إيقاع المصدر حالاً، بمعنى: ذوي دأب "فذرّوه في سنبله" لتلا يتسوس.

"وَيَأْكُلْنَ" من الإسناد المجازي: جعل أكل أهلهم مستنداً إليهم "تحصنون" تحززون وتخبؤون "يغاث الناس" من الغوث أو من الغيث. يقال: غيثت البلاد، إذا مطرت. ومنه قول الأعرابية: غثنا ماشئنا. "يعصرون" بالياء والتاء: يعصرون العنب والزيتون والسّمسم. وقيل: يحلبون الصّروع. وقرئ: يعصرون على البناء للمفعول، من عصره إذا أنجاه، وهو مطابق للإغاثة ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى ينجون، كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم، أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً وقيل يعصرون، يمطرون، من أعصرت السحابة. وفيه وجهان: إما أن يضمن

أعصرت معنى مطرت، فيعدي تعديته. وإما أن يقال: الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل. تأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم، وذلك من جهة الوحي. وعن قتادة: زاده الله علم سنة. فإن قلت: معلوم أن السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاءها بالخصب، وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت إن علم ذلك من جهة الوحي؟ قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً. وقوله "وفيه يغاث الناس وفيه يعصرون" تفصيل لحال العام، وذلك لا يعلم إلا بالوحي.

"وقال الملك أتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسله ما بال النسوة التي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليهن، قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين".

إنما تأني وتثبت في إجابة الملك، وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه، لئلا يتسلى به الحاسدون إلى تقييح أمره عنده، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره. وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها، قال عليه الصلاة والسلام: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم" ومنه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للممارين به في معتكفه وعنده بعض نسائه هي فلانة اتقاء للتهمة، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشتري أن يخرجوني. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه ولبت في السجن ما لبثت، لأسرعت الإجابة وبادرهم الباب ولما ابتغيت العذر، إن كان حليماً ذا أناة. وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل سلهن أن يفتش عن شأنهن، لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة وفص الحديث حتى يتبين له براءته بيانياً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ: "النسوة بضم النون ومن كرمه وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيده مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن "إن ربي" إن الله تعالى: "بكيدهن عليهن" أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله، لبعد غوره. أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه، وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهن، أي: هو عليهن بكيدهن فمجازيهن عليه "ما خطبكن" ما شأنكن "إذ راودتن يوسف" هل وجدتن منه ميلاً إليك "وقلن حاشا لله" تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها "قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق" أي ثبت واستقر وقرئ: حصحص على البناء للمفعول، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفنته للإناخة. قال:

فحصص في صم الصفا ثفنته نواء بسلمى نوءة ثم صمما

ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به، لأنهن خصومه. وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل، لم يبق لأحد مقال. وقالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال، ولا بد لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

"ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب وإن الله لا يهدي كيد الخائنين".

"ذلك ليعلم" من كلام يوسف، أي ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز "أي لم أخنه". بظهر الغيب في حرمة. ومحل "بالغيب" الحال من الفاعل أو المفعول، على معنى: وأنا غائب عنه خفي عن عينه أو وهو غائب عني

خفي عن عيني. ويجوز أن يكون ظرفاً، أي بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة "و" ليعلم "أن الله لا يهدي كيد الخائنين" لا ينفذه ولا يسدده، وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها، وبه في خيانتها أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيداً لأمانته، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدده.

"وما أبرئ نفسي إن النفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم".
ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً وبها لها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"أنا سيد ولد آدم ولا فخر" وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال "وما أبرئ نفسي" من الزلل، وأشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها. ولا يخلو، إما أن يريد في هذه الحادثة، لما ذكرنا من الهم الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم. وإما أن يريد به عموم الأحوال "إن النفس لأماره بالسوء" أراد الجنسي، أي إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات "إلا ما رحم ربي" إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة. ويجوز أن يكون "ما رحم" في معنى الزمن، أي: إلا وقت رحمة ربي، يعني أنها أماره بالسوء في كل وقت وأوان، إلا وقت العصمة. ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة، كقوله: "ولا هم ينقدون إلا رحمة" ياسين: 43، وقيل معناه: ذلك ليعلم أي لم أخنه لأن المعصية خيانة. وقيل: هو من كلام امرأة العزيز، أي ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أي لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه وما أبريء نفسي مع ذلك من الخيانة، فإني قد خنته حين قرفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن تريد الاعتذار مما كان منها إن كل نفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربي: إلا نفساً رحمه الله بالعصمة كنفس يوسف "إن ربي غفور رحيم" استغفرت ربها واسترحمتها مما ارتكبت. فإن قلت: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟ قلت: كفى بالمعنى دليلاً قانداً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله: "قال الملائكة من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره" الشعراء: 35، ثم قال: "فماذا تأمرون" الشعراء: 35، وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم. وعن ابن جريج: هذا من تقديم القرآن وتأخيرها، ذهب إلى أن "ذلك ليعلم" يوسف: 52، متصل بقوله: "فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن" يوسف: 50، ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة، فزعموا أن يوسف حين قال: "أني لم أخنه بالغيبة" يوسف: 52، قال له جبريل: ولا حين هممت بها، وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف، وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله.

"وقال الملك أتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين".

يقال استخلصه واستخصه، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به "فلما كلمه" وشاهد منه ما لم يحتسب "قال" أيها الصديق "إنك اليوم لدينا مكين" ذو مكانة ومثلة "أمين" مؤتمن على كل شيء. روي أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم أعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تغم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس

بالأخبار في الواقعات. وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن، ولبس ثياباً جديداً فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خير، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلمه بها فأجابه بجميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق، إني أحب أن أسمع رؤياي منك. فقال: رأيت بقرات فوصف لوفن وأحوالهن ومكان خروجهن، ووصف السنايل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفاً، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

"قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم".

"اجعلني على خزائن الأرض" ولني خزائن أرضك "إني حفيظ عليم" أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبية الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا حب الملك والدنيا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

"رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة" فإن قلت. كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته؟ قلت: روى مجاهد أنه كان قد أسلم: وعن قتادة. هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه. وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق. فله أن يستظهر به. وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه. ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

"وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبؤا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين".

"كَذَلِكَ" ومثل ذلك التمكين الظاهر "مَكَّنَا لِيُؤْسَفَ" في أرض مصر. روي أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين "يتبؤا منها حيث يشاء" قرئ بالنون والياء، أي: كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً ومتبؤاً له، لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه. روي: أن الملك توجه، وختمه بخاتمه، ورداه بسيفه. ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت. روي أنه قال له: أما السرير فأشده به ملكك. وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي. فقال: قد وضعته إجلالاً لا وإقراراً بفضلك. فجلس على السرير ودانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره وعزل قطفير، ثم مات بعده، فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل بمصر، وأحبه الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالخلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياح والعقار، ثم براقبهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا والله ما رأينا كالיום ملكاً أجلاً ولا أعظم منه فقال الملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى قال الرأي رأيك: قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان

لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير، تقسيطاً بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين "برحمتنا" بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم "من نشاء" من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك "ولا نضيع أجر الحسنين" أن نأجرهم في الدنيا. "ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون".

"ولأجر الآخرة خير" لهم. قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية.

"وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون".

لم يعرفوه لطول العهد ومفارقته إياهم في سن الحداثة، ولا اعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقه عليها طريحاً في البئر، مشرباً بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنّوهم، ولأن الملك مما يبذل الزبي ولبس صاحبه من التهيّب والاستعظام ما ينكر له المعروف. وقيل: رأوه على زي فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنه هو. وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقه وهم رجال ورأى زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمل ويتفطن. وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرفوا له.

"ولما جهزهم بجهازهم قال أتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المتزولين، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون".

"ولما جهزهم بجهازهم" أي أصلحهم بعدقم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوفر ركايبهم بما جاءوا من الميرة. وقرئ: بجهازهم بكسر الجيم "قال أتوني بأخ لكم من أبيكم" لا بد من مقدمة سبقت له معهم، حتى اجتر القول هذه المسألة.

روي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم؟ فإني أنكركم قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال، لعلكم جئتم عيون تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء، اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد. قال: فكَم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة. قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وأتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصاب القرعة شعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلّفوه عنده، وكان قد أحسن إنزاهم وضيافتهم "لا تقربون" فيه وجهان، أحدهما: أن يكون داخلياً في حكم الجزاء مجزوماً، عطفاً على محل قوله: "فلا كيل لكم" كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن يكون بمعنى النهي.

"قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون".

"سنراود عنه أباه" سنخادعه عنه، وسنجهتهد ونختال حتى ننتزعه من يده "وإنا لفاعلون" وإنا لقادرون على ذلك لا نتعاني به، أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

"وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتكم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون".

"لفتياناه" وقرئ: لفتياناه وهما جمع فتى، كإخوة وإخوان في أخ، وفعلة للقلة. وعلان للكثرة، أي لعلمانه الكياليين "لعلهم يعرفونها" لعلهم يعرفون حق ردها وحق. التكرم بإعطاء البدلين "إذا انقلبوا إلى أهلهم" وفرغوا ظروفهم "لعلهم يرجعون" لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به. وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنًا، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها. وقيل: معنى "لعلهم يرجعون" لعلهم يردونها. "فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون".

"منع منا الكيل" يريدون قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي، لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل "نكتل" نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه. وقرئ يكتل بمعنى يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالننا. أو يكن سببًا للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

"قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين".

"هل آمنكم عليه" يريد أنكم قلتم في يوسف "وإنا له لحافظون" يوسف: 12-63، كما تقولونه في أخيه، ثم ختمتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك. ثم قال "فالله خير حافظاً" فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم. و"حافظاً" تمييز، كقولك: هو خيرهم رجلاً، والله دره فارساً. ويجوز أن يكون حالاً وقرئ: حفظاً وقرأ الأعمش: فالله خير حافظ. وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين "وهو أرحم الراحمين" فأرجو أن ينعم علي بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين. "ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير".

وقرئ: ردت إلينا بالكسر، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء، كما قيل وبيع وحكى قطرب ضرب زيد على نقل الكسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد "ما نبغي" للنفي، أي: ما نبغي في القول، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته. أو ما نبغي شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان. أو على الاستفهام، بمعنى أي شيء نطلب وراء هذا؟ وفي قراءة ابن مسعود ما تبغي بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه: أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الشاهد على صدقنا؟ وقيل: معناه ما نريد منك بضاعة أخرى. وقوله "هذه بضاعتنا ردت إلينا" جملة

مستأنفة موضحة لقوله: "ما نبغي" والجملة بعدها معطوفة عليها، على معنى: إن بضاعتنا ردت إلينا، فنستظهر بها "ونمير أهلنا" في رجوعنا إلى الملك "ونحفظ أخانا" فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فأَي شيء نبغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا: وإنا قالوا: "ونزداد كيل بعير" لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط فإن قلت: هذا إذا فسرت البغي

بالطلب، فأما إذا فسرت بالكذب والتزيد في القول، كانت الجملة الأولى وهي قوله: "هذه بضاعتنا ردت إلينا" بياناً لصدقهم وانتفاء التزيد عن قيلهم، فما تصنع بالجميل البواقي؟ قلت: أعطفها على قوله: "ما نبغي" على معنى: لا نبغي فيما نقول "غير أهلنا" ونفعل كيت وكيت. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، كقولك: وينبغي أن نغير أهلنا، كما تقول: سعيت في حاجة فلان، واجتهدت في تحصيل غرضه. ويجب أن أسعى، وينبغي لي أن لا أقصر. ويجوز أن يراد: ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أختينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها وغير أهلنا ونفعل ونصنع. بيئاتاً لأنهم لا ييغون في رأيهم وأنهم مصييون فيه، وهو وجه حسن واضح "ذلك كيل يسير" أي ذلك مكيل قليل لا يكفيننا، يعنون: ما يكال لهم. فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير، أي ذلك الكيل شيء قليل يخبينا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاضده. ويجوز أن يكون من كلام يعقوب، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد، كقوله "ذلك ليعلم" يوسف: 52. "قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل".

"لن أرسله معكم" مناف لحالي وقد رأيت منكم ما رأيت إرساله معكم "حتى تؤتون موثقاً من الله" حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله: وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد. وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه "لتأتني به" جواب اليمين؟ لأن المعنى: حتى تحلفوا لتأتني به "إلا أن يحاط بكم" إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به. أو إلا أن تهلكوا. فإن قلت: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال؟ قلت: "أن يحاط بكم" مفعول له، والكلام المثبت الذي هو قوله "لتأتني به" في تأويل النفي. معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، أي: لا تمتنعون منه لعله من العلل إلا لعله واحدة: وهي أن يحاط بكم، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده، فلا بد من تأويله بالنفي. ونظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت، تريد: ما أطلب منك إلا الفعل "على ما نقول" من طلب الموثق وإعطائه "وكيل" رقيب مطلع.

"وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم مما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

وإنما فهم أن يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا ذوي بماء وشارة حسنة، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الرفود، وأن يشار إليهم بالأصابع. ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك بهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانون لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم؟ ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرة الأولى، لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس. فإن قلت: هل للإصابة بالعين تصح عليه؟ قلت: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به،

نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، ليطيّر الخلقون من أهل الحشو فيقول الحق: هذا فعل الله، ويقول الحشوي: هو أثر العين، كما قال تعالى: "وما جعلنا عدّهم إلا فتنة للذين كفروا" المذثر: 31، الآية. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيدكما بكلمات الله التامة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة" "ما أغنى عنكم من الله من شيء" يعني إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبتكم لا محالة "إن الحكم إلا لله" ثم قال: "لما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم" أي متفرقين "ما كان يغني عنهم" رأي يعقوب ودخولهم متفرقين شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرقهم، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم "إلا حاجة" استثناء منقطع. على معنى: ولكن حاجة "في نفس يعقوب قضاها" وهي شفقتة عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به "وإنه لذو علم" يعني قوله: "وما أغنى عنكم" وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر. "ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون".

"آوى إليه أخاه" ضم إليه بنيامين. وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلستني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً، فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله، قال: أنتم عشرة فليزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له "إني أنا أخوك" يوسف "فلا تبتئس" فلا تحزن "بما كانوا يعملون" بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك. وعن ابن عباس: تعرف إليه وعن وهب: إنما قال له: أنا أخوك بدل أخيك المفقود، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم. وروي أنه قال له: أنا لا أفارقك. قال: قد علمت اغتنام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل. قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك. قال: فإني أدس صاعي في رحلك، ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته، ليتيها لي ردك بعد تسريحك معهم. قال: افعل.

"فلما جهزوا بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم".

"السقاية" مشربة يسقى بها وهي الصواع. قيل: كان يسقي بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به. وقيل: كانت الدواب تسقي بها وبكال بها. وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم. وقيل: كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل كانت من ذهب. وقيل: كانت مرصعة بالجواهر "ثم أذن مؤذن" ثم نادى مناد. يقال: آذنه أعلمه. وأذن: أكثر الإعلام. ومنه المؤذن، لكثرة ذلك منه. روي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا، ثم قيل لهم ذلك. والعير: الإبل التي عليها الأحمال، لأنها

تعير: أي تذهب وتجيء. وقيل: هي قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير، كأنها جمع عير، وأصلها فعل كسقف وسقف، فعل به ما فعل بيض وعيد، والمراد أصحاب العير كقوله: يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية، على حذف جواب لما، كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه، أمهلهم حتى انطلقوا، ثم أذن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: تفقدون من أفقده إذا وجدته فقيداً. وقرئ: صواع وصاع وصوع وصُوع بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة "وأنا به زعيم" يقوله المؤذن، يريد: وأنا بحمل البعير كفيف، أؤديه، من جاء به، وأراد وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله.

"قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين".

"تالله" قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم، وإنما قالوا "لقد علمتم" فاستشهدوا بعلمهم. لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحهم مكعومة لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق. ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم "وما كنا سارقين" وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا.

"قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين، قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين".

"فما جزاؤه" الضمير للصواع، أي فما جزاء سرقة "إن كنتم كاذبين" في جحودكم وادعائكم البراءة منه "قالوا جزاؤه من وجد في رحله" أي جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة، فلذلك استفتوا في جزائه. وقولهم "فهو جزاؤه" تقرير للحكم، أي: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير، كقولك: حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه، فذلك حقه، أي: فهو حقه لتقرر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه ويجوز أن يكون "جزاؤه" مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمرة. والأصل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو فوضع الجزاء موضع هو، كما تقول لصاحبك: من أخو زيد فيقول لك أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأول إلى من والثاني إلى الأخ، ثم تقول فهو أخوه مقيماً للمظهر مقام المضمرة. ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف، أي: المسؤول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم: من وجد في رحله فهو جزاؤه، كما يقول: من يستقي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: "ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم" المائدة: 95.

"فبدأ بأوعيتهم قبل دعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم".

"فبدأ بأوعيتهم" قيل: قال لهم من وكل بهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: واللّه لا نتركه حتى تنظر في لرحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه وقرأ الحسن: وعاء أخيه، بضم الواو، وهي لغة. وقرأ سعيد ابن جبير: إعاء أخيه بقلب الواو همزة. فإن قلت: لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنه؟ قلت: قالوا رجع بالتأنيث على السقاية، أو أنت الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعاً، فقد

وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية، وفيما يتصل بهم منه صواعاً "كذلك كدنا" مثل ذلك الكيد العظيم كدنا "ليوسف" يعني علمناه إياه وأوحينا به إليه "ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك" تفسير للكيد وبيان له، لأنه كان في دين ملك مصر وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعيد "إلا أن يشاء الله" أي ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه "نرفع درجات من نشاء" في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه. وقرئ: يرفع بالياء. ودرجات بالتنوين "وفوق كل ذي علم عليم" فوَّقه أرفع درجة منه في علمه، أو "و" فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم، وهو الله عز وعلا. فإن قلت: ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أي وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله "إنكم لسارقون" يوسف: 70، "فما جزاؤه إن كنتم كاذبين" يوسف: 74،؟ قلت: هو في صورة البهتان وليس بهتان في الحقيقة؟ لأن قوله: "إنكم لسارقون" يوسف: 70، تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف. وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: "إن كنتم كاذبين" يوسف: 74، فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكديماً، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب، كما صرح بالتسريق. لكان له وجه، لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: "وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب" يوسف: 17، هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: "وخذ بيدك ضغثاً" ص: 44، ليتخلص من جلدها ولا يحنث، وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي، لتسلم من يد الكافر. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا.

"قالوا إن سرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون".

"أخ له" أرادوا يوسف. روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسودت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء، ذهبت بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم. واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة، فقيل: كان أخذ في صباه صنماً لجده أبي أمه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق. وقيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفعه. وقيل: كان في المنزل عناق أو دجاجة فأعطاهما السائل. وقيل كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده، فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه، فلما شئت أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعل به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت "فأسرها" إضمار على شريطة التفسير، تفسيره "أنتم شر مكاناً" وإنما أنث لأن قوله: "أنتم شر مكاناً" جملة أو كلمة، على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة، كأنه قيل: فأسر الجملة أو الكلمة

التي هي قوله: "أنتم شر مكاناً" والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكاناً، لأن قوله: "قَالَ أَنْتُمْ شَرَّ مَكَانًا" بدل من أسرها. وفي قراءة ابن مسعود: فأسره على التذكير، يريد القول أو الكلام. ومعنى "أنتم شر مكاناً" أنتم شر منزلة في السرق، لأنكم سارقون بالصحة، لسرقتكم أحاكم من أبيكم "والله أعلم بما تصفون" يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون.

"قالوا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين".

استعطفوه بإذكارهم إياه حتى أبيهم يعقوب، وأنه شيخ كبير السن أو كبير القدر، وأن بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان، وأنه مستأنس بأخيه "فخذ أحدنا مكانه" فخذ به بدله على وجه الاسترهان أو الاستبعاد "إنا نراك من المحسنين" إلينا فأتهم إحسانك. أو من عادتكَ الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها: "قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون".

"معاذ الله" هو كلام موجه، ظاهره: أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبيكم، فلم تطالبون ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه: إن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جهة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً. وعاملاً على خلاف الوحي. ومعنى "معاذ الله أن نأخذ" نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من. و"إذا" جواب لهم وجزاء، لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا.

"فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً" قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين".

"استيأسوا" ينسوا. وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مر في استعصم. والنجي على معنيين: يكون بمعنى المناجي، كالعشير والسمير بمعنى: المعاشر والمسامر، ومنه قوله تعالى "وقربناه نجياً" مريم: 52، وبمعنى المصدر الذي هو التناجي، كما قيل النجوى بمعناه. ومنه قيل: قوم نجى، كما قيل "وإذ هم نجوى" الإسراء: 47، تزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف. ويجوز أن يقال: هم نجى، كما قيل: هم صديق، لأنه بزنة المصادر وجمع أنجيه. قال:

إني إذا ما القوم كانوا أنجيه

ومعنى "خلصوا" اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم "نجياً" ذوي نجوى أو فوجاً نجياً، أي مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً. وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجياً، لاستجماعهم لذلك، وإفاضتهم فيه بجد واهتمام، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم، على أي صفة يذهبون؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقوم تعايبوا بما دهمهم من الخطب، فاحتاجوا إلى التشاور "كبيرهم" في السن وهو روبيل وقيل رئيسهم وهو شمعون: وقيل كبيرهم في العقل والرأي وهو يهوذا "ما فرطتم في يوسف" فيه وجوه: أن تكون ما صلة، أي: ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم. وأن تكون مصدرية، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الطرف، وهو "من قبله" ومعناه: ووقع من قبل تفریطكم في يوسف. أو النصب عطفاً على مفعول

"ألم تعلموا" وهو "أن أباكم" كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة بمعنى: من قبل هذا ما فرطتموه، أي قدمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة، ومحله الرفع النصب على الوجهين "فلن أبرح الأرض" فلن أفارق أرض مصر "حتى يأذن لي أبي" في الانصراف إليه "أو يحكم الله لي" بالخروج منها، أو بالانتصاف من أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب "وهو خير الحاكمين" لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق.

"ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين". وقرئ: سرق أي نسب إلى السرقة "وما شهدنا" عليه بالسرقة "إلا بما علمنا" من سرقة وتيقنه، لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا "وما كنا للغيب حافظين" وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق. أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف. ومن قرأ: سرق فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق، وما كنا للغيب: للأمر الخفي حافظين، أسرق بالصحة أم دس الصاع في رحله ولم يشعر. "وسل أهل القرية التي كنا فيها والعرير التي أقبلنا فيها إنا لصادقون، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم".

"القرية التي كنا فيها" هي مصر، أي أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة "والعرير التي أقبلنا فيها" وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل من أهل صنعاء، معناه: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم ف"قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً" أردتموه وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم "بهم جميعاً" بيوسف وأخيه وروبيلا أو غيره "إنه هو العليم" بحالي في الحزن والأسف "الحكيم" الذي لم يبتلي بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

"وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم". "وتولى عنهم" وأعرض عنهم كراهة لما جاؤا به "يا أسفي" أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة، والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع، ونحوه "اثاقلتم إلى الأرض أرضيتكم" التوبة: 38، "وهم ينهون عنه وينأون عنه" الأنعام: 26، "يحسبون أنهم يحسنون" الكهف: 104، "من سبأ نبأ" النمل: 22، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع. وإنما قال يا أسفي". فإن قلت: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً، قلت: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه، وأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرياً.

ولم تنسني أوفى المصيبات بعده

ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق

به "وابيضت عيناه" إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر. قيل: قد عمي بصره. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. قرئ: من الحزن ومن الحزن، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض، فكأنه حدث من الحزن. قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه سأل جبريل عليه السلام: "ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين ثكلى. قال: "فما كان له من الأجر؟" قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعة قط".

فإن قلت: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟ قلت؟ الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال: "القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم مخزونون" وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة، ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم.

أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه، فقل: يا رسول الله، تبكي وقد فهمتينا عن البكاء؟ فقال: "ما فهمتكم عن البكاء وإنما فهمتكم عن صوتين أحقن: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح" وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقل له في ذلك، فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب "فهو كظيم" فهو مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم، فعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله "وهو مكظوم" القلم: 48، من كظم السقاء إذا شده على ملئه، والكظم بفتح الطاء: مخرج النفس. يقال: أخذ بأكظامه.

"قالوا تالله تفتنوا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين". "تفتنوا" أراد: لا تفتنوا، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات، لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون. ونحوه:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً

ومعنى لا تفتنوا لا تزال. وعن مجاهد: لا تفتن من حبه، كأنه جعل الفتوى والفتور أخوين يقال: ما فتى يفعل. قال أوس:

فما فتنت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها لاحق وتقطع

"حرضاً" مشفياً على الهلاك مرضاً، وأحرضه المرض، ويستوي فيه الواحد والجمع المذكر والمؤنث، لأنه مصدر. والصفة: حرض، بكسر الراء، ونحوهما: دنف ودنف، جاءت القراءة بهما جميعاً. وقرأ الحسن: حُرُضاً، بضمين، ونحوه في الصفات: رجل جنب وغرب.

"قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون". البث: أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيثبه إلى الناس أي ينشره. ومنه: باثه أمره، وأبثه إياه. ومعنى "إنما أشكوا" إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي. وهذا

معنى توليه عنهم، أي فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه. وقيل: دخل على يعقوب جاز له فقال: يا يعقوب، قد تمشمت وفيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك فقال: هشمني وأفاني ما ابتلاني الله به من هم يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة أخطأها فاغفر لي، فغفر له، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. وروى أنه أوحى إلى يعقوب: إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحب خلقي إلي الأنبياء، ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها، فباع ولدها فبكت حتى عميت "واعلم من الله ما لا تعلمون" أي أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا أحسب. وروى أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حي فاطلبه. وقرأ الحسن: وحزني بفتحتين وحزني بضميتين: قتادة.

"يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون".

"فتحسسوا من يوسف وأخيه" فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما. وقرئ بالجيم، كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة "فلما أحس عيسى منهم الكفر" آل عمران: 52، ومن الجس، وهو الطلب. ومنه قالوا لمشاعر الإنسان: الخواس، والجواس "من روح الله" من فرجه وتنفيسه. وقرأ الحسن وقاتدة: من روح الله بالضم: أي من رحمته التي يحيا بها العباد.

"فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين".

"الضر" الهزال من الشدة والجوع "مزجاة" مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها، من أزجته إذا دفعته وطردته، والريح تزجي السحاب، قيل: كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً. وقيل: الصنوبر وحب الخضر، وقيل: سوق المقل والأقط. وقيل: دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة "فأف لنا الكيل" الذي هو حقنا "وتصدق علينا" وتفضل علينا بالمساحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أو زدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة، لأن الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل كانت تحل لغير نبينا. وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال ألم تسمع "وتصدق علينا" أراد أنها كانت حلالاً لهم. والظاهر أنهم تمسكوا له وطلبوا إليه أن يتصدق عليهم، ومن ثم رق لهم وملكتهم الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرفهم نفسه. وقوله: "إن الله يجزي المتصدقين" شاهد لذلك لذكر الله وجزائه، والصدقة العطية التي تبتغي بها المثوبة من الله ومنه قول: الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدق علي: إن الله تعالى لا يتصدق، إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، قل: اللهم أعطني، أو تفضل علي، أو ارحمني.

"قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون".

"قال هل علمتم" أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موفقاً، فكلمهم مستفهماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه النائب، فقال: هل علمتم قبح "ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون" لا تعلمون قبحه، فلذلك أقدمتم عليه، يعني: هل علمتم قبحه فبتتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجز إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحاً لهم في الدين، لا معاتبة وتثريباً؟ إيثاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذي

يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ اخنق، ويدرك ثأره الموتور، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها والله حصاً عقولهم ما أرزها وأرجحها. وقيل لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل، سماهم جاهلين. وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة. روي أنهم لما قالوا: مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه: ارفضت عيناه، ثم قال هذا القول. وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أما بعد، فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء: أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله. وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب، فذهبت عينا من بكائي عليه، ثم كان لي ابن كان أخاه من أمه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق، وأنت حبسته ذلك، وإننا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره، فقال لهم ذلك وروي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟ قلت: تعريضهم إياه للغم والشكل بإفراذه عن أخيه لأبيه وأمّه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الدليل للعزیز، ويذاؤهم له بأنواع الأذى.

"قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا إنا كنا لخاطئين، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين".

قري: أئنك على الاستفهام. وأنت، على الإيجاب وفي قراءة أبي: أئنك أو أنت يوسف، على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع، فهو يكرر الاستثبات فإن قلت: كيف عرفوه؟ قلت: رأوا في روايته وشماله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، لا عن بعض أعزاء مصر. وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بشاياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم. وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها، تشبه الشامة البيضاء. فإن قلت: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ على أن أخاه كان معلوماً لهم. قلت: لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه "من يتق" من يخف الله وعقابه "ويصبر" عن المعاصي وعلى الطاعات "فإن الله لا يضيع" أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين "لقد آثرك الله علينا" أي فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإن شأنا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرم أن الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك "لا تثريب عليكم" لا تأنيب عليكم ولا عتب. وأصل التشريب من الشرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش. ومعناه: إزالة الشرب، كما أن التجليد والتفريق إزالة الجلد والقرع، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرِب مثلاً للتفريق

الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه. فإن قلت بم تعلق اليوم؟ قلت: بالشريب، أو بالمقدر في "عليكم" من معنى الاستقرار. أو بيغفر. والمعنى: لا أثر بكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة الشريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتداء فقال "يغفر الله لكم" فدعا لهم مغفرة ما فرط منهم. يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً، ومنه قول المشتمت يهديكم الله ويصلح بالكم و"اليوم يغفر الله لكم" بشارة بعاجل غفران الله، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادي باب الكعبة يوم الفتح، فقال لقريش: ما تروني فاعلاً بكم؟ قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت فقال: أقول ما قال أخي يوسف: لا تشرب عليكم اليوم. وروي: أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه "لا تشرب عليكم" ففعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "غفر الله لك ولمن علمك". ويروي: أن إخوته لما عرفوه أرسلوا إليه: إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إن أهل مصر وإن ملكك فيهم، فإنهم نظرون إلي بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي. وأني من حفدة إبراهيم "أذهبوا بقميصي هذا" قيل هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى ولا مقيم إلا سقيم إلا عوفي "يأت بصيراً" يصير بصيراً، كقولك: جاء البناء محكماً، بمعنى صار. ويشهد له "فارتد بصيراً" يوسف: 96، أو يأت إلي وهو بصير. وينصره قوله "وأتوني بأهلكم أجمعين" أي يأتني أبي، ويأتني آله جميعاً وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه، فأفرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً.

"ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون، قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون".

"فصلت العير" خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصلاً، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه. وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير "قال" لولد ولده ومن حوله من قومه: "إني لأجد ريح يوسف" أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيذ: النسبة إلى الفند، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم. يقال: شيخ مفند، ولا يقال عجوز مفندة، لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي فتفند في كبرها. والمعنى: لولا تفنيذكم إياي لصدقتموني "لفي ضلالك القديم" لفي ذهابك عن الصواب قدماً في إفراط محبتك ليوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه قد مات "ألقاه" طرح البشير القميص على وجهه يعقوب. أو ألقاه يعقوب "فارتد بصيراً" فرجع بصيراً. يقال: رده فارتد، وارتده إذا ارتجعه "ألم أقل لكم" يعني قوله "إني لأجد ريح يوسف" أو قوله: "ولا تياسوا من روح الله" يوسف: 87، وقوله: "إني أعلم" كلام مبتدأ لم يقع عليه القول، ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون" يوسف: 86، وروي: أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر: فقال: ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة.

"قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين، قال سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم".
 "سوف استغفر لكم" قيل: آخر الاستغفار إلى وقت السحر. وقيل: إلى ليلة الجمعة ليعتمد به وقت الإجابة. وقيل:
 ليتعرف حالهم. في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل أراد الدوام على الاستغفار لهم. فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل
 ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة. وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر لي
 جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إن الله قد غفر لك ولهم
 أجمعين. وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكتابة: ما يغني عنا غفوكما إن لم يعف عنا ربنا، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا
 قرت لنا عين أبداً، فاستقبل الشيخ القبلية قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين
 سنة. حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد
 موثيقهم بعدك على النبوة، وقد اختلف في استنبائهم.
 "فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه وقال أدخلوا مصر إن شاء الله آمين، ورفع أبويه على العرش وخروا له
 سجداً وقال يا أبنى هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم
 من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم".

"فلما دخلوا على يوسف" قيل وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه. وخرج يوسف والملك
 في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل
 والناس فقال: يا يهوذا، أهدأ فرعون مصر؟ قال لا، هذا ولدك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك
 يا مذهب الأحزان. وقيل: إن يوسف قال له لما التقيا: يا أبت، بكيت علي حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة
 تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم
 اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون
 رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف "أوى إليه أبويه" ضمهما إليه اعتنقهما. قال ابن
 أبي إسحاق: كانت أمه تحب، وقيل: هما أبوه وخالته. ماتت أمه فتزوجها وجعلها أحد الأبوين، لأن الرابة تدعى أمّاً،
 لقيامها مقام الأم، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب. ومنه قوله: "واله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق" البقرة:
 133، فإن قلت: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلت: كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت
 ثم، فدخلوا عليه وضم إليه أبويه، ثم قال لهم "ادخلوا مصر إن شاء الله آمين" ولما دخل مصر وجلس في مجلسه
 مستوياً على سريره واجتمعوا إليه، كرم أبويه فرفعهما على السرير "وخروا له" يعني الإخوة الأحد عشر والأبوين
 "سجداً" ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه، فدخلوا
 عليه القبة. فأواهما إليه بالضم والاعتناق وقرهما منه، وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر. فإن قلت: بم تعلق المشيئة؟
 قلت: بالدخول مكيفاً بالأمن، لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكانه قيل لهم: اسلموا وأمنوا في
 دخولكم إن شاء الله. ونظيره قولك للغازي: ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً، ولكن
 مقيداً بالسلامة والغنيمة، مكيفاً بهما. والتقدير: ادخلوا مصر آمين إن شاء الله دخلتم آمين، ثم حذف الجزاء لدلالة

الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذو الحال. ومن بدع التفسير أن قوله "إن شاء الله" من باب التقديم والتأخير، وأن موضعها ما بعد قوله "سوف استغفر لكم ربي" يوسف: 98، في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره. فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، كالقيام، والمصافحة وتقبيل اليد. ونحوها مما جرت عليه عادة الناس، من أفعال شهت في التعظيم والتوقير. وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه، وخرورهم سجداً ياباه. وقيل: معناه وخرروا لأجل يوسف سجداً لله شكراً. وهذا أيضاً فيه نبوة. يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه قال:

أسيئي بنا أو أحسنني لا ملمومة

"من البدو" من البادية، لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع "نزع" أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري. يقال: نرعه ونسغه، إذا نخسه "لطيف لما يشاء" لطيف التدبير لأجله، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب. وروي أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الورق والذهب، وخزائن الحلبي، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزنة القراطيس قال: يا بني، ما أعقك: عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل. قال أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فلسه. قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك "وأخاف أن يأكله الذئب" يوسف: 13، قال: فهلا خفتني؟ وروي أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات. وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد، فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه: كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فأروا من الرأي أن عملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً، وولد له: إفرائيم وميشأ، وولد لإفرائيم نون، ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه. إلى أن بعث الله موسى عليه السلام.

"رب قد آتيني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين".

من في "من الملك" و "من تأويل الأحاديث" للتبويض، لأنه لم معط إلا بعض ملك الدنيا، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل "أنت وليّ" أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وبوصل الملك الفاني بالملك الباقي "توفني مسلماً" طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختتم له بالخير والحسن، كما قال يعقوب لولده "ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون" آل عمران: 102، ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل "وألحقني بالصالحين" من آبائي أو على العموم. وعن عمر بن عبد العزيز: أن ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت، فقال له: صنع الله على يدك

خيراً كثيراً: أحبيت سنناً وأمت بدعاً وفي حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال: توفي مسلماً وألحقني بالصالحين. فإن قلت: علام انتصب فاطر السموات؟ قلت على أنه وصف لقوله "رب" كقولك: أخا زيد حسن الوجه. أو على النداء.

"ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون".
"ذلك" إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحله الابتداء. وقوله: "من أنباء الغيب نوحيه إليك" خبر إن. ويجوز أن يكون اسماً موصولاً بمعنى الذي، و"من أنباء الغيب" صلته و"نوحية" الخبر. والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي، لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو لقائهم أخاهم في البئر، كقوله: "وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب" يوسف: 15، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه، لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه. ولم يكن من علم قومه. فماذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن شاهداً لمن مضى من القرون الخالية: ونحوه: "وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر" القصص: 44، "وهم يمكرون" يوسف ويغنون له الغوائل.

"ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين".

"ما أكثر الناس" يريد العموم، كقوله: "ولكن أكثر الناس لا يؤمنون" هود: 17، وعن ابن عباس رضي الله عنه. أراد أهل مكة، أي وما هم بمؤمنين "ولو حرصت" وتهاكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم "وما تسألهم" على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار "إن هو إلا ذكر" عظة من الله "للعالمين" عامة، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.
"وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون".

"من آية" من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده "يمرون عليها" ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرئ: والأرض بالرفع على الابتداء، ويمرون عليها: خبره، وقرأ السدي والأرض بالنصب على: ويطؤون الأرض يمرون عليها. وفي مصحف عبد الله: والأرض يمشون عليها، برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم المهلكة وغير ذلك من العبر.

"وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون".

"وما يؤمن أكثرهم" في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

"أفأتموا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون".

"غاشية" نقمة تغشاهم. وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم وقيل: الصواعق.

"قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين".

"هذه سبيلي" هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي. والسبيل والطريق: يذكّران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: "ادعوا إلى الله على بصيرة" أي ادعوا إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء. و"أنا" تأكيد للمستتر في "ادعوا". "وَمَنْ اتَّبَعَنِي" عطف عليه. يريد: ادعوا إليها أنا، ويدعوا إليها من اتبعني ويجوز أن يكون "أنا" مبتدأ، و "على بصيرة" خبراً مقدماً، و"وَمَنْ اتَّبَعَنِي" عطفاً على "أنا" إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان، لا على هوى، ويجوز أن يكون "على بصيرة" حالاً من "ادعوا" عاملة الرفع في "أنا ومن اتبعني"، "سبحان الله" وأنزهه من الشركاء.

"وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون".
 "إلا رجالاً" لا ملائكة، لأنهم كانوا يقولون "لو شاء ربنا لأنزل ملائكة" فصلت: 14، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ليست فيهم امرأة. وقيل: في سجاج المتنبة.

ولم تزل أنبياء الله ذكرانا

وقرئ: نوحى إليهم بالنون. "من أهل القرى" لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة "ولدار الآخرة" ولدار الساعة، أو الحال الآخرة "خير للذين اتقوا" للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرئ: "أفلا تعقلون" بالتاء والياء.
 "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين".
 "حتى" متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، كأنه قيل: "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً" فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النصر "وظنوا أنهم قد كذبوا" أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقومهم: رجاء صادق، ورجاء كاذب. والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأمله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أحلفوا ما وعدهم الله من النصر وقال: كانوا بشراً، وتلا قوله: "وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله" البقرة: 214، فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهيج في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجانبين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس برهم، وأنه متعال عن خلف الميعاد، مته عن كل قبيح؟ وقيل: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، أي: أخلفوا. أو: وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل، أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه. وقرئ: كذبوا بالتشديد على وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم. وقرأ مجاهد كذبوا بالتخفيف، على البناء للفاعل، على: وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة، إما على تأويل ابن عباس، وأما على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم: إنكم قد كذبتُمونا فيكونون كاذبين عند قومهم. أو وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا. ولو قرئ

بهذا مشدداً لكان معناه؟ وظن الرسل أن قومهم كذبهم في مواعدهم. وقرئ: فننجي بالتخفيف والتشديد، من أنجاه ونجاه. وفتح، على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن فنجاً والمراد بـ"من نشاء" المؤمنون، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله "ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين".

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون".

الضمير في "قصصهم" للرسل، وينصره قراءة من قرأ: في قصصهم بكسر القاف.

وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته. فإن قلت: فالإم يرجع الضمير في "ما كان حديثاً يفترى" فيمن قرأ بالكسر؟ قلت: إلى القرآن، أي: ما كان القرآن حديثاً يفترى "ولكن" كان "تصديق الذي بين يديه" أي قبله من الكتب السماوية "وتفصيل كل شيء" يحتاج إليه في الدين، لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل. وانتصاب ما نصب بعد لكن للعطف على خبر كان. وقرئ: ذلك بالرفع على "ولكن هو تصديق الذي بين يديه" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً".

سورة الرعد

قيل مكية وقيل مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

"المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناي لا يؤمنون".

"تلك" إشارة إلى آيات السورة. والمراد بالكتاب السورة، أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها، ثم قال: "والذي أنزل إليك" من القرآن كله هو "الحق" الذي لا مزيد عليه، لا هذه السور وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الأتخارية: هم كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين طرفاها؟ تريد الكلمة.

"الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهار ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون".

"الله" مبتدأ، و"الذي" خبره، بدليل قوله: "وهو الذي مد الأرض" ويجوز أن يكون صفة. وقوله: "يدبر الأمر يفصل الآيات" خبر بعد خبر. وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات "رفع السموات بغير عمد ترونها" كلام مستأنف استشهد بروئيتهم لها كذلك. وقيل: هي صفة لعمد. ويعضده قراءة أبي ترونة. وقرئ: عمد، بضمين "يدبر الأمر" يدبر أمر ملكوته وربوبيته "وفصل" آياته في كتبه المتزلة "لعلكم توقنون" بالجزء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه. وقرأ الحسن: ندبر بالنون "جعل فيها زوجين اثنين" خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين

حين مدها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت. وقيل: أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة "يغشى الليل النهار" يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً. وقرئ: يغشى بالتشديد.

"وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون".

"قطع متجاورات" بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة: طيبة إلى سبخة وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية. وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجه دون وجه. وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقى بماء واحد، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلة فيها. وفي بعض المصاحف: قطعاً متجاورات على: وجعل وقرئ: وجنات، بالنصب للعطف على زوجين. أو بالجر على كل الثمرات. وقرئ وزرع ونخيل، بالجر عطفاً على أعناب أو جنات والصنوان: جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان، وأصلهما واحد. وقرئ بالضم. والكسر: لغة أهل الحجاز، والضم: لغة بني تميم وقيس "تسقى" بالتاء والياء "ونفضل" بالنون وبالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً "في الأكل" بضم الكاف وسكونها.

"وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

"وإن تعجب" يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه، لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهن كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب "إذا كنا" إلى آخر قولهم: يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم، وأن يكون منصوباً بالقول وإذا نصب بما دل عليه قوله: "إنا لفي خلق جديد"، "أولئك الذين كفروا بربهم" أولئك الكاملون المتمادون في كفرهم "وأولئك الأغلال في أعناقهم" وصف بالإصرار كقوله: "إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً" ياسين: 8، ونحوه.

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

أو هو من جملة الوعيد.

"يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب".

"بالسيئة قبل الحسنة" بالنقمة قبل العافية، والإحسان إليهم بالإمهال. وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره "وقد خلت من قبلهم المثلثات" أي عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما هم لم يعتبروا بها فلا يستهزئوا والمثلة: العقوبة، بوزن السمرة. والمثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة، "وجزاء سيئة سيئة مثلها" الشورى: 40، ويقال: أمثل الرجل من صاحبه وأقصصته منه. والمثال: القصاص.

وقرئ: المثلثات بضميتين لإتباع الفاء العين. والمثلثات، بفتح الميم وسكون الثاء، كما يقال: السمرة. والمثلثات بضم الميم وسكون الثاء، تخفيف المثلثات بضميتين. والمثلثات جمع مثلة كركبة وركبات "لذو مغفرة للناس على ظلمهم" أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحله الحال، بمعنى ظالمين لأنفسهم وفيه أوجه. أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر. أو الكبائر بشرط التوبة. أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال. وروي أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام: "لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد". ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد".

"لولا أنزل عليه آية من ربه" لم يعتدوا بالآيات المترلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى، من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، فقليل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل أرسلت منذراً ومخوفاً لهم من سوء العاقبة. وناصحاً كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بيني والذي عنده كل شيء بمقدار يعطي كل نبي آية على حسب ما اقتضاه علمه بالمصالح وتقديره لها "ولكل قوم هاد" من الأنبياء يهديهم إلى الدين، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية، وبآية خص بها، ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً في آيات مخصوصة. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى أنهم يحشدون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون، فلا يهمنك ذلك، إنما أنت منذر، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم، ولست بقادر عليه، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلحاء، وهو الله تعالى. ولقد دل بما أرد من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطاءه كل منذر آيات خلاف آيات غيره: أمر مدبر بالعلم النافذ بمقدر بالحكمة الربانية، ولو علم في إجابته إلى مقترحهم خيراً ومصلحة، لأجابه إليه. وأما على الوجه الثاني، فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه، هو القادر وحده على هدايتهم، العالم بأي طريق يهديهم، ولا سبيل إلى ذلك لغيره.

"الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال".

"الله يعلم" يحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً، وأن يكون المعنى: هو الله، تفسيراً لهاد على الوجه الأخير، ثم ابتدئ فقيل: "يعلم ما تحمل كل أنثى" وما في "ما تحمل"، "وَمَا تَغِيضُ"، "وَمَا تَزْدَادُ" إما موصولة، وإما مصدرية. فإن كانت موصولة، فالمعنى: يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو. من ذكورة وأنوثة، وتمام وخداج، وحسن وقبح، وطول وقصر، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمتربة، ويعلم ما تغيضه الأرحام: أي تنقصه. يقال: غاض الماء وغضته أنا. ومنه قوله تعالى: "وغيض الماء" هود: 44، وما تزداده: أي تأخذه زائداً، تقول: أخذت منه حقي، وازددت منه كذا ومنه قوله تعالى: "وازدادوا تسعاً" الكهف: 25، ويقال: زدته فزاد بنفسه وازداد، وما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد، فإنها تشتمل على واحد، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه. ومنه جسد الولد، فانه يكون تاماً ومخدجاً ومنه مدة ولادته، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى ستين عند أبي حنيفة وإلى أربع عند الشافعي، وإلى خمس عند مالك، وقيل: إن الضحاك ولد لستين، وهرم بن حيان

بقي في بطن أمه أربع سنين، ولذلك سمي هرمًا. ومنه الدم، فإنه يقل ويكثر. وإن كانت مصدرية، فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيض الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ومن أوقاته وأحواله. ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته، فأسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها، على أن الفعلين غير متعديين، ويعضده قول الحسن: الغيوضة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر. وعنه الغيوض الذي يكون سقطاً لغير تمام، والازدياد ما ولد لتمام "بمقدار" بقدر واحد لا يجاوز ولا ينقص عنه، كقوله "إنا كل شيء خلقناه بقدر" القمر: 49، "الكبير" العظيم الشأن الذي كل شيء دونه "المتعال" المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

"سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد بقوم سوءاً فلا مراد له وما لهم من دونه من وال".

"وسارب" ذاهب في سريه بالفتح أي في طريقه ووجهه. يقال: سرب في الأرض سروباً. والمعنى: سواء عنده من استخفى: أي طلب الخفاء في مخبأ بالليل في ظلمته، ومن يضطرب في الطرقات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد. فإن قلت: كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار، حتى يتناول معنى الاستواء المستخفي والسارب، وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب قلت: فيه وجهان: أحدهما أن قوله "وسارب" عطف على من هو مستخف، لا على مستخف، والثاني أنه عطف على مستخف، إلا أن من في معنى الاثنين، كقوله:

نكن مثل من يا ذنب يصطحبان

كأنه قيل: سواء منكم اثنان: مستخف بالليل، وسارب بالنهار. والضمير في "له" مردود على "من" كأنه قيل: لمن أسر ومن جهر، ومن استخفى ومن سرب "معقبات" جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته، والأصل: معقبات، فادغمت التاء في القاف، كقوله "وجاء المعذورون" التوبة: 90، بمعنى المعتذرون. ويجوز معقبات بكسر العين ولم يقرأ به. أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه، كما يقال: قفاه لأن بعضهم يعقب بعضاً أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه "يحفظونه من أمر الله" صفتان جميعاً وليس "من أمر الله" بصلة للحفظ، كأنه قيل: له معقبات من أمر الله. أو يحفظونه من أجل أمر الله أي من أجل أن الله أمرهم بحفظه. والدليل عليه قراءة علي رضي الله عنه وابن عباس وزيد بن علي وجعفر بن محمد وعكرمة: يحفظونه بأمر الله. يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب، بدعائهم له ومسلتهم بهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب، كقوله: "قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن" الأنبياء: 42، وقيل المعقبات الحرس والجلالوزة حول السلطان، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله أي من قضاياه ونوازله، أو على التهكم به، وقرئ: له معاقب جمع معقب أو معقبة. والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير "أن الله لا يغير ما بقوم" من العافية والنعمة "حتى يغيروا ما بأنفسهم" من الحال الجميلة بكثرة المعاصي "من وال" من يلي أمرهم ويدفع عنهم.

"هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقيل، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد الخال".

"خوفاً وطمعاً" لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف، أي: إرادة خوف وطمع. أو على معنى إخافة وإطماعاً، ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع. أو على: ذا خوف وذا طمع. أو من المخاطبين، أي: خائفين وطماعين. ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتَرْجَى يُرْجَى الْحَيَاءُ مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ

وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر، كالسافر، ومن له في جريته التمر والزبيب، ومن له بيت يكف، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع، ويحيا به "السحاب" اسم الجنس، والواحدة سحابة. و"الثقال" جمع ثقيلة، لأنك تقول سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة ونساء كرام، وهي الثقيل بالماء "ويسبح الرعد بحمده" ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدين له. أي يضجون بسبحان الله والحمد لله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "سبحان من يسبح الرعد بحمده" وعن علي رضي الله عنه: سبحان من سبحت له.

وإذا اشتد الرعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكننا بعذابك، وعافنا قبل ذلك" وعن ابن عباس.

أن اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو؟ فقال: "ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب" وعن الحسن: خلق من خلق الله ليس بملك. ومن بدع المتصوفة. الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكائهم "والملائكة من خيفته" ويسبح الملائكة من هيئته وإجلاله ذكر علمه النافذ في كل شيء واستواء الظاهر والخفي عنده، وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيته ثم قال "وهم" يعني الذين كفروا وكذبوا رسول الله وأنكروا آياته "يجادلون في الله" حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلق بقوله "من يحيى العظام وهي رميم" ياسين: 78، ويردون الوحدانية باتخاذ الشركاء والأنداد، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم "الملائكة بنات الله" فهذا جداهم بالباطل، كقوله "وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق" غافر: 15، وقيل: الواو للحال. أي: فيصيب بها من يشاء في حال جداهم. وذلك: أن أربد أخا لبيد بن ربيعة العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامراً بغدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية وأرسل على أربد صاعقة فقتلته أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد؟ "الحال" المماثلة، وهي شدة المماكرة والمكيدة. ومنه: تمحل لكذا، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان. ومنه الحديث: "ولا تجعله علينا ما حلاً مصداقاً" وقال الأعشى:

فرع نبع يهش في غصن المج د غزير الندى شديد المحال

والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون. وقرأ الأعرج بفتح الميم، على أنه مفعول، من حال يحول محالاً إذا احتال. ومنه: أحول من ذئب، أي أشد حيلة. ويجوز أن يكون المعنى: شديد الفقر، ويكون مثلاً في القوة والقدرة كما جاء: فساعد الله أشد، وموساه أحد، لأن الحيوان إذا اشتد محاله، كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره. ألا ترى إلى قولهم: فقرته الفواقر؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه.

"له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال".

"دعوة الحق" فيه وجهان أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك: كلمة الحق، للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأما معزل من الباطل. والمعنى أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن كان مصلحة له، فكانت دعوة ملابسة للحق، لكونه حقيقة بأن يوجه إليه الدعاء، لما في دعوته من الجدوى والنفع، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه. والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وعلا، على معنى: دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب. وعن الحسن: الحق هو الله، وكل دعاء إليه دعوة الحق. فإن قلت: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبله؟ قلت أما على قصة أريد فظاهر، لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر. وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله: "اللهم احسفهما بما شئت، فأجيب فيهما، فكانت الدعوة دعوة حق. وأما على الأول فوعيد للكفرة على مجادلهم رسول الله بحلول محاله بهم، وإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دعا عليهم فيهم" والذين يدعون" والآلة الذين يدعوهم الكفار "من" دون الله "لا يستجيبون لهم بشيء" من طلباتهم "إلا كباسط كفيه" إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه، أي كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جهاد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جهاد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم. وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسطهما ناشراً أصابعه، فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه. وقرئ: تدعون بالثناء. كباسط كفيه، بالتثنية "إلا في ضلال" إلا في ضياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجبههم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

"والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والأوصال".
"والله يسجد" أي ينقادون لإحداث ما أَرادَه فيهم من أفعاله، شأواً أو أبوا. لا يقدر أن يمتنعوا عليه، وتنقاد له "ظلالهم" أيضاً حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص، والفيء والزوال. وقرئ: بالغدو والإيصال، من آصلوا: إذا دخلوا في الأصيل.

"قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفألتخذم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل

الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار".

"قل الله" حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم، لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله. كقوله: "قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله" المؤمنون: 86، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك فإذا قال: هذا قولي قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقاً منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت. ويجوز أن يكون تلقيناً، أي: إن كعوا عن الجواب فلقنهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه "أفأخذتم من دونه أولياء" أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك "لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا" لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضرراً، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد أثروهم على الخالق الرازق الميثب المعاقب، فما أبين ضلالتكم! "أم جعلوا" بل اجعلوا. ومعنى الهمزة الإنكار و"خلقوا" صفة لشركاء، يعني أنهم لم يتخذوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله "فتشابه" عليهم خلق الله وخلقهم، حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد، إذ لا فرق بين خالق وخالق، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق "قل الله خالق كل شيء" لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة "وهو الواحد" المتوحد بالربوبية "القهار" لا يغالب، وما عداه مربوب ومقهور. "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال".

هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي يتزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلبي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفي به، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء في منافعه. وتبقى آثاره في العيون والثمار والحبوب، والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكثر، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، يزيد السيل الذي يرمي به، ويزيد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. فإن قلت: لم نكرت الأودية؟ قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض. فإن قلت: فما معنى قوله: "بقدرها"؟ قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطر عليهم غير ضار. ألا ترى إلى قوله: "وأما ما ينفع الناس" لأنه ضرب المطر مثلاً للحق، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً من المضرة، ولا يكون ك بعض الأمطار والسيول الجواحف. فإن قلت: فما فائدة قوله: "ابتغاء حلية أو متاع"؟ قلت: الفائدة في كالفائدة في قوله: "بقدرها" لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله: "وأما ما ينفع الناس" لأن المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منه ويذاب، وهو الحلية والمتاع. وقوله: "ومما يوقدون عليه في النار

ابتغاء حلية أو متاع" عبارة جامعة لأنواع الفلز، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هجري الملوك، نحو ما جاء في ذكر الآجر "أوقد لي يا هامان على الطين" القصص: 38، و من لابتداء الغاية. أي ومنه ينشأ زيد مثل زيد الماء. أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبداً رابياً منفخاً مرتفعاً على وجه السيل "جفاء" يجفؤه السيل أي يرمي به. وجفأت القدر بزبدها، وأجفأ السيل وأجفل. وفي قراءة رؤية ابن العجاج: جفالا وعن أبي حاتم: لا يقر بقراءة رؤية، لأنه كان يأكل الفأر. وقرئ: يوقدون، بالياء: أي يوقد الناس.

"للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد".

"للذين استجابوا" اللام متعلقة بيضرب، أي كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا، وللكافرين الذين لم يستجيبوا، أي: هما مثلاً الفريقين. و"الحسنى" صفة لمصدر استجابوا، أي: استجابوا الاستجابة الحسنى. وقوله "لو أن لهم" كلام مبتدأ في ذكر ما أعد لغير المستجيبين. وقيل: قد تم الكلام عند قوله: "كذلك يضرب الله الأمثال" الرعد: 17، وما بعده كلام مستأنف. والحسنى: مبتدأ، خبره "للذين استجابوا" والمعنى: لهم المثوبة الحسنى، وهي الجنة "والذين لم يستجيبوا" مبتدأ خبره، "لو" مع ما في حيزه و"سوء الحساب" المناقشة فيه. وعن النخعي: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء.

"أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب".

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله "أفمن يعلم" لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أن حال من علم "أنما أنزل إليك من ربك الحق" فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب: كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز "إنما يتذكر أولوا الألباب" أي الذين عملوا على قضايا عقولهم، فنظروا واستبصروا. "الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدروون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار".

"الذين يوفون بعهد الله" مبتدأ. و"أولئك لهم عقبى الدار" خبره كقوله: والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة. ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب، والأول أوجه. وعهد الله: ما عقده على أنفسهم من الشهادة بربوبيته "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى" الأعراف: 172، "ولا ينقضون الميثاق" ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه: من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد، تعميم بعد خصيص "ما أمر الله به أن يوصل" من الأرحام والقربات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان "إنما المؤمنون إخوة" الحجرات: 10، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم، وإفشاء السلام عليهم، وعبادة مرضاهم، وشهود جنائزهم. ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر، وكل ما تعلق منهم بسبب، حتى الهرة والدجاجة. وعن

الفضيل بن عياض أن جماعة دخلوا عليه بمكة ، فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل خراسان. قال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين "ويخشون ربهم" أي يخشون وعيده كله "ويخافون" خصوصاً "سوء الحساب" فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا "صبروا" مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف "ابتغاء وجه" الله، لا ليقال: ما أصبره وأحملة للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لئلا يعاب بالجزع ولئلا يشمت به الأعداء كقوله:

وتجلدي للشامتين أريهم

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مرد فيه للفاتئ، كقوله:

ت ولا يرد بكاي زندا

ما أن جزعت ولا هلع

وكل عمل له وجوه يعمل عليها، فعلى المؤمن أن ينوي منها ما به كان حسناً عند الله، وإلا لم يستحق به ثواباً، وكان فعلاً كلاً فعل "مما رزقناهم" من الحلال، لأن الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله "سراً وعلانية" يتناول النوافل، لأنها في السر أفضل والفرائض، لوجوب الجاهرة بها نفياً للتهمة "ويدروون بالحسنة السيئة" ويدفعونها عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم. وعن الحسن: إذا حرّموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا. وعن ابن كيسان: إذا أذنبوا تابوا. وقيل: إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره "عقبى الدار" عاقبة الدنيا وهي الجنة، لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها و"جنات عدن" بدل من عقبى الدار. وقرئ فنعم بفتح النون. والأصل: نعم فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل وقرئ: يدخلونها على البناء للمفعول. وقرأ ابن أبي عبلة صلح بضم اللام، والفتح أفصح، أعلم أن الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة. وآباؤهم جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل من آباؤهم وأمهاؤهم "سلام عليكم" في موضع الحال، لأن المعنى: قاتلين سلام عليكم أو مسلمين، فإن قلت: بم تعلق قوله "بم صيرتم"؟ قلت: بمحذوف تقديره: هذا بما صيرتم، يعنون هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملائ والنعم والمعنى: لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة، كقوله:

بما قد أرى فيها أوانس بدنا

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول "السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" ويجوز أن يتعلق بسلام، أي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم. "والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم اللعنة ولهم سوء الدار".

"من بعد ميثاقه" من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول "سوء الدار" يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا، لأنه في مقابلة عقبى الدار، ويجوز أن يراد بالدار جهنم، وبسوءها عذابها.

"الله ييسر الرزق لمن شاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع".

"الله يبسط الرزق" أي الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره، وهو الذي بسط رزق أهل مكة ووسعه عليهم "وفرحوا" بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لافرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة، وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرأ يتمتع به كعجالة الراكب، وهو ما يتعجله من تمرات أو شربة سويق أو نحو ذلك.

"ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب، الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب".
فإن قلت: كيف طابق قولهم "لولا أنزل عليه آية من ربه"، قوله: "قل إن الله يضل من يشاء"؟ قلت: هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤقها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحدوها لم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم: إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية "ويهدي إليه من" كان على خلاف صفتكم "أناب" أقبل إلى الحق، وحقيقته دخل في نوبة الخير، و"الذين آمنوا" بدل من "من أناب" "وتطمئن قلوبهم بذكر الله" بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، كقوله: "ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" الزمر: 23، أو تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها "الذين آمنوا" مبتدأ، و"طوبى لهم" خبره. ويجوز أن يكون بدلاً من القلوب، على تقدير حذف المضاف، أي: تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا، وطوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً، ومحلهما النصب أو الرفع، كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك، والقراءة في قوله وحسن مآب بالرفع والنصب، تدل على محليها. واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمه ما قبلها، كموقن وموسر وقرأ مكوزة الأعراي: طيبى لهم، فكسر الطاء لتسلم الياء، كما قيل: بيض ومعيشة.

"كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب".

"كذلك أرسلناك" مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني: أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: "في أمة قد خلت من قبلها أمم" أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء "لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك" لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك "وهم يكفرون" وحال هؤلاء أنهم يكفرون "بالرحمن" بالبالغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم "قل هو ربي" الواحد المتعالي عن الشركاء "عليه توكلت" في نصرتي عليكم "إليه متاب" فيثبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

"ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم يئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله

إن الله لا يخلف الميعاد".

"ولو أن قرآنًا" جوابه محذوف، كما تقول لغلامك: لو أي قمت إليك، وتترك الجواب والمعنى: ولو أن قرآنًا "سيرت به الجبال" عن مقارها، وزعزعت عن مضاجعها "أو قطعت به الأرض" حتى تتصدع وتتزايد قطعاً "أو كلم به الموتى" فتسمع وتحيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف، كما قال: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله" الحشر: 21، هذا يعضد ما فسرت به قوله: "لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك" الرعد: 30، من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن. وقيل: معناه ولو أن قرآنًا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله: "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة" الأنعام: 111، الآية. وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع، كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم، فلست بأهون على الله من داود. وسخر لنا به الريح لركبها ونسجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا، فقد شق علينا المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام. أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا: منهم قصي بن كلاب فزلت ومعنى تقطيع الأرض على هذا: قطعها بالسير مجاوزتها. وعن الفراء: هو متعلق بما قبله. والمعنى: وهم يكفرون بالرحمن "ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال" وما بينهما اعتراض، وليس ببعيد من السداد. وقيل "قطعت به الأرض" شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً "بل لله الأمر جميعاً" على معنيين، أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها؟ إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة يصرفه. والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار. ويعضده قوله: "أفلم يئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله يعني مشيئة الإلجاء والقسر "لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً" ومعنى "أفلم يئس" أفلم يعلم. قيل: هي لغة قوم من النخع. وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه، لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون كما استعمل الرجاء في معنى الخوف، والنسيان في معنى الترك لتضمن ذلك. قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشعب إذ يبسونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا: أفلم يئس وهو تفسير أفلم يئس وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام. وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام اختاطين في دين الله المهيمين عليه لا يغفلون عن جلالته ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية. ويجوز أن يتعلق "لو أن يشاء" بآمنوا، على أو لم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولهداهم "تصبيهم بما صنعوا" من كفرهم وسوء أعمالهم "قَارَعَةً" داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم "أو تحل"

القارعة "قريباً" منهم فيفزعون ويضطربون ويتطايرون إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها "حتى يأتي وعد الله" وهو موثق، أو القيامة. وقيل: ولا يزال كفار مكة تصيهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتحتطف منهم، وتصيب من مواشيهم. أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك، كما حل بالحديبية، حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

"ولقد استهزأ برسول من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب".
الإملاء؟ الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن، كالبهيمة يملئ لها في المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به . وتسليية له .

"أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضل الله فما له من هاد، لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق".

"أفمن هو قائم" احتجاج عليهم في إشراكهم بالله، يعني أما الله الذي هو قائم رقيب "على كل نفس" صالحة أو طالحة "بما كسبت" يعلم خيره وشره، ويعد لكل جزاءه، كمن ليس كذلك. ويجوز أن يقدر ما يقع خبراً للمبتدأ ويعطف عليه وجعلوا، وتمثيله: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحده "وجعلوا" له وهو الله الذي يستحق العبادة وحده "شركاء قل سموهم" أي جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبؤه بأسمائهم، ثم قال: "أم تنبؤنه" على أم المنقطعة، كقولك للرجل: قل لي من زيد أم هو أقل من أن يعرف، ومعناه: بل اتنبؤونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد نفي أن يكون له شركاء. ونحوه: "قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض" يونس: 18، "أم بظاهر القول" بل أئسموهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة، "ذلك قولهم أفواههم" التوبة: 30، "ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها" يوسف: 40، وهذا لا احتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق: أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقرئ: أتنبؤونه بالتخفيف "مكرهم" كيدهم للإسلام بشرهم "وصدوا" قرئ بالحركات الثلاث. وقرأ ابن أبي إسحاق: وصد بالتونين "من يضل الله" ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدي "فما له من هاد" فما له من أحد يقدر على هدايته "لهم عذاب في الحياة الدنيا" وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر الخن، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر، ولذلك سماه عذاباً "وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ" وما لهم من حافظ من عذابه. أو ما لهم من جهته واق من رحمته.

"مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار".
"مثل الجنة" صفتها التي هي في غرابة المثل، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب سيبويه، أي فيما قصصناه عليكم مثل الجنة. وقال غيره: الخبر "تجري من تحتها الأنهار" كما تقول: صفة زيد أسمر، وقال الزجاج: معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد. وقرأ علي رضي الله عنه أمثال

الجنة على الجمع أي صفاها "أكلها دائم" كقوله "لا مقطوعة ولا ممنوعة" الواقعة: 33، "وظلها" دائم لا ينسخ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

"والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعوا وإليه المآب".

"والذين آتيناهم الكتاب" يريد من أسلم من اليهود، كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، هؤلاء "يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب" يعني ومن أحزابهم وهم كفركم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب أسقفي نجران وأضياعهما "من ينكر بعضه" لأنهم كانوا لا ينكرون الأفاقيص وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام ونعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع. فإن قلت: كيف اتصل قوله: "قل إنما أمرت أن أعبد الله" بما قبله؟ قلت: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله ولا أشرك به. فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً" آل عمران: 64، وقرأ نافع في رواية أبي خليل: ولا أشرك بالرفع على الاستئناف كأنه قال: وأنا لا أشرك به ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى: أمرت أن أعبد الله غير مشرك به "إليه أدعوا" خصوصاً لا أدعو إلى غيره "وإليه" لا إلى غيره مرجعي، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم.

"وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق".
"وكذلك أنزلناه" ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء "حكماً عربياً" حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلي إلى قبلتهم بعد ما حوله الله عنها، فقليل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة، خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك فلا يقيك من واق، وهذا من باب الإلهاب والتهيج، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه، وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمسাকে بالحجة، وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الشكيمة بمكان.
"ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب، يحسبوا الله ما يشاء ويثبت عنده أم الكتاب".

كانوا يعيونه بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، وكانوا يقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ فقل: كان الرسل قبله بشراً مثله ذوي أزواج وذرية. وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح عليهم، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، فلكل وقت حكم يكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم "يمحو الله ما يشاء" ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى

المصلحة في إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل: يحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة؟ لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل "ويثبت" غيره. وقيل يحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة، ويثبت إيمانهم وطاعتهم. وقيل: يحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسي وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها، والكلام في نحو هذا واسع المجال "وعنده أم الكتاب" أصل كل كتاب وهو اللوح الخفوظ، لأن كل كائن مكتوب فيه. وقرئ: ويثبت.

"وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنا عليك البلاغ وعلينا الحساب".
"وإن ما نرينك" وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم. أو توفيناك قبل ذلك، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب، وعلينا لا عليك حسابهم جزاؤهم على أعمالهم، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.
"أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب".

"أولم يروا أنا نأتي الأرض" أرض الكفر "ننقصها من أطرافها" بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام، وذلك من آيات النصر والغلبة ونحوه "أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها" الأنبياء: 44، "أفهم الغالبون" الأنبياء: 44، "سنريهم آياتنا في الآفاق" فصلت: 53، والمعنى: عليك بالبلاغ الذي حملته، ولا تهتم بما وراء ذلك فحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر، ولا يضجرك تأخره، فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تبشير الظفر. وقرئ ننقصها بالتشديد "لا معقب لحكمه" لا راد لحكمه. والمعقب: الذي يكر على الشيء فيبطله، وحقيقته: الذي يعقبه أي يقفيه بالرد والإبطال. ومنه قيل لصاحب الحق: معقب، لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب. قال لبيد:

طلب المعقب حقه المظلوم

والمعنى: أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس "وهو سريع الحساب" فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا. فإن قلت: ما محل قوله لا معقب لحكمه؟ قلت: هو جملة محلها نصب على الحال، كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه، كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة، تريد حاسراً.
"وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبي الدار".
"وقد مكر الذين من قبلهم" وصفهم بالمكر، ثم جعل مكرهم كلاً مكر بالإضافة إلى مكره فقال "فله المكر جميعاً" ثم فسر ذلك بقوله: "يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبي الدار" لأن من علم ما تكسب كل نفس، وأعد لها جزاءها فهو المكر كله، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون. وهم في غفلة مما يراد بهم. وقرئ: الكافر والكافرون. والذين كفروا. والكفر: أي أهله. والمراد بالكافر الجنس: وقرأ جناح بن حبيش، وسيعلم الكافر من أعلمه أي سيخبر: "ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب".
"كفى بالله شهيداً" لما أظهر من الأدلة على رسالتي "ومن عنده علم الكتاب" والذي عنده علم القرآن وما ألف عليه

من النظم المعجز الفاتت لقوى البشر. وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا. لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم: وقيل: هو الله عز وعلا والكتاب: اللوح المحفوظ وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله. والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة والذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو، شهيداً بيني وبينكم. وتعضده قراءة من قرأ: "ومن عنده علم الكتاب" على من الجارة، أي ومن لدنه علم الكتاب، لأن علم من علمه من فضله ولطفه. وقرئ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارة، وعلم، على البناء للمفعول وقرئ: ومن عنده علم الكتاب. فإن قلت: بم ارتفع علم الكتاب؟ قلت: في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدر في الظرف، فيكون فاعلاً، لأن الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول، فعمل عمل الفعل، كقولك، مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول: بالذي استقر في الدار أخوه. وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالإبتداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله".

سورة إبراهيم

مكية وآياتها 52

بسم الله الرحمن الرحيم

"ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ياذن رهم إلى صراط العزيز الحميد، الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد".

"كتاب" هو كتاب، يعني السورة. وقرئ: ليخرج الناس. والظلمات والنور: استعارتان للضلال والهدى "ياذن الله" بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق "إلى صراط العزيز الحميد" بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل، كقوله: "للذين استضعفوا لمن آمن منهم" الأعراف: 75، ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف، كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد. وقوله: "الله" عطف ببيان للعزيز الحميد، لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا. وقرئ بالرفع على: هو الله. الويل: نقيض الوأل، وهو النجاة اسم معنى، كاهلاك؟ إلا أنه لا يشق منه فعل، إنما يقال: ويلاً له، فينصب نصب المصادر، ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويل له، كقوله: سلام عليك. ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعدهم الكافرين بالويل. فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: "من عذاب شديد" بالويل؟ قلت: لأن المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد، ويضجون منه، ويقولون: يا ويلاه، كقوله: "دعوا هنالك ثوراً" الفرقان: 13، "الذين يستحبون" مبتدأ خبره: أولئك في ضلال بعيد ويجوز أن يكون

مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على الذم. أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؟ لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليه وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن ويصدون بضم الياء وكسر الصاد. يقال: صده عن كذا، وأصده، قال:

أناس اصدوا الناس بالسيف عنهم

والهمزة فيه داخل على صد صدوداً، لتقلبه من غير التعدي إلى التعدي. وأما صده، فموضوع على التعدية كمنعه، وليست بفصيحة كأوقفه؟ لأن الفصحاء استغنوا بصدده ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة "ويغونها عوجاً" ويطلبون لسييل الله زيغاً واعوجاجاً، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل: ويغونها لها، فحذف الجار وأوصل الفعل "في ضلال بعيد" أي ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل. فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد. قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضلال؟ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جد جده، ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد. أو فيه بعد: لأن الضلال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

"وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم".
"إلا بلسان قومه ليبين لهم" أي ليفقهوا عنه ما يدعوههم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا: لم نفهم ما خاطبنا به، كما قال: "ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته" فصلت: 44، فإن قلت: لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعاً "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً" الأعراف: 158، بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية، لم تكن للعرب حجة أيضاً.

قلت: لا يخلو إنا أن يتزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فبقي أن يتزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؟ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة، على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكد القرائح فيه، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوهم عليهم معجزاً لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء ومعنى "بلسان قومه" بلغة قومه. وقرئ: بلسن قومه. واللسن واللسان: كالريش والرياش، بمعنى اللغة. وقرئ: بلسن قومه بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة، وهو جمع

لسان، كعماد وعمد وعمد على التخفيف. وقيل: الضمير في قومه لحمد صلى الله عليه وسلم ورووه عن الضحاك. وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم أداها كل نبي بلغة قومه، وليس بصحيح، لأن قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب، فيؤذي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب، وهذا معنى فاسد "فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء" كقوله "فمنكم كافر ومنكم مؤمن" التغابن: 2، لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن. ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألفاف وبالهداية: التوفيق واللفظ، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان "وهو العزيز" فلا يغلب على مشيئته "الحكيم" فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلفظ إلا بأهل اللطف.

"ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج وقومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور".

"أن أخرج" بمعنى أي أخرج؟ لأن الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له أخرج. ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر، لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية. والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل: قولهم أوعز إليه بأن أفعل، فأدخلوا عليها حرف الجر. وكذلك التقدير بأن أخرج قومك "وذكرهم بأيام الله" وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم: قوم نوح وعاد وثمود. ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها، وهو الظاهر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نعماءه وبلاؤه. فأما نعماءه، فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. فلق لهم البحر. وأنا بلاؤه فإهلاك القرون "لكل صبار شكور" يصبر على بلاء الله لشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر وقيل: أراد لكل مؤمن، لأن الشكر والصبر من سجايهم، تنبيهاً عليهم.

"وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويدبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم".

"إذ أنجاكم" ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي إنعامه عليكم ذلك الوقت. فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب بعلينكم؟ قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت: نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها، وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون إذ بدلا من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهو من بدل الاشتمال. فإن قلت: في سورة البقرة "يدبحون" وفي الأعراف "يقتلون" وههنا "ويدبحون" مع الواو، فما الفرق؟ قلت: الفرق أن التدبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التدبيح لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة، ظاهرة كأنه جنس آخر. فإن قلت: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت: تمكينهم وإمهاهم، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من

الله. ووجه آخر وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والحنة جميعاً، قال تعالى "ونبلوكم بالشر والخير فتنة" الأنبياء: 35، وقال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلوا

"وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد".
"وإذ تأذن ربكم" من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: "نعمة الله عليكم" البقرة: 231، كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم. ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم. ونظير تأذن وأذن: تواعد وأوعد، تفضل وأفضل. ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتتراح الشبه. والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: "لئن شكرتم" أو أجرى "تأذن" مجرى، قال: لأنه ضرب من القول. وفي قراءة ابن مسعود: وإذ قال ربكم لئن شكرتم، أي لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح "لأزيدنكم" نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم "ولئن كفرتم" وغمطتم ما أنعمت به عليكم "إن عذابي لشديد" لمن كفر نعمتي.
"وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد".
"وقال موسى" إن كفرتم أنتم يا بني إسرائيل والناس كلهم، فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه وأنتم إليه محاييج، والله غني عن شكركم "الحميد" مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمدوا الحامدون.

"ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب".

"والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله" جملة من مبتدأ وخبر، وقعت اعتراضاً: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح. و"لا يعلمهم إلا الله" اعتراض. والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وعن ابن عباس رضي الله عنه: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون. يعني أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد "فردوا أيديهم في أفواههم" فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل، كقوله: "عضوا عليكم الأنامل من الغيظ" آل عمران: 119، أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه. أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم "إنا كفرنا بما أرسلتم به" أي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق. ألا ترى إلى قوله: "فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به" وهذا قول قوي. أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت. أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذروهم يتكلمون. وقيل: الأيدي، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيادي، أي: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في

أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل "ما تدعوننا إليه" من الإيمان بالله. وقرئ: تدعوننا يادغام النون "مريب" موقع في الريبة أو ذي ريبة، من أرابه، وأراب الرجل، وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر. "قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين". "أفي الله شك" أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه "يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم" أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله: دعوته لينصري، ودعوته ليأكل معي، وقال:

قلبي قلبي يدي مسور

دعوت لما نابني مسوراً

فإن قلت: ما معنى التبعض في قوله: من ذنوبكم؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله: "واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم" نوح: 3 - 4، "يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم" الأحقاف: 31، وقال في خطاب المؤمنين: "هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم" الصف: 10، إلى أن قال "يغفر لكم ذنوبكم" الصف: 12، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للفرقة بين الخطابين ولنا يسوي بين الفريقين في الميعاد وقيل: أراد أن يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها "ويؤخركم إلى أجل مسمى" إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره، يبلغكموه إن آمنتهم، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت "إن أنتم" ما أنتم "إلا بشر مثلنا" لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوة دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة "بسلطان مبين" بحجة بينة، وقد جاءهم رسلهم بالبينات والحجج، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً. "قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيك بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وما لنا إلا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون".

"إن نحن إلا بشر مثلكم" تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، لعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم، واقتصروا على قولهم "ولكن الله يمن على من يشاء من عباده" بالنبوة، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل الاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم "إلا بإذن الله" أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله "وعلى الله فليتوكل المؤمنون" أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولاً وأمروها به، كأهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم. ألا ترى إلى قوله: "وما لنا أن لا نتوكل على الله" ومعناه: وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه "وقد هدانا" وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين، فإن

قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل؟ قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: "فليتوكل المتوكلون" معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم.

"وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد".

"لنُخْرِجَنَّكُمْ"، "أو لنعودن" ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالقين على ذلك. فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها. قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال. أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد "لنهلكن الظالمين" حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول، لأنه ضرب منه. وقرأ أبو حيو: ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتباراً لأوحى، وأن لفظه لفظ الغيبة، ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن. والمراد بالأرض. أرض الظالمين وديارهم، ونحوه "وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها" الأعراف: 127، "وأورثكم أرضهم وديارهم" الأحزاب: 27. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من آذى جاره ورثه الله داره". ولقد عاينت هذا في مدة قرية: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذي في، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحدثتهم به، وسجدنا شكراً لله "ذلك" إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك الأمر حق "لن خاف مقامي" موقفي وهو موقف الحساب، لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام. وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله. والمعنى إن ذلك حق للمتقين، كقوله: "والعاقبة للمتقين" الأعراف: 128.

"واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد، ومن ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ".

"واستفتحوا" واستنصروا الله على أعدائهم "إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح" الأنفال: 19، أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة، كقوله تعالى: "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق" الأعراف: 89، وهو معطوف على "أوحى إليهم وقرئ: واستفتحوا بلفظ الأمر. وعطفه على "لنهلكن" أي: أوحى إليهم ربهم قال لهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا "وخاب كل جبار عنيد" معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا، وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم. وقيل: واستفتح الكفار على الرسل، ظناً منهم بأنهم على الحق والرسول على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه "من ورائه" من بين يديه. قال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا، لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة

حين يبعث ويوقف، فإن قلت: علام عطف "يسقى"؟ قلت: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد، كأنه أشد عذاباً فخصص بالذكر مع قوله: "ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت". فإن قلت: ما وجه قوله تعالى "من ماء صديد"؟ قلت: صديد عطف بيان لما، قال: "يسقى من ماء" فأبهمه إبهاماً ثم بينه بقوله "صديد" وهو ما يسيل من جلود أهل النار "يتجرعه" يتكلف جرعه "ولا يكاد يسيغه" دخل كاد للمبالغة. يعني: ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساعة، كقوله: "لم يكد يراها" النور: 40، أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها "ويأتيه الموت من كل مكان" كأن أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألفت عليه وأحاطت به من جميع الجهات، تفضيلاً لما يصيبه من الآلام. وقيل: "من كل مكان" من جسده حتى من إبهام رجله. وقيل: من أصل كل شعرة "ومن وراءه" ومن بين يديه "عذاب غليظ" أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ. وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد. ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي استمطروا والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسقوا، فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقيه ماء آخر، وهو صديد أهل النار. واستفتحوا على هذا التفسير: كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

"مثل الذين كفروا برهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد".

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيوبه، تقديره: وفيما يقص عليك "مثل الذين كفروا برهم" والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: "أعمالهم كرماد" جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد. ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا برهم. أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ، أي صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عرضه مصون وما له مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من "مثل الذين كفروا" على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر وقرئ: الرياح "في يوم عاصف" جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح، كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة. وإنما السكور لريحها وقرئ: في يوم عاصف بالإضافة وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حيوطها وذهابها هباءً منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجهه: برما طيرته الريح العاصف "لا يقدرُونَ" يوم القيامة "مما كسبوا" من أعمالهم "على شيء" أي لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء "ذلك هو الضلال البعيد" إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب "بالحق" بالحكمة والغرض الصحيح والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.

"ألم ترى أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ ذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز".

وقرئ: خالق السموات والأرض "إن يشأ ذهبكم" أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلماً منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده "وما ذلك على الله بعزيز" بمتعذر، بل هو هين عليه يسير، لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون

مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف، تكون من غير توقف: كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف، وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة وأنه هو الحقيق بأن يعبد، وبخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

"وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص".

"وبرزوا لله" وبرزوا يوم القيامة. وإنما جيء به بلفظ الماضي، لأن ما أخبر به عز وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه: "ونادى أصحاب الجنة الأعراف: 44"، "ونادى أصحاب النار الأعراف: 50"، ونظائر له. ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية. أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه. فإن قلت: لم كتب "الضعفاء" بواو قبل الهمزة؟ قلت: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو. ونظيره "علموا بني إسرائيل" الشعراء: 197، والضعفاء: الأتباع والعوام. والذين استكبروا: ساداتهم وكبرائهم، الذين استتبعوهم واستغفروهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم "تبعاً" تابعين: جمع تابع على تبع، كقولهم: خادم وخدم وغائب وغيب أو ذوي تبع. والتبع: الأتباع، يقال: تبعه تبعاً. فإن قلت: أي فرق بين من في "من عذاب الله" وبينه في "من شيء"؟ قلت: الأولى للتبيين، والثانية للتبويض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز أن تكون للتبويض معاً، بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي: بعض بعض عذاب الله فإن قلت: فما معنى قوله: "لو هدانا الله لهديناكم"؟ قلت: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم. وقولهم: "فهل أنتم مغنون عنا" من باب التبكيت؟ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرّون على الإغناء عنهم، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان هداهم ولم يضلّوهم، إما موركين الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكى الله عنهم وقالوا "لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا" الأنعام: 148، "لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء" النحل: 35، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا. ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين "يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء" المجادلة: 18، وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وقيل: معناه لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنيا عنكم وسلطنا بكم طريق النجاة كما سلطنا بكم طريق الهلكة "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا" مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. ونحوه: "فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم" الطور: 16، وروي أنهم يقولون: تعالوا نجرع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا. فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟ اتصاله من حيث أن عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا

مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطم. أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنيا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقنات من النجاة فقالوا: "ما لنا من محيص" أي منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا جميعاً سواء علينا، كقوله: "ذلك ليعلم أي لم أخنه" يوسف: 52، واخيص يكون مصدرًا كالمغيب والمشيّب. ومكاناً كالمبيت والمصيف. ويقال: حاص عنه وجاض، بمعنى واحد.

"وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني فكرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم".

"لما قضى الأمر" لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار. وروي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في الأشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك "إن الله وعدكم وعد الحق" وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم "ووعدتكم" خلاف ذلك "فأخلفتكم" وما كان لي عليكم من سلطان" من تسلط وقهر فأفسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها "إلا أن دعوتكم" دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان، ولكنه كقولك: ما تحيتم إلا الضرب. "فلا تلوموني ولوموا أنفسكم" حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين. ولو كان الأمر كما تزعم الجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم، فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه. فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به. قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام: ألا ترى إلى قوله: "إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم" كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: "وما كان لي عليكم من سلطان" وهو مثل قول الله تعالى: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين" الحجر: 42، "ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي" لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه. والإصراخ: الإغاثة. وقرئ: بمصرخي بكسر الياء وهي ضعيفة، واستشهد لها بيت مجهول:

قال لها هل لك ياتا فيّ

قالت له ما أنت بالمرضي

وكانه قدر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح، لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة، حيث قبلها ألف في نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟ فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحركت بالكسر على الأصل. قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمثالة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. ما في "بما أشركتموني" مصدرية، و"من قبل" متعلقة بأشركتموني، يعني: كفرت اليوم بأشراككم إياي من

قبل هذا اليوم، أي في الدنيا كقوله تعالى: "ويوم القيامة يكفرون بشرككم" فاطر: 14، ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى: "إنا براء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم" الممتحنة: 4، وقيل: "من قبل" يتعلق بكفرت. وما موصولة، أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتموني به وهو الله عز وجل، تقول: شركت زيدا، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان، أي: جعلني له شريكاً. ونحو ما هذه ما في قولهم: سبحان ما سخر كن لنا. ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قول إبليس، وقوله: "إن الظالمين" قول الله عز وجل، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجهم. وقرئ: فلا يلوموني بالياء على طريقة الالتفات، كقوله تعالى: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم" يونس: 22.

"وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام". وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم، بمعنى: وأدخل أنا وهذا دليل على أنه من قول الله، لا من قول إبليس "ياذن ربهم" متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره. فإن قلت: فبم يتعلق في القراءة الأخرى، وقولك: وأدخلهم أنا ياذن ربهم، كلام غير ملتئم؟ قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: "ياذن ربهم" بما بعده، أي "تحيتهم فيها سلام" ياذن ربهم، يعني: أن الملائكة يحيوهم لإذن ربهم.

"ألم ترى كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون".

قرئ: ألم تر ساكنة الرء، كما قرئ: من يتق، وفيه ضعف "ضرب الله مثلاً" اعتمد مثلاً ووضع. و"كلمة طيبة" نصب بمضمر، أي: جعل كلمة طيبة "كشجرة طيبة" وهو تفسير لقوله: "ضرب الله مثلاً" كقولك: شرف الأمير زيدا: كساه حلة، وحمله على فرس. ويجوز أن ينتصب "مثل الذين" و"كلمة" بضرب، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى جعلها مثلاً ثم قال: "كشجرة طيبة" على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى هي كشجرة طيبة "وأصلها ثابت" يعني في الأرض ضارب بعروقه فيها "وفروعها" وأعلاها ورأسها "في السماء" ويجوز أن يريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس. وقرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت: أي فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى، لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؟ لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل. والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد. وقيل: كل كلمة حسنة كالنسيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله. وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: "إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي" فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيّاً، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم.

وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إنها النخلة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة وقوله: "في السماء" معناه في جهة العلو والصعود، ولم يرد المظلة، كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموحه "تؤتي أكلها كل حين" تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها "ياذن ربها" بتيسير خالقها وتكوينه "لعلهم يتذكرون" لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

"ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار".

"كشجرة خبيثة" كمثل شجرة خبيثة، أي: صفتها كصفتها. وقرئ: ومثل كلمة بالنصب، عطفاً على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك. وقيل: كل كلمة قبيحة.

وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث ونحو ذلك. وقوله: "اجتثت من فوق الأرض" في مقابلة قوله: "أصلها ثابت" إبراهيم: 24، ومعنى "اجتثت" استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجنة كلها "ما لها من قرار" أي استقرار. يقال: قر الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثباتاً شبه بما القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه، من قولهم: الباطل لالج. وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

"يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء".

"بالقول الثابت" الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما. وتثبيتهم في الآخرة: أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر. وقيل معناه الثبات عند سؤال القبر. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ذكر قبض روح المؤمن فقال "ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله: "يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت" "ويضل الله الظالمين" الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: "إنا وجدنا آباءنا على أمة" الزخرف: 22 - 23، وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يشبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل "وفعل الله ما يشاء" أي ما توجهه الحكمة، لأن مشيئة الله تابعة للحكمة، من تثبيت المؤمنين وتأبيدهم، وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلهم، والتخلية بينهم وبين شأهم عند زلهم.

"ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار، وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار".

"بدلوا نعمة الله" أي شكر نعمة الله "كفراً" لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً، ونحوه: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون" الواقعة: 82، أي شكر رزقكم حيث وضعتكم التكذيب موضعه. ووجه آخر: وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبين النعمة موصوفين بالكفر، حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة. وهم أهل مكة: أسكنهم الله حرمة، وجعلهم قوام بيته، وأكرمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم. أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لا يلافتهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم، وعن عمر رضي الله: هم الأفجرون من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر. وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين. وقيل: هم منتصرة العرب: جيلة بن الأيهم وأصحابه "واحلوا قومهم" ممن تابعهم على الكفر "دار البوار" دار الهلاك. وعطف "جهنم" على دار البوار عطف بيان قرئ: ليضلوا بفتح الياء وضمها. فإن قلت: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد فما معنى اللام قلت: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد، كما كان الإكرام في قولك: جنتك لتكرمني، نتيجة انجني، دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً، على طريق التشبيه والتقريب "تمتعوا" أي اذنان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو أمر الشهوة. والمعنى: إن دمت على ما أنتم عليه من الامتنال لأمر الشهوة "فإن مصيركم إلى النار" ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحو "قل تمتع بكفر قليل إنك من أصحاب النار" الزمر: 8.

"قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال".

المقول محذوف لأن جواب "قل" يدل عليه، وتقديره "قل لعبادي الذين آمنوا" أقيموا الصلاة وأنفقوا "يقيموا الصلاة وينفقون" وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا، بمعنى: ليقموا ولينفقوا، ويكون هذا هو المقول، قالوا: وإنما جاز حذف اللام، لأن الأمر الذي هو "قل" عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداءً بحذف اللام، لم يجز فإن قلت: علام انتصب "سراً وعلانية"؟ قلت: على الحال، أي: ذوي سر وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين. أو على الظرف، أي وقتي سر وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، "و" المعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب. والخلال: المخالة. فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه "لا بيع فيه ولا خلال"، قلت: من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بمداياهم أمثالها أو خيراً منها. وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله: "وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى" الليل: 20، فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال، أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالعة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: "لا بيع فيه ولا خلال" بالرفع.

"الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار".

"الله" مبتدأ، و"الذي خلق" خبره، و"من الثمرات" بيان للرزق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات. ويجوز أن يكون "من الثمرات" مفعول أخرج، و"رزقاً" حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من أخرج، لأنه في معنى رزق "بأمره" بقوله كمن "دائبين" يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات "وسخر لكم الليل والنهار" يتعاقبان خلفه لمعاشكم وسباتكم "وآتاكم من كل ما سألتموه" من للتبعيض، أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه، نظراً في مصالحكم. وقرئ: من كل بالتنوين، وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون ما موصولة، على: وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعاشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال "لا تحصوها" لا تحصوها ولا تطبقوا عددها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال. وأما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله "لظلوم" يظلم النعمة ياغفال شكرها "كفار" شديد الكفران لها. وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

"وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبي وابني أن نعبد الأصنام، رب إنهم أضلّلن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم".

"هذا البلد" يعني البلد الحرام، زاده الله آمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام "آمناً" ذا أمن. فإن قلت: أي فرق بين قوله: "اجعل هذا بلداً آمناً" البقرة: 126، وبين قوله: "اجعل هذا البلد آمناً"؟ قلت: قد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرج من صفته كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً "واجنبي" وقرئ: واجنبي، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، واجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد جنبني وأجنبي، والمعنى: ثبتنا وأدمننا على اجتناب عبادتها "وبني" أراد بنيه من صلبه وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام، فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً، واحتج بقوله: "واجنبي وبني" "أن نعبد الأصنام" إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم، قالوا: البيت حجر، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمون الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت "إنهم أضلّلن كثيراً من الناس" فأعوذ بك أن تعصمني وبني من ذلك، وإنما جعلن مضلات، لأن الناس ضلوا بسببهن، فكأنهن أضلّلنهم، كما تقول: فتتهدم الدنيا وغرقهم، أي افتتنوا بها واغترأوا بسببها "فمن تبعني" على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي "فإنه مني" أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملاسته لي، وكذلك قوله: "من غشنا فليس منا" أي ليس بعض المؤمنين، على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم "ومن عصاني فإنك غفور رحيم" تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي. وقيل: معناه ومن عصاني فيما دون الشرك.

"ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون".

"من ذريتي" بعض أولادي وهم إسماعيل ومن ولد منه "بواد" هو وادي مكة "غير ذي زرع" لا يكون فيه شيء من زرع قط، كقوله: "قرآناً عربياً غير ذي عوج" الزمر: 28، بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم، لأن الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرم لا يحل انتهاكه، أو لأنه حرم على الطوفان أي منع منه، كما سُمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستول عليه "ليقيموا الصلاة" اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، وبعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعين بمجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستزئين بالرحمة التي آثرت بها سكان حرمك "أفئدة من الناس" أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض، ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لرحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل "من" لاذحموا عليه حتى الروم والترك والهند ويجوز أن يكون من للابتداء، كقولك: القلب مني سقيم، تريد قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس، وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتكثير أفئدة، لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأشدة. وقرئ: أفدة بوزن عاقدة. وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر، في أدور. والثاني: أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت، أي جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم. وقرئ: أفدة وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين. وأن يكون من أفد "تهوى إليهم" تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً من قوله:

يهوي مزارعها هوي الأجدال

وقرئ: تهوى إليهم، على البناء للمفعول، من هوى إليه وأهواه غيره. وتهوى إليهم، من هوى يهوي إذا أحب، ضمن معنى تترع فعدي تعديته "وارزقهم من الثمرات" مع سكانهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد "لعلهم يشكروا" النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرماً آمناً تجي إليه. ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريها الله بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب، متعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

"ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ري لسميع الدعاء".

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى "إنك تعلم ما نخفي وما نعلن" تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه، لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك. والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجلاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده، رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة. وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجاح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها. وقيل: ما تخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء. وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم. قالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف "وما يخفي على الله من شيء" من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله: "وكذلك يفعلون" النمل: 134 أو من كلام إبراهيم، يعني: وما يخفي على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان. ومن للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفي عليه شيء ما. "على" في قوله: "على الكبير" بمعنى مع كقوله:

أعلم من حيث تؤكل الكتف

إني على ما ترين من كبرى

وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر. روي أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين. وإسحاق لتسعين. وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بمبة الولد فيها أعظم، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم "إن ربي لسميع الدعاء" كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه. قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ومنه: سمع الله لمن حمده وفي الحديث.

"ما أذن الله لشيء كإذنه لني يتغنى بالقرآن" فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله لسميع الدعاء. وقد ذكر سيويوه فيجلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، كقولك: هذا ضروب زيدا، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أموراً، ورقيم أباه ويجوز أن يكون من إضافة فاعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي. والمراد سماع الله.

"رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب".

"ومن ذريتي" وبعض ذريتي، عطفاً على المنصوب في اجعلني، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذريته كفار، وذلك قوله: "لا ينال عهدي الظالمين" البقرة: 124. "وتقبل دعائي" أي عبادتي "وأعزلكم وما تدعون من

دون الله" مريم: 48، في قراءة أبي ولأبوي. وقرأ سعيد بن جبير: ولو الذي، على الأفراد، يعني أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولولدي يعني إسماعيل وإسحاق. وقرأ: لولدي بضم الواو. والولد بمعنى الولد، كالعدم والعدم. وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد. وفي بعض المصاحف: ولذريتي. فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكنا كافرين؟ قلت: هو من مجوزات العقل لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف. وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء وقيل: بشرط الإسلام. ويأباه قوله "إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك" الممتحنة: 4، لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم "يوم يقوم الحساب" أي يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوءها، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل "واسأل القرية" يوسف: 82، وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات. وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم "ربنا إني أسكنت" الآية إبراهيم: 37، رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقاً للحرم. "ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء".

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل "ولا تحسبن الله غافلاً"؟ قلت: إن كان خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان. أحدهما التثيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: "ولا تكونن من المشركين" الأنعام: 14، "ولا تدع مع الله إلهاً آخر" الشعراء: 213، كما جاء في الأمر "يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله" النساء: 136، والثاني: أن المراد بالنهي عن حسبانته غافلاً، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: "والله بما تعملون عليم" البقرة: 283، يريد الوعيد. ويجوز أن يراد: ولا تحسبته يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقيض والقطمير، وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسليية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه وقرأ: يؤخرهم بالنون والياء "تشخص فيه الأبصار" أي أبصارهم لا تفر في أماكنها من هول ما ترى "مهطعين" مسرعين إلى الداعي. وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف "مقنعي رؤوسهم" رافعيها "لا يرتد إليهم طرفهم" لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أي: لا يطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان. أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جرأة. ويقال للأحمق أيضاً: قلبه هواء. قال زهير:

من الظلمان جؤجؤه هواء

لأن النعام مثل في الجبن والحمق. وقال حسان:

فأنت مجوف نخب هواء

وعن ابن جريج "وأفندتم هواء" صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.
"وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم
تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم
وضربنا لكم الأمثال، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، فلا تحسبن الله
مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام".

"يوم يأتيهم العذاب" مفعول ثان لأنذر وهو يوم القيامة. ومعنى "أخرنا إلى أجل قريب" ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى
أمد وحد من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك. أو أريد باليوم: يوم هلاكهم
بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم
ربهم إلى أجل قريب، كقوله: "لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق" المنافقون: 10، "أولم تكونوا أقسمتم" على إرادة
القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان
الحال حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً و"ما لكم" جواب القسم، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله "أقسمتم" ولو حكى
لفظ المقسمين لقليل: ما لنا "من زوال" والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا
تنتقلون إلى دار أخرى يعني كفرهم بالبعث، كقوله: "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت" النحل: 38،
يقال: سكن الدار وسكن فيها. ومنه قوله تعالى: "وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم" لأن السكنى من
السكون الذي هو اللبث، والأصل تعديه بفي، كقولك: قر في الدار وغنى فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون
خاص تصرف فيه فقليل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها. ويجوز أن يكون: سكنوا من السكون، أي: قروا
فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله
وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا "وتبين لكم" بالإخبار والمشاهدة "كيف" أهلكناهم وانتقمنا منهم.
وقرى: ونبين لكم، بالنون "وضربنا لكم الأمثال" أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وير في الغرابة كالأمثال
المضروبة لكل ظالم "وقد مكروا مكرهم" أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم "وعند الله مكرهم" لا يخلو
إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول، على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم
منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: "وعند الله مكرهم" الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه
يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون "وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال" وإن عظم مكرهم وتبالغ في
الشدة، فضررب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته، أي: وإن كان مكرهم مسوياً لإزالة الجبال، معداً لذلك، وقد
جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها، كقوله تعالى: "وما كان الله ليضيع إيمانكم" البقرة: 143، والمعنى: ومحال أن
تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه، لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً. وتنصره قراءة

ابن مسعود: وما كان مكرهم. وقرئ: "لتزول" بلام الابتداء، على: "وإن كان مكرهم" من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقل من أماكنها. وقرأ علي وعمر رضي الله عنهما: وإن كاد مكرهم "مخلف وعد رسله" يعني قوله: "إنا لننصر رسلنا" غافر: 51، "كتب الله لأغلبن أنا ورسلي" المجادلة: 21، فإن قلت: هلاً قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟ قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، كقوله: "إن الله لا يخلف الميعاد" آل عمران: 9، ثم قال: أرسله، ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟ وقرئ: مخلف وعده رسله، بجر الرسل ونصب الوعد. وهذه في الضعف كمن قرأ "قتل أولادهم شركائهم" الأنعام: 137، "العزیز" غالب لا يماكر "ذو انتقام" لأوليائه من أعدائه.

"يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماء وبروزا لله الواحد القهار، وترى الجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد، سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار، ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب".

"يوم تبدل الأرض" انتصابه على البدل من يوم يأتيهم. أو على الظرف للانتقام. والمعنى: يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة، وكذلك السموات. والتبديل: التغيير، وقد يكون في الذوات كقولك: بدلت الدراهم دنائير ومنه "بدلناهم جلوداً غيرها" النساء: 56، و"بدلناهم بجنتيهم جنتين" سبأ: 16، وفي الأوصاف، كقولك: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: "فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات" الفرقان: 70، واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقليل: تبدل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها. وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير، وأنشد:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

وتبدل السماء بانتشار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً. وقيل: يخلق بدنها أرض وسموات أخرى. وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب. وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف. وقرئ: يوم تبدل الأرض، بالنون. فإن قلت: كيف قال "الواحد القهار"؟ قلت: هو كقوله "لمن الملك اليوم لله الواحد القهار" غافر: 16، لأن الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدة "مقرنين" قرن بعضهم مع بعض. أو مع الشياطين. أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين. وقوله: "في الأصفاد" إما أن يتعلق بمقرنين، أي: يقرنون في الأصفاد. وإما أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرنين مصفدين. والأصفاد: القيود وقيل الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وزيد الخيل قد لاقى صفاداً يعض بساعد وبعض ساق

القطران: فيه ثلاثة لغات: قطران، وقطران وقطران: بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربي، فيحرق الجرب بحره وحدته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف،

ومن شأنه أن يسرع في اشتغال النار، وقد يستسرح به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلائه لهم كالسراويل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لدع القطران. وحرقتة، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وذن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فينبه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينبغي من عذابه، وقرئ: من قطران والقطر: النحاس أو الصفر المذاب. والآتي: المتناهي حره "تغشى وجوههم النار" كقوله تعالى: "أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب" الزمر: 24، "يوم يسحبون في النار على وجوههم" القمر: 48، لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه، ولذلك قال: "تطلع على الأفئدة" الهمة: 7، وقرئ: وتغشى وجوههم، بمعنى تتغشى: أي يفعل بالجرمين ما يفعل "ليجزى الله كل نفس مجرمة" ما كسبت" أو كل نفس من مجرمة ومطبعة لأنه إذا عاقب الجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

"هذا بلاغ للناس لينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب".
 "هذا بلاغ للناس" كفاية في التذكير والموعظة، يعني بهذا ما وصفه من قوله "ولا تحسبن" إلى قوله: "سريع الحساب".
 "ولينذروا" معطوف على محذوف، أي لينصحووا ولينذروا "به" بهذا البلاغ. وقرئ: ولينذروا بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعد له "وليعلموا أنما هو إله واحد" لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد، لأن الخشية أم الخير كله. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة إبراهيم أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد".

سورة الحجر

مكية وهي تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين".

"تلك" إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب، والقرآن المبين: السورة. وتنكير القرآن للتفخيم. والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين؟ كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

"ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون".
 قرئ: ربما وربما بالتشديد. وربما وربما، بالضم والفتح مع التخفيف. فإن قلت: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ قلت: لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمزلة الماضي المقطوع به في تحقيقه، فكانه قيل: ربما

ود. فإن قلت: متى تكون ودادتهم؟ قلت: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين. وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضاً باب من الودادة. فإن قلت: فما معنى التقليل؟ قلت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تدممه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: ولو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل، لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون، كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه، كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة، فبالخري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة "لو كانوا مسلمين" حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلن. ولو قيل: حلف بالله لأفعلن ولو كنا مسلمين لكان حسناً سديداً وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تنموا، فلذلك قلل "ذرهم" يعني اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم "يأكلوا ويتمتعوا" بديناهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وأن لا يلحقوا في العاقبة إلا خيراً "فسوف تعلمون" سوء صنيعهم. والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاناة ما يندرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاضهم قبل ذلك فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالي في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا نداماً في العاقبة. وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه. وفيه تنبيه على أن إثارة التلذذ والتنعيم وما يؤذي إليه طول الأمل. وهذه هجيرة أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

"وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم، ما تسبق من أمة أجلها".

"ولها كتاب" جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى: "وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرين" الشعراء: 208، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب. كتاب "معلوم" مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين، ألا ترى إلى قوله "ما تسبق من أمة أجلها" في موضع كتابها، وأنت الأمة أولاً ثم ذكرها آخرها حملاً على اللفظ والمعنى وقال: "وما يستأخرون" بحذف عنه لأنه معلوم.

"وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون".

قرأ الأعمش: يا أيها الذي ألقى عليه الذكر وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون "إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون" الشعراء: 27، وكيف يقرون بتزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون.

والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع. وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها "فبشرهم بعذاب أليم" آل عمران: 21، "إنك لأنت الحليم الرشيد" هود: 87، وقد يوجد كثيراً في كلام العجم، والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله نزل عليك الذكر.

"لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين".

"لو" ركبت مع لا وما لمعنين: معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى التحضيض، وأما هل فلم تركب إلا مع لا وحدها للتحضيض: قال ابن مقبل:

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

والمعنى: هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك، كقوله تعالى "لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً" الفرقان: 7، أو: هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً كما كانت تأتي الأمم المكذبة برسولها؟ "ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين".
قرئ: تنزل بمعنى تنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل، و"نزل الملائكة": بالنون ونصب الملائكة "إلا بالحق" إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدوهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى "وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق" الحجر: 85، وقيل: الحق الوحي أو العذاب. وإذا جواب وجزاء، لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما آخر عذابهم.
"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

"إنا نحن نزلنا الذكر" رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: "يا أيها الذي نزل عليه الذكر" الحجر: 6، ولذلك قال: إنا نحن، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وبين يديه ومن حلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها. وإنما استحفظها الربانيين والأخبار فاختلّفوا فيما بينهم بغياً فكان التحريف ولم يكمل القرآن إلى غير حفظه. فإن قلت: فحين كان قوله "إنا نحن نزلنا الذكر" ردّاً لإنكارهم واستهزائهم، فكيف اتصل به قوله "وإنا له لحافظون"؟ قلت: قد جعل ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده آية، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه. وقيل: الضمير في له لرسول الله في كقوله تعالى "والله يعصمك" المائدة: 67.

"ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون".
"في شيع الأولين" في فرقهم وطوائفهم. والشيع: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة. ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولاً فيما بينهم "وما يأتيهم" حكاية حال ماضية، لأن ما لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

"كذلك نسلكه في قلوب الجرمين، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين".
يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته. وقرئ: نسلكه والضمير للذكر، أي: مثل ذلك السلك، ونحوه: نسلك الذكر في "قلوب الجرمين" على معنى أنه يلقيه في قلوبهم مكذباً مستهزئاً به غير مقبول، كما لو أنزلت بليهم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللائم، تعني مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير

مقضية. ومحل قوله "لا يؤمنون به" النصب على الحال، أي غير مؤمن به، أو هو بيان لقوله: "كذلك نسلكه". "سنة الأولين" طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسولهم وبالذكر المتزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

"ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون".
قريئ: يعرجون بالضم والكسر. و"سكرت" حيرت أو حبست من الإبصار، من السكر أو السكر. وقريئ: سُكِرَتْ بالتخفيف أي حبست كما يحبس النهر من الجري. وقريئ: سَكِرَتْ من السكر، أي حارت كما يحار السكران.
والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك. وقيل: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: إنما، ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار.

"ولقد جعلنا في السماء بروجها وزيناها للناظرين، وحفظناها من كل شيطان رجيم، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها ثم كل شيء موزون، وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين".

"مَنْ استرقَ" في محل النصب على الاستثناء. وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحبون عن السموات، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها "شهاب مبين" ظاهر للمبصرين "موزون" وزن بميزان الحكمة، وقدر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة، وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها "معاش" بياء صريحة، بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة، أو إخراج الياء بين بين. وقد قريئ: معاش بالهمزة على التشبيه "ومن لستم له برازقين" عطف على معاش، أو على محل لكم، كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معاش، وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو: وجعلنا لكم معاش ولمن لستم له برازقين.

وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطنون، فإن الله هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرزاقون. ولا يجوز أن يكون مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في "لكم" لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

"وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم".

ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيهِ إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له، فحُضِرَ الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

"وأرسلنا الرياح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين".

"لواقح" فيه قولان، أحدهما: أن الريح لاقح إذا جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر كما قيل للتي لا تأتي بخير: ريح عقيم. والثاني: أن اللواقح بمعنى الملاقح، كما قال:

ومختبظ مما تطيح الطوائح

يريد المطاوح جمع مطيحة. وقرئ: وأرسلنا الريح، على تأويل الجنس "فأسقيناكموه" فجعلناه لكم سقيا "وما أنتم له بخازنين"، نفى عنهم ما أثبتته لنفسه في قوله: "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه" كأنه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين: دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم.

"وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون، ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين، وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم".

"ونحن الوارثون" أي الباقيون بعد هلاك الخلق كله. وقيل للباقي وارث استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فاته. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه: "واجعله الوارث منا" "ولقد علمنا" من استقدم ولادة وموتاً، ومن تأخر من الأولين والآخرين. أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد. أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر. وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمتأخرين. وروي: أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها، وبعض يستأخر ليبصرها فزلت، "هو يحشرهم" أي هو وحده القادر على حشرهم، والعالم بحشرهم مع إفراط كثرهم وتباعد أطراف عددهم "إنه حكيم عليم" باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

"ولقد خلقنا الإنسان من صلصل من حمأ مسنون، والجآن خلقناه من قبل من نار السموم".

الصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار. قالوا: إذا توهمت في صوته مدا فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف صل إذا أنتن. والحمأ: الطين الأسود المتغير.

والمسنون: المصور، من سنة الوجه، وقيل: المصبوب المفرغ، أي: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المدبوبة في أمثلتها. وقيل: المنتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فالذي يسيل بينهما سنين، ولا يكون إلا منتناً "من حمأ" صفة لصلصال، أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق "مسنون" بمعنى مصور، أن يكون صفة لصلصال، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر "والجآن" للجن كآدم للناس. وقيل: هو إبليس. وقرأ الحسن وعمر بن عبيد: والجآن بالهمزة "من نار السموم" من نار الحر الشديد النافذ في المسام. قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار التي خلق الله منها الجآن. "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشر من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أي أن يكون مع الساجدين، قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع

الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين، قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم، قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين، قال هذا صراط على مستقيم، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين، وإن جهنم لموعدهم أجمعين، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم".

"وإذ قال ربك" واذكر وقت قوله "سويته" عدلت خلقته وكملتها وهياكلها لنفخ الروح فيها. ومعنى "ونفخت فيه من روحي" وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه. واستثنى إبليس من الملائكة، لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب كقولك: رأيتهم إلا هنداً. و"أبي" استئناف على تقدير قول قائل بقول: هلا سجد؟ فقول: أبي ذلك واستكبر عنه. وقيل: معناه ولكن إبليس أبي. حرف الجر مع أن محذوف. وتقديره "ما لك" في "ألا تكون مع الساجدين" بمعنى أي غرض لك في إياك السجود. وأي داع لك إليه. اللام في "لأسجد" لتأكيد النفي. ومعناه: لا يصح مني وينافي حالي. ويستحيل أن أسجد لبشر "رجيم" شيطان من الذين يرهجون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؟ لأن من يطرد يرحم بالحجارة. ومعناه: ملعون، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في "منها" راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حداً للجنة، إما لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم، كقوله "ما دامت السموات والأرض" هود: 107، في التأبيد. وإما أن يراد أنك مذموم مدعو عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين، من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما يُنسى اللعن معه. و"يوم الدين" و"يوم يبعثون" و"يوم الوقت المعلوم" الحجر: 38، في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك، وأنظر إلى آخر أيام التكليف "بما أغويتني" الباء للقسمة. وما مصدرية وجواب القسم "لأزينن" المعنى: أقسم يا غواثك إياي لأزينن لهم. ومعنى إغوائه إياه: تسبيبه لغيه، بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فأفضى ذلك إلى غيه. وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به، ونحو قوله "بما أغويتني لأزينن لهم" قوله: "فبعزتك لأغوينهم أجمعين" ص: 82، في أنه إقسام، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثاني إقسام بفعله، وقد فرق الفقهاء بينهما. ويجوز أن لا يكون قسماً، ويقدر قسم محذوف، ويكون المعنى: بسبب تسبيك لإغوائي أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم، بأن أزين لهم المعاصي وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم "في الأرض" في الدنيا التي هي دار الغرور، كقوله تعالى "أخلد إلى الأرض واتبع هواه" الأعراف: 176، أو أراد أني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر. أو أراد: لأجعل مكان التزيين عندهم الأرض، ولأوقع تزييني فيها، أي: لأزيننها في أعينهم ولأحدثهم بأن الزينة في الدنيا وحدها، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمثنوا إليها دونها. ونحوه:

.....يجرح في عراقبها نصلي

استثنى المخلصين، لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه. أي "هذا" طريق حق "علي" أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته. وقرئ: علي وهو من علو الشرف والفضل "لموعدهم" الضمير للغاوين. وقيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها، فأعلاها للموحدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن جهنم لمن ادعى الربوبية، ولظى لعبد النار، والخطمة لعبد الأصنام وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين. وقرئ: جزء بالتخفيف والتثقل. وقرأ الزهري: جز بالتشديد، كأنه حذف الهزمة وألقى حركتها على الزاي، كقولك: خبء في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد، كقولهم: الرجل، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

"إن المتقين في جنات وعيون، ادخلوها في سلام آمين، ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصب وما هم فيها بمخرجين".

المتقي على الإطلاق: من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهي عنه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الكفر والفواحش، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها "ادخلوها" على إرادة القول. وقرأ الحسن: أدخلوها "بسلام" سالمين أو مسلماً عليكم: تسلم عليكم الملائكة. الغل: الحقد الكامن في القلب، من انغل في جوفه وتغلغل، أي: إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر. نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم. وعن علي رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. وعن الحرث الأعور: كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له علي: مرحباً بك يا ابن أخي. أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ" فقال له قائل: كلا، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد، فقال: فلمن هذه الآية لا أم لك؟ وقيل: معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب. و"إخواناً" نصب على الحال. و"على سرر متقابلين" كذلك. وعن مجاهد. تدور بهم الأسرة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

"نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم".
لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه "نبي عبادي" تقريراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس. وعن ابن عباس رضي الله عنه: غفور لمن تاب، وعذابه لمن لم يتب. وعطف "ونبيهم" على نبي عبادي، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من الجرمين، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم.
"ونبيهم عن ضيف إبراهيم، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام" عليهم، قال أبشركوني على أن مسني الكبر فبم تبشرون، قالوا بشركناك بالحق فلا تكونن من القانطين، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون".

"سلاماً" أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمت سلاماً "وَجِلُونَ" خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. وقرأ الحسن: لا توجل بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه. وقرئ: لا تأجل. ولا توجل، من واجله بمعنى أوجله. وقرئ: نبشرك بفتح النون والتخفيف "إنا نبشرك" استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل: أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل. يعني "أبشركموني" مع مس الكبر، بأن يولد لي. أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر "فيم تبشرون" هي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأي أعجوبة تبشرونني أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير مقصور في العادة فبأي شيء تبشرون يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء، لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة يعني: بأي طريقة تبشرونني بالولد، والبشارة به لا طريقة لها في العادة. وقوله "بشرك بالحق" يحتمل أن تكون الباء فيه صلة، أي: بشرك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعدته، وأنه قادر على أن يوجد ولداً من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر. وقرئ: تبشرون بفتح النون وبكسرهما على حذف نون الجمع، والأصل تبشرونن، وتبشرون بإدغام نون الجمع في نون العمداد. وقرئ: من القنطين من قنط يقنط، وقرئ: ومن يقنط، بالحركات الثلاث في النون، أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون، كقوله: "لا يبيس من روح الله إلا القوم الكافرون" يوسف: 87، يعني: لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله.

"قال فما خطبكن أيها المرسلون، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، إلا آل لوط إنا لمنجوههم أجمعين، إلا امرأته إنما لمن الغاوين".

فإن قلت قوله تعالى: "إلا آل لوط"، استثناء متصل أو منقطع؟ قلت، لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم، فيكون منقطعاً، لأن القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنس وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين، فيكون متصلاً، كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، كما قال "فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين" الذاريات: 36. فإن قلت: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قلت: نعم، وذلك أن آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً. ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمي. في أنه في معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول. فإن قلت: فقوله "إنا لمنجوههم" بم يتعلق على الوجهين؟ قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط، لأن المعنى. لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوههم. فإن قلت: فقوله: "إلا امرأته" مم استثنى؟ وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت: استثنى من الضمير المجرور في قوله "لننجوهم" وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؟ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط، إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول

المطلق: أنت طالق ثلاثاً، إلا اثنتين، إلا واحدة. وفي قول المقر: لفلان علي عشرة دراهم، إلا ثلاثة، إلا درهماً. فأما في الآية فقد اختلف الحكماء، لأن "إلا آل لوط" متعلق بأرسلنا، أو بمجرمين، و"إلا امرأته" قد تعلق بمنجوعهم، فأني يكون استثناء من استثناء. وقرئ: لمنجوعهم بالتخفيف والتثقيب. فإن قلت: لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله "قدرنا إنما لمن الغابرين" والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قلت: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم. فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؟ قلت: لما هم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدير والأمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه. وقرئ: قدرنا بالتخفيف.

"فلما جاء آل لوط المرسلون، قال إنكم قوم منكرون، قالوا بل جنناك بما كانوا فيه يمترون، وآتيناك بالحق وإنا لصادقون، فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون، وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين".

"منكرون" أي تنكروكم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشر، بدليل قوله: "بل جنناك بما كانوا فيه يمترون" أي ما جنناك بما تنكرونا لأجله، بل جنناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بتزوله، فيمترون فيه ويكذبونك "بالحق" باليقين من عذابهم "وإنا لصادقون" في الإخبار بتزوله بهم. وقرئ: فأسر بقطع الهمزة ووصلها، من أسرى وسرى. وروى صاحب الإقليد: فسر، من السير والقطع في آخر الليل. قال:

وقيل الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل: هو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل. فإن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيمهم عن الالتفات؟ قلت قد بعث الله الهلاك على قومه، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجراً فلم يكن له بد من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة الحذورة، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما يتزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهجرة ويطيخوا عن مساكنهم، ويمضوا قدماً غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي إليه أحادعه، كما قال:

تلفت نحو حيي حتى وجدتنني وجعت من الإصغاء لبيتاً وأخذعا

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف، لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة "حيث تأمرون" قيل: هو مصر، وعدي "وامضوا" إلى "حيث" تعديته إلى الطرف المبهم، لأن "حيث" مبهم في الأمكنة، وكذلك الضمير في "تأمرون" وعدي "وقضينا" بإلى لأنه ضمن معنى: أوحينا، كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً. وفسر "ذلك الأمر" بقوله "إن دابر هؤلاء مقطوع" وفي إجماله وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له. وقرأ

الأعمش: إن بالكسر على الاستئناف كأن قاتلاً قال: أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إن دابر هؤلاء. وفي قراءة ابن مسعود: وقلنا إن دابر هؤلاء. ودابرهم: آخرهم، يعني: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد. "وجاء أهل المدينة يستبشرون، قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا الله ولا تخزون، قالوا أولم نهك عن العالمين، قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون، فأخذتهم الصيحة مشرقين، فجعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، إن في ذلك لآيات للمتوسمين، وإنما لسبيل مقيم، إن في ذلك لآية للمؤمنين".

"أهل المدينة" أهل سدوم التي ضرب بقاضيه المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة "فلا تفضحون" بفضيحة ضيفي، لأن من أسيء إلى ضيفه أو جاره فقد أسيء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم "ولا تخزون" ولا تذلون ياذلال ضيفي، من الخزي وهو الهوان. أو ولا تشوروا بي، من الخزية وهي الحياء "عن العالمين" عن أن تحير منهم أحداً، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان يقوم صلى الله عليه وسلم بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرض له، فأوعده وقالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين. وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا فهو أن يضيف أحداً قط "هؤلاء بناتي" إشارة إلى النساء، لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونسأؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهن، وخلوا بني فلا تتعرضوا لهم "إن كنتم فاعلين" شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم "لعمرك" على إرادة القول، أي قالت الملائكة للوط عليه السلام: لعمرك "إنهم لفي سكرتهم" أي غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات "يعمهون" يتحIRON، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك، وقيل: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمر والعمر واحد، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل. في قولك: بالله. وقرئ: في سكرهم وفي سكراتهم "الصيحة" صيحة جبريل عليه السلام "مُشرقين" داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس "من سجيل" قيل: من طين، عليه كتاب من السجل، ودليله قوله تعالى: "حجارة من طين مسومة عند ربك" الذاريات: 33 - 34، أي معلمة بكتاب "للمتوسمين" للمتفرسين المتأملين. وحقيقة المتوسمين النظار المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء. يقال: توسمت في فلان كذا، أي عرفت وسمه فيه. والضمير في "عاليها سافلها" لقري قوم لوط "وإنها" وإن هذه القرى يعني آثارها "لسبيل مقيم" ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش كقوله: "وإنكم لتمرون عليهم مصبحين" الصافات: 137.

"وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين، فانتقمنا منهم وإنما ليأمام ميين". "أصحاب الأيكة" قوم شعيب "وإنهما" يعني قري قوم لوط والأيكة. وقيل: الضمير للأيكة ومدين، لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما "ليأمام ميين" لطريق واضح، والإمام اسم لما

يؤتم به، فسمي به الطريق ومطمى البناء واللوح الذي يكتب فيه، لأنها مما يؤتم به.

"ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين، وكانوا ينتحون من الجبال بيوتاً آمنين، فأخذتهم الصيحة مصبحين، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون".

"أصحاب الحجر" ثمود، والحجر واديهم، وهو بين المدينة والشأم "المرسلين" يعني بتكذيبهم صالحاً، لأن من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين كما قيل: الخبيون في ابن الزبير وأصحابه.

وعن جابر: مررنا مع النبي صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم. مثل ما أصاب هؤلاء" ثم زجر النبي صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها "آمين" لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بناؤها، ومن نقب للصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر. أو آمين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم منه "ما كانوا يكسبون" من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

"وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل".

"إلا بالحق" إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة، لا باطلاً وعبثاً. أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال

"وإن الساعة لآتية" وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك "فاصفح" فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء.

وقيل: هو منسوخ بآية السيف. ويجوز أن يراد به المخالفة فلا يكون منسوخاً.

"إن ربك هو الخلاق العليم".

"إن ربك هو الخلاق" الذي خلقك وخلقهم، وهو "العليم" بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم. أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح. وفي مصحف أبي وعثمان: إن ربك هو الخالق وهو يصلح للقليل والكثير، والخلاق للكثير لا غير، كقولك: قطع الثياب. وقطع الثوب والثياب.

"ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم".

"سبعاً" سبع آيات وهي الفاتحة. أو سبع سور وهي الطوال، واختلف في السابعة فقل: الأنفال وبراءة، لأنهما في حكم سورة واحدة، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية. وقيل سورة يونس. وقيل: هي آل حم، أو سبع صحائف وهي الأسباع. و"المثاني" من التثنية وهي التكرير، لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الشاء لاشتغالها على ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية. وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الشاء، كأنها تشني على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى. ومن إما للبيان أو للتبويض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الأسباع. ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني، لأنها تشني عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة. ويكون القرآن بعضها، فإن قلت: كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قلت: إذا عني بالسبع الفاتحة

أو الطوال، فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل. ألا ترى إلى قوله: "بما أوحينا إليك هذا القرآن" يعني سورة يوسف: وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين، وهو الشاء أو التشية والعظم.

"لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين، وقل إني أنا النذير المبين". أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له "إلى ما متعنا به أزواجاً منهم" أصنافاً من الكفار. فإن قلت: كيف وصل هذا بما قبله؟ قلت: يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة، وهي القرار العظيم، فعليك أن تستغني به، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا. ومنه الحديث: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" وحديث أبي بكر "من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغر عظيمًا وعظم صغيراً" وقيل: وافت من بصرى وأذرعات: سبع قوافل لليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البر والطيب والجوهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع "ولا تحزن عليهم" أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام ويتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء "وقل" لهم "إني أنا النذير المبين" أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم.

"كما أنزلنا على المقتسمين، الذين جعلوا القرآن عضين".

فإن قلت: بم تعلق قوله: "كما أنزلنا"؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما، أن يتعلق بقوله: "ولقد آتيناك" الحجر: 87، أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون "الذين جعلوا القرآن عضين" حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاققسموه إلى حق وباطل، وعضوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخرون: سورة آل عمران لي، ويجوز أن يراد بالقرآن: ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأن اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقولهم سحر وشعر وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم. والثاني أن يتعلق بقوله: "وقل إني أنا النذير المبين" الحجر: 89، أي: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز، لأنه إخبار بما سيكون وقد كان. ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير، أي: أنذر المعصين الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدها في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر. ويقول الآخرون: كذاب، والآخرون: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بأفات، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام،

والاقتسام بمعنى التقاسم. فإن قلت: إذا علقت قوله: "كما أنزلنا" بقوله: "ولقد آتيناك" الحجر: 87، فما معنى توسط "لا تمدن" الحجر: 88، إلى آخره بينهما؟ قلت: لما كان ذلك تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدد لمعنى التسليية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين "عضين" أجزاء، جمع عضة، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤية:

وليس دين الله بالمعضي

وقيل: هي فعلة، من عضهته إذا بهته وعن عكرمة: العضة السحر، بلغة قريش، يقولون للساحر عاضهة. ولعن النبي صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة، نقصاها على الأول واو، وعلى الثاني هاء. "فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون". "لنسألنهم" عبارة عن الوعيد. وقيل يسألهم سؤال تقرير. وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين: عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين. "فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين". "فاصدع بما تؤمر" فاجهر به وأظهره. يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، كقولك: صرح بها، من الصديع وهو الفجر، والصدع في الزجاجة: الإبانة. وقيل: "فاصدع" فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر، والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار، كقوله:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ويجوز أن تكون ما مصدرية، أي بأمرك مصدر من المبني للمفعول. "إنا كفييناك المستهزين، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون". عن عروة بن الزبير في المستهزين: هم خمسة نفر ذوو أستان وشرف: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحرث بن الطلائة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ماتوا كلهم قبل بدر. قال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أكفيكمهم، فأوماً إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأوماً إلى أخص العاص بن وائل، فدخلت فيها شوكة، فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله، حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب، فعمي وأشار إلى أنف الحرث بن قيس، فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات. "ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين".

"بما يقولون" من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن "فسبح" فافزع فيما نابك إلى الله، والفزع إلى الله: هو الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم. ودم على عبادة ربك "حتى يأتيك اليقين" أي الموت، أي ما

دمت حياً فلا تخل بالعبادة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه كان إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم.

??سورة النحل

مكية، وهي مائة وثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

"أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون.

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكديماً بالوعد، فقليل لهم "أتى أمر الله" الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه "فلا تستعجلوه" روي أنه لما نزلت "اقتربت الساعة" القمر 1، قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً، فترلت "اقتربت للناس حسابهم" الأنبياء 1، فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فترلت "أتى أمر الله" فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم، فترلت "فلا تستعجلوه" فاطمأنوا وقرئ: "تستعجلوه" بالتاء والياء "سبحانه وتعالى عما يشركون" تبرأ عز وجل عن أن يكون له شريك، وأن تكون آهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم. على أن "ما" موصولة أو مصدرية، فإن قلت: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قلت: لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك. وقرئ: "تشركون"، بالتاء والياء.

"يتزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون" قرئ: "يتزل" بالتخفيف والتشديد وقرئ: "تزل الملائكة" أي تتزل "بالروح من أمره" بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، و"أن أنذروا" بدل من الروح، أي يترهم بأن أنذروا وتقديره: بأنه أنذروا، أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا. أو تكون "أن" مفسرة، لأن تتزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول. ومعنى أنذروا "أنه لا إله إلا أنا" أعلموا بأن الأمر ذلك، من نذرت بكذا إذا علمته. والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولي لا إله إلا أنا "فاتقون".

"خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين" ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلقاته، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره. وقرئ: "تشركون" بالتاء والياء "فإذا هو خصيم مبين" فيه معنيان، أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد كان نطفة من مني جهاداً لا حس به ولا حركة، دلالة

على قدرته. والثاني: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قاتل: من يحيي العظام وهي رميم، وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتماذي في كفران النعمة. وقيل نزلت في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رم؟ "والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكون"

"الأنعام" الأزواج الثمانية، وأكثر ما تقع على الإبل، وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر، كقوله: "والقمر قدرناه" ياسين: 39، ويجوز أن يعطف على الإنسان، أي: خلق الإنسان والأنعام، ثم قال: "خلقها لكم" أي ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان والدفاء: اسم ما يدفأ به، كما أن الملاء اسم ما يملأ به، وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر. وقرئ: "دف" بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء "ومنافع" هي نسلها ودرها وغير ذلك. فإن قلت: تقديم الظرف في قوله "ومنها تأكلون" مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها. قلت: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمد عليه الناس في معاشهم. وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجارى مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها، لأنكم تحرثون بالبقر فالحب والثمار التي تأكلونها منها وتكتسبون ياكراء الإبل وتبيعون نتائجها وألبانها وجلودها. "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون".

من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها، لأنه من أغراض أصحاب المواشي، بل هو من معاشها، لأن الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة فزينت بإراحته وتسريحها الألفية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنست أهلها وفرحت أربابها، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. ونحوه "لتركبوها وزينة" النحل: 8، "يوارى سواكم وريشاً" الأعراف: 26، فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: "حيناً تريحون وحيناً تسرحون" على أن "تريحون وتسرحون" وصف للحين. والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه، كقوله تعالى: "يوماً لا يجزي والد" لقمان: 33.

"وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم". قرئ: بكسر الشين وفتحها. وقيل: هما لغتان في معنى المشقة، وبينهما فرق: وهي أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقاً، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصاع. وأما الشق فالنصف، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد. فإن قلت: ما معنى قوله: "لم تكونوا بالغيه" كأنهم كانوا زماناً يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم. قلت: معناه وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة. فإن قلت: كيف طابق قوله: "لم تكونوا بالغيه" قوله: "وتحمل أثقالكم" وهلا قيل: لم تكونوا حاملينها إليه؟ قلت: طابقه من حيث أن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم. ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس. وقيل: أثقالكم أجرامكم. وعن عكرمة البلد مكة "الرؤوف رحيم" حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

"والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون".

"والخيل والبغال والحمير" عطف على الأنعام، أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام. فإن قلت: لم انتصب "وزينة"؟ قلت: لأنه مفعول له، وهو معطوف على محل لتركبوها. فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ قلت: لأن الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق. وقرئ: لتركبوها زينة بغير واو، أي: وخلقها زينة لتركبوها. أو تجعل زينة حالاً منها، أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجهال "ويخلق ما لا تعلمون" يجوز أن يريد به: ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفصيله ويمن علينا بذكره كما من بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته. ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلاق ما لا علم لنا به، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار، مما لم يبلغه وهم أحد، ولا خطر على قلبه. "وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين".

المراد بالسبيل: الجنس، ولذلك أضاف إليها القصد وقال "ومنها جائر" والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد. يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه. ومعنى قوله "وعلى الله قصد السبيل" أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه، كقوله: "إن علينا للهدى" الليل: 12.، فإن قلت: لم غير أسلوب الكلام في قوله "ومنها جائر"؟ قلت: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقليل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر. وقرأ عبد الله: ومنكم جائر يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره، والله بريء منه "ولو شاء لهداكم أجمعين" قسراً وإلجاء. "هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر وفيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون".

"لكم" متعلق بأنزل، أو بشراب، خبراً له. والشراب ما يشرب "شجر" يعني الشجر الذي ترعاه المواشي. وفي حديث عكرمة: "لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت". يعني الكأ "تسيمون" من سامت الماشية إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض. وقرئ: ينبت بالياء والنون. فإن قلت: لم قيل "ومن كل الثمرات"؟ قلت: لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكيرة "يتفكرون" ينظرون فيستدلون بما عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية: الدلالة الواضحة. وعن بعضهم: ينبت بالتشديد. وقرأ أبي بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب بالرفع.

"وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون". قرئت كلها بالنصب على وجعل النجوم مسخرات أو على أن معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم، حيث يسكنون بالليل، ويتنعمون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم. فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره. ويجوز أن يكون المعنى: أنه سخرها أنواعاً من التسخير جمع مسخر، بمعنى تسخير، من قولك: سخره الله مسخراً، كقولك: سرحه مسرحاً، كأنه قيل:

وسخرها لكم تسخيرات بأمره. وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر. وقرئ: والنجوم مسخرات، بالرفع، وما قبله بالنصب، وقال "إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" فجمع الآية. وذكر العقل، لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

"وما زراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون".

"وما زراً لكم" معطوف على الليل والنهار يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر.

"هو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلياً تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون".

"لحماً طرياً" هو السمك، ووصفه بالطراوة، لأن الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه. فإن قلت:

ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً، فأكل سمكاً، لم يحنث. والله تعالى سماه لحماً كما ترى؟ قلت:

مبنى الأيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك، كان حقيقاً بالإنكار. ومثاله أن الله تعالى سمى الكافر دابة في قوله: إن شر الدواب عند الله الذين كفروا، فلو حلف حالف لا يركب دابةً فركب كافراً لم يحنث. "حلية" هي اللؤلؤ والمرجان. والمراد بلبسهم: لبس نسائهم، لأنهم من جملتهم، ولأنهم إنما يتزين بها من أجلهم، فكأنها زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها. وعن الفراء: هو صوت جري الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل: التجارة.

"وألقي في الأرض رواسي أن تמיד بكم وأثمار وسبلاً لعلكم تهتدون، وعلامات وبالنجم هم يهتدون".

"أن تמיד بكم" كراهة أن تميل بكم وتضطرب والمائد: الذي يدار به إذا ركب البحر. قيل: خلق الله الأرض فجعلت

تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدر الملائكة مم خلقت

"وأثماراً" وجعل فيها أثماراً، لأن "وألقي" فيه معنى: جعل ألا ترى إلى قوله "ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً"

النبأ: 6، "وعلامات" هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم:

الجنس، كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس وعن السدي: هو الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدى. وقرأ

الحسن: وبالنجم بضمين، وبضمة وسكون، وهو جمع نجم، كرهن ورهن، والسكون تخفيف. وقيل حذف الواو من

النجوم تخفيفاً. فإن قلت: قوله "وبالنجم هم يهتدون" مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم مقحم فيه هم، كأنه

قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فمن المراد بهم؟ قلت: كأنه أراد قريشاً: كان لهم اهتداء بالنجوم في

مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

"أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون".

فإن قلت: "من لا يخلق" أريد به الأصنام، فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قلت: فيه أوجه، أحدها: أنهم سموها

آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم. ألا ترى إلى قوله على أثره "والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً

وهم يخلقون" النحل: 20، والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق. والثالث: أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا

يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده كقوله: "ألم أُرْجِلْ يمشون بها" الأعراف: 195، يعني أن الآلهة حالهم منحنية عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا. فإن قلت: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: "أفمن يخلق كمن لا يخلق".

"وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون".
"لا تحصوها" لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطيقوا القيام بحققها من أداء الشكر، أتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيهاً على أن وراءها ما لا ينحصر ولا ينعد "إن الله لغفور رحيم" حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها "والله يعلم ما تسرون وما تعلنون" من أعمالكم، وهو وعيد.

"والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، أموات غير أحياء وما يشعرون أياں يبعثون".

"والذين يدعون" والآلهة الذين يدعوهم الكفار "من دون الله" وقرئ بالتاء. وقرئ: يدعون على البناء للمفعول، نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب. ومعنى: "أموات غير أحياء" أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي غير جائز عليها الموت كالحى الذي لا يموت وأمرهم على العكس من ذلك. والضمير في "يبعثون" للداعين، أي لا يشعرون متى تبعث عبدتهم. وفيه تمكيد بالمشركون وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثتهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم. وفيه دلالة على أنه لا بد من البعث وأنه من لوازم التكليف. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى أن الناس يخلقونهم بالبحث والتصوير، وهم لا يقدرّون على نحو ذلك، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها، غير أحياء يعني أن من الأموات ما يعقب موته حياة، كالنطف التي ينشئها الله حيواناً وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها. وأما الحجارة فأمووات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها "وما يشعرون أياں يبعثون" أي وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تمكيداً بحالها، لأن شعور الجماد محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحى القيوم سبحانه. ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات: أي لا بد لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم. وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثتهم. وقرئ: إياهم بكسر الهمزة.

"إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون، لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين".

"إلهكم إله واحد" يعني أنه قد ثبت بما تقدم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره، وأنها له وحده لا شريك له فيها، فكان من نتيجة ثبات الوحدة ووضوح دليلها: استمرارهم على شركهم، وأن قلوبهم منكرة للوحدة، وهم

مستكبرون عنها وعن الإقرار بها "لا جرم" حقاً "إن الله يعلم" سرهم وعلايتهم فيجازيهم، وهو وعيد "إنه لا يحب المستكبرين" يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني المشركين. ويجوز أن يعم كل مستكبر. ويدخل هؤلاء تحت عمومته.

"وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون".

"ماذا" منصوب بأنزل، بمعنى: أي شيء "أنزل ربكم" أو مرفوع بالابتداء بمعنى: أي شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى "أساطير الأولين" ما يدعون نزوله أساطير الأولين، وإذا رفعته فالمعنى: المتزل أساطير الأولين، كقوله: "ماذا ينفقون قل العفو" البقرة: 219، فيمن رفع. فإن قلت: هو كلام متناقض، لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير؟ قلت: هو على السخرية كقوله: "إن رسولكم" الشعراء: 27، وهو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين: الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أحاديث الأولين وأباطيلهم "ليحملوا أوزارهم" أي قالوا ذلك إضلالاً للناس وصدأً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملوا أو زاد ضلالهم "كاملة" وبعض أوزار من ضل بضالهم، وهو وزر الإضلال، لأن المضل والضال شريكان: هذا يضلّه، وهذا يطاوعه على إضلاله، فيتحاملان الوزر، ومعنى اللام التعليل من غير أن يكون غرضاً، كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر "بغير علم" حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز الحق والمبطل.

"قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وآتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين، الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون، فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليست مثوى المتكبرين".

القواعد: أساطين البناء التي تعمره. وقيل: الأساس وهذا تمثيل، يعني: أنهم سوا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعفت فسقط عليهم السقف وهلكوا. ونحوه: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً. وقيل: هو عمرو بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره "من القواعد" من جهة القواعد "من حيث لا يشعرون" من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فأتى الله بيتهم. فخر عليهم السقف، بضمين "يخزيهم" يذلمهم بعذاب الخزي "ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته" آل عمران: 192، يعني هذا لهم في الدنيا، ثم العذاب في الآخرة "شركائي" على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليؤخّجهم بها على طريق الاستهزاء بهم "تشاقون فيهم" تعادون وتحاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم. وقرئ: تشاقون، بكسر النون، بمعنى: تشاقوني، لأن مشاققة المؤمنين كأنها مشاققة الله "قال الذين أوتوا

"العلم" هم الأنبياء والعلماء من أمهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه. وقيل: هم الملائكة قرئ: تتوفاهم بالتاء والياء. وقرئ: الذين توفاهم بإدغام التاء في التاء "فألقوا السلم" فسالموا وأخبتوا، وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، وقالوا: "ما كنا نعمل من سوء" ووجدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فرد عليهم أولو العلم "إن الله عليم بما كنتم تعملون" فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك "فادخلوا أبواب جهنم".

"وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين، جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين، الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون".

"خيراً" أنزل خيراً فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا خيراً: أي أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء. وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمره بالانصراف وقالوا: إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقته، وأنه نبي مبعوث، فهم الذين قالوا خيراً. وقوله: "للذين أحسنوا" وما بعده بدل من خيراً، حكاية لقوله: "للذين اتقوا" أي: قالوا هذا القول، فقدم عليه تسميته خيراً ثم حكاه. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه "حسنة" مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها، كقوله "فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة" آل عمران: 148، "ولنعم دار المتقين" دار الآخرة، فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره. و"جنات عدن" خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح "طيبين" طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي. لأنه في مقابلة ظلمي أنفسهم "يقولون سلام عليكم" قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

"هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون".

"تأتيهم الملائكة" قرئ بالتاء والياء، يعني: أن تأتيهم لقبض الأرواح. و"أمر ربك" العذاب المستأصل، أو القيامة "كَذَلِكَ" أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب "فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله" بتدميرهم "ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير "سيئات ما عملوا" جزاء سيئات أعمالهم. أو هم كقوله "وجزاء سيئة سيئة مثلها" الشورى: 140.

"وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا دونه من شيء كذلك فعل

الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين".

هذا من جملة ما عدد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله، استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم، واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا بالله وحرّموا ما أحل الله، من البحيرة السائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب الجبرة بعينه "كذلك فعل الذين من قبلهم" أي أشركوا وحرّموا حلال الله فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم "فهل على الرسل" إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدتهم وإرادتهم واختيارهم والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

"ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله اجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين".

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشينة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت "فمنهم من هدى الله" أي لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف "ومنهم من حقت عليه الضلالة" أي ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف، لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتي منه خير "فسيروا في الأرض فانظروا" ما فعلت بالمكذبين حتى لا يبقى لكم شبهة في أي لا أقدر الشر ولا أشاؤه، حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.

"إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين".

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيمانهم، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، وأنه "لا يهدي من يضل" أي لا يلطف بمن يخذل، لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث، لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه. وقرئ: لا يُهْدَى أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله. وقوله "وما لهم من ناصرين" دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان الذي هو نقيض النصرة. ويجوز أن يكون "لا يهدي" بمعنى لا يهتدي. يقال: هداه الله فهدي. وفي قراءة أبي فإن الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضل وهي معاضدة لمن قرأ لا يهدي على البناء للمفعول. وفي قراءة عبد الله. يهدي، يادغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى. وقرئ يضل بالفتح. وقرأ النخعي: إن تحرص بفتح الراء، وهي لغية.

"وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين".

"وأقسموا بالله" معطوف على "وقال الذين أشركوا" النحل: 35، إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان، حقيقتان بأن تحكما وتدونا: توريك ذنوبهم على مشيئة الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه. و"بلى" إثبات لما بعد النفي، أي: بلى يبعثهم. ووعد الله: مصدر مؤكد لما دل عليه بلى، لأن يبعث موعد من الله، وبين أن الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة "ولكن أكثر الناس لا يعلمون" أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب على الله؟ لأنهم

يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل ولا غيره من مواجب الحكمة "ليبين لهم" متعلق بما دل عليه "بلى" أي يبعثهم ليبين لهم. والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذين اختلفوا فيه هو الحق "وليعلم الذين كفروا" كذبوا في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وفي قولهم: لا يبعث الله من يموت. وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً" النحل: 36، أي بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضلالة قبله، مفترين على الله الكذب.

"إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون".

"قولنا" مبتدأ، و"أن نقول" خبره. "كن فيكون" من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأن مراداً لا يمتنع عليه، وإن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممثل، ولا قول ثم. والمعنى: أن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات. وقرئ: فيكون عطفاً على "نقول".

"والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤأنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعملون، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون".

"والذين هاجروا" هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين المهجرتين. ومنهم من هاجر إلى المدينة. وقيل: هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم: منهم بلال، وصهيب، وخباب، وعمار. وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب. وقال له عمر: نعم الرجل صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه، وهو بناء عظيم: يريد لو لم يخلق الله ناراً لأطاعه، فكيف "في الله" في حقه ولوجهه "حسنة" صفة للمصدر، أي لنبؤأنهم تبوءة حسنة. وفي قراءة علي رضي الله عنه. لنثوينهم ومعناه: أثوأة حسنة. وقيل:

لنثولهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا. وما ذخر لك في الآخرة أكثر وقيل: لنبؤأنهم مباءة حسنة وهي المدينة، حيث آوهم أهلها ونصروهم "لو كانوا يعلمون" الضمير للكفار، أي: لو علموا أن الله يجمع هؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم. ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين، أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزدادوا في اجتهادهم وصبرهم "الذين صبروا" على هم الذين صبروا. أو أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله.

"وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فساءلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، بالبينات والزبر وأرسلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون".

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فقليل ""وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم" على السنة الملائكة" فسألوا أهل الذكر" وهم أهل الكتاب، ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً. فإن قلت: بم تعلق قوله "بالبينات"؟ قلت: له متعلقات شتى، فأما أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط؟ لأن أصله: ضربت زيداً بالسوط وإما برجالاً، صفة له: أي رجالاً ملتبسين بالبينات. وإما بأرسلنا مضمراً، كأنما قيل: بما أرسلوا؟ فقلت: بالبينات، فهو على كلامين، والأول على كلام واحد، وإما بيوحي، أي: يوحي إليهم بالبينات. وإما بلا تعلمون، على أن الشرط في معنى التبيك والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي. وقوله: "فسألوا أهل الذكر" اعتراض على الوجوه المتقدمة، وأهل الذكر: أهل الكتاب. وقيل للكتاب الذكر؟ لأنه موعظة وتنبية للغافلين "ما نزل إليهم" يعني ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا "لعلهم يتفكرون" وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

"أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم".

"مكروا السيئات" أي المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله صلى الله عليه وسلم "في تقلبهم" متقلبين في مسائرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم "على تخوف" متخوفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله "من حيث لا يشعرون" وقيل: هو من قولك: تخوفته وتخونته، إذا تنقصته قال زهير:

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

أي يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا. وعن عمر رضي الله عنه. أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا: التخوف التنقص. قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا. وأنشد البيت. فقال عمر: أيها الناس، عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم "فإن ربكم لرؤوف رحيم" حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

"أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داحرون".

قريئ: أو لم يروا ويتفيؤوا، بالياء والتاء. وما موصولة بخلق الله، وهو مبهم بيانه "من شيء يتفيؤوا ظلاله" واليمين، بمعنى الإيمان. و"سجداً" حال من الظلال. "وهم داحرون" حال من الضمير في ظلاله، لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو، لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب. والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن إيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل واحد منها. وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء، أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقاداً لله، غير

ممتنعة عليه فيما سخرها. له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً، صاغرة متقادة لأفعال الله فيها، لا تمتنع. "ولله يجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون".

"من دابة" يجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أن في السموات خلقاً لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الخلق الذي يقال له الروح، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الملائكة وكرر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصاً من بين الساجدين، لأنهم أطوع الخلق وأعبدتهم. ويجوز أن يراد بما في السموات: ملائكتهم. وبقوله والملائكة: ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم، فإن قلت: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟ قلت: المراد بسجود المكلفين: طاعتهم وعبادتهم، وسجود غيرهم: انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد. فإن قلت: فهلا جيء بمن دون ما تغليباً للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلت: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولاً للعقلاء خاصة، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم، إرادة العموم "يخافون" يجوز أن يكون حالاً من الضمير في "لا يستكبرون" أي: لا يستكبرون خائفين، وأن يكون بياناً لنفي الاستكبار وتأكيده، لأن من خاف الله لم يستكبر عن عبادته "من فوقهم" إن علقته بيخافون، فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته برهبهم حالاً منه فمعناه: يخافون ربهم عالياً لهم قاهراً، كقوله "وهو القاهر فوق عباده" الأنعام: 18، 61، "وإننا فوقهم قاهرون" الأعراف: 127، وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي والوعيد والوعيد كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء.

"وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون".

فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص. وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ورجلان اثنان، فما وجه قوله إلهين اثنين؟ قلت: الاسم الحامل للمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكد، فدل به على القصد إليه والعناية به. ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله، ولم تؤكد به بواحد: لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوجدانية "فإياي فارهبون" نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأن الغالب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

"وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أغير الله تتقون".

"الدين" الطاعة "واصباً" حال عمل فيه الظرف. والواصب: الواجب الثابت؟ لأن كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه. ويجوز أن يكون من الوصب، أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمي تكليفاً. أو: وله

الجزء ثابتاً دائماً سرمداً لا يزول، يعني الثواب والعقاب.

"وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجرءون، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بركم يشركون، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون".

"وما بكم من نعمة" وأفي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة، فهو من الله "فإليه تجرءون" فما تتضرعون إلا إليه، والجوار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة. قال الأعشى يصف راهباً:

يرأوح من الصلوات الملي ك طوراً سجوداً وطوراً جواراً

وقرى: تجرون بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم. وقرأ قتادة كاشف الضر على: فاعل بمعنى فعل، وهو أقوى من كشف، لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة. فإن قلت: فما معنى قوله: "إذا فريق منكم بركم يشركون"؟ قلت: يجوز أن يكون الخطاب في قوله: "وما بكم من نعمة فمن الله" عاماً، ويريد بالفريق: فريق الكفرة وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان، لا للتبويض، كأنه قال فإذا فريق كافر، وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله "فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد" لقمان: 32، "ليكفروا بما آتيناهم" من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة "فتمتعوا فسوف تعلمون" تخلية ووعيد. وقرى: فِيمَتَعُوا بالياء مبنياً للمفعول، عطفاً على "ليكفروا" ويجوز أن يكون: ليكفروا فيمتعوا، من الأمر الوارد في معنى الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر. "ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون".

"لما لا يعلمون" أي لآلهتهم. ومعنى لا يعلمونها: أنه يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله، وليس كذلك. وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذا جاهلون بها، وقيل: الضمير في "لا يعلمون" للآلهة. أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم، ولا تشعر اجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقرباً إليهم "لتسألن" وعيد "عما كنتم تفترون" من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها. "ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوراى عن القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون".

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله "سبحانه" تزيه لذاته من نسبة الولد إليه. أو تعجب من قولهم "ولهم ما يشتهون" يعني البنين. ويجوز في "ما يشتهون" الرفع على الابتداء، والنصب على أن يكون معطوفاً على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. و "ظل" بمعنى صار كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى الصيرورة. ويجوز أن يجيء ظل، لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتماً مبرداً الوجه من الكتابة والحياء من الناس "وهو كظيم" مملوء حقاً على المرأة "يتوراى من القوم" يستخفي منهم "من" أجل "سوء" المبشر به، ومن أجل تعبيرهم، ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به "على هون" على هوان وذلل "أم يدسه في التراب" أم ينده. وقرى: أيمسكها على هون أم يدسها، على التأنيث. وقرى: على هوان ألا ساء ما يحكمون" حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

"للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم".
"مثل السوء" صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ "والله المثل الأعلى" وهو الغني عن العالمين، والتراثة عن صفات المخلوقين وهو الجواد الكريم.
"ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

"بظلمهم" بكفرهم ومعاصيهم "ما ترك عليها" أي على الأرض "من دابة" قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين.
وعن أبي هريرة: أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى أن الحباري لتموت في وكرها بظلم الظالم. وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم. أو من دابة ظالمة. وعن ابن عباس "من دابة" من مشرك يدب عليها. وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.
"يجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون".

"يجعلون لله ما يكرهون" لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلهم والتهاون برسالاتهم. ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها "وتصف ألسنتهم" مع ذلك "أن لهم الحسنى" عند الله كقوله "ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى" فصلت 50، وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة. وإذا قال: هاتوا ما دفع إلي فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية وعن مجاهد: أن لهم الحسنى. هو قول قريش: لنا البنون، وأن لهم الحسنى: بدل من الكذب. وقرئ الكذب جمع كذوب، صفة للألسنة "مفرطون" قرئ مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدداً، فالمفتوح بمعنى مقدمون إلى النار معجلون إليها، من أفرطت فلاناً، وفرطته في طلب الماء، إذا قدمته. وقيل منسيون متروكون، من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته. والمكسور المخفف، من الإفراط في المعاصي. والمشدد. من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.
"تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم".

"فهو وليهم اليوم" حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها. أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا. ومعنى "وليهم" قرينهم وبئس القرين. أو يجعل "فهو وليهم اليوم" حكاية للحال الآتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره نفيًا للناصر لهم على أبلغ الوجوه ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش، وأنه زين للكفار قبلهم أعمالهم، فهو ولي وهؤلاء: لأنهم منهم. ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

"وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون".

"وهدى ورحمة" معطوفان على محل "لتبين" إلا أنهما انتصبا على أنهما معقول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على لتبين: لأنه فعل المخاطب لا فعل المتزل. وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعل.

والذي اختلفوا فيه: البعث، لأنه كان فيهم من يؤمن به، ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والإنكار والإقرار "لقوم يسمعون" سماع إنصاف وتدبر، لأن من لم يسمع بقلبه، فكأنه أصم لا يسمع. "وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين". ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم: ثوب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً. وأما "في بطونها" المؤمنون: 21، في سورة المؤمنین: فلأن معناه الجمع. ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان، أحدهما: أن يكون تكثير نعم كأجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم، فإذا ذكر فكما يذكر أنعم في قوله:

يلفحه قوم وتنتجونه

في كل عام نعم تحوونه

وإذا أنت ففيه وجهان: أنه تكسير نعم. وأنه في معنى الجمع. وقرئ: نسقيكم بالفتح والضم، وهو استئناف، كأنه قيل: كيف العبرة، فقليل نسقيكم "من بين فرث ودم" أي يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتفاناه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله. قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً. والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، وتبقى الفرث في الكرش. فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب، تمييز اللبن من بين فرث ودم "سائغاً" سهل المرور في الحلق ويقال: لم يغص أحد باللبن قط. وقرئ: سائغاً بالتشديد. وسائغاً، بالتخفيف. كهين ولين. فإن قلت: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبويض، لأن اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوباً. والثانية: لابتداء الغاية، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبدأ، فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالاً من قوله "لبناً" مقدماً عليه، فيتعلق بمحذوف، أي: كائناً من بين فرث ودم. ألا ترى أنه لو تأخر فقل: لبناً من بين فرث ودم كان صفة له، وإنما قدم لأنه موضع العبرة، فهو قمن بالتقديم. وقد احتج بعض من يرى أن النبي طاهر على من جعله نجساً، لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً. "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون". فإن قلت: بم تعلق قوله "ومن ثمرات النخيل والأعناب"؟ قلت: بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أي: من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: "تتخذون منه سكراً" بيان وكشف عن كنه الإسقاء. أو يتعلق بتتخذون، ومنه من تكرير الظرف للتوكيد، كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون "تتخذون" صفة موصوف محذوف، كقوله:

جادت بكفى كان من أرمى البشر

تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا، لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر. فإن قلت: فيلام يرجع الضمير في منه إذا جعلته ظرفاً مكرراً؟ قلت: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجح في قوله تعالى "أو هم قائلون" الأعراف: 4، إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكرًا وسكرًا. نحو رشد رشدًا ورشدًا. قال:

وجأونا بهم سكر علينا فأجلى اليوم والسكران صاحي

وفيه وجهان: أحدهما أن تكون منسوخة. ومن قال بنسخها: الشعبي والنخعي. والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة. وقيل: السكر النبيذ. وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر ويحتج بهذه الآية ويقول صلى الله عليه وسلم. "الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب" وبأخبار جمة. ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قدس الله روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ وأخذت منه السن العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به، فأبى. فقيل له: فقد صنفت في تحليله، فقال: تناولته الدعارة فسمح في المروءة. وقيل: السكر الطعم وأنشد:

جعلت أعراض الكرام سكرًا

أي تنقلت بأعراضهم، وقيل هو من الخمر، وإنه إذا ابتكر في أعراض الناس، فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن: الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك. ويجوز أن يجعل السكر رزقًا حسنًا، كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

"وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون".

الإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فيقبتها في صنعتها، ولطفها في تدبير أمرها، وإصابتها فيما يصلحها، دلالة بينة شاهدة على أن الله أودعها علماً بذلك وفطنها، كما أولى أولى العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب "إلى النحل" بفتحيتين. وهو مذكر كالنحل، وتأتيه على المعنى "أن اتخذ" هي أن المفسرة، لأن الإيحاء فيه معنى القول. وقرئ: بيوتاً بكسر الباء لأجل الياء. و"يعرشون" بكسر الراء وضمها: يرفعون من سقوف البيوت. وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تتعسل فيها. والضمير في يعرشون للناس فإن قلت: ما معنى من في قوله "أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون" وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ قلت: أريد معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها "ومن كل الثمرات" إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل وتعتاد أكلها، أي ابني البيوت، ثم كلي من كل ثمرة تشتبهينها، فإذا أكلتها "فاسلكي سبل ربك" أي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل. أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك، أي في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك ومنافذ ما كلك. أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك، فاسلكي إلى بيوتك راجعة

سبل ربك، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجذب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة. أو أراد بقوله: "ثم كلي" ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك "ذلاً" جمع ذلول، وهي حال من السيل؟ لأن الله ذللها لها ووطأها وسهلها، كقوله: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً" الملك: 15، أو من الضمير في "فاسلكي" أي: وأنت ذلل منقاداً لما أمرت به غير ممتنعة "شراب" يريد العسل، لأنه مما يشرب "مختلف ألوانه" منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر "فيه شفاء للناس" لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك. وتكبره إما لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكى بطنه، فقال: "اذهب وأسقه العسل" فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: "اذهب واسقه عسلاً" فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبراً، كأنما أنشط من عقال. وعن عبد الله بن مسعود: "العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين: القرآن والعسل". ومن بدع تأويلات الرافضة: أن المراد بالنحل علي وقومه. وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم، يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور، فاتخذوه أضحكة من أضحاحيهم.

"والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير". "إلى أرذل العمر" إلى أحسنه وأحققره وهو خمس وسبعون سنة عن علي رضي الله عنه وتسعون سنة عن قتادة: لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم "لكي لا يعلم بعد علم شيئاً" ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه. وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً. وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه.

"والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يحدون".

أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق ممالككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

"إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تطعمون" فما روي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت "أفبنعمة الله يحدون" فجعل ذلك من جملة جحود النعمة. وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء، فقال لهم: أنتم لا تسؤون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلوهم. فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء. وقيل المعنى أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على ممالكهم من عندهم شيئاً من الرزق. فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم. وقرئ: يحدون بالناء والياء.

"والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون

وينعمة الله يكفرون".

"من أنفسكم" من جنسكم. وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة: جمع حافد، وهو الذي يحفد، أي يسرع في الطاعة والخدمة. ومنه قول القانت. وإليك نسعى ونحفد وقال:

بكفهن أزمة الأجمال

حفد الولائد بينهن وأسلمت

واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأول، وقيل: المعنى وجعل لكم حفدة، أي خدماً يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله: "سكراً ورزقاً حسناً" النحل: 67، كأنه قيل وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون وهم حافدون، أي جامعون بين الأمرين "من الطيبات" يريد بعضها، لأن كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها "أفبالباطل يؤمنون" وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها. وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم إيمان إلا به، كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة الله المشاهدة المعينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتميز: هم كافرون بما منكرون لها كما ينكر الخال الذي لا يتصوره العقول. وقيل: الباطل يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما. ونعمة الله: ما أحل لهم.

"ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون".

الرزق يكون بمعنى المصدر، وبمعنى ما يرزق، فإن أردت المصدر نصبت به "شيئاً" كقوله "أو إطعام... يتيماً" البلد: 14، على لا يملك أن يرزق شيئاً. وإن أردت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه بمعنى قليلاً ويجوز أن يكون تأكيداً للا يملك: أي لا يملك شيئاً من الملك. و"من السموات والأرض" صلة للرزق إن كان مصدراً بمعنى: لا يرزق من السموات مطراً، ولا من الأرض نباتاً. أو صفة إن كان اسماً لما يرزق. والضمير في "ولا يستطيعون" لما، لأنه في معنى الآلهة، بعد ما قيل "لا يملك" على اللفظ. ويجوز أن يكون للكفار، يعني: ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب من ذلك شيئاً، فكيف بالجماد الذي لا حس به. فإن قلت: ما معنى قوله: "ولا يستطيعون" بعد قوله "لا يملك"؟ وهل هما إلا شيء واحد؟ قلت: ليس في إلا يستطيعون، تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً، لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد: أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

"فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون".

"فلا تضربوا الله الأمثال" تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به، لأن من يضرب الأمثال مشبه حالاً بحال وقصة بقصة "إن الله يعلم" كنهه وكنهه عقابه، فذاك هو الذي جزكم إليه وجرأكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك. ويجوز أن يراد: فلا تضربوا الله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون. "وضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون".

ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان: مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء. فإن قلت: لم قال "مملوكاً لا يقدر على شيء" وكل عبد مملوك، وغير قادر على التصرف؟ قلت: أما ذكر المملوك فليميز من الحر، لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً، لأنهما من عباد الله. وأما "لا يقدر على شيء" فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له لأنهما يقدران على التصرف. واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه يصح له. فإن قلت: "من" في قوله "ومن رزقناه" ما هي؟ قلت: الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل وحرّاً رزقناه، ليطابق عبداً. ولا يمتنع أن تكون موصولة. فإن قلت: لم قيل "يستوون" على الجمع؟ قلت: معناه: هل يستوي الأحرار والعبيد؟ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم".

الأبكم الذي ولد أحرس، فلا يفهم ولا يفهم "وهو كل على مولاه" أي ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله "أينما يوجهه" حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لم ينفع ولم يأت بنجح "هل يستوي هو ومن" هو سليم الخواس نفاعاً ذو كفايات، مع رشد وديانة، فهو "يأمر" الناس "بالعدل" والخير "وهو" في نفسه "على صراط مستقيم" على سيرة صالحة ودين قويم. وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع وقرئ: أينما يوجهه، بمعنى أينما يتوجه، من قولهم: أينما أوجه ألق سعداً: وقرأ ابن مسعود: أينما يُوجَّهَ على البناء للمفعول.

"والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير".
 "والله غيب السموات والأرض" أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه. أو أراد بغيب السموات والأرض: يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم "إلا كلمح البصر أو هو أقرب" أي هو عند الله وإن تراخى، كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر أو هو أقرب، إذا بالغتم في استقرا به. ونحوه قوله: "ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون" الحج: 47، أي هو عنده دان وهو عندكم بعيد. وقيل: المعنى أن إقامة الساعة وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه، "إن الله على كل شيء قدير" فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق، لأنه بعض المقدورات. ثم دل على قدرته بما بعده.

"والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون".
 قرئ أمهاتكم بضم الهمزة وكسرها، والهاء مزيدة في أمات، كما زيدت في أراق، فقليل: أهراق. وشدت زيادتها في الواحدة قال:

أمهنتي خندف وإلياس أبي

"لا تعلمون شيئاً" في موضع الحال. ومعناه: غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون، وسواكم وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة. وقول: "وجعل لكم" معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، من شكر المنعم، وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم. والأفئدة في فؤاد، كالأغربة في غراب، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير، فجرت ذلك المجرى.

"ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون".

قريئ: ألم يروا بالتاء والياء "مسخرات" مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك. والجو: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو والسكاك أبعد منه، واللوح مثله "ما يمسكهن" في قبضهن وبسطهن ووقوفهن "إلا الله" بقدرته.

"والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين".

"من بيوتكم" التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. والسكن: فعل بمعنى مفعول، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف "بيوتاً" هي القباب والأبنية من الأدم والأنطاع "تستخفونها" ترونها خفيفة الحمل في الضرب والنقض والنقل "يوم ظعنكم ويوم إقامتكم" أي يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تزلون وتقيمون في مكان لم يتنقل عليكم ضربها. أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً، على أن اليوم بمعنى الوقت "ومتاعاً" شيئاً ينتفع به "إلى حين" إلى أن تقضوا منه أوطاركم. أو إلى أن يبلى ويفنى أو إلى أن تموتوا.

وقريئ: يوم ظعنكم بالسكون.

"والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراييل تقيكم الحر وسراييل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون".

"مما خلق" من الشجر وسائر المستظلات "أكناناً" جمع كن، وهو ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف "سراييل" هي القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن وغيرها "تقيكم الحر" لم يذكر البرد، لأن الوقاية من الحر أهم عندهم، وقلما يهتمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً. وقيل: ما يقي من الحر يقي من البرد فدل ذكر الحر على البرد "وسراييل تقيكم بأسكم" يريد الدروع والجواشن والسرايل عام يقع على كل ما كان من حديد وغيره "لعلكم تسلمون" أي تنظرون في نعمه الفاتضة فتؤمنون به وتنقادون له. وقريئ: تسلمون من السلامة: أي تشكرون فتسلمون من العذاب. أو تسلم قلوبكم من الشرك. وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع "فإن تولوا" فإنما عليك البلاغ المبين، يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون.

"فإن تولوا" فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعدما أديت ما وجب عليك من التبليغ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب "يعرفون نعمة الله" التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله "ثم ينكرونها" بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا. وقيل: إنكارهم قولهم وراثتها من آبائنا. وقيل: قولهم لولا فلان

ما أصبت كذا لبعض نعم الله. وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً في نيلها "وأكثرهم الكافرون" أي الجاحدون غير المعترفين. وقيل: نعمة الله نبوة محمد عليه السلام، كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم. فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر. "ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون، وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون".

"شهيداً" نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق، والكفر والتكذيب "ثم لا يؤذن للذين كفروا" في الاعتذار. والمعنى لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن حجة لهم ولا عذر، وكذا عن الحسن "ولا هم يستعتبون" ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم أرضوا ربكم، لأن الآخرة ليست بدار عمل. فإن قلت: فما معنى ثم هذه؟ قلت معناها أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره: واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم "فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون" كقوله "بل تأتيهم بغتة فتبهتهم" الأنبياء: 40، الآية. "وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون، وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون".

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم، فمعنى "شركاؤنا" آلهتنا التي دعوناها شركاء. وإن أرادوا الشياطين، فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي: و"ندعو" بمعنى نعبد فإن قلت: لم قالوا: "إنكم لكاذبون" وكانوا يعبدونهم على الصحة؟ قلت: لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان عبادتهم لم تكن عبادة. والدليل عليه قول الملائكة "كانوا يعبدوا الجن" سبأ: 41، يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، فهم المعبودون دوننا أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تزيهاً لله من الشريك. وإن أريد بالشركاء الشياطين جاز أن يكون كاذبين في قولهم "إنكم لكاذبون" كما يقول الشيطان: إني كفرت به أشركتموني من قبل "وألقوا" يعني الذين ظلموا. وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا "وطل عنهم" وبطل عنهم "ما كانوا يفترون" من أن الله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

"الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون". "الذين كفروا" في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم. وقيل في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفاً. وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار "بما كانوا يفسدون" بكونهم مفسدين الناس بصددهم عن سبيل الله.

"ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجننا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين".

"شهيذاً عليهم من أنفسهم" يعني نبيهم، لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم "وجئنا بك" يا محمد "شهيذاً على هؤلاء" على أمتك "تبياناً" بياناً بليغاً ونظير تبيان تلقاء في كسر أوله، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. فإن قلت: كيف كان القرآن تبياناً "لكل شيء"؟ قلت: المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين، حيث كان نصاً على بعضها وإحالة على السنة، حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته. وقيل: وما ينطق عن الهوى. وحشاً على الإجماع في قوله: "ويتبع غير سبيل المؤمنين" النساء: 115، وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأئمة اتباع أصحابه والافتداء بآثارهم في قوله صلى الله عليه وسلم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤوا طرق القياس والاجتهاد، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد، مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبياناً لكل شيء.

"إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى لعلمكم تذكرن".
العدل هو الواجب، لأن الله تعالى عدل فيه على عباده فجعل ما فرضه عليهم واقعاً تحت طاقهم "والإحسان" الندب، وإنما علق أمره بهما جميعاً، لأن الفرض لا بد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن علمه الفرائض فقال: والله لازدت فيها ولا نقصت: "أفلح إن صدق" فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط وقال صلى الله عليه وسلم: "استقيموا ولن تحصوا" فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل. والفواحش: ما جاوز حدود الله "والمنكر" ما تنكره العقول "والبغى" طلب التطاول بالظلم، وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، أقيمت هذه الآية مقامها. ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً، ضاعف الله لمن سنها غضباً ونكالاً وخزياً، إجابة لدعوة نبيه: "وعاد من عاداه" وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

"وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون، ولا تكونوا كالتى نقصت غزوها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما ييلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون".

عهد الله: هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله" الفتح: 10.
"ولا تنقضوا" إيمان البيعة "بعد توكيدها" أي بعد توثيقها باسم الله. وأكد ووكد: لغتان فصيحتان، والأصل الواو، والهمزة بدل "كفيلاً" شاهداً ورقبياً، لأن الكفيل مراعى لحال المكفول به مهيم عليه "ولا تكونوا" في نقض الأيمان كالمرأة التي أئحت على غزوها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته "أنكاثاً" جمع نكث وهو ما ينكث فتلته. قيل: هي ربطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء، اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن "تتخذون" حال و"دخلاً" أحد مفعولي اتخذ. يعني: ولا تنقضوا أيمانكم متخذوها دخلاً "بينكم" أي مفسدة ودغلاً "أن تكون أمة" بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش "هي أربى من أمة" هي أزيد عدداً وأوفر مالاً. من أمة من جماعة المؤمنين "إنما ييلوكم الله به" الضمير لقوله: أن تكون أمة، لأنه في معنى المصدر، أي: إنما يختبركم بكونهم أربى، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم

على أنفسكم ووكدتم من إيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أم تغترون بكثرة قریش وثروهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقيرهم وضعفهم؟ "ليبين لكم" إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

"ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون".

"ولو شاء الله لجعلكم أمة" حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار، وهو قادر على ذلك "ولكن" الحكمة اقتضت أن يضل "من يشاء" وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه "ويهدي من يشاء" وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان. يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب ولم يبنه على الإلجاء الذي لا يستحق به شيء من ذلك، وحققه بقوله: "ولتسألن عما كنتم تعملون" ولو كان هو المضطر إلى الضلال والاهتداء، لما أثبت لهم عملاً يسألون عنه.

"ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بعد صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم".

ثم كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم، تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يركب منه "فتزل قدم بعد ثبوتها" فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها "وتذوقوا السوء" في الدنيا بصدودكم "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" وخروجكم من الدين. أو بصدكم غيركم، لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا، لا تتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها "ولكم عذاب عظيم" في الآخرة.

"و لا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون".

كان قوماً ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قریش واستضعافهم المسلمين، وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله، "ولا تشتروا" ولا تستبدلوا "بعهد الله" وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم "ثمناً قليلاً" عرضاً من الدنيا يسيراً، وهو ما كانت قریش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا "إنما عند الله" من إظهاركم وتغنيمكم، ومن ثواب الآخرة "خير لكم".

"ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون".

"ما عندكم" من أعراض الدنيا "ينفذ وما عند الله" من خزائن رحمته "باق" لا ينفذ وقرئ: لنجزين بالنون والياء "الذين صبروا" على أذى المشركين ومشاق الإسلام. فإن قلت: لم وحدت القدم ونكرت؟ قلت: لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟ "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون".

فإن قلت: "من" متناول في نفسه للذكر والأنثى، فما معنى تبيينه بهما؟ قلت: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور، فقليل "من ذكر أو أنثى" على التبيين، ليعم الموعد النوعين جميعاً "حياة طيبة" يعني في الدنيا وهو الظاهر، لقوله "ولنجزيهم" وعده الله ثواب الدنيا والآخرة، كقوله "فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة" آل عمران: 148، وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً، فلا مقال فيه. وإن كان معسراً، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله. وأما

الفاجر فأمره على العكس: إن كان معسراً فلا إشكال في أمره، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتنهأ بعيشه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحياة الطيبة: الرزق الحلال. وعن الحسن: القناعة. وعن قتادة: يعني في الجنة. وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

"فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون".

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه، وصل به قوله "فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله" إيذاناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب. والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بك قوله "إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم" المائدة: 6، وكقولك: إذا أكلت فسم الله. فإن قلت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه، فكان منه بسبب قوي وملابسة ظاهرة. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: "يا ابن أم عبد، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ" "ليس له سلطان" أي تسلط وولاية على أولياء الله، يعني: أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته "إنما سلطانه" على من يتولاه ويطيعه "به مشركون" الضمير يرجع إلى ربهم. ويجوز أن يرجع إلى الشيطان، على معنى: بسببه وغروره ووسوسته.

"وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما يتزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون".

تبديل الآية مكان آية: هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد، فثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته. وهذا معنى قوله "والله أعلم بما يتزل قالوا إنما أنت مفتر" للطعن فطعنوا، وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه: يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون؟ ولقد افترؤا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق، لأن الغرض المصلحة، لا الهوان والمشقة. فإن قلت: هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ قلت: فيه أن قرآناً ينسخ بمثله وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأما الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها.

"قل نزله روح القدس من ربك الحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين".

في "يتزل" و"نزله" وما فيهما من التزييل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح: إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتزييل، وأن ترك النسخ بمثله إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة. و"روح القدس" جبريل عليه السلام، أضيف إلى القدس وهو الطهر، كما يقال: حاتم الجود وزيد الخير، والمراد الروح المقدس، وحاتم الجواد، وزيد الخير. والمقدس المطهر من المآثم. وقرئ: بضم الدال وسكونها "بالحق" في موضع الحال، أي نزله ملتبساً

بالحكمة، يعني أن النسخ من جملة الحق "ليثبت الذين آمنوا" ليلوهم بالنسخ، حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا والحكمة، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب "وهدى ويشري" مفعول لهما معطوفان على محل ليشبت. والتقدير: تثبتنا لهم وإرشاداً وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضرار هذه الخصال لغيرهم. وقرئ: ليثبت بالتخفيف.

"ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين". أرادوا بالبشر: غلاماً كان خويط بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب. وقيل: هو جبر، غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي. وقيل عبدان: جبر ويسار، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر وقف عليهما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما، فقال: بل هو يعلمني. وقيل: هو سلمان الفارسي. واللسان: اللغة. ويقال: ألد القبر ولحده، وهو ملحد وملحد، إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شق منه ثم استعير لكل إمالة عن استقامة، فقالوا: ألد فلان في قوله، وألد في دينه. ومنه الملحد، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين. والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان "أعجمي" غير بين "وهذا" القرآن "لسن عربي مبين" ذو بيان وفصاحة رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم وقرئ: يلحدون بفتح الياء والحاء. وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان. فإن قلت: الجملة التي هي قوله: "لسان الذي يلحدون إليه أعجمي" ما محلها؟ قلت: لا محل لها، لأنها مستأنفة جواب لقولهم. ومثله قوله "الله أعلم حيث يجعل رسالته" الأنعام: 124، بعد قوله "وإذا جاءهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله" الأنعام: 124. "إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله وهم عذاب أليم، إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون".

"إن الذين لا يؤمنون بآيات الله" أي يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون "لا يهاجم الله" لا يلطف بهم، لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة، لا من أهل اللطف والثواب "إنما يفترى الكذب" رد لقولهم "إنما أنت مفتر" يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن، لأنه لا يترقب عقاباً عليه "وأولئك" إشارة إلى قريش "هم الكاذبون" أي هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون. أو إلى الذين لا يؤمنون. أي أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب: أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين. أو أولئك هم الكاذبون في قولهم "إنما أنت مفتر".

"من كفر بالله من بعد إيمانه إلا إن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله" وهم عذاب عظيم، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون، لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون".

"من كفر" بدل من الذين لا يؤمنون بآيات الله، على أن يجعل "وأولئك هم الكاذبون" النحل: 105، اعتراضاً بين البديل والمبدل منه. والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم

الافتراء، ثم قال: "ولكن من شرح بالكفر صدراً" أي طاب به نفساً واعتقده "فعليهم غضب من الله" ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو "وأولئك" على: ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون. أو من الخبر الذي هو الكاذبون، على: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه. ويجوز أن ينتصب على الذم. وقد جوزوا أن يكون "من كفر بالله" شرطاً مبدئياً، ويحذف جوابه، لأن جواب "من شرح" دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب، إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب، روي: أن ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار، وأبواه ياسر وسمية وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم. عذبوا، فأما سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجئ في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً. فقيلاً يا رسول الله، إن عماراً كفر، فقال: "كلا، إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه" فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال: "مالك! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت" ومنهم جبر مولى الحضرمي. أكرهه سيده فكفر ثم أسلم موله وأسلم، وحسن إسلامهما، وهاجرا فإن قلت: أي الأمرين أفضل، أفعل عمار أم فعل أبويه؟ قلت: بل فعل أبويه، لأن في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام. وقد روي: أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول في؟ قال أنت أيضاً، فخلاه. وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول في؟ قال أنا أصم. فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أما الأول فقد أخذ برخصة الله. وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له". "ذلك" إشارة إلى الوعيد، وأن الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة، واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم "وأولئك هم الغافلون" الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم، لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهائها. "ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون".

"ثم إن ربك" دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك، وهم عمار وأصحابه. ومعنى: إن ربك لهم، أنه لهم لا عليهم، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محمياً منفعاً غير مضرور "من بعد ما فتنوا" بالعذاب والإكراه على الكفر. وقرئ: "فتنوا" على البناء للفاعل، أي: بعدما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه "من بعدها" من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر "يوم تأتي" منصوب برحيم. أو بإضمار اذكر. فإن قلت: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ قلت: يقال لعين الشيء وذاته نفسه، وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى هي الجملة، والثانية عينها وذاتها، فكانه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمله شأن غيره، كل يقول: نفسي نفسي. ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها كقوله: "هؤلاء أضلونا" الأعراف: 38، "ما كنا مشركين" الأنعام: 23، ونحو ذلك.

"وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون"

"وضرب الله مثلاً أي جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نعمته. فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها "مطمئنة" لا يزعجها خوف، لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف "رغداً" واسعاً. والأنعم: جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالناء، كدفع وأدرع. أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس. وفي الحديث: نادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم بالموسم بمضى: "إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا". فإن قلت: الإذاقة واللباس استعارتان، فما وجه صحتهما؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار، فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ قلت: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع. وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس: ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث. وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهما من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما، أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له، كما نظر إليه ههنا. ونحوه قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

استعارة الرداء للمعروف، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقي عليه. ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال، لا صفة الرداء، نظر إلى المستعار له. والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار، كقوله:

ينازعني ردائي عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لي الشطر الذي ملكت يميني ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد بردائه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقل: فكساهم لباس الجوع والخوف، ولقال كثير: ضايف الرداء إذا تبسم ضاحكاً "وهم ظالمون" في حال التباسهم بالظلم، كقوله: "الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم" نعوذ بالله من مفاجأة النعمة والموت على الغفلة. وقرئ: والخوف عطفاً على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. أصله: ولباس الخوف. وقرئ: لباس الخوف والجوع.

"فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم".

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها، وصل بذلك بالفاء في قوله "فكلوا" صدهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر إنعامه بذلك، وقال: "إن كنتم إياه تعبدون" يعني تطيعون. أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة، لأنها شفعاءكم عنده. ثم عدد عليهم محرمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم، دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

"ولا تقولوا لمن تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، متاع قليل ولهم عذاب أليم".

وانتصاب "الكذب" بلا تقولوا، على: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم "ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا" الأنعام: 139، من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله أو إلى قياس مستند إليه، واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام. وقوله: "هذا حلال وهذا حرام" بدل من الكذب. ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول، أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم، فتقول هذا حلال وهذا حرام. ولك أن تنصب الكذب بتصف، وتجعل ما مصدرية، وتعلق "هذا حلال وهذا حرام" بلا تقولوا: على ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب، أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجوز في أفواهكم، لا لأجل حجة وبينه، ولكن قول ساذج ودعوى فارغة. فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته، كقولهم: وجهها يصف الجمال. وعينها تصف السحر. وقرئ: الكذب بالجر صفة لما المصدرية، كأنه قيل: لوصفها الكذب، بمعنى الكاذب، كقوله تعالى "بدم كذب" يوسف: 18، والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة. وقرئ: الكذب جمع كذوب بالرفع، صفة للألسنة، وبالنصب على الشتم. أو بمعنى: الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذاباً، ذكره ابن جني. واللام في "لتفتروا" من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض "متاع قليل" خبر مبتدأ محذوف، أي منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم.

"وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

"ما قصصنا عليك" يعني في سورة الأنعام.

"إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم".

"بجهالة" في موضع الحال، أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعباقبه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم "من بعدها" من بعد التوبة.

"إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة من الصالحين".

"كان أمة" فيه وجهان، أحدهما: أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله:

أن يجمع العالم في واحد

وليس على الله بمستنكر

وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمة بمعنى مأموم، أي: يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة والنخبة، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول، فيكون مثل قوله "قال إني جاعلك للناس إماماً" البقرة: 124، وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعي عن ابن مسعود أنه قال: إن معاذاً

كان أمة قانتاً لله، فقلت: غلطت، إنما هو إبراهيم. فقال: الأمة الذي يعلم الخير. والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال حين قيل له: ألا تستخلف؟: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته: ولو كان معاذ حياً لاستخلفته. ولو كان سالم حياً لاستخلفته فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة قانت لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله، لو كان لا يخاف الله لم يعصه" وهو ذلك المعنى، أي: كان إماماً في الدين، لأن الأئمة معلموا الخير. والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم "شاكراً لأنعمه" روي أنه كان لا يتغدى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخلعوا له أن بهم جذاماً؟ فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاككم "اجتباؤه" اختصه واصطفاه للنبوة "وهدها إلى صراط مستقيم" إلى ملة الإسلام "حسنه" عن قتادة: هي تنويه الله بذكره، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه. وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم "لن الصالحين" لن أهل الجنة.

"ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين".

"ثم أوحينا إليك" في ثم هذه ما فيها من تعظيم مترلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلال محله، والإيدان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أوتي من النعمة: اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته. من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها. "إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون".

"السبت" مصدر سبت اليهود إذا عظمت سبتها. إنما جعل وبال السبت وهو المسخ "على الذين اختلفوا فيه" واختلافهم فيه أهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه. والمعنى في ذكر ذلك، نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، وغير ما ذكر، وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالفين ربة طاعته. فإن قلت: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرمين؟ قلت: معناه أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرمين أخرى ووجه آخر: وهو أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شردمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك، وهو يحكم "بينهم يوم القيامة" فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى جعل السبت: فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياذ فيه. وقرئ: إنما جعل السبت على البناء للفاعل وقرأ عبد الله: إنا أنزلنا السبت.

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو

أعلم بالمهتدين".

"إلى سبيل ربك" إلى الإسلام "بالحكمة" بالمقالة الحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة "والموعظة الحسنة" وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها. ويجوز أن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة "وجادلهم بالتي هي أحسن" بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف "إن ربك هو أعلم" بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

"وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون".

سمي الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة. والمعنى: إن صنع بكم صنع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ: وإن عقيبتهم فعقبوا أي: وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روي:

أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقد مثل به، وروي: فرآه مبقور البطن فقال: "أما والذي أحلف به، لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك" فزلت، فكفر عن يمينه وكف عما أراده، ولا خلاف في تحريم المثلة. وقد وردت الأخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور. إما أن يرجع الضمير في "هو" إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم. ويراد بالصابرين: المخاطبون، أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرون موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة. وإما أن يرجع إلى جنس الصبر وقد دل عليه صبرتم ويراد بالصابرين جنسهم، كأنه قيل: وللصبر خير وللصابرين ونحوه قوله تعالى "فمن عفا وأصلح فأجره على الله" الشورى: 40، "وأن تعفوا أقرب للتقوى" البقرة: 237، ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم "اصبر" أنت فعزم عليه بالصبر "وما صبرك إلا بالله" أي بتوفيقه وتشيته وربطه على قلبك "ولا تحزن عليهم" أي على الكافرين، كقوله "فلا تأس على القوم الكافرين" المائدة: 68، أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون "ولا تك في ضيق" وقرئ: ولا تكن في ضيق أي: ولا يضيغن صدرك من مكرهم والضيق: تخفيف الضيق، أي في أمر ضيق. ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين، كالقيل والقول "إن الله مع الذين اتقوا" أي هو ولي الذين اجتنبوا المعاصي "و" ولي "والذين هم محسنون" في أعمالهم. وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص. فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلته، كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية".

سورة الإسراء

مكية وآياتها 111

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع العليم".

"سبحان" علم للتسييح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله. و"أسرى" وسرى لغتان. و"ليلاً" نصب على الظرف فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله "ليلاً" بلفظ التنكير: تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك. أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: من الليل أي بعض الليل، كقوله "ومن الليل فتهجد به نافلة" الإسراء: 79، يعني الأمر بالقيام في بعض الليل. واختلف في المكان الذي أسرى منه فقيل: هو المسجد الحرام بعينه، وهو الظاهر. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "بينما أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق" وقيل: أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام: الحرم، لإحاطته بالمسجد والتباسه به. وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد وروي:

"أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ. وقال: مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبت أم هانئ بثوبه فقال: مالك؟ قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: وإن كذبتني، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلم فحدثهم، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً. وارتد ناس ممن كان قد آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، فسمي الصديق. وفيهم من سافر إلى ماثم، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن غيرنا، فأخبرهم بعدد جماها وأحوالها، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورك، فخرجوا يشددون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قاتل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورك كما قال محمد.

ثم لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلا سحر مبین، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقي الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى واختلفوا في وقت الإسراء فقيل كان قبل الهجرة بسنة.

وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت "والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه" وعن معاوية: إنما عرج بروحه. وعن الحسن. كان في المنام رؤيا رآها. وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ

وراءه مسجد باركنا حوله" يريد بركات الدين والدنيا، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحي، وهو مخفوف بالأثمار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى ثم باركنا ثم ليريه، على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة إنه هو السميع" لأقوال محمد "البصير" بأفعاله، العالم بتهذيبها وخلوصها، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك. "وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً، ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً".

"ألا تتخذوا" قرئ بالياء على: لئلا يتخذوا وبالتالي على: أي لا تتخذوا كقولك: كتبت إليه أن أفعل كذا "وكيلاً" بما تكلون إليه أموركم "ذرية من حملنا" نصب على الاختصاص. وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي، يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا "مع نوح" وقد يجعل "وكيلاً ذرية من حملنا" مفعولي تتخذوا، أي لا تجعلوهم أرباباً كقوله "ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً" ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام وقرئ: ذرية من حملنا بالرفع بدلاً من واو "تتخذوا" وقرأ زيد بن ثابت: ذرية بكسر الهمزة. وروى عنه أنه قد فسرهما بولد الولد، ذكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق "إنه" إن نوحاً "كان عبداً شكوراً" قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني. وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني. وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني، ولو شاء أعراني. وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاي، ولو شاء أحفاني. وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية، ولو شاء حبسه. وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجاً آثره به. فإن قلت: قوله إنه كان عبداً شكوراً ما وجه ملاءمته لما قبله؟ قلت: كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، ولا تشركوا بي، لأن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم. ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح، فهم متصلون به، فاستأهلوا لذلك الاختصاص. ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

"وقضينا على بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً".

"وقضينا على بني إسرائيل" وأوحينا إليهم حياً مقضياً، أي مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة، ويعلمون، أي: يتعظمون ويغنون "في الكتاب" في التوراة، و"لتفسدن"، جواب قسم محذوف. ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم، فيكون "لتفسدن" جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن. وقرئ: لتفسدن على البناء للمفعول. ولتفسدن بفتح التاء من فسد "مرتين" أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم "عباداً لنا" وقرئ: عبيداً لنا وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده وقيل مختصر. وعن ابن عباس: جالوت. قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة، وخربوا المسجد،

وسبوا منهم سبعين ألفاً. فإن قلت: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك وسلطهم عليه، قلت: معنا خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم غنهم، على أن الله عز وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه، فهو كقوله تعالى "وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون" الأنعام: 129، وكقول الداعي. وخالف بين كلمهم. وأسند الجوس وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة فحاسوا بالحاء. وقرئ: فجوسو وخلل الديار. فإن قلت: ما معنى "وعد أولاهما"؟ قلت: معنا وعد عقاب أولاهما "وكان وعداً مفعولاً" يعني: وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل "ثم رددنا لكم الكرة" أي الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو. قيل: هي قتل داود جالوت "أكثر نفيراً" مما كنتم. والنفير، من ينفر جمل مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نفر كالعبيد والمعيز.

"إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً".

أي الإحسان والإساءة: كلاهما مختص بأنفسكم، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم. وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنتم إلى أحد ولا أسأت إليه، وتلاها "فإذا جاء وعد" المرة "الآخرة" بعثناهم "ليسوا وجوهكم" حذف لدلالة ذكره أولاً عليه. ومعنى "ليسوا وجوهكم" ليجعلوها بادية آثار المساءة والكابة فيها، كقوله: "سيئت وجوه الذين كفروا" الملك: 27، وقرئ: ليسوء والضمير لله تعالى، أو للوعد، أو للبعث ولنسوء بالنون. وفي قراءة علي: لنسوان وليسوان وقرئ: لنسوان، بالنون الخفيفة. واللام في "ليدخلوا" على هذا متعلق بمحذوف وهو: وبعثناهم ليدخلوا ولنسوا أن: جواب إذا جاء "ما علوا" مفعول ليتبروا، أي ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه. أو بمعنى: مدة علوهم.

"عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً".

"عسى ربكم أن يرحمكم" بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرت عن المعاصي "وإن عدتم" مرة ثالثة "عدنا" إلى عقوبتكم وقد عادوا، فأعاد الله إليهم النعمة بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم وكن الحسن: عادوا فبعث الله محمداً، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحي من العرب، فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة "حصيراً" محبساً يقال للسجن محصر وحصير. وعن الحسن: بساطاً كما يبسط الحصير المرمول.

"إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً".

"التي هي أقوم" للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها. أو للملة. أو للطريقة. وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ: ويبشر بالتخفيف، فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة؟ قلت: كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي، وإما

مشرك، وإنما حدث أصحاب المتزلة بين المتزتين بعد ذلك. فإن قلت: علام عطف "إن الذين لا يؤمنون"؟ قلت: على "أن لهم أجراً كبيراً" على معنى: أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بشواجم، وبعقاب أعدائهم ويجوز أن يراد: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

"ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً".

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله، كما يدعوهم بالخير، كقوله: "ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير" يونس: 11، "وكان الإنسان عجولاً" يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله، لا يتأني فيه تأني المتبصر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً، فأقبل يئن بالليل، فقالت له: مالك تنن؟ فشكا ألم القد، فأرخت من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه، فقال صلى الله عليه وسلم "اللهم اقطع يديها" فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة، وأن يقطع الله يديها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر فلترد سودة يديها" ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة. "وكان الإنسان عجولاً" يعني أن العذاب آتية لا محالة، فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية، فأجيب له، فضربت عنقه صبراً.

"وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً".

فيه وجهان، أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للبتين، كإضافة العدد إلى المعداد، أي: فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة. والثاني: أن يراد: وجعلنا نري الليل والنهار آيتين، يريد الشمس والقمر. "فمحونا آية الليل": أي جعلنا الليل محو الضوء مضموسه مظلماً، لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح المحو، وجعلنا النهار مبصراً أي تبصر فيه الأشياء وتستبان. أو فمحونا: آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعاً كشعاع الشمس، فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء "لتبتغوا فضلاً من ربكم" لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معاشكم "ولتعلموا" باختلاف الجديدين "عدد السنين و" جنس "الحساب" وما تحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات، ولتعطلت الأمور "وكل شيء" مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم "فصلناه" بيناه بياناً غير ملتبس، فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا.

"كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً".

"طائره" عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل. وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم، إذا خرج، يعني: ألزمناه ما طار من عمله. والمعنى أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق

الحمامة. وقولهم: الموت في الرقاب. وهذا رقيقة في رقبته. عن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدها في عنقك. وقرئ: في عنقه بسكون النون. وقرئ: نخرج بالنون. ويخرج بالياء، والضمير لله عز وجل ويخرج على البناء للمفعول. ويخرج من خرج، والضمير للطائر. أي: يخرج الطائر كتاباً، وانتصاب "كتاباً" على الحال. وقرئ: يلقاه بالتشديد مبنياً للمفعول. و"يلقاه منشوراً" صفتان للكتاب. أو "يلقاه" صفة و"منشوراً" حال من يلقاه "أقرأ" على إرادة القول. وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً. و"بنفسك" فاعل كفى. و"حسيباً" تمييز وهو بمعنى حاسب كضرب القداح بمعنى ضاربها وصرم بمعنى صارم ذكرهما سبويه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا. لجوز أن يكون بمعنى الكافي وضع موضع الشهيد فعدي بعلى لأن الشاهد يكفي المدعي ما أهمه. فإن قلت: لم ذكر حسيباً؟ قلت: لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير، لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال، فكانه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً. ويجوز أن تأول النفس بالشخص، كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم، نصفك واللّه من جعلك حسيب نفسك.

"من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن يضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً".

أي: كل نفس حاملة وزراً، فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى "وما كنا معذبين" وما صح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوماً إلا بعد أن "نبعث" إليهم "رسلاً" فتلزمهم الحجة. فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لنلا يقولوا: كنا غافلين فلو لا بعثت إلينا رسلاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

"وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً".

"وإذا أردنا" وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل، أمرناهم "ففسقوا" أي أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز: لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاباً أقوياء، وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم إيتار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم. فإن قلت: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ قلت: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه، وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام؟ وأمرته فقراً لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم: أمرته فعصاني، أو فلم يمثل أمري. لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على

المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي، لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به، وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول. فإن قلت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير، دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ قلت: لا يصح ذلك؛ لأن قوله "فسقوا" يدافعه، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعي إضمار خلافه، فكان صرف الأمر إلى الجواز هو الوجه، ونظير "أمر" شاء: في أن مفعوله استفاض فيه الحذف، لدلالة ما بعده عليه، تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك. تريد: لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمير خلاف ما أظهرت وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الإساءة، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سداد. وقد فسر بعضهم "أمرنا" بكثرتنا، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته ففعل. كثرتة فثبر. وفي الحديث: "خير المال سكة مأبورة ومهرة مأبورة" أي كثرة النتاج وروي: أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أرى أمرك هذا حقيراً فقال صلى الله عليه وسلم: "إنه سيأمر". أي سيكثر وسيكبر.

"وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً".
وقرئ: أمرنا من أمر وأمره غيره. وأمرنا بمعنى أمرنا. أو من أمر إمارة، وأمره الله. أي: جعلناهم أمراء وسلطانهم "كم" مفعول "أهلكنا" و"من القرون" بيان لكم وتمييز له، كما يميز العدد بالجنس. يعني عاداً وثموداً وقرونًا بين ذلك كثيراً. ونبه بقوله "وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً" على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير، وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

"من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً".

من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقيدين، أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته. والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال: ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي: أوتي حظاً من الدنيا أو لم يوت فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيراً له وأعون على مراده. وقوله "لمن نريد" بدل من له، وهو بدل البعض من الكل: لأن الضمير يرجع إلى من وهو في معنى الكثرة. وقرئ: يشاء وقيل: الضمير لله تعالى، فلا فرق إذاً بين القراءتين في المعنى ويجوز أن يكون للعبد، على أن للعبد ما يشاء من الدنيا. وأن ذلك لواحد من الدهماء يريد به الله ذلك. وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة، كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهد للغنيمة والذكر، كما قال صلى الله عليه وسلم.

"فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه" "مدحوراً" مطروداً من رحمة الله "سعيها" حقها من السعي وكفائها من الأعمال الصالحة.

اشترط ثلاث شرائط في كون السعي مشكوراً: إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك. والإيمان الصحيح الثابت. وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب. وتلا هذه الآية. وشكر الله: الثواب على الطاعة.

"كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً".

"كلاً" كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه "نمد" هم: نزيدهم من عطائنا، ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه. فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل "وما كان عطاء ربك" وفضله "محظوراً" أي ممنوعاً، لا يمنعه من عاص لعصيانه.

"انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً".

"انظر" بعين الاعتبار "كيف" جعلناهم متفاوتين في التفضل. وفي الآخرة التفاوت أكبر، لأنها ثواب وأعواض وتفضل، وكلها متفاوتة. وروي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه، فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا أنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة. ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ: وأكثر تفضيلاً وعن بعضهم: أيها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل؟ "ولا تجعل مع الله لهاً آخر فتقع مذموماً مخذولاً".

"فتقع" من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى صارت، يعني: فتصير جامعاً على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من الهلك، والخذلان والعجز عن النصر ممن جعلته شريكاً له.

"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحهما كما ربياني صغيراً".

"وقضى ربك" وأمر أمراً مقطوعاً به "ألا تعبدوا" أن مفسرة ولا تعبدوا فهي. أو بأن لا تعبدوا "وبالوالدين إحساناً" وأحسنوا بالوالدين إحساناً. أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً وقرئ: وأوصى وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ووصى. وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك. ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان: لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته "إما" هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها، ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت إن لم يصح دخولها، لا تقول: إن تكر من زيدا يكرمك، ولكن إما تكر منه. و"وأحدهما" فاعل يبلغن، وهو فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و"كلاهما" عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً. فإن قلت: لو قيل إما يبلغان كلاهما، كان كلاهما تأكيداً لا بدلاً، فمالك زعمت أنه بدل؟ قلت: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون تأكيداً للثنتين، فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله. فإن قلت: ما ضرك لو جعلته تأكيداً مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البدل؟ قلت: لو أريد توكيد التثنية لقل: كلاهما، فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما، علم أن التوكيد غير مراد، فكان بدلاً مثل الأول "أف" صوت يدل على تضجر. وقرئ: أف بالحرركات الثلاث منوناً وغير منون: الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم، والضم إتباع

كمنذ. فإن قلت: ما معنى عندك؟ قلت: هو أن يكبرا ويعجزا، وكانا كلاً على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أو يستثقل من مؤنهما: أف، فضلاً عما يزيد عليه. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افترضها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضرع مع موجبات الضرر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في استطاعة "ولا تنهرهما" ولا تزجرهما عما يتعاطيان مما لا يعجبك. والنهي والنهر والنهم: أخوات "وقل لهما" بدل التأفيف والنهر "قولاً كريماً" جليلاً، كما يقتضيه حسن الأدب والتزول على المروءة. وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه، يا أماه، كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت، مع كفره، ولا يدعوهم. بأسمائهما فإنه من الجفا وسوء الأدب وعادة الدعار. قالوا: ولا بأس به في غير وجهه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: نحلي أبو بكر كذا. وقرئ: جناح الذل الذل: بالضم والكسر فإن قلت: ما معنى قوله "جناح الذل"؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك كما قال "واخفض جناحك للمؤمنين" الحجر: 88، فأضافه إلى الذل أو الذل، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الدليل أو الذلول. والثاني: أن تجعل لذه أو لذه لهما جناحاً خفيضاً، كما جعل لبيد للشمال يداً، وللقوة زماماً، مبالغة في التذلل والتواضع لهما "من الرحمة" من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهم عليك في صغرك وتربيتهم لك. فإن قلت: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين. قلت: وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزاً ثم نسخ، وسئل ابن عيينة، عن الصدقة عن الميت فقال: كل ذلك واصل إليه، ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين. ولقد كرر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما" وروي: "يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة" وروي سعيد بن المسيب: إن البار لا يموت ميتة سوء.

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أبوي بلغا من الكبر أي ألي منهما ما ولياً مني في الصغر، فهل قضيتهما؟ قال: لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يجبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما. وشكا رجل إلى رسول الله أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا، فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويدخل علي بماله، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك.

وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال: لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر؟ قال: إنها سيئة الخلق. قال: لم تكن

كذلك حين أَرْضَعْتِكَ حولين؟ قال: إنما سيئة الخلق. قال: لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها؟ قال: لقد جازيتها. قال: ما فعلت؟ قال: حججت بها على عاتقي. قال: ما جزيتها ولو طلقة. وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه ويقول:

إذا الركاب نفرت لا تنفر

إني لها مطية لا تذعر

الله ربي ذو الجلال الأكبر

ما حملتني وأرضعتني أكثر

ثم قال تظني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: لا ولو زفرة واحدة وعنه عليه الصلاة والسلام: "إياكم وعقوق الوالدين، فإن الجنة توجد رجحاً من مسيرة ألف عام، ولا يجد رجحاً عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء، إن الكبرياء لله رب العالمين".

وقال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة، وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يناول له الخمر. ويأخذ الإناء منه إذا شربها وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد. وعن حذيفة: أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه وهو في صف المشركين، فقال: دعه يليه غيرك. وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل. وسئل بعضهم فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شراً إليهما، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما. فعن النبي صلى الله عليه وسلم.

"إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه".

"ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً".

"بما في نفوسكم" بما في ضمائرهم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير "إن تكونوا صالحين" قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر، أو لحماية الإسلام هنة تؤدي إلى أذاهما، ثم أنبتم إلى الله واستغفرتن منها، فإن الله غفور "للأوابين" للتوابين. وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير. وعن سعيد بن المسيب: الأواب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة. ويجوز أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه النائب من جنابته، لوروده على أثره.

"وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً".

"وأت ذا القربى حقه" وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم: وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب، وكان الرجل موسراً: أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة. والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب. وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم: كأبناء العم، فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاودة ونحو ذلك "والمسكين وابن السبيل" يعني وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القرابة من الحق: هو تعهدهم بالمال. وقيل:

أراد بذى القربى أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي. وإنفاقه على وجه الإسراف. وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله بالنفقة في وجوها مما يقرب منه ويزلف. وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه. وعن مجاهد: لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير. وعن عبد الله بن عمرو: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار "إخوان الشياطين" أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمة، لأنه لا شر من الشيطان. أو هم إخوانهم وأصدقائهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرهم به من الإسراف. أو هم قرنائهم في النار على سبيل الوعيد "وكان الشيطان لربه كفوراً" فما ينبغي أن يطاع، فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله. وقرأ الحسن إخوان الشيطان.

"وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً".

وإن اعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد "فقل لهم قولاً ميسوراً" فلا تتركهم غير مجابين إذا سألك.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء.

قوله "ابتغاء رحمة من ربك" إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه، أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً، رحمة لهم وتطبيراً لقلوبهم، ابتغاء رحمة من ربك، أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم. وإما أن يتعلق بالشرط، أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك، فسمى الرزق رحمة، فردهم رداً جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؟ لأن فاقداً الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبب موضع السبب. ويجوز أن يكون معنى "وإما تعرض عنهم" وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؟ لأن من أبي أن يعطي، أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر، مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول. وقيل معناه: فقل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله، على أنه دعاء لهم يسر عليهم فقرهم، كأن معناه: قولاً ذا ميسور، وهو اليسر، أي: دعاء فيه يسر.

"ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً".

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير "فتقعد ملوماً" فتصير ملوماً عند الله، لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس، يقول المحتاج: أعطى فلاناً وحرمني. ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة. وعند نفسك: إذا احتجت فندمت على ما فعلت "محسوراً" منقطعاً بك لا شيء عندك، من حسره السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة. وعن جابر: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبي فقال: إن أمي تستكسيك درعاً، فقال من ساعة إلى ساعة يظهر، فعد إلينا، فذهب إلى أمه فقالت له قل له: إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة. وقيل أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن، فجاء عباس بن مرداس، وأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيد

وما كان حصن ولا حابس

وما كنت دون امرئ منهما

بين عيينة والأقرع

يفوقان جدي في مجمع

ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال: يا أبا بكر، أقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل فترلت.

"إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً".

ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الإضافة، بأن ذلك ليس لهوان منك عليه، ولا لبخل به عليك ولكن لأن مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة. ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزان في يده، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا. ويحتمل أنه عز وعلا بسط لعباده أو قبض، فإنه يراعي أوسط الحالين، لا يبلغ بالميسر له غاية مراده، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه، فاستنوا بسنته.

"ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم إن قتلهم كان خطأ كبيراً".

قتلهم أولادهم: هو وأدهم بناقم، كانوا يندونهم خشية الفاقة وهي الإملاق، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ خشية بكسر الخاء. وقرئ: خطأ وهو الإثم. يقال: خطيء خطأ، كإثم إثماً، وخطأ وهو ضد الصواب، اسم من أخطأ. وقيل والخطأ كالحذر والحذر، وخطأ بالكسر والمد. وخطأ بالفتح والسكون. وعن الحسن: خطأ بالفتح وحذف الهمزة كالحب. وعن أبي رجاء: بكسر الخاء غير مهموز.

"ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً".

"فاحشة" قبيحة زائدة على حد القبح "وساء سبيلاً" وبئس طريقاً طريقة، وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله.

"ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً".

"إلا بالحق" إلا بإحدى ثلاث: إلا بأن تكفر، أو تقتل مؤمناً عمداً، أو تزني بعد إحصان. "مظلوماً" غير راكب واحدة منهن "لوليه" الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه "سلطاناً" تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه. أو حجة يشب بها عليه "فلا يسرف" الضمير للولي. أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية: كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة، حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحارث بن عباد: يؤ بشسع نعل كليب وقال:

كل قتيل في كليب غره

حتى ينال القتل آل مره

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء. وقيل: الإسراف المثلة. وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرف، بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر. وفيه مبالغة ليست في الأمر. وعن مجاهد: أن الضمير للقاتل الأول. وقرئ: فلا تسرف على خطاب الولي أو قاتل المظلوم. وفي قراءة أبي فلا تسرفوا رده على: ولا تقتلوا "إنه كان منصوراً"

الضمير إما للولي، يعني حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأن الله قد نصره بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق، فلا يبغي ما وراء حقه. وأما للمظلوم، لأن الله نصره وحيث أوجب القصاص بقتله، وينصره في الآخرة بالثواب. وإما الذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله، فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف.

"ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً".
"إلا بالتي هي أحسن" بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه عليه وتثميته "إن العهد كان مسؤولاً" أي مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه وبقي به، ويجوز أن يكون تحيلاً، كأنه يقال للعهد: لم نكثت؟ وهلا وفي بك؟ تبيكيتاً للنكث، كما يقال للموؤدة: بأي ذنب قتلت؟ ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.
"وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً".
وقرئ بالقسطاس بالضم والكسر، وهو القرسطون. وقيل: كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها "وأحسن تأويلاً" وأحسن عاقبة، وهو تفعيل، من آل إذا رجع، وهو ما يؤول إليه.
"ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنهم مسؤولاً".
"ولا تقف" ولا تتبع. وقرئ ولا تقف. يقال: قفا أثره وقافه، ومنه: القافة، يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل، كمن يتبع مسلماً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال. والمراد: النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً. لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساد. وعن ابن الحنفية: شهادة الزور وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مر بك، فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيتك يفعل، وسمعتك، ولم تر ولم تسمع. وقيل: القفو شبيهة بالعصية ومنه الحديث: "من قفى مؤمناً بما ليس فيه حسبه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج" وأنشد:

بهن الحياء لا يشعن التقافيا

ومثل الدمى شم العرانيين ساكن

أي التخاذل. وقال الكميت:

ولا أقفو الحواصن إن قفينا

ولا أرمي البري بغير ذنب

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح، لأن ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام الحلم، وأمر بالعمل به "أولئك" إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، كقوله:

والعين بعد أولئك الأيام

"وعنه" في موضع الرفع بالفاعلية، أي: كل واحد منها كان مسئولاً عنه، فمستول: مسند إلى الجار والمجرور، كالمغضوب في قوله "غير المغضوب عليهم" الفاتحة: 7، يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ والفؤاد بفتح الفاء والواو، قلبت الهمزة واواً بعد الضمة في الفؤاد، ثم استصحب القلب مع الفتح.
"ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً".

"مرحاً" حال، أي: ذا مرح. وقرئ مرحاً وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد "لن تحرق الأرض" لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطأتك. وقرئ لن تحرق، بضم الراء "ولن تبلغ الجبال طولاً" بتطاؤلك وهو تمكم بالمختال. قرئ سيئة وسيئه على إضافة سيء إلى ضمير كل، وسيئاً في بعض المصاحف، وسيئات. وفي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. كان شأنه. فإن قلت: كيف قيل سيئه مع قوله مكرراً؟ قلت: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه. ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئاً. ألا تراك تقول: الزنا سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث. فإن قلت: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئة؟ قلت: كل ذلك إحاطة بما هي عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة.

"ذلك" مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً". "ذلك" إشارة إلى ما تقدم من قوله "لا تجعل مع الله إلهاً آخر" الإسراء: 22، إلى هذه الغاية. وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه. وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى، أولها، لا تجعل مع الله إلهاً آخر، قال الله تعالى "وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة" الأعراف: 145، وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؟ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء. وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم.

"وأفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً". "وأفأصفاكم" خطاب للذين قالوا "الملائكة بنات الله" والهمزة للإنكار. يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه. واتخذ أدوهم وهي البنات، وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعاداتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الثوب، ويكون أردأها وأدونها للسادات "إنكم لتقولون قولاً عظيماً" بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق الله وهم الإناث. "ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا ما يزيدهم إلا نفوراً".

"ولقد صرفنا في هذا القرآن" يجوز أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات، لأنه مما صرفه وكرر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى. أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكاناً للتكرير. ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد. ولقد صرفناه. يعني هذا المعنى في مواضع من التنزيل، فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: صرفنا بالتخفيف وكذلك "ليذكروا" قرئ مشدداً ومخففاً، أي: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتاج به عليهم "ما يزيدهم إلا نفوراً" عن الحق وقلة طمأنينة إليه. وعن سفيان: كان إذا قرأها قال: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

"قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً".

قري كما تقولون بالتاء والياء. و"إذا" دالة على أن ما بعدها وهو "لابتغوا" جواب عن مقالة المشركين وجزاء ل"لو" ومعنى "لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً" لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" الأنبياء: 22، وقيل: لتقربوا إليه، كقوله "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة" الإسراء: 57، "علواً" في معنى تعالياً. والمراد البراءة عن ذلك والتزاهة. ومعنى وصف العلو بالكبر: المبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به.

"تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً".

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تنطق بذلك، وكأنها تتره الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها. فإن قلت: فما تصنع بقوله "ولكن لا تفقهون تسبيحهم" وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قلت: الخطاب للمشركين، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا: الله؟ إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم، فكأنهم لم ينظروا ولم يقرؤا، لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق. فإن قلت: من فيهن يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة والثقلان، وقد عطفوا على السموات والأرض، فما وجهه؟ قلت: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه، وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز "إنه كان حليماً غفوراً" حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

"وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على إبراهيم نفوراً، نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذا هم نحوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً".

"حجاباً مستوراً" ذا ستر كقولهم. سيل مفعم ذو إفعام. وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور. ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب، فهو مستور بغيره. أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه "وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب" فصلت: 5، كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم "أَن يَفْقَهُوْهُ" كراهة أن يفقهوه. أو لأن قوله "وجعلنا على قلوبهم أكنة" فيه معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحداً وحداً، نحو وعد يعد وعداً وعدة، و"وحدة" من باب رجع عوده على بدئه، وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر ساد مسد الحال، أصله: يحد وحده بمعنى واحداً، وحده. والنفور: مصدر بمعنى التولية. أو جمع نافر كقاعد وقعود، أي: يحبون أن تذكر معه ألفتهم لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا "بما يستمعون به" من الهزؤ بك وبالقرآن، ومن اللغو: كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار. و"به" في موضع الحال كما تقول يستمعون بالهز، أي هازئين. و"إذ يستمعون" نصب بأعلم، أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون "وإذا هم نحوى" وبما يتناجون به، إذ هم ذوو نحوى "إذ يقول" بدل من إذ هم "مسحوراً"

سحر فجن. وقيل: هو من السحر وهو الرثة، أي: هو بشر مثلكم "ضربوا لك الأمثال" مثلوك بالشاعر والساحر وانجنون "فضلوا" في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

"وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً، قل كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً".

لما قالوا: أنذا كنا عظاماً قليل لهم "كونوا حجارة أو حديداً" فرد قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائرته، فليس بدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارة والصلابة لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة "أو خلقاً مما يكبر في صدوركم" يعني أو خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة وبعضكم على زعمكم على الخالق إحياءه فإنه يحيه. وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت. وقيل:

السموات والأرض "فَسَيَغْضُونَ" فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاء.

"يوم يدعوكم فتستجيبوا بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً".

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز. والمعنى: يوم يبعثكم فتستجيبون مطاوعين منقادين لا تمتنعون. وقوله "بحمده" حال منهم، أي حامدين، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع ستركبه وأنت حامد شاكر، يعني: أنك تحمل عليه وتقسر قسراً حتى أنك تلين لين المسموح الراغب فيه الحامد عليه، وعن سعيد بن جبیر: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك "وتظنون" وترون الهول، فعنده تستقصرون مدة لبثكم في الدنيا، وتحسبونها يوماً أو بعض يوم. وعن قتادة: تحاقت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

"قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان يتوغل بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً، ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً".

"قل لعبادي" وقل للمؤمنين "يقولوا" للمشركين الكلمة التي "هي أحسن" وألين ولا يخاشنوها، كقوله: وجادلهم بالتي هي أحسن. وفسر التي هي أحسن بقوله "ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم" يعني يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر. وقوله "إن الشيطان يتوغل بينهم" اعتراض، يعني يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشاركة والمشاقة "وما أرسلناك عليهم وكيلاً" أي رباً موكلاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمدارة والاحتمال وترك الحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية

السيف. وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه: شتمه رجل فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فزلت. وقيل: الكلمة التي هي أحسن: أن يقولوا يهديكم الله، يرحمكم الله. وقرأ طلحة: يترغ بالكسر وهما لغتان، نحو يعرشون ويعرشون.

"وربك أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً". هو رد على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن تكون العراة الجوع أصحابه، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم، يعني: وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم، وقوله "ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض" إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله "وآتينا داود زبوراً" دلالة على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم؟ لأن ذلك مكتوب في زبور داود. قال الله تعالى "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" الأنبياء: 105، وهم محمد وأمهته. فإن قلت: هلا عرف الزبور كما عرف في قوله "ولقد كتبنا في الزبور" الأنبياء: 105، قلت: يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس، والفضل وفضل، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزبور وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبور، فسمى ذلك زبوراً، لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قراناً.

"قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، أولئك الذين يدعون ويبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً". "قل ادعوا الذين زعمتم من دونه" هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل نفر من الجن، عبداهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا، أي: ادعوه فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه. و"أولئك" مبتدأ، و"الذين يدعون" صفتهم، و"يبتغون" خبره، يعني: أن أهلتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القرية إلى الله تعالى. و"إنهم" بدل من واو يبتغون، وأي موصولة، أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله، فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون، فكانه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصالح، ويرجون، ويخافون، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ "إن عذاب ربك كان" حقيقة بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل، فضلاً عن غيرهم.

"وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب المسطور". "نحن مهلكوها" بالموت والاستئصال "أو معذبوها" بالقتل وأنواع العذاب. وقيل: الهلاك للصالحة، والعذاب للطالحة. وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخرها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجال بالصوصاق والرواجف. وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم ذكرها بلداً بلداً "في الكتاب" في اللوح المحفوظ.

"وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا

تخويفاً".

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. وأن الأولى منصوبة والثانية مرفوعة، تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين. والمراد: الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً ومن إحياء الموتى وغير ذلك: وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمنعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة، ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة: وهي ناقة صالح، لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم "مبصرة" بيّنة. وقرئ مبصرة بفتح الميم "فظلموا بها" فكفروا بها "وما نرسل بالآيات" أراد بها الآيات المقترحة فالمنعنى لا نرسلها "إلا تخويفاً" من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له، فان لم يخافوا وقع عليهم وإن أراد غيرها فالمنعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة..

"وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً".

"وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس" واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش، يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم. وذلك قوله "سيهزم الجمع ويولون الدبر" القم: 45، "قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون" آل عمران: 12، وغير ذلك، نجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره. وحين تراحف الفريقان يوم بدر والنبي صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: اللهم إني أسألك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه.

فقد كان يقول حين ورد ماء بدر والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يوميء إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله: "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم" الدخان: 43، جعلوها سخرية وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر. وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وما أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الأحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها، فما أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. والمعنى: أن الآيات إنما يرسل بها تخويفاً للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر. فما كان ما "أريناك" منه في منامك بعد

الوحي إليك "إلا فتنة" لهم حيث اتخذوه سخريةً وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم "ونحوفهم" أي نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة "فما يزيدهم" التخويف "إلا طغياناً كبيراً". فكيف يخاف قوم هذه حاهم يارسال ما يقترحون من الآيات. وقيل: الرؤيا هي الإسراء، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال: كان في اليقظة، فسر الرؤيا بالرؤية. وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيته، وخيال خيل إليك، استبعاداً منهم، كما سمي أشياء بأساميتها عند الكفرة، نحو قوله: "فراغ إلى آهتهم" الصافات: 91، "أين شركائي" النحل: 27، "ذق إنك أنت العزيز الكريم" الدخان: 49، وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة. وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة. فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة، لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة، وإنما وصفت بلعن أصحابها على الجاز. وقيل: وصفها الله باللعن، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام الملعون القشب المحقوق. وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب. أو قيل: هي الشيطان، وقيل: أبو جهل. وقرئ والشجرة الملعونة بالرفع، على أنها مبتدأ محذوف الخبر، كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

"وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً، قال أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجالك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، إن عبادي ليس عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا".

"طيناً" حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد، على: أسجد له وهو طين، أي أصله طين. أو من الراجع إليه من الصلة على: سجد لمن كان في وقت خلقه طيناً "أرايتك" الكاف للخطاب، و"هذا" مفعول به. والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرمته "هـ" عليّ أي فضلته، لم كرمته علي وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتداء فقال "لن أخرتن" واللام موطئة للقسم المحذوف "لأحتكن ذريته" لأستأصلنهم بالإغواء، من احتكن الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلاً، وهو من الحنك. ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين أي أكلهما. فإن قلت: من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قلت: إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرج من قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني. وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة "أذهب" ليس من الذهاب الذي هو نقيض الحجيء، إنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخليّة، وعقبه بذكر ما جزه سوء اختياره في قوله "فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم" كما قال موسى عليه السلام للسامري "فأذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس" طه: 97، فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت: بلى، ولكن التقدير: فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقل: جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق

الالتفات، وانتصب "جزاء موفورا" بما في "إن جهنم جزاؤكم" من معنى تجاوزون. أو ياضمار تجاوزون. أو على الحال، لأن الجزاء موصوف بالموفور، والموفور الموفر. يقال: فر لصاحبك عرضه فرة. استفزه: استخفه. والفر: الخفيف "وأجلب" من الجلبة وهي الصياح. والخيال: الخيالة. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "يا خيل الله اركبي". والرجل اسم جمع للرجال. ونظيره: الركب والصحب. وقرئ: ورجلك على أن فعلا بمعنى فاعل، نحو: تعب وتاعب. ومعناه: وجهك الرجل، وتضم جيمه أيضاً فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس، وأخواتهما. يقال: رجل رجل. وقرئ ورجالك ورجالك فإن قلت: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجالبه بخيله ورجله؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثل حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم. وقيل: بصوته، بدعائه إلى الشر. وخيله ورجله: كل راكب وماش من أهل العيث، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال. وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في باهم، كالربا والمكاسب الخمر، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق، والإسراف. ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المخطورة، وغير ذلك "وعدهم" المواعيد الكاذبة. من شفاعاة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وتسويف التوبة ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة، وشفاعة الرسول في الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً، وإيثار العاجل على الآجل "إن عبادي" يريد الصالحين "ليس لك عليهم سلطان" أي لا تقدر أن تغويهم "وكفى بربك وكياً" هم يتوكلون به في الاستعانة منك، ونحوه قوله: "إلا عبادك منهم المخلصين" فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغوياً مضلاً داعياً إلى الشر، صاداً عن الخير؟ قلت: هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية، كما قال للعصاة: اعملوا ما شئتم. "ربكم الذي يجزي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً، وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً".

"يزجي" يجري ويسير. والضر: خوف الغرق "ضل من تدعون إلا إياه" ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أن غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوين. ويجوز أن يراد: ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده على الاستثناء المنقطع. "أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً، أم أمنت أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً". "أفأنتم" الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتهم، فحملكم ذلك على الإعراض. فإن قلت: بم انتصب "جانب البر"؟ قلت: بيخسف مفعولاً به، كالأرض في قوله "فخسفنا به وبداره الأرض" القصص: 81. و"بكم" حال. والمعنى: أن يخسف جانب البر، أي يقلبه وأنتم عليه. فإن قلت فما معنى ذكر الجانب؟ قلت:

معناه أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب براً كان أو بحراً سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف، لأنه تغيب تحت التراب بهما أن الغرق تغيب تحت الماء، فالبر والبحر عنده سياتن يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان "أو يرسل عليكم حاصباً" وهي الرياح التي تحصب أي ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يركمكم بها، فيكون أشد عليكم من الغرق في البحر "وكيلاً" من يتوكل بصرف ذلك عنكم "أم أمنتكم" أن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم، فإنتقم منكم بأن يرسل "عليكم قاصفاً" وهي الرياح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد، كأنها تتقصف أي تتكسر. وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفتها "فيغرقكم" وقرئ بالتاء أي الريح وبالنون وكذلك: نخسف، ونرسل، ونعيدكم، قرأت بالياء والنون. التبييع: المطالب، من قوله "فاتباع بالمعروف" البقرة: 178، أي مطالبة. قال الشماخ:

كما لاذ الغريم من التبييع

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي مسيطر عليه مطالب له بحقه. والمعنى: أنا نفعل ما نفعل بهم، ثم لا تجد أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودركاً للثأر من جهتنا. وهذا نحو قوله "ولا يخاف عقباها" الشمس: 15، "بما كفرتم" بكفرواكنم النعمة، يريد: إعرضهم حين نجاهم.

"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً". قيل في تكريمه ابن آدم: كرمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد. وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيرهم لهم. وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد: أنه أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم" جعلنا لهم أصابع يأكلون بها، فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه "وعلى كثير ممن خلقنا" هو ما سوى الملائكة وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومثلتهم عند الله مثلتهم. والعجب من الجيرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا، حتى جسرهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعد ما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم، وأين قربهم، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أمهم، ثم جزهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخباراً منها: قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك، فأعطاه في الآخرة. فقال: وعزتي وجلالي، لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان". ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن كرم على الله من الملائكة الذين عنده. ومن ارتكأهم أنهم فسروا "كثيراً" بمعنى جميع في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: وفضلناهم على جميع ممن خلقنا، على أن معنى قولهم "على جميع ممن خلقنا" أشجى خلوقهم وأقذى لعيونهم، ولكنهم لا يشعرون. فانظر إلى تحلهم وتشبههم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملائكة الأعلى،

كأن جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم.

"يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً".

قريء: يدعو بالياء والنون. ويدعى كل أناس، على البناء للمفعول. وقرأ الحسن يدعوا كل أناس على قلب الألف واواً في لغة من يقول: افعوا. والظرف نصب بإضمار اذكر. ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع، كما في "وأسروا النجوى الذين ظلموا" الأنبياء: 3، والرفع مقدر كما في يدعى، ولم يؤت بالنون قلة مبالاة بها، لأنها غير ضمير، ليست إلا علامة "إمامهم" بمن انتموا به من نبي أو مقدم في الدين، أو كتاب، أو دين، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمامهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر. وفي قراءة الحسن بكتابهم ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا.

وليت شعري أيهما أبدو؟ أصحة لفظه أم بماء حكمته؟ "فمن أوتي" من هؤلاء المدعويين "كتاب بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم" قيل أولئك، لأن من أوتي في معنى الجمع. فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤون كتابهم. قلت: بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جنائياته، والاعتراف بمساوئه، أمام التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والحجل والانخزال، وحسبة اللسان، والتستع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكان قراءتهم كلا قراءة. وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: "هاؤم اقرؤوا كتابيه" الحاقة: 19، "ولا يظلمون فتيلاً" ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء، كقوله "ولا يظلمون شيئاً" مريم: 60، "فلا يخاف ظملاً ولا هضمًا" طه: 112،.

"ومن كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً".

معناه: ومن كان في الدنيا أعمى، فهو في الآخرة أعمى كذلك "وأضل سبيلاً" من الأعمى: والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة: أما في الدنيا فلفقد النظر. وأما في الآخرة، فلأنه لا ينفعه الاهتمام إليه، وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل. ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول مملاً، والثاني مفخماً، لأن أفعال التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام، كقولك: أعمالكم وأما الأول فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

"وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لا تأخذوك خليلاً، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذا لأذقناك ضعف الحياة الدنيا وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً".

روي: أن ثقيفاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا نعشر، ولا نخسر، ولا نجبي في صلاتنا، وكل ربا لنا فهو لنا، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرهما بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمتع من قصد وادينا وفي فعصد شجره، فإذا سألتك العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني به، وجاؤا بكتابهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله

لثقيف: لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا للكاتب: اكتب: ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسل سيفه وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعرت الله قلوبكم ناراً، فقالوا: لسننا نكلم إياك، إنما نكلم محمداً. فزلت. وروي أن قريشاً قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى تؤمن بك. فزلت "وإن كادوا ليفتنوك" إن مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فأتين "عن الذي أوحينا إليك" من أوامرنا ونواهيها ووعدنا ووعدنا "لتفتري علينا" لتقول علينا ما لم نقل، يعني ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً، وما اقترحتة ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم يزل عليه "وإذا لا تخذوك" أي ولو اتبعت مرادهم لا تخذوك "خليلاً" ولكنك لهم ولياً وخرجت من ولايتي "لولا أن ثبتناك" ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا "لقد كدت تركن إليهم" لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت، وفي ذلك لطف للمؤمنين "إذا" لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة "لأذقناك ضعف الحياة الدنيا وضعف الممات" أي لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين. فإن قلت: كيف حقيقة هذا الكلام؟ قلت: أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات، لأن العذاب عذابان: عذاب في الممات وهو عذاب القبر، وعذاب في الحياة الآخرة وهو عذاب النار. والضعف يوصف به، نحو قوله "فآثم عذاباً ضعفاً من النار" الأعراف: 38، بمعنى مضاعفاً، فكان أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات. ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقليل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات. ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما تؤخره لما بعد الموت، وفي ذكر الكيدودة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة الخيرة القباتح إلى الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً وفيه دليل على أن أدنى مدهانة للغواية مضادة لله وخروج عن ولايته، وسبب موجب لغضبه ونكاله. فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يحتو عندها ويتدبرها، فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الحشية وازدياد التصلب في دين الله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت كان يقول: "اللهم لا تكنني إلى نفسي طرفة عين".

"وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً".

"وإن كادوا" وإن كاد أهل مكة "ليستفزونك" ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم "من الأرض" من أرض مكة "وإذا لا يلبثون" لا يبقون بعد إخراجك "إلا" زماناً "قليلاً" فإن الله مهلكهم وكان كما قال، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجهم بقليل. وقيل: معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم. ولم يخرجوه، بل هاجر بأمر ربه. وقيل: من أرض العرب. وقيل: من أرض المدينة، وذلك.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم، فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لآمننا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم، فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة، وقيل: بذي الحليفة، حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازماً على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله، فترلت، فرجع وقرأ "لا يلبثون" وفي قراءة أبي لا يلبثوا على أعمال إذا. فإن قلت: ما وجه القراءتين؟ قلت: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل. وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم. وأما قراءة أبي ففيها الجملة برأسها التي هي إذا لا يلبثوا، عطف على جملة قوله "وإن كادوا ليستفزونك" وقرأ خلافك قال:

عفت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطئ بينهم حصيراً

أي بعدهم "سنة من قد أرسلنا" يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد، أي: سن الله ذلك سنة. "أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً".

دلكت الشمس: غربت. وقيل: زالت. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس. فصلى بي الظهر" واشتقاقه من ذلك، لأن الإنسان يدللك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق: الظلمة، وهو وقت صلاة العشاء "وقرآن الفجر" صلاة الفجر، سميت قرآناً وهو القراءة لأنها ركن، كما سميت ركوعاً وسجوداً وقنوتاً، وهي حجة على ابن عليّة والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن "مشهوداً" يشهده ملائكة الليل والنهار يتزل هؤلاء، ويصعد هؤلاء، فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في المادة. أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة. ويجوز أن يكون "قرآن الفجر" حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر، لكونها مكثوراً عليها، ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة "ومن الليل" عليك بعض الليل "فتهجد به" والتهجد ترك الهجود للصلاة، ونحو التأثم والتخرج. ويقال أيضاً في النوم: تهجد "نافلة لك" عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجد، لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد. والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك، لأنه تطوع لهم "مقاماً محموداً" نصب على الظرف، أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً. أو ضمن يبعثك معنى يقيمك. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى أن يبعثك ذا مقام محمود. ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمد القائم فيه، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل: المراد الشفاعة، وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق: تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، ليس أحد إلا تحت لوائك. وعن

أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي" وعن حذيفة: يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: "لبيك وسعديك والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سيحانك رب البيت" قال: فهذا قوله "عسى أن يبعثك الله مقاماً محموداً".

"وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً".

قرئ مدخل ومخرج بالضم والفتح: بمعنى المصدر. ومعنى الفتح: أدخلني فأدخل مدخل صدق، أي: أدخلني القبر مدخل صدق: إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً، ملقى بالكرامة، آمناً من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث. وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة. وقيل: إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح، وإخراجه منها آمناً من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً. وقيل إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوة وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تفريط. وقيل: الطاعة. وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلا بيه من أمر ومكان "سلطاناً" حجة تنصرتني على من خالفني. أو ملكاً وعزاً قوياً ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه، فأجيب دعوته بقوله: "والله يعصمك من الناس" المائدة: 67، "فإن حزب الله هم الغالبون" المائدة: 56، "ليظهره على الدين كله" التوبة: 33، "ليستخلفنهم في الأرض" النور: 55، ووعداً ليعز عن ملك فارس والروم، فيجعله له. وعنه صلى الله عليه وسلم: أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال "انطلق فقد استعملتك على أهل الله" فكان شديداً على المريب، ليناً على المؤمن وقال: لا والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق. فقال أهل مكة: يا رسول الله، لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال صلى الله عليه وسلم: "إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة، فأخذ بملقة الباب فقلقلها قلقللاً شديداً حتى فتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرتة المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير".

"وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً".

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً صنماً صنم كل قوم بحياهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك، فأوحى الله إلى البيت: إني سأحدث لك نوبة جديدة، فأملأك خدوداً سجداً، يدفون إليك دفيف النسور، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها. لهم عجيج حولك بالتلبية.

ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ منحصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنماً صنماً وهو ينكت بالمنصورة في عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال: يا علي، ارم به، فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد صلى الله عليه وسلم.

وشكاية البيت والوحي إليه: تمثيل وتخيل "وزهق الباطل" ذهب وهلك، من قولهم: زهقت نفسه، إذا خرجت. والحق: الإسلام. والباطل: الشرك "كان زهوقاً" كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت. "ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً". "ونزل" قرئ بالتخفيف والتشديد "من القرآن" من للتبيين، كقوله: "من الأوثان" أو للتبعيض، أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيماناً، ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله" ولا يزداد به الكافرون "إلا خساراً" أي نقصاناً لتكذيبهم به وكفرهم، كقوله تعالى: "فزادهم رجساً إلى رجسهم" التوبة: 125. "وإذا أنعمنا على الإنسان اعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الضر كان يؤوساً، قل كل يعمل على شاكلته فربكم اعلم بمن هو أعتدى سبيلاً".

"وإذا أنعمنا على الإنسان" بالصحة والسعة "اعرضتم" عن ذكر الله، كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه "ونأى بجانبه" تأكيد للإعراض: لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين "وإذا مسه الضر" من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل "كان يؤساً" شديد اليأس من روح الله "إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون" وقرئ "ونأى بجانبه" بتقديم اللام على العين، كقوله راء في رأى ويجوز أن يكون من ناء بمعنى نهض "قل كل" أحد "يعمل على شاكلته" أي على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، من قولهم طريق ذو شواكل وهي الطرق التي تتشعب منه، والدليل عليه قوله: "فربكم اعلم بمن هو أعتدى سبيلاً" أي أسد مذهباً وطريقة. "يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً".

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان. سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله، أي مما استأثر بعلمه. وعن عبد الله بن بريدة: لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح. وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك. وقيل: جبريل عليه السلام. وقيل: القرآن و"من أمر ربي" أي من وحيه وكلامه، ليس من كلام البشر. بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة، فندموا على سؤالهم. "وما أوتيتم" الخطاب عام.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا: نحن محتصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك: ساعة تقول "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً" البقرة: 269، وساعة تقول هذا، فزلت: "ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام" لقمان: 27، وليس ما قالوه بلازم، لأن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة، فيوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه، وبالكثرة مضافاً إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها، إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة. وقيل: هو خطاب لليهود خاصة، لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة، وقد تلوت "ومن يؤت

الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً" البقرة: 269، فقليل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله. "ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً، إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً". "لنذهبن" جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على إن موطئة للقسم. والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب "ثم لا تجد لك" بعد الذهاب "به" من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً "إلا رحمة من ربك" إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تزييله وتخفيفه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما، وهما منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء الخفوظ. وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء. فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناءنا أبناءهم؟ فقال: يسري عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف ويتزع ما في القلوب.

"قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" لا يأتون" جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطئة، لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله:

يقول لا غائب ما لي ولا حرم

لأن الشرط وقع ماضياً، أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة، فيقال: الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه. وأما الخال الذي لا مجال فيه للقدرة، ولا مدخل لها فيه كثنائي القديم، فلا يقال للفاعل. قد عجز عنه، ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز. لأنه لا يوصف بالقدرة على الخال، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على الخال، فإن رأس ما لهم المكابرة وقلب الحقائق.

"ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً".

"ولقد صرفنا" ردنا وكرنا "من كل مثل" من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه. والكفور: الجحود. فإن قلت: كيف جاز "فأبى أكثر الناس إلا كفوراً" ولم يجز ضربت إلا زيداً؟ قلت: لأن أبي متأول بالنفي، كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفوراً.

"وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من خزف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً".

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبيّنات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعلّلون باقتراح الآيات: فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة، فقالوا: لن نؤمن لك حتى... وحتى "تفجر" تفتح. وقرئ تفجر بالتخفيف "من الأرض" يعنون أرض مكة "ينبوعاً" عيناً غزيرة من شأها أن تنبع بالماء لا تقطع: يفعل من نبع الماء، كيعبوب من عب الماء "كما زعمت" يعنون قول الله تعالى "إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء" سبأ: 9، وقرئ: كسفاً بسكون السين جمع كسفة، كسدرة وسدر وبفتحه "قبلاً" كقبلاً بما تقول شاهداً بصحته. والمعنى: أو تأتي بالله قبلاً، وبالملائكة قبلاً، كقوله:

.....كنت منه ووالدي

برياً.....

فإني وقّار بها لغريب

أو مقابلاً، كالعشير بمعنى المعاشر، ونحوه "لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا" الفرقان: 21، أو جماعة حالاً من الملائكة "من زخرف" من ذهب "في السماء" في معارج السماء، فحذف المضاف. يقال: رقى في السلم وفي الدرجة "لن نؤمن لريقك" ولن نؤمن لأجل رقيقك "حتى تنزل علينا كتاباً" من السماء فيه تصديقك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً. ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك منشور، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج، ولو جاءهم كل آية لقالوا: هذا سحر، كما قال عز رجل "ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس" الأنعام: 7، "ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون" الحجر: 14، وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم لم يكن إلى تبصرتهم سبيل "قل سبحان ربي" وقرئ: قال سبحان ربي أي قال الرسول. وسبحان ربي تعجب من اقتراحاتهم عليه "هل كنت إلا" رسولاً كسائر الرسل "بشراً" مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إلي، إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها علي.

"وما منع الناس أن يؤمنوا أن جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً".

أن الأولى نصب مفعول ثانٍ لمنع. والثانية رفع فاعل له. و"الهدى" الوحي. أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر. والهمزة في "أبعث الله" للإنكار، وما أنكروه فخلافة هو المنكر عند الله، لأن قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه "لو كان في الأرض ملائكة يمشون" على أقدامهم كما يمشي الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه "مطمئنين" ساكنين في الأرض قارين "لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً" يعلمهم الخير ويهديهم المارشد. فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم. فإن قلت: هل يجوز أن يكون بشراً وملكاً، منصوبين على

الحال من رسولاً؟ قلت: وجه حسن والمعنى له أجوب.

"قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً".

"شهيداً بيني وبينكم" على أي بلغت ما أرسلت به إليكم، وأنكم كذبتهم وعاندتم "إنه كان بعباده" المنذرين والمنذرين "خبيراً" عالماً بأحوالهم، فهو مجازيهم. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد للكفرة. وشهيداً: تمييز أو حال.

"من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً".

"وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ" ومن يوفقه ويلطف به "فهو المهتد" لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه "ومن يضل" ومن يخذل "فلن تجد لهم أولياء" أنصاراً "على وجوههم" كقوله: "يوم يسحبون في النار على وجوههم" القمر: 48.

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يمشون على وجوههم قال: "إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم" "عمياً وبكماً وصماً" كما كانوا في الدنيا، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، مهم في الآخرة كذلك: لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم. ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى. ويجوز أن يحشروا مؤقي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤون ويتكلمون "كلما خبت" كما أكلت جلودهم ولحومهم وأفتتها فسكن لهابها، بدلوا غيرها، فرجعت ملتهبة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفاء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتغنيها ثم يعيدها، ولا يزالون على الإفاء والإعادة، ليزيد ذلك في تحسره على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد، وقد دل على ذلك بقوله "ذلك جزاؤهم" إلى قوله "إنا لمبعوثون خلقاً جديداً".

"أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً".

فإن قلت: علام عطف قوله "وجعل لهم أجلاً"؟ قلت: على قوله "أولم يروا" لأن المعنى قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس، لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم كما قال: لأنتم أشد خلقاً أم السماء "وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه" وهو الموت أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحوداً. "قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً".

"لو" حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بد من فعل بعدها في "لو أنتم تملكون" وتقديره لو تملكون تملكون، فأضمر تملك إضماراً على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم، لسقوط ما يتصل به في اللفظ، فأنتم: فاعل الفعل المضمر، وتملكون: تفسيره وهذا هو الوجه الذي يقتضيه عله

الإعراب. فأما ما يقتضيه علم البيان، فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ونحوه قول حاتم:

لو ذات سوار لطمنتي

وقول المتلمس:

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي

وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر، برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر. ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم. وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأثمار وغيرها، وأنهم لو ملكوا، خزائن الأرزاق لبخلوا بها "فتوراً" ضيقاً بخيلاً. فإن قلت: هل يقدر "لأمسكتهم" مفعول؟ قلت: لا، لأن معناه: لبخلتم، من قولك للبخیل ممسك.

"ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً." عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل. وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات: مكان الحجر، والبحر، والطور. وعن عمر بن عبد العزيز أن سأل محمد بن كعب فذكر اللسان والطمس، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا، أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه، فإذا بيض مكسور بنصفين، وجوز مكسور، وفوم وحص وعدس، كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال: أن بعض اليهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: أوحى الله إلى موسى: أن قل لبني إسرائيل: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنا، ولا تقتلوا النفس التي حزم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا بيريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف، وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت: "فسأل بني إسرائيل" فقلنا له: سل بني إسرائيل، أي: سلهم من فرعون وقل له: أرسل معي بني إسرائيل. أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم. أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك. وتدل عليه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم: فسأل بني إسرائيل، على لفظ الماضي بغير همز، وهي لغة قريش وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه عن الآيات ليزدادوا يقيناً وطمأنينة قلب، لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت، كقول إبراهيم "ولكن ليطمئن قلبي". فإن قلت: بم تعلق "إذ جاءهم"؟ قلت: أما على الوجه الأول فبالقول الخذوف، أي فقلنا لهم سلهم حين جاءهم، أو بأسأل، في القراءة الثانية. وأما على الأخير فبآتيننا. أو بإضمام اذكر، أو بخبروك. ومعنى "إذ جاءهم" إذ جاء آباءهم "مسحوراً" سحرت فخلوط عقلك.

"قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً، فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً، وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيماً".

"لقد علمت" يا فرعون "ما أنزل هؤلاء" الآيات إلا الله عز وجل "بصائر" بينات مكشوفات، ولكنك معاند مكابر: ونحوه: "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً" النمل: 14، وقرأ علمت بالضم، على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر. وأن هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه، كأنه قال: إن ظننتي مسحوراً فأنا أظنك "مشبوراً" هالكاً، وظني أصح من ظنك؟ لأن له أماره ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها. وأما ظنك فكذب بحت، لأن قولك مع علمك بصحة أمري، إني لأظنك مسحوراً قول كذاب. وقال الفراء: مشبوراً مصروفاً عن الخير مطبوعاً على قلبك، من قولهم: ما ثبرك عن هذا؟ أي: ما منعك وصرفك؟ وقرأ أبي بن كعب وإن أخالك يا فرعون لمشبوراً على إن المخففة واللام الفارقة "فأراد" فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستتصال، فحاق به مكره بأن استغفره الله ياغراقه مع قبضه "اسكنوا الأرض" التي أراد فرعون أن يستفزكم منها "إذا جاء وعد الآخرة" يعني قيام الساعة "جننا بكم لفيماً" جمعاً مختلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم: واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

"وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً".

"وبالحق أنزلناه وبحق نزل" وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه بن السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخطيط الشياطين "وما أرسلناك" إلا لتبشرهم بالجنة وتذبرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء، من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

"وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً".

"وقرآناً" منصوب بفعل يفسره "فرقناه" وقرأ أبي فرقناه بالتشديد، أي: جعلنا نزوله مفزقاً منجماً وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ مشدداً وقال: لم يزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة، يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب "على مكث" بالفتح والضم: على مهل وتؤدة وثبت "ونزلناه تنزيلاً" على حسب الحوادث.

"قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويخرون للأذقان يكون يزيدهم خشوعاً".

"قل آمنوا به أو لا تؤمنوا" أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والإزدراء بشأنهم، وأن لا يكثر بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصدقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم، فإذا تلى عليهم خزوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزل وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: "إن كان وعد ربنا لمفعولاً....." ويزيدهم خشوعاً أي يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين فإن قلت: "إن الذين أوتوا العلم من

قبله" تعليل لماذا؟ قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله "آمنوا به أو لا تؤمنوا" وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتطبيب نفسه، كأنه قيل: تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأول: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم. فإن قلت: ما معنى الخرور للذن؟ قلت: السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذن وهو مجتمع اللحين، لأن الساجد أول ما يلقي به الأرض من وجهه الذن، فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خر على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خر لذقنه ولوجهه؟ قال:

فخر صريعاً للبين واللفم

قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به، لأن اللام للاختصاص. فإن قلت: لم كرر يخرون للأذقان؟ قلت: لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين. "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعون فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً".

عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فتزلت. والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء، وهو يتعدى إلى مفعولين، تقول: دعوته زيداً، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال: دعوت زيداً. والله والرحمن، المراد بهما الاسم لا المسمى. وأو للتخيير، فمعنى "ادعوا الله أو ادعوا الرحمن" سموا بهذا الاسم أو بهذا، واذكروا إما هذا وإما هذا. والتنوين في "أياً" عوض من المضاف إليه. وما صلة للإبهام المؤكد لما في أي، أي: أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم "فله الأسماء الحسنى" والضمير في "فله" ليس برافع إلى أحط الاسمين المذكورين، ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى، لأن التسمية للذات لا للاسم. والمعنى: أياماً تدعوا فهو حسن، فوضع موضعه قوله: "فله الأسماء الحسنى" لأنه إذا حسنت أسماءه كلها حسن هذان الاسمان: لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء. أنهما مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم. "بصلاتك" بقراءة صلاتك على حذف المضاف، لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين "ولا تخافت" حتى لا تسمع من خلفك "وابتغ بين" الجهر والمخافتة "سبيلاً" وسطاً. وروي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفع صوته ويقول: أزعج الشيطان وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً. وقيل: معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار، وقيل "بصلاتك" بدعائك. وذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله: "ادعوا ربكم تضرعاً وخفية" الأعراف: 55، وابتغاء السبيل: مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة "ولي من الذل" ناصر من الذل ومانع له منه لاعترازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته.

"قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيراً".
فإن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والدن بكلمة التحميد؟ قلت: لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية". رزقنا الله بفضل العليم وإحسانه الجسيم.

سورة الكهف

مكية وآياتها 110

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شديداً ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ما كثر فيهم أبداً، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، ما لهم به من علم ولا آياتهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذبا".

لكن الله عباده وفقهم كيف يشنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاحهم وفوزهم "ولم يجعل له عوجاً" ولم يجعل له شيئاً من العوج قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه. فإن قلت: بم انتصب "قيماً"؟ قلت: الأحسن أن ينتصب بمضمّر ولا يجعل حالاً من الكتاب، لأن قوله "ولم يجعل" معطوف على أنزل، فهو داخل في حيز الصلة، فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الدال ببعض الصلة، وتقديره: ولم يجعل له عوجاً جعله قيماً، لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة. فإن قلت: ما فائدة الجمع بين نفي العوج إثبات الاستقامة، وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ قلت: فائدته التأكيد، قرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح. وقيل: قيماً على سائر الكتب مصداقاً لها، شاهداً بصحتها. وقيل: قيماً بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع وقرئ قيماً أنذر متعدياً إلى مفعولين، كقوله "إنا أنذرناكم عذاباً قريباً" النبأ: 40، فاقصر على أحدهما، وأصله "لينذر" الذين كفروا "بأساً شديداً" والبأس من قوله "يعذاب بئس" الأعراف: 165، وقد يؤس العذاب ويؤس الرجل بأساً وبأساً "من لدنه" صادراً من عنده. وقرئ من لدنه بسكون الدال مع إثم الضمة وكسر النون "وبشّر" بالتخفيف والتثقل. فإن قلت: لم اقتصر على أحد مفعولي أنذر؟ قلت: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه، فوجب الاقتصار عليه. والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله "وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً" متعلقاً بالمنذرين من غير ذكر المنذر به، كما ذكر

المبشر به في قوله: "أن لهم أجراً حسناً" استغناء بتقدم ذكره. والأجر الحسن: الجنة "ما لهم به من علم" أي بالولد أو باتخاذ، يعني أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد استملتة آبائهم من الشيطان وتسويله. فإن قلت: اتخذ الله ولداً في نفسه محال، فكيف قيل: ما لهم به من علم؟ قلت: معناه ما لهم به من علم؟ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. قرئ كبرت كلمة وكلمة: بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ. وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة. و"تخرج من أفواههم" صفة للكلمة تفيد استعظماً لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوراً من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ كبرت بسكون الباء مع إشمام الضمة. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في كبرت؟ قلت: إلى قولهم "اتخذ الله ولداً" وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

"فلعلك باخع نفسك على أثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً".

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم. وقرئ باخع نفسك، على الأصل، وعلى الإضافة: أي قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمن قرأ إن لم يؤمنوا وللمضي فيمن قرأ أن لم يؤمنوا بمعنى: لأن لم يؤمنوا "بهذا الحديث" بالقرآن "أسفاً" مفعول له، أي: لفرط الحزن. ويجوز أن يكون حالاً والأسف: المبالغة في الحزن والغضب. يقال: رجل أسف وأسيف.

"إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جزراً، أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا، إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهياً لنا من أمرنا رشداً، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً".

"ما على الأرض" يعني ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها "لنبلوهم أيهم أحسن عملاً" وحسن العمل: الزهد فيها وترك الاغترار بها، ثم زهد في الميل إليها بقوله "وإنا لجاعلون ما عليها" من هذه الزينة "صعيداً جزراً" يعني مثل أرض بيضاء لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء معشبة، في إزالة بهجته، وإمالة حسنه، وإبطال ما به كان زينة: من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار، ونحو ذلك ذكر فن الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن، ثم قال "أم حسبت" يعني أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة. والكهف: الغار الواسع في الجبل "والرقيم" اسم كلبهم. قال أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف همد

وقيل: هو لوح من رصاص رقت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف. وقيل: إن الناس رقموا حديثهم نقرأ في الجبل. وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف. وقيل: الجبل. وقيل: قريتهم. وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين "كانوا" آية "عجبا" من آياتنا وصفاً بالمصدر، أو على: ذات عجب "من لدنك رحمة" أي رحمة من خزائن رحمتك، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء "وهياً لنا من أمرنا" الذي نحن عليه من مفارقة الكفار "رشدأ" حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشدأ كله، كقولك: رأيت منك أسداً "فصربنا على آذانهم" أي ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع، يعني: أمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه، فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته، يريدون: بنى عليها القبة "سنين عدداً" ذوات عدد، فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة، لأن الكثير قليل عنده، كقوله: "لم يلبثوا إلا ساعة من نهار" الأحقاف: 35، وقال الزجاج؟ إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد، وإذا كثر احتاج إلى أن يعد.

"ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً".

"أي" يتضمن معنى الاستفهام، فعلق عنه "لنعلم" فلم يعمل فيه. وقرئ ليعلم وهو معلق عنه أيضاً، لأن ارتفاعه بالابتداء لا يساند يعلم إليه وفاعل يعلم مضمون الجملة كما أنه مفعول نعلم "أي الحزبين" المختلفين منهم في مدة لبثهم، لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك، وذلك قوله "قال قاتل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم" الكهف: 19، وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم: هم الذين علموا أن لبثهم قد تجاوز أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم، و"أحصى" فعل ماض أي أيهم ضبط "أمداً" لأوقات لبثهم. فإن قلت: فما تقول فيمن جعله من أفعال التفضيل؟ قلت: ليس بالوجه السديد، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي مجرد ليس بقياس. ونحو أعدى من الحرب، وأفلس من ابن المدلق شاذ. والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟ ولأن "أمداً" لا يخلو: إما أن ينتصب بأفعل فأفعل لا يعمل. وإما أن ينصب بلبثوا، فلا يسد عليه المعنى. فإن زعمت أي أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى، كما أضمر في قوله:

وأضرب منا بالسيوف القوانسا

على: نضرب القوانس، فقد أبعدت المتناول وهو قريب، حيث أبيت أن يكون أحصى فعلاً، ثم رجعت مضطراً إلى تقديره وإضماره. فإن قلت: كيف جعل الله تعالى العلم بإحصاءهم المدة غرضاً في الضرب على آذانهم؟ قلت: الله عز وجل لم يزل عالماً بذلك، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم، ليزدادوا إيماناً واعتباراً، ويكون لطفاً لمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم.

"نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً".

"وزدناهم هدى" بالتوفيق والتثبيت "وربطنا على قلوبهم" وقوبناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام "إذ قاموا" بين يدي الجبار وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين عاثبهم على ترك عبادة الصنم "فقالوا ربنا رب السموات والأرض..... شَطَطًا" قولاً ذا شطط، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط: إذا بعد. ومنه أشط في السوم وفي غيره "هؤلاء" مبتدأ، و"قومنا" عطف بيان "واتخذوا" خبر وهو إخبار في معنى إنكار "لولا يأتون عليهم" هلا يأتون على عبادتهم، فحذف المضاف "بسلطان بين" وهو تبكيت، لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد، وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت "افترى على الله كذباً" بنسبة الشريك إليه.

"وإذ اعتزلتموهم ما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً". "وإذ اعتزلتموهم" خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم "ما يعبدون" نصب، عطف على الضمير، يعني: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم "إلا الله" يجوز أن يكون استثناء متصل، على ما روي: أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة. وأن يكون منقطعاً. وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتنة أنهم لم يعبدوا غير الله "مرتفقاً" قرئ بفتح الميم وكسرها وهو ما يرتفق به: أي ينتفع، إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوح يقينهم. وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبياً.

"وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً". "تزاور" أي تمايل، أصله تتزاور فخفض بإدغام التاء في الزاي أو حذفها. وقد قرئ بهما وقرئ تروز وتزواز بوزن تحم وتحمار، وكلها من الزور وهو الميل. ومنه زاره إذا مال إليه. والزور: الميل عن الصدق "ذات اليمين" جهة اليمين وحقيقتها. الجهة المسماة باليمين "تقرضهم" تقطعهم لا تقر بهم من معنى القطيعة والصرم. قال ذو الرمة:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالاً وعن أيمانهم الفوارس

"وهم في فجوة منه" وهم في متسع من الكهف. والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم. وقيل: في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار "ذلك من آيات الله" أي ما صنعه الله بهم من ازوار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آياته، يعني: أن ما كان في ذلك سمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم، اختصاصاً لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش، فهم في مقناة أبداً ومعنى "ذلك من آيات الله" أن شأهم وحديثهم من آيات الله "من يهد الله فهو المهتد" ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم، فلطف بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح، واهتدى إلى السعادة، ومن تعرض للخذلان، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله.

"وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً" "وتحسبهم" بكسر السين وفتحها: خطاب لكل أحد والأيقاظ: جمع يقظ، كأنكاد في نكد. قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً وقيل: لكثرة تقلبهم وقيل: لهم تقلبتان في السنة وقيل: تقلبة واحدة في يوم عاشوراء. وقرئ ويقلبهم بالياء والضمير لله تعالى. وقرئ وتقلبهم على المصدر منصوباً، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه "وتحسبهم أيقاظاً" كأنه قيل: وترى وتشاهد تقلبهم. وقرأ جعفر الصادق "وكلبهم" أي وصاحب كلبهم "باسط ذراعيه" حكاية حال ماضية، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى الماضي، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة، كغلام زيد، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية. والوصيد: الفناء، وقيل: العتية. وقيل: الباب وأنشد:

بأرض فضاء لا يسد وصيدها عليّ ومعروفي بها غير منكر

وقرئ "ولملت" بتشديد اللام للمبالغة. وقرئ بتخفيف الهمزة وقلبها ياء. و"رعباً" بالتخفيف والتثقيل، وهو الخوف الذي يربع الصدر أي يملؤه، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة. وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم. وقيل: لوحشة مكانهم. وعن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال: "لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً" فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم، فبعث ناساً وقال لهم: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم رجلاً فأحرقتهم. وقرئ: "لو اطلعت" بضم الواو. "وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قاتل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا بورككم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فبأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعروا بكم أحداً، إنهم إن ينظروا عليكم يرحمكم أو يعيدوكم إلى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدأ".

"وكذلك بعثناهم" وكما أثناهم تلك النومة كذلك بعثناهم، إذكارةً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به "قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم" جواب مبني على غالب الظن. وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وأنه لا يكون كذباً وإن جاز أن يكون خطأ "قالوا ربكم أعلم بما لبثتم" إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم، كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أن المدة متطوالة، وأن مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله. وروي أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. فإن قلت: كيف وصلوا قولهم "فابعثوا" بتذاكر حديث المدة؟ قلت: كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك، لا طريق لكم إلى علمه، فخذوا في شي آخر مما يهتمكم. والورق: الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة. ومنه الحديث.

أن عرفة أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذ أنفاً من ورق فأنتن، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفاً من ذهب. وقرئ: بورككم يسكون الرء والواو مفتوحة أو مكسورة. وقرأ ابن كثير بورككم بكسر الرء وإدغام

القاف في الكاف. وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حده. وقيل: المدينة طرسوس. قالوا: وتزودهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم: دليل على أن حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأي المتوكلين على الله، دون المتكلمين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات. ومنه قول عائشة رضي الله عنها لمن سأها عن محرم يشد عليه هميانه: أوثق عليك نفقتك. وما حكى عن بعض صعاليك العلماء أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله، وتعلم منه ذلك، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده: ما لهذا السفر إلا شيطان: شد الهميان، والتوكل على الرحمن "بينهم" أي أهلها، فحذف الأهل كما في قوله "واسأل القرية" يوسف: 82، "أزكى طعاماً" أحل وأطيب وأكثر وأرخص "وليتلطف" وليتكلف اللطف والنيقة فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن. أو في أمر التخفي حتى لا يعرف "ولا يشعرون بكم أحداً" يعني: ولا يفعلن ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بنا، فسمى ذلك إشعاراً منه بهم، لأنه سبب فيه الضمير في "إنهم" راجع إلى الأهل المقدر في "أيها" "يرجوكم" يقتلوكم أخبث القتلة وهي الرجم، وكانت عادتهم "أو يعيدوكم" أو يدخلوكم "في ملتهم" بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها. والعود في معنى الصيرورة أكثر شيء في كلامهم، يقولون: ما عدت أفعل كذا، يريدون ابتداء الفعل "ولن تفلحوا إذا أبداً" إن دخلتم في دينهم.

"وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً".

"وكذلك أعثرنا عليهم" وكما أثناهم وبعثناهم، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم "أن وعد الله حق" وهو البعث، لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث. و"إذ يتنازعون" متعلق بأعثرنا. أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد. وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، ليرتفع الخلاف، وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت "فقالوا" حين توفي الله أصحاب الكهف "ابنوا عليهم بنياناً" أي على باب كهفهم. لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربثهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخطيرة. "قال الذين غلبوا على أمرهم" من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم "لنتخذن" على باب الكهف "مسجداً" يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم. وقيل: إذ يتنازعون بينهم أمرهم أي: يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف، ويتكلمون في قصتهم وما أظهر الله من الآية فيهم. أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا، كيف يخفون مكانهم؟ وكيف يسدون الطريق إليهم، فقالوا: ابنوا على باب كهفهم بنياناً، روي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكروها على عبادتها، ومن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه، فأنطقه الله فقال: ما تريدون مني، أنا أحب أحياء الله، فناموا وأنا أحرسكم. وقيل: مروا براح معه كلب فتبعهم على دينهم، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون الله فيه، ثم

ضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن. وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد، وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به فم الكهف ليتخذة حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياح الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس أقموه بأنه وجد كترأ فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفي الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً "رهم أعلم بهم" من كلام المتنازعين كأنهم تذكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: رهم أعلم بهم. أو هو من كلام الله عز وجل رد لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب.

"سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدكم ما يعلمهم إلا قليلاً فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً".

"سيقولون" الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمؤمنين، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فأخبر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم، فتزلت إخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم، وأن المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من أولئك القليل. وروي أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقال السيد وكان يعقوبياً: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب وكان نستورياً: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فحقق الله قول المسلمين. وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لسان جبريل عليه السلام. وعن علي رضي الله عنه: هم سبعة نفر أسماءهم: يملخا، ومكشليتي، ومشلينيا: هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش، ودبرنوش، وشادنوش. وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع: الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس. واسم مدينتهم: أفسوس. واسم كلبهم: قطمير. فإن قلت: لم جاء بسين الاستقبال في الأول دون الآخرين؟ قلت: فيه وجهان: أن تدخل الآخرين في حكم السين، كما تقول: قد أكرم وأنعم، تريد معنى التوقع في الفعلين جميعاً، وأن تريد يفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له "رجماً بالغيب" رمية بالخبر الخفي وإتياناً به كقوله "ويقذفون بالغيب" سبأ: 53، أي يأتون به. أو وضع الرجم موضع الظن، فكانه قيل: ظناً بالغيب، لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، ألا ترى إلى قول زهير:

وما هو عنها بالحديث المرجم

أي المظنون. وقرئ ثلاث رابعهم يادغام الثاء في تاء التأنيث. و"ثلاثة" خبر مبتدأ محذوف، أي: هم ثلاثة. وكذلك "خمسة" و"سبعة" و"رابعهم كلبهم" جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك "سادسهم كلبهم"، و"ثامنهم كلبهم". فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأولين؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر. ومررت بزيد وفي يده سيف. ومنه قوله تعالى: "وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم" الحجر: 4، وفاندها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثمانهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجعوا بالظن كما غيرهم. والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله "رجماً بالغيب" وأتبع القول الثالث قوله "ما يعلمهم إلا قليل" وقال ابن عباس رضي الله عنه: حين وقعت الواو انقطعت العدة، أي: لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها. وثبت أنهم سبعة وثمانهم كلبهم على القطع والبتات. وقيل: إلا قليل من أهل الكتاب. والضمير في "سيقولون" على هذا لأهل الكتاب خاصة، أي: سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم، وأكثرهم على ظن وتخمين "فلا تمار فيهم" فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن نقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الرد عليهم، كما قال "وجادلهم بالتي هي أحسن" النحل: 125، "ولا تستفت" ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ما عنده، لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والجمالة، ولا سؤال مسترشد، لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

"ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً".

"ولا تقولن لشيء" ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه "إني فاعل ذلك" الشيء "غداً"، أي فيما يستقبل من الزمان. ولم يرد الغد خاصة "إلا أن يشاء الله" متعلق بالنهي لا بقوله: إني فاعل لأنه لو قال إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله، كان معناه: إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله، وذلك مما لا مدخل فيه للنهي، وتعلقه بالنهي على وجهين، أحدهما: ولا تقولن ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله، بأن يأذن لك فيه. والثاني: ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله، أي: إلا بمشيئة الله، وهو في موضع الحال. يعني: إلا ملتبساً بمشيئة الله قاتلاً: إن شاء الله وفيه وجه ثالث، وهو: أن يكون "أن يشاء الله" في معنى كلمة تأييد، كأنه قيل ولا تقولنه أبداً. ونحوه قوله "وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله" الأعراف: 89، لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله. وهذا نهي تأديب من الله لنيبه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين. فسألوه فقال: انتوني غداً أخبركم ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبه قريش "واذكر ربك" أي مشيئة ربك وقل: إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك. والمعنى: إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبعت عليها فتداركها بالذكر. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم تحت. وعن سعيد بن جبير: ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة. وعن طاوس: هو على ثنيه ما دام في مجلسه.

وعن الحسن نحوه. وعن عطاء: يستثني على مقدار حلب ناقة غزيرة. وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً. ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس رضي الله عنه في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه: فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالإيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامه ورضي عنه. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، تشديداً في البعث على الاهتمام بها. وقيل: واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به. وقيل: واذكره إذا اعتراك النسيان ليدركك المنسي، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. و"هذا" إشارة إلى نبا أصحاب الكهف. ومعناه: لعل الله يؤتيني من البيئات والحجج على أي نبي صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبا أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدل، والظاهر أن يكون المعنى: إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك. وذكر ربك عند نسيانه أن تقول: عسى ربي أن يهديني لشئ آخر يدل هذا المنسي أقرب منه "رشداً" وأدنى خيراً ومنفعة. ولعل النسيان كان خيرة، كقوله "أو نسها نات بخير منها" البقرة: 106.

"ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً".

"ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين" يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم هذه المدة، وهو بيان لما أجمل في قوله "فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً" ومعنى قوله: "قل الله أعلم بما لبثوا" أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم، والحق ما أخبرك الله به. وعن قتادة: أنه حكاية لكلام أهل الكتاب. و"قل الله أعلم" رد عليهم. وقال في حرف عبد الله: وقالوا لبثوا. وسنين: عطف بيان لثلاثمائة. وقرئ لثلاثمائة سنين، بالإضافة، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز، كقوله "بالأخسرين أعمالاً" الكهف: 103، وفي قراءة أبي ثلثمائة سنة "تسعاً" تسع سنين، لأن ما قبله يدل عليه. وقرأ الحسن تسعاً بالفتح، ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به، وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرهما كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر "ما لهم" الضمير لأهل السموات والأرض "من ولي" من متول لأموالهم "ولا يشرك في حكمه" في قضائه "أحداً" منهم. وقرأ الحسن: ولا تشرك، بالتاء والجزم على النهي.

"واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً".

كانوا يقولون له: انت بقرآن غير هذا أو بدله، ف قيل له "واتل ما أوحى إليك" من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك، أي: لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها، وإنما يقدر على ذلك هو وحده "وإذا بدلنا آية مكان آية" النحل: 101، "ولن تجد من دونه ملتحداً" ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

"واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا

تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً".

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نح هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح الضأن، وهم: صهيبي وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين، حتى نجالسك كما قال قوم نوح: "أنؤمن لك واتبعك الأردلون" الشعراء: 111، فترلت: "واصبر نفسك" واحبسها معهم وثبتها. قال أبو ذؤيب:

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسوا إذا نفس الجبان تطلع

"بالغداة والعشي" دائبين على الدعاء في كل وقت. وقيل: المراد صلاة الفجر والعصر. وقرئ: بالغداة وبالغداة أجود، لأن غدوة علم في كثر الاستعمال. وإدخال اللام على تأويل التنكير كما قال:

.....والزيد زيد المعارك

ونحوه قليل في كلامهم، يقال: عداه إذا جاوزه ومنه قولهم. عدا طوره. وجاءني القوم عدا زيدا. وإنما عدي بعن، لتضمين عدا معنى نبا وعلا، في قولك: نبت عنه عينه وعلت عنه عينه: إذا اقتحمته ولم تعلق به. فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عينك، أو لا تعل عينك عنهم؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معينين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عينك مجاوزتين إلى غيرهم؟ ونحوه قوله تعالى: "ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم" النساء: 2، أي ولا تضموها إليها أكلين لها. وقرئ "ولا تعد عينيك" ولا تعد عينيك من أعداء وعداه نقلاً بالهمزة وتثقيل الحشو. ومنه قوله:

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له

لأن معناه: فعد همك عما ترى. فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزدري بفقراء المؤمنين، وأن تنبو عينه عن رثائه زيههم طموحاً إلى زي الأغنياء وحسن شارقهم "تريد زينة الحياة الدنيا" في موضع الحال "من أغفلنا قلبه" من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان. أو وجدناه غافلاً عنه، كقولك: أجبنته وأفحمته وأبخلته، إذا وجدته كذلك. أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة، أي: لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان وقد أبطل الله توهم الحجرة بقوله "واتبع هواه" وقرئ غفلنا قلبه بإسناد الفعل إلى القلب على معنى: حسينا قلبه غافلين، من أغفلته إذا وجدته غافلاً "فرطاً" متقدماً للحق والصواب نابذاً له وراء ظهره من قولهم فرط متقدماً للخيل. "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً".

"وقل الحق من ربكم" الحق خبر مبتدأ محذوف. والمعنى: جاء الحق وزاغت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك. وجيء بلفظ الأمر والتخيير، لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء، فكانه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء بن التجدين. شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط وبيت مسردق: ذو سرادق وقيل: هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار. وقيل: حائط من نار يطيف بهم "يغاثوا بماء كالمهل" كقوله:

.....فاعتبروا بالصيلم

وفيه تمكّم. والمهل: ما أذيب من جواهر الأرض. وقيل: دردي الزيت "يشوي الوجوه" إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "هو كعكر الزيت، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه" بنس الشراب" ذلك "وساءت" النار "مرتفعاً" متكأ من المرفق، وهذا لمشكلة قوله "وحسنت مرتفعاً" الكهف: 31، وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء، إلا أن يكون من قوله:

إني أرقّت فبت الليل مرتفعاً كأن عيني فيها الصاب مذبوح

"إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً".

"أولئك" خبر إن و"إنا لا نضيع" اعتراض، ولك أن تجعل "إنا لا نضيع" و"أولئك" خبرين معاً. أو تجعل "أولئك" كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم. فإن قلت: إذا جعلت "إنا لا نضيع" خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: "من أحسن عملاً" و"آمنوا وعملوا الصالحات" ينتظمهما معنى واحد، فقام: "من أحسن" مقام الضمير. أو أردت: من أحسن عملاً منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء. والثانية للتبيين وتنكير "أساور" لإيهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس: وهو مارق من الديباج، وبين الإستبرق: وهو الغليظ منه، جمعاً بين النوعين وخص الاتكاء، لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرقتهم.

"واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً، كلتا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلاهما نهرًا، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً".

"واضرب لهم مثلاً رجلين" أي ومثل حال الكافرين والمؤمنين، بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا. وقيل: هما المذكوران في سورة والصافات في قوله "قال قائل منهم إني كان لي قرين" الصافات: 51، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطراها. فاشتري الكافر أرضاً بألف، فقال المؤمن: اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدق به. ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدق به. ثم تزوج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحرور. ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدن بألف، فتصدق به ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه، فتعرض له، فطرده ووبخه على التصديق بماله، وقيل: هما مثل لأخوين من بني مخزوم: مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد، وكان زوج أتم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد "جنتين من أعناب" بستانين من كروم "وحففناهما بنخل" وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين، وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم: أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة. يقال: حفوه، إذا أطافوا به: وحففته بهم. أي جعلتهم حافين حوله، وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولاً ثانياً، كقولك: غشيه، وغشيته به "وجعلنا بينهما زرعاً" جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه. ووصف

العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما وهو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به، وهو السيح بالنهر الجاري فيها. والأكل: الثمر. وقرئ بضم الكاف "لم تظلم" ولم تنقص. وآتت: حمل على اللفظ، لأن "كلتا" لفظه لفظ مفرد، ولو قيل: آتتا على المعنى، لجاز وقرئ وفجرنا على التخفيف وقرأ عبد الله كل الجنيتين آتتا أكله برد الضمير على كل "وكان له ثمر" أي أنواع من المال، من ثمر ماله إذا كثر. وعن مجاهد: الذهب والفضة، أي: كانت له إلى الجنيتين الموصوفتين الأموال الدثرة من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه، متمكناً من عمارة الأرض كيف شاء "وأعز نفراً" يعني أنصاراً وحشماً. وقيل: أولاداً ذكوراً، لأنهم ينفرون معه دون الإناث، يحاوره: يراجعه الكلام، من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحرار كلمة. "ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً".

يعني قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنيتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما ويفاخره بما ملك من المال دونه. فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التشية؟ قلت: معناه ودخل ما هو جنته ماله جنة غيرها، يعني أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنيتين ولا واحدة منهما "وهو ظالم لنفسه" وهو معجب بما أوتي مفتخر به كافر لنعمة ربه، معرض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته: لطول أمله واستيلاء الحرص عليه وتماذي غفلته واغتراره بالمهلة وإطراحه النظر في عواقب أمثاله. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه "ولئن رددت إلى ربي" إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا، تطمناً وتقياً على الله، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنيتين إلا لاستحقاقه واستنهاله، وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه، كقوله "إن لي عنده للحسنى" فصلت: 50، "لأوتين مالاً وولداً" مريم: 177. وقرئ: خيراً منهما رداً على الجنيتين "منقلباً" مرجعاً وعاقبة. وانتصابه على التمييز، أي: منقلب تلك، خير من منقلب هذه، لأنها فانية وتلك باقية.

"وقال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً". "خلقك من تراب" أي خلق أصلك، لأن خلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له "سواك" عدلك وكمملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث، كما يكون المكذب بالرسول صلى الله عليه وسلم كافراً.

"لكننا هو الله ربي ولا أشرك بري أحداً".

"لكننا هو الله ربي" أصله لكن أنا، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن، فتلاقت النون فكان الإدغام. ونحوه قول القائل:

وترمينني بالطرف أي أنت مذهب

وتقلينني لكن إياك لا أقلني

أي: لكن أنا لا أقليك وهو ضمير الشأن، والشأن الله ربي، والجملة خبر أنا، والراجع منها إليه ياء الضمير. وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعاً، وحسن ذلك وقوع الألف عوضاً من حذف الهمزة. وغيره لا يثبتها إلا في الوقف. وعن أبي عمرو أنه وقف بالهاء: لكنه. وقرأ لكن هو الله ربي بسكون النون وطرح أنا. وقرأ أبي بن كعب: لكن أنا على الأصل. وفي قراءة عبد الله لكن أنا لا إله إلا هو ربي. فإن قلت: هو استدراك لماذا؟ قلت: لقوله "أكفرت" قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب، لكن عمراً حاضر. "ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً، فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً".

"ما شاء الله" يجوز أن تكون "ما" موصولة مرفوعة اخل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ما شاء الله. أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف، بمعنى: أي شيء شاء الله كان. ونظيرها في حذف الجواب "لو" في قوله: "ولو أن قرأنا سيرت به الجبال" الرعد: 31، والمعنى: هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر ما شاء الله، اعترافاً بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله، وأن أمرها بيده: إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها، وقلت "لا قوة إلا بالله" إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده، إذ لا يقوى أحد في يده ولا في ملك يده إلا بالله تعالى. وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب، فيدخل من شاء. وكان إذا دخله ردد هذه الآية حتى يخرج. من قرأ "أقل" بالنصب فقد جعل أنا فصلاً، ومن رفع جعله مبتدأ وأقل خبره، والجملة مفعولاً ثانياً لترني. وفي قوله "ولداً" نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله "وأعز نفراً" الكهف: 34، والمعنى إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة "خيراً من جنتك" ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك. والحسبان: مصدر كالغفران والبطلان، بمعنى الحساب، أي: مقدراً قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتخريبها وقال الزجاج: عذاب حسبان، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك. وقيل حسباناً مرامي الواحدة حسبانة وهي الصواعق "صعيداً زلقاً" أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها زلقاً. و"غوراً" كلاهما وصف بالمصدر.

"وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً". "وأحيط" به عبارة عن إهلاكه. وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله تعالى "إلا أن يحاط بكم" يوسف: 66، ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعلياً عليهم. وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر، لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن، كني عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد، ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم "على ما أنفق فيها" أي أنفق في عمارتها "وهي خاوية على عروشها" يعني أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على

الأرض، وسقطت فوقها الكروم. قيل: أرسل الله عليها ناراً فأكلتها "يا ليتني" تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً على ما كان منه، ودخولاً في الإيمان. وقرئ: ولم يكن بالياء والتاء، وحمل "ينصرونه" على المعنى دون اللفظ، كقوله "فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يروهم" آل عمران: 113. فإن قلت: ما معنى قوله: "ينصرونه من دون الله" قلت: معناه يقدر على نصرته من دون الله، أي: هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استجابته أن يخذل "وما كان منتصراً" وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله. "هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً".

"الولاية" بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك، وقد قرئ بهما. والمعنى هنالك، أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصر لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه، تقريراً لقوله: "لم يكن له فئة ينصرونه من دون الله" الكهف: 43، أو: هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه. أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر. يعني أن قوله "يا ليتني لم أشرك بربي أحداً" الكهف: 42، كلمة ألجئ إليها فقهاها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله: "عسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء" الكهف: 40، ويعضده قوله "خير ثواباً وخير عقباً" أي لأوليائه وقيل "هنالك" إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله، كقوله "لمن الملك اليوم" غافر: 16، وقرئ: الحق بالرفع والجر صفة للولاية والله. وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد، كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، وهي قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم. وقرئ عقباً بضم القاف وسكونها، وعقبى على فعلى، وكلها بمعنى العاقبة.

"واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا".

"فاختلط به نبات الأرض" فالتف بسببه وتكاثر حتى خالط بعضه بعضاً. وقيل: نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روي ورف رفيفاً، وكان حق اللفظ على هذا التفسير: فاختلط بنبات الأرض. ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه. والهشيم: ما قشمت وتحطم، الواحدة هشيمة. وقرئ تذروه الرياح وعز ابن عباس: تذريه الرياح، من أذرى: شبه حال الدنيا في نضرتها ومهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء، بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن "وكان الله على كل شيء" من الإنشاء والإفناء "مقتدرًا". "المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً".

"والباقيات الصالحات" أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتبقى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا. وقيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله "خير عند ربك ثواباً" أي ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الأمل، لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب

الله، ويصيبه في الآخرة.

"ويوم نسير الجبال وترى الشمس بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً، وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعتم أن لن نجعل لكم موعداً".

قرئ: تسير من سيرت، ونسير من سيرنا وتسير من سارت، أي: تسير في الجو. أو يذهب بها، بأن تجعل هباءً منبثاً. وقرئ: وترى الأرض على البناء للمفعول "بارزة" ليس عليها ما يسترها مما كان عليها "وحشرناهم" وجمعناهم إلى الموقف. وقرئ: فلم نغادر بالنون والياء، يقال: غادره وأغدره إذا تركه. ومنه الغدر. ترك الوفاء. والغدير: ما غادره السيل. وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان "صفاً" مصطفىين ظاهرين، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً "لقد جئتمونا" أي قلنا لهم: لقد جئتمونا. وهذا المضمير هو عامل النصب في يوم نسير. ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر. والمعنى لقد بعثناكم كما أنشأناكم "أول مرة" وقيل: جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولاً، كقوله: "ولقد جئتمونا فرادى" الأنعام: 94. فإن قلت: لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك "موعداً" وقتاً لإنجاز ما وعدتم على السنة الأنبياء من البعث والنشور. ووضع الكتاب فترى الجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً".

"الكتاب" للجنس وهو صحف الأعمال "يا ويلتنا" ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الملوكات "صغيرة ولا كبيرة" هنة صغيرة ولا كبيرة، وهي عبارة عن الإحاطة، يعني: لا يترك شيئاً من المعاصي إلا أحصاه، أي: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطاني قليلاً ولا كثيراً؟ لأن الأشياء إنا صغار وإنا كبار. ويجوز أن يريد: وإنا كان عندهم صغائر وكبائر. وقيل: لم يجتنبوا الكبائر فكتبت عليهم الصغائر وهي المناقشة. وعن ابن عباس: الصغيرة التيسر، والكبيرة القهقهة. وعن سعيد بن جبير: الصغيرة المسيس، والكبيرة الزنا. وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر "إلا أحصاها" إلا ضبطها وحصرها "ووجدوا ما عملوا حاضراً" في الصحف عتيداً. أو جزاء عملوا "ولا يظلم ربك أحداً" فيكتب عليه ما لم يعمل. أو يزيد في عقاب المستحق، يعذبه بغير جرم، كما يزعم من ظلم الله في تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم.

"وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً، ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً".

"كان من الجن" كلام مستأنف جار مجرى التقليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأن قاتلاً قال: ما له لم يسجد؟ ف قيل: كان من الجن "فسق عن أمر ربه" والفاء للتسبيح أيضاً، جعل كونه من الجن سبباً في فسقه؟ لأنه لو كان ملكاً كسائرهم سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله، لأن الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس، كما قال: "لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون" الأنبياء: 7، وهذا الكلام المعترض تعمد من الله تعالى

لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم فما أبعد البون بين ما تعمدته الله، وبين قول من ضاده وزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة، فعصى، فلعن ومسح شيطانياً، ثم وركه على ابن عباس. ومعنى "ففسق عن أمر ربه" خرج عما أمره به ربه من السجود. قال:

فواسقاً عن قصدها جوائر

أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر ربه الذي هو قوله: "اسجدوا لآدم". "أفتتخذونه" الهمزة للإنكار والتعجب، كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه "وذريته أولياء من دوني" وتستبدلوهم بي، بئس البديل من الله إبليس لمن استبدله، فأطاعه بدل طاعته "ما أشهدتهم" وقرئ: ما أشهدناهم يعني: أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة، وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية، فنفي مشاركتهم في الإلهية بقوله: "ما أشهدتهم خلق السموات والأرض" لأعتضد بهم في خلقها "ولا خلق أنفسهم" أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: "ولا تقتلوا أنفسكم" النساء: 29، "وَمَا كُنْتُ متخذ المصلين" بمعنى وما كنت متخذهم "عضداً" أي أعواناً، فوضع المصلين موضع الضمير ذماً لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذوهم شركاء لي في العبادة؟ وقرئ: وما كنت بالفتح: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعترض بهم. وقرأ علي رضي الله عنه: وما كنت متخذاً المصلين بالتثنية على الأصل. وقرأ الحسن: عضداً بسكون الضاد، ونقل ضميتها إلى العين. وقرئ: عضداً بالفتح وسكون الضاد. وعضداً بضميتين وعضداً بفتحتين: جمع عاضد، كخادم وخدم، وراصد ورصد، ومن عضده: إذا قواه وأعانه.

"ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجابوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً".

"يقول" بالياء والنون. وإضافة الشركاء إليه على زعمهم: توبيخاً لهم وأراد الجن والموبق: المهلك، من وبق يبق وبوقاً، ووبق يوبق وبقاً: إذا هلك. وأوبقه غيره. ويجوز أن يكون مصدراً كالمرود والموعد، يعني: وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً. وعن الحسن "موبقاً" عداوة. والمعنى: عداوة هي في شدتها هلاك، كقوله لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً. وقال الفراء: البين الوصل أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة. ويجوز أن يريد الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم، وبالموبق: البرزخ البعيد، أي: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً تملك فيه الأشواط لفرط بعده، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان "فظنوا" فأيقنوا "مواقعوها" مخالطوها واقعون فيها "مصرفاً" معدلاً. قال:

أزهير هل عن شبيبة من مصرف

"ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً".

"أكثر شيء جدلاً" كثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد، خصومة ومماارة بالباطل. وانتصاب "جدلاً" على التمييز، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء. ونحوه: "إذا هو خصيم مبين"

النحل: 4،.

"وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً".
"أن" الأولى نصب. والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره "وما منع الناس" الإيمان والاستغفار "إلا" انتظار "أن" تأتيهم سنة الأولين "وهي الإهلاك" أو "انتظار" يأتيهم العذاب "يعني عذاب الآخرة" قبلاً عياناً. وقرئ: قبلاً أنواعاً: جمع قبيل. قبلاً بفتحيتين: مستقبلاً.

"وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذرهم هزواً".

"ليدحضوا" ليزيلوا ويبطالوا، من إحاض القدم وهو إزلاقها وإزالتها عن موطنها "وما أنذرهم" يجوز أن تكون "ما" موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفاً، أي: وما أنذروه من العذاب. أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم. وقرئ: "هزاً" بالسكون، أي اتخذوها موضع استهزاء. وجداهم: قولهم للرسول: "ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لآنزل ملائكة" المؤمنون: 24، وما أشبه ذلك.

"ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعوهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً".

"آيات ربه" بالقرآن، ولذلك رجع إليها الضمير مذكراً في قوله: "أن يفقهوه"، فأعرض عنها" فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر "ونسي" عاقبة إما "قدمت يداه" من الكفر والمعاصي، غير متفكر فيها ولا ناظر في أن المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء. ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، وجمع بعد الأفراد حملاً على لفظ ومعناه "فلن يهتدوا" فلا يكون منهم اهتداء البتة، كأنه محال منهم لشدة تصميمهم "أبداً" مدة التكليف كلها. و"إذا" جزاء وجواب، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: ما لي لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟ فقليل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا.

"وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً".
"الغفور" البليغ المغفرة "ذو الرحمة" الموصوف بالرحمة، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذه أهل مكة عاجلاً من غير إمهال مع إفراطهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم "بل لهم موعد" وهو يوم بدر "لن يجدوا من دونه موئلاً" منجى ولا ملجأ. يقال: وأل إذا نجا، و وأل إليه إذا لجأ إليه.
"وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً".

"وتلك القرى" يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم: أشار لهم إليها ليعتبروا. "تلك" مبتدأ، و"القرى" صفة: لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس، و"أهلكناهم" خبر. ويجوز أن يكون "وتلك القرى" نصباً بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير. والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم "لما ظلموا" مثل ظلم أهل مكة "وجعلنا لمهلكهم موعداً" وضرربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضرربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الإهلاك

ووقته. وقرئ: لمهلكهم بفتح الميم، واللام مفتوحة أو مكسورة، أي: هلاكهم أو وقت هلاكهم. والموعِد: وقت، أو مصدر.

"وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوقهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً، فلما جاوزا قال لفتهاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً، فوجدا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً".

"لفتهاه" لعبده. وفي الحديث:

"ليقل أحدكم فتاي وفتاتي، ولا يقل: عبدي وأمتي. وقيل: هو يوشع بن نون. وإنما قيل: فتهاه، لأنه كان يخدمه ويتبعه. وقيل: كان يأخذ منه العلم. فإن قلت: "لا أبرح" إن كان بمعنى لا أزول من برح المكان فقد دل على الإقامة لا على السفر. وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بد من الخبر، قلت: هو بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر، لأن الحال والكلام معاً يدلان عليه. أما الحال فلأنها كانت حال سفر. وأما الكلام فلأن قوله: "حتى أبلغ مجمع البحرين" غاية مضرورية وتستدعي ما هي غاية له، فلا بد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. ووجه آخر: وهو أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ على أن حتى أبلغ هو الخبر، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم، وهو وجه لطيف. ويجوز أن يكون: المعنى: لا أبرح ما أنا عليه، بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ، كما تقول: لا أبرح المكان. ومجمع البحرين: المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق. وقيل: طنجة. وقيل: أفريقية. ومن بدع التفاسير: أن البحرين موسى والخضر، لأنهما كانا بحرين في العلم. وقرئ: مجمع بكسر الميم، وهي في الشذوذ من يفعل، كالمشرق والمطلع من يفعل "أو أمضي حقباً" أو أسير زماناً طويلاً.

والحقب ثمانون سنة. وروي أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال: إنه اصطفى نبيكم وكلمه. فقالوا له: قد علمنا هذا، فأين الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى. وقيل: إن موسى سأل ربه: أي عبادك أحب إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأين عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فأين عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى. فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادلني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا رب، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكنل، فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتهاه: إذا فقدت الخوت فأخبرني، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الخوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الخوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأني بأرضنا السلام، فعرفه نفسه، فقال: يا موسى، أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا. فلما ركب السفينة جاء عصفور فوق

على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر "نسيا حوقهما" أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أماراة على الظفر بالطلبة. وقيل: نسي يوشع أن يقدمه، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء.

وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة. وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكنل، فترا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروي: أنهما أكلتا منها. وقيل: توشاً يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء "سرباً" أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب معجزة لموسى أو للخضر "فلما جاوزا" الموعد وهو الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه. ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وقيل: سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقي على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه. وقوله: "من سفرنا هذا" إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة. فإن قلت: كيف نسي يوشع ذلك، ومثله لا ينسى لكونه أماراة لهما على الطلبة التي تناهضا من أجلها لكونه معجزتين ثنتين: وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها وقيل: ما كانت إلا شق سمكة وقيام الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب منه؟ ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد، وحتى طلب موسى عليه السلام الحوت؟ قلت: قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضري بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب، واستأنس بإخوانه فأعان الإلف على قلة الاهتمام "أرأيت" بمعنى أخبرني. فإن قلت: ما وجه التثام هذا الكلام، فإن كل واحد من "أرأيت" و"إذ أوتينا" و"فإني نسيته الحوت" لا متعلق له؟ قلت: لما طلب موسى عليه السلام الحوت، ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك، كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أوتينا إلى الصخرة؟ فإنني نسيته الحوت، فحذف ذلك. وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت. و"أن اذكره" بدل من الهاء في "أنسانيه" أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان. وفي قراءة عبد الله: أن اذكره "عجباً" ثاني مفعولي اتخذ، مثل "سرباً" يعني: واتخذ سبيله سبيلاً عجباً، وهو كونه شبيه السرب أو قال: عجباً في آخر كلامه، تعجباً من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين، وقوله: "أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره" اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقيل: إن "عجباً" حكاية لتعجب موسى عليه السلام، وليس بذاك "ذلك" إشارة إلى اتخاذه سبيلاً، أي: ذلك الذي كنا نطلب، لأنه أماراة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام قرئ: نبغ لغير ياء في الوصل، وإثباتها أحسن، وهي قراءة أبي عمرو. وأما الوقف، فالأكثر فيه طرح الياء اتباعاً لخط المصحف "فارتداً" فرجعا في أدراجهما "قصصاً" يقصان قصصاً، أي: يتبعان آثارهما اتباعاً. أو فارتداً مقتضين "رحمة من عندنا" هي الوحي والنبوة "من لدنا" مما يختص بنا من العلم، وهو الإخبار عن الغيوب.

"قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً".

"رشداً" قرئ: بفتحيتين وبضمة وسكون أي: علماً ذا رشد، أرشد به في ديني. فإن قلت: أما دلت حاجته إلى التعلم

من آخر في عهده أنه كما قيل موسى بن ميثا، لا موسى بن عمران لأن النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؟ قلت: لا غصاصة بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله: وإنما يغض منه أن يأخذه ممن دونه. وعن سعيد ابن جبير أنه قال لابن عباس: إن نوحاً ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى، وأن موسى هو موسى بن ميثا، فقال: كذب عدو الله.

"قال إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً".

نفى استطاعة الصبر على وجه التأكيد، كأنهما مما لا يصح ولا يستقيم، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير. والرجل الصالح فكيف إذا كان نبياً لا يتمالك أن يشتمز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار.

"و"خبراً" تمييز، أي: لم يحط به خبرك أو لأن لم تحط به بمعنى لم تجرب، فنصبه نصب المصدر.

"قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً".

"ولا أعصي" في محل النصب عطفًا على "صابراً" أي: ستجدني صابراً وغير عاص. أو لا في محل، عطفًا على ستجدني. رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، وإن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه، بريء من أن يباشر ما فيه غميرة في الدين، وأنه لا بد لما يستسمح ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم.

"قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً".

قريء: فلا تسألني بالنون الثقيلة، يعني: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت وأنكرت في نفسك أن لا تفتأني بالسؤال، ولا تراجعني فيه، حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع.

"فانطلقا حتى إذا ركبنا في السفينة خرقتها قال أخرجتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً".

"فانطلقا" على ساحل البحر يطلبان السفينة، فلما ركبنا قال أهلها: هما من اللصوص، وأمروهما بالخروج، فقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء. وقيل: عرفوا الخضر فحملوها بغير نول، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ويقول: "أخرجتها لتغرق أهلها" وقرئ: لتغرق بالتشديد وليغرق أهلها من غرق وأهلها مرفوع "جئت شيئاً إمرأ" أتيت شيئاً عظيماً، من أمر الأمر: إذا عظم، قال:

داهية دهياء إذا إمرأ .

"قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً".

"بما نسيت" بالذي نسيت، أو بشيء نسيت، أو بنسياني: أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخدة على الناسي. أو أخرج

الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسي ليبسط عذره في الإنكار وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب، مع التوصل إلى الغرض، كقول إبراهيم: هذه أختي، وإني سقيم. أو أراد بالنسيان: الترك، أي: لا تلا تأخذني بما تركت من وصيتك أول مرة. يقال: رهقه إذا غشيه، وأرهقه إياه. أي: ولا تغشني "عسراً" من أمري، وهو اتباعه إياه، يعني: ولا تعسر علي متابعتك، ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة. وقرئ: عُسراً بضمتين.

"فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً".

"فقتله" قيل: كان قتله قتل عنقه. وقيل: ضرب برأسه الحائط، وعن سعيد بن جبير: أضجعه ثم ذبحه بالسكين. فإن قلت: لم قيل "حتى إذا ركباً في السفينة خرقها" بغير فاء و"حتى إذا لقيا غلاماً فقتله" قلت: جعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه، والجزء "قال أقتلت". فإن قلت: فلم خولف بينهما؟ قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. وقرئ: زاكية وزكية، وهي الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث "بغير نفس" يعني لم تقتل نفساً فيقتص منها. وعن ابن عباس: أن نجدة الحروري كتب إليه: كيف جاز قتله، وقد فهمي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان؟ فكتب إليه: إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل "نكراً". وقرئ: بضمتين وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. وقيل: معناه جئت شيئاً أنكر من الأول، لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد، وهذا لا سبيل إلى تداركه. فإن قلت: ما معنى زيادة "لك"؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

"قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدي عذراً"

"بعدها" بعد هذه الكرة أو المسألة "فلا تصاحبني" فلا تقاربني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وقرئ: فلا تصاحبني فلا تكن صاحبي. وقرئ: فلا تصاحبني أي فلا تصاحبني إياك ولا تجعلني صاحبك "من لدي عذراً" قد أعذرت. وقرئ: لدي بتخفيف النون ولدي بسكون الدال وكسر النون، كقولهم في عضد: عضد. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إرحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك" وقال: "رحمة الله علينا وعلى أخي موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب".

"فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجداً فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجراً".

"أهل قرية" هي إنطاكية. وقيل: الأبله، وهي أبعد أرض الله من السماء "أن يضيفوهما". وقرئ: يضيفوهما يقال: ضافه إذا كان له ضيفاً. وحقيقته: مال إليه، من ضاف السهم عن الغرض، ونظيره: زاره من الزورار. وأضافه وضيفه: أنزله وجعله ضيفه وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "كانوا أهل قرية لناماً". وقيل: شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه "يريد أن ينقض" استعبرت الإرادة للمدانة والمشاركة، كما استعبر بهم والعزم لذلك. قال الراعي:

في مهمه قلقت به هاماتها

قلق الفؤوس إذا أردن نصولاً "

وقال:

يريد الرمح صدر أبي براء

ويعدل عن دماء بني عقيل

وقال حسان:

إن دهرًا يلف شملي بجمل

لزمان يهم بالإحسان

وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وطلب أن يطفأ. وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعار للجماذير ولما لا يعقل، فما بال الإرادة؟ قال:

إذا قالت الأتساع للبطن الحق

تقول سني للنواة ظني

لا ينطق اللهو حتى ينطق العود

وشكا إلي بعبرة وتحمم

فإن يكن ظني صادقاً وهو صادقي

"ولما سكت عن موسى الغضب" الأعراف: 154،:

تمرد مارد وعز الأبلق

ولبعضهم:

يأبى على أجفانه إغفاءه

هم إذا انقاد الهموم تمردا

أبت الروادف والثدي لقمصها

مس البطون وأن تمس ظهورا

"قالتا أتينا طائعين" فصلت: 11، ولقد بلغني أن بعض الخرفين لكلام الله تعالى ممن لا يعلم، كان يجعل الضمير للخصم، لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة، فتمحل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز. وانقض: إذا أسرع سقوطه، من انقضا الطائر وهو انفعل، مطاوع قضضته. وقيل: افعل من النقض، كأجر من الحمرة. وقرئ: أن ينقض من النقض، وأن ينقص من انقاصت السن إذا انشقت طولاً، قال ذو الرقة:

.....منقاص ومنكثب

بالصاد غير معجمة "فأقامة" قيل: أقامه بيده. وقيل: مسحه بيده فقام واستوى. وقيل: أقامه بعمود عمده به. وقيل: نقضه وبناه. وقيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع، كانت الحال حال اضطراب وافتقار إلى المطعم، ولقد لزمتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة، فلم يجدوا مواسياً، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن "قال لو شئت لتخذن عليه أجراً" وطلبت على عملك جعلاً حتى ننتعش ونستدفع به

الضرورة وقرئ: لتخذت والتاء في تحذ، أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه، كاتبع من تبع، وليس من الأخذ في شيء.

"قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً".

فإن قلت: "هذا" إشارة إلى ماذا؟ قلت: قد تصور فراق بينهما عند حلول ميعاد على ما قال موسى عليه السلام: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه، كما تقول: هذا أخوك، فلا يكون هذا إشارة إلى غير الأخ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث، أي: هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل هذا فراق بيني وبينك. وقد قرأ به ابن أبي عبلة، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

"أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا".

"لمساكين" قيل كانت لعشرة إخوة، خمسة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر "وراءهم" أمامهم، كقوله تعالى: "من ورائهم برزخ" المؤمنون: 100، وقيل: خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره، فأعلم الله به الخضر وهو جلندي. فإن قلت: قوله: "فأردت أن أعيها" مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب، فلم قدم عليه؟ قلت: النية به التأخير، وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين، فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم. وقيل في قراءة أبي وعبد الله: كل سفينة صالحة.

"وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكوة وأقرب رحماً، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كثر لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربهما أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً".

وقرأ الجحدري: "وكان أبواه مؤمنان على أن كان فيه ضمير الشأن" فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً" فحفظنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغياناً عليهما، وكفراً لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه، ويلحق بهما شراً وبلاء، أو يقرن بإيماهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر. أو يعديهما بدائه ويضلهم بضلاله فيرتدا بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان وإنما خشي الخضر منه ذلك، لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلععه على سر أمره. وأمره إياه بقتله كاحترامه لمفسدة عرفها في حياته. وفي قراءة أبي: فخاف ربك والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره. ويجوز أن يكون قوله "فخشينا" حكاية لقول الله تعالى، بمعنى: فكرهنا، كقوله "لأهب لك" مريم: 19.

وقرئ: يبدلهما بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة والعطف. وروي أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي، فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم. وقيل ولدت سبعين نبياً. وقيل: أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهم. قيل اسما الغلامين: أصرم، وصريم. والغلام المقتول: اسمه الحسين. واختلف في الكثر، فقيل: مال مدفون من ذهب وفضة. وقيل: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل. وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقيل: صحف فيها علم. والظاهر لإطلاقه: أنه مال. وعن قتادة: أحل الكثر لمن قبلنا وحرّم علينا، وحرمت الغنيمة

عليهم وأحلت لنا: أراد قوله تعالى: "والذين يكتزون الذهب والفضة التوبة: 34، "كان أبوهما صالحاً" اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما. وعن جعفر بن محمد الصادق: كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظ فيه سبعة آباء. وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما. قال: فأبي وجدي خير منه. فقال: قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون "رحمة" مفعول له. أو مصدر منصوب بأراد ربك، لأنه في معنى رحهما "وما فعلته" وما فعلت ما رأيت "عن أمري" عن اجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله.

"ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً، إنا مكننا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً، فاتبع سبباً، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمأة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسراً".

ذو القرنين: هو الإسكندر الذي ملك الدنيا. قيل: ملكها مؤمنان: ذو القرنين، وسليمان. وكافران: نمرود، وبختنصر، وكان بعد نمرود. واختلف فيه فقيل: كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه. وقيل: نبياً. وقيل: ملكاً من الملائكة. وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهم غفرأ ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتهم بأسماء الملائكة، وعن علي رضي الله عنه: سخر له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له النور وسئل عنه فقال: أحبه الله فأحبه. وسأله ابن الكوا: ما ذو القرنين؟ أملك أم نبي؟ فقال: ليس بملك ولا نبي، ولكن كان عبداً صالحاً، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله فسمي ذو القرنين وفيكم مثله. قيل: كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونهم فيحييه الله تعالى. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا يعني جانبيها شرقها وغربها".

وقيل: كان له قرنان، أي صغيرتان. وقيل: انقضى في وقته قرنان من الناس. وعن وهب: لأنه ملك الروم وفارس. وروي: الروم والترك. وعنه كانت صفحتا رأسه من نحاس. وقيل: كان لتاجه قرنان. وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنين. ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره. والسائلون: هم اليهود سألوهم على جهة الامتحان. وقيل: سأله أبو جهل وأشياعه، والخطاب في "عليكم" لأحد الفريقين "من كل شيء" أي من أسباب كل شيء، أراد من أغراضه ومقاصده في ملكه "سبباً" طريقاً موصلاً إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب "فاتبع سبباً" يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق، فاتبع سبباً، وأراد بلوغ السدين فاتبع سبباً. وقرئ: فاتبع قرئ: حمأة من حمت البئر إذا صار فيها الحمأة. وحامية بمعنى حارة. وعن أبي ذر: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجمل، فرأى الشمس حين غابت فقال: "يا أبا ذر، أتدري أين تغرب هذه؟" فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها تغرب في عين حامية" وهي قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عمر وابن عمرو والحسن. وقرأ ابن عباس: حمأة.

وكان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: حامية فقال ابن عباس: حمأة. فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجهه إلى كعب الأحبار. كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطن، كذلك نجده في التوراة. وروي: في ثأط، فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع:

فرأى مغيب الشمس عند مآبها في عين ذي خلب وثأط حرمه

أي في عين ماء ذي طين وحماً أسود، ولا تنافي بين الحمأة والحامية، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً. كانوا كفرة فخير الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم فقال: أما من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك: فذلك هو المعذب في الدارين "وأما من آمن وعمل" ما يقتضيه الإيمان "فله جزاء الحسنى" وقيل: خيره بين القتل والأسر، وسماه إحساناً في مقابلة القتل "فله جزاء الحسنى" فله أن يجازي المثوبة الحسنى. أو فله جزاء الفعل الحسنى التي هي كلمة الشهادة. وقرئ: فله جزاء الحسنى أي: فله الفعل الحسنى جزاء. وعن قتادة: كان يطبخ من كفر في القدور، وهو العذاب النكر. ومن آمن أعطاه وكساه "من أمرنا يسراً" أي لا نأمره بالصعب الشاق، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك، وتقديره: ذا يسر، كقوله: "قولاً ميسوراً" الإسراء: 28، وقرئ: يسراً بضميتين. "ثم اتبع سبباً، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً، كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً".

وقرئ مطلع اللام وهو مصدر. والمعنى: بلغ مكان مطلع الشمس، كقوله:

كأن مجر الرامسات ذيولها

يريد: كأن آثار مجر الرامسات "على قوم" قيل: هم الزنج. والستر: الأبنية، وعن كعب: أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوها. فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معاشهم، وعن بعضهم: خرجت حتى جاوزت الصين، فسألت عن هؤلاء فقليل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى، ومعني صاحب يعرف لسانهم فقالوا له: جئنا ننظر كيف تطلع الشمس؟ قال: فينا نحن كذلك إذ سمعنا كهينة الصلصلة فغشي علي، ثم أفقت وهم يمسخوني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهينة الزيت، فأدخلوها سرباً لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم. وقيل: الستر اللباس. وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض "كذلك" أي أمر ذي القرنين كذلك، أي كما وصفناه تعظيماً لأمره "قد أحطنا بما لدنه" من الجنود والآلات وأسباب الملك "خبراً" تكثيراً لذلك. وقيل: لم نجعل لهم من دونها ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس، والثياب من كل صنف. وقيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك، أي: كما بلغ مغربها. وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم، يعني أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر، وإحسانه إلى من آمن منهم.

"ثم اتبع سبباً، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً".

"بين السدين" بين الجبلين وهما جبالان سد ذو القرنين مما بينهما. قرئ: بالضم والفتح. وقيل: ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح؛ لأن السد بالضم فعل بمعنى مفعول، أي: هو مما فعله الله تعالى وخلق. والسد بالفتح: مصدر حدث يحدثه الناس. وانتصب "بين" على أنه مفعول به مبلوغ، كما انجر على الإضافة في قوله: "هذا فراق بيني وبينك" الكهف: 78، وكما ارتفع في قوله: "لقد تقطع بينكم" الأنعام: 94، لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً، وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق "من دونهما قوماً" هم الترك "لا يكادون يفقهون قولاً" لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم وقرئ: يفقهون أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه، لأن لغتهم غريبة مجهولة.

"قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً".

"يأجوج ومأجوج" اسمان أعجميان بدليل منع الصرف. وقرئنا: مهموزين. وقرأ رؤية: أجوج ومأجوج، وهما من ولد يافث. وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجبل والديلم. "مفسدون في الأرض" قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً وأذى شديداً.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم في صفتهم: "لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح". وقيل: هم على صنفين، طوال مفروط الطول، وقصار مفروط القصر. وقرئ: خرجاً وخرجا أي جعلاً نخرجه من أموالنا: ونظيرهما: النول والنوال. وقرئ: سدا وسدا بالفتح والضم.

"قال ما مكني فيه ربي خير فأعيني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً، أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا فيه حتى إذا جعله ناراً قال أتوني أفرغ عليه قطراً، فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً".

"ما مكني فيه ربي خير" ما جعلني فيه مكيناً من كثرة المال واليسار، خير مما تبذلون لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه، كما قال سليمان صلوات الله عليه: "فما آتاني الله خير مما آتاكم" النمل: 36. قرئ: بالإدغام وبفكه. "فأعيني بقوة" بفعله وصناع يحسنون البناء والعمل، وبالآلات "ردماً" حاجزاً حصيناً موثقاً. والردم أكبر من السد، من قولهم: ثوب مردم، رقاع فوق رقاع. وقيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد، بينهما الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار، صب النحاس المذاب على الحديد اغمي فاختلط والتصق ببعضه ببعض وصار جبلاً صلباً. وقيل: بعد ما بين السدين مائة فرسخ. وقرئ: سوى، وسوى. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن رجلاً أخبره به فقال: كيف رأيته؟ قال كالبرد الحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال: قد رأيته. والصدفان بفتحيتين: جانباً الجبلين، لأنهما يتصادقان أي: يتقابلان، وقرئ: الصدفين بضميتين. والصدفين بضمه وسكون. الصدفين بفتحة وضمه. والقطر، النحاس المذاب لأنه يقطر و"قطراً" منصوب بأفرغ وتقديره أتوني قطراً أفرغ عليه قطراً فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وقرئ: قال اتوني أي جيتوني "فما استطاعوا" بجذب التاء للخفة، لأن التاء قريية المخرج من

الطاء. وقرئ: فما اصطاعوا بقلب السين صاداً. وأما من قرأ بإدغام التاء في الطاء، فملاق بين ساكنين على غير الحد "أن يظهروا" أي يعلوه، أي: لا حيلة لهم فيه من صعود. لارتفاعه وانغلاسه، ولا نقب لصلابته وثخانته. "قال هذا من رحمة ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً".

"هذا" إشارة إلى السد أي: هذا السد نعمة من الله و"رحمة" على عباده. أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته "إذا جاء وعد ربي" يعني فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي جعل السد "دكاء" أي مدكوكاً مبسوطاً مستوي بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك. ومنه: الجمل الأدك: المنبسط السنام. وقرئ: دكاء بالمد: أي أرضاً مستوية "وكان وعد ربي حقاً" آخر حكاية قول ذي القرنين.

"وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا".

"وتركنا" وجعلنا "بعضهم" بعض الخلق "يموج في بعض" أي يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون من وراء السد مزدحمين في البلاد. وروي: يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدر أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفاً في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون.

"وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً".

"وعرضنا جهنم" وبرزناها لهم فرأوها وشاهدوها "عن ذكري" عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم. أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها، ونحوه "صم بكم عمي" البقرة: 17 - 18، "وكانوا لا يستطيعون سمعاً" يعني وكانوا صماً عنه، إلا أنه أبلغ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة لهم للسمع.

"أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً".

"من دوني أولياء" هم الملائكة، يعني: أنهم لا يكونون لهم أولياء، كما حكى عنهم "سبحانك أنت ولينا من دونهم" سبأ: 41. وقرأ ابن مسعود: أظن الذين كفروا، وقراءة علي رضي الله عنه أفحسب الذين كفروا، أي: أفكافهم ومحسبهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر. أو على الفعل والفاعل؟ لأن اسم الفاعل إذا اعتمد على همزة ساوى الفعل في العمل، كقولك: أقاتم الزيدان. والمعنى أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا. وهي قراءة محكمة جيدة التزل: ما يقام للتزل وهو الضيف، ونحوه "فبشرهم بعذاب أليم" آل عمران: 21.

"قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون صنعا، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً".

"ضل سعيهم" ضاع وبطل وهم الرهبان. وعن علي رضي الله عنه، كقوله: "عاملة ناصبة" الغاشية: 3، وعن مجاهد: أهل الكتاب. وعن علي رضي الله عنه: أن ابن الكوا سأله عنهم؟ فقال: منهم أهل حروراء. وعن أبي سعيد الخدري: يأتي ناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم في العظم كجبال قمامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً "فلا نقيم لهم يوم

القيامة وزناً" فتزدرى بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار. وقيل: لا يقام لهم ميزان، لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنة والسيئات من الموحدين. وقرئ: فلا يقيم بالياء. فإن قلت: الذين ضل سعيهم في أي محل هو؟ قلت: الأوجه أن يكون في محل الرفع، على: هم الذين ضل سعيهم؟ لأنه جواب عن السؤال. ويجوز أن يكون نصباً على الذم، أو جر على البدل "جهنم" عطف بيان لقوله: "جزاؤهم".

"إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً، خالدون فيها لا يغنون عنها حولاً".

الحول: التحول. يقال: حال من مكانه حولاً، كقولك: عادي جهاً عوداً، يعني: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيتهم. وهذه غاية الوصف، لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامع الطرف إلى أرفع منه. ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيده الخلود.

"قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً".

المداد: اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به السراج من السليط. ويقال: السداد مداد الأرض. والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها، والمراد بالبحر الجنس "لنفد البحر قبل أن تنفذ" الكلمات "ولو جئنا" بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً. والكلمات غير نافذة. و"مداداً" تمييز، كقولك: لي مثله رجلاً. والمدد مثل المداد، وهو ما يمد به. وعن ابن عباس رضي الله عنه: بمثله مداداً. وقرأ الأعرج: مدداً، بكسر الميم جمع مدة، وهي ما يستمده الكاتب فيكتب به. وقرئ: ينفدا بالياء. وقيل: قال حيي بن أخطب: في كتابكم "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً" البقرة: 269، ثم تفرعون: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" الإسراء: 185 فتزلت، يعني: أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً".

"فمن كان يرجو لقاء ربه" فكن كان يؤمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول. وقد فسرنا اللقاء. أو: أفمن كان يخاف سوء لقائه. والمراد بالنهي عن الإشراف بالعبادة: أن لا يراني بعمله، وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره. ونزلت في جندب بن زهير، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إني أعمل العمل لله فإذا أطلع عليه سرتي، فقال: "إن الله لا يقبل ما شورك فيه".

وروي أنه قال: "لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية" وذلك إذا قصد أن يقتدى به. وعنه صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الشرك الأصغر" قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: "الرياء" وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء" وعنه صلى الله عليه وسلم: "من قرأ عند مضجعه: 'قل إنما أنا بشر مثلكم' كان له من مضجعه نوراً يتلأل إلى مكة، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، وإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلأل من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ" والله أعلم.